بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي): الأمين الصادق الأمين محمد .... **كلية** : الدعوة وأصول الدين ...**قسم** : الكتاب والسنة .

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الدكتوراه ... **في تخصص** : الكتاب والسنة ....

عنوان الأطروحة : ((الثبات على دين الله وأثره في حياة المسلم في ضوء الكتاب والسنة)) ....

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

فبناء على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه - والتي تمت مناقشتها بتاريخ : ٣ / ٣ / ١٤٢٣هـ - بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشرف :
الاسم : د/ أمين محمد عطية باشا .
التوقيع : ....

المناقش الداخلي :
الاسم : د/ محمد عبد المولى جمعة
التوقيع : ....

المناقش الخارجي :
الاسم : د/ فهد عبد الرحمن الرومي
التوقيع : ....

يعتمد

رئيس قسم : الكتاب والسنة

الاسم : د/ مطر بن أحمد الزهراني

التوقيع : ....

٢١/٣/١٤٢٣هـ

المملكة العربيّة السّعودية
وزارة التّعليم العالي
جامعة أمّ القرى
كلّية الدّعوة وأصول الدّين
قسم الكتاب والسّنّة



الثّبات على دين الله وأثره في حياة المسلم في ضوء الكتاب والسّنّة

رسالة مقدّمة لنيل درجة الدّكتوراه في الكتاب والسّنّة

تأليف الطّالب
الأمين الصّادق الأمين

إشراف الأستاذ الدّكتور
محمّد رياض بن سيّد أحمد قناوي

المجلد الأوّل

١٤٢٢هـ - ١٤٢٣هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٢ ﴾

{آل عمران: ١٠٢}

عَنْ النَّواسِ بنِ سَمْعَان الكِلابي ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : " مَا مِنْ قَلْبٍ إلاّ بَينَ أصْبَعَين مِنْ أصَابعِ الرَّحْمَنِ إنْ شَاءَ أقَامَهُ وَإنْ شَاءَ أزَاغَهُ " . وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ : اللّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ القُلوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلى دِينِكَ " .

ملخّص الرّسالة

الحمد لله ربّ العالمين ، والصّلاة والسّلام على رسوله الأمين .

هذا بحث يتعلّق بالتّفسير الموضوعي . وهو يتحدّث عن الثّبات على دين الله الّذي يحتاج له كلّ مسلم في كلّ حين ووقت ، ولكن يزداد أحتياجه إليه في سبعة مواطن . ضمّنت سبعة أبواب ، ولخّصت في الآتي :

الفتن مزلق عظيم ، لا ينجو منها إلاّ من ثبت . إلاّ أنّ الالتجاء إلى الله ، والاستعانة به في دفع شرّها ، وقوّة الإيمان ، وسلامة القلب ، والصّبر ، ومبادرة الطّاعات ، والهرب والتّحرّز منها ، واجتنابها ، وعدم التّعلّق بشيء منها ، واعتزال أهلها من أعظم عوامل الثّبات عند حلولها .

الابتلاء يمحّص قلوب المؤمنين فيثبت عنده الصّادق ويسقط الكاذب . ويكون ثبات المؤمن عند الابتلاء بالتّكليف بامتثال أمر الله ورسوله ﷺ . وعند النّعم بشكرها ، وإدامة تذكّرها ، والصّبر على أداء حقّ الله فيها ، وعدم الرّكون إليها والاغترار بها والوصول إليها بالسّبل المحرّمة . وعند المصائب بملاحظة حسن جزائها في الآخرة وما تكفّره من خطايا ، والإيمان بقدر الله السّابق ، وملاحظة العواقب المحمودة ، ومجانبة العوارض القادحة .

الدّعوة إلى الله وظيفة شاقّة ، ومسلك وعر لا يقوى على السّير فيه إلاّ مَنْ وفّق للثّبات . ولا يثبت من الدّعاة إلاّ من أخذ بحظّ من العلم الشّرعي ، والتزم بما يأمر به ، وأخلص ، واستشعر الثّواب المترتّب على قيامه بالدّعوة ، والعقاب الحاصل من التّفريط فيها ، وراعى المصالح والمفاسد ، وتحلّي بمكارم الأخلاق ، وتأنّى ولم يتعجل ، وبدأ بتصحيح المعتقد .

الجهاد فريضة شاقّة . شرعت لتحقيق غايات عظمى . لا يقوم بها إلاّ من ثبت وصبر . إلاّ أنّ استجابة المجاهد لأمر الشّارع بالجهاد ، وتوكّله على الله والتجاءه إليه ، وإكثاره من ذكره ، وطمأنينته بنصره ، واستشعاره بما ورد في الجهاد من فضل ، وحذره ممّا يترتّب على تركه من وزر ، وإعداده للقوّة ، وتيقّنه بأنّ الجهاد لا يدني من الأجل ، وتركه لا يزيد في العمر يعينه كلّ ذلك على الثّبات في الجهاد .

المنهج الحقّ هو الّذي سار عليه رسول الله ﷺ وصحابته من بعده ، والتّابعون لهم بإحسان ومن تبعهم ، وهو منهج أهل السّنّة والجماعة الّذي يجب على المسلم أن يثبت عليه . وعوامل الثّبات عليه :العلم الشّرعي ، والالتزام بنصوص الوحي ، وعدم التّفريق بين متواترها وآحادها قبولاً وردّاً ، في عقيدة أو غيرها ، وتجنّب ما يعارضها من اتّباع الهوى ، وتحكيم العقل والرّأي ، ومقارفة البدع ، والتّقليد بغير دليل ، والتّأويل بغير حجّة ، واتّباع المتشابه ، والجدال المذموم ، والتّحزّب المنحرف ، والتّعصّب المقرض ، وعدم الأخذ بالوسطيّة والاعتدال ، وعدم الوحشة بقلّة السالكين .

الموت موطن عظيم شاقّ على النّفوس . يعين المؤمن على الثّبات عليه : توحيد الله تعالى ، وحبّ لقائه ، وغلبة الرّجاء وحسن الظنّ به ، ودعاؤه ، وملازمة الطّاعات ، ومجانبة المعاصي ، والمبادرة بالتّوبة ، وعدم الاغترار بالدّنيا وطول الأمل ، وزيارة القبور وتذكّر حال أهلها ، والإكثار من ذكر الموت ، واليقين بأنّ الآجال محدودة ، والأعمار معدودة .

القبر شاقّ بالغ الشّناعة ، يسأل فيه الإنسان عن ربّه ونبيّه ودينه ، وهي فتنة القبر الّتي تحتاج من العبد إلى ثبات ويعينه على ذلك توحيد الله تعالى ، والصّلاة والصّيام والزّكاة وفعل الخيرات ، والرّباط والشّهادة في سبيل الله ، والتّعوّذ من فتنة القبر، والموت يوم الجمعة أو ليلتها ، ودعاء المؤمنين للميّت بالثّبات .

أعظم نماذج للثّبات رسل الله وأنبياؤه عليهم السّلام ، ثمّ أصحاب رسول الله ﷺ . وفي هذه الأمّة والأمم السّابقة نماذج مضيئة ، وأمثلة رائعة وفّقوا للثّبات على الحقّ والبقاء على الدّين ، يؤخذ من ثباتهم التّأسّي والعبر .

الباحث	المشرف	عميد كلية الدعوة وأصول الدين
الاسم : الأمين الصّادق الأمين محمّد .	الاسم : د/ أمين محمّد عطية باشا .	الاسم :د/ عبد الله عمر الدّميجي
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع : ....

كلمة شكر وتقدير

اعترافاً منّي بالفضل لأهله ، وإسداء الجميل لأصحابه أتقدّم بوافر الشّكر إلى حكومة المملكة العربيّة السّعوديّة على إتاحتها لي ولإخواني الوافدين تلقي العلم النّافع من معين جامعاتها الثّر ، ونميرها الصّافي الّذي لا ينضب . ثمّ أعرّج بشكري على جامعة أمّ القرى ، وأخصّ بالشّكر والثّناء كلّية الدّعوة وأصول الدّين على ما تقدّمه من خدمة جليلة ، وعلم نافع ، وتوجيه رشيد ، ورعاية كريمة لطلبة العلم . فجزى الله القائمين عليها خير الجزاء .

كما أتقدّم بجزيل الشّكر لرابطة العالم الإسلامي والقائمين عليها ، وأخصّ إدارة التّعليم لما لها من جهد عظيم ، وعناية فائقة في تيسير السّبل لتعليم أبناء المسلمين والاهتمام بهم .

ثمّ أشكر الأخوة في جمعية إحياء التّراث الإسلامي بدولة الكويت لما لمسناه منهم من عناية خاصّة ، وتشجيع صادق كان له الأثر البالغ في إتمام هذه الرّسالة . فجزاهم الله خيراً ، ونفع بهم وبجهودهم الإسلام والمسلمين .

ولا يفوتني في هذا المقام أن أرفع أكفّ الضّراعة إلى المولى سبحانه داعياً إيّاه أن يرحم شيخنا الجليل ، والمربّي القدير الشّيخ سيّد سابق التّهامي الّذي وضع معي اللّبنات الأولى لهذه الرّسالة ، وإن كان إشرافه لم يتعدّ الباب الأوّل منها إلاّ أنّني استفدت من توجيهاته الحكيمة ، ونصائحه القيمة ، وآرائه السّديدة الشّيء الكثير ، فأسأله سبحانه أن يعظم له المثوبة ، ويجزل له المغفرة .

ثمّ أتوجّه بالشّكر الوافر ، والثّناء العاطر إلى شيخي الجليل ، وأستاذي الفاضل الأستاذ الدّكتور محمّد رياض بن سيّد أحمد قناوي على ما أولاني من رعاية تامّة ، وعناية بالغة ، وتوجيه كريم ، ونصح نافع ، وإرشاد سليم ، واستدراك مفيد كان له أبلغ الأثر في تقويم هذا البحث ، وتوجيهه . فجزاه الله خيراً ، ونفع الله به وبعلمه ، وألبسه لباس التّقوى ، ورزقه دوام الصّحة والعافية في الدّنيا والآخرة .

وأخصّ بالشّكر والثّناء أستاذنا الفاضل ، وشيخنا الكريم الأستاذ الدّكتور أمين ابن محمّد باشا الّذي وافق على أن يكون مقرّراً للجنة المناقشة ، وكـان لـه كبـير الأثر ، وعظيم الجهد في متابعة هذه الرّسـالة عـبر مجـالس الكليّـة والإعـداد لمناقشتها ، فأسأل الله له تمام العافية ، وحسن الخاتمة .

ثم أتوجّه بالشّكر لصاحبي الفضيلة الأستاذ الدّكتور فهد بن عبد الرّحمـن بـن سليمان الرّومي ، والأستاذ الدّكتور محمّد عبد المولى محمّد جمعة على ما بذلاه مـن جهد عظيم ، واقتطعاه من وقت نفيس في قراءة هذه الرّسالة ، وتقويم ما فيها مـن عوج ، وإصلاح ما فيها من خلل كي يستقيم عوجها ، ويزول خللها ، فجزاهمـا الله عني خير الجزاء ، وأحسن إليهما ، ووفقهما إلى خيري الدنيا والآخرة .

كما أشكر الإخوة الّذين ساعدوني في هذا العمل بتوجيه ، أو إرشاد ، أو نصيحـة ، أو غير ذلك . فجزاهم الله عنّي خيراً .

وفي الختام أسأل الله تعالى أن أكون قد وفّقت في هذا الموضوع ، ووفّيته حقّه كاملاً ، وأن يجزيني به الجزاء الأوفر ، ويجعله عملاً صالحاً متقبلاً ، وينفع بـه ، إنّه ولي ذلك وهو على كلّ شيء قدير .

المقدّمة

الحمد لله الّذي ثبّت رسوله على الحقّ فلم يركن إلى الباطل شيئاً قليلاً .
والحمد لله الّذي أنزل عليه الكتاب ليثبّت به فؤاده ورتّله ترتيلاً .
والحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونسأله الثّبات على الهدى فلا نزيغ عنه قطميراً .

وأصلّي وأسلّم على من ثبت على الصّراط فلم يفارقه فتيلاً ، وعلى صحبه الكرام الّذين ظلّوا على الطّريق فلم يبدّلوا تبديلاً ، ولم يغيّروا تغييراً ، وعلى التّابعين لهم بإحسان ومن تبعهم فتمسّك بالحقّ فلم يتركه نقيراً . وبعد :

فإنّ الثّبات على دين الله ، والاستقامة على شرعه ، والصّبر على طاعته ، والالتزام بأمره ، والتّمسّك بهديه ، والملازمة لتقواه ، والاعتصام بصراطه ، والسّير على نهجه مطلب أكيد ، ورغبة ملحّة ، وهدف سامٍ ، وغاية حميدة ، ومقصد نبيل لكلّ مسلم يريد إرضاء الله ، ونيل جنّته ، والفوز برحمته .

كما أنّ الزّيغ عن دين الله ، والانصراف عن شرعه ، والانحراف عن صراطه ، وتنكّب طريقه ، والميل إلى مايجلب سخطه ، والسّقوط في ما يؤدّي إلى غضبه أمور مهلكة ، ومسالك موحشة ، ومفاوز مقفرة ، وسبل وعرة ، تجلب أليم عذابه سبحانه ، وعظيم عقابه عزّ وجلّ .

ولمّا كان الحديث عن الثّبات على دين الله يبلغ أهميّة قصوى ، ويتبوّأ منزلة عظمى ، ويهدف إلى غاية كبرى وقع اختياري عليه ليكون الأطروحة الّتي أقدّمها لنيل شهادة الدّكتوراه .

ولقد طالعت العديد من الكتب قبل البدء فيه ، ممّا استنفدت معه جهداً وفيراً ، واستنزفت فيه وقتاً طويلاً ، ظهر لي من خلال ذلك سعة الموضوع ، وترامي أطرافه ، وتعدّد مداخله ، وتكاثر مخارجه ، وتنوّع جوانبه حتّى كدت أن أحجم

عنه ، وأدع الكتابة فيه .

ثمّ عزمت مستعيناً بالله على خوض غماره ، وسلوك مفاوزه ، واقتحام لججه لمّا انجلت لي أهميّته ، وعظيم فائدته ، وجليل قدره ، وكبير نفعه .

وقد تمثّل ذلك في أمور أحببت أن أسجّلها لتكون شافعة لي في تناول هذا الموضوع المهم :

أوّلاً : إنّه موضوع بكر ، لم أر يراعاً خطّ فيه ، ولا صفحات سوّدت عنه . وما وجد نزر يسير ، وجهد قليل ، مبعثر بين طيّات الكتب والرّسائل ، يحتاج إلى من يلمّ شعثه ، ويجمع أطرافه ، ويبرز جوانبه ، ويوضّح أهدافه .

ثانياً : ضعف الإيمان ، وقلّة الالتزام ، وكثرة العصيان بين أبناء الإسلام يدفع للحديث عن الثّبات ليقوى الإيمان ، ويزداد الالتزام ، ويتلاشى العصيان .

ثالثاً: إنّ الثّبات يربّي النّفوس ويزكّيها ، ويطهّر القلوب وينقّيها ، ويدفع إلى التزام الطّاعات ، ويدعو إلي مجافات المعاصي والمنكرات . وذلك أعظم دافع ، وأغلى مطلب .

رابعاً: كثرة الفتن وتعاظمها ، وتنوّع الشّبه وتفاقمها ، وتعدّد المغريات ، وتزايد الشّهوات الّتي تعصف بالمسلم فتلقي به في الدّركات ، وتدفعه إلى السّقطات والزّلاّت ، يدفع كلّ ذلك للحديث عن الثّبات ، إذ فيه تكمن النّجاة ، والسّلامة من الآفات .

خامساً: غربة الدّين ، وقلّة النّاصر والمعين ، وندرة الرّفيق ، ومشقّة السّير، ووحشة الطّريق دوافع حاثّة للكلام عن الثّبات .

سادساً: تقلّب القلوب ، وتغيّر الأحوال ، وحدوث الارتياب ، والنّكوص على الأعقاب ، دواعٍ ملحّة للحديث عن الثّبات لأنّها من أعظم الأسباب .

سابعاً: كثرة الشّبه والشّكوك الّتي يبعثها أعداء الله ، وبثّهم مايكدّر ، وإحداثهم ما يشوّش ، ونشرهم ما يبلبل . خاصّة في هذا العصر الّذي صار العالم فيه كقرية

واحدة ، تربط بينه وسائل الإعلام المرئيّة والمسموعة والمقروءة الّتي استخدم جلّها أعداء الله لتنفير المسلمين عن دينهم ، وزعزعة الإيمان في نفوسهم ، ممّا يدعو للحديث عن الثّبات لتتبدّد تلك الشّكوك ، وتتهاوى تلك الشّبهات .

ثامناً: إنّ الثّبات أمر لاغنى لأحد من المسلمين عنه ، فهو حاجة العالم والجاهل ، والكبيروالصّغير ، والرّجل والمرأة ، والغني والفقير . بل الحاجة إليه أعظم من الحاجة للطّعام والشّراب ، إذ فيه تكمن سعادة الدّنيا ، والنّجاة في الآخرة .

تاسعاً: فيه مادّة قيّمة للدّعاة النّاصحين ، يقيمون من خلاله العوج ، ويزيلون به العلل ، ويردّون إلى الشّاردين به الأمل ، ويدفعون أمّة الإسلام من خلاله إلى حسن العمل ، لتصدق في العبادة ، فتسودها السّعادة ، وتصبح أمّة مؤهّلة للقيادة والرّيادة .

وقد قسّمته إلى مقدّمة وسبعة أبواب وخاتمة :

أمّا *المقدّمة :*

فقد تناولت فيها أهميّة الموضوع ، والأسباب الّتي دفعتني لاختياره ، والمنهج الّذي أسير عليه .

وأمّا الباب الأوّل :

فهو عن الثّبات عند الفتن . وقد جعلته في خمسة فصول :

الفصل الأوّل أعرّف فيه بمعاني الفتنة في اللّغة والشّرع . ثمّ أبيّن إخبار الرّسول ﷺ بالفتن ، وتحذيره منها ، وظهور كثير ممّا حذّر منه . وهو الفصل الثّاني . ثمّ أورد أنواعاً من تلك الفتن مدلّلاً بها على ماسبق ، والكيفية الّتي يتمّ بها علاجها . وهو الفصل الثّالث . ثمّ أعرّج بالحديث عن العوامل الّتي تعين على الثّبات عند الفتن . وهو الفصل الرّابع . ثمّ أورد نماذج لبعض الثّابتين عند الفتن ، مبتدئاً بالرّسل عليهم السّلام . وهو الفصل الخامس .

وأمّا الباب الثّاني :

فهو عن الثّبات عند الابتلاء . وهو في خمسة فصول :

الفصل الأوّل أتناول فيه الحديث عن معاني الابتلاء في اللّغة والشّرع . ثـمّ أبيّن أنّ ابتلاء الإنسان سنّة من سنن الله في الكون . وهو الفصل الثّاني . ثمّ أتعرّض لأنواع الابتلاء والحكمة من كلّ نوع منها . وهو الفصل الثّالث . ثمّ أردف الحديـث عن العوامل المؤدّية إلى الثّبات عند الابتلاء . وهو الفصل الرّابع . ثمّ أذكر نمـاذج لمن ثبت عند الابتلاء . وهو الفصل الخامس .

وأمّا الباب الثّالث :

فهو عن الثّبات في الدّعوة إلى الله . وهو في أربعة فصول :

الفصل الأوّل أتكلّم فيه عن معاني الدّعوة في اللّغـة والشّـرع واصطـلاح الدّعاة. ثمّ أعرّج بالكلام عن أهميّة الدّعوة إلى الله ، والغاية منها ، وحكمها . وهـو الفصل الثّاني . ثمّ أعقب ذلك بالكلام عن العوامل المعينة على الثّبات في الدّعوة إلى الله . وهو الفصل الثّالث . ثمّ أختم الباب بالكلام عن نماذج للثّابتين علـى الدّعـوة ليتبيّن أثر الثّبات فيها . وهو الفصل الرّابع .

وأمّا الباب الرّابع :

فهو عن الثّبات في الجهاد . وهو في خمسة فصول :

الفصل الأوّل يتمّ الحديث فيه عن معاني الجهاد في اللّغة والشّرع . ثمّ يعقبـه الحديث عن المراحل الّتي مرّ بها تشريع الجهاد ، والأنواع الّتي تمّ حصره فيـها . وهو الفصل الثّاني . ثمّ يتناول الحديث حقيقة الجهاد والحكمة مـن تشـريعه علـى العباد . وذلك هو الفصل الثّالث . ثمّ يعقبه الحديث عن العوامل المثبّتة للمسلم فـي الجهاد . وهو الفصل الرّابع ، ثمّ خاتمة الباب ينصبّ فيها الحديـث علـى نمـاذج مختارة ثبتت في الجهاد . وهو الفصل الخامس .

وأمّا الباب الخامس :

فهو عن الثّبات على المنهج الحق . وهو في أربعة فصول :

الفصل الأوّل اتعرّض فيه لمعاني المنهج في اللّغة والشّرع . ثمّ أبيّن السمات الّتي يتّسم بها ذلك المنهج . وهو الفصل الثّاني . ثمّ أعرّج بالحديث على العوامل الدّاعية للثّبات عل المنهج . وهو الفصل الثّالث . ثمّ أورد نماذج يتبيّن من خلالها أثر الثّبات على المنهج . وهو الفصل الرّابع .

وأمّا الباب السّادس :

فهو عن الثّبات عند الموت . وفيه أربعة فصول :

الفصل الأوّل ينصبّ فيه الحديث على معاني الموت في اللّغة والشّرع . ثمّ يكشف الحديث عن حقيقة الموت ، والحكمة من خلقه . وهو الفصل الثّاني . ثمّ يتعرّض الحديث للكلام عن العوامل الجالبة للثّبات عند الموت. وهو الفصل الثّالث . ثمّ يختم الباب بإيراد نماذج لبعض من وفّق للثّبات عند الموت. وهو الفصل الرّابع .

وأمّا الباب السّابع :

فهو عن الثّبات في القبر . وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأوّل أتكلّم فيه عن معاني القبر من حيث اللّغة والشّرع ، والأحكام الّتي أناطها الشّارع به . ثمّ أتناول الكلام عن الإيمان بنعيم القبر وعذابه ، وحقيقة ذلك . وهو الفصل الثّاني . ثمّ أعقب ذلك بالحديث عن العوامل المؤدّية إلى الثّبات في القبر . وهو الفصل الثّالث والأخير .

وأمّا الخاتمة :

فهي تشتمل على أهمّ النّتائج الّتي توصّلت إليها من خلال البحث . وتوصية .

وقد ذيّلت البحث بتسعة فهارس وهي :

١ ــ الآيات القــرآنيـــة .

٢ ــ الأحاديث النّبويّـــة .

٣ ــ آثار الصّــــــحابة .

٤ ــ الأعلام المترجم لهم .

٥ ــ البلدان والقبائل والأجناس .

٦ ــ الفـــــــــرق .

٧ ــ الأبيات الشّعريّة .

٨ ــ المــراجــــع .

٩ ــ الموضـــوعات .

وأمّا المنهج الّذي سرت عليه فهو كما يلي :

أوّلاً : الأصــل :

❊ أفتتح كلّ باب ببيان المعنى اللّغوي والشّرعي المتعلّق بـــه ، والاصطلاحـــي إن توفّر ووجد . ثمّ ألحق ذلك بذكر الفصول والمباحث والمطالب الأخرى المتعلّقة به .

❊ أبدأ في الاستدلال بالآيات ، ثمّ الأحاديث ، ثمّ آثار الصّحابة ، ثمّ آثار من بعدهم وهذا في الغالب . وقد يتخلّل ذلك توطئة ، أو توجيه ، أو شرح ، أوإيضـــاح .

❊ سلكت في شرح النّصوص وبيانها المنهج التّحليلي الموضوعي .

❊ أوردت الآيات برسم المصحف ، وجعلتها بين قوسين مزهرين . وخرجّتها فـــي الأصل لكثرتها.

❊ وضعت الأحاديث والآثار وأقوال أهل العلم بين قوسين صغيرين مزدوجين لتتميّز عن كلامي .

❊ شكّلت بعض الكلمات الّتي تحتاج إلي تشكيل .

❋ أوردت اسم القائل في أوّل السّطر بخطّ مائل لإبرازه .

ثانياً : الحاشية :

❋ خرّجت فيها الأحاديث النّبويّة من مصادرها الأصليّة . وسلكت في تخريجها الآتي :

{أ} إن كان الحديث في الصّحيحين أو في أحدهما اكتفيت به . إلاّ إذا لم يوجد لفظه فيهما أو في أحدهما فحينئذ أورده من مصدره مع تخريجه منهما . وقد يرويا أصل الحديث فأبيّن ذلك . مع تتبّعي لمواطن الحديث فيهما وإيراد ذلك .

{ب} إن كان الحديث في غير الصّحيحين خرّجته من مصادر السّنّة الأخرى ، مقدّماً في ذلك السّنن الأربعة ، وسنن الدّارمي ، والبيهقي ، والدّارقطني ، وموطّأ مالك ، ومسند أحمد ، وصحيح ابن حبّان ، ومستدرك الحاكم ، ومعاجم الطّبراني الثّلاثة ، ثمّ ما أمكنني الرّجوع إليه من بقية مصادر الحديث .

{ج} استخدمت عبارات الأوائل في التّخريج ، ومقارنة الرّوايات . وهي كالآتي :

ــ ما كان مطابقاً للفظ الاستدلال قلت : بلفظه .

ــ إن اختلف اللّفظ في كلمة أو كلمتين قلت : بلفظه ، ثمّ ذكرت أوجه الاختلاف .

ــ إن زاد الاختلاف قليلاً . قلت : بلفظ مقارب ، أو قريب منه .

ــ إن زاد الاختلاف فشمل معظم الألفاظ . قلت : نحوه . أو بنحو منه .

ــ إن اختلفت الألفاظ مع اتّحاد المعنى . قلت بمعناه .

ــ أقدّم في المصدر الواحد ماكان بلفظه ، ثمّ ماكان بلفظ مقارب أوقريب منه ، ثمّ ماكان نحوه أو بنحو منه ، ثمّ ماكان بمعناه .

ــ وإذا كان المستدل به جزءاً من حديث بيّنت ذلك .

{د} أذكر اسم المرجع دون اختصار ، ثمّ أورد اسم الكتاب ورقمه ، واسم الباب ورقمه ، ورقم الحديث ، والجزء ، والصّفحة . متى ما توفّر لي ذلك .

{هـ} ما كان في غير الصّحيحين أو في أحدهما ذكرت أحكام بعض أهل العلم المحقّقين عليه ، فإن لم أجد ــ وذلك نادر ــ حكمت عليه بما ظهر لي من دراسة إسناده .

{و} رتّبت مصادر التّخريج حسب التّرتيب المشهور عند أهل العلم . فأ قدّم صحيح البخاري ، ثمّ صحيح مسلم ، ثمّ سنن أبي داود ... الخ .

{ز} ذكرت اسم الرّاوي من الصّحابة إن لم يرد ذكره في الأصل .

❋ خرّجت الآثار الواردة من مصادرها ، فإن كانت في مصادر الحديث خرّجتها كتخريج الأحاديث ، وإن كانت في المصادر الأخرى اكتفيت بذكر اسم المصدر ، والجزء والصّفحة في الغالب . وإن وجدت حكماً لبعض أهل العلم على الأثر ذكرته .

❋ ترجمت للأعلام الّذين وردوا في الأصل . وسلكت في تراجمهم الآتي :

{أ} لم أترجم للصّحابة إلاّ ماندر كالتّعريف باسم صحابي شهر بكنيته أو لقبه ، وحينئذ أترجم له ترجمة يسيرة . ولم أترجم لأئمّة المذاهب الأربعة لشهرتهم ، ولا لأصحاب الكتب المؤلّفة لكثرتهم ، إلاّ ما دعت إليه الحاجة .

{ب} رتّبت مصادر التّرجمة حسب الأسبقيّة الزّمنيّة ، نظراً لوفاة المؤلّف .

{ج} أورد التّرجمة بإيجاز غير مخل ، ثمّ أشير إلى مواضعها في المصادر بعبارة (وانظر) مكتفياً بذكر أوّل صفحة بدأت بها التّرجمة .

❋ شرحت الغريب ، وشكّلت مايحتاج منه إلى تشكيل بالحروف تارة ، وبالحركات أخرى .

❋ عزوت النّصوص إلى مراجعها . وسلكت في عزوها الآتي :

{أ} عزوت في كلّ فنّ إلى مصادره المختصّة به ، ولا أذكر مصدراً في غير فنّه إلاّ لفائدة لم توجد في المصدر المختص ، أو لم يكن وافياً بالمقصود .

{ب} رتّبت المصادر المعزو إليها حسب الأسبقية الزّمنيّة نظراً لوفاة المؤلف . ولا أقدّم مصدراً متأخراً على مصدر متقدّم إلاّ إذا كان هو المباشر في

الأخذ ، أو أنّ المأخوذ به أكمل وأتمّ .

{ج} إذا لم أتصرّف في النّص ، ونقلته من المصدر كما هـو فـإنّي أورد اسم المصدر مباشرة . أمّا إن تصرّفت في المنقول فإنّي أستخدم الاصطلاحات الآتية :

ـ بتصرّف : إذا تصرّفت في النّص المنقول بزيادة بعض العبارات ، أو حذفها ، أو إبدالها بغيرها ، مع بقاء معظم النّص كما هو . وإذا كان التّصرّف يسيراً بيّنت ذلك .

ـ انظر : إذا أوردت النّص بمعناه . شريطة أن يكون ما في المصدر شاملاً لجميع ما ذكرته بالمعنى .

ـ وانظر : إذا وجد في المصدر بعض ما ذكرت بالمعنى ، أو ذكر فيه أصل القضية المتحدّث عنها .

{د} رمزت للصّفحة بـ : ص .

❋ وثّقت المراجع عند أوّل ورودها . وقد أستخدم أكثر من طبعة فأبيّن حينئذ . مع التّنبيه على أمور :

مالم أبيّنه من : طبعة جامع البيان للطّبري فهي الطّبعة الحلبية . وفتح الباري فهي طبعة دار الفكر . وشرح العقيدة الطّحاوية فهي طبعة مؤسّسة الرّسالة .

والله الكريم أسأل التّوفيق والإعانة والثّبات على الهدى ، وأصلي وأسلم على إمام المتّقين ، وسيّد المرسلين ، وعلى صحبه الميامين ، وأهل بيته الأكرمين ، والتّابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين .

الباب الأوّل

الثبات عند الفتن

وفيه فصول :

الفصل الأوّل
معاني الفتنة في اللغة والشّرع

الفصل الثّاني
إخبار الرّسول ﷺ بالفتن وتحذيره منها وظهورها

الفصل الثّالث
أنواع الفتن وعلاجها

الفصل الرّابع
عوامل الثّبات عند الفتن

الفصل الخامس
نماذج للثّبات عند الفتن

الفصل الأوّل

معاني الفتنة في اللّغة والشّرع

المبحث الأوّل

معاني الفتنة في اللّغة

جمــاع معنى الفتنة في كلام العرب الابتلاء والامتحان . وأصلها مأخوذ من قولك: فتنت الفضّة والذّهب إذا أذبتهما بالنّار ليتميّز الرّديء من الجيّد (1).

وتقول: فتنت الذّهب إذا أدخلته النّار لتنظر ما جودته ، ودينار مفتون (2).

ويسمّى الصّائغ الفتّان لإذابته الذّهب والفضّة (3).

والفتنة: الإحراق:

من هذا قيل للحجارة السّود الّتي كأنّها أحرقت بالنّار: الفَتين(4).

---

(1) تهذيب اللّغة : لأبي منصور محمّد بن أحمد الأزهري . تحقيق : يعقوب عبد النّبي . مطابع سجل العــرب . الــدّار المصرية للتّأليف والتّرجمة : ٢٩٦/١٤ . لسان العرب . لأبي الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري . دار صادر للطّباعة والنّشر . دار بيروت للطّباعة والنّشر . ١٣٨٨ هــ ـــ ١٩٦٨م : ٣١٧/١٣ . تاج العروس من جواهر القاموس . لمحبّ الدّين أبي الفيض السّيّد محمّد مرتضى الحسيني الواسطي الزّبيــدي . دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع . بيروت . ١٤١٤هــ ـ ١٩٩٤م : ٤٢٥/١٨ .

(2) الصّحاح . تاج اللّغة وصحاح العربية . لإسماعيل بن حمّاد الجوهري . تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار . دار العلــم للملايين . بيروت . الطّبعة الثّانية : ١٣٩٩هــ ـ ١٩٧٩م : ٢١٧٥/٦ . مختار الصّحاح . للشيخ محمّد بـــن أبي بكر بن عبد القادر الرّازي . عني بترتيبه محمود خاطر . طبعة: مؤسّسة الرّسالة . بـــيروت . ص : ٤٩٠ . لســان العرب: ٣١٧/١٣ . تاج العروس : ٤٢٥/١٨ .

(3) المرجع السّابق : ٤٢٧/١٨ . وانظر : الصّحاح : ٢١٧٥/٦ . لسان العرب : ٣١٧/١٣ . القاموس المحيط . لمجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي . طبعة مؤسّسة الرّسالة . بيروت . ص : ١٥٧٥.

(4) تهذيب اللّغة : ٢٩٧/١٤ . معجم مقاييس اللّغة . لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا . تحقيق : عبد السّــلام محمّد هارون . مطبعــة مصطفــى الحلــبي بمصــر . الطّبعــة الثّانيــة : ١٣٩١هــ ـ ١٩٧١م : ٤٧٣/٤ .

وورق فتين: أي محرّق [1] .

ويقال للأمة السّوداء: مفتونة ، لأنّها كالحَرَّة [2] في السّواد كأنّها محترقة [3] .

ويقال: فُتِنَ الرّجل بالمرأة وافتتن: إذا ولهته وأحبّها[4] .

وأهل الحجاز يقولون: فتنته المرأة . وأهل نجد يقولون: أَفْتَنَتَه .

قال أعشى همدان[5]:

لئن فتنتني لَهْيَ بالأمس أفتنت ...... سعيداً فأمسى قد قلا كلّ مسلم . [6]

الصّحاح : ٢١٧٦/٦ . مجمل اللّغة . لابن فارس . تحقيق زهير عبد المحسن سلطان . مؤسّسة الرّسالة . بـــيروت . الطّبعة الأولى: ١٤٠٤هـــــ ١٩٨٤م : ٧١١/٣ . لسان العرب : ٣١٧/١٣ . تاج العـــروس : ٤٢٧/١٨ . معجم متن اللّغة . للشّيخ أحمد رضا . طبعة دار مكتبة الحياة . بيروت . ١٣٧٩هـــ ١٩٦٠م : ٣٥٧/٤ .

(١) الصّحاح : ٢١٧٦/٦ . لسان العرب : ٣١٧/١٣ . معجم متن اللّغة : ٣٥٧/٤ .

(٢) الحرّة : هي الأرض ذات الحجارة السّود . انظر : القاموس المحيط : ص : ٤٧٨ .

(٣) تهذيب اللّغة : ٣٠١/١٤ . لسان العرب : ٣٢٠/٣ . تاج العروس : ٤٢٨/١٨ . معجم متن اللّغة : ٣٥٧/٤ .

(٤) الصّحاح : ٢١٧٦/٦ . لسان العرب : ٣١٧/١٣ . معجم متن اللّغة : ٣٥٧/٤ .

(٥) أعشى همدان : هو أبو المصبّح عبد الرّحمن بن عبد الله بن الحارث الهمداني الكوفي ، شاعر مفوّه شهير ، كـــان متعبّداً فاضلاً ثمّ عبث بالشّعر . خرج مع القُرّاء في فتنة ابن الأشعث . قتله الحجّاج سنة نيف وثمانين . انظر: سير أعلام النُبلاء . لمحمّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذّهبي أبي عبد الله . دار النّشر : مؤسّسة الرّســـالة . بيروت . الطّبعة التّاسعة : ١٤١٣هـــ . تحقيق : شعيب الأرناؤوط ومحمّد نعيم العرقسوسي : ١٨٥/٤ .

(٦) ديوان أعشى همدان وأخباره . تحقيق : حسن عيسى أبو ياسين . طبعة : دار العلوم . الرّياض . الطّبعـــة الأولى : ١٤٠٣هـــ ١٩٨٣م . ص : ١٦٢ .

وكان الأصمعي (رحمه الله) [١] ينكر أفتنته [٢] .

وفتنت الرّجل عن رأيه: إذا أزلته عمّا كان عليه . [٣]

ومن ذلك قولهم: فتنت فلانة فلاناً: أي أمالته عن القصد ، فالفتنة: المميلة. [٤]

والفتنة: الإعجاب بالشّيء . من قولك: فَتَنَهُ يَفْتِنُه فَتْناً وفتوناً فهو فاتن[٥].

---

(١) الأصمعي : هو عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن عليّ بن أصمع أبو سعيد الأصمعي . أحد الأعلام . صاحب اللّغة والنّحو والغريب والأخبار والملح . توفي عام ٢١٥هـ.

وانظر : التّاريخ الكبير . لمحمّد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري . طبعة دار الفكر . مراجعة : السّيد هاشم النّدوي . ١٩٨٦م : ٤٢٨/٥ . الجرح والتّعديل . لعبد الرّحمن بن أبي حاتم محمّد بن إدريس . طبعة دار إحياء التّراث العربي . بيروت . ١٩٥٢م-١٢٧١هـ : ٣٦٣/٥ . ثقات ابن حبّان . لمحمّد بن حبّان بن أحمد أبي حاتم التّميمي البستي . طبعة دار الفكر . مراجعة : السّيد شرف الدّين أحمد . ١٩٧٥م-١٣٩٥هـ : ٣٨٩/٨ . تاريخ بغداد . لأحمد بن عليّ أبي بكر الخطيب البغدادي . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت :١٠/٤١٠ . تهذيب الكمال . ليوسف بن الزّكي عبد الرّحمن أبي الحجّاج جمال الدّين المزّي . طبعة مؤسّسة الرّسالة . مراجعة د. بشّار عوّاد معروف . بيروت . ١٩٨٠م-١٤٠٠هـ : ٣٨٢/١٨ . الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب السّتة . لمحمّد بن أحمد أبي عبد الله شمس الدّين الذّهبي الدّمشقي . طبعة دار القبلة للثّقافة الإسلاميّة . مؤسّسة علوم القرآن . مراجعة : محمّد عوامة . جدّة . ١٩٩٢م-١٤١٣هـ :٦٦٨/١. تهذيب التّهذيب . لأحمد بن عليّ ابن حجر أبي الفضل شهاب الدّين العسقلاني الشّافعي . طبعة دار الفكر . بيروت . ١٩٨٤م-١٤٠٤هـ : ٦ /٣٦٨ .

(٢) تهذيب اللّغة : ٢٩٨/١٤ . تاج العروس : ٤٢٥/١٨ .

(٣) تهذيب اللّغة : ٢٩٨/١٤، ٢٩٩ . لسان العرب : ٣١٩/١٣ .

(٤) تهذيب اللّغة : ٢٩٧/١٤ . لسان العرب : ٣١٩/١٣ . تاج العروس : ٤٢٧/١٨ . معجم متن اللّغة : ٣٥٧/٤ .

وانظر : التّكملة والذّيل والصّلة لكتاب تاج اللّغة وصحاح العربية . للحسن بن محمّد بن الحسن الصّاغاني . تحقيق: محمّد أبي الفضل إبراهيم . مطبعة دار الكتب .١٩٧٩م : ٢٨٥/٦ .

(٥) لسان العرب : ٣١٨/١٣ . تاج العروس : ٤٢٥/١٨ .

قال الشّاعر: [1]

رَخِيم الكلام قَطِيع القيا •••••• م أمسى فؤادي بها فاتنا

والفاتن: المُفتَتِن[2] والمفتون[3].

ويقال أيضاً: أُفْتِن الرّجل وفُتن فهو مفتون: إذا أصابته فتنة فذهب ماله أو عقلـه [4].

كما يقال: فَتِنَ الرّجل يَفْتَنُ فتوناً إذا وقع في الفتنة ، أو تحوّل من حال حسنة إلى حال سيّئة [5]. فالفعل لازم ومتعدي .

والفتنة: الكفر ، والإثم ، والقتل ، والإضلال ، والضّلال ، والجنون ، والعذاب ، واختلاف النّاس في الآراء ، والفضيحة ، والمال ، والأولاد ، والظّلم والغلّو في التّأويل [6] .

وفتّنه فهو مُفتَّن: أي أوقعه في الفتنة أو أوصل الفتنة إليه [7] .

والفتّان من أبنية المبالغة في الفتنة [8] .

---

(1) في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني . تحقيق : سمير جابر .طبعة دار الفكر . بيروت : ١٣ /٣٣٥-٣٣٦ : فتور القيام رخيم *** الكلام كان فؤادي به راهناً . ونسبه لعمرو بن سعيد بن زيد .

كلام رَخِيمٌ أي رقيق . و رَخُمَتِ الجارية رَخامَةً ، فهي رَخيمة الصّوت و رَخِيمٌ إذا كانت سهلة المنطق . لسان العرب : ٢٣٤/١٢ . وانظر : القاموس المحيط : ص : ١٤٣٦ .

وامرأة قَطِيعُ الكلامِ إذا لم تكن سَلِيطةً . لسان العرب : ٢٧٩/٨ . انظر : القاموس المحيط : ص : ٩٧٢ .

(2) الصّحاح : ٢١٧٦/٦ . لسان العرب : ٣١٨/١٣ . تاج العروس : ٤٢٦/١٨ .

(3) معجم مقاييس اللّغة : ٤٧٣/٤ . مجمل اللّغة: ٧١١/٣ .

(4) الصّحاح : ٢١٧٦/٦ . مختار الصّحاح : ص: ٤٩٠ . لسان العرب ٣١٨/١٣ . تاج العروس : ٤٢٧/١٨ . معجم متن اللّغة : ٣٥٧/٤ .

(5) تهذيب اللّغة: ٣٠٠/١٤

(6) المرجع السّابق : ٢٩٧/١٤ـ٢٩٩ . لسان العرب : ٣١٧/١٣ ـ ٣٢٠ . القاموس المحيط : ص:١٥٧٥ . تاج العروس : ٤٢٤/١٨ـ٤٢٧ . مختار القاموس . للطّاهر أحمد الزّاوي الطّرابلسي . مطبعة عيسى الحلبي . الطّبعة الأولى : ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م : ص : ٤٦٨ . معجم متن اللّغة : ٣٥٧/٤ .

التّأويل : هو التّفسير وما يؤول إليه الشّيء .انظر : مختار الصّحاح : ص : ٣٣ . وانظر : لسان العرب : ٣٣/١١ .

(7) معجم متن اللّغة: ٣٥٧/٤ .

(8) لسان العرب : ٣١٩/١٣ . تاج العروس: ٤٢٧/١٨ . معجم متن اللغة: ٣٥٧/٤ .

فالفتّان: الشّيطان الّذي يفتن النّاس بخدعه وغروره وتزيينه المعـــاصي . والفتّـــان: أيضاً اللّص الّذي يعرض للرُّفقة في طريقهم .

وجمعه: فُتَّان [١].

والفتّانان: الدّرهم والدّينار، لأنّهما يفتنان النّاس[٢].

وفتّانا القبر: مُنْكر ونَكير[٣].

والفِتْنُ: النّاحية[٤]. والفَتْنَان: الحالان والضّربان واللّونان .

ومن ذلك قول عمرو *بن أحْمَر الباهلـي*: [٥]

إمّا على نفسي وإمّا لها ******* والعيش فِتْنان حلو ومر. [٦]

ولذا قيل للغدوة والعشي: فَتْنان لأنّهما حالان أو ضربان. [٧]

ممّا سبق يتبيّن لنا أنّ الفتنة في اللّغة متعدّدة المعاني ، متكاثرة الإطلاقـــات ، وإن كانت لا تخرج تلك المعاني في أصلها عن التّمحيص والاختبار .

---

(١) تهذيب اللّغة : ٣٠٠/١٤ . لسان العرب : ٣١٩/١٣ . تاج العروس : ٤٢٧/١٨ . معجم متن اللّغـة : ٣٥٧/٤.
وانظر: معجم مقاييس اللّغة : ٤٧٢/٤ . مجمل اللّغة : ٧١١/٣ . أساس البلاغة . لجار الله أبي القاسم محمود بـــن عمر الزّمخشري . طبعة دار المعرفة . بيروت . تحقيق عبد الرّحيم محمود . ص :٣٣٤ . والقاموس المحيـــط : ص : ١٥٧٥ . التّكملة والذّيل : ٢٨٥/٦.

(٢) تاج العروس : ٤٢٧/١٨ . معجم متن اللّغة : ٣٥٧/٤ . وانظر : أساس البلاغة : ص :٣٣٤ .

(٣) تاج العروس : ٤٢٧/١٨ . معجم متن اللّغة : ٣٥٧/٤ .

(٤) تاج العروس : ٤٢٨/١٨ . معجم متن اللّغة : ٣٥٧/٤ .

(٥) عمرو بن أحمر بن العمرد بن عامر الباهلي شاعر فصيح محسن .
الإكمال لعليّ بن هبة الله بن أبي نصر بن ماكولا . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . ١٤١١هـــ .الطّبعـة الأولى : ٨١/٥ .

(٦) تهذيب اللّغة : ٣٠٠/١٤ . تاج العروس : ٤٢٤/١٨ . وانظر : التّكملة والذّيل : ٢٨٥/٦ . معجم متن اللّغـــة : ٣٥٧/٤ .

(٧) تاج العروس : ٤٢٧/١٨ .

المبحث الثّاني

معاني الفتنة في الشّرع

لفظ الفتنة في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ جاء متعدّد الإطلاقات ، متكاثر المعاني ، حتّى شمل المعاني اللّغوية السّابقة الذّكر .

فتارة يضيفها الله سبحانه لنفسه أو يضيفها له رسوله ﷺ كقوله سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ [الأنعام:٥٣] .

وقول موسى عليه السلام : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ﴾ [الأعراف:١٥٥] (١) .

وتارة يضيفها إلى عباده كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ﴾ [البروج:١٠].

وهي في حالة إضافتها إلى الله تدلّ على معنى سوى الّذي دلّت عليه في حالة إضافتها إلى العباد .

قال الرّاغب الأصفهاني (رحمه الله) :

"والفتنة من الأفعال الّتي تكون من الله تعالى ومن العبد كالبلية ، والمصيبة ، والقتل ، والعذاب ، وغير ذلك من الأفعال الكريهة . ومتى كان من الله يكون على وجه الحكمة ، ومتى كان من الإنسان بغير أمر الله يكون بضدّ ذلك . ولهذا يذمّ الله الإنسان بأنواع الفتنة في كلّ مكان" (٢).

---

(١) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد . لشمس الدّين أبي عبد الله محمّد بن قيّم الجوزيّة . تحقيق وتخريج وتعليق : شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط . الطّبعة السّابعة والعشرون . ١٤١٤هـ — ١٩٩٤م . مؤسّسة الرّسالة . بيروت . مكتبة المنار الإسلاميّة : ١٦٩/٣.

(٢) المفردات في غريب القرآن . لأبي القاسم الحسين بن محمّد الرّاغب الأصفهاني . تحقيق : محمّد سيّد كيلاني . طبعة دار المعرفة — بيروت . ص : ٣٧٢ .

فالفتنة في كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ تأتي بمعاني عدّة ، وهي:

١ــ الابتلاء والاختبار:

من ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ [البقرة:١٠٢]

قال ابن جرير (رحمه الله):

"وتأويل ذلك : وما يعلّم الملكان [١] أحداً من النّاس الّذي أنزل عليهما من التّفريق بين المرء وزوجه حتّى يقولا له : إنّما نحن بلاء وفتنة لبني آدم فلا تكفر بربّك".

ثمّ روى بسنده عن قتادة (رحمه الله) [٢] أنّه قال :

---

(١) للقصّاص والإخباريين أحاديث عجيبة في شأن الملكين هاروت وماروت .فقد زعموا أنّهما ملكان من الملائكة أنكرا ما يصنع بنو آدم من المعاصي ، فابتلاهما الله بالشّهوات ، وأهبطهما إلى الأرض ، فعصيا الله ، وشربا الخمر وفعلا الفاحشة . فخيّرهما الله تعالى بين عذاب الدّنيا والآخرة ، فاختارا عذاب الدّنيا . فجعلهما ببابل منكوسين في بئر إلى يوم القيامة . وهما يعلّمان النّاس السّحر ، ويدعوان إليه .

وهذا كلّه من أخبار اليهود ــ عليهم لعائن الله إلى يوم القيامة ــ وقد اغتر بذلك جماعة من المفسّرين فأوردوا ذلك في كتبهم .

والّذي عليه المحقّقون أنّ هاروت وماروت كانا رجلين متظاهرين بالصّلاح والتّقوى ، وكانا يعلّمان النّاس السّحر . وبلغ حسن اعتقاد النّاس بهما أنّهما ملكان من السّماء ، وأنّ ما يعلّمانه للنّاس هو بوحي من الله تعالى . وبلغ مكر هذين الرّجلين أنّهما كانا يقولان لمن أراد أن يتعلّم منهما : "إنّما نحن فتنة وبلاء نبلوك ونختبرك أتشكر أم تكفر ، وننصحك بعدم الكفر " . ليوهماه أنّهما يريدان الخير ، وأنّ فعلهما ذلك من الله ، حتّى يحافظا على حسن اعتقاد النّاس فيهما .

انظر: تفسير القاسمي المسمّى محاسن التّأويل . لمحمّد جمال الدّين القاسمي . تصحيح وتعليق : محمّد فؤاد عبد الباقي . دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه . الطّبعة الأولى : ١٣٧٦هـ ــ ١٩٥٧م : ٢ /٢٠٩ــ٢١٣ .

(٢) هو قتادة بن دعامة بن قتادة أبو الخطّاب السّدوسي البصري الأعمى المفسّر ، أحد الأئمّة الأعلام .حافظ عصره، ثقة ثبت في الحديث مع تدليس فيه . مات سنة ١١٨هـ وقيل : ١١٧هـ .

وانظر : الطّبقات الكبرى . لمحمّد بن سعد بن منيع . طبعة دار صادر . بيروت . ٢٢٩/٧ . التّاريخ الكبير : ١٨٥/٧. معرفة الثّقات . لأحمد بن عبد الله بن صالح العجلي . طبعة مكتبة الدّار . المدينة المنورة .مراجعة : عبد العليم عبد العظيم البستوي . ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م : ٢١٥/٢ . الجرح والتّعديل : ١٣٣/٧.

"إنّما نحن فتنة" "أي بلاء" (١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ ﴾ [العنكبوت٢ – ٣] .

فقوله : ﴿ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ : أي لا يختبرون بما يعلم به صدق إيمانهم من كذبه .

وقيل : لا يبتلون في أنفسهم وأموالهم . فيعلم بالصّبر على البلاء الصّادق الإيمان من غيره .

وقوله :﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ﴾ : أي اختبرنا وابتلينا (٢) .

ثقات ابن حبّان :٥ /٣٢١ . تهذيب الكمال : ٤٩٨/٢٣ . تذكرة الحفّاظ . لمحمّد بن أحمد الذّهبي . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . مراجعة : عبد الرّحمن بن يحيى المعلّمي . ١٣٧٤هـ : ١٢٢/١. الكاشف : ١٣٤/٢. تهذيب التّهذيب : ٣١٥/٨ . تقريب التّهذيب . لأحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني . طبعة دار الرّشيد . سوريا . مراجعة : محمّد عوامة . ١٤٠٦هـ ـــ ١٩٨٦م :٤٥٣/١ . لسان الميزان . لابن حجر العسقلاني . طبعة مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات . بيروت . مراجعة : دائرة المعارف النّظاميّة . الهند . ١٤٠٦هـ ـــ ١٩٨٦م : ٣٤١/٧.

(١) تفسير الطّبري . جامع البيان عن تأويل القرآن . لأبي جعفر محمّد بن جرير الطّبري . تحقيق : محمود محمّد شاكر تخريج : أحمد محمّد شاكر . طبعة دار المعارف بمصر : ٤٤٢/٢ـــ٤٤٤ . وانظر : تفسير القرآن العظيم . لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدّمشقي . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . الطّبعة الأولى : ١٤٠٦هـ ـــ ١٩٨٦م : ٢١٤/١ . محاسن التّأويل : ٢١٠/٢ .

(٢) معاني القرآن وإعرابه . لأبي إسحاق إبراهيم بن السّري الزّجّاج . شرح وتحقيق : عبد الجليل عبده شلبي . عالم الكتب . الطّبعة الأولى : ١٤٠٨هـ ـــ ١٩٨٨م : ١٥٩/٤ـــ١٦٠ . وانظر : تأويل مشكل القرآن . لأبي محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة . شرحه ونشره السّيد أحمد صقر . دار التّراث . القاهرة . الطّبعة الثّانية : ١٣٩٣هـ ـــ ١٩٧٣م : ص:٤٧٢ . المفردات في غريب القرآن : ص : ٣٧٢ . قاموس القرآن . أو إصلاح الوجوه والنّظائر في القرآن الكريم . للحسين بن محمّد الدّامغاني . تحقيق : عبد العزيز سيّد الأهل . ١٩٨٣م ـــ دار العلم للملايين ـــ بيروت . الطّبعة الرّابعة . ص :٣٤٨ . كشف السّرائر في معنى الوجوه والأشباه والنّظائر .لابن العماد .تحقيق : د. فؤاد عبد المنعم أحمد ـــ نشر مؤسّسة شباب الجامعة الإسكندرية . طبع بمطابع جريدة السّفير. الإسكندرية . ص : ١٢٤ .

قال الرّاغب (رحمه الله) :

"وجعلت الفتنة كالبلاء في أنّهما يستعملان فيما يُدفع إليه الإنسان من شدّة ورخاء ، وهما في الشدَّة أظهر معنى وأكثر استعمالاً . وقد قال فيهما: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء:٣٥] " (١) .

وفي حديث عائشة (رضي الله عنها) : " فأمّا فتنة القبر فبي تفتنون وعنّي تسألون" الحديث (٢). أي بي تمتحنون وتختبرون (٣).

وفي حديث عليّ ﷺ :" إنّ الله يحب العبد المؤمن المُفَتَّن التّوّاب " (٤). أي الممتحن بالذّنب(٥).

---

(١) المفردات : ص : ٣٧٢ .

(٢) مسند أحمد . للإمام أحمد بن محمّد بن حنبل . طبعة مؤسّسة قرطبة . مصر . مصوّرة عن الطّبعة الميمنية : بلفظه في : ٦/١٣٩-١٤٠. وهو جزء من حديث طويل . ورجال إسناده ثقات .

(٣) انظر : الفائق في غريب الحديث . لمحمّود بن عمر الزّمخشري . طبعة دار المعرفة . لبنان . تحقيق عليّ محمّد البجاوي ومحمّد أبي الفضل إبراهيم الطّبعة الثّانية : ٨٧/٣ . النّهاية في غريب الحديث . للمبارك بن محمّد بن محمّد بن عبد الكريم أبو السّعادات الجزري تحقيق : طاهر أحمد الزّاوي ومحمود محمّد الطناحي . طبعة دار الفكر ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م . بيروت : ٤١٠/٣ .

(٤) مسند أحمد: بلفظه في : ٨٠/١ . و بلفظ مقارب في : ١٠٣/١ . إسناده ضعيف جداً شبه موضوع . الموسوعة الحديثية . مسند الإمام أحمد . تحقيق : جماعة من أهل العلم . إشراف : الدّكتور عبد الله بن عبد المحسن التّركي . طبعة : وزارة الشّؤون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد بالمملكة العربيّة السّعودية . الطّبعة الثّانية : ١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م : ٤٢/٢ . هامش : (١) .

مسند أبي يعلى : بلفظه في : ٣٧٦/١ . وهو في : سلسلة الأحاديث الضّعيفة والموضوعة وأثرها السّيئ في الأمّة . لمحمّد ناصر الدّين الألباني . طبعة مكتبة المعارف . الرّياض . الطّبعة الأولى : ١٤١٢هـ : ٩٦/١ . ضعيف الجامع الصّغير وزيادته . لمحمّد ناصر الدّين الألباني . طبعة المكتب الإسلامي . بيروت . الطّبعة الثّانية : ١٤٠٨هـ : ١٧٠٥/١ . ولم أورد هذا الحديث إلاّ لاستدلال أهل اللّغة به .

(٥) فيض القدير لعبد الرؤوف المناوي . طبعة المكتبة التّجاريّة الكبرى بمصر . الطّبعة الأولى . ١٣٥٦هـ :٢٨٩/٢.
انظر : النّهاية في غريب الحديث : ٤١٠/٣ .

٢ ـ الكفر والشّرك :

من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ ﴾ [البقرة:١٩١]. وقوله: ﴿ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ ﴾ [البقرة:٢١٧]. وقد فسّرت الفتنة هنا بالشّرك والكفر. (١) ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ ﴾ [البقرة:١٩٣] .

---

(١) انظر: مجاز القرآن صنعة . لأبي عبيد معمر بن المثنّى التّيمي . تعليق : د. محمّد فؤاد سزكين . نشر مكتبة الخانجي بمصر : ٦٨/١ . غريب القرآن وتفسيره . لأبي عبد الرّحمن عبد الله بن يحي بن المبارك اليزيدي . تحقيق : محمّد سليم الحاج . عالم الكتب . الطّبعة الأولى : ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م . ص : ٨٨ . تأويل مشكل القرآن : ص : ٤٧٣ . جامع البيان : ٥٦٥/٣ ـ ٥٦٦ ، ٥٧٠ ـ ٥٧١ . شاكر . وقد نقل أقوال من قال ذلك من الصّحابة والتّابعين . معاني القرآن للزّجّاج : ٢٦٤/١ ، ٢٩٠ . معاني القرآن الكريم . لأبي جعفر النّحّاس . تحقيق : محمّد عليّ الصّابوني . طبعة جامعة أمّ القرى . الطّبعة الأولى : ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م . ١٠٦/١ ، ١٧٠ . قاموس القرآن للدّامغاني : ص : ٣٤٨ . زاد المسير في علم التّفسير . لأبي الفرج جمال الدّين عبد الرّحمن بن عليّ ابن محمّد الجوزي . تحقيق محمّد عبد الرّحمن عبد الله . تخريج أبي هاجر السّعيد بن بسيوني زغلول .طبعة دار الفكر بيروت . الطّبعة الأولى : ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م : ١٨٠/١ ـ ١٨١ ، ٢١٥ . الجامع لأحكام القرآن . لأبي عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي . طبعة دار الكتب المصريّة . الطّبعة الثّانية : ٣٥١/٢ ، ٤٦/٣ . تفسير القرآن العظيم : ٣٤٠/١.

والآيتان نزلتا في شأن عمرو بن الحضرمي حين قتله واقد بن عبد الله التّميمي ﷺ في آخر يوم من رجب الشّهر الحرام . وأنكر ذلك المشركون . حسب ما جاء في سرية عبد الله بن جحش ﷺ .

انظر: الجامع لأحكام القرآن : ٣٥١/٢ . السّيرة النّبويّة . لأبي محمّد عبد الملك بن هشام المعافري . تحقيق د. أحمد حجازي السّقا . دار التّراث العربي للطّباعة والنّشر : ٣٩٧/١ ـ ٤٠٠ .

قال ابن القيّم (رحمه الله)في قوله سبحانه : ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ ﴾ [البقرة:٢١٧] .

" يقول سبحانه : هذا الّذي أنكرتموه عليهم ، وإن كان كبيراً ، فما ارتكبتموه أنتم من الكفر بالله ، والصّدّ عن سبيله ، وعن بيته ، وإخراج المسلمين الّذين هم أهله منه ، والشّرك الّذي أنتم عليه ، والفتنة الّتي حصلت منكم به أكبر عند الله من قتالهم في الشّهر الحرام . وأكثر السّلف فسّروا الفتنة هاهنا بالشّرك " .

زاد المعاد : ١٦٨/٣ـ١٦٩ .



﴿ وَقَـٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ ﴾ [الأنفال:٣٩].

أي قاتلوا المشركين حتّى لا يكون شرك بالله ، ولا يعبد دونه أحد ، وتزول عبادة الأوثان والآلهة والأنداد ، ويظهر دين الله على سائر الأديان[(١)].

قال الإمام الرّازي (رحمه الله) :

" أمّا قوله تعالى : ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ ﴾ فهذا يدلّ على حمل الفتنة على الشّرك ، لأنّه ليس بين الشّرك وبين أن يكون الدّين كلّه لله واسطة ، والمراد منه أن يكون تعالى هو المعبود المطاع دون سائر ما يعبد ويطاع غيره ، فصار التّقدير كأنّه تعالى قال: وقاتلوهم حتّى يزول الكفر ويثبت الإسلام ، وحتّى يزول ما يؤدّي إلى العقاب ويحصل ما يؤدّي إلى الثّواب " [(٢)].

عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) قال : رأيت رسول الله ﷺ يشير إلى المشرق فقال: "ها إنّ الفتنة هاهنا إنّ الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشّيطان ". [(٣)]

---

(١) جامع البيان : ٥٧٠/٣ . شاكر .بتصرُّف يسير .

(٢) التّفسير الكبير المسمّى بمفاتيح الغيب . لمحمّد بن عمر بن الحسين الفخر الرّازي . النّاشر دار الكتب العلميّة — طهران . الطّبعة الثّانية : ١٣٣/٥ .

ولبيان أنّ المراد بالفتنة هنا الشّرك والكفر . انظر : تأويل مشكل القرآن : ص: ٤٧٣ . جامع البيان: ٥٧٠/٣ـ٥٧١ ، ٥٣٧/١٣ـ٥٣٩. شاكر. وقد ذكر من قال بذلك من الصّحابة والتّابعين . معاني القرآن للنّحاس : ١٠٨/١ ، ١٥٥/٣ . الكشّاف عن حقّائق غوامض التّزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل . لمحمود ابن عمر الزّمخشري . المكتبة التّجاريّة الكبرى لمصطفى محمّد بمصر . الطّبعة الأولى سنة ١٣٥٤هـ : ١٢٦/٢ . زاد المسير : ١٨٢/١ ، ٢٤٣/٣ . التّفسير الكبير: ١٣٢/٦ ، ١٦٣/١٥ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٥٤/٢ ، ٤٠٤/٧ . تفسير القرآن العظيم : ٣٤١/١ ، ٤٨٥/٢ . وذكر من قال ذلك من الصّحابة والتّابعين وغيرهم . قاموس القرآن للدّامغاني : ص : ٣٤٨ . كشف السّرائر لابن العماد : ص : ١٢٢ . محاسن التّأويل : ٢٩٩٦/٨ . تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنان . لعبد الرّحمن بن ناصر السّعدي . طبعة مؤسّسة الرّسالة. بيروت . الطّبعة السّابعة . ١٤١٨هـ -١٩٩٧م . ص : ٧٢، ٢٨٢. . زاد المعاد : ١٦٩/٣ . إغاثة اللّهفان من مصايد الشّيْطان . لأبي عبد الله محمّد بن أبي بكر بن قيّم الجوزيّة . تحقيق محمّد حامد الفقي . نشر : دار المعرفة . الطّبعة الثّانية : ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م : ١٥٨/٢ .

(٣) صحيح البخاري المسمّى الجامع المسند الصّحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيّامه . لمحمّد بن إسماعيل البخاري . طبعة شركة دار الأرقم . بيروت . ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م : بلفظه في : كتاب بدء الخلق : (٣٥/٥٩) . باب صفة إبليس وجنوده : (١١) برقم : (٣٢٧٩) . ص : ٦٩٠. و بلفظ مقارب : في كتاب

قال ابن عبد البر (رحمه الله) :

"يحتمل أن تكون الفتنة في هذا الحديث معناها الكفر . وكانت المشرق يومئـذ دار كفر فأشار إليها" (١)

٣- *النِّفاق :*

قال الله تعالى في شأن المنـــافقين: ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [الحديد:١٤].

فالمراد بالفتنة هنا النِّفاق . وقد جاء ذلك عن مجاهد(٢)(رحمه الله)(٣).

فرض الخمس : (٥٧/٣٣) . باب ما جاء في بيوت أزواج النّبي ﷺ : (٤) . برقـم : (٣١٠٤) . ص : ٦٥٤. وفي كتاب الطّلاق : (٦٨/٤٢) . باب الإشارة في الطّلاق والأمور : (٢٤/٢٥) . برقـم : (٥٢٩٦). ص : ١١٦٣. وفي كتاب الفتن : (٩٢/٦٧) . باب قول النّبي ﷺ الفتنة من قبـل المشـرق : (١٦) . برقـم : (٧٠٩٢) . ص: ١٤٩٦. ونحوه : في كتاب المناقب : (٦١/٣٧) . باب : (٥/٦) . برقم : (٣٥١١) . ص : ٧٤٢. وفي كتـاب الفتن : (٩٢/٦٧). باب قول النّبي ﷺ : الفتنة من قبل المشرق : (١٦). برقم: (٧٠٩٣) . ص: (١٤٩٦) .

صحيح مسلم . لمسلم بن الحجّاج القشيري . تحقيق : محمّد فؤاد عبد الباقي . طبعة دار الحديـــث . القـــاهرة . الطّبعة الأولى . ١٤١٢هـــ ١٩٩١م : بلفظ مقارب في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة : (٥٢). باب الفتنة من المشرق من حيث يطلع قرنا الشّيْطان : (١٦) . برقم : (٢٩٠٥) . ٢٢٢٨/٤-٢٢٢٩.

(١) التّمهيد . لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النّمري . تحقيق : مصطفى بن أحمد العلوي ومحمّد عبد الكبير البكري . طبعة وزارة عموم الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة . المغرب. ١٣٨٧هـــ : ١٢/١٧.

(٢) هو مجاهد بن جَبْر أبو الحجّاج المخزومي مولاهم المكّي الإمام المقرئ الحافظ الفقيه العابد الورع المتقن ، ثقة إمام في التّفسير وفي العلم .وهو أحد أئمّة التّابعين .روى عن جماعة من الصّحابة . مات سـنة ١٠٣هـــ وقيـل : قبلها . وقيل : بعدها .

وانظر : الطّبقات الكبرى : ٤٦٦/٥ . التّاريخ الكبير : ٤١١/٧ . الجرح والتّعديل : ٣١٩/٨ . ثقات ابن حبّان :٥ /٤١٩. تهذيب الكمال: ٢٢٨/٢٧. تذكرة الحفّاظ:٩٢/١. الكاشـف:٢٤٠/٢. تهذيب التّهذيب:٣٨/١٠. تقريب التّهذيب: ٥٢٠/١. لسان الميزان: ٣٤٩/٧.

(٣) انظر : جامع البيان . ١٣٧٣هـــ ١٩٥٤م . مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر . الطّبعة الثّانيـة : ٢٢٦/٢٧ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٤٦/١٧ . محاسن التّأويل : ٥٦٨٤/١٦ . غريب الحديث . للإمـام أبي إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي ، تحقيق ودراسة د. سليمان بن إبراهيم بن محمّد العايد . طبعة مركز البحـث العلمي بجامعة أمّ القرى . الطّبعة الأولى : ١٤٠٥هـــ: ٩٣٢/٣ .

٤-الصــــــــدّ :

قال تعـــالى: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ ﴾ [المائدة:٤٩].

أي احذر اليهود أن يصدُّوك ويصرفوك ويَستَزِلوك عن بعض مـــا أنـــزل الله إليك(١) . ومثلها في الإسراء: ﴿ ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الإسراء:٧٣] .

أي كاد المشركون أن يصدُّوك ويستزيلوك عن ما أوحاه الله إليك (٢).

٥-الضّـــلال :

قال تعـــالى : ﴿ فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الصافات: ١٦١ ــ١٦٣] .

أي لن تقدروا أيّها المشركون ومن عبدتموه مع الله أن تضلّوا أحداً إلاّ من قضى الله أنّه من أهل الجحيم . (٣)

فقوله "بفاتنين" أي بمضلّين(٤).

---

(١) انظر: مجاز القرآن: ١/١٦٨. تأويل مشكل القرآن: ص: ٤٧٣. جامع البيان: ١٠/٣٩٢. شاكر. وقـــد ذكـــر أسباب نزول الآية . زاد المسير: ٢/٢٨٧ . التّفسير الكبير: ١٢/١٤ ونقل فيه عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) أنّـه قال : "يريد به يردّوك إلى أهوائهم" . الجامع لأحكام القرآن : ٦/٢١٣ . قاموس القرآن للدّامغـــاني: ص: ٣٤٩ . كشف السّرائر لابن العماد : ص: ١٢٤ . محاسن التّأويل: ٦/٢٠١٩ . غريب الحديث للحربي: ٣/٩٣٧ .

(٢) انظر : تأويل مشكل القرآن: ص: ٤٧٣ . التّفسير الكبير: ٢١/٢٣ . الجـــامع لأحكـــام القـــرآن: ١٠/٣٠٠ . قاموس القرآن للدّامغاني: ص: ٣٤٩ . كشف السّرائر لابن العماد: ص: ١٢٤ . محاسن التـــأويل: ١٠/٣٩٥٦. غريب الحديث للحربي: ٣/٩٣٧ .

(٣) تيسير الكريم الرّحمن : ص: ٦٥٤. بتصرُّف يسير .

(٤) غريب القرآن وتفسيره لليزيدي : ص : ٣٢٠ . جامع البيان: ٢٣/١٠٩ – ١١٠. الحلبي . وذكر بالأسانيد مـــن قال ذلك من الصّحابة والتّابعين وغيرهم .معاني القرآن للزّجّاج: ٤/٣١٥. المفردات في غريب القرآن: ص:٣٧٢ . تفسير القرآن العظيم: ٤/٣٦. قاموس القرآن للدّامغاني: ص: ٣٤٩. كشف السّرائر لابـــن العمـــاد. ص: ١٢٤. محاسن التّأويل: ١٤/٥٠٦٨. غريب الحديث للحربي: ٣/٩٣٧

وفي حديث قَيْلَة بنت مَخْرَمة (رضي الله عنها) :" المسلم أخو المسلم يسعهما الماء والشّجر ويتعاونان على الفتّان" [(١)].

يروى بضمّ الفاء وفتحها. بالضمّ جمع فاتن، وهم الّذين يضلّون النّاس عن الحقّ. وبالفتح هو الشّيطان الّذي يضلّ النّاس عن دينهم . [(٢)]

وفي حديث جابر بن عبد الله ﷺ .قال النّبي ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ :"يا معاذ أفتّان أنت " [(٣)]. فالفتنة هنا صرف النّاس عن الدّين وحملهم على الضّلالة. [(٤)]

---

(١) سنن أبي داود . لأبي داود سليمان بن الأشعث السّجستاني. طبعة بيت الأفكار الدّوليّة . ١٤٢٠هـ — ١٩٩٩م : بلفظه — جزء من حديث — في : كتاب الخراج: (١٩) . باب في إقطاع الأرضين: (٣٤،٣٦). برقم : (٣٠٧٠). قال الألباني رحمه الله: " ضعيف الإسناد". ص:٣٤٧.

سنن البيهقي الكبرى . لأحمد بن الحسين بن عليّ أبي بكر البيهقي . تحقيق : محمّد عبد القادر عطا. طبعة مكتبة دار الباز . مكّة المكرّمة . ١٤١٤هـ — ١٩٩٤م: بلفظه في باب ما لا يجوز إقطاعه من المعادن الظاهرة. ١٥٠/٦

(٢) انظر :النّهاية في غريب الحديث : ٤١٠/٣. عون المعبود . لمحمّد شمس الحقّ العظيم آبادي . طبعة دار الكتب العلميّة. بيروت. الطّبعة الثّانية. ١٤١٥هـ: ٢٢٥/٨.

قال ابن منظور (رحمه الله) :

"الفتّان أيضاً اللّص الّذي يعرض للرّفقة في طريقهم . فينبغي لهم أن يتعاونوا على اللّص".

لسان العرب : ٣١٩/١٣.

(٣) صحيح البخاري: بلفظه (وهو جزء من حديث): في كتاب الأدب: (٥٢/٧٨) .باب من لم ير إكفار من قال ذلك متأوّلاً أو جاهلاً: (٧٤). برقم: (٦١٠٦). ص: ١٣٠٧. وبلفظ مقارب في: كتاب الأذان: (٥/١٠). باب من شكا إمامه إذا طوّل: (٢١٤/٦٣). برقم: (٧٠٥). ص: ١٥٨. وفي باب إذا صلّى ثمّ أمّ قوماً: (٢١٧/٦٦). برقم: (٧١١). ص: ١٥٩. ونحوه : في باب إذا طوّل الإمام وكان للرّجل حاجة فخرج فصلّى: (٢١١/٦٠). برقم: (٧٠١). ص: ١٥٧.

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الصّلاة: (٤). باب القراءة في العشاء: (٣٦) . برقم: (٤٦٥). ٣٣٩/١. ونحوه : في : ٣٤٠/١.

(٤) انظر: عون المعبود: ٥/٣.

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) :

"ومعنى الفتنة هاهنا أنّ التّطويل يكون سبباً لخروجهم من الصّلاة وللتّكرّه للصّلاة في الجماعة ".

فتح الباري . لأحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني. تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي . محب الدّين الخطيب. طبعة دار المعرفة. بيروت. ١٣٧٩هـ:١٩٥/٢.

٦ ــ العذاب:

من ذلك قولــــه تعــالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ﴾ [النحل:١١٠]. أي من بعد ما عُذِّبوا . (١)

كما تطلق الفتنة على نوع من العذاب وهو الأذى. ومثاله قوله تعــالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت:١٠]. أي جعل أذى النَّاس كعذاب الله تعالى(٢).

وقد تطلق على الإحراق بالنَّار خاصة، وهو نوع من العذاب . من ذلك قولـــــه تعــــالى: ﴿ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الذاريات:١٣ـ ١٤].

أي يوم هم على النَّار يحرقون فيقال لهم تقريعاً وتحقـــيراً وتوبيخـــاً: ذوقـــوا حريقكم الّذي كنتم به تستعجلون . ومن ذكر العذاب من العلماء إنّمـــا أراد العـــذاب بالنَّار وهو الإحراق بها (٣).

وقال الدّاودي (رحمه الله) :

" يحتمل أن يريد بقوله : "فتّان" : أي مُعَذِّب لأنّه عذّبهم بالتّطويل". فتح الباري: ١٩٥/٢. طبعة دار المعرفـــة

عون المعبود: ٥/٣. فعلى هذا يكون المراد بالفتنة هنا العذاب .

(١) انظر: معاني القرآن للزّجّاج: ٢٢٠/٣. الكشّاف: ٣٤٥/٢ . المكتبة التّجاريَّة . زاد المسير: ٣٦٤/٤ . وقد نقـــل ذلك المعنى عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) . التّفسير الكبير: ١٢٥/٢٠ – ١٢٦. الجامع لأحكـــام القـــرآن: ١٩٢/١٠. قاموس القرآن للدّامغاني: ص: ٣٤٨. كشف السَّرائر لابن العمـــاد: ص: ١٢٤. غريـــب الحديـــث للحربي: ٩٣٥/٣ .

(٢) انظر: مجاز القرآن : ١١٤/٢ . تأويل مشكل القرآن: ص: ٤٧٢ . جامع البيان: ١٣٢/٢٠-١٣٣. الحلبي . وقـــد نقل أقوال من قال ذلك من التّابعين وغيرهم . معاني القرآن للزّجّاج: ١٦١/٤ . الكشّاف. مطبعة الاستقامة بالقـــاهرة. الطّبعة الثّانية : ١٣٧٣هـ –١٩٥٣م . ٣٤٩/٣ . الجامع لأحكام القرآن: ٣٢٩/١٣ . تفســـير القـــرآن العظيـــم: ٦٤٦/٣-٦٤٧ . محاسن التّأويل . ٤٧٤٠/١٣ . غريب الحديث للحربي: ٩٣٤/٣ .

(٣) انظر: غريب القرآن وتفسيره لليزيدي: ص: ٣٤٨. تأويل مشكل القرآن: ص: ٤٧٢. جامع البيـــان: ١٩٣/٢٦– ١٩٥. الحلبي . وقد نقل أقوال الصّحابة والتّابعين وغيرهم في ذلك . المفردات في غريـــب القـــرآن: ص: ٣٧١. الجامع لأحكام القرآن: ٣٤/١٧-٣٥. تفسير القرآن العظيم: ٣٥٩/٤ . قاموس القرآن للدّامغـــاني: ص: ٣٤٨.

ومن ذلك استعاذة النّبي ﷺ من فتنة النّار(١).أي إحراقها وعذابها. (٢)

ومثل ذلك قولـــه تعـــالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [البروج:١٠] .

أي أحرقوهم وعذّبوهم بالنّار(٣).

٧- *القتــل :* ــ

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ [النساء:١٠١]

أي إن خفتم أن يقتلكم الّذين كفروا . فقد فسّرت الفتنة هنا بالقتل(٤).

كشف السّرائر لابن العماد: ص: ١٢٣. محاسن التّأويل: ٥٥٢٥/١٥. تيسير الكريم الرّحمن:ص: ٧٥١ . غريب الحديث للحربي: ٩٣٥/٣-٩٣٧ . التّبيان في أقسام القرآن . لابن قيّم الجوزيّة. تصحيح وتعليق محمّد حامد الفقي . دار المعرفة . بيروت ١٤٠٢هـ -١٩٨٢م . ص: ٢٩٠ . روضة المحبّين ونزهة المشتاقين . المنسوب لابن القيّم . فسّر غريبه وراجعه صابر يوسف . مطبعة الفجالة الجديدة . القاهرة . ١٩٧٣م. ص: ٤٣ .

(١) انظر: صحيح البخاري: كتاب الدّعوات: (٥٤/٨٠). باب التّعوّذ من المأثم والمغرم: (٣٩). برقم: (٦٣٦٨). ص: ١٣٥٧. وفي باب الاستعاذة من أرذل العمر ومن فتنة الدّنيا وفتنة النّار: (٤٤). برقم: (٦٣٧٥). ص: ١٣٥٩.

(٢) وانظر: فتح الباري: ١٨١/١١. طبعة دار المعرفة.

(٣) انظر: تأويل مشكل القرآن: ص: ٤٧٢. جامع البيان: ١٣٧/٣٠. الحلبي. نقل فيه أقوال من قال ذلك من الصّحابة والتّابعين وغيرهم . الكشّاف. طبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر: ٢٣٧/٤. التّفسير الكبير: ١٢١/٣١ . الجامع لأحكام القرآن: ٢٩٥/١٩. تفسير القرآن العظيم: ٧٨١/٤. قاموس القرآن للدّامغاني: ص: ٣٤٨ . كشف السّرائر لابن العماد: ص: ١٢٣ . معجم ألفاظ القرآن الكريم. مجمع اللّغة العربية . الطّبعة الثّانية ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م. الهيئة المصريّة العامّة للتّأليف والنّشر: ٣١٢/٢ . غريب الحديث للحربي: ٩٣٥/٣ . زاد المعاد: ١٦٩/٣ . التّبيان في أقسام القرآن: ص: ٢٩٠ .

(٤) انظر: جامع البيان: ١٢٣/٩. شاكر . زاد المسير: ١٨١/٢ . قاموس القرآن للدّامغاني: ص: ٣٤٨ . كشف السّرائر لابن العماد: ص: ١٢٤ . محاسن التّأويل: ١٥٠٢/٥ إلاّ أنّه قال: "يقاتلكم" فجعل الفتنة المقاتلة لا القتل . غريب الحديث للحربي: ٩٤٠/٣ .

ومثلــها قولــه تعـــــالى ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ [يونس:٨٣]. أي أن يقتلهم(١).

عن أسامة ﷺ أنّ النّبيّ ﷺ أشرف على أُطُم(٢) من آطام المدينة ثمّ قال:" هــل ترون ما أرى إنّي لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر" (٣).

يعني بذلك : القتل والحروب الّتي تكون بين المسلمين. (٤)

٨- الإثـــــم :-

قال تعـــــــــالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ﴾ [التوبة:٤٩].

---

(١) انظر: زاد المسير: ٤٦/٤. نقل ذلك عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) . قاموس القــرآن للدّامغـــاني: ص: ٣٤٨. كشف السّرائر لابن العماد: ص: ١٢٤ . غريب الحديث للحربي: ٩٤٠/٣ .

(٢) أطم: الأطم بضم الهمزة والطّاء هو القصر والحصن ، وجمعه آطام . ومعنى أشرف : علي وارتفع .
شرح صحيح مسلم . للإمام النّووي . طبعة دار الفكر :١٤٠١هـ ١٩٨١م : ٧/١٨.
وانظر: غريب الحديث . للقّاسم بن سلاّم أبي عبيد الهروي.تحقيق محمّد عبد المعيد خـــان. دار الكتـــاب العـــربي. بيروت. الطّبعة الأولى.١٣٩٦ هـــ:٧٢/٢ــ٧٣. غريب الحديث . لعبد الله بن مسلم بن قتيبة. تحقيق عبـــد الله الجبوري . مطبعة العاني. بغداد. الطّبعة الأولى. ١٣٩٧هــ:٢٨٦/٢. غريب الحديث . لحمد بن محمّد بن إبراهيـــم الخطّابي. تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرباوي. طبعة جامعة أمّ القرى. مكّـــة المكرّمـــة. ١٤٠٢هـــ :١٠٥/١. الفائق :٤٧/١.النّهاية في غريب الحديث:٥٤/١.

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الحجّ: (٨/٢٩). باب آطام المدينة: (٢١٧/٨). برقم: (١٨٧٨). ص: ٣٩١. وفي كتاب المظالم والغصب: (٢٢/٤٦). باب الغرفة والعليّة المشرفة: (٢٥). برقم: (٢٤٦٧). ص: ٥١٢. إلاّ أنّــه قال:"إنّي أرى". و بلفظ مقارب في: كتاب المناقب: (٣٧/٦١). باب علامات النّبوّة في الإسلام: (٢٥). برقـــم: (٣٥٩٧). ص: ٧٥٧. وفي كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب قول النّبي ﷺ : "ويل للعرب من شرّ قد اقـترب": (٤). برقم: (٧٠٦٠). ص: ١٤٩١.
صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب نزول الفتن كمواقع القطـــر: (٣). برقـــم: (٢٨٨٥). ٢٢١١/٤.

(٤) انظر: شرح النّووي على مسلم: ٨/١٨. فتح الباري: ١٣/١٣. طبعة دار المعرفة.

قال الزّجّاج (رحمه الله) :

"أي لا تؤثّمْني بأمرك إيّاي بالخروج وذلك غير متيسّر لي فآثم" [١].

فالفتنة هنا الإثم [٢]. وبعض العلماء نصّ على أنّ المراد بالفتنة هنـــا المعصيـــة[٣]. والمعنى متقارب .

٩- *المصيبة والشّر:* ـــ

من ذلك قولـــه ســـبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾ [الحج:١١].

أي إن أصابه خير ورخاء وعافية اطمأنّ به ، وإن أصابته مصيبة وشـــرّ وشـــدّة ارتدّ عن إسلامه وفارق دينه[٤].

وفي حديث عائشة (رضي الله عنها) في استعاذة النّبي ﷺ من فتنة الفقـــر[٥]. فسّرها بعض العلماء بالمصيبة [٦].

---

(١) معاني القرآن: ٢/٤٥١ .

(٢) انظر: مجاز القرآن: ١/٢٦١. تأويل مشكل القرآن: ص: ٤٧٣. جامع البيان: ١٤/٢٨٦-٢٨٨. شاكر. وفيه أنّ قائل ذلك هو الجدّ بن قيس أخو بني سلمة. فقد قال له النّبي ﷺ عندما أراد غزوة تبوك: "هل لك يا جدّ العـــام في جلاد بني الأصفر ـــ أي الرّوم ـــ؟ فقال: يا رسول الله: أو تأذن لي ولا تفتنّي، فو الله لقد عرف قومي ما رجـــل أشدّ عُجباً بالنّساء منّي ، وإنّي أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهنّ.فأعرض عنـــه رســـول الله ﷺ وقال: "قد أذنت لك". ففي الجدّ بن قيس نزلت هذه الآية . زاد المسير: ٣/٣٠٥ . التّفســـير الكبـــير: ١٦/٨٣. الجامع لأحكام القرآن: ٨/١٥٩ .

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٨/١٥٩ . زاد المعاد: ٣/١٧٠ .

(٤) انظر: جامع البيان: ١٧/١٢٢-١٢٣. الحلبي . معاني القرآن للنّحاس: ٤/٣٨٣ . تفسير القرآن العظيم : ٣/٣٣٥ – ٣٣٦ . تيسير الكريم الرّحمن: ص:٤٨٤ .

(٥) انظر: صحيح البخاري: كتاب الدّعوات: (٨٠/٥٤). باب التّعوّذ من المأثم والمغـــرم: (٣٩). برقـــم: (٦٣٦٨). ص: ١٣٥٧. وباب التّعوّذ من فتنة الفقر: (٤٦). برقم: (٦٣٧٧). ص: ١٣٥٩.

صحيح مسلم : كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨). باب التّعوّذ من شر الفـــتن وغيرهـــا: (١٤). برقم: (٥٨٩). ٤/ ٢٠٧٨-٢٠٧٩.

(٦) انظر: فيض القدير: ٢/١٢٧.

١٠-الفضيحة :-

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [المائدة: ٤١] .

قيل في معنى الفتنة هنا: أي ومن يرد الله فضيحته . وهناك أقوال أخرى (١).

١١- المعذرة :-

قال الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنعام:٢٢-٢٣].

أي لم تكن معذرتهم حين قيل لهم ذلك إلاّ أن قالوا والله ربّنا ما كنّا مشركين . ومن فسّر من العلماء الفتنة هاهنا بالقول : أي بمعنى لم يكن قولهم. لا يخالف ما ذكر . إذ قولهم هو الّذي اعتذروا به عن شركهم (٢).

١٢- الجنون :-

قال تعالى: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ ﴾ [القلم: ٥، ٦].

---

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزّجّاج: ١٧٦/٢ . زاد المسير: ٢٧٧/٢ . لسان العرب: ٣١٩/١٣.تاج العروس: ٤٢٥/١٨ .

(٢) انظر: جامع البيان: ٢٩٧/١١-٣٠٠. شاكر. وقد ذكر من قال بذلك من الصّحابة والتّابعين . معاني القرآن للزّجّاج . ٢٣٥/٢-٢٣٦ . وقال : " وتأويل هذه الآية تأويل حسن في اللّغة لطيف ، لا يفهمه إلاّ من عرف معاني الكلام وتصرُّف العرب في ذلك ، والله جلّ وعزّ ذكر في هذه الأقاصيص الّتي جرت في أمر المشركين وهم مفتتنون بشركهم ، أعلم الله أنّه لم يكن افتتانهم بشركهم وإقامتهم عليه إلاّ أن تبرّءوا منه وانتفوا منه ، فحلفوا أنّهم ما كانوا مشركين . ومثل ذلك في اللّغة أن ترى إنساناً يحبّ غاوياً فإذا وقع في هلكة تبرّأ منه، فتقول له: ما كانت محبّتك لفلان إلاّ أن انتفيت منه" . زاد المسير: ١٤/٣. الجامع لأحكام القرآن: ٤٠٢/٦. تفسير القرآن العظيم: ٢٠٤/٢. قاموس القرآن للدّامغاني: ص: ٣٤٩. كشف السّرائر لابن العماد: ص: ١٢٤. محاسن التّأويل: ٢٢٧٣/٦-٢٢٧٤ .

إمّا أن يراد بالمفتون المجنون . وتكون الباء بمعنى في. فيكون الكلام: في أي الفريقين المجنون؟

وإمّا أن يراد بالمفتون الجنون . فيكون المفتون مصدراً بمعنى الفتون كقولك: معقود وميسور بمعنى العقد واليُسر .

وقيل: المفتون هو الشّيطان . أي قالوا: إنّ به شيطاناً . وهو الّذي يحصل من مسّه الجنون(١).

١٣- الإعجاب بالشّيء: —

قال تعالى: ﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [يونس:٨٥].

قال قوم موسى ﷺ : أي ربّنا لا تظفر بنا قوم فرعون وتسلّطهم علينا فيظنّوا أنّهم إنّما سلّطوا علينا لأنّهم على الحقّ ونحن على الباطل . فيعجبوا بذلك(٢).

---

(١) انظر: جامع البيان : ٢٩/١٩-٢٠. الحلبي . ذكر من قال ذلك من الصّحابة والتّابعين . ثمّ قال: "وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصّواب: قول من قال: معنى ذلك: بأيّكم الجنون؟ ووجه المفتون إلى الفتون بمعنى المصدر، لأنّ ذلك أظهر معاني الكلام" . التّفسير الكبير: ٨٢/٣٠ . الجامع لأحكام القرآن: ٢٢٩/١٨ . تفسير القرآن العظيم: ٦٣٠/٤ . قاموس القرآن للدّامغاني : ص: ٣٤٩ . محاسن التّأويل: ٥٨٩٣/١٦ . روضة المحبّين: ص: ٤٣. التّبيان في أقسام القرآن: ص: ٢١٨-٢١٩ .

ذكر فيه ابن القيّم (رحمه الله) أقوال العلماء في الآية: ثمّ قال:

"وهذه الأقوال كلّها تكلّف ظاهر لا حاجة إلى شيء منه . وستبصر : مضمّن معنى تشعر وتعلم ، فعدّى بالباء كما تقول: ستشعر بكذا وتعلم به . قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ [العلق:١٤] . وإذا دعاك اللّفظ إلى المعنى من مكان قريب فلا تجب من دعاك إليه من مكان بعيد" .

وانظر إلى أقوال أهل اللّغة في معنى "الباء" في تهذيب اللّغة: ٢٩٩/١٤ .

(٢) انظر: جامع البيان: ١٦٨/١٥-١٦٩. شاكر . معاني القرآن للزّجّاج: ٣٠/٣ . معاني القرآن للنّحّاس: ٣٠٩/٣. زاد المسير: ٧٤/٤ . التّفسير الكبير: ١٤٦/١٧ . الجامع لأحكام القرآن: ٣٧٠/٨ . تفسير القرآن العظيم: ٦٦٣/٢ . غريب الحديث للحربي: ٩٣٨/٣-٩٣٩ . إغاثة اللّهفان: ١٦٤/٢ . تاج العروس: ٤٢٥/١٨ .

وذهب ابن قتيبة (رحمه الله) إلى أنّ المراد بالفتنة هنا العبرة . فقال:

" أي يعتبرون أمرهم بأمرنا، فإذا رأونا في ضرٍّ وبلاء ورأوا أنفسهم في غبطة ورخاء ظنّوا أنّهم على حقّ ، ونحن على باطل" (١).

وعن أسامة بن زيد (رضي الله عنهما) عن النّبي ﷺ قال:" ما تركت بعدي فتنة أضرَّ على الرّجال من النّساء" (٢).

أي يعجب الرّجال بالنّساء فينشغلوا عن العمل الصّالح. (٣)

١٤- *اللّبس والشّبهات* : ــ

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [آل عمران:٧].

أي الّذين في قلوبهم مرض وميل عن الاستقامة ، وانحراف لسوء قصدهم يتّبعون ما تشابه من كلام الله طلباً لإيقاع غيرهم في الشّبهات واللَّبس . وهو المراد بالفتنة هنا(٤).

ومن فسَّرها من العلماء بفساد ذات البين ، فسَّرها باللاّزم . لأنّ طلب الشّبهات واللَّبس على عباد الله يؤدّي إلى الخلاف بينهم والتّقاتل وهو فساد ذات البين .

---

(١) تأويل مشكل القرآن: ص: ٤٧٤ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب النّكاح: (٦٧/٤١). باب ما يتّقي من شؤم المرأة: (١٧/١٨). برقم : (٥٠٩٦). ص: ١١٢١.

صحيح مسلم : كتاب الرّقاق. باب أكثر أهل الجنّة الفقراء وأكثر أهل النّار النّساء: (٢٦). برقم: (٢٧٤٠). ٢٠٩٧/٤. وزاد:" هي أضرّ". و بلفظ مقارب : في الكتاب والباب السّابقين . برقم: (٢٧٤١). ٢٠٩٨/٤. وزاد في الإسناد: سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ﷺ .

(٣) انظر:فتح الباري : ٢٥٨/١١.طبعة دار المعرفة. لسان العرب: ٣١٩/١٣.

(٤) انظر: جامع البيان: ١٩٦/٦-١٩٩. شاكر . معاني القرآن للزّجاج: ٣٧٧/١. معاني القرآن للنّحاس: ٣٠٨/٢ . زاد المسير: ٣٠٣/١. التّفسير الكبير: ١٧٥/٧. الجامع لأحكام القرآن: ١٥/٤ تفسير القرآن العظيم: ٥١٧/١-٥١٨. محاسن التّأويل: ٧٥٢/٤. تيسير الكريم الرّحمن: ص:١٠١-١٠٢ .

الفصل الثّاني

إخبار الرّسول ﷺ بالفتن وتحذيره منها وظهورها

وفيه مبحثان:

المبحث الأوّل

إخبار الرّسول ﷺ بالفتن وتحذيره منها

وفيه مطلبان :

﴿المطلب الأوّل﴾

إخبار الرّسول ﷺ بالفتن

لقد أخبر الرّسول ﷺ أصحابه بالفتن الّتي أوحى الله إليه بوقوعها في الأمّة .
فعن أمّ سلمة (رضي الله عنها) زوج النّبي ﷺ قالت: استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزعاً يقول: "سبحان الله ماذا أنزل الله من الخزائن وماذا أنزل من الفتن ، من يوقظ صواحب الحجرات – يريد أزواجه – لكي يصلّين ، ربّ كاسية في الدّنيا عارية في الآخرة " .(١)

(١) صحيح البخاري : بلفظه في: كتاب الفتن : (٩٢/٦٧). باب لا يأتي زمان إلاّ الّذي بعده شرّ منه: (٦). برقم: (٧٠٦٩). ص: ١٤٩٢. وبلفظ مقارب في: كتاب العلم: (٣). باب العلم والعظة باللّيل: (٤٠). برقم: (١١٥). ص: ٤٢-٤٣. وفي كتاب الصّلاة: (١٩/٥). باب تحريض النّبي ﷺ على صلاة اللّيل والنّوافل من غير إيجاب: (٥/٤٨٢). برقم: (١١٢٦). ص: ٢٣٩. وفي كتاب اللّباس: (٧٧/٥١). باب ما كان النّبي ﷺ يتجوّز من اللّباس والبُسُط: (٣١). برقم: (٥٨٤٤). ص: ١٢٦٤. وفي كتاب الأدب: (٧٨/٥٢). باب التّكبير والتّسبيح عند التعجّب: (١٢١). برقم: (٦٢١٨). ص: ١٣٢٧-١٣٢٨. ونحوه: في كتاب المناقب: (٦١/٣٧). باب علامات النّبوّة في الإسلام: (٢٥). برقم: (٣٥٩٩). ص: ٧٥٨.

وفي حديث أسامة بن زيد (رضى الله عنهما) قال: أشرف النّبي ﷺ على أُطُم من آطام المدينة فقال: "هل ترون ما أرى ؟ قالوا: لا . قال: " فإنّي لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القَطْر " [1].

والتَّشبيه بوقع القطر في الكثرة والعموم، أي إنّها كثيرة وتعمُّ النّاس ، لا تختصّ بها طائفة دون طائفة. وهذا إشارة إلى الحروب الجارية بينهم.[2]

وقد كان ﷺ حريصاً كلّ الحرص على بيانها وتوضيح أمرها إلى صحابته ﷺ . بل بلغ من حرصه في بيانها أن جعلها من أهمّ الأمور الّتي يجب أن يُعلم خبرها ويُنذر شرّها .

عن عبد الرحمن بن عبد ربّ الكعبة [3] قال: دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس في ظلّ الكعبة ، والنّاس مجتمعون عليه ، فأتيتهم فجلست إليه ، فقال: كنّا مع رسول الله ﷺ في سفر فنزلنا منزلاً، فمنّا من يصلح خِباءه[4]، ومنّا من يَنْتَضِل[5] ، ومنّا من هو في جَشَرِه[6] ، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ : الصّلاة جامعة ، فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: " إنّه لم يكن نبيٌّ قبلي إلاّ كان حقّاً عليه أن يدلّ أمّته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شرّ ما يعلمه لهم ، وإنّ

---

(1) الحديث سبق تخريجه . انظر: ص: ١٨ .

(2) شرح النّووي على مسلم:٧/١٨ـ٨ .عمدة القاري شرح صحيح البخاري . لبدر الدّين محمود بن أحمد العيني . طبعة دار إحياء التّراث العربي . بيروت : ١٨٢/٢٤.

(3) هو عبد الرّحمن بن عبد ربّ الكعبة العائذي أو الصائدي . كوفي ثقة .من كبار التّابعين . سمع ابن مسعود وعبد الله بن عمرو . روى له مسلم وأبو داود والنّسائي وابن ماجة هذا الحديث وحده .
وانظر: التّاريخ الكبير: ٣١٩/٥. معرفة الثّقات: ٨١/٢.الجرح والتّعديل :٢٦١/٥. ثقات ابن حبّان:١٠١/٥. تهذيب الكمال: ٢٥١/١٧. الكاشف:٦٣٥/١. تهذيب التّهذيب:١٩٩/٦. تقريب التّهذيب: ٣٤٥/١.

(4) الخِباء: أحد بيوت العرب من وَبَر أو صوف ، ولا يكون من شعر ، ويكون على عمودين أو ثلاثة . والجمع أخبية. وسمّي خباء لأنّه يختبأ فيه . النّهاية في غريب الحديث: ٩/٢ بتصرُّف يسير.

(5) ينتضل: أي يترامى بالسهام لأحلّ السَّبق .
انظر: الفائق: ٤٣٩/٣. النّهاية في غريب الحديث: ٧١/٥.

(6) جشره: المراد أنّهم أخرجوا دوابهم ومكثوا معها للرّعي .
وانظر: غريب الحديث للهروي:٤١٩/٣. غريب الحديث لابن قتيبة: ٦٨/٢. غريب الحديث للخطّابي: ٦٧٧/١. الفائق: ٢١٥/١. النّهاية في غريب الحديث: ٢٧٣/١.

أمّتكم هذه جعل عافيتها في أولّها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونـــها، وتجـــئ فتنة فيُرقِّق بعضها بعضاً [(١)] ، وتجئ الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلكتي ثمّ تنكشـف، وتجئ الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه ، فمن أحبّ أن يزحزح عن النّار ويدخل الجنّة، فلتأته مَنِيَّتُه وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى النّاس الّذي يحبّ أن يؤتى إليه ..." الحديث [(٢)] .

وقد أطال ﷺ في ذكرها حتّى ينجلي أمرها، وينهتك سترها .

عن حذيفة ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً ما ترك شيئاً يكون في مقامـــه ذلك إلى قيام السّاعة إلاّ حدّث به ، حفظه من حفظه ونسيه من نسـيه ، قـد علمـه أصحابي هؤلاء ، وإنّه ليكون منه الشّيء قد نسيته فأراه فأذكره كما يذكـر الرّجـل وجه الرّجل إذا غاب عنه ، ثمّ إذا رآه عرفه" [(٣)].

وعن أبي زيد عمرو بن أخطب ﷺ قال: صلّى بنا رســول الله ﷺ الفجـر، وصعد المنبر فخطبنا حتّى حضرت الظّهر، فنزل فصلّى، ثمّ صعد المنبر فخطبنـــا حتّى حضرت العصر، ثمّ نزل فصلّى، ثمّ صعد المنبر فخطبنا حتّى غربت الشّـمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن ، فأعلمنا أحفظنا " .[(٤)]

وعن طارق بن شهاب (رحمه الله)[(٥)] قال: سمعت عمر ﷺ يقول: " قام فينـــا النّبي ﷺ مقاماً، فأخبرنا عن بدء الخلق حتّى دخل أهل الجنّة منازلهم ، وأهل النّار

---

(١) يرقق بعضها بعضاً : أي :يحسن. غريب الحديث للهروي: ٤/٤٤٢.
قال ابن الأثير (رحمه الله) : "والمعنى : أي تُشَوِّق بتحسينها وتسويلها " . النّهاية في غريب الحديـــث: ٢/٢٥٣.
وانظر: الفائق: ٢/٧٩.

(٢) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الإمارة: (٣٣). باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء ، الأوّل فالأوّل: (١٠). برقم: (١٨٤٤). ٣/١٤٧٢-١٤٧٣.

(٣) المرجع السّابق: بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب إخبار النّبي ﷺ فيما يكون إلى قيام السّـــاعة: (٦). برقم: (٢٨٩١). ٤/٢٢١٧.

(٤) المرجع السّابق: بلفظه في: الكتاب والباب السّابقين. برقم: (٢٨٩٢). ٤/٢٢١٧.

(٥) طارق بن شهاب بن عبد شمس أبو عبد الله الأسلمي البجلي الأحمس الكوفي . أدرك الجاهليّة . قـــال أبـــو داود: "رأى النّبي ﷺ ولم يسمع منه" .وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة:"إذا ثبت أنّه لقي النّبي ﷺ فهو صحـــابي علـــى

منازلهم ، حفظ ذلك من حفظه ، ونسيه من نسيه " (١) .

وكان ﷺ يكثر من ذكرها، فتارة يبيّن أنواعها، وأخرى يفصّل إجمالها .

عن عبد الله بن عمر(رضي الله عنهما) قال: كنا قعوداً عند رسول الله فذكـر الفتن فأكثر في ذكرها حتّى ذكر فتنة الأحْلاس(٢). فقال قائل: يا رسول الله وما فتنة الأحلاس ؟ قال : " هي هَرَبٌ وحَرَبٌ(٣) ، ثمّ فتنة

الراجح ، وإذا ثبت أنّه لم يسمع منه فروايته عنه مرسل صحابي ، وهو مقبول على الراجح". وكانت أكثر روايته عن الصّحابة. توفي سنة: ٨٣هـ. وقيل: ٨٢هـ .

وانظر:الطّبقات الكبرى: ٦/٦٦. التّاريخ الكبير: ٤/٣٥٢. معرفة الثّقات: ١/٤٧٥. الجرح والتّعديل: ٤/٤٨٥. ثقات ابن حبّان: ٣/٢٠١. مشاهير علماء الأمصار . لأبي حاتم محمّد بن حبّان البستي . تحقيق : م. فلايشهمر طبعة دار الكتب العلميّة. بيروت.١٩٥٩م : ١/٤٨. الكاشف: ١/٥١١. الإصابة في تمييز الصّحابة . لابن حجر العسقلاني . تحقيق : عليّ محمّد البجاوي . طبعة دار الجيل . بيروت. الطّبعة الأولى . ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م : ٣/٥١٠. تهذيب التّهذيب: ٥/٤. تقريب التّهذيب: ١/٢٨١.

(١) صحيح البخاري : بلفظه في: كتاب بدء الخلق: (٥٩/٣٥). باب ما جاء في قول الله تعالى : : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ [الروم:٢٧] : (١). برقم: (٣١٩٢). ص: ٦٧٥.

(٢) الأحلاس : جمع حِلْس وهو كساء يكون تحت البَرْذَعة التي توضع على ظهر البعير. وهو أيضاً بساط يبسط في البيت.

انظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ١/٥٦٢. غريب الحديث للخطّابي: ٢/٤٢٧. الفائق: ١/٣٠٤. النّهاية في غريب الحديث: ١/٤٢٣.

قال الخطّابي (رحمه الله):

" إنّما أضيفت الفتنة إلى الأحلاس لدوامها وطول لبثها . يقال للرّجل إذا كان يلزم بيته لا يبرح منه : هو حلس بيته ، لأنّ الحلس يفترش فيبقى على المكان مادام لا يرفع . وقد يحتمل أن تكون هذه الفتنة إنّما شبّهت بالأحلاس لسواد لونها وظلمتها".

معالم السنن لأبي سليمان الخطّابي مع مختصر سنن أبي داود وتهذيب ابن القيّم . تحقيق محمّد حامد الفقي. مطبعة السّنة المحمّدية ١٣٦٩هـ ـ ١٩٤٩م. : ٦/١٣١. وانظر: غريب الحديث لـه: ١/٢٨٧. و الفائق: ١/٣٠٥.

(٣)الحَرَب بالتحريك : نهب مال الإنسان وتركه لاشيء له . النّهاية في غريب الحديث: ١/٣٥٨.

وقال الخطّابي (رحمه الله): "الحَرَب: ذهاب المال والأهل ، يقال: حرِب الرّجل فهو حريب: إذا سلب أهله وماله".

معالم السنن مع المختصر:٦/١٣١.

السَّرَّاء[1] دَخَنُها[2] من تحت قدمي رجل من أهل بيتي يزعم أنّه منّي وليس منّي ، وإنّما أوليائي المتّقون . ثمّ يصطلح النّاس على رجل كوَرِك على ضِلَع .[3] ثمّ فتنة الدُّهَيْماء[4] لا تدع أحداً من هذه الأمّة إلاّ لطمته لطمة ، فإذا قيل انقضت تمادت ، يصبح الرّجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً ، حتّى يصير النّاس إلى فُسْطَاطين[5]:

(1) السَّرَّاء : هي البطحاء. الفائق: ٣٠٥/١. النّهاية في غريب الحديث: ٣٦١/٢.

كما تطلق السَّرَّاء على حالة اليسر والسّعة والرّاحة ، وهي بخلاف الضّرّاء. انظر: المرجع السّابق: ٣٦١/٢.

(2) دَخَنها: الدَّخَن: هو الدّخان. وأصله أن يكون في لون الدّابّة أو الثّوب أو غير ذلك كدورة إلى سواد.

انظر: غريب الحديث للهروي: ٢٦٢/٢.

شبّه ظهور تلك الفتنة وإثارتها بظهور الدّخان وارتفاعه، أي أنّها تثور من تحت قدمه كما يثور الدّخان ويرتفع . لأنّه ـــ أي الرّجل ـــ سبب إثارتها.

انظر: غريب الحديث للخطّابي: ٢٨٧/١. النّهاية في غريب الحديث: ١٠٩/٢. وانظر: الفائق: ٣٠٥/١.

(3) كورك على ضِلَع :

قال الخطّابي (رحمه الله):

"كورك على ضلع: مثل ، ومعناه: الأمر الّذي لا يثبت ولا يستقيم . وذلك أنّ الضلع لا يقوم بالورك ولا يحمله ، وإنّما يقال في باب الملائمة والموافقة إذا وصفوا : هو ككفّ على ساعد ، وكساعد في ذراع ، أو نحو ذلك . يريد أنّ هذا الرّجل غير خليق للملك ولا مستقل به ". معالم السنن مع المختصر :١٣١/٦ـــ١٣٢.

وذكر نحواً منه في غريب الحديث: ٢٨٧/١. وانظر: الفائق: ٣٠٥/١.

وقال ابن الأثير: (رحمه الله) :

" يصطلح على رجل كورك على ضلع : أي يصطلحون على أمر واهٍ لا نظام له ولا استقامة ، لأنّ الورك لا يستقيم على الضلع ولا يتركّب عليه ، لاختلاف مابينهما وبعده" . النّهاية في غريب الحديث: ١٧٦/٥.

(4) الدُّهَيْماء : تصغير الدَّهْماء ، وهي الدَّاهية . انظر: غريب الحديث للهروي: : ١٢٥/٤. الفائق: ٣٠٥/١.

قيل: صغّرها على طريق المذمّة لها. انظر: غريب الحديث للخطّابي: ٢٨٧/١.

وقيل: صغّرها للتّعظيم . وأراد بفتنة الدّهيماء : الفتنة المظلمة. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ١٤٦/٢.

(5) الفُسْطاط: بالضّمّ والكسر: المدينة الّتي فيها مجتمع النّاس ، وكلّ مدينة فسطاط .

المرجع السّابق : ٤٤٥/٣.

قال الزّمخشري : "هو ضرب من الأبنية في السّفر دون السّرادق" . الفائق: ١١٦/٣.

زاد ابن الأثير: "وبه سمّيت المدينة. ويقال لمصر والبصرة الفسطاط". النّهاية في غريب الحديث: ٤٤٥/٣.

فُسْطَاط إيمان لا نفاق فيه ، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه . فإذا كان ذاكم فانتظروا الدّجال من يومه أو من غده" . (١)

ومن هذه الأحاديث يتبيّن أنّ الصّحابة ﷺ كان عندهم العلم الكثير بأحاديث الفتن.(٢) وإن خصّ بعضهم بمزيد علم .

عن حذيفة ﷺ أنّه قال: "أخبرني رسول الله ﷺ بما هو كائن إلى أن تقوم السّاعة، فما منه شيء إلاّ قد سألته ، إلاّ أنّي لم أسأله ما يخرج أهل المدينة من المدينة" (٣) .

وحذيفة ﷺ هو القائل: "والله إنّي لأعلم النّاس بكلّ فتنة هي كائنة فيما بيني وبين السّاعة. وما بي إلاّ أن يكون رسول الله ﷺ أسرَّ إليّ في ذلك شيئاً لم يحدّثه غيري. ولكن رسول الله ﷺ قال وهو يحدّث مجلساً أنا فيه عن الفتن ، فقال رسول الله ﷺ وهو يعدّ الفتن : "منهنّ ثلاث لا يكدن يَذَرْن شيئاً، ومنهنّ فتن كرياح الصّيف، منها صغار ومنها كبار". قال حذيفة: فذهب أولئك الرّهط كلّهم غيري" (٤) .

ومع هذا فإنّ الصّحابة ﷺ لم يُشيعوا أحاديث الفتن كما أشاعوا أحاديث الأحكام . وإنّما اقتصروا على ما فيه نفع وفائدة . وسكتوا عمّا يؤدّي إلى الشّرور .

---

(١) سنن أبي داود: بلفظه في: كتاب الفتن والملاحم: (٣٤). باب ذكر الفتن ودلائلها: (١). برقم: (٤٢٤٢). قال الألباني رحمه الله: "صحيح". ص: ٤٦٣.
مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ١٣٣/٢. قال أحمد شاكر رحمه الله: " إسناده صحيح ". مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر . طبعة دار المعارف . مصر . ١٣٧٧هـ ـ١٩٥٨م : ٩/ ٢٤-٢٦. برقم : (٦١٦٨) .
المستدرك على الصّحيحين . لمحمّد بن عبد الله الحاكم النّيسابوري . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت. الطّبعة الأولى : ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م . تحقيق مصطفى عبد القادر عطا : بلفظ مقارب في: ٥١٣/٤. وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه".

(٢) انظر: التّذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة : لأبي عبد الله القرطبي .دار الرّيان للتّراث . القاهرة . الطّبعة الثّانية : ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م : ص: ٦٤١.

(٣) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب إخبار النّبي ﷺ فيما يكون إلى قيام السّاعة : (٦) . برقم: (٢٨٩١). ٢٢١٧/٤.

(٤) المرجع السّابق : بلفظه في : الكتاب والباب السّابقين . برقم: (٢٨٩١). ٢٢١٦/٤.

فعن أبي هريرة ﷺ أنّه قال: "حفظت من رسول الله وعاءين، فأمّا أحدهما فبثثته ، وأمّا الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم" (١).

وهو الّذي قال لجماعة فيهم مروان بن الحكم(٢) : سمعت الصّادق المصدوق يقول: "هلكة أمّتي على يد غِلْمة من قريش " . فقال مروان: لعنة الله عليهم غلمة . فقال أبو هريرة : "لو شئت أن أقول بني فلان ، وبني فلان لفعلت" (٣) .

قال القرطبي (رحمه الله):

"قال علماؤنا رحمة الله عليهم: هذا الحديث يدلّ على أنّ أبا هريرة كان عنده من علم الفتن العلم الكثير، والتّعيين على من يحدث عنه الشّر الغزير، ألا تراه يقول: لو شئت قلت لكم هم بنو فلان وبنو فلان ، لكنّه سكت عن تعيينهم مخافة ما يطرأ من ذلك من المفاسد" (٤) .

---

(١) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب العلم : (٣). باب حفظ العلم : (٤٢). برقم: (١٢٠). ص: ٤٣.

(٢) هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس أبو عبد الملك الأموي القرشي . ولد سنة اثنتين من الهجرة . ولم يصح له سماع من النّبي ﷺ ، ولم تثبت له صحبة. كان ابن عمّ عثمان ﷺ وكاتبه في خلافته. تولّى إمرة المدينة لمعاوية ، وبويع له بالخلافة بعد موت معاوية بن يزيد ، وخلافته تسعة أشهر وأيّام . مات في رمضان سنة ٦٥هـ.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٣٥/٥. التّاريخ الكبير: ٣٦٨/٧. الجرح والتّعديل: ٢٧١/٨. تهذيب الكمال: ٣٨٧/٢٧. الكاشف: ٢٥٣/٢. الإصابة: ٢٥٧/٦. تهذيب التّهذيب: ٨٢/١٠. تقريب التّهذيب: ٥٢٥/١. لسان الميزان: ٣٨٢/٧.

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب قول النّبي ﷺ :" هلاك أمّتي على يدي أغيلمة سفهاء": (٣). برقم: (٧٠٥٨). ص:١٤٩٠. وبلفظ مقارب في: كتاب المناقب: (٣٧/٦١). باب علامات النّبوّة في الإسلام: (٢٥). برقم: (٣٦٠٤). ص: ٧٥٨. وبرقم: (٣٦٠٥). ص:٧٥٨-٧٥٩.

صحيح مسلم: بمعناه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب لاتقوم السّاعة حتّى يمرّ الرّجل بقبر الرّجل فيتمنّى أن يكون مكان الميّت من البلاء: (١٨). برقم: (٢٩١٧). ٢٢٣٦/٤.

(٤) التّذكرة: ص: ٦٤٣.

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله):

"والمراد بالأمّة هنا أهل ذلك العصر ومن قاربهم لا جميع الأمّة إلى يوم القيامة ... وعن أبي هريرة رفعه : "أعوذ بالله من إمارة الصّبيان ، قالوا: وما إمارة الصّبيان؟ قال: إن أطعتموهم هلكتم ــ أي في دينكم ــ وإن عصيتموهم أهلكوكم " أي في دنياكم بإزهاق النّفس أو بإذهاب المال أو بهما . وفي رواية ... أنّ أبا هريرة كان يمشي في السّوق ويقول: "اللّهم لا تدركني سنة ستين ولا إمارة الصّبيان" . وفي هذا إشارة إلى أنّ أوّل الأغيلمة كان في سنة

﴿ المطلب الثّاني ﴾

تحذير الرّسول ﷺ من الفتن

لقد حذّر النّبي ﷺ من الفتن ، و أنذر بها . وما حذّر وأنذر به فلا شك في وقوعه ، وقد قال سبحانه في شأنه: : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾ [النجم: ٣،٤] .

عن زينب بنت جحش (رضي الله عنها) زوج النّبي ﷺ قالت: خرج رسول الله ﷺ يوماً فزعاً مُحْمَرّاً وجهه يقول: "لا إله إلاّ الله ويل للعرب من شرّ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه" . وحلّق بإصبعه الإبهام والّتي تليها . قالت: فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصّالحون؟ قال: "نعم إذا كثر الخبث" (١) .

ففي الحديث تحذير بقرب وقوع الشّر وهو المعبّر عنه بقوله "فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه" (٢) .

ستين ، وهو كذلك فإنّ يزيد بن معاوية استخلف فيها وبقي إلى سنة أربع وستين فمات ، ثّم ولي ولده معاوية ومات بعد أشهر ... والمراد أنّهم يهلكون النّاس بسبب طلبهم الملك والقتال لأجله فتفسد أحوال النّاس ، ويكثر الخبط بتوالي الفتن ، وقد وقع الأمر كما أخبر ﷺ ".

فتح الباري لأحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني . دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع . الطّبعة الأولى: ١٩٩٣م-١٤١٤هـ. ١٤/٥٠٠ .

(١) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب أحاديث الأنبياء: (٦٠/٣٦). باب قصّة يأجوج ومأجوج: (٨/٧). برقم: (٣٣٤٦). ص: ٧٠٤. وفي كتاب المناقب: (٦١/٣٧). باب علامات النُّبوّة في الإسلام: (٢٥). برقم: (٣٥٩٨). ص:٧٥٧-٧٥٨. وفي كتاب الفتن : (٩٢/٦٧). باب قول النّبي ﷺ "ويل للعرب من شرّ قد اقترب": (٤). برقم: (٧٠٥٩). ص: ١٤٩٠-١٤٩١. وفي كتاب الأحكام: (٩٣/٦٨). باب يأجوج ومأجوج: (٢٨/٢٩). برقم: (٧١٣٥). ص:١٥٠٣.

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج: (١). برقم: (٢٨٨٠). ٤/٢٢٠٨. و بلفظ مقارب في: ٤/٢٢٠٧.

(٢) انظر: عون المعبود :١١/٢١٥.

وإذا فتح ذلك القدر في زمنه ﷺ لم يزل الفتح يتّسع على مرّ الأوقـــات [١]. وفـــي ذلك دلالة على توالي الفتن ووقوعها في الأمَّة .

وجاء ذلك صراحة في حديث أمّ سلمة "ماذا أنزل الله من الخزائن وماذا أنزل من الفتن" [٢].

وفي حديث أسامة "فإنّي لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر" [٣].

وخاطب بذلك العرب وخصّهم بالذّكر لأنّهم كانوا حينئذ معظم من أســـلم [٤]. وأنّ الفتن إذا وقعت كان الهلاك إليهم أسرع [٥].

وقد حثَّ النّبي ﷺ على مواجهة تلك الفتن الّتي دنا أمرهـــا وقـــرب أجلـــها بالمسارعة بالأعمال الصّالحة، لشدّتها، وظلمتها، وعدم تبيّن أمرها، وتخبّط المـــرء فيها، وتأرجحه بين الإيمان والكفر عند حلولها. وفي ذلك تحذير منها أيّما تحذير .

فعن أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: "بادروا بالأعمال فتناً كقطع اللّيـل المظلم، يصبح الرّجل مؤمناً ويمسي كافراً ، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيـــع دينه بعرض من الدّنيا" [٦].

قال الإمام النّووي (رحمه الله):

" معنى الحديث الحثُّ على المبادرة إلى الأعمال الصّالحـــة قبـــل تعذّرهـــا، والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشّاغلة المتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام اللّيـــل المظلم لا المقمر . ووصف ﷺ نوعاً من شدائد تلك الفتن وهو أنّه يمسي مؤمناً ثـــمّ

---

(١) فتح الباري: ١٤/٥٠٤.

(٢) سبق تخريج الحديث. انظر:ص : ٢٣ .

(٣) سبق تخريج الحديث. انظر:ص : ١٨ .

(٤) انظر : فتح الباري: ١٤/٦٢١. عون المعبود: ١١/٢١٥.

(٥) عمدة القاري: ٢٤/١٨١.

(٦) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الإيمان: (١). باب الحثّ بالمبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفـــتن: (٥١). برقـــم: (١١٨). ١/١١٠.

يصبح كافراً أو عكسه ــ شكّ الرّاوي ــ وهذا لعظم الفتن ينقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا الانقلاب والله أعلم" [١].

والمراد من التّشبيه بظلمة اللّيل بيان حال الفتن من حيث إنّه بشيع فظيع ، ولا يعرف سببها ولا طريق الخلاص منها [٢] .

وعن أبي هريرة ﷺ عن النّبي ﷺ قال: "يتقارب الزّمان ، ويَنْقُصُ العمل، ويُلْقَى الشُّحُ [٣] ، وتظهر الفتن ، ويَكْثُرُ الهَرْجُ " . قالوا: يا رسول الله أيُّمَ هو؟ قال: " القتل القتل " [٤] .

---

(١) شرح النّووي على مسلم:٢/١٣٣.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع التّرمذي . لأبي على محمّد عبد الرّحمن بن عبد الرحيم المباركفوري . دار الكتب العلميّة . بيروت : ٦/٣٦٤ .

روى التّرمذي عن الحسن البصري (رحمه الله) أنّه كان يقول في هذا الحديث:

"يصبح الرّجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً " . قال : يصبح الرّجل محرّماً لدم أخيه وعرضه وماله ، ويمسي مستحلاً له . ويمسي محرّماً لدم أخيه وعرضه وماله، ويصبح مستحلاً له".

سنن التّرمذي المعروف بجامع التّرمذي . لأبي عيسى محمّد بن عيسى بن سورة التّرمذي . طبعة بيت الأفكار الدّوليّة. ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م: كتاب الفتن: (٣٠). باب ما جاء ستكون فتن كقطع اللّيل المظلم: (٣٠). برقم: (٢١٩٨) . قال الألباني رحمه الله: " صحيح الإسناد عن الحسن". ص :٣٦٥ . وهذا من قصر المعنى العام على المعنى الخاص . والأولى حمل الحديث على عمومه .

(٣) الشُّح : هو أشدّ البخل . النّهاية في غريب الحديث : ٢/٤٤٨ .

(٤) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الفتن: (٩٢/٦٧). باب ظهور الفتن: (٥). برقم: (٧٠٦١). ص: ١٤٩١. وبلفظ مقارب في: كتاب الأدب : (٧٨/٥٢). باب حسن الخلق والسّخاء وما يكره من البخل: (٣٩). برقم: (٦٠٣٧). ص: ١٢٩٥. ونحوه في: كتاب العلم: (٣). باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرّأس: (٢٤). برقم: (٨٤). ص: ٣٦. وفي كتاب الصّلاة: (١٥/٥). باب ماقيل في الزّلازل والآيات: (٢٧/٤٢٤). برقم: (١٠٣٦). ص: ٢٢١. وفي كتاب المناقب: (٦١/٣٧). باب علامات النُّبوّة في الإسلام: (٢٥). برقم: (٣٦٠٨). ص: ٧٥٩. وفي كتاب الفتن: (٩٢/٦٧). باب لا تقوم السّاعة حتّى يغبط أهل القبور: (٢٢/٢٣). برقم: (٧١١٥). ص:١٥٠٠. عن أبي موسى وعبد الله بن مسعود (رضي الله عنهما) . وفي باب : (٢٥/٢٦). برقم: (٧١٢١). ص: ١٥٠٠-١٥٠١. عن أبي موسى وعبد الله أيضاً.

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب العلم: (٤٧). باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزّمان: (٥). برقم: (١٥٧). ٤/٢٠٥٧. ونحوه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما: (٤). برقم: (١٥٧). ٤/٢٢١٥.

فقوله : "تظهر الفتن" المراد كثرتها واشتهارها وعدم التَّكاتم بها [١] .

ففي هذه النّصوص تنبيه منه ﷺ للأمَّة وتحذير لها من الفتـــن الّتـــي يتوقّـــع حلولها، ويترقّب وقوعها ، كي تحزم الأمَّة أمرها فلا تسقط فريسة لها ، ولا تنحرف بسببها عن دينها ، ولا تزيغ من أجلها عـــن شـــرعها ، وتعـــدّ العـــدَّة لمواجهتـــها ومجابهتها ، لخطورتها ، وسوء حالها ، وكراهة شأنها .

---

(١) فتح الباري:١٤/٥٠٩. عمدة القاري:٢٤/١٨٣.

﴿ المبحث الثّاني ﴾

ظهور الفتن

وفيه تمهيد ومطالب:

التّمهيد

وقوع ما أخبر عنه ﷺ

لقد ظهر كثير من الفتن من بعد النّبي ﷺ إلى يومنا هذا ، تصديقاً لما ذكر ﷺ وهي لا تزال في ازدياد وتكاثر، حتّى ملأت أرجاء الأرض ، وعمّت وطمّت ، وقلّ بلد من بلاد الدّنيا إلاّ وحلّ فيه أنواع ، ووقع فيه أصناف منها . وإن كثرت في بعض البلاد دون بعض .

عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: ذكر النّبي ﷺ : "اللّهم بارك لنا في شأمنا، اللّهم بارك لنا في يمننا " . قالوا : وفي نَجْدنا قال: " اللّهم بارك لنا في شأمنا، اللّهم بارك لنا في يمننا ". قالوا: يا رسول الله وفي نجدنا . فأظنّه قال في الثّالثة : " هناك الزّلازل والفتن وبها يطلع قَرْنُ الشّيطان" (١).

وفي رواية عن ابن عمر (رضي الله عنهما) عن النّبي ﷺ أنّه قام إلى جنب المنبر فقال: " الفتنة ههنا ، الفتنة ههنا من حيث يطلع قرن الشّيطان أو قال: قرن الشّمس" (٢) .

ونجد المراد في هذه الأحاديث نجد العراق لا نجد الحجاز، لأنّ النّبي ﷺ أشار إلى المشرق وهو يومئذ بالمدينة ، ومشرق المدينة إنّما هو العراق وما جاورها .

---

(١) الحديث:سبق تخريجه . ص : ١٢ . ولكنّه بهذا اللّفظ في صحيح البخاري: كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب قول النّبي ﷺ : " الفتنة من قبل المشرق " : (١٦). برقم: (٧٠٩٤). ص: ١٤٩٦. و بلفظ مقارب في: كتاب الصّلاة: (٥/١٥) . باب ما قيل في الزّلازل والآيات: (٤٢٤/٢٧). برقم: (١٠٣٧). ص: ٢٢١-٢٢٢.

(٢) الحديث: سبق تخريجه. انظر: ص : ١٢ . ولكنّه بهذا اللّفظ في صحيح البخاري: كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب قول النّبي ﷺ " الفتنة من قبل المشرق" : (١٦). برقم: (٧٠٩٢). ص: ١٤٩٦.

قال الخطّابي (رحمه الله):

" نجد من جهة المشرق ، ومن كان بالمدينة كان نجده بادية العراق ونواحيها ، وهي مشرق أهل المدينة ، وأصل النَّجْد ما ارتفع من الأرض ، وهو خلاف الغَـوْر، فإنّه ما انخفض منها، وتهامة كلّها من الغور ، ومكّة من تهامة" (١) .

وقد جاء ذلك صراحة عن سالم بن عبـــد الله (رحمـــه الله) (٢) الّـــذي روى الحديث عن أبيه .

فقد روى مسلم بسنده إلى سالم بن عبد الله بن عمر يقول: " يا أهل العراق مـــا أسألكم عن الصّغيرة ، وأركبكم للكبيرة ، سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنَّ الفتنة تجيء من هاهنا " وأوما بيده نحو المشـــرق . " مـــن حيث يطلع قرنا الشّيطان" . وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض . وإنّما قتل موســـى الذي قتل من آل فرعون خطأ فقال الله عزّ وجلّ لـــه: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ [طه:٤٠]" (٣)

وقد وقع مصداق ما ذكره ﷺ ، إذ كانت العراق وما جاورها مصدراً لعظـــائم الفتن الّتي حلّت بأهل الإسلام ، قديماً وحديثاً . وكذلك البدع والفرق الضّالة نشـــأت من تلك النّاحية (٤) .

---

(١) فتح الباري: ٥٤٦/١٤. فيما نقله الحافظ عنه.

(٢) هو سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطّاب القرشي العدوي ، أبو عمر أو أبو عبد الله المدني . أحد فقهاء المدينـــة السّبعة . جمع بين العلم والعمل ، والزّهد والشّرف. يُشبَّه بأبيه في الهدى والسّمت. وكان ثبتاً في الحديث. مـــات سنة :١٠٦هـــ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ١٩٥/٥. التّاريخ الكبير:١١٥/٤. الجرح والتّعديل:١٨٤/٤. تذكرة الحفّـــاظ: ٨٨/١. تهذيب التّهذيب: ٣٧٨/٣. تقريب التّهذيب: ٢٢٦/١.

(٣) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب الفتنة من قبل المشرق من حيث يطلع قرنـــا الشّيطان: (١٦). برقم: (٢٩٠٥). ٢٢٢٩/٤-٢٢٣٠.

(٤) انظر: فتح الباري : ٥٤٦/١٤. عمدة القاري: ١٩٩/٢٤. الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي السّاعة . محمّـــد صديق حسن القنوجي . مكتبة الثّقافة بالمدينة . دار الكتب العلميّـــة. بـــيروت:١٣٩٩هــــ ـــ ١٩٧٩م. ص: ٢٩ــ٣٠.

وما انفكت العراق تقذف بالفتن إلى العالم الإسلامي . ومـــا حـــرب الخليـــج المدمِّرة الّتي أُزهقت فيها أرواح ، ورُمِّلت فيها نساء ، ويُتِّم فيها أطفال إلاّ سوأة مـن سوآتها . ولا زال أهل الإسلام يعانون من آثار تلك الحرب بما أفرزته مـــن أحقـــاد وإحن وخلافات . بات المسلمون على إثرها مضعضعي الأوصال ، مفرقي الكلمة ، مشتّتي الشّمل . وقد ضعفت قوّتهم أمام أعدائهم من اليهود والنّصارى . وهم الّذيـــن جنوا ثمرة ذلك القتال .

وسوف أتناول بإذن الله أنواعاً من الفتن الّتي ذكرها رسول الله ﷺ أو أشـــار إليها ، والّتي وقع كثير منها .

إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط السّاعة. لحمود بن عبد الله التّويجري .مطابع الرّيـــاض . الطّبعـــة الأولى: ١٣٩٤هـــ. : ١/١١٥ـــ١١٦.

وسوف يأتي تفاصيل ذلك في ثنايا البحث.

﴿ المطلب الأوّل ﴾

فتنة الناس أثر موت النّبي ﷺ

عن عوف بن مالك الأشجعي ﷺ قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في غـــزوة تبوك[1] وهو في خباء من أدَم[2] ، فجلست بفِناء[3] الخبـــاء ، فقـــال رســـول ﷺ : " ادخل يا عوف " فقلت: بكلّي يا رسول الله ؟ قال: " بكلّك " . ثمّ قال : " يا عـــوف احفظ خلالاً ستّاً بين يدي السّاعة : إحداهنّ موتي " . قال: فَوَجَمْتُ[4] عندها وَجْمَـــةً شديدة . فقال: " قل: إحدى . ثمّ فتح بيت المقدس ، ثمّ داء يظهر فيكم يَستَشْهِدُ الله به ذراريكم وأنفسكم ويزكّي به أموالكم ، ثمّ تكون الأموال فيكم حتّى يعطى الرّجل مائة دينار فيظلُّ ساخطاً ، وفتنة تكون بينكم لا يبقى بيت مسلم إلاّ دخلته ، ثمّ تكون بينكـم وبين بني الأصفـــر[5] هُدْنَـــةٌ ، فيغـــدرون بكـــم ، فيســـيرون إليكـــم في ثمـــانين

---

(١)تبوك : بالفتح ثمّ الضّم وواو ساكنة وكاف: موضع بين وادي القرى والشّام . وقيل: بركة لأبناء سعد من بن عذرة . وأصلها من البوك وهو إدخال اليد في الشّيء وتحريكه .

وقال أبو زيد (رحمه الله) : " تبوك بين الحجر وأوّل الشّام ، على أربع مراحل من الحجر ، نحو نصف طريق الشّام ، وهو حصن به عين ونخل وحائط ينسب إلى النّبي ﷺ " .

وغزوة تبوك هي آخر غزوة غزاها النّبي ﷺ وكانت في مواجهة الرّوم الّذين تجمّعوا هنالك .ثمّ تفرّقوا فلم يقع قتال. وذلك في العام التّاسع للهجرة.

انظر: معجم البلدان . لياقوت بن عبد الله الحموي . طبعة دار الفكر. بيروت: ٢/١٤ـــ١٥. وانظر: معجم ما استعجم . لعبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي . طبعة عالم الكتب. بيروت. الطّبعة الثّالثة. ١٤٠٢هـــ . تحقيق مصطفى السقا : ٣٠٣/١.

وتبوك اليوم مدينة مشهورة من مدن المملكة العربيّة السّعوديّة ، وهي في أقصى الشّمال بالقرب من الحدود مـــع الأردن .

(٢) أدم : من الأديم وهو الجلد . انظر: مختار الصّحاح: ص: ١٠ـــ١١. القاموس المحيط: ص: ١٣٨٩.

(٣)فناء: يقال : فناء الدّار وهو : ما امتدّ من جوانبها . والجمع أفنية. مختار الصّحاح: ص:٥١٣. وانظر: القـــاموس المحيط: ص: ١٧٠٤.

(٤) فوجمت: يقال وجَم الرّجل يَجِم وجوماً : إذا أسكته الهمّ وعلته الكآبة. انظر: غريب الحديث للهروي: ٢٣٢/٣. الفائق: ٤٥/٤. النّهاية في غريب الحديث: ١٥٦/٥.

(٥) بنو الأصفر: يعني الرّوم ، لأنّ أباهم الأوّل كان أصفر اللّون . وهو رُوم بن عِيصُو بن إسحاق بن إبراهيم.

غاية [١] ، تحت كلّ غاية أثنا عشر ألفاً" [٢] .

وفي حديث عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) قال: دخلت على النّبـــي ﷺ وهو يتوضّأ وضوءاً مكيثاً فرفع رأسه فنظر إليّ فقال: "ستّ فيكم أيّتها الأمّة مـــوت نبيّكم ﷺ" . فكأنّما انتزع قلبي من مكانه ، قال رسول الله: "واحـــــدة" . ثــمّ ذكــر الحديث نحواً من حديث عوف السّابق[٣] .

إنّ موته ﷺ أوّل أمر دهم الإسلام ، وأوّل فاجعة أصيبت بها الأمّة ، وأعظـم مصيبة حلّت بالمسلمين . فبموته انقطع الوحي . وكان أوّل ظهور الشــــرّ بــارتداد العرب ، وكان أوّل نقصان الخير في الأمة [٤].

قال أنس بن مالك ﷺ : " لمّا كان اليوم الّذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينـة أضاء منها كلّ شيء ، فلمّا كان اليوم الّذي مات فيه أظلم منها كلّ شــــيء ، ولمّـا نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي ، وإنّا لفي دفنه حتّى أنكرنا قلوبنا" [٥] .

النّهاية في غريب الحديث: ٣٧/٣.

(١) غاية: يعني رأية . انظر: غريب الحديث للهروي: ٨٧/٢. الفائق: ٣٩٢/٣. النّهاية في غريب الحديث: ٤٠٤/٣.

(٢) سنن أبي داود: أخرج جزءاً منه في كتاب الأدب: (٤٠). باب ما جاء في المـــزاح: (٨٥). برقـم: (٥٠٠٠) . قال الألباني رحمه الله : "صحيح". ص: ٥٤١.

سنن ابن ماجه لأبي عبد الله محمّد بن يزيد بن ماجه القزويني . طبعة بيــت الأفكــار الدّوليّــة. ١٤٢٠هـــ ـــ ١٩٩٩م : بلفظه في: كتاب الفتن : (٣٦). باب أشراط السّاعة: (٢٥). برقم: (٤٠٤٢). قال الألباني رحمـــه الله: " صحيح" . ص: ٤٣٥.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان . للأمير علاء الدّين عليّ بن بلبان الفارســـي . تحقيــق وتخريــج شــعيب الأرناؤوط . طبعة مؤسّسة الرّسالة . بيروت . الطّبعة الأولى ١٤١٢هــ ـــ ١٩٩١م. : بلفظ مقارب في: بـــاب ذكر الأخبار عن فتح المسلمين بيت المقدس . برقم: (٦٦٧٥). ٦٦/١٥.

مستدرك الحاكم: نحوه في: ٤٦٥/٤. وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين و لم يخرجاه بهذه السّـــياقة". وقال الذّهبي رحمه الله: " على شرط البخاري ومسلم " .

(٣) مسند أحمد: بلفظه في: ١٧٤/٢.

(٤) انظر: التّذكرة: ص: ٧١٥ .

(٥) سنن التّرمذي: بلفظه في: كتاب المناقب: (٤٥). باب في فضل النّـــبي ﷺ : (١). برقــم: (٣٦١٨). وقـــال: " هذا حديث غريب صحيح ". و قال الألباني رحمه الله: " صحيح" . ص: ٥٦٨.

سنن ابن ماجه: بلفظ مقارب في: كتاب الجنائز: (٦١). باب ذكر وفاته ودفنــه ﷺ : (٦٥). برقــم: (١٦٣١). قال الألباني رحمه الله: " صحيح" . ص: ١٧٨.

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله):

"يريد أنّهم وجدوها تغيّرت عمّا عهدوه في حياته من الألفة والصّفاء والرّقة، لفقدان ما كان يمدّهم به من التّعليم والتّأديب" [1].

وقال ابن إسحاق (رحمه الله):

"ولمّا توفّي رسول الله ﷺ عظمت به مصيبة المسلمين، فكانت عائشة، فيما بلغني تقول: " لمّا توفّي رسول الله ﷺ ارتدّت العرب، واشرأبّت اليهوديّة والنّصرانيّة، ونجَم النّفاق، وصار المسلمون كالغنم المَطِيرة [2] في اللّيلة الشّاتية، لفقد نبيّهم ﷺ، حتّى جمعهم الله على أبي بكر" [3].

لقد كان موته ﷺ ثلمة عظيمة في تاريخ الأمّة الإسلاميّة، وخرقاً واسعاً لا يرقع، ولو كان أحد من البشر يستحقّ الخلود في هذه الدّنيا لكان أولى النّاس بذلك رسول الله ﷺ، ولكنّ الله تعالى قال له: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٤ ـ ٣٥].

مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٣/٢٢١، ٢٦٨.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: : بلفظ مقارب في: باب ذكر إنكار الصّحابة قلوبهم عند دفن صفي الله ﷺ. برقم: (٦٦٣٤). قال شعيب الأرناؤوط: " إسناده صحيح على شرط مسلم". ١٤/٦٠١.

مستدرك الحاكم: ٣/٥٩. جزء منه. وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه".

وقال الذّهبي رحمه الله: " على شرط مسلم".

مسند أبي يعلى. لأحمد بن عليّ بن المثنّى أبي يعلى الموصلي. طبعة دار المأمون للتّراث. دمشق. الطّبعة الأولى ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م. تحقيق حسين سليم أسد: بلفظ مقارب. برقم: (٣٢٩٦). ٦/٥١. وبرقم: (٣٣٧٨). ٦/١١٠. قال المحقّق حسين أسد: " إسناده صحيح".

(١) فتح الباري: ٨/١٤٩. طبعة دار المعرفة.

(٢) المطيرة: أي الماطرة. من باب فعيلة بمعنى فاعلة. انظر: الفائق: ١/٤٨.

(٣) السّيرة النّبويّة: ٤/٤٩٥.

وقـــــــــال: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝ ﴾ [الزمر: ٣٠، ٣١] .

وقد قال لنا ﷺ : "إذا أُصيب أحدكم بمصيبة فليذكر مصيبته بـــي ، فإنّــها أعظــم المصائب عنده" [(١)] .

نعم ! إنّ كلّ مصيبة بعد المصيبة بموته تهون ، وكلّ خطب بعد وفاته يسهل .

وقد عبّر عن ذلك بعض الصّحابة ﷺ .

قال أبو بكر الصّدّيق ﷺ في أبيات يرثي بها النّبي ﷺ :

فلتَحْدِثَنّ حوادثُ من بعده ...... تُعْنَى بهن جوانحُ [(٢)] وصدور

(١) سنن ابن ماجه : عن عائشة (رضي الله عنها) مرفوعاً في جزء من حديث ولفظه : " يا أيُّها النّاس أيُّما أحد مــن النّاس أو من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعزّ بمصيبته بي عن المصيبة الّتي تصيبه بغيري فإنّ أحداً من أمّتي لن يصـــاب بمصيبة بعدي أشدَّ عليه من مصيبتي " . في : كتاب الجنائز : (٦) . باب ما جاء في الصّبر على المصيبـــة : (٥٥) . برقم : (١٥٩٩) . قال الألباني رحمه الله : " صحيح " . ص : ١٧٤ .

سنن الدّارمي لعبد الله بن عبد الرّحمن الدّارمي . طبعة دار الكتاب العربي. بيروت. الطّبعــة الأولى ١٤٠٧هـــــ . تحقيق فواز أحمد زمرلي وخالد السّبع العلمي : بلفظ مقارب في : باب وفاة النّبي ﷺ . برقم: (٨٤). عن مكحــول (رحمه الله)مرسلاً. و برقم: (٨٥). عن عطاء (رحمه الله)مرسلاً أيضاً. ٥٣/١.

المعجم الكبير . لسليمان بن أحمد بن أيوب أبي القاسم الطّبراني . تحقيق : حمدي عبد المجيد السّلفي . طبعة مكتبـــة العلوم والحكم . الموصل . الطّبعة الثّانية ١٤٠٤هـــ ـــ١٩٨٣م : بلفظه عن عبد الرّحمن بن سابط عن أبيه ﷺ : برقم: (٦٧١٨) . ١٦٧/٧.

المعجم الأوسط . للطّبراني . تحقيق : طارق بن عوض الله . عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني . طبعة : دار الحرمــين القاهرة . ١٤١٥هـــ : نحوه عن عائشة (رضي الله عنها) مرفوعاً : ٣٦٥/٤ .

المعجم الصغير . للطّبراني . تحقيق : محمّد شكور محمود . طبعة : المكتب الإسلامي . دار عمّار . بيروت . عمّــان الطبعة الأولى : ١٤٠٥هــــ ـــ ١٩٨٥م : نحوه عن عائشة (رضي الله عنها) مرفوعاً : ٣٦٦/١ .

(٢)الجوانح : أوائل الضُّلُوع تـــحت التّرائب مــمّا يلـــي الصّدر ، كالضّلوع مـــمّا يلـــي الظّهر، سميت بذلـــك لـــجنوحها علـــى القلب ، وقـــيل: الـــجوانـــح الضُّلُوع القِصارُ الّتـــي فـــي مُقَـــدَّمِ الصّـــدرِ ، والواحـــدة جانـــحة . لسان العرب : ٤٢٩/٢ .

وقالت صفيّة بنت عبد المطلب (رضي الله عنها) :

لعمرك ما أبكي النّبي لفقده ...... لكنّ ما أخشى من الهَرْج آتيا . [1]

وقال حسّان بن ثابت ﷺ في مرثيته الدّالية:

وراحوا بحُزْنٍ ليس فيهم نبيّهم ...... وقد وهنت منهم ظهور وأعضدُ

يُبَكّون من تبكي السّماوات يومه ...... ومن قد بكته الأرض فالنّاس أكمَدُ[2]

وهل عَدَلَت يوماً رَزِيّةُ هالك ...... رزيّةَ يوم مات فيهم محمّدُ

تَقَطَّعَ فيه منزلُ الوحي عنهم ...... وقد كان ذا نور يغور[3] ويُنْجِدُ[4]

....

وما فقد الماضون مثل محمّد ...... ولا مثلُه حتى القيامة يُفْقَدُ .[5]

وأمّا ما حلَّ بالصَّحابة ﷺ فقد صوّره *الإمام ابن العربي* تصويراً بليغاً فقال:

"فكان موت النّبي ﷺ قاصمة الظّهر ومصيبة العمر . فأمَّا عليّ فاستخفى في بيته مع فاطمة. وأمّا عثمان فسكت. وأمّا عمر فأهجر[6] وقال: " ما مات رسول الله ﷺ وإنّما واعده الله كما واعد موسى ، وليرجعنَّ رسول الله ﷺ فليقطعنَّ أيدي نـاس

---

(١) التّذكرة: ص: ٧١٥.

والهَرْج: هو الفتنة والاختلاط ويطلق على القتل. انظر: مختار الصّحاح: ص:٦٩٤. القاموس المحيط: ص:٢٦٨

(٢) الكَمَدُ : أشدُّ الحزن . كَمِدَ كَمَداً و أَكْمَدَه الحزن . و كَمِدَ الرّجل، فهو كَمِدٌ و كَمِيدٌ.

لسان العرب : ٣/٣٨١ .

(٣) غَوْر كلّ شيء قعره ، يقال : فلان بعيد الغَوْر . والغَوْر أيضاً المطمئن من الأرض ، والغَوْر تهامة وما يلي اليمن .

مختار الصّحاح : ص : ٤٨٤ . وانظر : القاموس المحيط : ص : ٥٨١ .

(٤) النَّجْدُ من الأرض : قِفافُها وصَلابَتُها ، وما غَلُظَ منها وأَشرَفَ وارتَفَعَ واستَوى ، والجمع أَنْجُدٌ و أَنجادٌ و نِجاد و نُجُودٌ . وما ارتفع عن تِهامة إلى أرض العراق ، فهو نجد . انظر : لسان العرب : ٣/٤١٣ .

وانظر مختار الصّحاح : ص : ٦٤٦ . القاموس المحيط : ص : ٤١٠ .

والمراد أنّ نوره وهو الوحي الّذي يحمله كان يجوب كلّ الأرض ، فيبلغ ما انخفض منها وما ارتفع .

(٥) السّيرة النّبويّة لابن هشام:٤/٤٩٦ـ٤٩٧.

والقصيدة في ديوان حسّان بن ثابت الأنصاري ﷺ . طبعة : دار صادر . دار بيروت . ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م . ص : ٥٤-٥٧ .

(٦) أهجر: من الهُجْر أو الهَجْر وهو الهذيان . انظر: لسان العرب: ٥/٢٥٣.

وأرجلهم " ... واضطّرب أمر الأنصار يطلبون الأمر لأنفسهم ، أو الشّركة فيه مع المهاجرين . وانقطعت قلوب الجيش الّذي كان قد برز مع أسامة بن زيد بالجرف[١] " [٢] .

وارتدّت أحياء كثيرة من العرب ، وعظم الخطب واشتدّ الحال ، وطمع كثير من الأعراب في المدينة لقلّة الجند بها بعد إنفاذ الصّدّيق ﷺ جيش أسامة ﷺ. وامتنع كثير منهم من أداء الزّكاة. فقاتلهم أبو بكر ﷺ ، وقال قولته المشهورة:

" والله لأ قاتلنّ من فرّق بين الصّلاة والزّكاة ، فإنّ الزّكاة حقّ المال ، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدّونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها " [٣] . وقد كان محقّاً ﷺ في ذلك . فنصره الله عليهم ، وأعاد الله به للإسلام عزّته ، وحمى به بيضته ، وردّ الرّدة إلى صوابها ، والأمور إلى نصابها. [٤]

---

(١) الجُرْف: بضمّ الجيم وسكون الرّاء . موضع على نحو ثلاثة أميال من المدينة نحو الشّام . انظر: معجم البلدان: ١٢٨/٢.

وقيل: بضمّ الجيم والرّاء ، وأنّه على بعد ميل من المدينة . انظر: معجم ما استعجم: ٣٧٦/١ـ٣٧٧.

وهو اليوم حيّ معروف من أحياء المدينة المنورة .

(٢) العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصّحابة بعد وفاة النّبي ﷺ . للقاضي أبي بكر بن العربي . تحقيق: محب الدّين الخطيب . طبع ونشر الرّئاسة العامّة لإدارة البحوث العلميّة . الرّياض . ١٤٠٤هـ ـ١٩٨٤م ص: ٣٧ـ٤١.

(٣) صحيح البخاري:بلفظه في: كتاب استتابة المرتدين: (٨٨/٦٣). باب قتل من أبى قبول الفرائض وما نسبوا إلى الرّدّة: (٣). برقم: (٦٩٢٥). ص:١٤٦١-١٤٦٢. وبلفظ مقارب في: كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة: (٩٦/٧١). باب الاقتداء بسنن الرّسول ﷺ : (٣/٢). برقم: (٧٢٨٤)، (٧٢٨٥). ص: ١٥٣١. إلاّ أنّه قال: "عقالاً". ونحوه في: كتاب الزّكاة: (٢٤/٧). في باب أخذ العناق في الصّدقة: (٤٠). برقم: (١٤٥٦). ص: ٣٠٧-٣٠٨ .

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب الإيمان: (١). باب الأمر بقتال النّاس حتّى يقولوا لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله: (٨). برقم: (٢٠). ٥١/١-٥٢.إلاّ أنّه قال: "عقالاً".

(٤) انظر:البدء والتّاريخ . لمطهّر بن طاهر المقدسي. طبعة مكتبة الثّقافة الدّينيّة. القاهرة: ١٥٣/٥. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم . لعبد الرّحمن بن عليّ أبي الفرج بن الجوزي . طبعة دار الكتب العلميّة. بيروت. الطّبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ١٩٩٢م. تحقيق محمّد ومصطفى عبد القادر عطا : ٧٤/٤ فما بعدها. وفيات الأعيان وأنباء الزّمان . لأبي العبّاس شمس الدّين أحمد بن محمّد بن خلّكان . تحقيق : إحسان عبّاس . طبعة دار الثّقافة . بيروت.

﴿ المطلب الثّاني ﴾

ظهور الكذّابين

إنّ رسول الله ﷺ أخبر أنّه سيظهر في هذه الأمّة كذّابون يدّعون النبوّة.

وقد وردت عدّة أحاديث عن جماعة من الصّحابة تبيّن ذلك . منها:

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :" لا تقوم السّاعة حتّى يبعث دجّالون(١) كذّابون قريب من ثلاثين كلّهم يزعم أنّه رسول الله " (٢) .

وفي حديث ثوبان ﷺ : " وإنّه سيكون في أمّتي ثلاثون كذّابون كلّهم يزعم أنّه نبي وأنا خاتم النّبيين لا نبيّ بعدي" (٣).

١٩٦٨م.: ٣/٦٧ فما بعدها . البداية والنّهاية . لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير. طبعة مكتبة المعارف. بيروت : ٦/٣١١ فما بعدها.

(١) دجّالون: أي كذّابون مُمَوِّهون . وأصل الدّجل : الخلط . يقال: دجّل فلان : إذا لبّس وموّه وخادع . والكلمة من أبنية المبالغة ، أي يكسر منهم الكذب والتّلبيس .

انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٢/١٠٢. الفائق: ١/٤١٢.

(٢) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: : كتاب الفتن: (٩٢/٦٧). بـاب : (٢٥/٢٦). برقم: (٧١٢١). ص: ١٥٠٠-١٥٠١. وقد أورده ضمن حديث طويل .

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب لا تقوم السّاعة حتّى يمرّ الرّجل بقبر الرّجل فيتمنّى أن يكون مكان الميّت . برقم: (١٥٧). ٤/٢٢٣٩-٢٢٤٠.

(٣) هذا الحديث جزء من حديث ثوبان ﷺ الطويل ، وهو في :

سنن أبي داود: بلفظه ــ إلا إنّه قال : " كذّابون ثلاثون " ــ في كتاب الفتن والملاحم: (٣٤). باب ذكر الفتن ودلائلها: (١). برقم: (٤٢٥٢). قال الألباني رحمه الله: " صحيح" . ص:٤٦٤.

سنن التّرمذي: بلفظه في: كتاب الفتن: (٣٠). باب ما جاء لا تقوم السّاعة حتّى يخرج كذّابون: (٤٣). برقم: (٢٢١٩) . وقال: "هذا حديث حسن صحيح". وقال الألباني رحمه الله: " صحيح" . ص: ٣٦٧.

سنن ابن ماجه: بنحوه في كتاب الفتن: (٣٦). باب ما يكون من الفتن: (٩). برقم: (٣٩٥٢).

قال الألباني رحمه الله: " صحيح" . ص: ٤٢٤-٤٢٥.

مسند أحمد: بلفظه ــ إلا إنّه قال : " كذّابون ثلاثون " ــ في: ٥/٢٧٨.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: : نحوه في باب ذكر البيان بأنّ حدوث وقع السّيف في هذه الأمّة بين المسلمين يبقى إلى قيام السّاعة. برقم: (٦٧١٤). ١٥/١١٠. و برقم: (٧٢٣٨). ١٦/٢٢٠. قال شعيب الأرناؤوط : " إسناده صحيح على شرط مسلم".

وعن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) قال سمعت النَّبي ﷺ يقـــول:" إنَّ بين يدي السَّاعة كذَّابين ، منهم صاحب اليمامة[1] ، ومنهم صاحب صنعاء العنســي، ومنهم صاحب حِمْيَر ، ومنهم الدجَّال وهو أعظمهم فتنة " [2] .

وعن حذيفة ﷺ أنّ نبيّ الله ﷺ قال:" في أمّتي كذَّابـــون ودجَّـالون ســبعة وعشرون ، منهم أربع نسوة ، وإنّي خاتم النَّبيين لا نبيّ بعدي" [3] .

وقد تكاثرت الرِّوايات الدّالة على ظهورهم. في بعضها أنّهم ثلاثــون بــالجزم .وفي بعضها أنّهم قريب من ثلاثين ، وفي أخرى أنّهم سبعة وعشرون . ومن جــزم بالثَّلاثين فعلى طريق جبر الكسر[4] .

وليس المراد بالأحاديث كلّ من ادَّعى النُّبوّة مطلقاً ، فأولئك لا يحصون كـثرة، وإنَّما المراد من قويت شوكته ، وظهر أمره ، وكثر أتباعه ، وأثار الفتن بباطله [5] .

من أولئك الّذين ظهروا :مُسَيْلِمة الكذَّاب[6] الّذي استفحل أمره ، وكثر أتباعه ،

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في: ٤/٤٩٦. وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين و لم يخرجاه بهـــذه السِّياقة ". وقال الذّهبي رحمه الله: " على شرط البخاري ومسلم".

وأصل الحديث في صحيح مسلم . في كتاب الفتن وأشراط السَّاعة: (٥٢). باب هلاك هذه الأمّة بعضهم ببعــض: (٥). برقم: (٢٨٨٩). ٤/٢٢١٥.

(١) اليمامة: اسم جارية زرقاء كانت تبصر الرّاكب من مسيرة ثلاثة أيّام . سميّت بها بلدة اليمامة ، وهي بلدة مشــهورة قديمة في بادية الحجاز . كانت تسمّى بجوٍّ. انظر: معجم البلدان:٥/٤٤٢ــ٤٤٧.وانظر: وفيات الأعيــان: ٣/٢٧. لسان العرب: ٢/٦٤٨. القاموس المحيط: ص:١٥١٤.

(٢) مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٣/٣٤٥.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبَّان: بلفظه في: باب ذكر الإخبار عن وصف ما كان يتوقّع ﷺ من وقوع الفـتن من ناحية البحرين . برقم: (٦٦٥٠). ١٥/٢٦. قال شعيب الأرناؤوط : " إسناده قوي".

(٣) مسند أحمد: بلفظه في: ٥/٣٩٦.

(٤) انظر: فتح الباري: ١٤/٥٩٦. تحفة الأحوذي: ٦/٣٨٥.

(٥) انظر: فتح الباري: ٧/٣٢٤ . اليوم الآخر (١) القيامة الصغرى وعلامات القيامة الكبرى . لعمر سليمان الأشـقر. طبعة مكتبة الفلاح . الكويت . الطَّبعة الثّانية : ١٤٠٨هـ ـــ ١٩٨٨م : ص:١٦٢.

(٦) هو مُسَيْلِمة بن ثمامة بن كثير بن حبيب أبو ثمامة وقيل: أبو هارون من بني حنيفة . جاء في وفد بــني حنيفــة إلى الرّسول ﷺ ، فلمّا رجع إلى اليمامة ارتدّ وتنبّأ وكذَّب ، وتسمَّى بالرّحمن ، وزعم أنّه أشرك في النُّبــوّة ، وجعــل يسجع سجع الكهَّان مضاهاة للقرآن ، وأحلّ لأتباعه الخمر والزِّنا ، ووضع عنهم الصّلاة ، وهو مع ذلـــك مقــرّ

واستطار شرّه ، حتّى قتل في معركة اليمامة في العام الثّاني عشر من الهجرة النَّبويّة [١].

وظهر الأسود العَنْسِي[٢] الدجَّال الّذي ادَّعى النّبوّة واستولى على اليمن، وضلّ به خلق كثير، حتّى قتل في صفر من العام الحادي عشر للهجرة.

وخرجت سجاح[٣] في بني تميم وادّعت النّبوّة. وفيها يقول الشّاعر[٤]:

أضحت نبيّتنا أنثى نطيف بها ****** وأصبحت أنبياء النَّاس ذكراناً

وتزوّجها مسيلمة ، ورجعت إلى الإسلام بعد قتله.

بنبوّة النّبي ﷺ . وقد كتب إلى النّبي ﷺ يخبره بشراكته له في الرّسالة . فردّ عليه النّبي ﷺ بخطاب يكذّبه فيه .وقد تبعه على ذلك كثير من أحلاف العرب ، واستفحل أمره جدّاً . إلى أن عقره الله بعد معارك طاحنة ، وقتال مرير في السّنة الثّانية عشرة للهجرة.

انظر: البدء والتّاريخ: ٥/١٦٠ـــ ١٦٥. المنتظم: ٤/٢٠ــ٢٢. البداية والنّهاية: ٥/٥٠ــ٥١. ٦/٢٠٠، ٣٢٣ فما بعدها. ٦/٣٤١. وانظر: الطّبقات الكبرى: ١/٢٧٣، ٣١٧. المنتظم: ٣/٣٨٢ــ ٣٨٣. ٤/٨٠ فما بعدها. وفيات الأعيان: ٣/٦٧.

(١) انظر: العبر في خبر من قبر . للذّهبي . دار الكتب العلميّة . بيروت: ١/١١. شذرات الذّهب في أخبار من ذهب . لابن العماد عبد الحي بن أحمد بن محمّد العكبري الحنبلي الدّمشقي . طبعة دار ابن كثير. بيروت. الطّبعة الأولى ١٤٠٦هـ ــ١٩٨٦م. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط : ١/١٥١. وانظر : نماذج من كذبه وترّهاته في :المنتظم: ٤/٢٠. سير أعلام النّبلاء: ٣/٦٩. البداية والنّهاية: ٦/٣٢٠ــ٣٢١.

(٢) الأسود العنسي: هو عبهلة بن كعب بن غوث ذو الخمار . كان كاهناً مشعوذاً له شيطان يأتي له بالأخبار . ادّعى النّبوّة فضلّ به خلق كثيرون ، واستطارت فتنته وعظم شرّه .واستوثقت له اليمن بكمالها ، وقويت شوكته. وكان يشرب الخمر ولا يصلّي ولا يغتسل من جنابة . قتل غيلة في العام الحادي عشر للهجرة ، وتفرّق أتباعه. انظر: البدء والتّاريخ: ٥/١٥٣ــ١٥٥. المنتظم: ٤/١٨ــ٢٠.وفيات الأعيان:٣/٦٦. العبر: ١/١٠. البداية والنّهاية: ٦/٣٠٧ــ٣١١،٣٤٠. شذرات الذّهب: ١/١٣١.

(٣) هي سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان أمّ صادر التّغلبية ، السّاحرة . من الجزيرة . من نصارى العرب. ادّعت النّبوّة ووازرها على ذلك قومها ، واستجاب لها عامّة بني تميم . قصدت اليمامة لحرب مسيلمة فهالها ، ثمّ استأمنها وتزوّجها ، وكان صداقها أن وضع عن قومها صلاة الفجر والعشاء .أسلمت أيّام عمر ﷺ وحسن إسلامها.

انظر: البدء والتّاريخ: ٥/١٦٤ــ١٦٥. المنتظم :٤/٢٢ــ٢٤.وفيات الأعيان:٣/٦٧. البداية والنّهاية:٥/٥١، ٣١٩ــ٣٢١. فتح الباري: ٧/٣٢٣.

(٤) هو عطارد بن الحاجب. انظر: البدء والتّاريخ: ٥/١٦٥. البداية والنّهاية: ٦/٣٢٠.

وخرج في خلافة الصدّيق ﷺ طُليحة بن خُويلد الأسدي[١] ، ثمّ تاب ومات على الإسلام على الصّحيح في خلافة عمر ﷺ .

ثمّ ظهر المختار بن أبي عبيد الثَّقفي[٢] الكذّاب الدّعي الّذي غلب على الكوفة في أوّل خلافة ابن الزُّبير ﷺ ، ثمّ قتل .

ومنهم الحارث[٣] الكذَّاب الّذي خرج في خلافة عبد الملك بن مروان[٤] فقتل.

---

(١) هو طليحة بن خويلد بن نوفل الأسدي الصّحابي . يضرب بشجاعته المثل . أسلم سنة تسع من الهجرة ، ثمّ ارتدَّ وتنبَّأ بنجد ، وزعم أنَّ ذا النّون يأتيه بالوحي . وعظم أمره واشتدَّ . له حروب مع المسلمين انتهت بهزيمته وفراره إلى الشّام ، ثمّ ارعوى وأسلم وحسن إسلامه ، وشهد القادسية ونهاوند وبها استشهد، وذلك عام واحد وعشرين من الهجرة.

وانظر:البدء والتّاريخ: ١٥٧/٥ـــ١٥٩. المنتظم: ٢٤/٤ـــ٢٥. وفيات الأعيان: ٦٧/٣. سير أعلام النُّبلاء: ٣١٦/١ـــ٣١٧. العبر: ١١/١. البداية والنّهاية: ٣١٧/٦ـــ٣١٨. الإصابة:٥٤٢/٣. شذرات الذّهب:١٧٥/١.

(٢) المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثّقفي أبو إسحاق . ولد في أوّل الهجرة ، وليست له صحبة ولارؤية . بايع عبد الله بن الزُّبير ﷺ ، ثمّ ذهب إلى العراق فدعى إلى محمّد بن الحنفية (رحمه الله) وزعم أنّه المهدي المنتظر .وأظهر الانتصار لأهل البيت في العلن وهو يسرُّ طلب الدّنيا . فاجتمع عليه خلق كثير من الشّيعة ، وقوي أمره واشتدَّ، وتتبّع قتلة الحسين فقتلهم . ثمّ ادّعى النُّبوّة ، وزعم أنّ جبريل يترل عليه .وكان يأتي بالكذب الصَّريح . وقد قال النّبي ﷺ :" يكون في ثقيف كذّاب ومُبير ـــ أي مهلك ـــ " ـــ مسند أحمد : ٣٥١/٦ .المعجم الكبير : ٨١/٢٤ ،٩٧،١٠١ ـــ فشهدت أسماء بنت أبي بكر (رضي الله عنها) أنّ الكذّاب هو المختار . قتله مصعب بن الزُّبير بالكوفة سنة ٦٧هـ.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٩٨/٥ـــ١٠٥. البدء والتّاريخ: ١٥/٦ـــ٢١. المنتظم: ٢٩/٦ـــ٣٠، ٥١ فما بعدها. العبر:٥٤/١ـــ٥٥.البداية والنّهاية: ٢٤٩/٨ـــ٢٥٠. الإصابة:٣٤٩/٦ـــ٣٥١. شذرات الذّهب:٢٩٢/١ـــ٢٩٣.الأعلام . لخير الدّين الزّركلي . طبعة دار العلم للملايين . بيروت . الطّبعة السّابعة ١٩٨٦م :١٩٢/٧.

(٣) الحارث بن عبد الرّحمن بن سعيد الدّمشقي مولى أبي الجلاس العبدري المتنبِّي الكذّاب . نزل دمشق وتعبَّد بها وتنسَّك وتزهَّد ، ثم مُكر به وأضلَّه الشّيْطان فانسلخ من آيات الله فكان من الغاوين .وكان دجَّالاً مشعوذاً زنديقاً يفعل من الأعاجيب ما يأخذ بعقول العامّة ، فتبعه خلق كثير. ثمّ ادّعى النُّبوّة فطلبه عبد الملك حتّى ظفر به ، فاستتابه فأبى فصلب وقتل عام ٧٩هـ.

انظر: المنتظم: ٢٠٤/٦ـــ٢٠٧. البداية والنّهاية:٢٧/٦ـــ٢٩.

(٤) هو عبد الملك بن مروان بن الحكم القرشي الأموي أبو الوليد ، المدني ثمّ الدّمشقي ، أمير المؤمنين . كان من فقهاء أهل المدينة وقرَّائهم ، فولي الخلافة بعد أبيه ، ثمّ اشتغل بها فتغيَّر حاله. مات سنة: ٨٦هـ.

وخرج في خلافة بني العبَّاس جماعة [١].

وفي القرن الماضي ظهر حسين بن علي الميرزا [٢] في إيران وادَّعى النُّبـوّة، ولقب بالبهاء. وأتباعه البهائية. [٣]

ومنهم الضَّال محمود محمد طه السُّوداني الّذي أضلّ خلقاً كثيراً ، معظمهم من النّساء ، وكانت له كتابات ومقالات نشر فيها كفره وضلاله وردَّته. قتل فـي عـام ١٩٨٥م. وتفرّق أتباعه الّذين عرفوا باسم الجمهوريين ، وخمدت فتنته [٤].

وانظر: الطّبقات الكبرى:٥/٢٢٣. التّاريخ الكبير:٥/٤٢٩. ثقات ابن حبَّان: ٥/١١٩. تاريخ بغـداد: ٠/٣٨٨. تهذيب الكمال: ١٨/٤٠٨. تهذيب التّهذيب: ٦/٣٧٣. تقريب التّهذيب: ١/٣٦٥.

(١) فتح الباري: ٧/٣٢٤.

(٢) هو حسين عليّ نوري بن عبّاس بن بزرك الميرزا . المعروف بالبهاء ، أو بهاء الله . رأس البهائية ومؤسّسها . إيـراني مستعرب . التقى بعليّ بن محمّد الشيرازي الملقّب بالباب فاعتنق دعوته وقام بها بعده . نفي مـن إيـران ثمّ مـن العراق ، اعتقل وسجن مرّات ، وتوفي بفلسطين ودفن بها . عام: ١٣٠٩هـ ــ ١٨٩٢م. من آثـاره: الكتـاب الأقدس ، والإيقان، والهيكل، والألواح. انظر: الأعلام: ٢/٢٤٨ــ٢٤٩.

(٣) البهائية :حركة فكرية عقائدية نشأت سنة ١٢٦٠هـ ــ ١٨٤٤م. تحت رعاية الاستعمار الرُّوسي والإنجلـيزي بهدف إفساد العقيدة الإسلاميّة ، وتفكيك وحدة المسلمين، وصرفهم عن قضاياهم الأساسيّة.
جذورها: أديان الهند الباطلة، إضافة إلى اليهوديّة والنّصرانية والدّهرية والتّشيّع الضّال والـتّراث الفارسـي القـديم والفرق الباطنية. وتحوي بين طيّاتها لميماً من العقائد المنحرفة كالحلوليّة والاتّحاد والتّناسخ. ويزعمـون أنّ دينـهم ناسخ لدين النّبي محمّد ﷺ ، ويؤوّلون القرآن تأويلات باطنة توافق معتقداتهم .
انظر:الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة . النّدوة العالمية للشّباب الإسلامي. المملكة العربية السّـعودية. الطّبعة الثّانية ١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٩م : ص:٦٣ــ٦٤.

(٤) أنشأ المهندس محمود محمّد طه السُّوداني الّذي ولد عام ١٩١١م ، وتخرّج في جامعة الخرطوم حزبه الّذي سمّـاه الحزب الجمهوري عام ١٩٤٥م إبّان الاستعمار البريطاني على السُّودان . سجن عدَّة مرَّات ، واعتكـف عـدَّة سنوات خرج على إثرها بآراء عقائديّة وفكريّة وسياسيّة شاذّة ومشوشة ومضطّربة، من أديـان وآراء ومذاهـب كثيرة ،قديمة وحديثة ، تتكوّن من العقائد الصُّوفيّة الباطنيّة، وآراء الفلاسفة ، والاشتراكيّة الماركسيّة، والنّصرانيّة.
وقد زعم أنّه رسول الرّسالة الثّانية، أمّا محمّد ﷺ فهو رسول الرّسالة الأولى .كما زعم أنّ الإنسان يـترقّى حتّـى يكون الله ،وأسقط أصول التّكاليف كالصّلاة والزّكاة والحجّ وغيرها.وله في القرآن تأويلات باطنة تصرفـه عـن ظاهره.كثر أتباعه ومناصروه ، ومعظمهم من النّساء والمثقّفين الّذين خلا فكرهم من الثّقافة الدّينيّة الإسلاميّة.
حكم عليه بالإعدام بتهمة الزّندقة ، وأمهل ثلاثة أيّام فلم يتب ، فنفّذ فيه الحكم شنقاً يوم الجمعة ٢٧ ربيع الثّـاني ١٤٠٥هـ ــ ١٨/١/ ١٩٨٥م على مرأى من النّاس. وانحسر أتباعه.
انظر:الموسوعة الميسَّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: ص:١٨٣ــ١٩٠.

﴿المطلب الثّالث﴾

مقتل عمر ﷺ وانتشار الفتن

لقد كان استشهاد أمير المؤمنين عمر ﷺ في سنة ثلاث وعشرين من الـــهجرة فتحاً لباب الفتن وانتشارها في أمّة الإسلام.

ورد ذلك في حديث حذيفة ﷺ حيث يقول:" بينا نحن جلوس عند عمر إذ قال: أيُّكـــم يحفظ قول النَّبي ﷺ في الفتنة ؟ قال: فتنة الرَّجل في أهله ومالـــه وولـــده وجـــاره تكفِّرها الصَّلاة والصَّدقة والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر . قال : ليس عن هذا أسألك ، ولكن الّتي تموج كموج البحر. قال : ليس عليـــك منـــها بـــأس يـــا أمـــير المؤمنين، إنّ بينك وبينها باباً مغلقاً. قال عمر: أيُكسر الباب أم يُفتـــح ؟ قـــال: بـــل يكسر. قال عمر: إذاً لا يُغلق أبداً ؟ قلت: أجل . قلنا لحذيفة: أكان عمر يعلم الباب ؟ قال : نعم ! كما أعلم أنَّ دون غد ليلة ، وذلك أنِّي حدّثته حديثاً ليس بالأغـــاليط .(١) فهبنا أنْ نسأله من الباب؟ فأمرنا مسروقاً(٢) فسأله. فقال: من الباب؟ قال: عمر" (٣).

---

(١) الأغاليط: جمع أغلوطة ، وهي التي يغالط بها .فمعناه: حدّثته حديثاً صدقاً محقّقاً ، ليس هو من صحف الكتـــابيين، ولا من اجتهاد ذي رأي ، بل من حديث النّبي ﷺ . شرح النَّووي على مســـلم: ١٧٥/٢. وانظـــر: الفـــائق: ٧٣/٣. النِّهاية في غريب الحديث: ٣٧٨/٣.

(٢) هو مسروق بن الأجدع بن مالك أبو عائشة الهمداني الوادعي الكوفي . أحد أعلام التّابعين، ثقـــة فقيـــه عـــابد مخضرم . من أصحاب عبد الله بن مسعود ﷺ . مات سنة ٦٣هـــ. وقيل: ٦٢هـــــــــــ.

وانظر: الطّبقات الكبرى:٧٦/٦. التّاريخ الكبير: ٣٥/٨. معرفة الثّقات: ٢٧٣/٢. الجـــرح والتّعديـــل: ٣٩٦/٨. ثقات بن حبّان: ٤٥٦/٥. تاريخ بغداد: ٢٣٢/١٣. تهذيـــب الكمـــال: ٤٥١/٢٧. تذكـــرة الحفّـــاظ: ٤٩/١. الكاشف: ٢٥٦/٢. الإصابة: ٢٩١/٦. تهذيب التّهذيب: ١٠٠/١٠.

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الفتن : (٦٧/٩٢). باب الفتنة الّتي تموج كمـــوج البحـــر: (١٧). برقـــم: (٧٠٩٦). ص: ١٤٩٧. و بلفظ مقارب في: كتاب مواقيت الصّلاة: (٥/٩). باب الصّلاة كفّـــارة: (١١٣/٤). برقم: (٥٢٥). ص: ١٢٥. وفي كتاب الزّكاة: (٧/٢٤). باب الصّدقة تكفّر الخطيئة: (٢٣). برقـــم: (١٤٣٥). ص:٣٠٢-٣٠٣. وفي كتاب الصّوم: (٩/٣٠). باب الصّوم كفّـــارة: (٣). برقـــم: (١٨٩٥). ص:٣٩٥. وفي كتاب المناقب: (٣٧/٦١). باب علامات النُّبوّة في الإسلام: (٢٥). برقم: (٣٥٨٦). ص:٧٥٦.

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب في الفتنة الّتي تموج كمـــوج البحـــر: (٧). برقم: (١٤٤). ٢٢١٨/٤.

عنى عمر ﷺ بالفتنة الّتي تموج كموج البحر نوعاً معيَّناً من الفتن ، وهي تلك الّتي تضطّرب اضطّراب البحر عند هيجانه ، لشدّتها وعظمها ، وذلك كناية عن كثرة الخصام والنِّزاع الّذي يؤدّي إلى القتال بين المسلمين [1].

وقد كان عمر ﷺ هو الحائل بين الفتن والإسلام ، وهو المعبَّر عنه بالباب هنا ، فما دام حيّاً فلا تدخل ، فإذا مات دخلت. وكذا كان[2] .

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله):

"وكأنَّه مثَّل الفتن بدار ، ومثَّل حياة عمر بباب لها مغلق ، ومثَّل موته بفتح ذلك الباب . فما دامت حياة عمر موجودة فهي الباب المغلق، لا يخرج ممّا هو داخل تلك الدّار شيء ، فإذا مات فقد انفتح ذلك الباب فخرج ما في تلك الدار" [3] .

وأشار بالكسر إلى قتله ، وبالفتح إلى موته ﷺ [4] .

عن خالد بن الوليد ﷺ أنَّ رجلاً قال له: يا أبا سليمان اتّق الله ، فانّ الفتن قد ظهرت . قال[5]: فقال: "وابن الخطَّاب حيٌّ ؟ إنَّما تكون بعده ... فينظر الرّجل فيتفكّر هل يجد مكاناً لم ينزل به مثل ما نزل بمكانه الّذي هو فيه من الفتنة والشَّر فلا يجده . قال : وتلك الأيَّام الّتي ذكر رسول الله ﷺ " بين يدي السَّاعة أيام الهرج" فنعوذ بالله أن تدركنا وإيَّاكم تلك الأيّام" [6] .

---

(1) انظر: شرح النّووي على مسلم: ١٧١/٢. فتح الباري: ٣٠٩/٧. تحفة الأحوذي: ٤٤٢/٦.

(2) انظر: شرح النّووي على مسلم: ١٧٥/٢.

(3) فتح الباري: ٣١٠/٧.

(4) عمدة القاري: ٢٠٢/٢٤. والظّاهر أنّه أراد بالكسر أنّه لن يغلق أبداً ، وبالفتح أنّه سوف يغلق .كما ذكر ذلك عمر ﷺ .

(5) لعل القائل عزرة بن قيس راوي الأثر عن خالد ﷺ .

(6) أخرجه أحمد في مسنده :بلفظه: في :٩٠/٤.
المعجم الكبير : بلفظ مقارب: في : ١١٦/٤.
المعجم الأوسط : بلفظ مقارب : في : ٢٢٨/٨ .
وأورده الهيثمي في مجمع الزّوائد . طبعة : دار الريّان للتّراث . القاهرة . دار الكتاب العربي .بيروت . ١٤٠٧هـ .
وقال : " رجاله ثقات وفي بعضهم ضعف " : ٣٠٨/٧ . ولا يضرّ ضعفه ، وقد ثبت حديث حذيفة ﷺ .

قال ابن كثير (رحمه الله):

"هكذا وقع الأمر سواء بعد ما قتل في سنة ثلاث وعشرين وقعت الفتـــن بيـــن النَّاس، وكان قتله سبب انتشارها بينهم" (١)

(١) النّهاية في الفتن والملاحم . لأبي الفداء ابن كثير. تحقيق محمّد أحمد عبد العزيز . نشر دار الـــتّراث الإســـلامي . الأزهر :١/١٥.

﴿ المطلب الرّابع ﴾

مقتل عثمان ﷺ

لمّا قتل عمر ﷺ ، وانكسر الباب الّذي كان حاجزاً من وقوع الفتن اشرأبّت الفتن ، واقتحمت معقل الإسلام الآمن ، مدينة رسول الله ﷺ ، وحطّت رحالها في دار خلافته، فكان الخليفة الرّاشد عثمان ذو النّورين ﷺ فريسة لها . فلم يهدأ لها بال حتّى سفكت دمه ، وأزهقت روحه . وصدق في شأنه قول النّبي ﷺ في حديث أبي موسى الأشعري ﷺ. عندما دخل النّبي ﷺ حائطاً من حوائط المدينة ، وجلس أبو موسى على بابه ، ثمّ استأذنه أبو بكر ﷺ في الدّخول ، ثمّ عمر ﷺ ، ثمّ عثمان ﷺ . قال النّبي ﷺ في شأن عثمان ﷺ : " ائذن له وبشّره بالجنّة ، معها بلاء يصيبه" (١).

ولكن لماذا خصّ عثمان ﷺ بالبلاء مع أنّ عمر ﷺ قد قتل أيضاً؟

أجاب عن ذلك *ابن بطّال (رحمه الله) فقال*:

"إنّما خصّ عثمان بذكر البلاء مع أنّ عمر قتل أيضاً ، لكون عمر لم يمتحن بمثل ما امتحن عثمان من تسلّط القوم الّذين أرادوا منه أن ينخلع من الإمامة بسبب ما نسبوه إليه من الجور والظّلم مع تنصّله من ذلك ، واعتذاره عن كلّ ما أوردوه عليه، ثمّ هجومهم عليه في داره وهتكهم ستر أهله، وكلّ ذلك زيادة على قتله" .

---

(١) هذا جزء من حديث طويل في:

صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الفتن: (٩٢/٦٧). باب الفتنة الّتي تموج كموج البحر: (١٧). برقم: (٧٠٩٧). ص: ١٤٩٧. و بلفظ مقارب في: كتاب فضائل أصحاب النّبي ﷺ (المناقب) : (٦٢/٣٧). باب : (٣٤/٥). برقم: (٣٦٧٤). ص: ٧٧٢. وفي باب مناقب عمر بن الخطّاب أبي حفص القرشي: (٦/٣٥). برقم: (٣٦٩٣). ص: ٧٧٦. وفي باب مناقب عثمان بن عفّان أبي عمرو القرشي: (٧/٣٦). برقم: (٣٦٩٥). ص:٧٧٦. وفي كتاب الأدب : (٧٨/٥٢). باب نكت العود في الماء والطّين: (١١٩). برقم: (٦٢١٦). ص: ١٣٢٧.

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب فضائل الصّحابة: (٤٤). باب من فضائل عثمان ﷺ : (٣). برقم: (٢٤٠٣). ٤/١٨٦٨-١٨٦٩.

ثمّ أردف *الحافظ ابن حجر (رحمه الله)* ــ بعد نقله للقول السّابق ــ:

"وحاصله : أنّ المراد بالبلاء الّذي خصّ به ، الأمور الزّائدة على القتل وهو كذلك" [1].

لقد قتل مظلوماً ﷺ ، لم يأت بمنكر من القول أو الفعل يبرر قتله. وما نسب إليه كان جوراً وظلماً .

وقد ردّ العلماء (رحمهم الله) على ذلك شبهة شبهة حتّى اقتلعوا جذورها، وفنّدوا مزاعمها، فذهبت أدراج الرّياح [2].

ويكفي في ردّ تلك المزاعم جملة. ما رواه كعب بن عُجْرَة ﷺ قال: "ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقرَّبها . فمرَّ رجل مُقَنَّعٌ رأسه . فقال رسول الله ﷺ : "هذا يومئذ على الهدى" . فوثبت فأخذت بضَبْعَي[3]عثمان ، ثمّ استقبلت رسول الله ﷺ فقلت: هذا؟ قال: "هذا"[4].

لقد شهد له رسول الله ﷺ بأنَّه على الهدى . وحسبك هذه الشَّهادة ، إذ لا تحتاج إلى مزيد .

والّذين تولّوا كبر حصاره وقتله ﷺ فلول من أقوام لا خلاق لهم ممن غلا في الدّين، أو افترسته العصبيّة ، أو ملأ الحقد والحسد قلبه على خيار الأمَّة ﷺ ، أو الموتورون في حدّ شرعي، أو أصحاب الأغراض والمطامع الرّخيصة ، أو الحاقدون على الإسلام ، أو الحمقى والجهلة الّذين غرر بهم[5].

وقد سمّى رسول الله ﷺ كلّ أولئك بالمنافقين .

---

(1) فتح الباري: ١٤/٥٥٢ وانظر: عمدة القاري: ١٤/٢٠٢-٢٠٣ .

(2) انظر: العواصم من القواصم: ص ٦١ فما بعدها . البداية والنّهاية : ١٧١/٧ .

(3) ضبعي: الضَّبع بسكون الباء : وسط العَضُد . وقيل: هو ما تحت الإبط. النّهاية في غريب الحديث: ٧٣/٣.

(4) سنن ابن ماجه: بلفظه في: المقدّمة. باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ : (١١). فضل عثمان ﷺ . برقم: (١١١) . قال الألباني رحمه الله: " صحيح" . ص: ٢٩

(5) انظر: العواصم من القواصم: ص: ٥٨-٥٩ . الهامش . والصَّحيح إنّه لم يتعيّن له قاتل معيّن ، بل أخلاط من النّاس ورعاع جاءوا من مصر والعراق وغيرها. انظر: التّذكرة : ص : ٦١٦

عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله ﷺ : "يا عثمـــان إن ولّاك الله هذا الأمر يوماً ، فأرادك المنافقون أن تخلع قميصك الّذي قمّصك الله فلا تخلعه". يقول ذلك ثلاث مرّات . قال النّعمان ﷺ[١٠]: فقلت لعائشة ما منعك أن تعلمي النّـــاس بهذا؟ قالت: أنسيته"[١].

وبحمد الله لم يسع أحد من الصّحابة عليه، ولم يقعد عن نصرته، ولو استنصر بهم ما غلب على أمره، ولكنّه اختار أهون الشّرّين في نظره، فضحّى بنفسه خشـــية اتّساع الفتنة، وســـفك دمـــاء المســـلمين[٢]. ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٨] .

وقد قال لمن اجتمع حوله من أبناء الصّحابة الّذين قدموا للدّفاع عنه: "أعـــزم على كلّ من رأى أنّ لي عليه سمعاً وطاعة إلاّ كفّ يده وسلاحه، فإنّ أفضلكم غِنـــاء من كفّ يده وسلاحه" [٣].

فكما أنّه ﷺ لم يتنازل عن أمر الخلافة ، ويترك أمّة محمّد يولّي عليها السّفهاء

---

(١) سنن التّرمذي: نحوه في كتاب المناقب: (٤٥). باب في مناقب عثمان ﷺ : (١٨). برقم: (٣٧٠٥).
وقال: " هذا حديث حسن غريب". و قال الألباني رحمه الله: " صحيح" . ص:٥٧٩.
سنن ابن ماجه: بلفظه في: المقدّمة . باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ : (١١). فضل عثمـــان ﷺ . برقـــم: (١١٢). قال الألباني رحمه الله: " صحيح" . ص: ٢٩.
مستدرك الحاكم: نحوه في : ١٠٦/٣. وقال: "هذا حديث صحيح عالي الإسناد و لم يخرجاه".

(٢) انظر: العواصم من القواصم:ص:١٣٦ ـــ١٣٧. مع الهامش .

(٣) المرجع السّابق: ص: ٤١ .
قال ابن كثير (رحمه الله):
"كان الحصار مستمرّاً من أواخر ذي القعدة إلى يوم الجمعة الثّامن عشر من ذي الحجّة، فلمّا كان قبـــل ذلـــك بيوم ، قال عثمان للّذين عنده في الدّار من المهاجرين والأنصار ـــ وكانوا قريباً من سبعمائة . فيهم عبـــد الله بـــن عمر ، وعبد الله بن الزّبير ، والحسن ، والحسين ، ومروان ، وأبو هريرة، وخلق من مواليه. ولو تركـــهم لمنعـــوه . فقال لهم : " أقسم على من لي عليه حقّ أن يكفّ يده ، وأن ينطلق إلى مترله" . وعنده مـــن أعيـــان الصّحابـــة وأبنائهم جمّ غفير . وقال لرقيقه: " من أغمد سيفه فهو حرّ " . فبرد القتال من داخل ، وحمي من خارج، واشـــتدّ الأمر . وكان سبب ذلك أنّ عثمان رأى في المنام رؤيا دلّت على اقتراب أجله ، فاستسلم لأمر الله رجاء موعـــوده، وشوقاً إلى رسول الله ﷺ ، وليكون خير ابني آدم" . البداية والنّهاية: ١٨١/٧ .

من يختارونه ، فيقع بذلك الهرج ، ويفسد أمر الأمّة بسبب ذلك [١]. كذلك لـــم يـــر القتال والدّفاع من أجله ، حتّى لا تسفك الدّماء ، ويقتل المسلمون بعضهم بعضاً .

وما تخوّف منه ﷺ فقد وقع . فبقتله انفتح باب شرّ عظيـــم علـــى الأمّـــة ، وهاجت الفتنة واشتدّ أوارها، وعصفت رياحها بجيل الإسلام الأوّل .

قال سعيد بن المسيّب[٢] (رحمه الله) :

"وقعت الفتنة الأولى ، يعني مقتل عثمان ، فلم تبق من أصحاب بَدْرٍ[٣]أحـــداً ، ثمّ وقعت الفتنة الثّانية ، يعني الحَرّة [٤] ، فلم تبق من أصحاب الحُدَيْبِيَة [٥] أحداً ، ثمّ وقعت الثّالثة ، فلم ترتفع وللنّاس طَبَاخ[٦] " [٧].

---

(١) انظر: البداية والنّهاية: ١٨٠/٧ .

(٢) سعيد بن المسيّب بن حزن بن أبي وهب أبو محمّد القرشي المخزومي المدني .سيّد التّابعين ، وأحد العلماء الأثبـــات والفقهاء الكبار. ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر ﷺ . ثقة حجّة في الحديث ، رفيع الذّكـــر ، رأس في العلـــم والعمل. قال عليّ بن المديني (رحمه الله) :"لا أعلم في التّابعين أوسع علماً منه". مات سنة :٩٣ أو ٩٤هـــ.

وانظر: الطّبقات الكبرى:٣٧٩/٢. ١١٩/٥. طبقات خليفة بن خيّاط. طبعة دار طيبة.مراجعة : د. أكرم ضيـاء العمري . الرّياض. ١٩٨٢م-١٤٠٢هـــ: ص: ٢٤٤. التّاريخ الكبير:٥١٠/٣. معرفة الثّقات: ٤٠٥/١. الجـــرح والتّعديل: ٥٩/٤. ثقات ابن حبّان:٢٧٣/٤. مشاهير علماء الأمصار:٦٣/١. تهذيب الكمال:٦٦/١١. تذكـــرة الحفّاظ:٥٤/١. الكاشف:٤٤٤/١. تهذيب التّهذيب:٧٤/٤. تقريب التّهذيب:٢٤١/١.

(٣) بَدْر: ماء مشهور بين مكّة والمدينة. ثمّ أطلق على الموضع . وبه كانت الوقعة المشهورة الّتي أعزّ الله بها الإســـلام، وفرّق بها بين الحقّ والباطل، وكانت في شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة النّبويّة.

انظر: معجم البلدان:٣٥٧/١ــ٣٥٨. وانظر: معجم ما استعجم:٢٣١/١ــ٢٣٢.

وهي اليوم بلدة معروفة بالمملكة العربية السّعودية، على طريق مكّة المدينة ، وهي أقرب إلى المدينة.

(٤) الحرّة: يأتي الكلام عنها قريباً .

(٥) الحديبية : الحديبية بضمّ الحاء وفتح الدّال وياء ساكنة وباء موحدة مكسورة ، وياء اختلفوا فيها : فمنـــهم مـــن شدّدها ، ومنهم من خفّفها. وهي قرية متوسطّة ، ليست بالكبيرة ، سمّيت ببئر هناك عند مسجد الشّجرة الّتي بـــايع رسول الله ﷺ تحتها. معجم البلدان : ٢ / ٢٣٠ بتصرُّف.

(٦) طَبَاخ: أصل الطّبَاخ : القوّة والسِّمَن ، ثمّ استعمل في غيرهما . فقالوا : فلان لا طباخ له : أي لا عقل له ولا خـــير عنده.

غريب الحديث للخطّابي: ٤١/٣. انظر : النّهاية في غريب الحديث:١١١/٣. وزاد:(أراد أنّها لم تبق في النّاس مـــن الصّحابة أحداً) . وانظر: الفائق: ٣٥٥/٢ــ٣٥٦.

(٧) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب المغازي: (٣٨/٦٤). باب: (١٢). ص: ٨٤٠-٨٤١ .

وما حدث من قتال بين المسلمين بعد ذلك إنّما تولّد أصله من مقتله ﷺ . ولذا حُقّ لهذه الفتنة أن توصف بالفتنة الكبرى. وقد صدق الوصف فيها بأنّها الّتي تموج كموج البحر .

وقوله: "ثمّ وقعت الثّالثة" قيل: هي فتنة الأزارقة الّتي وقعت عقب موت يزيد بن معاوية ، واستمرّت أكثر من عشرين سنة. وقيل: هي خروج أبي حمزة الخارجي في خلافة مروان بن محمّد بن مروان بن الحكم سنة ثلاثين ومائة . وأبعد الحافظ ابن حجر الأوّل . لأنّ الّذي يظهر أنّ المراد الفتنة الّتي وقعت بالمدينة دون غيرها . انظر: فتح الباري : ٨/٦١ .

﴿ المطلب الخامس ﴾

موقعة الجمل*

لمّا قتل عثمان ﷺ انعقدت البيعة لعليّ ﷺ بطوع واختيار من المهاجرين والأنصار ﷺ . وقد خشي أجلّة الصَّحابة أن يرجع النَّاس إلى أمصارهم بخبر قتل عثمان ولم يقم بعده قائم ، فلا يؤمن عند ذلك من اختلاف النَّاس وفساد الأمَّة .

وممن بايعه طلحة بن عبيد الله والزُّبير بن العوّام (رضي الله عنهما). ثمّ خرجا إلى مكّة فالتقيا بأمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) ، ثمّ اتّفقوا على الخروج للبصرة [1]. وقد خرجوا مطالبين بقتلة عثمان ﷺ الّذين اندسّوا في صفوف جيش عليّ ﷺ [2]. ورأوا أنّه لابد من أن ينتصروا للشّهيد المظلوم ، ويقمعوا أهل الفساد والعصيان ، وإلاّ استوجبوا غضب الله وعقابه[3].

---

* سمّيت بموقعة الجمل لأنّ أمّ المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) كانت تحمل أثناء المعركة في هودج على جمل اسمه عسكر اشتراه لها يعلى بن أمية ﷺ . انظر : البداية والنهاية : ٢٣١/٧ . فما بعدها .

(١) انظر: تاريخ الطّبري . تاريخ الأمم والملوك . لأبي جعفر محمّد بن جرير الطّبري . تحقيق : محمّد أبو الفضل إبراهيم . طبعة : دار المعارف . بمصر . الطّبعة الثّانية . : ١٥٥/٥-١٥٦ . الجامع لأحكام القرآن: ٣١٨/١٦ . وانظر: العواصم من القواصم: ص: ١٤٢-١٤٣ مع الهامش . والبصرة : مدينة بالعراق معروفة ، سميت بذلك لأنّ أرضها غليظة وبها حجارة رخوة فيها بياض . وقيل : غير ذلك . فتحت في عهد عمر بن الخطاب ﷺ .

انظر : معجم البلدان : ٤٣٠/١-٤٣١ .

قال ابن أبي العز (رحمه الله) في شرحه لقول الإمام الطّحاوي(رحمه الله):

" ونثبت الخلافة بعد عثمان لعليّ (رضي الله عنهما). قال : " لّما قتل عثمان وبايع النّاس عليّاً صار إماماً حقّاً واجب الطّاعة ، وهو الخليفة في زمانه خلافة نبوّة ، كما دلّ عليه حديث سفينة ﷺ ... أنّه قال : قال رسول الله ﷺ : " خلافة النُّبوّة ثلاثون سنة ، ثمّ يؤتي الله ملكه من يشاء " . وكانت خلافة أبي بكر الصّدّيق سنتين وثلاثة أشهر ، وخلافة عمر عشر سنين ونصفاً ، وخلافة عثمان اثنتي عشرة سنة ، وخلافة عليّ أربع سنين وتسعة أشهر ، وخلافة الحسن ابنه ستة أشهر " . أبو داود : (٤٦٤٦) . ٥٠٧ . الترمذي : (٢٢٢٦) . ٣٦٨

شرح العقيدة الطّحاوية للقاضي عليّ بن عليّ بن أبي العز الحنفي . تحقيق وتعليق وتخريج د. عبد الله بن عبد المحسن التركي ــ شعيب الأرناؤوط . مؤسّسة الرّسالة ــ بيروت . الطّبعة الثّانية: ١٤١٣هـ-١٩٩٣م: ص: ٧٢١ــ٧٢٢.

(٢) انظر: التّذكرة ص: ٦٢٣ . البداية والنّهاية: ٢٣١/٧ . العبر: ٢٧/١ .

(٣) شرح العقيدة الطّحاوية ص: ٧٢٣ .

ولم يخرجوا ﷺ لينازعوا عليّاً في الخلافة ، أو يولّوا أحداً منهم ، وإنّما أنكروا على علـــيّ ﷺ إيواءه قتلة عثمان ﷺ ، وترك الاقتصاص منهم(١).

وقد رأوا أنّ الصّلح بين المسلمين ، واجتماع الكلمة لا يتأتّى إلاّ بعد القضاء على قتلـــة عثمـــان ﷺ وإقامة حكم الله فيهم (٢).

وعليّ ﷺ ما خرج للقاء أولئك إلاّ من أجل الإصلاح ، وإطفاء ثائرة النّاس ليجتمعوا علـــى الخير، ويلتئم شمل الأمّة . هذا ما بينه ﷺ لأهل الكوفة(٣) عندما دعاهم إليه فأجابه جمع غفـــير منهم . فقال لهم:

" يا أهل الكوفة أنتم لقيتم ملوك العجم ففضضتم جموعهم ، وقد دعوتكـــم لتشـــهدوا معنـــا إخواننا من أهل البصرة ، فإن يرجعوا فذاك الّذي نريده ، وإن أبوا داويناهم بالرّفق حتّى يبدؤنـــا بالظّلم ، ولم ندع أمراً فيه صلاح إلاّ آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله تعالى" (٤).

وهو ﷺ لم يترك القصاص على قتلة عثمان ﷺ ، وإنّما أخّر ذلك حتّى يستوثق الأمر لـــه ، وتجتمع عليه الكلمة ، ويقع الطّلب من أولياء عثمان ﷺ ، وهم أبناؤه ، فيجري القضاء بـــالحقّ . ولو أقام الحدّ عليهم قبل اجتماع الكلمة لتعصّبت لهم قبائل ، وانتصرت لهم طوائف ، فزاد الفتـــق

---

(١) انظر: فتح الباري: ١٤/٥٥٨ .

(٢) انظر: البداية والنّهاية: ٧/٢٣٨ وانظر: العواصم من القواصم: ص: ١٥١،١٥٤ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله):

"فإنّ عائشة لم تقاتل ، و لم تخرج لقتال ، وإنّما خرجت بقصد الإصلاح بين المسلمين ، وظنّت أنّ في خروجـــها مصلحة للمسلمين . ثمّ تبيّن لها فيما بعد أنّ ترك الخروج كان أولى . فكانت إذا ذكرت خروجها تبكي حتّى تبـــلّ خمارها . وهكذا عامّة السّابقين ندموا على ما دخلوا فيه من القتال ، فندم طلحة والزُّبير وعليّ ﷺ أجمعـــين . و لم يكن يوم الجمل لهؤلاء قصد في القتال ، ولكن وقع الاقتتال بغير اختيارهم" .

المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال . وهو مختصر منهاج السّنة . تـــأليف شـــيخ الإسلام ابن تيمية . اختصره الحافظ أبو عبد الله الذّهبي . تحقيق محبّ الدّين الخطيب . المكتبة السّلفيّة ــــ القـــاهرة . الطّبعة الثّالثة: ص: ١٩٤-١٩٥ .

(٣)الكوفة : مدينة قديمة معروفة بأرض بابل من سواد العراق ، سمّيت بذلك لاستدارتها . وقيل لاجتماع النّاس بها . وقيل غير ذلك .كانت قرية صغيرة فوسّع بناءها سعد بن أبي وقاص ﷺ بأمر عمر بن الخطاب ﷺ ، واستوطنها الجند . انظر : معجم البلدان : ٤/٤٩٠ .

(٤) البداية والنّهاية: ٧/٢٣٧ وانظر: ٧/٢٣٩ .

وقول عليّ ﷺ في تاريخ الطّبري : ٤/٤٨٧ وبه زيادات . وانظر: ٤/٤٧٩ .

في الأمّة ، وترتّب على ذلك مفسدة أعظم من مصلحة قتلهم . فكان ﷺ في ذلك أسدّ رأياً وأصوب قولاً [١].

ولا خلاف بين الأمّة أنّه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدّى إلى إثارة فتنة ، أو تشتيت كلمة [٢]. وقد كان ﷺ يبغض قتلة عثمان ﷺ ويتبرّأ منهم بل ويلعنهم، وكان يتربّص بهم الدّوائر يودّ لو تمكّن منهم ليأخذ حقّ الله منهم[٣].

ولمّا التقى الفريقان بالبصرة تشاورا فانتظم الأمر بينهما على الصّلح والتّفرّق على الرّضا . فخاف قتلة عثمان ﷺ من أن يتمكّنوا منهم فيقتص لعثمان ﷺ منهم، فاجتمعوا وتشاوروا واتّفقوا على إثارة الحرب بين الفريقين عند السّحر، فتمّ لهم ما أرادوا . وظنّ كلّ فريق أنّ الآخر قد غدر به ، فنشبت الحرب . ودافع كلّ فريق عن نفسه فقتل خلق لا يحصون . فلم يقع القتال على اختيار من الطّرفين وإنّما أثار ذلك المفسدون[٤].

وعليٌّ ﷺ كان مصيباً في قتال أهل الجمل . وقد نقل الإجماع على ذلك جماعة من العلماء[٥].

ويؤيّده ما جاء عن *زيد بن وهب (رحمه الله)[٦] أنّه قال:*

" بينما نحن حول حذيفة إذ قال: " كيف أنتم وقد خرج أهل بيت نبيّكم ﷺ في فئتين يضرب بعضكم وجوه بعض بالسّيف " . فقلنا: يا أبا عبد الله وإنّ ذلك لكائن ؟ قال : " أي والّذي بعث محمّداً ﷺ بالحقّ إنّ ذلك لكائن" . فقال بعض أصحابه:

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٣١٨/١٦ . التّذكرة: ص: ٦٢٣ . البداية والنّهاية: ٢٣٨/٧ . وانظر: العواصم من القواصم: ص: ١٦٤ فما بعدها مع الهامش .

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٣١٨/١٦ . التّذكرة: ص: ٦٢٣ .

(٣) انظر: البداية والنّهاية: ٢٣٠/٧ وانظر: ٢٤١/٧ . المنتقى من منهاج الاعتدال ص: ١٩٦ .

(٤) انظر: تاريخ الطّبري : ٥٠٦/٤-٥٠٧ . الجامع لأحكام القرآن: ٣١٨/١٦-٣١٩ . التّذكرة: ص: ٦٢٠-٦٢١ . البداية والنّهاية: ٢٤٠/٧ . وانظر: شرح العقيدة الطّحاوية ص: ٧٢٣ .

(٥) انظر :كتاب الفرق بين الفرق وبيان الفرقة النّاجية . لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمّد البغدادي . طبعة دار الأفاق الجديدة . بيروت . الطّبعة الثّانية : ١٩٧٧م : ص: ١٠١-١٠٢،٣٤٢. التّذكرة: ص: ٦٢٦.

(٦) زيد بن وهب الجهني أبو سليمان نزيل الكوفة، مخضرم ، أسلم في عهد النّبي عليه السّلام ، وهاجر إليه فقبض النّبي وهو في الطّريق . وهو ثقة جليل ، كثير الحديث .توفّي سنة :٩٦هـ وقيل بضع وثمانين .

وانظر: الطّبقات الكبرى:١٠٢/٦. التّاريخ الكبير:٤٠٧/٣. الجرح والتّعديل:٥٧٤/٣. ثقات ابن حبّان:٢٥٠/٤. تاريخ بغداد:٤٤٠/٨. تهذيب الكمال:١١١/١٠. تذكرة الحفّاظ:٦٦/١. الكاشف:٤١٩/١. الإصابة:٦٤٩/٢. تهذيب التّهذيب: ٣٦٨/٣. تقريب التّهذيب:٢٢٥/١.

يا أبا عبد الله فكيف نصنع إن أدركنا ذلك الزّمان ؟ قال: " انظروا الفرقة الّتي تدعو إلى أمر عليّ ﷺ فألزموها، فإنّها على الهدى " [1]. ومثله لا يقال بالرّأي .

(١) مسند البزّار . لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزّار . طبعة مؤسّسة علوم القرآن . بيروت . مكتبة العلوم والحكم . المدينة. الطّبعة الأولى : ١٤٠٩هـ . تحقيق محفوظ الرّحمن زين الله : بلفظه. برقم: (٢٨١٠). ٢٣٦/٧-٢٣٧. وأورده الحافظ ابن حجر في فتح الباري بلفظ مقارب ، وسكت عنه. ٥٧٧/١٤. وقد قال: "وأقتصر على ما أورده بسند صحيح أو حسن وأبيّن ما عداه". فتح الباري: ٥٥٦/١٤.

﴿ المطلب السّادس ﴾

موقعة صِفّين

لمّا فرغ عليٌّ ﷺ من وقعة الجمل رجع إلى الكوفة ، ثمّ بعث إلى معاوية ﷺ الّذي كان والياً على الشّام ومن معه يعلمهم باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ، ويخبرهم بما كان في وقعة الجمل، ويدعوهم إلى الدّخول فيما دخل فيه النّاس ، فأبوا أن يبايعوا حتّى يقتل قتلة عثمان ﷺ ، أو يمكّنهم منهم . وصمّموا على القيام بطلب دم عثمان ﷺ الّذي قتل مظلوماً [(١)]. فالتقى الفريقان في سهل صفّين [(٢)] في العام السّادس والثّلاثين من الهجرة النّبويّة . وبعد مراسلات ومناوشات جرت بينهما وحروب يطول ذكرها . قتل من الفريقين سبعون ألفاً. وكان بينهم تسعون زحفاً [(٣)].

وقد حمل العلماء هذه الوقعة على حديث أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنّه قال: " لا تقوم السّاعة حتّى تقتتل فئتان عظيمتان ، و تكون بينهما مقتلة عظيمة، ودعواهما واحدة [(٤)] " [(٥)] .

---

(١) انظر: تاريخ الطّبري: ٥٦١/٤ فما بعدها . الكامل في التّاريخ لعز الدّين بن الأثير . دار صادر للطّباعة والنّشر — دار بيروت للطّباعة والنّشر . ١٣٨٥هـ—١٩٦٥م: ٢٧٦/٣ فما بعدها . البداية والنّهاية: ٢٥٤/٧ فما بعدها . وانظر: التّذكرة ص: ٦٢٣ .

(٢) صِفّين:موضع بقرب الرّقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي . كانت فيه الوقعة بين عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنهما) . انظر: معجم البلدان:٤١٤/٢. وانظر معجم ما استعجم: ٨٣٧/٣

(٣) انظر: العبر: ٣١/١ . البداية والنّهاية: ٢٧٥/٧

(٤) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب المناقب: (٣٧/٦١). باب علامات النّبوّة في الإسلام: (٢٥). برقم: (٣٦٠٩). ص: ٧٥٩. وفي كتاب استتابة المرتدّين: (٦٣/٨٨). باب قول النّبي ﷺ "لا تقوم السّاعة حتّى يقتتل فئتان دعواهما واحدة " : (٨). برقم: (٦٩٣٥). ص:١٤٦٣. وفي كتاب الفتن : (٦٧/٩٢). باب: (٢٦/٢٥). برقم: (٧١٢١). ص:١٥٠٠-١٥٠١.

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما: (٤). برقم: (١٥٧). ٢٢١٤/٤.

(٥) انظر : التّذكرة : ص: ٧١٥. البداية والنّهاية: ٢٧٥/٧.

ولمّا توجّه النّصر لجند العراق على أهل الشّام، رفع الشّاميّون المصاحف على أسنّة الرّماح طلباً لتحكيم كتاب الله بين الفريقين. فكفّ النّاس عند ذلك عن القتال(١) .

وقد أحدثت تلك الوقعة شرخاً عظيماً في صفوف المسلمين ، وفتقاً لم يرتق في وحدتهم . حيث سفكت فيها دماء أهل الإسلام ، وولّدت إحناً ومحناً في النّفوس، وخلّفت من الأحقاد والعداوات والبغضاء الشّيء الكثير .

وكان أصلح للإسلام وأهله ألاّ تقع ، ولكن أمر قدّره الله عزّ وجل ، فنفذ قدر الله في ذلك . ولم يقع القتال برغبة من أمير المؤمنين عليّ أو معاوية (رضي الله عنهما) ، وإنّما أجّج نار فتنته قتلة عثمان ﷺ كما أجّجوا القتال في وقعة الجمل من قبل ، وانضاف إليهم هنا أناس يحبّون سفك الدّماء وإثارة البلابل .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله):

"وأكثر الّذين كانوا يختارون القتال من الطائفتين لم يكونوا يطيعون عليّاً ولا معاوية . وكان عليّ ومعاوية (رضي الله عنهما) أطلب لكفّ الدّماء من أكثر المقتتلين، لكن غُلبا فيما وقع . والفتنة إذا ثارت عجز الحكماء عن إطفاء نارها . وكان في العسكرين مثل الأشتر النّخعي(٢) ، وهاشم بن عتبة المِرقال (٣)،

(١) انظر: تاريخ الطّبري: ٤٨/٥ فما بعدها . الكامل في التّاريخ: ٣١٦/٣ فما بعدها . العواصم من القواصم: ص: ١٧٢ فما بعدها . العبر: ٣٠/١-٣١ . البداية والنّهاية: ٢٧٦/٧ فما بعدها .

(٢) الأشتر النّخعي: هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث النّخعي الأشتر ، أحد الأشراف ، أدرك الجاهليّة فهو مخضرم ، نزل الكوفة . كان من شيعة عليّ ﷺ وشهد معه الجمل وصفّين ومشاهده كلّها.ولاّه عليّ مصر فمات قبل أن يدخلها سنة ٣٧هـ . وهو ممن سعى في الفتنة وألّب على عثمان ﷺ ، وشهد حصره .

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٢١٣/٦. طبقات خليفة: ص:١٤٨. ثقات ابن حبّان: ٣٨٩/٥. تهذيب الكمال: ١٢٦/٢٧. الكاشف: ٢٣٤/٢. الإصابة: ٢٦٨/٦. تهذيب التّهذيب: ١٠/١٠. تقريب التّهذيب: ٥١٦/١.

(٣) هو هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ابن أخي سعد بن أبي وقاص ﷺ . المعروف بالمرقال ــ لإسراعه في الحرب ــ شجاع مشهور . أسلم يوم فتح مكّة ، وكان ممّن يستعين به عمر ﷺ على أمور المسلمين ، ويقدّمه في البعث. حضر مع عمّه سعد ﷺ حرب القادسيّة ، وله بها آثار مذكورة . قتل بصفّين مع عليّ بن أبي طالب ﷺ . وقيل : قتل بالجمل .

وانظر: ثقات ابن حبّان: ٤٣٧/٣. مشاهير علماء الأمصار: ١٤/١. تاريخ بغداد: ١٩٦/١. الإصابة: ٥١٥/٦.

وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد[١]، وأبي الأعور السُّلمي[٢]، ونحوهم من المحرّضين على القتال . قوم ينتصرون لعثمان غاية الانتصار ، وقوم ينفّرون عنه، وقوم ينتصرون لعليّ، وقوم ينفّرون عنه . ثمّ قتال أصحاب معاوية معه لم يكن لخصوص معاوية ، بل كان لأسباب أخرى . وقتال الفتنة مثل قتال الجاهليّة لا تنضبط مقاصد أهله واعتقاداتهم . كما *قال الزُّهري*[٣] : "وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون ، فأجمعوا أنّ كلّ دم أو مال أو فرج أصيب بتأويل القرآن فإنّه هدر . أنزلوهم منزلة الجاهليّة" [٤] .

ولمّا وقع القتال ثبت كلّ من الفريقين للآخر ممّا أدّى إلى استحراء القتل بينهم .

---

(١) هو عبد الرّحمن بن خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي .كان عظيم القدر ، وله صحبة ، ولكنّه لم يسمع من النّبي ﷺ ، ولم يحفظ عنه.كان مع معاوية ﷺ ، وشهد معه صفّين. مات سنة :٤٦هـ.
وانظر: ثقات ابن حبّان: ٣/٢٥٠. مشاهير علماء الأمصار:١/٥٢. الإصابة: ٥/٣٣.

(٢) أبو الأعور السُّلمي هو عمرو بن سفيان بن عبد شمس . مشهور بكنيته. ذكره جماعة في الصّحابة ، وأنكر ذلك ابن أبي حاتم وابن حبّان .أدرك الجاهليّة . وهو من أصحاب معاوية ﷺ ، وله مواقف معه بصفّين .
وانظر: طبقات خليفة: ص:٥١ .الجرح والتّعديل:٦/٢٣٤. الإصابة: ٤/٦٤١.

(٣) هو محمّد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب أبو بكر القرشي الزُّهري .التّابعي العلم ، الفقيه الحافظ، متّفق على جلالته وإتقانه . من أحفظ أهل زمانه للسّنن وأحسنهم لها سياقاً. مات سنة: ١٢٥هـ وقيل بعدها.
وانظر: التّاريخ الكبير: ١/٢٢٠. معرفة الثّقات: ٢/٢٥٣. الجرح والتّعديل: ٨/٧١. ثقات ابن حبّان: ٥/٣٤٩. مشاهير علماء الأمصار: ١/٦٦. تهذيب الكمال: ٢٦/٤١٩. تذكرة الحفّاظ: ١/١٠٨. الكاشف: ٢/٢١٩. تهذيب التّهذيب: ٩/٣٩٥. تقريب التّهذيب: ١/٥٠٦.

(٤) المنتقى من منهاج الاعتدال: ص: ٢٢٥-٢٢٧ .
وقول الزهري أورد البيهقي نحوه في السّنن الكبرى : باب من قال لأتباعه في الخراج والدّماء ، وما فات من الأموال في قتال أهل البغي . ٨/١٧٥.

قال عبد الرحمن بن زياد بن أنعم (رحمه الله): [١]

" كانوا عرباً يعرف بعضهم بعضاً في الجاهليّة ، فالتقوا في الإسلام معهم على الحميّة وسنّة الإسلام ، فتصابروا واستحيوا من الفرار، وكانوا إذا تحاجزوا دخل هؤلاء في عسكر هؤلاء، وهؤلاء في عسكر هؤلاء، فيستخرجون قتلاهم فيدفنوهم" .

قال الشّعبي (رحمه الله): [٢]

"هم أهل الجنّة ، لقي بعضهم بعضاً فلم يفر أحد من أحد" [٣] .

ولا شك أنّ عليّاً ﷺ كان محقّاً في قتاله لأهل الشّام ، كما كان محقّاً في قتاله لأصحاب الجمل ، وأنّ من قاتلوه كانوا بغاة ، لأنّه الإمام المبايع ، ومن خرج عليه وجب قتاله حتّى يفئ إلى الحقّ ، وينقاد إلى الصّلح .

قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ

---

(١) عبد الرّحمن بن زياد بن أنْعُم أبو أيّوب أو أبو خالد المعافري الشّعباني الإفريقي القاضي .كان رجلاً صالحاً ، ولكنّه ضعيف في الحديث . مات سنة :١٥٦ وقيل :بعدها .

وانظر:التّاريخ الكبير: ٢٨٣/٥. ضعفاء العقيلي لأبي جعفر محمّد بن عمرو بن موسى العقيلي. طبعة دار الكتب العلميّة. بيروت. الطّبعة الأولى : ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م. تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي:٣٣٢/٢. الجرح والتّعديل: ٢٣٤/٥. المجروحين لأبي حاتم محمّد بن حبّان البستيّ . طبعة دار الوعي . حلب. تحقيق محمود إبراهيم زايد:٥٠/٢. الكامل في ضعفاء الرّجال لعبد الله بن عدي بن عبد الله أبي أحمد الجرجاني . طبعة دار الفكر. بيروت. الطّبعة الثّالثة ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م. تحقيق يحي مختار غزّاوي:٢٧٩/٤. تاريخ بغداد: ٢١٤/١٠. تهذيب الكمال: ١٠٢/١٧. الكاشف: ٦٢٧/١. تهذيب التّهذيب: ١٥٧/٦. تقريب التّهذيب: ٣٤٠/١.

(٢) الشّعبي : هو الإمام العلم عامر بن شُرَاحيل الهمداني الحميري الكوفي ، أبو عمرو علامة التّابعين. ولد زمن عمر ﷺ . وكان إماماً فاضلاً حافظاً فقيهاً متقناً ثبتاً.قال مكحول رحمه الله: "مارأيت أفقه منه".مات بعد المائة.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٢٤٦/٦. التّاريخ الكبير: ٤٥٠/٦. معرفة الثّقات: ١٢/٢. ثقات ابن حبّان: ١٨٥/٥. مشاهير علماء الأمصار: ١٠١/١. تاريخ بغداد: ٢٢٧/١٢. التّعديل والتّجريح لمن خرّج له البخاري في الجامع الصّحيح. لسليمان بن خلف بن سعد أبي الوليد الباجي . طبعة دار اللّواء الرّياض. الطّبعة الأولى : ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م. تحقيق أبي لبابة حسين : ٩٩٢/٣. تهذيب الكمال: ٢٨/١٤. تذكرة الحفّاظ: ٧٩/١. الكاشف: ٥٢٢/١. تهذيب التّهذيب: ٥٧/٥. تقريب التّهذيب: ٢٨٧/١. لسان الميزان:٥٠٩/٧.

(٣) البداية والنّهاية: ٢٧٨/٧ .

﴿... فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ [الحجرات:٩] .

قال ابن القيم (رحمه الله):

"وقد أمر سبحانه بالإصلاح بين الطّائفتين المقتتلتين أوّلاً، فإن بغت إحداهما على الأخرى فحينئذ أمر بقتال الباغية لا بالصّلح فإنّها ظالمة، ففي الإصلاح مع ظلمها هضم لحقّ الطّائفة المظلومة" (١) .

وقال ﷺ لعمّار بن ياسر (رضي الله عنهما) : " تقتلك الفئة الباغية " (٢) ، وعمّار رضي الله عنه كان يقاتل في صفّ عليّ رضي الله عنه ، وقتله أهل الشام .

قال الإمام النّووي (رحمه الله):

"قال العلماء: هذا الحديث حجّة ظاهرة في أنّ عليّاً رضي الله عنه كان محقّاً مصيباً، والطّائفة الأخرى بغاة ، لكنّهم مجتهدون ، فلا إثم عليهم ... وفيه معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ من أوجه منها: أنّ عمّاراً يموت قتيلاً ، وأنّه يقتله مسلمون، وأنّهم بغاة ، وأنّ الصّحابة يقاتلون ، وأنّهم يكونون فرقتين باغية وغيرها ، وكلّ هذا قد وقع مثل فلق الصّبح" (٣) .

---

(١) أعلام الموقّعين عن ربّ العالمين . لابن القيّم . طبعة مكتبة الكلّيات الأزهرية . تعليق : طه عبد الرءوف سعد . ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م . شركة الطّباعة الفنيّة المتّحدة بمصر : ١٠٩/١ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في كتاب الصّلاة: (٨/٥). باب التّعاون في بناء المسجد: (٦٣). برقم: (٤٤٧). ص:١١٠. وفي كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/٣٢). باب مسح الغبار عن النّاس في السّبيل: (١٧). برقم: (٢٨١٢). ص:٥٩٤. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب لا تقوم السّاعة حتّى يمرّ الرّجل بقبر الرّجل فيتمنّى أن يكون مكان الميّت من البلاء: (١٨). برقم: (٢٩١٦). ٢٢٣٦/٤. عن أمّ سلمة (رضي الله عنها) . وبلفظ مقارب برقم: (٢٩١٥). ٢٢٣٥/٤. عن أبي سعيد رضي الله عنه .

(٣) شرح النّووي على مسلم: ٤٠/١٨ .

وقال ﷺ : "تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين ، يقتلها أولى الطّائفتين بالحقّ" [(١)] .

وهؤلاء المارقة هم الّذين خرجوا على عليّ ﷺ وقاتلوه يوم النَّهْرَوَان .[(٢)] فدلّ الحديث على أنّ عليّاً ﷺ وطائفته أقرب إلى الحقّ من طائفة معاوية ﷺ [(٣)] .

وقد ذهب جمهور أهل السنّة إلى تصويب عليّ ﷺ في قتاله ، وأنّ مقاتليه قد اجتهدوا فأخطأوا فلا يذمّون [(٤)] .

والمراد هنا أنّ تلك الوقعة كانت فتنة عظمى بين المسلمين الأول ، لما أحدثته من فرقة وشتات ، وما أورثته من أحقاد وعداوات ، ضعفت على إثرها شوكة المسلمين ، وتضعضعت قوّتهم . وبات أبناء الدّين الواحد يقتل بعضهم بعضاً. فبدلاً

---

(١) صحيح مسلم: بلفظه في: في كتاب الزّكاة: (١٢). باب ذكر الخوارج وصفاتهم: (٤٧). برقم: (١٠٦٥). ٧٤٥/٢. و بلفظ مقارب في: ٧٤٦/٢. عن أبي سعيد الخدري ﷺ .

(٢) النَّهْرَوان: وفيها لغات أخرى. بلاد واسعة بين بغداد وواسط من ناحية الشّرق.وبها عدّة مدن وقرى ، هدمت قديماً . وأصل النّهروان اسم نهر ،ثمّ أطلق الاسم على المكان . وبها أوقع عليّ ﷺ بالخوارج في الوقعة المشهورة . انظر: معجم ما استعجم:١٣٣٦/٤ـــ١٣٣٧. معجم البلدان: ٣٢٤/٥ـــ٣٢٥ .

(٣) المنتقى من منهاج الاعتدال: ص: ٢٢٣ .

(٤) انظر: التّذكرة ص: ٦٢٦-٦٢٧ . الجامع لأحكام القرآن ٣١٨/١٦ . المنتقى من منهاج الاعتدال: ص: ٥٤-٥٦ . (وقد ذكر فيه شيخ الإسلام ابن تيميه أقوال أهل العلم وطوائف أهل الإسلام في حكم قتال صفّين) . البداية والنّهاية: ٢٦٧/٧ فما بعدها . فتح الباري: ٥٧١/١٤ . الإذاعة: ص: ٣٧ . وانظر: العواصم من القواصم: ص: ١٦٨ فما بعدها .

وقد ذكر الشّيخ محبّ الدّين الخطيب (رحمه الله) تحقيقات ضافية ، وتعليقات مفيدة تثلج الصّدر ، في تعليقه على كلام الإمام ابن العربي (رحمه الله) حول تلك الوقعة .

انظر: هامش رقم (٤) ص: ١٦٨ وهامش رقم (١) ص: ١٧٠ من الكتاب السّابق .

وقال (رحمه الله):

"إنّ هذه الحرب المثاليّة هي الحرب الإنسانية الأولى في التّاريخ ، الّتي جرى فيها المتحاربان معاً على مبادئ الفضائل الّتي يتمنّى حكماء الغرب لو يعمل بها في حروبهم ، ولو في القرن الحادي والعشرين، وإنّ كثيراً من قواعد فقه الحرب في الإسلام لم تكن لتعلم وتدوّن لو لا وقوع هذه الحرب، ولله في كلّ أمر حكمة" . هامش (١) ص: ١٦٥ . من المرجع السّابق .

وانظر: الكامل في التّاريخ: ٢٩٣/٣-٢٩٤ . الجامع لأحكام القرآن: ٣١٩/١٦-٣٢٠ .

من أن توجّه السّيوف إلى أعداء الله المتربّصين بدين الإسلام وجّهت إلـــى صـــدور أهل الإسلام وفلذات كبده .

وقد حذرّ الله ورسوله ﷺ أيّما تحذير من قتل المؤمن وقتاله .

قال تعـــــــالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [النساء:٩٣].

عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) أنّ رسول الله ﷺ قال: "مـــن حمـــل علينا السّلاح فليس منّا" (١) .

---

(١) هذا الحديث ورد عن جماعة من الصّحابة في الصّحيحين:

[أ]عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما):

صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الدّيـــات: (٨٧/٦٢). بـــاب قـــول الله تعـــالى: ﴿ وَمَنْ أَحْيَـاهَا ﴾ [المائدة:٣٢] : (٢). برقم: (٦٨٧٤).ص: ١٤٥٠. وزاد :رواه أبو موسى عن النّبي ﷺ. وفي كتــــاب الفـــتن: (٦٧/٩٢). باب قول النّبي ﷺ :" من حمل علّينا السّلاح فليس منّا": (٧). برقم: (٧٠٧٠). ص: ١٤٩٢.

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الإيمان: (١). باب قول النّبي ﷺ : " من حمل علّينا السّلاح فليس منّـــا": (٤٢). برقم: (٩٨). ٩٨/١.

[ب] أبو موسى الأشعري ﷺ :

صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب قول النّبي ﷺ : " من حمل علّينا السّلاح فليس منّـــا": (٧). برقم: (٧٠٧١). ص: ١٤٩٢.

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الإيمان: (١). باب قول النّبي ﷺ : " من حمل علّينا السّلاح فليس منّـــا": (٤٢). برقم: (١٠٠). ٩٨/١.

[ج]أبو هريرة ﷺ :

صحيح مسلم: بلفظه في: الكتاب والباب السّابقين. وزاد: " من غشّنا فليس منّا". برقم: (١٠١). ٩٩/١.

[د] سلمة ﷺ :

صحيح مسلم: في الكتاب والباب السّابقين. ولفظه:"من سلّ علّينا السّيف فليس منّا". برقم: (٩٩). ٩٨/١.

قال النّووي (رحمه الله):

"قاعدة مذهب أهل السّنة والفقهاء وهي: أنّ من حمل السّلاح على المسلمين بغير حقّ ولا تأويل و لم يســـتحلّه فهو عاص ولا يكفر بذلك فإن استحلّه كفر .

فأمّا تأويل الحديث: فقيل : هو محمول على المستحل بغير تأويل فيكفر ويخرج من الملّة . وقيل: معناه ليس علــــى سيرتنا الكاملة وهدينا . وكان سفيان بن عيينة (رحمه الله) يكره قول من يفسّره بليس على هدينا ويقول: "بئـــس

وعن أبي هريرة ﷺ عن النّبي ﷺ قال: " لا يشـــير أحدكـم علـى أخيـه بالسّلاح، فإنّه لا يدري لعل الشّيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النّار" (١) .

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله):

" وفي هذين الحديثين تحريم قتال المسلم وقتله ، وتغليظ الأمر فيه، وتحريــم تعاطي الأسباب المفضية إلى أذيّته بكلّ وجه، وفيه حجّة للقول بسدّ الذّرائع" (٢) .

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "سباب المسلم فســوق وقتاله كفر" (٣) .

هذا القول" . يعني بـــل يمســك عـــن تأويلــه ليكــون أوقــع في النّفــوس وأبلــغ في الزّجــر والله أعلــم .
شرح النّووي على مسلم: ١٠٨/٢ . وانظر: عمدة القاري: ١٨٦/٢٤ .

(١) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب قول النّبي ﷺ : "من حمل علينا السّلاح فليس منّــا" : (٧). برقم: (٧٠٧٢). ص:١٤٩٢.

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب البر والصّلة والآداب: (٤٥). باب النّهي عن الإشارة بالسّلاح للمســلم: (٣٥). برقم: (٢٦١٧). ٤/ ٢٠٢٠.

(٢) فتح الباري: ٥٢٠/١٤ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الإيمان: (٢). باب خوف المؤمن مــن أن يحبـط عملــه وهــو لا يشــعر: (٣٧/٣٦). برقم: (٤٨). ص: ٢٥. وفي كتاب الأدب: (٥٢/٧٨). باب ما ينهى من السّباب واللّعــن: (٤٤). برقم: (٦٠٤٤). ص: ١٢٩٦. وفي كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب قول النّبي ﷺ : " لا ترجعوا بعــدي كفّــاراً يضرب بعضكم رقاب بعض" : (٨). برقم: (٧٠٧٦). ص: ١٤٩٣.

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الإيمان: (١). باب قول النّبي ﷺ : " سباب المسلم فسوق وقتاله كفــر" : (٢٨). برقم: (٦٤). ٨١/١.

قال النّووي (رحمه الله) :

"أمّا معنى الحديث فسبّ المسلم بغير حقّ حرام بإجماع الأمّة ، وفاعله فاسق كما أخبر به النّبي ﷺ . وأمّــا قتاله بغير حقّ فلا يكفر به عند أهل الحقّ كفراً يخرج به من الملّة ... إلاّ إذا استحلّه . فإذا تقرر هــذا . فقيــل في تأويل الحديث أقوال: أحدها: أنّه في المستحل . والثّاني: المراد كفر الإحسان والنّعمة وأخــوّة الإســلام لا كفــر الجحود . والثّالث: أنّه يؤول إلى الكفر بشؤمه . والرّابع: أنّه كفعل الكفّار . والله أعلم . ثمّ إنّ الظّاهر من قتالــه المقاتلة المعروفة " . ثمّ نقل قول القاضي عياض (رحمه الله) :

" ويجوز أن يكون المراد المشارة والمدافعة والله أعلم" . شرح النّووي على مسلم: ٥٤/٢ .

وعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) عن النّبي ﷺ أنّه قال في حجّة الوداع: "ويحكم ــ أو قال ــ ويلكم لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض" (١).

---

(١) هذا الحديث ورد عن جماعة من الصّحابة ﷺ في الصّحيحين:

[أ]عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما):

صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب المغازي: (٣٨/٦٤). باب حجّة الوداع: (٧٨/٧٧). برقم: (٤٤٠٣). ص: ٩١٥. ضمن خطبته في حجّة الوداع. وفي كتاب الأدب: (٥٢/٧٨). باب ما جاء في قول الرّجل ويلك: (٩٥). برقم: (٦١٦٦). ص:١٣١٨. وفي كتاب الدّيات: (٦٢/٨٧). باب قول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ [المائدة:٣٢]: (٢). برقم: (٦٨٦٨). ص: ١٤٥٠.

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الإيمان: (١). باب معنى قول النّبي ﷺ :" لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض": (٢٩). برقم: (٦٦). ١/ ٨٢.

[ب] جرير بن عبد الله ﷺ :

صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب العلم: (٣). باب الإنصات للعلماء: (٤٣). برقم: (١٢١). ص: ٤٤. وفي كتاب المغازي: (٣٨/٦٤). باب حجّة الوداع: (٧٨/٧٧). برقم: (٤٤٠٥). ص: ٩١٥. وفي كتاب الدّيات: (٦٢/٨٧). باب قول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ [المائدة:٣٢] : (٢). برقم: (٦٨٦٩) ص: ١٤٥٠.وفي كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب قول النّبي ﷺ :" لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض" : (٨). برقم: (٧٠٨٠). ص: ١٤٩٣.

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب الإيمان: (١). باب معنى قول النّبي ﷺ :" لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض": (٢٩). برقم: (٦٥). ١/ ٨١-٨٢.

[ج]عبد الله بن عبّاس (رضي الله عنهما):

صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الحجّ: (٨/٢٥). باب الخطبة أيّام منى: (١٣٣/١٣٢). برقم: (١٧٣٩). ص: ٣٦٤. ضمن خطبته في يوم النّحر. وفي كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب قول النّبي ﷺ :" لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض" : (٨). برقم: (٧٠٧٩). ص: ١٤٩٣.

[د] أبو بكرة ﷺ : (ضمن خطبته يوم النّحر):

صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الحجّ: (٨/٢٥). باب الخطبة أيّام منى: (١٣٣/١٣٢). برقم: (١٧٤١). ص: ٣٦٤. وفي كتاب المغازي: (٣٨/٦٤). باب حجّة الوداع: (٧٨/٧٧). برقم: (٤٤٠٦). ص: ٩١٥-٩١٦. وفي كتاب الأضاحي: (٤٧/٧٣). باب من قال لا أضحي يوم النّحر: (٤). برقم: (٥٥٥٠). ص: ١٢١٢. وفي كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب قول النّبي ﷺ :" لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض" : (٨). برقم: (٧٠٧٨). ص: ١٤٩٣. وفي كتاب التّوحيد: (٧٢/٩٧). باب قول الله تعالى:

وعن الأحنف بن قيس قال: خرجت وأنا أريد هذا الرّجل . فلقيني أبو بكرة فقال: أين تريد يا أحنف؟ قال: قلت: أريد نصر ابن عمّ رسول الله ﷺ يعني عليّاً، قال: فقال لي: يا أحنف ارجع، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النّار" قال: فقلت أو قيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: "إنّه قد أراد قتل صاحبه" (1).

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جداً . وقد احتجّ بها من لم ير القتال في الفتنة كسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة ، وأبي بكرة ﷺ وغيرهم .

وذهب بعضهم إلى الكفّ عن المقاتلة حتّى لو أنّ أحداً أراد قتله لم يدفعه عن نفسه. ورأى بعضهم أنّه لا يدخل في الفتنة ، فإن أراد أحد قتله دفع عن نفسه .

وذهب جمهور الصّحابة والتّابعين وعامّة علماء الإسلام إلى وجوب نصر المحق في الفتن ، وقتال الباغي . وتأوّلوا الأحاديث على من لم يظهر له المحق ، أو ضعف عن القتال، أو على طائفتين ظالمتين لا تأويل لواحدة منهما (2). أو كان لهوى أو لطلب الدّنيا ، أو كان القتال لعصبية . كما جاء عن أبي هريرة ﷺ عن النّبي ﷺ أنّه قال: "من خرج من الطّاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ ﴾ [القيامة:22-23]: (24). برقم: (7447). ص: 1564.

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب القسامة: (28). باب تغليظ تحريم الدّماء والأعراض والأموال: (9). برقم:(1679). 3/1305-1306.

(1) صحيح البخاري: نحوه في :كتاب الإيمان: (2). باب ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات:9] فسمّاهم المؤمنين: (22/23). برقم: (31). ص: 21. وفي كتاب الدّيات: (87/62). باب قول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ [المائدة:32] : (2). برقم: (6875). ص: 1451. وفي كتاب الفتن: (92/67). باب إذا التقى المسلمان بسيفيهما: (10). برقم: (7083). ص: 1494.

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (52). باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما: (4). برقم: (2888). 4/2213-2214.

(2) انظر: شرح النّووي على مسلم: 18/10 . فتح الباري: 14/530 .

جاهليّة، ومن قاتل تحت راية عِمِّيَّة [١]، يغضب لعَصَبَة أو يدعو إلى عصبـــة، أو ينصر عصبة ، فقتل فقِتْلة جاهلية، ومن خرج على أمّتي يضرب برّها وفاجرهـــا ، ولا يتحاش من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده فليس منّي ولست منه" [٢].

ولا شك أنّ الصّحابة ﷺ ليسوا بداخلين في الوعيد الّذي ورد في النّصـــوص السّابقة، لأنّ أهل السنّة والحقّ اتّفقوا على إحسان الظنّ بهم، ومنع الطّعن فيهم بسبب ما شجر بينهم، ولو عرف المحق منهم، لأنّهم كانوا مجتهدين في قتالهم ، متــأوِّلين فيه ، لم يقصدوا معصية ولا محض دنيا، بل اعتقد كلّ فريق منهم أنّه على الحــقّ ، وأنّ مخالفه مخطئ وباغ ، فيجب عليه قتاله . وكانت الأمور مشتبهة حتّى تحيّر فـي ذلك جماعة منهم فاعتزلوا الطّائفتين.

وما جاء عن أبي بكرة ﷺ في منعه للأحنف عن القتال مع عليّ ﷺ وقع ذلك عن اجتهاد منه [٣].

قال الطّبري (رحمه الله):

" لو كان الواجب في كلّ اختلاف يكون بين الفريقين من المسلمين الهَرَب منه، ولزوم المنازل ، وكسر السّيوف لما أقيم حدّ، ولا أبطل باطل، ولوجد أهــل النّفــاق والفجور سبيلاً إلى استحلال كلّ ما حرّم الله عليهم من أموال المســلمين ، وســبي نسائهم ، وسفك دمائهم ، بأن يتحزّبوا عليهم، ويكفّ المسلمون أيديــهم عنــهم بــأن يقولوا هذه فتنة قد نهينا عن القتال فيها، وأمرنا بكفّ الأيدي والهَرَب منــها، وذلــك مخالف لقوله عليه الصّلاة والسّلام: "خذوا على أيدي سفهائكم" [٤] .

---

(١) عِمِّيَّة: وحكى بعضهم فيها ضمّ العين.وهي من العمى، والمراد الضّلالة . كالقتال للعصبيّة والأهواء .
انظر:النّهاية في غريب الحديث:٣/٣٠٤. وانظر:الفائق:٣/٢٥.

(٢) صحيح مسلم: : بلفظه في: كتاب الإمارة : (٣٣). باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفــتن ، وفي كلّ حال ، وتحريم الخروج على الطّاعة ومفارقة الجماعة: (١٣) برقم : (١٨٤٨). ٣/١٤٧٦-١٤٧٧ . وبلفظ مقارب في: ٣/١٤٧٧. ومختصراً عن جندب بن عبد الله البجلي ﷺ : برقم: (١٨٥٠). ٣/١٤٧٨.

(٣) انظر: شرح النّووي على مسلم: ١١/١٨ . الجامع لأحكام القرآن: ١٦/٣٢١-٣٢٢ . فتح الباري: ١٤/٥٣٠ . وانظر: التّذكرة: ص: ٦٣٦ .

(٤) نقلاً عن التّذكرة ص: ٦٣٦ . ولم أقف عليه في شيء من مؤلّفات الطّبري رحمه الله الّتي رجعت إليها .

ولكن وقوع القتال بين صحابة رسول الله ﷺ فتح باب شرّ عظيم على أمّة الإسلام . حذّر منه رسول الله ﷺ في حديث ثوبان الّذي سبق ذكره بقوله: "إذا وضع السّيف في أمّتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة" .

وفيه: "حتّى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً" (١). وذلك هو البأس الّذي ورد ذكره في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال ﷺ : " سألت ربّي ثلاثاً ، فأعطاني ثنتين ، ومنعني واحدة . سألت ربّي أن لا يهلك أمّتي بالسّنة فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمّتي بالغرق فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها " (٢) .

وقد وضع السّيف في الأمّة ولن يرفع . وكثرت الحروب والقتل بعد ذلك ، واشتدّ بأسهم فيما بينهم ، وعظمت الفتن وعمّ شرّها .

والحديث في الفردوس بمأثور الخطاب . لأبي شجاع شيرويه بن شهردار الدّيلمي الهمذاني. طبعة دار الكتب العلميّة. بيروت. الطّبعة الأولى : ١٩٨٦م. تحقيق السّعيد بن بسيوني زغلول . بلفظه. عن النّعمان بن بشير (رضي الله عنهما). برقم: (٢٨٣٨). ٢/١٦٧.

(١) سبق تخريجه . أنظر : ص : ٤٣ .

(٢) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب هلاك هذه الأمّة بعضهم ببعض: (٥). برقم : (٢٨٩٠) . ٤/٢٢١٦.

﴿ المطلب السّابع ﴾

تتابع الفتن

❁ لقد تتابعت الفتن بعد وقعة صفّين على أمّة الإسلام . فخرجت الخوارج [1] بعد حادثة التّحكيم من جيش عليّ بن أبي طالب ﷺ ، ورفعوا شعارهم لا حكم إلاّ لله . وكفّروا عليّاً ﷺ ومقاتليه ، واستباحوا دماء المسلمين ، وأحدثوا في الأمّة بلاء عظيماً . وهم الّذين عناهم رسول الله ﷺ في حديث عليّ بن أبي طالب ﷺ . بقوله: " يأتي في آخر الزّمان قوم حُدثاء الأسنان ، سفهاء الأحلام ، يقولون من خير قول البريّة ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السّهم من الرّميّة ، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم ، فإنّ قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة" [2] .

---

(1) الخوارج: هم الّذين خرجوا من جيش أمير المؤمنين عليّ ﷺ بعد وقعة صفّين، ورفضوا التّحكيم ، وقالوا له: لم حكّمت الرّجال، لا حكم إلاّ لله ؟. وهم المارقة الّذين اجتمعوا بالنّهروان فقاتلهم عليّ ﷺ . ثمّ تكوّنت منهم فيما بعد فرق شتّى . يجمعهم القول بالتّبريء من عثمان ﷺ ، وتكفير أصحاب الكبائر، والخروج على الإمام إذا خالف السّنّة.

وانظر: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلّين . لأبي الحسن عليّ بن إسماعيل الأشعري. طبعة دار إحياء التّراث العربي. بيروت. الطّبعة الثّالثة. تحقيق : هلموت ريتر : ص:٨٦ . الفرق بين الفرق : ص: ٥٤ فما بعدها . الملل والنّحل . لمحمّد بن عبد الكريم الشّهرستاني . طبعة دار المعرفة. بيروت. ١٤٠٤هـ . تحقيق محمّد سيّد كيلاني : ١/١١٤ فما بعدها .

(2) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب المناقب: (٦١/٣٧). باب علامات النُّبوّة في الإسلام: (٢٥). برقم: (٣٦١١). ص: ٧٦٠. وفي كتاب فضائل القرآن: (٦٦/٤٠). باب من رأيا بقراءة القرآن أو تأكّل به أو فخر به: (٣٦) برقم: (٥٠٥٧). ص:١١١٤. وبلفظ مقارب في: كتاب استتابة المرتدّين: (٨٨/٦٣). باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجّة عليهم: (٦). برقم: (٦٩٣٠). ص: ١٤٦٢.

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب الزّكاة: (١٢). باب التّحريض على قتل الخوارج: (٤٨). برقم: (١٠٦٦). ٢/٧٤٦.

والأحاديث في شأن الخوارج تبلغ حدّ التّواتر . ساق الإمام ابن كثير (رحمه الله) جملة غفيرة منها . انظر: البداية والنّهاية: ٧/٢٩٠-٣٠٧ .

وقد قاتلهم عليّ ﷺ في وقعة النَّهروان ، فقتل أكثرهم ولم ينج منهم إلاّ القليـــل[1]. ولكنّ شرّهم لم يجتث من دابره . فكانوا يظهرون كلمّا قويت لهم شـــوكة فيحدثـــون البلابل والفتن والمفاسد في الأمّة .

عن ابن عمر (رضي الله عنهما) إنّ رسول الله ﷺ قال: "ينشأ نَشْءٌ يقــرؤون القرآن ، لا يجاوز تراقيهم ، كلّما خرج قَرْنٌ قُطِع" . قـــال ابـــن عمـــر: ســمعت رسول الله ﷺ يقول: "كلّما خرج قرن قطع" . أكثر من عشرين مرّة . "حتّى يخرج في عِرَاضِهِم[2] الدَّجَّال" [3] .

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله):

"عظم البلاء بهم ، وتوسّعوا في معتقدهم الفاسد ، فأبطلوا رجـــم المحصـــن، وقطعوا يد السّارق من الإبط ، وأوجبوا الصّلاة على الحائض في حـــال حيضـــها، وكفّروا من ترك الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر إن كان قادراً ، وإن لم يكـــن قادراً فقد ارتكب كبيرة . وحكم مرتكب الكبيرة عندهم حكم الكـــافر ، وكفّـــوا عـــن أموال أهل الذمّة [4] ، وعن التّعرّض لهم مطلقاً، وفتكوا فيمن ينسب إلـــى الإســـلام بالقتل والسّبي والنّهب" [5].

❁ ولمّا بويع ليزيد بن معاوية [6] بالخلافة بعد أبيه امتنع الحسين بـــن علـــيّ (رضي الله عنهما) عن بيعته ، ولجأ إلى مكّة ، فأرسل إليه أهل العـــراق يدعونـــه

---

(١) وانظر: تاريخ الطّبري: ٦٤/٥ فما بعدها . ٧٢/٥ فما بعدها. الكامل في التّاريخ: ٣٢٦/٣ فما بعدهـــا . ٣٣٤/٣ فما بعدها . ٣٤١/٣ فما بعدها . العبر: ٣١/١-٣٢ . البداية والنّهاية: ٢٧٨/٧ فما بعدها . ٢٨٥/٧فما بعدها .

(٢) أي : مواجهتهم . شرح السيوطي على سنن ابن ماجه : ص : ١٦. وانظر: النهاية في غريب الحديث : ٢١١/٣

(٣) سنن ابن ماجة .بلفظه في المقدّمة . باب ذكر الخوارج: (١٢). برقم: (١٧٤). قال الألباني رحمه الله: " حســـن". ص: ٣٤-٣٥. وهو في صحيح الجامع الصّغير وزيادته . للشّيخ محمّد ناصر الدّين الألبـــاني . طبعـــة : المكتـــب الإسلامي . بيروت . الطّبعة الثّالثة . ١٤٠٨هـــ ـــ ١٩٨٨م . برقم: (٨١٧١) . ١٣٥٧/٢-١٣٥٨.

(٤) الذِمَّة : بالكسر تطلق على العهد والعقد والأمان . والمراد بأهل الذمّة أهل العهد ـــ من غير المسلمين ـــ الّذيـــن أعطوا الأمان . وانظر: مختار الصّحاح: ص: ٢٢٣. القاموس المحيط: ص: ١٤٣٤.

(٥) فتح الباري : ٢٨٥/١٢ . طبعة دار المعرفة.

(٦) هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان أبو خالد الأموي القرشي .ولي الخلافة بعهد من أبيه سنة ستّين .كـــان قويّـــاً شجاعاً ، ذا رأي وحزم وفطنة وفصاحة، وكان فظّاً غليظاً. ليس له رواية تعتمد، وليس بأهل أن يروى عنه.

للقدوم إليهم . وحذّره ذوو الرّأي والمحبّة له من الخروج إليهم فأبى . ثمّ سار إلى العراق في أهل بيته ، وأبناء إخوته . وأخاف عبيد الله بن زياد [1] والي العراق النّاس فنكسوا عن الحسين ﷺ ، وانكفّوا عنه وخذلوه . ثمّ أرسل جيشاً بقيادة عمر ابن سعد بن أبي وقاص[2] فلقي الحسين ﷺ ومن معه بسهل كَرْبلاء.[3] فقتل ﷺ ، وقتل معه بضع وسبعون نفساً . منهم بضعة عشر رجلاً من أولاده ، وإخوته وأهل بيته . وقد كان مقتله ﷺ فتنة لأهل الإسلام . حزن له المسلمون ، وكرهوا قتله وقتل أصحابه ، وسخطوا على قاتليه . ولم يرض قتله إلاّ شرذمة قليلة ممّن أغوتهم الدّنيا، وأغرتهم المطامع، وأهلكتهم الأهواء، أو امتلأت قلوبهم حقداً لآل بيت النّبي ﷺ ، أو كانوا طلاّب رئاسة ومناصب .

وكان قتله هفوة من هفوات بني أميّة الّتي حفظها لهم التّاريخ ، وأوغرت صدور كثير من المسلمين عليهم . كما كان مقتله فتنة لقوم ادّعوا حبّ آل البيت ، وتشيّعوا

قال الذّهبي (رحمه الله): "يزيد ممّن لا نسبّه ولا نحبّه ، وله نظراء من خلفاء الدّولتين". مات سنة :٦٤هـ .

وانظر:المنتظم: ٣٢٢/٥. سير أعلام النّبلاء:٣٥/٤. العبر:٥١/١. البداية والنّهاية: ٢٢٦/٨. تهذيب التّهذيب:٣١٦/١١. تقريب التّهذيب:٦٠٥/١. لسان الميزان:٢٩٣/٦. شذرات الذّهب: ٢٨٦/١.

(١) هو عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان أبو أحمد، ويقال لأبيه زياد بن أبيه. ويعرف بابن مرجانة. أمير الكوفة لمعاوية ﷺ وابنه يزيد . كان سفّاكاً للدّماء ، شديداً على الرّعيّة. وهو الّذي جهّز الجيش الّذي قاتل الحسين بن عليّ (رضي الله عنهما) حتّى قتل بكربلاء . قتله إبراهيم بن الأشتر في وقعة الخازر سنة :٦٦هـ.

وانظر:التّاريخ الكبير: ٣٨١/٥. سير أعلام النّبلاء: ٥٤٥/٣. البداية والنّهاية: ٨٢٣/٨. تعجيل المنفعة . لأحمد ابن عليّ بن حجر العسقلاني . طبعة دار الكتاب العربي . بيروت. الطّبعة الأولى. تحقيق : إكرام الله إمداد الحقّ : ٢٧٠/١. شذرات الذّهب: ٢٩٢/١.

(٢) هو عمر بن سعد بن أبي وقاص أبو حفص القرشي الزّهري التّابعي المدني نزيل الكوفة.وهم من ذكره في الصّحابة.وهو صدوق في الحديث ولكن مقته النّاس لقتاله الحسين بن عليّ (رضي الله عنهما) ، إذ كان أمير الجيش الّذي أرسله ابن زياد لقتاله . قتله المختار بن عبيد سنة:٦٥هـ أو بعدها .

وانظر: الطّبقات الكبرى: ١٦٨/٥. معرفة الثّقات:١٦٦/٢. الجرح والتّعديل: ١١١/٦. تهذيب الكمال: ٣٥٦/٢١. الكاشف: ٦١/٢. الإصابة: ٢٨٦/٥. تهذيب التّهذيب: ٣٩٦/٧. تقريب التّهذيب: ٤١٣/١. لسان الميزان: ٣١٨/٧.

(٣) كربلاء: موضع في طرف البرّيّة عند الكوفة. وهو الموضع الّذي قتل فيه الحسين بن عليّ (رضي الله عنهما) . انظر معجم البلدان:٤٤٥/٤.

لهم حيث جعلوا يوم مقتله [١] يوم حزن وجزع ومأتماً يأباه الإسلام ، وارتكبوا فيه البدع الشّنيعة ، والأهواء الفظيعة ، والشِّرك الأكبر ممّا يفوق حدّ الوصف ، وأوردوا من الأخبار الباطلة ، والرّوايات الكاذبة في صفة مصرعه ما ينافي الحقائق الثّابتة، والرّوايات الصّحيحة ، والعقول السّليمة [٢] .

❁ وفي سنة ثلاث وستين من الهجرة النّبويّة خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية ، وأخرجوا عامله [٣] من بين أظهرهم . فجهّز يزيد جيشاً لحربهم عليه مسلم ابن عقبة المرّي [٤] ، وأمره إذا ظهر عليهم أن يبيح المدينة ثلاثة أيام . فنزل شرقي المدينة في الحرّة ، ودعا أهلها ثلاثة أيّام فأبوا إلاّ المحاربة والمقاتلة ، فقاتلهم فهزمهم ، وقتل خلقاً كثيراً من بقايا المهاجرين والأنصار وأبناء الصّحابة وخيار التّابعين، ثمّ استباح المدينة ثلاثة أيّام . فانتهبت الأموال ، وهتكت الأعراض، وأريقت الدّماء، ووقع شرٌّ عظيم ، وفساد عريض ، وفتن لا توصف [٥] .

قال سعيد بن المسيّب (رحمه الله):

"وقعت الفتنة الأولى ، يعني مقتل عثمان فلم تبق من أصحاب بدر أحداً ، ثمّ وقعت الفتنة الثّانية ، يعني الحرّة فلم تبق من أصحاب الحديبيّة أحداً ، ثمّ وقعت الثّالثة فلم ترتفع وللنّاس طباخ" [٦].

---

(١) وهو يوم عاشوراء ، العاشر من محرّم .

(٢) انظر في مقتل الحسين ﷺ ، وأسباب قتله ، وصفة ذاك القتل : تاريخ الطّبري: ٣٤٧/٥. فما بعدها .٤٠٠/٥. فما بعدها . الكامل في التّاريخ: ١٩/٤ .فما بعدها. ٣٧/٤. فما بعدها. ٤٦/٤.فما بعدها . البداية والنّهاية: ١٤٩/٨.فما بعدها. ١٥٩/٨. فما بعدها. ١٧٢/٨. فما بعدها. وانظر: العبر: ٤٧/١ــ٤٨.

(٣) هو عثمان بن محمّد بن أبي سفيان (ابن عمّ يزيد) .

(٤) هو مسلم بن عقبة بن رياح المُرّي أبو عقبة. وهو أمير الجيش الّذي أرسله يزيد بن معاوية لغزو المدينة، وسمّي مسرفاً لإسرافه في قتل أهل المدينة. مات في الطّريق بين المدينة ومكّة سنة : ٦٣هـ.
وانظر: العبر: ٥١/١. الإصابة: ٢٩٤/٦. شذرات الذّهب: ٢٨٦/١.

(٥) انظر: تاريخ الطّبري: ٤٨٢/٥-٤٩٥ . الكامل في التّاريخ: ١١١/٤-١٢١ . التّذكرة ص: ٦٨٨-٦٨٩ . البداية والنّهاية: ٢١٧/٨-٢٢٤ . وانظر: العبر: ٥٠/١-٥١ .

(٦) سبق ذكره . ص : ٥٤ .

۞ وامتنع عبد الله بن الزُّبير (رضي الله عنهما) عن بيعة يزيد ، وأوى إلى مكّة. فحاصره فيها أصحاب يزيد ، ونصبوا المنجنيق على الكعبة ، ورموها بالنّار فاحترق جزء منها . ولمّا بلغ الجيش وفاة يزيد ترحّلوا عنه . فبايعه أهل الحرمين بالخلافة ، ثمّ أهل العراق واليمن حتّى كادت تجتمع عليه الأمّة [١].

۞ وفي عهده وقعت مقتلة عظيمة بين الضّحاك بن قيس الفِهْرِي [٢] الدّاعي لأمر ابن الزُّبير (رضي الله عنهما) ومروان بن الحكم الّذي بايعه بنو أميّة بالخلافة بمَرْج راهط .[٣] قتل فيها الضّحاك ، وقتل خلق لا يحصون كثرة [٤] .

۞ وتوثّب على الكوفة المختار بن عبيد الثّقفي الكذّاب ، الّذي ادّعى أنّ جبريل ينزل عليه ، وتتبّع قتلة الحسين ﷺ فقتلهم . ثمّ لقي جيشه الأمويين في وقعة الخازر [٥]

---

(١) انظر: تاريخ الطّبري: ٤٧٥/٥، ٤٩٧/٥–٤٩٩. ٥٠١/٥، ٦٢٢/٥. الكامل في التّاريخ: ١٢٣/٤–١٢٤. العبر: ٥١/١. البداية والنّهاية: ٢٢٤/٨–٢٢٥،٢٣٨–٢٣٩.

(٢) هو الضّحاك بن قيس بن خالد أبو أُنيس القرشي الفهري . الأمير المشهور . ولد قبل وفاة النّبي ﷺ بنحو ستّ سنوات . ولذا اختلف في صحبته. إلاّ أنّ الحافظ ابن حجر (رحمه الله)جزم بها في تقريب التّهذيب. شهد فتح دمشق ، وشهد صفّين مع معاوية ﷺ . دعا أوّلاً إلى بيعة ابن الزُّبير (رضي الله عنهما) ، ثمّ دعا إلى نفسه. قتل يوم مرج راهط سنة : ٦٤ أو ٦٥هـ .

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٤١٠/٧. طبقات خليفة: ص:١٢٧،٢٩. التّاريخ الكبير: ٣٣٢/٤. ثقات ابن حبّان: ١٩٩/٣. تهذيب الكمال: ٢٧٩/١٣. الكاشف: ٥٠٩/١. جامع التّحصيل في أحكام المراسيل. لأبي سعيد بن خليل بن كيكلدي العلائي . طبعة عالم الكتب . بيروت. الطّبعة الثّانية ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م. تحقيق حمدي عبد المجيد السّلفي : ص:١٩٩. الإصابة: ٤٧٨/٣. تهذيب التّهذيب: ٣٩٤/٤. تقريب التّهذيب: ٢٧٩/١. إسعاف المبطأ . لعبد الرّحمن بن أبي بكر السّيوطي . طبعة المكتبة التّجاريّة الكبرى. مصر. ١٣٨٩هـ – ١٩٦٩م : ص:١٤.

(٣) مرج راهط : موضع بالشّام عليّ أميال من دمشق .

انظر: معجم ما استعجم: ٦٣٠/٢. وانظر: معجم البلدان: ٢١/٣. ١٠١/٥.

(٤) انظر: تاريخ الطّبري: ٥٣٤/٥–٥٣٨. الكامل في التّاريخ: ١٤٩/٤–١٥١. العبر: ٥٢/١. البداية والنّهاية: ٢٤١/٨–٢٤٣.

(٥) الخازر: اسم نهر بين إربل والموصل . ثمّ أطلق عليّ الموضع .

انظر: معجم البلدان: ٣٣٧/٢.

فهزمهم ، وقتل أمراءهم . وجرت فتنة (١) .

❁ ولمّا تحقّق ابن الزُّبير (رضي الله عنهما) من خيانة المختار وكذبه ، أرسل له جيشاً بقيادة مصعب بن الزُّبير.(٢) فقتل المختار وتشتّت جنده . وجرت فتنة (٣) .

❁ ثمّ التقى مصعب بجيش الأمويين وعليه عبد الملك بن مروان الّذي بويع له بالخلافة بعد أبيه . وكان بينهما وقعة هائلة بدَيْر الجَاثَلِيق.(٤) قتل فيها مصعب وهـزم جيشه. وجرت فتنة (٥) .

❁ ثمّ أرسل عبد الملك الحجّاج بن يوسف (٦) إلى ابن الزُّبير. فحاصره بمكّة.

---

(١) انظر: تاريخ الطّبري: ٧/٦ فما بعدهـا. ٣٨/٦ـ٦٦. ٨١/٦ـ٩٢. الكـامل في التّـاريخ: ٢١١/٤ـ٢٤٤. ٢٦١/٤ـ٢٦٥. العبر: ٥٤/١. البداية والنّهاية: ٢٦٤/٨ـ٢٨٣.

(٢) هو مصعب بن الزُّبير بن العوّام بن خويلد أبو عبد الله القرشي الأسدي التّابعي. ولد في خلافة عثمان ﷺ سـنة: ٣٣هـ . وكان جميلاً جوّاداً شجاعاً من فرسان قريش وعقلاء أهل الحجاز . قتله عبد الملك بن مروان سـنة : ٧١ وقيل: ٧٢هـ.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ١٨٢/٥. طبقات خليفة: ص:٢٤١.التّاريخ الكبـير: ٣٥٠/٧. الجـرح والتّعديـل: ٣٠٣/٨. ثقات ابن حبّان: ٤١٠/٥. مشاهير علماء الأمصار: ٦٧/١. تاريخ بغداد: ١٠٥/١٣. تعجيل المنفعـة: ٤٠٣/١.

(٣) انظر: تاريخ الطّبري: ٩٣/٦ـ١١٦. الكامل في التّاريخ: ٢٦٧/٤ـ٢٧٣. العـبر: ٥٥/١. البدايـة والنّهايـة: ٢٨٧/٨ـ٢٨٩.

(٤) دير الجاثليق: دير قديم قرب بغداد وغربي دجلة.

انظر: معجم ما استعجم: ٥٧٢/٢ . معجم البلدان: ٥٠٣/٢.

والدَّيْر : بيت يتعبّد فيه الرُّهبان . معجم البلدان: ٤٩٥/٢.

(٥) انظر: تاريخ الطّبري: ١٥١/٦ـ١٦٢. الكامل في التّاريخ: ٣٢٣/٤ـ٣٢٨. العبر: ٥٩/١. البدايـة والنّهايـة: ٣١٤/٨ـ٣١٦.

(٦) هو الحجّاج بن يوسف بن الحكم أبو محمّد الثّقفي . أمير العراق الشّهير ، الظّالم المبير .كان فصيحاً بليغاً سـفّاكاً للدّماء مع شجاعة وإقدام ودهاء . وقع ذكره وكلامه في الصّحيحين وغيرهما ، وليس بأهل أن يروى عنـه.مـات سنة:٩٥هـ.

وانظر: تهذيب الأسماء . للإمام النّووي . طبعة دار الفكر . بيروت . الطبعة الأولى : ١٩٩٦م : ١٥٨/١. سير أعلام النُّبلاء: ٣٤٣/٤. العبر: ٨٤/١. تهذيب التّهذيب: ١٨٤/٢. تقريب التّهذيب: ١٥٣/١. لسـان المـيزان: ١٨٠/٢. تعجيل المنفعة: ٨٧/١. شذرات الذّهب: ٣٧٧/١.

ودام القتال شهراً ، وقتل ابن الزُّبير(رضي الله عنهما) . وجرت فتنة [1] .

❁ ومن الفتن العظمى في الإسلام . فتنة عبد الرحمن بن الأشعث [2] الَّذي خرج على الحجّاج ، وتبعه عامّة أهل البصرة من العلماء والعبّاد. واجتمع له جيش عظيم . ثمّ كانت له حروب مع الحجّاج يطول ذكرها. ختمت بوقعة دير الجَمَاجِم [3] الّتي قتل فيها خلق لا يحصون كثرة . ثّم قتل ابن الأشعث [4] .

❁ وخرج زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ (رضي الله عنهما) [5] بالكوفة، وبايعه خلق كثير، وحارب متولّي العراق للأمويين يوسف بن عمر الثَّقفي. [6] فظفر به يوسف . ثمّ قتل وصلب ، وتفرّق أتباعه. وكانت فتنة. [7]

---

(1) انظر: تاريخ الطّبري: ٦/١٨٧ـ١٩٣. الكامل في التّاريخ: ٤/٣٤٨ـ٣٥٩. العبر: ١/٦٠. البداية والنّهاية: ٨/٣٢٩ـ٣٣٢.

(2) هو عبد الرّحمن بن محمّد بن الأشعث بن قيس الكندي. تولّى سجستان للحجّاج . ثمّ ثار عليه لظلم الحجّاج وجبروته ، وتبعه جمع كبير من العلماء والصّلحاء . فقاتله الحجّاج حتّى قتل عام ٨٤هـ. ونكّل بأتباعه.

وانظر: سير أعلام النُّبلاء: ٤/١٨٣. العبر: ١/٧١. البداية والنّهاية: ٩/٥٣. شذرات الذّهب: ١/٣٤٧.

(3) دير الجماجم: الجماجم جمع جمجمة. وهو موضع يقع على شاطئ الفرات الغربي . وقيل : هو دير بظاهر الكوفة على طريق السّالك إلى البصرة .

انظر: معجم ما استعجم: ٢/٥٧٣. معجم البلدان: ٢/٥٠٣ـ٥٠٤.

(4) انظر: تاريخ الطّبري: ٦/٣٤٢ـ٣٥٠، ٦/٣٥٧ـ٣٧٥.الكامل في التّاريخ: ٤/٤٦٤ـ٤٦٥، ٤/٤٦٧ـ٤٧٢، ٤/٤٧٨ـ٤٨٢، ٤/٥٠١. العبر: ١/٦٦ـ٧١. البداية والنّهاية: ٩/٣٥ـ٥١، ٩/٥٥.

(5) هو زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنهما) . أبو الحسين القرشي الهاشمي العلوي المدني التّابعي. ولد سنة: ٨٠هـ. من أفاضل أهل البيت وعبّادهم . وهو الّذي تنسب إليه الزيديّة . ثقة في الحديث. خرج في خلافة هشام بن عبد الملك . فقتل بالكوفة سنة: ١٢٢هـ. وقيل:قبلها.

وانظر: الجرح والتّعديل: ٣/٥٦٨. مشاهير علماء الأمصار: ١/٦٣. تهذيب الكمال: ١٠/٩٥. الكاشف: ١/٤١٨. تهذيب التّهذيب: ٣/٣٦٢. تقريب التّهذيب: ١/٢٢٤.

(6) هو يوسف بن عمر بن محمّد بن الحكم بن أبي عقيل الثّقفي . أمير العراق وخرسان لهشام بن عبد الملك . كان شهماً سائساً مهيباً جوّاداً ، جبّاراً عسوفاً . قتل سنة ١٢٧.

وانظر: وفيات الأعيان: ٧/١٠١. سير أعلام النُّبلاء: ٥/٤٤٢. العبر: ١/١٢٦. شذرات الذّهب: ٢/١١٧.

(7) انظر: تاريخ الطّبري: ٧/١٦٠ـ١٧٣.الكامل في التّاريخ: ٥/٢٢٩ـ٢٤٧. العبر: ١/١١٨. البداية والنّهاية: ٩/٣٢٧ـ٣٣١.

❁ واستولى بنو العبّاس على الخلافة بعد قتال مرير وويلات وحروب مع جيوش بني أميّة ، وأكثروا القتل في من ناوأهم حتّى استتبّ لهم الأمر(١) .

❁ ولمّا توفّي السّفّاح (٢) أوّل خلفاء بني العبّاس خلفه أخوه أبو جعفر المنصور ، (٣) فخرج عليه عمّه عبد الله بن عليّ ، (٤) ودعا إلى نفسه بالشّام، فأرسل إليه أبو جعفر، أبا مسلم الخُرَاساني (٥) صاحب دعوة بني العبّاس ومنشئ

---

(١) انظر: تاريخ الطّبري: ٧/٤٢١ـ٤٥٨. الكامل في التّاريخ: ٥/٤٠٨ـ٤٣٢. العبر: ١/١٣٢،١٣٤. البداية والنّهاية: ١٠/٤٠ـ٤٦.

(٢) هو أبو العبّاس عبد الله بن محمّد بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس (رضي الله عنهما) . القرشي الهاشمي العبّاسي. أوّل خلفاء بني العبّاس . بويع له بالخلافة سنة:١٣٢هـ . ولكن لم تطل خلافته فمات سنة: ١٣٦هـ.

وانظر: تاريخ بغداد: ١٠/٤٦. سير أعلام النّبلاء: ٦/٧٧. العبر: ١/١٤٢. فوات الوفيات والذّيل عليها لمحمّد ابن شاكر الكتبي. طبعة دار صادر. بيروت. ١٩٧٣م. تحقيق إحسان عبّاس : ٢/٢١٥. البداية والنّهاية: ١٠/٥٢. شذرات الذّهب: ٢/١٦١.

(٣) هو أبو جعفر عبد الله بن محمّد بن عليّ الهاشمي العبّاسي المنصور. ثاني خلفاء بني العبّاس . ولي الخلافة بعد وفاة أخيه السّفّاح سنة :١٣٦هـ . وهو والد الخلفاء العبّاسيين جميعاً. كان ذا رأي وحزم ، ودهاء وجبروت . تاركاً للّهو واللّعب ، كامل العقل ، حسن المشاركة في الفقه والأدب والعلم . بنى مدينة بغداد. وقد قتل خلقاً كثيراً حتّى توطّد ملكه. مات سنة :١٥٨هـ .

وانظر: تاريخ الطّبري: ٧/٤٧١. تاريخ بغداد: ١٠/٥٣. الكامل في التّاريخ: ٥/٤٦١. سير أعلام النّبلاء: ٧/٨٣. العبر: ١/١٧٦. فوات الوفيات: ٢/٢١٦. البداية والنّهاية: ١٠/١٢١. شذرات الذّهب: ٢/٢٦١. الأعلام: ٤/١١٧.

(٤) هو عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس (رضي الله عنهما) . عمّ السّفّاح والمنصور. من رجال العالم ودهاة قريش . كان بطلاً شجاعاً ، ذا حزم ورأي ودهاء ، مهيباً جبّاراً عسوفاً سفّاكاً للدّماء . به قامت الدّولة العبّاسية. مات في سجن المنصور سنة :١٤٧هـ .

وانظر: تاريخ بغداد: ١٠/٨. سير أعلام النّبلاء: ٦/١٦١. العبر: ١/١٥٩. البداية والنّهاية: ١٠/١٠٤. شذرات الذّهب: ٢/٢١٤.

(٥) هو عبد الرّحمن بن مسلم وقيل: ابن عثمان بن يسار الخرساني الأمير . صاحب دعوة بني العبّاس، وهازم جيوش الدّولة الأمويّة ، والقائم بإنشاء الدّولة العبّاسيّة. وكان سفّاكاً للدّماء . خلع المنصور ودعا لنفسه ، فتمكّن منه المنصور فقتل بين يديه سنة: ١٣٧هـ.

وانظر: تاريخ بغداد: ١٠/٢٠٧. وفيات الأعيان: ٣/١٤٥. سير أعلام النّبلاء: ٦/٤٨. العبر: ١/١٤٣. ميزان الاعتدال في نقد الرّجال لشمس الدّين محمّد بن أحمد الذّهبي.طبعة دار الكتب العلميّة. بيروت. الطّبعة الأولى

دولتهم . فالتقى الجيشان بنَصيبيين [١] واشتدّ بينهما القتال ، ثمّ انهزم جيش عبد الله ، وهرب إلى البصرة ، وخمدت فتنته [٢].

❁ ثمّ خلع أبو مسلم المنصور ولجأ إلى خرسان، فاحتال عليه المنصور حتّى قدم إليه ثمّ قتله ، ووضع السّيف في أتباعه حتّى سكنت فتنته. [٣]

❁ وكان العلويّون لا يهدى لهم بال ، كلّما وجدوا فرصة سانحة خرجوا على الدّولة العبّاسيّة ، فيتبعهم خلق كثير ، ممّا يدفع خلفاء بني العبّاس إلى قتالهم وإخماد فتنتهم[٤].

❁ واستفحل أمر الزّنادِقة [٥] في عهد

١٩٩٥م. تحقيق عليّ محمّد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود: ٣١٧/٤. لسان الميزان: ٤٣٦/٣. شذرات الذّهب: ١٣١/٢.

(١) نَصِيبِين: موضع بين العراق والشّام .

انظر: معجم ما استعجم: ١٣١٠/٤. معجم البلدان: ٢٨٨/٥.

(٢) انظر: تاريخ الطّبري: ٤٧٠/٧ــ٤٧٩. الكامل في التّاريخ: ٤٦٤/٥ــ٤٦٨. العبر: ١٤٣/١. البداية والنّهاية: ٦١/١٠ــ٦٣.

(٣) انظر: تاريخ الطّبري: ٤٧٩/٧ــ٤٩٢. الكامل في التّاريخ: ٤٦٨/٥ــ٤٨٠. العبر: ١٤٣/١. البداية والنّهاية: ٦٣/١٠ــ٧٢.

(٤) انظر: العبر: ١٥٢/١ــ١٥٥. ١٩٧/١. ٢٥٧/١. البداية والنّهاية: ٨٢/١٠ــ٩٥.

(٥) الزّنادقة : من الزّندقة وهي عند الإطلاق يراد بها عدّة معاني: فقد كانت تطلق على أتباع (ماني) ،ثمّ أطلقت على الملاحدة الّذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا بالنُّبوّات، ثمّ على من أسرّ الكفر وأظهر الإسلام ، فتكون مرادفة للنّفاق. ثمّ اتّسع هذا اللّفظ فشمل أهل المجون والخلاعة ، وكلّ من كان فيه خروج عن الدّين بالقول والعمل . وكلّ اتّجاهات الزّنادقة تلتقي في هدف واحد وهو الوقوف في وجه الإسلام .

انظر: النّفاق والزّندقة وأثرهما في مواجهة الدّعوة الإسلاميّة قديماً وحديثاً . رسالة ماجستير . إعداد الطّالب : عطية عتيق عبد الله الزّهراني . وإشراف الشّيخ محمّد الغزالي . جامعة الملك عبد العزيز بمكّة المكرّمة . كلّية الشّريعة والدّراسات الإسلاميّة . فرع العقيدة : ص:٣٥. وانظر: لسان العرب: ١٤٧/١. مجموع الفتاوى: لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية . تحقيق : عبد الرّحمن بن محمّد بن قاسم . طبعة مكتبة ابن تيمية .الطّبعة الثّانية . ٦٣/٥. فتح الباري: ٢٧٠/١٢ــ٢٧١. طبعة دار المعرفة.

المهدي [١] العبّاسي ، وأحدثوا شروراً وفساداً عظيماً فتتبّعهم ونكّل بهم [٢].

❁ ومن ذلك الفتنة الّتي وقعت بين الأمين [٣] والمأمون [٤] ابنـي الرّشـيد [٥] الّذي عقد العهد من بعده للأمين ثمّ المأمون ، فتعجّل الأمين فخلع أخـاه . فجـرت بينهما حروب طويلة ، وفتن كبيرة ، انتهت بقتل الأمين، وتولّى الخلافـة المـأمون الّذي كان وبالاً على أهل السنّة [٦]. وهو الّذي أظهر القول بخلق القرآن، وامتحـن

---

(١) هو أبو عبد الله محمّد بن أبي جعفر المنصور بن محمّد بن عليّ ، الهاشمي ، الخليفة العبّاسي. كان جـواداً ممداحـاً معطاء محبّباً إلى الرعيّة ، حسن الأخلاق حليماً. قامعاً لأهل البدع والأهواء والزّنادقة، مع شجاعة فيه وعدل .مـات سنة: ١٦٩هـ. وبويع لابنه الهادي .

وانظر: تاريخ بغداد: ٣٩١/٥. سير أعلام النُّبلاء: ٤٠٠/٧. العـبر: ١٩٧/١. البدايـة والنّهايـة: ١٢٩/١٠. شذرات الذّهب: ٣٠٥/٢.

(٢) انظر: تاريخ الطّبري: ١٤٨/٨، ١٦٥. الكامل في التّـاريخ: ٧٥،٧٣،٦٠/٦. العـبر: ١٩٠،١٨٤/١. البدايـة والنّهاية: ١٤٥/١٠ـ١٤٦، ١٤٩.

(٣) هو أبو عبد الله محمّد بن هارون الرّشيد بن المهدي بن أبي جعفر المنصور الهاشمي ، الخليفة العبّاسي.كان ذا قـوّة وشجاعة وأدب وفصاحة ، ولكنّه سيئ التّدبير، مفرط مبذّر، أرعن ذو لعب ، مع صحّة إسلام وديـن . تولّـى الخلافة بعد أبيه الرّشيد . ثارت بينه وبين أخيه المأمون حروب انتهت بقتله سنة: ١٩٨هـ.

وانظر: تاريخ بغداد: ٣٣٦/٣. العبر: ٢٥٤/١. البداية والنّهاية: ٢٢٢/١٠. شذرات الذّهب: ٤٦٠/٢.

(٤) هو أبو العبّاس عبد الله بن هارون الرّشيد بن المهدي بن أبي جعفر المنصور . الخليفة العبّاسي. كان مـن أذكيـاء العالم ،فقرأ العلم والأدب والأخبار والعقليات وعلوم الأوائل ، وعرّب كتبهم ، وبالغ في ذلك ، ودعا إلى القـول بخلق القرآن . كان ذا حزم وعزم ورأي وعقل وهيبة وحلم مع اعتزال وتشيّع. استتبّ له الأمر بعد مقتـل أخيـه الأمين . مات سنة: ٢١٨هـ.

وانظر: تاريخ بغداد:١٠ /١٨٣. البدء والتّاريخ: ١١٢/٦. سير أعلام النُّبـلاء: ٢٧٢/١٠. العـبر: ٢٩٥/١. فوات الوفيات:٢٣٥/٢. البداية والنّهاية: ٢٤٤/١٠. شذرات الذّهب: ٨٢/٣.

(٥) هو هارون الرّشيد بن محمّد المهدي بن أبي جعفر المنصور الخليفة العبّاسي الخامس . ولي الخلافة بعد أخيه الهـادي سنة:١٧٠هـ. كان من أنبل الخلفاء ، ذا حجّ وجهاد، وغزو وشجاعة، ورأي وفصاحة، وعلـم وبصـر بأعبـاء الخلافة ، وله نظر جيّد في الأدب والفقه. وكان عادلاً جوّاداً محبّاً للعلماء . وقد ازدهرت الدّولـة الإسـلاميّة في عهده وتوسّعت .مات سنة : ١٩٣هـ.

وانظر: تاريخ الطّبري: ٢٣٠/٨. تاريخ بغداد: ٥/١٤. الكامل في التّاريخ: ١٠٦/٦. سـير أعـلام النُّبـلاء: ٢٨٦/٩. العبر: ٢٤٣/١. شذرات الذّهب: ٤٣١/٢. الأعلام:٦٢/٨.

(٦) انظـر: تـاريخ الطّـبري: ٣٧٤/٨ـ٤٩٨. الكـامل في التّـاريخ: ٢٢٢/٦ـ٢٨٨. العـبر: ٢٤٤/١، ٢٤٦ـ٢٤٧،٢٥٠، ٢٥٤.البداية والنّهاية: ٢٢٣/١٠ـ٢٤١.

النّاس على ذلك، وعظمت المصيبة، واشتدّ البلاء على أهل العلم، فأجاب أكثرهم على سبيل الإكراه، وامتنع آخرون فحبسوا وضربوا وقتل بعضهم. وكانت فتنة عظيمة . استمرّت طيلة عهد المأمون والمعتصم [١] والواثق .[٢] ورفعت في عهد المتوكّل [٣] الّذي أحيا السّنّة وأمات البدعة [٤] .

❀ ومن ذلك فتنة بابك الخُرَمي [٥] الّذي أفسد البلاد والعباد ، وقوي أمره

---

(١) هو أبو إسحاق محمّد بن هارون الرّشيد بن المهدي بن المنصور الخليفة العبّاسي. تولّى الخلافة بعد أخيه المأمون ، وكان ذا قوّة وبطش وشجاعة وهيبة وشهامة، ولكنّه قليل العلم ، كثير اللّهو ، مسرف على نفسه. امتحن النّاس بخلق القرآن. مات سنة :٢٢٧هـ.

وانظر: تاريخ بغداد: ٣٤٢/٣. البدء والتّاريخ:١١٤/٦. سير أعلام النُّبلاء: ٢٩٠/١٠. العبر: ٣١٥/١. فوات الوفيات:٤٨/٤. البداية والنّهاية: ٢٩٥/١٠. شذرات الذّهب: ١٢٧/٣.

(٢) هو أبو القاسم هارون بن المعتصم بن هارون الرّشيد الخليفة العبّاسي. ولي الخلافة بعد أبيه المعتصم . كان أديباً شاعراً. دعا إلى خلق القرآن، وقيل: إنّه رجع قبيل موته. مات سنة ٢٣٢هـ.

وانظر: تاريخ بغداد: ١٥/١٤. سير أعلام النُّبلاء: ٣٠٦/١٠. العبر: ٣٢٥/١. فوات الوفيات:٢٢٨/٤. البداية والنّهاية: ٣٠٨/١٠. شذرات الذّهب: ١٥٠/٣.

(٣) هو أبو الفضل جعفر بن المعتصم بن هارون الرّشيد، الخليفة العبّاسي. تولّى الخلافة بعد أخيه الواثق . كان جوّاداً ممداحاً كريماً مع تبذير ولعب فيه. رفع محنة خلق القرآن، ونصر السّنّة وأهلها. قتل سنة:٢٤٧هـ.

وانظر: وفيات الأعيان: ٣٥٠/١. سير أعلام النُّبلاء: ٣٠/١٢. العبر: ٣٥٣/١. فوات الوفيات:٢٩٠/١. البداية والنّهاية: ٣١٠/١٠. شذرات الذّهب: ٢١٨/٣.

(٤) انظر: تاريخ الطّبري: ٦١٩/٨، ٦٣١ــ٦٤٦. ١٣٥/٩ــ١٣٩،١٩٠.الكامل في التّاريخ: ٤٢٣/٦ــ٤٢٧. العبر: ٢٧٣/١،٢٨٤، ٢٩٣، ٢٩٦، ٣٢١، ٣٢٥، ٣٥٣. البداية والنّهاية: ٢٧٢/١٠ــ٢٧٤،٣٠٣ــ٣٠٦، ٣١٦.

(٥) بابك الخرمي :كان رجلاً ثانوياً على دين ماني ومَزْدَك.يقول بتناسخ الأرواح، ويستحلّ البنت وأمّها. وكان يريد أن يقيم ملّة المجوس . تبعه الأشرار وقطّاع الطّريق والزّنادقة. وقد أباد خلائق من الأمّة. قتله الخليفة المعتصم عام ٢٢٣هـ.

وانظر: سير أعلام النُّبلاء: ٢٩٣/٩ــ٢٩٧. العبر: ٣٠٢/١. شذرات الذّهب: ٩٥/٣ فما بعدها.

قال أبو حامد الغزالي (رحمه الله) :

" وأمّا الخرميّة فلقبوا بها نسبة لهم إلى حاصل مذهبهم وزبدته ، فانّه راجع إلى طيّ بساط التّكليف ، وحطّ أعباء الشّرع عن المتعبّدين ، وتسليط النّاس على اتّباع اللّذات ، وطلب الشّهوات ، وقضاء الوطر من المباحات والمحرّمات . وخُرَم لفظ أعجمي ينبئ عن الشّيء المستلذ المستطاب الّذي يرتاح الإنسان إليه بمشاهدته ، ويهتزّ

واشتدّ بلاؤه وكثر أتباعه، وكان يقول بالتّناسُخ [1] ، ويريد أن يقيم ملّة المجوس [2] ، وامتدّت أيّامه نيفاً وعشرين سنة. كثرت فيها حروبه مع جيوش الدّولـــة العبّاســية. وختمت بالقضاء عليه وعلى أتباعه [3] .

لرؤيته . وقد كان هذا لقباً للمزدكيّة . وهم أهل الإباحة من المجوس الّذين نبغوا في أيام قباذ ، وأباحوا النّســاء وإن كنّ من المحارم ، وأحلّوا كلّ محظور .وكانوا يسمّون خُرّمَدِينيّة " .

فضائح الباطنيّة لأبي حامد محمّد بن محمّد الغزالي . طبعة مؤسّسة دار الكتب الثّقافيّة . الكويت. تحقيـــق عبـــد الرّحمن بدوي : ص: ١٤ وانظر:الفرق بين الفرق:ص:٢٥١. بيان تلبيس الجهميّة في تأسيس بدعـــهم الكلاميّـــة لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية. مطبعة الحكومة. مكّة المكرّمة. الطّبعة الأولى : ١٣٩٢هــ . تحقيـــق محمّد بن عبد الرّحمن بن قاسم : ٣٧٤/١.

(١) التّناسخية : هم القائلون بتناسخ الأرواح في الأجساد، والانتقال من شخص إلى شخص . وما يلقى الإنســـان من الرّاحة، والتّعب، والدّعة، والنّصب فمرتّب على ما أسلفه من قبل، وهو في بدن آخـــر جـــزاء علـــى ذلـــك. والإنسان أبداً في أحد أمرين إمّا في فعل ،وإمّا في جزاء ، وما هو فيه فإمّا مكافأة على عمل قدّمه، وإمّا عمل ينتظـــر المكافأة عليه. والجنّة والنّار في هذه الأبدان،و أعلى علّيّين درجة النّبوّة، وأسفل السّافلين دركة الحيّة. فـــلا وجـــود أعلى من درجة الرّسالة ، ولا وجود أسفل من دركة الحيّة. ومنهم من يقول الدّرجة الأعلـــى درجـــة الملائكـــة، والأسفل دركة الشّياطين. الملل والنّحل: ٢٥٣/١ـــ٢٥٤.بتصرُّف يسير. وانظر: ٥٥/٢ـــ٥٦. الفصل في الملـــل والأهواء والنّحل . لأبي محمّد عليّ بن أحمد بن حزم الظّاهري . طبعة دار الفكر مصوّرة عن طبعة المطبعة الأدبيّـــة بمصر . الطّبعة الأولى : ١٣١٧هــ : ٩٠/١ـــ٩١.

(٢) المجوس : هم الّذين أ ثبتوا أصلين مدبّرين قديمين ، يقتسمان الخير والشّر ، والنّفع والضّر، والصّلاح والفســـاد. يسمّون أحدهما: النّور والآخر الظّلمة. وبالفارسية: يزدان واهرمن. ولهم في ذلك تفصيل مُذْهِب .

ومسائل المجوس كلّها تدور على قاعدتين اثنتين: إحداهما بيان سبب امتزاج النّور بالظّلمة. والثّانية: بيـــان ســـبب خلاص النّور من الظّلمة. وجعلوا الامتزاج مبدأ والخلاص معاداً. الملل والنّحل :٢٣٢/١.بتصرُّف.

وانظر:الإبانة عن أصول الدّيانة . لعليّ بن إسماعيل أبي الحسن الأشعري . طبعة دار الأنصار . القاهرة. الطّبعـــة الأولى : ١٣٩٧هــ . تحقيق فوقيّة حسين محمود : ١٥/٢،١٦. الفرق بـــين الفـــرق: ص: ٢٧٨. ٣٢١ـــ٣٢٢. تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري . لعليّ بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدّمشـــقي. طبعة دار الكتاب العربي . بيروت. الطّبعة الثّالثة : ١٤٠٤هـــــ : ص:١٥٦. اعتقادات فرق المسلمين والمشركين. لمحمّد بن عمر بن الحسين الرّازي. طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . ١٤٠٢هــ. تحقيق عليّ ســـامي النّشّـــار : ص: ٨٦ـــ٨٩. الإعلام بما في دين النّصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام . لأبي عبد الله محمّـــد ابن أحمد القرطبي . طبعة دار التّراث العـــربي . القـــاهرة. ١٣٩٨هـــــ . تحقيـــق أحمـــد حجـــازي السّـــقّا : ص:١٦٥ـــ١٦٦. مسائل الجاهليّة الّتي خالف فيها رسول الله أهل الجاهليّة . لشيخ الإســـلام محمّـــد بـــن عبـــد الوهّاب. طبعة الجامعة الإسلاميّة. المدينة المنورة. ١٣٩٦هــ . تحقيق محمود شكري الألوسي : ص:٥٠.

(٣) انظر: تاريخ الطّبري:١١/٩ـــ٥٥. العبر: ٢٦٢/١،٢٩٨،٣٠٢. البداية والنّهاية:٢٨٢/١٠ـــ٢٨٥.

❁ ومن الفتن العظمى فتنة الزُّنْج [١]، حيث خرج قائدهم [٢] بالبصرة ودعا إلى نفسه ، وزعم أنّه علوي ، فتبعه كلّ صاحب فتنة ، واستفحل أمره ، وهزم جيوش الخليفة في عدّة وقائع ، واستباح المدن الّتي غلب عليها، وكان زنديقاً خبيثاً يتستّر بمذهب الخوارج ، وقد طالت أيّامه ، وكثر فساده . فسفك الدّماء ، وسبا النّساء، وانتهى الأمر بقتله ، وتفرّق الزّنج من حوله [٣].

❁ ومنها فتنة القَرَامِطَة [٤] ، وهم زنادقة مارقة عن الدّين ، تفاقم أمرهم، واشتدّ البلاء بهم ، وهزموا جيوش الخلافة مرّات عديدة ، وأفسدوا في الأرض إفساداً عظيماً. أحرقوا المساجد ، ووضعوا السّيف في أهل الإسلام ، وقتلوا الحجيج يوم التّروية، واستباحوا مكّة ، ثمّ قلعوا باب الكعبة ، ونزعوا الحجر الأسود وأخذوه إلى هَجَر [٥] .

وأسّسوا فيما بعد الدّولة الفاطميّة [٦] الباطنيّة الملحدة الّتي أذاقت المسلمين

---

(١) أوّل من بادر إليها عبيد أهل البصرة . فقيل لها فتنة الزّنج. انظر: العبر: ١/٣٦٥.

(٢) زعم أنّه عليّ بن محمّد بن أحمد بن عليّ بن عيسى ابن الشّهيد زيد بن عليّ . ولم يثبتوا نسبه. العبر: ١/٣٦٥.وانظر: مقالات الإسلاميين: ص:٨٥

(٣) انظر: تاريخ الطّبري: ٩/٤١٠ـ٦٦٣. العبر: ١/٣٦٤ـ٣٨٨.

(٤) القَرَامِطَة: حركة باطنيّة هدّامة . اعتمدت التّنظيم السّري العسكري . ظاهرها التّشيّع لآل البيت ، والانتساب لمحمّد بن إسماعيل بن جعفر الصّادق، وحقيقتها الإلحاد والشّيوعيّة والإباحيّة وهدم الأخلاق والقضاء على الدّولة الإسلاميّة . سمّيت بهذا الاسم نسبة إلى حمدان قرمط بن الأشعث الّذي نشرها في سواد الكوفة سنة: ٢٧٨هـ. الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة:ص:٣٩٥. وانظر:بيان تلبيس الجهميّة: ١/١٥٠،٢٤٤،٢٥٩ـ٢٦٠.البداية والنّهاية: ١١/٦١ـ٦٢.

(٥) هجر: مدينة قديمة بأرض البحرين.
وانظر: معجم ما استعجم: ٤/١٣٤٦. معجم البلدان: ٥/٣٩٣.

(٦) أسّسها عبيد الله الّذي ادّعى أنّه من ولد جعفر الصّادق ،وأنّه علوي وتلقّب بالمهدي عام ٢٩٧هـ . وانتسب خلفاؤه من بعده إلى فاطمة (رضي الله عنها) . وتسمّوا بالفاطميين . وقد ذكر أهل العلم انّهم كذبة فجرة في ذلك. وإنّما نسبهم إلى عبيد بن سعد الجرمي اليهودي الدّعي الكاذب. وقد كانوا زنادقة باطنيّة ، روافض ، يدينون بدين المجوس . وقد استمرت دولتهم ٢٨٠سنة . إلى أن أزالها الله على يدي صلاح الدّين يوسف بن أيّوب .

الأمرّين . (١)

۞ ومن أعظم الفتن الّتي حلّت بأهل الإسلام فتنة التّتار (٢) الّذين قدموا من بادية الصّين فخرّبوا معظم البلاد ، وأبادوا كثيراً من العباد ، فقتلوا وسبوا وأخذوا الأموال وانتهكوا الأعراض . ولولا حفظ الله وعنايته لما أبقوا من أهل الإسلام عيناً تطرف (٣) .

ثمّ تكاثرت الفتن بعد ذلك ، وانفرط عقدها ، وتشعّب أمرها ، حيث يعجز المرء عن حصرها ، أو سياق خبرها. والله المستعان .

وانظر البداية والنّهاية: ١١/٣٤٥ـــ٣٤٦.وانظر : ١٢/٢٦٧ـــ٢٦٨. الموسوعة الميسّرة: ص:٤٦ـــ٤٧.

(١) انظر : العبر: ١/٣٩٩، ٤١١، ٤١٧، ٤١٩، ٤٢٤ـــ٤٢٥، ٤٦١، ٤٦٣، ٤٧٤.

(٢) هم طوائف من المغول الّذين يقيمون ببادية أرض الصّين ، تملّك عليهم جنكيزخان فأذعنوا له بالطّاعة في كلّ شيء . و لم يكن يتقيّد بدين . فحارب بهم الممالك من حوله فاستولى عليها ، فقويت شوكتهم ، واشتدّ أمرهم ، فعاثوا في الأرض فساداً . وانظر : سير أعلام النّبلاء : ٢٢/٢٤٣ . البداية والنّهاية : ١٣/٣٦ ، ٤٨ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧ .

قال ابن الأثير (رحمه الله) :

" هذا الفصل يتضمّن ذكر الحادثة العظمى ، والمصيبة الكبرى الّتي عقّت الأيّام واللّيالي عن مثلها ، عمّت الخلائق وخصّت المسلمين ، فلو قال قائل : إنّ العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً . فإنّ التّواريخ لم تتضمّن ما يقاربها ولا ما يدانيها . ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصّر ببني إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدّس ، وما البيت المقدّس بالنّسبة إلى ما خرّب هؤلاء الملاعين من البلاد الّتي كلّ مدينة منها أضعاف البيت المقدّس ، وما بنو إسرائيل بالنّسبة إلى من قتلوا ؟ فإنّ أهل مدينة واحدة ممّن قتلوا أكثر من بني إسرائيل . ولعلّ الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدّنيا إلاّ يأجوج ومأجوج . وأمّا الدّجال فإنّه يبقي على من اتّبعه ويهلك من خالفه . وهؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا النّساء والرّجال والأطفال ، وشقّوا بطون الحوامل ، وقتلوا الأجنّة . فإنّا لله وإنّا اليه راجعون ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم " . ثمّ استفاض (رحمه الله) في الحديث عنهم ، وذكر أخبارهم ، وابتلاء أهل الإسلام بهم . انظر : الكامل في التّاريخ : ٩/٣٢٨ . فما بعدها . طبعة دار الكتاب العربي .

(٣) انظر: طرفاً من أخبارهم في العبر : ٣/١٦٨، ١٧٢، ١٧٦، ١٨٠، ١٨٢، ١٩٢، ٢٠٠، ٢١٨.

الفصل الثّالث

أنواع الفتن وعلاجها

وفيه تمهيد ومباحث:

التّمـــهيـــد

أثر الشّيطان في إثارة الفتن

إنّ الله تعالى خلق آدم (عليه السّلام) ، ثمّ شــرّفه وكرّمــه بــأمره للملائكــة بالسّجود له. فاستجاب الملائكة لأمر الله فسجدوا جميعاً ، ولم يشذ منهم إلاّ إبليس ــ عليه لعنة الله ــ فاستكبر وتعالى واغترّ في نفسه ، وادّعى أنّه خير من آدم . لأنّــه خلق من نار وآدم من طين . ولا يمكن للفاضل أن يسجد للمفضول . فنظــر إلــى أصل العنصر ولم ينظر إلى تشريف الله لآدم (عليه السّلام) (١).

فكانت العاقبة أن أبلسه الله من رحمته، وجعله شيطاناً رجيماً ، وأهبطــه مــن جنّته .

فلمّا استيقن اللّعين من إبعاده طلب من الله النّظرة إلى يوم الدّين . فأجابــه الله لما طلب. لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة الّتي لا تُخَالف ولا تُمَانع . ثّم تمادى الشّيطان في غيّه ، معانداً ربّه ، متمرّداً عليه بأنّه سوف يقعد على صراط الله المستقيم ، وطريقه القويم . فيضلّ كلّ من خلقه الله من ذرية هذا الّذي أبعد بســببه من الجنّة . فبيّن له الرّب سبحانه أنّه سوف يملأ منه وممن تبعه جهنّم.

وأسكن الله آدم (عليه السّلام) وزوجه حواء الجنّة ، وأباح لهما الأكل من جميع ثمارها إلاّ شجرة واحدة اختباراً وامتحاناً لهما. فحسدهما الشّيطان ، وسعى في المكر والخديعة والوسوسة لهما . ليزيل عنهما ما هما فيه من النّعيم المقيم . فدلّهما بغرور حتّى ذاقا الشّجرة. وعند ذلك بدت لهما عوراتهما، وسلبا ذاك النّعيم .

---

(١) ولا يسلم لإبليس في دعواه بأنّ عنصر النّار أفضل من عنصر الطّين .

أمّا آدم وزوجه (عليهما السّلام) فقد تابا إلى الله ، وأنابا إليه . فتقبّل الله توبتهما. وأمّا الشّيطان ــ عليه لعنة الله ــ فظلّ على عناده واستكباره . فأنزل الجميع إلى الأرض . وقد استحكمت بينهم العداوة والبغضاء (١).

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى في آيات كثر أنّ الشّيطان عدوّ شديد العداوة . فقال:

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [البقرة:١٦٨، ١٦٩]

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة:٩١].

وقال سبحانه: ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [القصص:١٥].

وقال عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [فاطر:٦].

وفي هذا تحذير لبني آدم ليأخذوا حذرهم من هذا العدوّ الماكر ، الّذي قد أبان عداوته من زمن آدم (عليه السّلام) ، وبذل نفسه وعمره في إفساد أحوال بنيه (٢) .

كما حذّرهم سبحانه وتعالى جميعاً من فتنة هذا العدوّ الّذي لا تخمد نار عداوته ولا ينطفئ لهيبها . فقال: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ

---

(١) أنظر: البقرة: الآيات: ٣٤-٣٨ . الأعراف: الآيات: ١١-٢٥ . وأنظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/٢٩١-٣٢٩ . ٧/١٦٨-١٨١ تفسير القرآن العظيم: ١/١١٤-١٢٤ . ٢/٣٢٥-٣٣٢ .

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢/٢٠٩ .

وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف:٢٧] .

قال ابن كثير (رحمه الله):

" يحذّر تعالى بني آدم من إبليس وقبيله [١]، مبيّناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم (عليه السّلام) في سعيه في إخراجه من الجنّة الّتي هي دار النّعم إلى دار التّعب والعناء. والتّسبب في هتك عورته بعد ما كانت مستورة عنه. وما هذا إلاّ عن عداوة أكيدة . وهذا كقوله تعالى : —

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف:٥٠]. [٢]

والشّيطان يدخل من بابين واسعين لفتنة العباد. فيهما تنحصر جميع أنواع الفتن:

أوّلهما: ما يلقي إلى العبد من الشّبهات والشّكوك القادحة .

والثّاني: ما يلقي إلى العبد من الشّهوات والإرادات الفاسدة [٣].

والنّوع الأوّل هو أخطر أنواع الفتن ، وأشدّها لأنّها قد تؤول إلى الكفر والنّفاق ، ويندرج تحتها جميع البدع على اختلاف مراتبها .

ويستغل الشّيطان في ذلك ضعف البصيرة ، وقلّة العلم ، ولا سيّما إذا اقترن بذلك فساد القصد ، وحصول الهوى [٤].

والنّوع الثّاني هي فتنة المعاصي بأنواعها الّتي تدفع إليها الشّهوات .

---

(١) القبيل : جمع قبيلة ، وهي الجماعة المجتمعة الّتي يقبل بعضها على بعض .

المفردات : ص : ٣٩٢ . وانظر : لسان العرب : ٥٤٢/١١ . القاموس المحيط : ص : ١٣٥١ .

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣٣٤/٢. وانظر: جامع البيان : ٣٧٣/١٢. .شاكر. زاد المسير: ١٢٥/٣. محاسن التّأويل: ٢٦٤٩/٧.

(٣) انظر: زاد المعاد: ١٠/٣ .

(٤) انظر: إغاثة اللّهفان: ١٦٥/٢ .

قال ابن القيّم (رحمه الله):

" وقد جمع سبحانه بين ذكر الفتنتين في قوله: ــ

﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةً وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلًا وَأَوۡلَٰدًا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ ﴾ [التوبة:٦٩].

أي تمتّعوا بنصيبهم من الدّنيا وشهواتها. والخلاق هو النّصيب المقدّر، ثمّ قال: ﴿ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ ﴾ [التوبة:٦٩] ...

فهذا الخوض بالباطل، وهو الشُّبهات .

فأشار سبحانه في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان، من الاستمتاع بالخلاق، والخوض بالباطل . لأنّ فساد الدّين إمّا أن يكون باعتقاد الباطل والتّكلم به، أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح .

فالأوّل: هو البدع وما والاها، والثّاني: فسق الأعمال .

فالأوّل فساد من جهة الشّبهات، والثّاني من جهة الشّهوات . ولهذا كان السّلف يقولون: احذروا من النّاس صنفين: صاحب هوى قد فتنه هواه، وصاحب دنيا أعمته دنياه" (١).

والشّيطان ــ عليه لعنة الله ــ يسلك مسالك شتّى، ويستخدم أساليب متنوّعة لإلقاء النّاس في فتن الشّبهات والشّهوات .

قال تعالى: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ

(١) المصدر السّابق: ١٦٦/٢ .

وَيُمَنِّيهِمْۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴿١٢١﴾ ﴾ [النساء: ١١٧_١٢١] .

فهو يضلّ العباد ويصرفهم عن الحقّ ، ويزيّن لهم الباطل ، ويعدهم بالأماني، ويأمرهم بالتّسويف والتّأخير، ويغرّهم ويخدعهم بأباطيله وترّهاته، ويدفعهم إلى ارتكاب المعاصي كتشقيق آذان الأنعام ، وتغيير خلق الله تعالى [(١)].

وقال تعالى : ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴿٦٣﴾ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٦١_٦٥].

فقد زعم أنّه سوف يستولي على بني آدم ويحتويهم ، ويستأصلهم بالإغواء والإضلال ، فيسوقهم حيث شاء ويقودهم حيث أراد.

وله أن يستزلّ ويستخفّ من استطاع إضلاله ، وأن يستعين بكلّ داع يدعو إلى معصية الله ، ويجلب عليهم بكلّ راكب وماش في سخط الله ، ويشاركهم في ما يملكون من أموال وأولاد بالعمل فيها بما لا يرضي الله ، ويعدهم بما شاء من وعود كاذبة ، ويخدعهم بما شاء من حيل وخدع ، ويجمع كلّ ما يقدر عليه من مكائد لإضلالهم . فإنّ عباد الله المؤمنين لن يصل إلى بغيته منهم أبداً لأنّ الله حافظهم من كيده ومكره. [(٢)]

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٥/٣٨٨-٣٩٥ . تفسير القرآن العظيم: ١/٨٤٣-٨٤٥ .

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن : ١٠/٢٨٧_٢٩٠ .تفسير القرآن العظيم : ٣/٨٢_٨٣

عن جابر ﷺ قال سمعت النّبي ﷺ يقول : " إنّ الشّيطان قد أيس أن يعبده المصلّون في جزيرة العرب ، ولكن في التّحريش بينهم " "[1] .

قال النّووي(رحمه الله):

" أيس أن يعبده أهل جزيرة العرب ولكنّه سعى في التّحريش بينهم بالخصومات والشّحناء والحروب والفتن ونحوها "[2] .

ووسائله كثيرة جداً في إضلال العباد وفتنتهم، يضيق هذا المقام عن ذكرها.

وهو يستعين بأتباعه من الشّياطين لفتنة الخلق.

عن جابر ﷺ قال سمعت النّبي ﷺ يقول : " إنّ عرش إبليس على البحر، فيبعث سراياه[3] فيفتنون النّاس ، فأعظمهم عنده [وفي الرواية الأخرى:منزلة] أعظمهم فتنة ".[4]

وعنه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : " إنّ إبليس يضع عرشه على الماء ، ثمّ يبعث سراياه ، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة ، يجيء أحدهم فيقول : فعلت كذا وكذا . فيقول : ما صنعت شيئاً . قال : ثمّ يجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتّى فرّقت بينه وبين امرأته . قال : فيدنيه منه ويقول نعم أنت " . قال الأعمش[5]:

---

(1) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم: (٥٠). باب تحريش الشّيطان وبعثه سراياه لفتنة النّاس وأنّ مع كلّ إنسان قريناً : (١٦). برقم: (٢٨١٢). ٤/٢١٦٦.

(2) شرح النّووي على مسلم: ١٧/١٥٦

(3) سرايا : جمع سريّة . وهي طائفة من الجَيش يبلغُ أقصاها أربعَمائة تُبْعث إلى العَدوّ . سُمُّوا بذلك لأنهم يكونُون خُلاصةَ العسْكر وخيارَهم . من الشّيء السَّريِّ النَّفِيس . وقيل سُمّوا بذلك لأنّهم يَنْفذُون سرّاً وخُفْية . النهاية في غريب الحديث :٢/٣٦٣ . بتصرُّف يسير .

(4) صحيح مسلم: بلفظه في: الكتاب والباب السّابقين. برقم: (٢٨١٣). ٤/٢١٦٧.

(5) هو سليمان بن مهران أبو محمّد الأسدي الكاهلي مولاهم الكوفي الأعمش . كان رأساً في العلم النّافع والعمل الصّالح، عالماً بالقرآن خبيراً بالقراءات ، إماماً في الحديث ثقة حافظاً، ولكنّه يدلّس. مولده سنة: ٦١هـ ومات سنة: ١٤٨ أو ١٤٧هـ.

وانظر:الطّبقات الكبرى:٦/٣٤٢. طبقات خليفة:ص:١٦٤. التّاريخ الكبير: ٤/٣٧. معرفة الثّقات: ١/٤٣٢. الجرح والتّعديل: ٤/١٤٦. ثقات ابن حبّان:٤/٣٠٢. مشاهير علماء الأمصار: ١/١١١. تاريخ بغداد: ٩/٣. التّعديل والتّجريح: ٣/١١١٦. تهذيب الكمال: ١٢/٧٦. تذكرة الحفّاظ: ١/١٥٤. الكاشف: ١/٤٦٤. جامع

أراه قال: " فيلتزمه " * (١).

وسأتناول بإذن الله تعالى أنواعاً من فتن الشّبهات والشّهوات التّي يثيرها الشّيطان في نفوس أهل الإسلام.

التّعديل والتّجريح: ١١١٦/٣. تهذيب الكمال: ٧٦/١٢. تذكرة الحفّاظ: ١٥٤/١. الكاشف: ٤٦٤/١. جامع التّحصيل في أحكام المراسيل:ص:١٨٨. التّبيين لأسماء المدلّسين . لإبراهيم بن محمّد بن سبط ابن العجمي. طبعة مؤسّسة الرّيان . بيروت. الطّبعة الأولى : ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م. تحقيق محمّد إبراهيم داود الموصلي :ص:١٠٥. تهذيب الكمال:١٩٥/٤. تقريب التّهذيب:٢٥٤/١. لسان الميزان:٢٣٨/٧. طبقات المدلّسين . لأحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني . طبعة مكتبة المنار . عمّان . الطّبعة الأولى : ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م . تحقيق عاصم بن عبد الله القريوتي : ص: ٣٣ .

(١) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم: (٥٠). باب تحريش الشّيطان وبعثه سراياه لفتنة النّاس وأنّ مع كلّ إنسان قريناً : (١٦). برقم: (٢٨١٣). ٢١٦٧/٤.

﴿ المبحث الأوّل ﴾

الافتـــراق

إنّ الله تعالى أمر المؤمنين بالاعتصام بحبله ، وعدم التّفرّق . فقال سبحانه:

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ [آل عمران: ١٠٣] .

وبيّن أنّ التّفرّق والاختلاف من سنن الأمم الماضية ، فعلى أهل الإســـلام أن يجتنبوه. فقال تعــالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٥] .

قال القرطبي(رحمه الله) :

" فأوجب تعالى علينا التّمسّك بكتابه وسنّة نبيّـــــه ، والرّجـــوع إليـــهما عنـــد الاختلاف ، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنّة اعتقاداً وعملاً . وذلك سبب اتّفاق الكلمة ، وانتظام الشّتات الّذي يتمّ به مصالح الدّنيا والدّين والسّلامة مـــن الاختلاف ، وأمر بالاجتماع ونهى عن الافتراق الّذي حصل لأهل الكتـــابين . هـــذا معنى الآية على التّمام".(١)

بل التّفرق والاختلاف سمة من سمات أهـــل الشّـــرك ولـــذا قـــال ســـبحانه:

﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

[الروم: ٣١،٣٢].

والآيات في التّحذير من الاختلاف والتّفرّق كثيرة جداً ، يقصر هذا المقام عـــن ذكرها.

كما حذّر رسول الله ﷺ من الافتراق.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٤/١٦٤.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "إنّ الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شـيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا؛ ويكره لكم : قيل وقال ، وكثرة السّؤال ، وإضاعة المال" (١).

ومع هذا التّحذير إلاّ أنّ الله ورسوله ﷺ بيّنا أنّ الافتراق سوف يقع في هـذه الأمّة، وأنّها سوف تكون شيعاً وأحزاباً .

عن جابر ﷺ قال : لمّا نزلت هـذه الآيـة : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾. قال رسـول الله ﷺ : " أعـوذ بوجـهك " قـال : ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال : " أعوذ بوجـهك" ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام:٦٥] قال رسـول الله ﷺ : " هـذا أهـون أو هـذا أيسر" (٢).

وعن عوف بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : " افـترقت اليـهود علـى إحدى وسبعين فرقة ، فواحدة في الجنّة وسبعون في النّار. وافترقت النّصارى علـى ثنتين وسبعين فرقة ، فإحدى وسبعون في النّار وواحدة في الجنّة. والّذي نفس محمّد

(١) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الأقضية: (٣٠). باب النّهي عن كثرة المسائل من غير حاجة ، والنّهي عن منـع وهات ، وهو الامتناع من أداء حقّ لزمه أو طلب ما لا يستحقّه: (٥). برقم: (١٧١٥). ٣/١٣٤٠.

(٢) صحيح البخاري: بلفظـه في: كتـاب التّفسـير: (٦٥/٣٩). بـاب ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ [الأنعام:٦٥] : (٢). برقم: (٦٨٢٨). ص: ٩٧١. و بلفظ مقـارب في: كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة: (٩٦/٧١). باب قول الله تعالى : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾ [الأنعام:٦٥]: (١٢/١١). برقم: (٧٣١٣). ص:١٥٣٧. وفي كتاب التّوحيد: (٩٧/٧٢). باب قول الله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص:٨٨]: (١٦). برقم: (٧٤٠٦). ص:١٥٥٥.

بيده لتفترقنّ أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنّة وثنتان وسبعون في النّار . قيل يا رسول الله من هم؟ قال: الجماعة " [١] .

وفي رواية: "وإنّه سيخرج من أمّتي أقوام تَجَارَى بهم تلك الأهواء[٢] كما يتجارى الكَلَبُ [٣] لصاحبه ، لا يبقى منه عرق ولا مِفْصَل إلاّ دخله" [٤] .

---

(١) سنن أبي داود: نحوه في كتاب السّنّة: (٣٩). باب شرح السّنّة: (١). برقم: (٤٥٩٦). عن أبي هريرة ﷺ . قال الألباني رحمه الله: "حسن صحيح" . وبرقم: (٤٥٩٧). عن معاوية ﷺ . قال الألباني رحمه الله: "حسن". ص:٥٠٣.

سنن التّرمذي: نحوه في كتاب الإيمان: (٣٧). باب ما جاء في افتراق هذه الأمّة: (١٨). برقم: (٢٦٤٠). عن أبي هريرة ﷺ . وقال: "وفي الباب عن سعد وعبد الله بن عمرو وعوف بن مالك . وحديث أبي هريرة حديث حسن صحيح". وقال الألباني رحمه الله: "صحيح". ص:٤٢٨.

سنن ابن ماجه: بلفظه في كتاب الفتن: (٣٦). باب افتراق الأمم: (١٧). برقم: (٣٩٩٢). ونحوه عن : أبي هريرة ﷺ برقم: (٣٩٩١). وأنس بن مالك ﷺ برقم: (٣٩٩٣). قال الألباني رحمه الله عن حديث عوف ﷺ وحديث أنس ﷺ : "صحيح". وعن حديث أبي هريرة ﷺ : "حسن صحيح". ص: ٤٢٩.

مسند أحمد : نحوه عن : أبي هريرة ﷺ . في: ٣٣٢/٢. وأنس ﷺ في:١٢٠/٣،١٤٥. قال أحمد شاكر رحمه الله: " إسناده صحيح ". (رواية أبي هريرة). مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٦٩/١٦. برقم: (٨٣٧٧).

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: نحوه عن أبي هريرة ﷺ . برقم: (٦٢٤٧). ١٤٠/١٤. قال شعيب الأرناؤوط: "حديث حسن".

مستدرك الحاكم: نحوه عن أبي هريرة ﷺ في : ٤٧/١، ٢١٧. وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه وله شواهد".وقال الذّهبي : "على شرط مسلم".

(٢) أي يَتواقَعُون في الأهواء الفاسدة ، ويَتَداعَوْن فيها ، تَشْبِيها بِجَرْي الفَرَس . النّهاية في غريب الحديث :٢٦٤/١ .

(٣) قال الخطّابي رحمه الله:

" فإنّ الكَلَبَ داء يصيب الإنسان من عضّة الكَلْب الكَلِب ، وهو الّذي قد ضَرِيَ ـــ أي اعتاد وولع ـــ بلحوم النّاس فإذا أكثر منها أصابه شبه جنون . فيقال إنّه إذا عقر إنساناً أصابه الكَلَبُ ، فيعْوي عواء الكلْب ، ويمزّق على نفسه ، ثمّ يأخذه العطاش حتّى يموت ، وهو ينظر إلى الماء ولا يشربه " . غريب الحديث: ٥٨٩/١.

وانظر: الفائق:٢٧٤/٣. النّهاية في غريب الحديث: ١٩٥/٤.

(٤) سنن أبي داود: بلفظه في : كتاب السّنّة: (٣٩). باب شرح السّنّة: (١). برقم: (٤٥٩٧). عن معاوية ﷺ .قال الألباني رحمه الله: "حسن". ص:٥٠٣.

مسند أحمد: بلفظه ـــ إلاّ أنّه قال:"بصاحبه" ـــ في : ١٠٢/٤.

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في: ٢١٨/١. وصحّح إسناده ووافقه الذّهبي .

وقد وقع الافتراق في الأمّة في عصر الإسلام الأوّل ، وأطلّت فرق الأهواء برؤوسها ، مع توافر الصّحابة والتّابعين .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله):

" الصَّحابة ﷺ كانوا أقلّ فتناً من سائر من بعدهم ، فإنّه كلّما تأخّر العصر عن النُّبوّة كثر التّفرّق والخلاف . ولهذا لم يحدث في خلافة عثمان بدعة ظاهرة ، فلمّا قتل وتفرّق النّاس حدثت بدعتان متقابلتان: بدعة الخوارج المكفّرين لعليّ، وبدعة الرَّافِضَة [1] المدّعين لإمامته وعصمته ، أو نبوّته أو إلآهيّته . ثمّ لمّا كان في آخر عصر الصّحابة في إمارة ابن الزُّبير وعبد الملك حدثت بدعة المُرْجِئَة [2] والقَدَرِيَّة[3].

(1) الرَّافضة: من الرَّفض وأصله التّرك. سمّوا رافضة لتركهم زيد بن عليّ لمّا لم يتبرّأ من الشّيخين أبي بكر الصّدّيق وعمر بن الخطّاب (رضي الله عنهما) ثمّ أصبح يطلق على كلّ من تبرّأ منهما ، وكذلك على كلّ من تبرّأ من الصَّحابة. وهم مجمعون على أنّ النّبي ﷺ نصّ على استخلاف عليّ بن أبي طالب ﷺ باسمه ، وأظهر ذلك وأعلنه ، وإنّ أكثر الصَّحابة ضلّوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة النّبي ﷺ . وقد ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة (رضي الله عنها) ولم يجوّزوا ثبوتها في غيرهم .

وانظر: مقالات الإسلاميين: ص: ١٦ فما بعدها. الفرق بين الفرق: ص:٢٢ فما بعدها. الملل والنّحل: ١/١٥٤ فما بعدها. التّعاريف المسمّى التّوقيف على مهمّات التّعاريف . لمحمّد عبد الرؤوف المناوي . طبعة دار الفكر المعاصر . بيروت . دمشق . الطّبعة الأولى : ١٤١٠هـ . تحقيق محمّد رضوان الدّاية : ص:٣٦٩.

(2) المرجئة : من الإرجاء وهو التّأخير. والمرجئة لقب أطلق على طائفة تؤخّر العمل عن الإيمان، أي أنّهم لا يدخلون العمل في مسمّى الإيمان ، ويقصرون الإيمان على المعرفة. وأكثرهم يرى أنّ الإيمان لا يتبعّض ، ولا يزيد ولا ينقص . وزعم بعضهم : أنّه لا يضرّ مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

وانظر:مقالات الإسلاميين: ص: ١٣٢. الفرق بين الفرق:ص: ١٩. الملل والنّحل:١/١٣٩ فما بعدها. التّعريفات . لعليّ بن محمّد بن عليّ الجرجاني. طبعة دار الكتاب العربي. بيروت. الطّبعة الأولى: ١٤٠٥هـ . تحقيق : إبراهيم الأبياري. : ص: ٢٦٨. التّعاريف: ص:٦٤٩.

(3) القدريّة : هم الّذين كانوا يخوضون في قدر الله تعالى ، ويذهبون إلى إنكاره، وهم طوائف شتّى . يزعم بعضهم أنّ العبد يخلق فعله، ولا يرون الكفر والمعاصي بتقدير الله .

وانظر: الفرق بين الفرق: ص:٩٣ فما بعدها. الملل والنّحل: ١/٤٣ فما بعدها. التّعريفات: ص:٩٢.

ثمّ لمّا كان في أوّل عصر التّابعين في أواخـــر الخلافــة الأمويــة حدثــت بدعــة الجَهْميَّة [١] والمُشَبِّهَة [٢] المُمَثِّلَة [٣] " [٤].

وما ذكره شيخ الإسلام هي أصول فرق المبتدعة . ثمّ انقسمت كلّ فرقة فيمـــا بعد إلى فرق شتّى وطوائف عدّة [٥].

ولا شك أنّ وجود هذه الفرق كان فتنة لأهل الإسلام . لما تحدثه من نزاعـــات وخلافات وحروب كلاميّة تصل أحياناً إلى تجريد السّـيوف ، وسـفك الّدمـاء ، أو التّفسيق أو التّبديع أو التّكفير . وقد تقوم دولة بأكملها في نصر فرقة مـــا أو تـــأييد

---

(١) الجهميّة: هم اتباع جَهْم بن صفوان الّذي قال بالإجبار والاضطرار إلى الأعمال ، وأنكر الاســـتطاعات كلّــها ، وزعم أنّ الجنّة والنّار تبيدان وتفنيان ، وزعم أيضاً أنّ الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط ، وأنّ الكفر هو الجهل بـــه فقط ، وقال لا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى ، وإنّما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز. وزعم أيضـاً أنّ علم الله تعالى حادث ، وامتنع من وصف الله تعالى بأنّه شيء أو حي أو عالم أو مريد . وامتنع عن وصف البـــاري بصفة يوصف بها خلقه ، ووصفه بأنّه قادر وموجود وفاعل وخالق ومحي ومميت لأنّ هذه الأوصاف مختصّـــة بـــه وحده . وقال بحدوث كلام الله تعالى كما قالته القدريّة ، ولم يسمّ الله تعالى متكلّماً به .

الفرق بين الفرق: ص:٢٩٣.بتصرُّف. وانظر: مقالات الإسلاميين: ص:٢٧٩-٢٨٠. الملل والنّحل: ٨٦/١-٨٧.

(٢) المشبّهة: قوم شبّهوا الله بالمخلوقات ، ومثّلوه بالمحدثات . وهم صنفان: صنف شبّهوا ذات الباري بذوات غــــيره. وصنف شبّهوا صفاته بصفات غيره . فيقولون: له وجه كوجه المخلوق ، ويد كيده ، ونحو ذلك . ومنـــهم مـــن يزعم أنّ معبودهم جسم ذو أبعاض محدودة . تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

وانظر: مقالات الإسلاميين: ص:٣١ فما بعدها . الفرق بين الفرق: ص: ٢١٤ فما بعدها . الملـــل والنّحـــل : ١٠٣/١ فما بعدها. منهاج السّنة النّبويّة لشيخ الإسلام ابن تيمية . طبعـــة مؤسّســـة قرطبـــة . الطّبعـــة الأولى: ١٤٠٦هـ . تحقيق محمّد رشاد سالم : ٥٢٢/٢-٥٢٣. الكواشف الجليّة عن معاني الواسطيّة . لعبد العزيز المحمّـد السّلمان . طبعة شركة الراجحي للصّرافة . الطّبعة العاشرة : ١٤٠١هـ-١٩٨١م : ص: ٨٩.

(٣) الممثّلة: هم المشبّهة. انظر: بيان تلبيس الجهميّة: ٤٧/١.

(٤) المنتقى من منهاج الاعتدال :ص: ٣٢٤ـ ٣٢٥.

(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن: ١٦٠/٤ـ١٦٤.

وقد قسّم تلك الفرق الإمام ابن حزم إلى خمسة فرق وهي : أهل السّنّة والمعتزلة والمرجئة والشّيعة والخوارج.

انظر: الفصل في الملل والأهواء والنّحل : ١١١/٢ .

كما قسّمها الشّهرستاني إلى أربعة فرق وهي: القدريّة والصفاتيّة والخوارج والشيعة.

انظر: الملل والنّحل : ١٥/١.

طائفة ما. أضف إلى ذلك ما ولّدته هذه الفرق من انحرافات منهجيّة أو عقديّة أو فكريّة أو سياسيّة ، أو غير ذلك في دين الله تعالى .

بل كان وجود تلك الفرق والطّوائف عاملاً مؤثّراً في ضعف المسلمين وتفريق كلمتهم ، ممّا جعلهم عاجزين عن القيام برسالة الإسلام والاطّلاع بأعبائها ، فصاروا أذلاّء أمام أعداء الله تعالى . إضافة إلى ما يحدث من تشويه للإسلام ، وتنفير عنه ممّا يصبح حجر عثرة أمام من يريد الانتماء إليه . بل قد يجد المسلم نفسه حائراً بين الانتماء إلى هذه الطّائفة أو تلك [1] ، فيعجز عن تبيّن الحق والوصول إليه فيضطرب أمره ، ويتهاوى ثباته ، فينحرف وينجرف .

---

(1) وذلك التّفرق والاختلاف نتيجة الجهل والتّعصب والهوى . ويخرج عن ذلك الاختلاف في الفروع الفقهيّة ما لم يبلغ درجة الافتراق والتّعصب والنّزاع .

المبحث الثّاني

فتنة الدنيا

ضرب الله تعالى الأمثلة للدّنيا موّهناً لأمرها، محقّراً لشأنها، مدلّلاً على زوالها وانقضائها حتّى لا يفتتن بها العباد ، ويغترّ بها من جهل أمرها وانغمس في لذاتها .

فقال تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الكهف:٤٥].

وقال: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحديد:٢٠] (١) .

وكذلك حذّر رسول الله ﷺ منها ومن فتنتها . فقال في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ : "إنّ الدّنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وإنّ الله مستخلفُكم فيها فينظرُ كيف تعملون، فاتّقوا الدّنيا واتقوا النّساء . فإنّ أوّل فتنة بني إسرائيل كانت في النّساء" (٢) .

فوصفها ﷺ بأنّها حلوة أي لذيذة حسنة ، وأنّها ناعمة طريّة سريعة الزّوال كالخضر . وفي ذلك بيان بأنّها تفتن النّاس بلونها وطعمها(٣).

---

(١) وانظر: آل عمران: الآية : ١٤ . يونس : الآية : ٢٤ . وللوقوف على معاني الآيات انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٣٢٧/٨-٣٢٨ ، ٤١٢/١٠-٤١٣ ، ٢٥٤/١٧-٢٥٦ . تفسير القرآن العظيم : ٦٤٠/٢-٦٤١، ١٣٩/٣، ٤٨٧/٤-٤٨٨ .

(٢) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨) . باب أكثر أهل الجنّة الفقراء ، وأكثر أهل النّار النّساء ، وبيان الفتنة بالنّساء : (٢٦) برقم : (٢٧٤٢). ٢٠٩٨/٤ .

(٣)انظر: تحفة الأحوذي: ٣٥٦/٦ .

ومع ذلك قلّ من ينجو من فتنتها، أو يفلت من براثنها .

عن وبَرَة (رحمه الله) [1] قال: سأل رجل ابن عمر (رضي الله عنهما): أطوف بالبيت وقد أحرمت بالحجّ ؟ فقال: وما يمنعك؟ قال: إنّي رأيت ابن فلان يكرهه، وأنت أحبّ إلينا منه، رأيناه قد فتنته الدّنيا. فقال: وأيّنا ـ أو أيّكم ـ لم تفتنه الدّنيا؟ ثمّ قال: رأينا رسول الله ﷺ أحرم بالحجّ ، وطاف بالبيت ، وسعى بين الصّفا والمروة ، فسنّة الله وسنّة رسوله ﷺ أحقّ أن تتّبع من سنّة فلان . إن كنت صادقاً " [2] .

فإذا كان ابن عمر (رضي الله عنهما) وهو من هو! يرى أنّه فتن بالدّنيا ـ وهذا من تواضعه ـ فكيف بغيره ممّن لم يبلغ مقامه ويصل إلى منزلته ؟.

ولأجل هذا حرص الرّسول ﷺ على تعليم الصّحابة الالتجاء إلى الله تعالى، والاستعاذة به من فتنتها ومكرها .

فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: كان النّبي ﷺ يعلمنا هؤلاء الكلمات كما تعلّم الكتابة: " اللّهم إنّي أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك أن نردّ إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدّنيا وعذاب القبر" [3] .

قال النّووي رحمه الله:

" ومعنى الدّنيا خضرة حلوة : يحتمل أنّ المراد بها شيئان : أحدهما: حسنها للنّفوس ونضارتها ولذّتها كالفاكهة الخضراء الحلوة ، فإنّ النّفوس تطلبها طلباً حثيثاً فكذا الدّنيا.

والثّاني: سرعة فنائها كالشّيء الأخضر في هذين الوصفين . ومعنى مستخلفكم فيها : جاعلكم خلفاء من القرون الّذين قبلكم ، فينظر هل تعملون بطاعته أم بمعصيته وشهواتكم" . شرح النّووي على مسلم: ٥٥/١٧.

(١) هو وبرة بن عبد الرّحمن أبو خزيمة . وقيل: أبو العبّاس المسلي ، من مذحج . كوفي ، تابعي ثقة .
انظر: الطّبقات الكبرى: ٣١٢/٦. التّاريخ الكبير: ١٨٢/٨ . الجرح والتّعديل: ٤٢/٩ . ثقات ابن حبّان: ٤٩٧/٥ . تهذيب الكمال: ٤٢٦/٣٠ . الكاشف: ٣٤٨/٢ . تهذيب التّهذيب: ٩٨/١١ .

(٢) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الحجّ : (١٥). باب ما يلزم من أحرم بالحجّ ثمّ قدم مكّة من الطّواف والسّعي: (٢٨) . برقم : (١٢٣٣). ٩٠٥/٢-٩٠٦ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الدّعوات: (٥٤/٨٠). باب التّعوّذ من فتنة الدّنيا: (٥٦). برقم: (٦٣٩٠). ص: ١٣٦١.وبلفظ مقارب في: كتاب الجهاد والسّير: (٣٢/٥٦). باب ما يتعوّذ من الجبن: (٢٥). برقم: (٧٨٢٢). ص: ٥٩٦. وفي كتاب الدّعوات: (٥٤/٨٠). باب التّعوّذ من عذاب القبر: (٣٧). برقم: (٦٣٦٥).

بل بلغ من خشيته ﷺ من فتنتها أنّه حذّر أصحابه ﷺ في آخر حياته من التنافس فيها ، والاقتتال من أجلها .

عن عُقْبَة بن عامر ﷺ قال: صلّى رسول الله ﷺ على قتلى أحد ، ثمّ صعد المنبر كالمودّع للأحياء والأموات فقال: "إنّي فَرَطُكُم على الحوض(١)، وإنّ عرضه كما بين أَيْلَةَ (٢) إلى الجُحْفَة (٣) ، إنّي لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي، ولكنّي أخشى عليكم الدّنيا أن تنافسوا فيها، وتقتتلوا فتَهلِكوا كما هلك من كان قبلكم".

قال عقبة: فكانت آخر ما رأيت رسول الله ﷺ على المنبر(٤) .

ص: ١٣٥٧. وفي باب التّعوّذ من البخل: (٤١). برقم: (٦٣٧٠). ص:١٣٥٨. ونحوه في: باب الاستعاذة من فتنة الغنى: (٤٥). برقم: (٦٣٧٤). ص: ١٣٥٩.

(١) أنا فَرَطُكم على الحَوْض اي مُتَقَدِّمُكم إليه . يقال : فَرَط يَفْرِط , فَهُو فارِطٌ وفَرَطٌ إذا تقَدَّم وسَبَق القوم لِيَرْتَاد لهم الماء , ويُهَيئ لهم الدِّلاء والأرْشِيَة .

النّهاية في غريب الحديث: ٣ / ٤٣٤. وانظر: غريب الحديث للهروي : ٤٥/١. غريب الحديث لابن قتيبة : ٤٨٩/٢.

(٢) أيلة : بفتح أوّله على وزن فعلة ، مدينة على شاطئ البحر الأحمر في منتصف ما بين مكّة ومصر ، وهي تعدّ من بلاد الشّام . قيل : سمّيت أيلة ببنت مدين بن إبراهيم عليه السّلام . وقد روي أنّها القرية الّتي كانت حاضرة البحر ، والّتي جاء ذكرها في القرآن .وينسب إليها جماعة من رواة الأحاديث .

انظر: معجم ما استعجم: ٢١٦/١ــ٢١٧. معجم البلدان: ٢٩٢/١.

(٣) الجُحْفة : قرية جامعة على الطّريق بين المدينة ومكّة . كانت تسمّى مَهيعة ، فجاء سيل فاجتحف من فيها فسمّيت الجحفة . جعلها النّبي ﷺ مهلّ أهل الشّام .

انظر: معجم ما استعجم: ٣٦٧/١ــ٣٧١. معجم البلدان: ١١١/٢.

(٤) صحيح البخاري: نحوه في : كتاب الجنائز: (٦/٢٣). باب الصّلاة على الشّهيد: (٧٢). برقم: (١٣٤٤). ص: ٢٨٢. وفي كتاب المناقب : (٣٧/٦١). باب علامات النُّبوّة في الإسلام: (٢٥). برقم: (٣٥٩٦). ص:٧٥٧. وفي كتاب المغازي: (٣٨/٦٤). باب غزوة أحد: (١٧). برقم: (٤٠٤٢). ص: ٨٤٧. وفي باب " أحد يحبنا" : (٢٨/٢٧). برقم: (٤٠٨٥). ص: ٨٥٥. وفي كتاب الرّقاق: (٥٥/٨١). باب ما يحذر من زهرة الدّنيا والتّنافس فيها: (٧). برقم: (٦٤٢٦). ص: ١٣٦٩. وفي باب الحوض: (٥٣). برقم: (٦٥٩٠). ص: ١٣٩٧.

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الفضائل : (٤٣). باب إثبات حوض نبيّنا ﷺ وصفاته : (٩) برقم: (٢٢٩٦) . ١٧٩٦/٤ .ونحوه في : ١٧٩٥/٤.

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله):

"فيه إنذار بما سيقع فوقع كما قال ﷺ ، وقد فتحت عليهم الفتـــوح بعـــده، وآل الأمر إلى أن تحاسدوا وتقاتلوا ، ووقع ما هو المشاهد المحسوس لكلّ أحد ممّا يشـــهد بمصداق خبره ﷺ ، ووقع من ذلك في هذا الحديث إخباره بأنّه فرطهم أي ســـابقهم وكان كذلك ، وأنّ أصحابه لا يشركون بعده فكان كذلك ، ووقع ما أنـــذر بـــه مـــن التّنافس في الدّنيا " (١) .

وإذا كان التّنافس في الدّنيا ، والتّقاتل فيها وقع في عصـــور الإســـلام الأول ، فكيف بنا نحن في هذا العصر الّذي انغمس أهله في المادة إلى آذانهم ، وتكالبوا على حطام الدّنيا الزّائل ؟. فما رفع عندهم إلاّ من نال قسطاً منها . إذ العزيز عندهم مـــن كثر ماله ، والعظيم عندهم من علا منصبـــــه، وكـــبرت وظيفتـــه فنـــال التّيجـــان والأوسمة ، وهتف له النّاس ورفعوا ذكره .

إنّ حبّ الدّنيا واللّهث وراءها سيطر على عقول كثيرين مـــن أهـــل الإســـلام اليوم ، حتّى عميت البصائر عن رؤية الحقّ ، وضعفت الأمّة وانكسرت شـــوكتها، وهَزُلت أمام أعدائها ، حتّى تداعت عليها أمم الكفـــر والضّـــلال فســـلبوا الدّيـــار ، وحازوا الأموال ، وجثموا على صدر الأمّة يذيقونها الويلات والنّكال .

ولقد صدق قول الرّسول ﷺ في حديث ثوبان رضي الله عنه : "يوشك الأمم أن تَدَاعَـــى عليكم كما تداعى الأكَلَة إلى قَصْعَتِها " . فقال قائل: ومن قلّة نحن يومئذ؟ قال: "بـــل أنتم يومئذ كثير، ولكنّكم غُثَاءٌ (٢) كغثاء السّيل ، ولَيَنْزَعَنَّ الله من صـــدور عدوكـــم المَهَابَة (٣) منكم ولَيَقْذِفَنَّ الله في قلوبكم الوَهْن" (٤)

---

(١) فتح الباري: ٧/٣٢٠ .

(٢) الغثاء : بالضمّ والمدّ ما يجيء فوق السّيل ممّا يحمله من الزّبد والوسخ وغيره . النّهاية في غريب الحديث:٣/٣٤٣.

زاد الخطّابي رحمه الله:" يشبّه به كلّ شيء رديء من النّاس وغيرهم " . غريب الحديث: ٣/٩٧.

(٣) المهابة : يقال هابه يهابه هيبة ومهابة إذا خافه وأجلّه .

انظر: مختار الصّحاح: ص: ٧٠٣ القاموس المحيط: ص: ١٨٥ــ١٨٦.

(٤) الوهْن: هو الضّعف . ويحرّك أيضاً . انظر :مختار الصّحاح :ص:٧٣٨. القاموس المحيط: ص:١٥٩٩.

فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: "حبّ الدّنيا وكراهية الموت" (١).

والدّنيا لا تترك كلّها ، ولا تهمل ، بل يستمتع بملاذها ونعمها بحيث لا يثلم دين المرء ، ولا يضر بآخرته لقوله تعالى : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص:٧٧] .

والاعتدال والتّوسط في كلّ ذلك هو الّذي يضمن للعبد السّلامة فيها ، والتّحرز من الوقوع في فتنها ، والانغماس في شهواتها ، ليبقى له دينه ، ويسلم من الزّيغ عنه .

وسأتناول أعظم فتن الدّنيا في ثلاثة مطالب :

قال العظيم آبادي:

" الوهن أي الضّعف ، وكأنّه أراد بالوهن ما يوجبه ، ولذلك فسّره بحبّ الدّنيا وكراهية الموت . قاله القاري. وما الوهن ؟ أي ما يوجبه وما سببه ؟ . قال الطّيبي (رحمه الله): سؤال عن نوع الوهن ، أو كأنّه أراد من أي وجه يكون ذلك الوهن ؟ قال : حبّ الدّنيا ، وكراهية الموت . وهما متلازمان ، فكأنّهما شيء واحد يدعوهم إلى إعطاء الدّنيا في الدّين من العدوّ المبين ونسأل الله العافية " . عون المعبود: ١١ / ٢٧٣.

(١) سنن أبي داود: بلفظه في : كتاب الملاحم: (٣٦). باب في تداعي الأمم على الإسلام: (٥). برقم: (٤٢٩٧). قال الألباني رحمه الله: " صحيح". ص:٤٦٩.

مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٢٧٨/٥. ونحوه في: ٣٥٩/٢.

مسند أبي داود الطّيالسي . لسليمان بن داود أبي داود الطّيالسي. طبعة دار المعرفة. بيروت : نحوه برقم: (٩٩٢). ص: ١٣٣.

قال شعيب الأرناؤوط عن إسناد الإمام أحمد في: ٢٧٨/٥ : " وسنده قوي ، فصحّ به " .

شرح السّنة . للحسين بن مسعود البغوي. طبعة المكتب الإسلامي . الطّبعة الأولى :١٣٩٠هـ ـ ١٩٧١م . تحقيق زهير الشاويش . شعيب الأرناؤوط :١٦/١٥ . ورقمه: (٤٢٢٤) . الهامش .

﴿ المطلب الأوّل ﴾

فتنة النِّساء

إنّ الله سبحانه حذّر من فتنة النّساء . وجعلهنّ من الشّهوات الّتي تفتن الرّجال. فقال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٤] .

قال الإمام القرطبي (رحمه الله):

"بدأ بهنّ لكثرة تشوّف النّفوس إليهنّ ، لأنّهنّ حبائل الشّيطان ، وفتنة الرّجال ... ففتنة النّساء أشدّ من جميع الأشياء" (١).

وقال الإمام ابن كثير (رحمه الله):

"يخبر تعالى عمّا زيّن للنّاس في هذه الحياة الدّنيا من أنواع الملاذ من النّساء والبنين. فبدأ بالنّساء لأنّ الفتنة بهنّ أشدّ " (٢).

وكذلك حذّر رسول الله ﷺ من الفتنة بهنّ لشدّة خطرها. فقال في حديث أسامة ابن زيد (رضي الله عنهما): "ما تركت بعدي فتنة أضرَّ على الرّجال من النّساء" (٣).

وفي هذا دلالة على أنّ الفتنة بالنّساء أشدّ من الفتنة بغيرهنّ . ولذلك جعلهنّ أضرّ شيء على الرّجال (٤) .

قال المباركفوري (رحمه الله):

"لأنّ الطّباع كثيراً تميل إليهنّ ، وتقع في الحرام لأجلهنّ، وتسعى للقتال والعداوة بسببهنّ، وأقلّ ذلك أن ترغّبه في الدّنيا. وأي فساد أضرّ من هذا " (٥) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٩/٤ .

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٥٢٦/١ . وانظر: فتح الباري: ١٧٢/١٠-١٧٣ .

(٣) سبق تخريجه . انظر : ص : ٢٢ .

(٤) انظر: فتح الباري: ١٧٢/١٠ .

(٥) تحفة الأحوذي: ٥٣/٨ .

ولهذا أمر ﷺ باتّقائهنّ خشية الهلاك بسبب فتنتهنّ كما هلك بنو إسرائيل لمّا فتنوا بهنّ . فقال في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : "إنّ الدّنيا حلوة خضرة، وإنّ الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتّقوا الدّنيا واتّقوا النّساء فإنّ أوّل فتنة بني إسرائيل كانت في النّساء" (١) .

قال الإمام النّووي (رحمه الله):

" فاتّقوا الدّنيا: ومعناه تجنّبوا الافتتان بها وبالنّساء . وتدخل في النّساء الزّوجات وغيرهنّ ، وأكثرهنّ فتنة الزّوجات، ودوام فتنتهنّ ، وابتلاء أكثر النّاس بهنّ " (٢).

ويؤيّد ذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن:١٤] .

ولمّا كانت الفتنة بهنّ عظيمة أحاطهنّ الشّارع الحكيم بجملة من الأحكام الشّرعيّة حتّى تنكفّ فتنتهنّ ، ويقلّ الشّر بهنّ .

من ذلك :

١- أمرهنّ بالقرار في البيوت ، وعدم الخروج منها إلاّ لضرورة أو حاجة . وإذا خرجنّ لحاجتهنّ فلا يتبرجنّ (٣) .

فقال سبحانه: ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

قال مجاهد(رحمه الله):

"كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرّجال، فذلك تبرّج الجاهليّة" .

---

(١) سبق تخريجه . ص : ٩٩ .

(٢) شرح النّووي على مسلم: ١٧/٥٥ .

(٣) يتبرّجنّ: من تبرّجت المرأة : إذا أظهرت زينتها ومحاسنها للرّجال .
انظر: مختار الصّحاح: ص: ٤٦. القاموس المحيط: ص:٢٣١.

وقال قتادة (رحمه الله):

"إذا خرجتنّ من بيوتكنّ ، وكانت لهنّ مشية وتكسّر وتَغَنُّج .[1] فنهى الله تعالى عن ذلك" [2].

قال القرطبي (رحمه الله):

" وأنّ المقصود من الآية مخالفة من قبلهنّ من المشية على تغنيج وتكسير وإظهار المحاسن للرّجال ، إلى غير ذلك ممّا لا يجوز شرعاً . وذلك يشمل الأقوال كلّها ويعمّها ، فيلزمن البيوت ، فإن مسّت الحاجة إلى الخروج فليكن على تبذّل وتستّر تام" [3].

ويؤيده حديث أبي هريرة ﷺ أنّ النّبي ﷺ قال: "لا تمنعوا إماء الله مساجد الله . وليَخْرُجْنَ تَفِلات" [4].

---

(1) يقال غَنِجَت الجارية وتَغَنَّجَت فهي مِغْناج وغَنِجَة : إذا تكسَّرت وتدلَّلت .من الغُنْج الّذي هو التّكسّر والتدلّل .
انظر: لسان العرب: ٣٣٨/٢ . النّهاية في غريب الحديث: ٣٨٩/٣.

(2) تفسير القرآن العظيم: ٧٦٨/٣ .

(3) الجامع لأحكام القرآن: ١٨٠/١٤. التّبَذُّلُ : ترك التزيُّن والتّهيُّء بالهيئة الحسَنة الجميلة على جِهة التواضع .
النّهاية في غريب الحديث : ١١١/١ . لسان العرب : ٥٠/١١ .

(4) تفلات :من التَّفل وهو الرّيح الكريهة . والمراد يخرجنّ غير متطيّبات .
انظر: النّهاية في غريب الحديث: ١٩١/١. وانظر: غريب الحديث للهروي: ٢٦٤/١ـ٢٦٥. غريب الحديث لابن قتيبة: ٩٤/٢. الفائق: ١٥١/١.
والحديث في:
سنن أبي داود: بلفظ مقارب في: كتاب الصّلاة: (٢). باب ما جاء في خروج النّساء إلى المسجد: (٥٢). برقم: (٥٦٥). قال الألباني رحمه الله: "حسن صحيح". ص:٨٥.
سنن الدّارمي: بلفظ مقارب في: باب النّهي عن منع النّساء عن المساجد وكيف يخرجنّ إذا خرجنّ . برقم: (١٢٧٩). ٣٣٠/١.
مسند أحمد: بلفظه في : ٤٧٥،٤٣٨/٢.عن أبي هريرة ﷺ . وفي :٦٩/٦-٧٠ . عن عائشة (رضي الله عنها) . وزادت: "ولو رأى حالهنّ اليوم منعهنّ ".
و بلفظ مقارب في: ٥٢٨/٢.عن أبي هريرة ﷺ . وفي : ١٩٣،١٩٢/٥. عن زيد بن خالد الجهني ﷺ . قال أحمد شاكر رحمه الله: " إسناده صحيح ". (رواية أبي هريرة الأولى) . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٩٠/١٨. برقم: (٩٦٤٣).

وقال ﷺ : " المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان " (١) .

٢- أمرهنّ بالحجاب ، وستر جميع أجسادهنّ ، وعدم كشف شيء منها للأجانب .

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأحزاب:٥٩] .

قال القرطبي (رحمه الله):

" الجلابيب جمع جلباب، وهو ثوب أكبر من الخمار، وروي عن ابن عبّاس وابن مسعود أنّه الرّداء . وقد قيل: إنّه القناع . والصّحيح أنّه الثّوب الّذي يستر جميع البدن ... أمر الله سبحانه جميع النّساء بالستر، وأنّ ذلك لا يكون إلاّ بما لا يصف جلدها " (٢) .

وقال الشّيخ محمد الأمين الشّنقيطي (رحمه الله):

" ومن الأدلّة القرآنية على احتجاب المرأة وسترها جميع بدنها حتّى وجهها . قوله تعالى ــ فذكر الآية ــ فقد قال غير واحد من أهل العلم . أنّ معنى

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بلفظه في : باب ذكر الزّجر عن منع النّساء عن إتيان المساجد للصّلاة. برقم: (٢٢١١).عن زيد بن خالد الجهني ﷺ. ٥/٥٨٩. وفي باب ذكر وصف خروج المرأة الّتي أبيح لها شهود العشاء في الجماعة. برقم: (٢٢١٤). عن أبي هريرة ﷺ . ٥/٥٩٢.

قال شعيب الأرناؤوط: "إسناده حسن". لكلا الطّريقين.

وأصل الحديث في صحيح مسلم عن ابن عمر (رضي الله عنهما) . في : كتاب الصّلاة: (٤). باب خروج النّساء إلى المساجد إذا لم يترتّب عليه فتنة ، وأنّها لا تخرج مطيّبة: (٣٠). برقم: (٤٤٢). ١/٣٢٧.

(١) سنن التّرمذي: بلفظه في : كتاب الرّضاع: (٩). باب (١٨). برقم: (١١٧٣). عن عبد الله بن مسعود ﷺ . وقال: "هذا حديث حسن صحيح". وقال الألباني رحمه الله: " صحيح". ص: ٢٠٨.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بلفظ مقارب مع زيادة فيه. في: باب ذكر الإخبار عمّا يجب على المرأة من لزوم قعر بيتها . وله عنده طريقان : الأوّل برقم: (٥٥٩٨). والثّاني برقم: (٥٥٩٩). قال شعيب الأرناؤوط: عن الأوّل: "رجاله ثقات رجال الصّحيح لكنّه منقطع". وعن الثّاني: "إسناده صحيح على شرط مسلم". ١٢/٤١٢-٤١٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٤/٢٤٣ .

﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب:٥٩] . أنّهن يسترن بها جميع وجوههنّ . ولا يظهر منهنّ شيء إلاّ عين واحدة تبصر بها " (١) .

٣- حرّم عليهنّ الخلوة بالأجانب ، والسّفر إلاّ مع ذي محرم .

عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) قال: سمعت النّبي ﷺ يخطب يقول: " لا يخلونّ رجل بامرأة إلاّ ومعها ذو محرم . ولا تسافر المرأة إلاّ مع ذي محرم" فقام رجل فقال: يا رسول الله إنّ امرأتي خرجت حاجّة ، وإنّي اكْتُتِبْتُ في غزوة كذا وكذا قال: " انطلق فحجّ مع امرأتك " (٢) .

وعن جابر ﷺ أنّ النّبي ﷺ قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلونّ بامرأة ليس معها ذو محرم منها . فإنّ ثالثهما الشّيطان" (٣).

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن . للشّيخ محمّد الأمين بن محمّد المختار الجكني الشّنقيطي . الطّبعة الثّانية ١٤٠٠-١٩٧٩م . طبعة ابن لادن: ٥٨٦/٦ .

والأدلّة على وجوب الحجاب وستر جميع الجسد بما فيه الوجه والكفّان كثيرة جدّاً . أورد الشّيخ صالح بن إبراهيم البليهي اثنين وأربعين دليلاً . منها أربع آيات وثلاثون حديثاً والبقية من الآثار .

انظر: يا فتاة الإسلام اقرئي حتّى لا تخدعي . دار المسلم ـ الرّياض . الطّبعة الثّالثة : ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م ص: ١٧٩-٢٥٣ .

(٢) صحيح البخاري: نحوه في: كتاب الحجّ: (٢٨/٨). باب حجّ النّساء: (١٠٨/٢٦). برقم: (١٨٦٢). ص: ٣٨٨. وفي كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/٣٢). باب من اكتتب في جيش فخرجت امرأته حاجّة وكان له عذر هل يؤذن له: (١٤٠/١٣٩). برقم: (٣٠٠٦). ص:٦٣٢.وفي باب كتابة الإمام للنّاس: (١٨١/١٨٠). برقم: (٣٠٦١). ص:٦٤٥. وفي كتاب النّكاح: (٦٧/٤١). باب لا يخلون رجل بامرأة إلاّ وذو محرم ، والدّخول على المغيبة: (١١١/١١٢). برقم: (٥٢٣٣). ص: ١١٥٠.

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الحجّ: (١٥). باب سفر المرأة مع محرم إلى حجّ وغيره: (٧٤). برقم: (١٣٤١). ٩٧٨/٢.

(٣) مسند أحمد: بلفظه ـ جزء من حديث ـ في : ٣٣٩/٣. وأصله مروي عن جماعة. انظر:

سنن التّرمذي: كتاب الأدب : (٤٠). باب ما جاء في دخول الحمام: (٤٣). برقم: (٢٨٠١).

وقال: " هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث طاووس عن جابر إلاّ من هذا الوجه".و قال الألباني رحمه الله: "حسن". ص: ٤٤٩.

سنن النّسائي لأبي عبد الرّحمن أحمد بن شعيب النّسائي . طبعة بيت الأفكار الدّوليّة. ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م : كتاب الغسل والتيمّم: (٤). باب الرّخصة في دخول الحمام: (٢). برقم: (٤٠١). قال الألباني رحمه الله: " صحيح". ص:٥٨.

وعن عقبة بن عامر ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: " إيّاكم والدّخول على النّساء " فقال رجل من الأنصار: يارسول الله. أفرأيت الحَمُو[1]؟ قال: " الحمو الموت " [2].

٤- حرّم عليهنّ الاختلاط بالرّجال .

عن أبي أُسَيْد الأنصاري ﷺ أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو خارج من المسجد . فاختلط الرّجال مع النّساء في الطّريق . فقال رسول الله ﷺ للنّساء: "استأخِرْنَ فإنّه ليس لكنّ أن تحقُقْنَ الطّريق ، عليكنّ بحافّات الطّريق" . فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتّى إنّ ثوبها ليتعلّق بالجدار من لصوقها به [3] .

مستدرك الحاكم: ٣٢٠/٤. وقال: " هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه". وقال الذّهبي رحمه الله: " على شرط مسلم".

وله شاهد من حديث عمر ﷺ . في:

سنن التّرمذي: كتاب الفتن : (٣٠). باب ما جاء في لزوم الجماعة: (٧). برقم: (٢١٦٥).

وقال : "هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه... وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن عمر عن النّبي ﷺ ". و قال الألباني رحمه الله: " صحيح". ص:٣٦٠.

مسند أحمد: ١٨/١. قال أحمد شاكر رحمه الله: " إسناده صحيح ". مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٢٠٤/١-٢٠٥. برقم: (١١٤).

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: برقم: (٤٥٧٦). قال شعيب الأرناؤوط عن رجاله: " ثقات من رجال الصّحيح". ٤٣٦/١٠. و برقم: (٦٧٢٨). قال : " صحيح". ١٢٢/١٥. و برقم: (٧٢٥٤). قال : " إسناده صحيح على شرط الشّيخين". ٢٣٩/١٦.

(١) الحَمُو: أحد الأحماء وهم أقارب الزّوج ، والمعنى أنّ خلوّ الحمو بالمرأة كوقوع الموت ، لما يترتّب على ذلك من الفساد ، فيجب الحذر منه .

انظر: غريب الحديث للهروي: ٣٥٣/٣-٣٥٤. غريب الحديث للخطّابي: ٧١/٢. الفائق:٣١٨/١. النّهاية في غريب الحديث: ٤٤٨/١.

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب النّكاح: (٦٧/٤١). باب لا يخلونّ رجل بامرأة إلاّ ذو محرم ، والدّخول على المغيبة: (١١١/١١٢). برقم: (٥٢٣٢). ص: ١١٤٩.

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب السّلام: (٣٩). باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدّخول عليها : (٨). برقم: (٢١٧٢). ١٧١١/٤.

(٣) سنن أبي داود: بلفظه في : كتاب الأدب: (٤٠). باب في مشي النّساء مع الرّجال في الطّريق: (١٦٧-١٦٨). برقم: (٥٢٧٢). قال الألباني رحمه الله: " حسن". ص: ٥٦٥.

قال أبو داود في سننه:

" باب في اعتزال النّساء في المساجد عن الرّجال"

ثمّ ساق بسنده حديث ابن عمرﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : " لو تركنا هذا الباب للنّساء" .

قال *نافع (رحمه الله)* [1] : " فلم يدخل منه ابن عمر حتّى مات " [2] .

ثمّ قال في سننه: "باب انصراف النّساء قبل الرّجال من الصّلاة " .

ثمّ ساق بسنده حديث أمّ سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلّم مكث قليلاً . وكانوا يرون أنّ ذلك كيما ينفذ النّساء قبل الرّجال" [3].

---

(1) هو نافع مولى ابن عمر (رضي الله عنهما) أبو عبد الله المدني ، قيل: اسم أبيه هرمز وقيل: كاوس . من أئمّة التّابعين في المدينة، إمام في العلم ، ثقة ثبت في الحديث .

قال الإمام مالك بن أنس (رحمه الله): "كنت إذا سمعت حديث نافع عن ابن عمر لا أبالي أن أسمع من غيره " . مات سنة ١١٧هـ أو بعدها .

وانظر: التّاريخ الكبير: ٨٤/٨ . معرفة الثّقات: ٣١٠/٢ . ثقات ابن حبّان: ٤٦٧/٥. تهذيب الكمال: ٢٩٨/٢٩. تذكرة الحفّاظ: ٩٩/١. الكاشف: ٣١٥/٢. تهذيب التّهذيب: ٣٦٨/١٠. تقريب التّهذيب: ٥٥٩/١.

(2) سنن أبي داود: بلفظه في : كتاب الصّلاة: (٢). باب في اعتزال النّساء في المساجد عن الرّجال: (١٧). برقم: (٤٦٢). قال الألباني رحمه الله: " صحيح". ص:٧٤. وفي باب التّشديد في ذلك – أي خروج النّساء إلى المسجد : (٥٣). برقم: (٥٧١). قال الألباني رحمه الله: " صحيح". ص: ٨٥.

مسند أبي داود الطّيالسي: ولفظه: عن ابن عمر (رضي الله عنهما) . أنّ رسول الله ﷺ لمّا بنى المسجد جعل باباً للنّساء وقال: "لا يلجنّ من هذا الباب من الرّجال أحد".

قال نافع: " فما رأيت ابن عمر داخلاً من ذلك الباب ولا خارجاً منه". برقم: (١٨٢٩). ص: ٢٥١.

وهو أقوى في الدّلالة لاشتماله على النّهي الصّريح.

(3) سنن أبي داود: بلفظه في : كتاب الصّلاة: (٢). باب انصراف النّساء قبل الرّجال من الصّلاة: (١٩٦-١٩٧). برقم: (١٠٤٠). قال الألباني رحمه الله: " صحيح". ص: ١٣٠.

والحديث في : صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الصّلاة (الأذان) : (٥/١٠). باب التّسليم: (٣٠٣/١٥٢). برقم: (٨٣٧). ص: ١٨٣. وفي باب مكث الإمام في مصلاه بعد السّلام: (٣٠٨/١٥٧). برقم: (٨٤٩). و برقم: (٨٥٠). ص: ١٨٥-١٨٦. وفي باب صلاة النّساء خلف الرّجال: (٣١٥/١٦٤). برقم: (٨٧٠).ص: ١٨٩-١٩٠. ونحوه في باب انتظار النّاس قيام الإمام العالم: (٣١٤/١٦٣). برقم: (٨٦٦). ص: ١٨٩.

والمرأة كلّما تباعدت عن الرّجال فهو خير لها . لقوله ﷺ في حديث أبي هريرة ﷺ : "خير صفوف الرّجال أوّلها . وشرّها آخرها . وخير صفوف النّساء آخرها وشرّها أوّلها" [١] .

قال الإمام النّووي (رحمه الله):

"وإنّما فضّل آخر صفوف النّساء الحاضرات مع الرّجال لبعدهنّ من مخالطة الرّجال ورؤيتهم ، وتعلّق القلب بهم عند رؤية حركاتهم ، وسماع كلامهم ، ونحو ذلك . وذمّ أوّل صفوفهنّ لعكس ذلك والله أعلم" [٢] .

لقد شرع الإسلام هذه الأحكام للحفاظ على النّساء ، وصيانتهنّ من أن يَفْتِنَّ أو يُفْتَنَّ. فأقرهنّ في البيوت ليقمن بوظائفهنّ الأساسيّة من تدبير المنزل ، وتربية الأطفال ، لينشئن مجتمعاً صالحاً خالياً من الانحلال والتّفكك . ولا يخرجنّ إلاّ لضرورة أو حاجة تستدعي خروجهنّ . وإذا خرجن خرجن محتجبات محتشمات بعيدات عن السّفور والتّبرّج والتّهتّك ، لا يزاحمن الرّجال ولا يختلطن معهم .

ولكنّ النّساء لم يلتفتن إلى هذه الأحكام ــ إلاّ من رحم الله ــ وخاصّة في هذا العصر . فقد خرجن لابسات من الثّياب مارقّ وشفَّ، باديات لوجوههنّ بل وشعورهنّ وأعناقهنّ وأرجلهنّ بل وسوقهن . وضعن الأصباغ والمساحيق على وجوههنّ وأكفهنّ إثارة للفتنة، وأعلين من شعور رءوسهنّ إلغاء للفضيلة ، ودعوة للرّذيلة .

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "صنفان من أهل النّار لم أرهما ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها النّاس، ونساء كاسيات عاريات

---

(١) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الصّلاة: (٤). باب تسوية الصّفوف وإقامتها ، وفضل الأوّل فالأوّل منها ، والازدحام على الصّف الأوّل ، والمسابقة إليها ، وتقديم أولي الفضل وتقريبهم من الإمام: (٢٨). برقم: (٤٤٠). ٣٢٦/١.

والمراد بالحديث صفوف النّساء اللّواتي يصلّين مع الرّجال ، وأمّا إذا صلّين متميّزات ، بعيدات عن الرّجال فهنّ كالرّجال ، خير صفوفهنّ أوّلها وشرّها آخرها . شرح النّووي على مسلم: ١٥٩/٤

(٢) المرجع السّابق: ١٥٩/٤-١٦٠ . وأنظر: يا فتاة الإسلام اقرئي: ص: ٨٧ .

مميلات مائلات . رءوسهنّ كأسنمة البُخْت [1] المائلة ، لا يدخلن الجنّة ، ولا يجدن ريحها ، وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا" [2] .

فهنّ كاسيات في الاسم عاريات في الحقيقة ، لأنّهنّ يلبسن ثياباً رقيقة تشفّ عمّا تحتها، أو ثياباً قصيرة لا تستر معظم جسدها. يمشين مائلات متبخترات كمشية البغايا اللائي يردن إغواء الرّجال. يرفعن شعورهنّ ويكوّرنها إلى أعلى فتشبه أسنمة البخت المائلة[3]. إنّه وصف دقيق لنساء هذا الزّمن .

وقد زاحمن الرّجال في ميادين عملهم ، واقتحمن مجالات أعمالٍ لم يخلقن لها، وخالطنهم في المدرسة والجامعة والمصنع والمكتب والشّارع .

قال ابن القيّم (رحمه الله):

"ولا ريب أنّ تمكين النّساء من اختلاطهنّ بالرّجال أصل كلّ بليّة وشرّ ، وهو من أعظم أسباب نزول العقوبات العامّة، كما أنّه من أسباب فساد أمور العامّة والخاصّة .

واختلاط الرّجال بالنّساء سبب لكثرة الفواحش والزّنا ، وهو من أسباب الموت العام والطّواعين المتّصلة ... فمن أعظم أسباب الموت العام كثرة الزّنا بسبب تمكين النّساء من اختلاطهنّ بالرّجال ، والمشي بينهم متبرّجات متجمّلات . ولو علم أولياء

---

(1) قال ابن منظور (رحمه الله) :

" البُخْت و البُخْتِيَّة: دَخِيل في العربيّة ، أعجمي مُعَرَّبٌ . وهي الإبل الخُراسانيَّة ، تُنْتَجُ من بين عربيّةٍ وفالِجٍ ــ جمل ضخم ذو سنامين ــ ؛ وبعضهم يقول : إنّ البُخْتَ عَرَبِي... وهي جِمالٌ طِوالُ الأعْناق . ويُجْمَع على بُختٍ وبَخَاتٍ ؛ وقيل : الجمع بَخاتِيُّ ، غير مصروف " .

لسان العرب: ٢ / ٩.

(2) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب اللّباس والزّينة: (٣٧). باب النّساء الكاسيات العاريات المميلات المائلات: (٣٤). برقم: (٢١٢٨). ٣/١٦٨٠. وفي كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها : (٥١). باب النّار يدخلها الجبّارون والجنّة يدخلها الضّعفاء: (١٣). برقم: (٢١٢٨). ٤/٢١٩٢-٢١٩٣.

(3) انظر: إتحاف أهل الإيمان بما يعصم من فتن هذا الزّمان ، لعبد الله بن جار الله ــ مطابع ابن تيمية بالقاهرة ــ نشر دار الصّميعي ، ص : ٤٦ . ولبيان معنى الحديث انظر: شرح النّووي على مسلم: ١٤/١١٠، ١٧/١٩٠-١٩١ الجامع لأحكام القرآن: ١٢/٣١٠ .

الأمر ما في ذلك من فساد الدّنيا والرّعيّة ــ قبل الدّين ــ لكانوا أشدّ شـــيء منعـاً لذلك " [١] .

بل سلكن من السّبل المحرّمة ما يعجز الإنسان عن وصفه . فمنـــهنّ المذيعــة الّتي أبدت مفاتنها من خلال شاشة التّلفاز ليراها القاصي والداني . ومنهنّ الممثّلــة الّتي تجوب دور السّينما والمسرح ذاهبة وآيبة . ومنهنّ الرّاقصة الّتي تتمايل أمــام الأعين الشّرهة . ومنهنّ المغنيّة الّتي تفسد بصوتها القلوب . بل ومنـــهنّ عارضــة الأزياء الّتي ملئت بصورها العارية المجلات الخليعة .

بل أصبحت المرأة سلعة يستخدمها أصحاب المؤسّسات والدّعايـــات ترويجـاً لتجاراتهم وبضاعاتهم مقابل أجر زهيد يقدّم لها .

فقد انحطّت المرأة من منزلتها الّتي وضعها الله فيها عزيزة مكرّمة ، مصونــة مطهّرة ، وأعطيت من الحقوق مالا يمكن حصرها ولا تعدادها، ولا توجد في أرقـى قوانين الأمم المتمدّنة. ولكنّها أبت كلّ ذلك بدعوى التّحرّر ، وتحطيم القيود ، وهضم الحقوق الّتي يلهج بها دعاة الشّر والمجون . فعادت سلعة رخيصة كلفت من العمــل مالا تُطيق ، مماثلة للمرأة الكافرة في ديار الغرب ، بل رجعت إلـى الـوراء أيّـام محنتها واحتقارها في عصور الجاهليّة المظلمة .

فالفتنة بالنّساء عظيمة، والشّر بهنّ جسيم .

(١) الطّرق الحكمية في السّياسة الشّرعيّة . لمحمّد بن أبي بكر ابن قيّم الجوزيّة. مطبعة المدني . القاهرة. تحقيــق محمّــد جميل غازي . ص: ٤٠٧-٤٠٨ .

﴿ المطلب الثّاني ﴾

فتنة المال

قال تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنفال:٢٨] .

وقال: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ ﴾ [التغابن:١٥].

قال ابن جرير (رحمه الله):

" يقول تعالى ذكره للمؤمنين: واعلموا أيّها المؤمنون أنّما أموالكم الّتي خوّلكموها الله ، وأولادكم الّتي وهبها الله لكم اختبار وبلاء ، أعطاكموها ليختبركم بها ويبتليكم ، لينظر كيف أنتم عاملون من أداء حقّ الله عليكم فيها ، والانتهاء إلى أمره ونهيه فيها .

"وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ" يقول: واعلموا أنّ الله عنده خير وثوّاب عظيم على طاعتكم إيّاه فيما أمركم ونهاكم في أموالكم وأولادكم الّتي اختبركم بها في الدّنيا . وأطيعوا الله فيما كلّفكم فيها تنالوا به الجزيل من ثوّابه في معادكم ".

ثمّ روى عن ابن مسعود ﷺ أنّه قال: "ما منكم من أحد إلاّ وهو مشتمل على فتنة . فمن استعاذ منكم فليستعذ بالله من مضلاّت الفتن" (١) .

لقد بيّن الله سبحانه أنّ المال والأولاد فتنة يختبر بهما الإنسان ، ويبتلى بهما. فإمّا أن يعمل فيهما بطاعة الله فيسلم ، وإمّا أن يعمل فيهما بمعصية الله فيهلك .

والمال أشدّ فتنة وأعظم ، خاصة على هذه الأمّة . ولذلك قال رسول الله ﷺ في حديث كعب بن عياض ﷺ : "إنّ لكل أمّة فتنة، وفتنة أمّتي المال" (٢) .

---

(١) جامع البيان: ١٣/٤٨٦-٤٨٧ . طبعة شاكر . ٢٨/١٢٦ طبعة الحلبي . وانظر في معنى الآيتين: الكشّاف: ٢/١٢٣ طبعة المكتبة التّجاريّة . التّفسير الكبير: ٣٠/٢٧ محاسن التّأويل: ٨/٢٩٨٠، ١٦/٥٨٢٥ .

(٢) سنن التّرمذي:بلفظه في : كتاب الزّهد: (٣٣). باب ما جاء أنّ فتنة هذه الأمّة في المال: (٢٦).برقم: (٢٣٣٦). وقال: " هذا حديث حسن صحيح غريب". و قال الألباني رحمه الله: " صحيح". ص: ٣٨٥. وهو في السّلسلة

أي اللّهو به ، لأنّه يشغل البال عن القيام بالطّاعة وينسي الآخرة. (١)

وحذّر من فتنته أصحابه ﷺ أيّما تحذير. فقال في حديث عمرو بن عوف ﷺ : " فو الله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكنّي أخشى عليكم أن تُبسَط الدّنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم . فتَنَافَسُوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم" (٢) .

وقال في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما): "إذا فتحت عليكم فارس والرّوم أيُّ قوم أنتم؟ قال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله . قال رسول الله ﷺ : " أو غير ذلك . تتنافسون ، ثمّ تتحاسدون ، ثمّ تتدابرون ، ثمّ تتباغضون ــ أو نحو ذلك ــ ثمّ تنطلقون في مساكين المهاجرين فتجعلون بعضهم على رقاب بعض " (٣).

فقد أبان ﷺ أنّ فتنة المال تولّد الشّقاق والخصام بين النّاس، فيتقاطعون من أجله ، ويتحاسدون ، ويتباغضون ، بل ويتقاتلون ، ومن أجله يهلكون.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "تقيءُ الأرض أفلاذ كبدها، أمثال الأسطوان من الذّهب والفضّة ، فيجئ القاتل فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجئ السّارق فيقول: في هذا قطعت يدي .

الصّحيحة وشيء من فقهها وفوائدها . لمحمّد ناصر الدّين الألباني . طبعة المكتب الإسلامي . بيروت . الطّبعة الرّابعة : ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م : ١٤١/٢ . برقم: (٥٩٢).

مسند أحمد:بلفظه ــ إلا إنّه قال : " وإن فتنة أمتي " ــ في : ١٦٠/٤ .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بلفظ مقارب في: باب ذكر تخوّف المصطفى ﷺ على أمّته من التّكاثر في الأموال والتّعمّد في الأقوال . برقم: (٣٢٢٣). قال شعيب الأرناؤوط: " إسناده قوي". ١٧/٨.

مستدرك الحاكم: بلفظه ــ إلاّ إنّه قال: "وإنّ فتنة أمّتي "ــ في : ٣٥٤/٤. وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه". و قال الذّهبي رحمه الله : " صحيح".

(١) تحفة الأحوذي: ٥١٨/٦.

(٢) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الجزية والموادعة: (٣٤/٥٨). باب وما جاء في أخذ الجزية من اليهود والنّصارى والمجوس والعجم . برقم: (٣١٥٨). ص: ٦٦٧.

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الزّهد والرّقاق: (٥٣) . برقم: (٢٩٦١): ٢٢٧٤/٤ . (وهو جزء من حديث).

(٣) المرجع السّابق : بلفظه في: كتاب الزّهد والرّقاق: (٥٣). برقم (٢٩٦٢): ٢٢٧٤/٤-٢٢٧٥ .

ثمّ يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً " (١) . وفي رواية: "وتقيء الأرض أفلاذ كبدها من الذّهب والفضّة، ولا ينتفع بها بعد ذلك اليوم . يمرُّ بها الرّجل فيضربها برجله، ويقول: في هذه كان يقتتل من كان قبلنا، وأصبحت اليوم لا ينتفع بها" (٢) .

والنّفس البشريّة مجبولة على حبّ المال ، والسّعي في طلبه بكلّ وجه . وأنّها لا تشبع منه ، إلاّ من عصمها الله تعالى .

قال تعالى: ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر:٢٠]. أي كثيراً فاحشاً(٣).

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ﴾[العاديات٦-٨] . والخير هو المال (٤) .

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "لو كان لابن آدم واديان من مال لا بتغى وادياً ثالثاً . ولا يملأ جوف ابن آدم إلاّ التّراب، ويتوب الله على من تاب " (٥). وعنه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "يهرم ابن آدم وتَشِبّ منه اثنتان: الحرص على المال والحرص على العمر" (٦) .

---

(١) المرجع السّابق : بلفظه في: كتاب الزّكاة: (١٢). باب التّرغيب في الصّدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها: (١٨) . برقم : (١٠١٣) . ٧٠١/٢ .

(٢) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بلفظه ــ وهو جزء من حديث ــ في باب ذكر الإخبار عن وصف الرّيح الّتي تجيء تقبض أرواح النّاس في آخر الزّمان. برقم: (٦٨٥٣). ٢٦٧/١٥ .

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم: ٨٠٥/٤ .

(٤) انظر: المرجع السّابق : ٨٦١/٤ . والكنود هو الكفور الجحود: انظر: المرجع السّابق ٨٦٠/٤ .

(٥) صحيح البخاري: بلفظه : ــ إلاّ إنّه قال:"لابتغى ثالثاً"ــ في: كتاب الرّقاق: (٥٥/٨١). باب ما يتّقى من فتنة المال: (١٠). برقم: (٦٤٣٦). ص:١٣٧٠. عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) . ونحوه عنه برقم: (٦٤٣٧). ص:١٣٧١.

صحيح مسلم: بلفظه عن أنس ﷺ في: كتاب الزّكاة: (١٢). باب لو أنّ لابن آدم واديين لا بتغى ثالثاً: (٣٩) . برقم (١٠٤٨): ٧٢٥/٢ . ونحوه عنه بالرقم السّابق. وعن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) . برقم: (١٠٤٩) .

(٦) صحيح البخاري: نحوه في كتاب الرّقاق : (٥٥/٨١). باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر لقوله: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ [فاطر:٣٧]: (٥). برقم: (٦٤٢٠). ص: ١٣٦٨. وبمعناه عن أبي هريرة ﷺ بنفس الرّقم والصّفحة.

والمال لا يمدح نيله بإطلاق ، كما لا يذمّ بإطلاق . فمن أخذه بوجـــه طيّـب حلال لا ظلم فيه ولا عدوان ، وناله بطريق مشروع بعيداً عن الحرام ، ولم يغتر به ويبالغ في استقصائه ونيله ، وصرفه في أوجهه المشروعة ، وأعطى حقّ الله فيـــه، واستعان به على ما ينفعه في دنياه وآخرته ، ولم يشغله عن طاعة الله والقيام بـأمور دينه . وكان كما قال الله تعالى:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النور٣٦-٣٨] . وقـــال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [المنافقون:٩]

وتوسّل به إلى فعل القربات ، وأعان به المحتاجين ، ولم يسرف في إنفاقه ولم يقتر، وإنّما كان عدلاً وسطاً . كما قال سبحانه:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان:٦٧].

فهذا الصنف من النّاس الّذين لم يفتنهم المال، ولو ملكوا منه ما ملكوا .

وفي حديث أبي ذر ﷺ أنّ ناساً من أصحاب النّبي ﷺ قالوا للنّبي ﷺ : "يـــا رسول الله ذهب أهل الدّثور [(١)] بالأجور ، يصلّون كما نصلّي ، ويصومون كما

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الزّكاة: (١٢). باب كراهة الحـرص علـى الدّنيـا: (٣٨) برقـم (١٠٤٧) . ٧٢٤/٢ . ونحوه عن أبي هريرة ﷺ . برقم: (١٠٤٦).

(١) الدُّثور : جمع دَثْر وهو المال الكثير. انظر: غريب الحديث للهروي: ٤٦٠/٤. الفائق: ٤١١/١. النّهاية في غريب الحديث: ١٠٠/٢.

نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم..."الحديث [١] .

فقد غبط الصّحابة إخوانهم أصحاب الأموال لمّا رأوا ما يقومون به من طاعة الله في أموالهم ، الّتي لم تلفتهم كثرتها عن اتّباع أمر الله فيها .

بل دعا رسول الله ﷺ لأنس بن مالك ﷺ بأن يكثّر الله ماله وولده. [٢] فلو كان التّكثير من ذلك شرّاً محضاً لما دعا له .

قال أنس ﷺ : " فما ترك خير آخرة ولا دنيا إلاّ دعا لي به: قال : "اللّهم ارزقه مالاً وولداً ، وبارك له فيه " فإنّي لمن أكثر الأنصار مالاً . وحدثتني ابنتي أُمَيْنَة [٣] أنّه دفن لصلبي مقدم الحجّاج[٤] البصرة بضع وعشرون ومائة" [٥] .

---

(١) صحيح البخاري: نحوه في كتاب الصّلاة (الأذان) : (١٠/٥). باب الذّكر بعد الصّلاة: (١٥٥/٣٠٦). برقم: (٨٤٣). ص:١٨٤. وفي كتاب الدّعوات: (٨٠/٥٤). باب الدّعاء بعد الصّلاة: (١٨). برقم: (٦٣٢٩). ص: ١٣٥٠-١٣٥١.عن أبي هريرة ﷺ . وهو جزء من حديث.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الزّكاة: (١٢). باب بيان إنّ اسم الصّدقة يقع على كلّ نوع من المعروف: (١٦) . برقم: (١٠٠٦): ٦٩٧/٢ . ونحوه في كتاب المساجد ومواضع الصّلاة: (٥). باب استحباب الذّكر بعد الصّلاة وبيان صفته: (٢٦). برقم: (٥٩٥). ٤١٦/١. وفي ٤١٧/١ . عن أبي هريرة ﷺ . وهو جزء من حديث .

(٢) انظر: صحيح البخاري: كتاب الصّوم: (٣٠/٩). باب من زار قوماً فلم يفطر عندهم: (٦١). برقم: (١٩٨٢). ص: ٤١٣-٤١٤. وفي كتاب الدّعوات: (٨٠/٥٤). باب قول الله تعالى : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة:١٠٣]. ومن خصّ أخاه بالدّعاء دون نفسه: (١٩). برقم: (٦٣٣٤). ص:١٣٥٢. وفي باب دعوة النّبي ﷺ لخادمه بطول العمر وبكثرة ماله: (٢٦). برقم: (٦٣٤٤). ص: ١٣٥٣. وفي باب الدّعاء بكثرة المال مع البركة: (٤٧). برقم: (٦٣٧٨)(٦٣٨٠) (٦٣٨١). ص: ١٣٥٩_١٣٦٠.

صحيح مسلم: في كتاب المساجد ومواضع الصّلاة: (٥). باب جواز الجماعة في النّافلة ، والصّلاة على حصير وخمرة وثوب وغيرها من الطّاهرات: (٤٨). برقم: (٦٦٠). ٤٥٧/١-٤٥٨. . وفي كتاب فضائل الصّحابة: (٤٤). باب فضائل أنس بن مالك ﷺ : (٣٢). برقم: (٢٤٨٠) (٢٤٨١). ١٩٢٨/٤-١٩٢٩.

(٣) أُمَيْنَة: هي بنت أنس بن مالك الأنصاريّة، روى عنها أبوها. مقبولة الحديث .
انظر: تهذيب الكمال: ١٣٢/٣٥ . الكاشف: ٥٠٣/٢ . تهذيب التّهذيب: ٤٣٠/١٢ . تقريب التّهذيب: ٧٤٣/١ .

(٤) حجّاج: هو ابن يوسف الثّقفي . سبقت ترجمته . انظر : ص : ٧٧ .

(٥) صحيح البخاري: بلفظه ــ مع زيادة في أوّله ــ في كتاب الصّوم: (٣٠/٩). باب من زار قوماً فلم يفطر عندهم: (٦١).برقم: (١٩٨٢) .ص: ٤١٣-٤١٤.

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله):

"وفي هذا الحديث ... الدّعاء بكثرة المال والولد ، وأنّ ذلك لا ينافي الخير الأخروي، وأنّ فضل التّقلّل من الدّنيا يختلف باختلاف الأشخاص" (١) .

ولا شك أنّ المقتصد الّذي يأخذ من المال بقدر حاجته، وما يسدّ به الرّمق ممدوح على لسان النّبي ﷺ .

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص(رضي الله عنهما) أنّ رسول الله ﷺ قال: "قد أفلح من أسلم ورُزِق كَفَافاً(٢)، وقنّعه الله بما آتاه" (٣) .

قال الإمام النّووي (رحمه الله):

"الكفاف الكفاية بلا زيادة ولا نقص ، وفيه فضيلة هذه الأوصاف . وقد يحتجّ به لمذهب من يقول الكفاف أفضل من الفقر ومن الغنى" (٤) .

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "اللّهم اجعل رزق آل محمّد قوتاً" (٥). والقوت ما يسدّ به الرّمق. وفي الحديث فضل التّقلّل من الدّنيا، والاقتصار منها على ما يكفي الحاجة ، والدّعاء بذلك (٦) .

وإن كان الخلاف دائراً بين العلماء أيّهما أفضل الغنى أم الكفاف؟ وهو ما ألمح إليه الإمام النّووي (رحمه الله) في قوله السّابق . إلاّ أنّ الأمر يختلف من شخص إلى شخص ومن حال إلى حال ، وذلك ما أشار إليه الحافظ ابن حجر (رحمه الله) .

---

(١) فتح الباري: ٧٥٢/٤ .

(٢) الكَفَاف : هو الّذي لا يَفْضُل عن الشّيء ويكون بقَدْرِ الحاجَة إليه . النّهاية في غريب الحديث : ١٩١/٤ . وانظر : الفائق : ٢٧٢/٣ .

(٣) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الزّكاة: (١٢). باب في الكفاف والقناعة: (٤٣) . برقم: (١٠٥٤) . ٧٣٠/٢ .

(٤) شرح النّووي على مسلم: ١٤٥/٧-١٤٦ .

(٥) انظر: المرجع السّابق: ١٤٦/٧ . والحديث: في صحيح البخاري: بلفظ مقارب في كتاب الرّقاق: (٨١/٥٥). باب كيف كان عيش النّبي ﷺ وأصحابه وتخلّيهم من الدّنيا: (١٧). برقم: (٦٤٦٠). ص: ١٣٧٥. وفي صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الزّكاة: (١٢). باب في الكفاف والقناعة: (٤٣). برقم: (١٠٥٥). ٧٣٠/٢. وفي كتاب الزّهد والرّقاق: (٥٣). بالرّقم السّابق : ٢٢٨١/٤.

(٦) انظر: شرح النّووي على مسلم: ١٤٦/٧ .

ولعلّ السّر في مدح الكفاف ما جاء بيانه في حديث محمود بـــن لبيــد ﷺ أنّ النّبي ﷺ قال: "اثنتان يكرههما ابن آدم: الموت . والموت خير للمؤمن من الفتنـــة، ويكره قلّة المال . وقلّة المال أقلّ للحساب" [١] .

وما جاء في حديث أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: "يقول العبد مالي . مالي، إنّما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطـــى فـــاقْتَنَى[٢]. وما سوى ذلك فهو ذاهب ، وتاركه للنّاس" [٣] .

فلا يحاسب الإنسان إلاّ بما ملك . ولا ينتفع إلاّ بما أكل ، أو لبس، أو تصدّق .

والّذي يذمّ المال في حقّه فهو الّذي أخذه من غير وجه صحيح ، ولـــم يعمـــل بحقّ الله فيه ، وصرفه في غير حقّه . فهو لا يبالي أمن حلال أخذ أم من حرام ؟ بل الحلال عنده ما ملكه بيده وحازه ، والحرام ما منع منـــه ولـــم يســـتطع الوصـــول إليه . وهو قد يسلك في كسبه أي طريق أتيح له ، ويستخدم كلّ وسيلة تمكّنه مـــن الحصول عليه. كالغشّ والخداع والمكر والكذب والجحود . ولا يعبأ إن كـــان ذلـــك مال رباً ، أو مال أيتام ، أو مغصوب ، أو ســـرقة ، أو جـــاء إليـــه عـــن طريـــق الرّشوة [٤] ، أو غلّه [٥] من المال العام .

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : " أيّها النّـــاس إنّ الله طيّـــب لا يقبـــل إلاّ طيّبـــاً . وإنّ الله أمـــر المؤمنيـــن بمـــا أمـــر بـــه المرســـلين . فقـــال:

---

(١) مسند أحمد: بلفظه في : ٥/٤٢٧ .

قال الهيثمي (رحمه الله) : " رجاله رجال الصحيح " . مجمع الزّوائد : ٢/٣٢١ . وانظر : ١٠/٢٥٧ .

وقال المنذري (رحمه الله) : " رواه أحمد بإسنادين ، رواة أحدهما محتجّ بهما في الصّحيح " . التّرغيب والـــتّرهيب . لأبي محمّد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري . تحقيق : إبراهيم شمس الدّين . طبعة دار الكتب العلميّة . بـــيروت . الطّبعة الأولى : ١٤١٧هـــ : ٤/٧٣ .

(٢) قال النّووي (رحمه الله): " أو أعطى فاقتنى" : هكذا هو في معظم النّسخ ، ولمعظم الـــرّواة "فـــاقتنى " بالتّـــاء . ومعناها: ادّخره لآخرته ، أي : ادّخر ثوّابه . وفي بعضها " فأقنى " بحذف التّاء ، أي: أرضى " .

شرح النّووي على مسلم: ١٨/٩٤-٩٥ .

(٣) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الزّهد والرّقاق: (٥٣). برقم: (٢٩٥٩) . ٤/٢٢٧٣ .

(٤) الرّشوة : هي ما يعطى لإبطال حقّ ، أو لإحقاق باطل . التّعريفات: ص: ١٤٨. التّعاريف: ١/٣٦٥.

(٥) غلّ : من الغُلول وهو الخيانة . انظر: مختار الصّحاح: ص: ٤٧٩. القاموس المحيط: ص:١٣٤٣.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَـٰلِحًاۖ إِنِّى بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون:٥١] . وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقۡنَـٰكُمۡ ﴾ [البقرة:١٧٢] . ثمّ ذكر الرّجل يطيل السّفر ، أشعث أغبر، يمدّ يديه إلى السّماء: يا ربّ يا ربّ ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذّي بالحرام فأنّى يستجاب لذلك؟ " [١].

وهو مع ذلك شديد الطّمع ، كثير الحرص ، شره النّفس ، لا يهمّه إلاّ جمع المال وتكديسه.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : " تَعِسَ عبد الدّينار والدّرهم والقَطِيفَة [٢] والخَمِيصَة [٣] . إن أعطي رضي ، وإن لم يعط لم يرض" [٤].

قال العيني (رحمه الله):

" قوله : "عبد الدّينار" : أي طالبه وخادمه والحريص على جمعه والقائم على حفظه فكأنّه لذلك عبده " .

ونقل عن *الطيبي (رحمه الله)* أنّه قال:

"خصّ العبد بالذّكر ليؤذن بانغماسه في محبّة الدّنيا وشهواتها ، كالأسير الّذي لا يجد خلاصاً " [٥].

---

(١) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الزّكاة: (١٢) . باب قبول الصّدقة من الكسب الطّيّب وتربيتها: (١٩). برقم (١٠١٥): ٧٠٣/٢ .

(٢) القطيفة : كساء له خَمْل . النّهاية في غريب الحديث: ٨٤/٤.

(٣) الخميصة : وهي ثَوْب خَزّ أو صُوف مُعْلَم . وقيل : لا تُسَمَّى خَمِيصةً إلا أن تكون سَوْدَاء مُعْلَمة . وكانت من لِبَاس النّاس قديماً . وجَمْعُها الخَمَائِصُ . النّهاية في غريب الحديث : ٢ / ٨١. وانظر: الفائق: ١٦٧/٢.

(٤) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الجهاد والسّير: (٣٢/٥٦). باب الحراسة في الغزو في سبيل الله: (٦٩/٧٠). برقم: (٢٨٨٦). ص:٦٠٨. ثمّ أردف ذلك برواية مقاربة مع زيادة فيها في نفس الموضع . برقم: (٢٨٨٧). ص:٦٠٨-٦٠٩. وفي كتاب الرّقاق: (٥٥/٨١). باب ما يتّقى من فتنة المال وقول الله تعالى: ﴿ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَـٰدُكُمۡ فِتۡنَةٌ ﴾ [الأنفال:٢٨] : (١٠) . برقم: (٦٤٣٥). ص:١٣٧٠.

(٥) عمدة القاري : ٤٥/٢٣ .

وعن حكيم بن حزام ﷺ قال: سألت النّبي ﷺ فأعطاني ، ثمّ سألته فأعطاني، ثمّ سألته فأعطاني ، ثمّ قال: "إنّ هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه . وكان كالّذي يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السّفلى" [١].

فوصفه بأنّه " خضرة حلوة " للرّغبة فيه والميل إليه ، وحرص النّفوس عليه . وإشراف النّفس: تطلّعها إليه ، وتعرّضها له ، وطمعها فيه [٢].

وقد أخذ المال فكره ، وشغل قلبه ، وأصبح أكبر همّه لا يفارق باله ، ولو كان في عبادة ربّه .

عن مالك (رحمه الله) عن عبد الله بن أبي بكر[٣] أنّ رجلاً من الأنصار كان يصلّي في حائط له بالقُف [٤] ــ واد من أودية المدينة ــ في زمان الثّمر، والنّخل قد ذلّلت فهي مطوّقة بثمرها، فنظر إليها فأعجبه ما رأى من ثمرها، ثمّ رجع إلى صلاته فإذا هو لا يدري كم صلّى؟ فقال: " لقد أصابتني في مالي هذا فتنة " . فجاء

---

(١) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الزّكاة: (٢٤/٧). باب الاستعفاف عن المسألة: (٥٠). برقم: (١٤٧٢). ص:٣١١-٣١٢. وفي كتاب الوصايا : (٥٥/٣١). باب قول الله تعالى : ﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖ ﴾ [النّساء:١٢] : (٩). برقم: (٢٧٥٠). ص:٥٧٩. وفي كتاب فرض الخمس: (٥٧/٣٣). باب ما كان النّبي ﷺ يعطي المؤلّفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه: (١٩). برقم: (٣١٤٣). ص:٦٦٣-٦٦٤. وفي كتاب الرّقاق: (٨١/٥٥). باب قول النّبي ﷺ : "هذا المال خضرة حلوة": (١١). برقم: (٦٤٤١). ص: ١٣٧١.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الزّكاة: (١٢). باب بيان إنّ أفضل الصّدقة صدقة الصّحيح الشّحيح: (٣١) . برقم (١٠٣٥) . ٧١٧/٢ .

(٢) انظر: شرح النّووي على مسلم: ١٢٦/٧ .

(٣) هو عبد الله بن أبي بكر بن محمّد بن عمرو بن حزم أبو محمّد ويقال أبو بكر الأنصاري المدني القاضي، تابعي ثقة، من سادات النّاس وفقهائهم . مات سنة ١٣٥هـ .

انظر: التّاريخ الكبير: ٥٤/٥ . معرفة الثّقات: ٢٣/٢ . الجرح والتّعديل: ١٧/٥ . ثقات ابن حبّان: ١٦/٥، ١٠/٧ . مشاهير علماء الأمصار: ٦٨/١ . تهذيب الكمال: ٣٤٩/١٤ . تهذيب التّهذيب: ١٤٤/٥ . تقريب التّهذيب: ٢٩٧/١

(٤) القف :علم لواد من أودية المدينة عليه مال لأهلها . معجم البلدان : ٤ / ٣٨٣.

عثمان بن عفّان، وهو يومئذ خليفة، فذكر له ذلك وقال: هو صدقة فاجعله في سبل الخير، فباعه عثمان بن عفّان بخمسين ألفاً، فسمّى ذلك المال الخمسين" (١) .

فهذا لمّا شغله المال وفتنه عن عبادة ربّه في حادثة واحدة قدّمه كلّه لله . فكيف بمن كان المال لا يفارق مخيلته كأنّه خلق من أجله . وما جمعه من مال إنّما جمعه للذّات الدّنيا وشهواتها. مشابهاً حال الكفار في قول الله تعالى لهم:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾ [محمد:١٢].

فكما كسبه بغير وجه شرعي، أنفقه في غير وجه شرعي . فلم ينفقه على مسكين ولا يتيم ولا محتاج ، ولا على من لزمه الإنفاق عليه ، وإن فعل فإنّما فعل رياء ومنّاً. وقد حجب حقّ الله تعالى فيه ، فلم تطرق باب ماله زكاة ، ولا تمرّ بخلده صدقة . بخيل في أوجه الخير ، مبذّر مسرف في أوجه الشّر . إكثاره منه قلّة، ووجوده عنده استدراج .

عن أبي ذرّ ﷺ قال رسول الله ﷺ : " إنّ المكثرين هم المقلّون يوم القيامة ، إلاّ من أعطاه الله خيراً فنفح فيه يمينه وشماله (٢) ، وبين يديه ووراءه ، وعمل فيه خيراً " (٣).

---

(١) الموطأ للإمام مالك بن أنس . مطبعة دار إحياء الكتب العربيّة. القاهرة. تصحيح وترقيم محمّد فؤاد عبد الباقي : كتاب الصّلاة: (٣) باب النّظر في الصّلاة إلى ما يشغله عنها: (١٨) برقم: (٧٠). ٩٩/١ . وهنالك رواية عن أبي طلحة ﷺ منقطعة . ٩٨/١ .

(٢) قال ابن الأثير (رحمه الله): "نفح فيه يمينه وشماله : أي ضرب يديه فيه بالعطاء . النّفح : الضّرب والرّمي" . النّهاية في غريب الحديث :٨٩/٥.

(٣) صحيح البخاري: بلفظه —وهو جزء من حديث — في كتاب الرّقاق: (٥٥/٨١). باب المكثرون هم المقلّون: (١٣). برقم: (٦٤٤٣). ص:١٣٧٢. و بلفظ مقارب في باب قول النّبي ﷺ " ما أحبّ أنّ لي مثل أحد ذهباً": (١٤). برقم: (٦٤٤٤). ص:١٣٧٢-١٣٧٢.
صحيح مسلم: بلفظه — وهو جزء من حديث — في كتاب الزّكاة: (١٢). باب التّرغيب في الصّدقة: (٩). برقم: (٩٤). ٦٨٨/٢-٦٨٩.

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون:٥٥،٥٦] .

قال ابن كثير (رحمه الله):

" يعني أيظن هؤلاء المغرورون أنّ ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزّتهم عندنا ؟ كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ:٣٥] . لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجاؤهم ، بل إنّما نفعل بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاء "[١].

فهذا الّذي ذُمّ المال في حقّه ، وهو الّذي فتن بالمال. فالمال له فتنة وليس بنعمة .

ولقد ضرب رسول الله ﷺ مثلاً رائعاً مبيّناً فيه حال المفرط في جمع المال، المانع من حقّه، المفتتن به ، وحال المقتصد المنتفع به .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: "أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدّنيا " . قالوا: وما زهرة الدّنيا يا رسول الله ؟. قال: "بركات الأرض" . قالوا: يا رسول الله وهل يأتي الخير بالشّرّ؟ قال: "لا يأتي الخير إلاّ بالخير . لا يأتي الخير إلاّ بالخير . لا يأتي الخير إلاّ بالخير . إنّ كلّ ما أنبت الرّبيع يقتل أو يُلِمُّ . إلا آكِلَة الخَضِرِ، فإنّها تأكل حتّى إذا امتدّت خاصرتاها استقبلت الشّمس . ثمّ اجْتَرَّتْ وبالت وثَلَطَت . ثمّ عادت فأكلت . إنّ هذا المال خَضِرة حُلْوة . فمن أخذه بحقّه، ووضعه في حقّه، فنعم المَعُونة هو . ومن أخذه بغير حقّه كان كالّذي يأكل ولا يشبع" [٢] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/٣٩٦ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في كتاب الزّكاة: (٢٤/٧). باب الصّدقة على اليتامى: (٤٧). برقم: (١٤٦٥). ص:٣١٠. وفي كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/٣٢). باب فضل النّفقة في سبيل الله: (٣٧). برقم: (٢٨٤٢). ص: ٦٠٠. وفي كتاب الرّقاق: (٨١/٥٥). باب ما يحذر من زهرة الدّنيا والتّنافس فيها: (٧). برقم: (٦٤٢٧). ص: ١٣٦٩.

فقد بين النّبي ﷺ أنّ نبات الرّبيع وخضره يقتل بالتّخمة إذا أكثر الآكل منه، أو يقرب أن يقتله. وأمّا المقتصر منه على ما تدعو إليه الحاجة فإنّه لا يضرّه. وهكذا المال فهو كنبات الرّبيع تشتاق إليه النّفوس وتميل إليه لحسنه. فمن أكثر منه، واستغرق في جمعه، ولم يصرفه في وجوهه، فهذا يهلكه أو يقارب هلاكه؛ أمّا المقتصد الّذي أخذ يسيراً أو أخذ كثيراً ولكن فرّقه في وجوهه، فهذا لا يضرّه[1].

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الزّكاة: (١٢). باب تخوّف ما يخرج من زهرة الدّنيا: (٤١). برقم (١٠٥٢). ٧٢٨/٢. و بلفظ مقارب في: ٧٢٧/٢، ٧٢٨.

قال ابن الأثير رحمه الله:

" هذا الحديث يحتاج إلى شَرْح ألْفاظه مُجْتمعةً فإنه إذا فُرّق لا يكاد يُفهم الغرض منه. الحَبَط ــ هذه العبارة وردت في بعض رواياته ــ بالتّحريك الهلاك يقال: حَبِط يَحبَط حبطاً ... ويُلِمّ: يَقْرُب أي يَدْنُو من الهلاك. والخضِرُ: بكسر الضّاد نوع من البُقول ليس من أحرارها وجَيّدها. وثَلَط البعير يُثْلِط: إذا ألقى رَجيعه سَهْلاً رَقيقاً.

ضَرَب في هذا الحديث مَثَلين: أحَدُهما لِلْمُفْرط في جَمْع الدّنيا، والمَنْع من حقّها. والآخر للْمُقْتَصِدِ في أخْذِها والنَّفع بها. فقوله: "إنّ مِمّا يُنْبِتُ الرّبيعُ ما يقتل حَبَطاً أو يُلِمُّ": فإنّه مَثَل للمُفْرط الّذي يَأخُذ الدّنيا بغير حقّها. وذلك أنّ الرّبيع يُنْبتُ أحرار البُقول فَتَسْتَكْثر الماشية منه لاستطابها إيّاه، حتى تَنْتَفِخَ بُطُونُها عند مُجَاوَزَتِها حدّ الاحْتمالِ، فتَنْشَقّ أمعاؤها من ذلك فتهْلك، أو تُقارب الهلاك. وكذلك الّذي يَجْمَع الدّنيا من غير حِلّها، ويَمْنَعُها مُسْتَحقّها قد تَعرّض للهلاك في الآخرة بدخُول النّار. وفي الدّنيا بأذَى النّاس له، وحَسدهم إيّاه، وغير ذلك من أنواع الأذَى. وأمّا قوله: " إلا آكِلة الخَضِر": فإنّه مَثَلٌ للمُقْتَصِد. وذلك أنّ الخضر ليس من أحْرار البُقول وجَيِّدِها الّتي يُنْبِتُها الرّبيعُ بتوالي أمْطاره فتحْسُنُ، وتَنْعُمُ، ولكنّه من البُقول الّتي ترعاها المواشي بعد هَيْج البُقول ويُبسها، حيث لا تَجدُ سواها، وتُسمِّيها العَربُ الجَنَبة. فلا تَرى الماشِية تُكْثِر من أكلها، ولا تَسْتَمْرئها. فضرب آكِلة الخضر من المواشي مثلاً لمن يَقْتصد في أخْذ الدّنيا وجَمْعها، ولا يَحْمله الحِرْصُ على أخْذِها بغير حقّها، فهو بنَجْوة من وبالها كما نَجَتْ آكلة الخضر.

ألا تراه قال: " أكَلَت، حتّى إذا امتدّت خَاصِرَتاها اسْتَقْبلت عين الشّمس فَثَلَطَت، وبالت". أراد أنّها إذا شَبِعَت منها بركَت مُسْتَقْبِلةً عين الشّمس تَسْتَمْرئُ بذلك ما أكلَتْ، وتَجْتَرُّ وتَثْلِطُ. فإذا ثَلَطَت فقد زال عنها الحَبَطُ. وإنّما تَحبَط الماشية لأنّها تَمتلئ بُطُونُها ولا تَثْلِطُ، ولا تَبُول. فتَنْتِفخُ أجْوَافها فيَعرِض لها المَرضُ فتَهْلِك. وأراد بزَهْرة الدّنيا: حُسنَها وبَهْجَتَها. وبِبرَكات الأرض: نَمَاءَها، وما يخرج من نَبَاتِها".

النّهاية في غريب الحديث: ٢ / ٤٠ــ٤١

(١) انظر: شرح النّووي على مسلم. ١٤٣/٧.

﴿ المطلب الثّالث ﴾

فتنة الأولاد

إنّ الله سبحانه جعل حبّ الأولاد فطرة في النّفس ، جبلت عليه . وهو من الشّهوات الّتي تميل إليها ، وترغب فيها . فقال سبحانه :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٤].

وقال: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف:٤٦].

ولكن قد يصل الأمر بميل النّفس إليهم إلى الإلهاء بهم عن طاعة الله عزّ وجلّ ، أو الإتيان بما يخلّ بتلك الطّاعة . أو الوقوع في المعصية وارتكاب الإثم من أجلهم . ولذا قال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنفال:٢٨] [١] .

قال الإمام الرّازي (رحمه الله):

" قال ابن عبّاس (رضي الله عنهما) : " لا تطيعوهم في معصية الله تعالى" . وفتنة: أي بلاء وشغل عن الآخرة ... فإنّ الإنسان مفتون بولده لأنّه ربّما عصى الله تعالى بسببه ، وباشر الفعل الحرام لأجله ، كغصب مال الغير وغيره .﴿ وَٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ : أي جزيل ، وهو الجنّة ... والمعنى لا تباشروا المعاصي بسبب الأولاد ، ولا تؤثروهم على ما عند الله من الأجر العظيم "[٢].

---

(١) انظر : إغاثة اللّهفان: ٢/١٦٠ .

(٢) التّفسير الكبير: ٣٠/٢٧ .

عن بُرَيْدَةَ ﷺ قال: كان النّبي ﷺ يخطب فجاء الحسن والحسين (رضـــي الله عنهما) ، وعليهما قميصان أحمران ، يعثران فيهما ، فنزل النّبي ﷺ فقطع كلامـــه، فحملهما ، ثمّ عاد إلى المنبر . ثمّ قال: " صدق الله : ﴿ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ . رأيت هذين يعثران في قميصيهما ، فلم أصـــبر حتّـــى قطعـــت كلامـــي فحملتهما " [1] .

لقد قطع النّبي ﷺ خطبته ، ونزل من المنبر فحمل الحسن والحسين (رضـــي الله عنهما) وسمّى ذلك فتنة. والسبب في هذا الفعل محبّته لهما . وفي هذا دلالة على أنّ الفتنة بالولد مراتب ، وأنّ ما حدث من أدناها ، ولكنّها قد تجرّ إلى ما فوقها [2] .

---

(1) سنن أبي داود : بلفظ مقارب في كتاب الصّلاة: (٢). باب الإمام يقطع الخطبة لأمـــر يحـــدث: (٢٢٥-٢٢٧). برقم: (١١٠٩). قال الألباني رحمه الله: "صحيح". ص: ١٣٦.

سنن التّرمذي: بلفظ مقارب في كتاب المناقب: (٤٥). باب مناقب (الحسن والحسين رضي الله عنـــهما) : (٣٠). برقم: (٣٧٧٤). وقال: "هذا حديث حسن غريب". و قال الألباني رحمه الله: "صحيح". ص: ٥٨٧-٥٨٨.

سنن النّسائي :بلفظه في كتاب الجمعة: (١٤). باب نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة وقطعـــه كلامـــه ورجوعه إليه يوم الجمعة: (٣٠). برقم: (١٤١٣). قال الألباني رحمه الله: "صحيح". ص:١٦٦. و بلفظ مقـــلوب في كتاب صلاة العيدين: (١٩). باب نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة: (٢٧). برقم: (١٥٨٥). قـــال الألباني رحمه الله: "صحيح". ص:١٨٧.

سنن ابن ماجة: بلفظ مقارب في كتاب اللّباس: (٣٢) . باب لبس الأحمر للرّجال: (٢٠). برقم: (٣٦٠٠) . قـــال الألباني رحمه الله: "صحيح". ص: ٣٨٨.

مسند أحمد: بلفظ مقارب في : ٣٥٤/٥.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بلفظ مقارب . برقم: (٦٠٣٨). قال شعيب الأرناؤوط: "إسناده حســـن". ٤٠٢/١٣. و برقم: (٦٠٣٩). ٤٠٣/١٣.

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في : ٤٢٤/١. وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه". و قـــال الذّهبي رحمه الله: " على شرط مسلم". وفي : ٢١٠/٤. وقال: "هذا حديث صحيح على شـــرط الشّـــيخين و لم يخرجاه". و قال الذّهبي رحمه الله: " على شرط البخاري ومسلم".

(2) انظر: فتح الباري: ٣٣/١٣ .

الرّسول ﷺ معصوم عن الوقوع في الفتن ، ولكنّه أراد أن يبيّن لأصحابه أنّ قطع الخطبة لمثل هذه الأمـــور جـــائز . وأنّ الأولاد فتنة حقّاً . وانظر: المرجع السّابق: ٣٣/١٣.

فمن الفتنة بهم اشتغال الإنسان بهم عن كثير من الخير، أو التّفريط عمّا يلزمه من القيام بحقوقهم ، كالتّأديب والتّعليم والتّربية والنّصح ، لأنّ الإنسان مسئول عمّا استرعاه الله عليه (١) .

ومن ذلك الاستجابة لرغباتهم ، والامتثال لطلباتهم ، ولو أدّى ذلك إلى سخط الله تعالى أو مخالفة أمره . ولا شك أنّ حبّ الله ورسوله مقدّم على حبّ الأولاد .
كما جاء عن النّبي ﷺ أنّه قال: " لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من والده ، وولده ، والنّاس أجمعين" (٢) .

ومنها موالاتهم ، ومودّتهم مع عدم إيمانهم .

قال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة:٢٢].

وقال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [التوبة:٢٣]

ومن الأولاد من تبلغ فتنته بأن يصبح عدوّاً لوالده ، وذلك بصرفه عن الطّاعات ، وحمله على المعاصي . ولذلك حذّر الله تعالى من هؤلاء فقال:

---

(١) انظر: شرح النّووي على مسلم: ١٧١/٢ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الإيمان : (٢). باب حبّ الرّسول ﷺ من الإيمان: (٨). برقم: (١٥). ص: ١٧. عن أنس بن مالك ﷺ . ونحوه عن أبي هريرة ﷺ برقم: (١٤). ص: ١٧.
صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الإيمان: (١). باب وجوب محبّة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والنّاس أجمعين ، وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبّه هذه المحبّة: (١٦). برقم: (٤٤). ٦٧/١. عن أنس ﷺ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾

[التغابن: ١٤].

سأل رجل ابن عبّاس (رضي الله عنهما) عن هذه الآية فقال: " هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكّة ، وأرادوا أن يأتوا النّبي ﷺ ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا النّبي ﷺ ، فلمّا أتوا النّبي ﷺ رأوا النّاس قد فقِهوا في الدّين همّوا أن يعاقبوهم ، فأنزل الله تعالى . الآية " [١]

والآية عامّة في كلّ معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهل والولد . وخصوص السبب لا يمنع عموم الحكم [٢] .

ولذا قال مجاهد (رحمه الله) :

" يحمل الرّجل على قطيعة الرّحم ، أو معصية ربّه ، فلا يستطيع الرّجل مع حبّه إلاّ أن يطيعه".

وقال: "ما عادوهم في الدّنيا ، ولكن حملتهم مودّتهم على أن أخذوا لهم الحرام فأعطوه إياهم " [٣].

وقد يغترّ الإنسان بكثرة الأموال والأولاد ، ويعتقد أنّ ذلك دلالة على محبّة الله له ، واعتنائه به ، وأنّه ما أعطي ذلك إلاّ لقربه من الله .

ولكنّ الله تعالى أكذب هذا النّوع من البشر ، وبيّن أنّه يعطي المال والأولاد من يحبّ ومن لا يحبّ ، وله في ذلك الحكمة التّامّة ، والحجّة البالغة . وإنّما الّذي يقرب إلى الله الإيمان والعمل الصالح .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٤١/١٨ . تفسير القرآن العظيم: ٥٨٨/٤ .

والأثر في :سنن التّرمذي : بلفظ مقارب في كتاب تفسير القرآن: (٤٣). باب ومن سورة التّغابن: (٦٤). برقم: (٣٣١٧) . وقال: " هذا حديث حسن صحيح". و قال الألباني رحمه الله: " حسن". ص: ٥٢٥.

و مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في : ٥٣٢/٢. وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه". و قال الذّهبي رحمه الله: "صحيح".

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٤٢/١٨ .

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٥٨٨/٤ .

قال سبحانه: ﴿ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سبأ:٣٥- ٣٧] (١).

إنّ كثرة الأموال والأولاد قد تكون استدراجاً أو عذاباً؟ كما قال الله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦] .

وقال: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [التوبة:٥٥].

ولا يعني هذا أن يمتنع الإنسان من أن يطلب ربّه أن يرزقه الأولاد بحجّة أنّهم فتنة له . ذلك لأنّ طلب الأولاد من سنّة المرسلين . كما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ ﴾ [الرعد:٣٨] .

وقال عن زكريا (عليه السّلام) : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران:٣٨] .

وقال سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان:٧٤].

(١) وانظر: معنى الآيات في : المرجع السّابق : ٣/٨٦٠ .

وقال ﷺ : " تزوّجوا الوَدُود[1] الولـــود ، إنّــي مكــاثر بكــم الأنبيــاء يــوم القيامة " [2]. ودعا لأنس ﷺ فقال: " اللّهم ارزقه مالاً وولداً وبارك له " [3].

وفي ذلك حثّ منه ﷺ على التّكثير من النّسل[4] . والعبرة في ذلــك بصــلاح الأولاد واستقامتهم . فأولئك وإن كثروا نفعوا والديهم في الدّنيا والآخرة ، ولم يكونوا لهم فتنة ولا أعداء .

عن أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: " إذا مات الإنسان انقطـــع عنــه عمله إلاّ من ثلاثة: إلاّ من صدقة جارية ، أوعلم ينتفع به ، أو ولد صـــالح يدعــو له" . [5]

---

(1) الودود : لفظ يطلق على الرّجل والمرأة . والمراد : المُحبَّة .من الودّ وهو الحبّ . انظر : لسان العـرب : ٣/٤٥٤ . وانظر : النّهاية في غريب الحديث : ٥/١٦٤ .

(2) سنن أبي داود : نحوه في كتاب النّكاح: (١٢). باب النّهي عن تزويج من لم يلد من النّساء . برقــم: (٢٠٥٠). قال الألباني رحمه الله: "حسن صحيح". ص: ٢٣٤. عن معقل بن يسار ﷺ .

سنن النّسائي: بلفظ مقارب في كتاب النّكاح: (٢٦). باب كراهة تزويج العقيم: (١١). برقم: (٣٢٢٧). قــال الألباني رحمه الله: "حسن صحيح". ص: ٣٤٢. عن معقل ﷺ .

سنن ابن ماجه: نحوه في كتاب النّكاح: (٩). باب ما جاء في فضل النّكاح: (١). برقم: (١٨٤٦). قال الألبــاني رحمه الله: "حسن". ص: ٢٠١. عن عائشة (رضي الله عنها) . وفي باب تزويج الحرائر والولـــود: (٨). برقــم: (١٨٦٣) . قال الألباني رحمه الله: "صحيح". ص:٢٠٢-٢٠٣.عن أبي هريرة ﷺ .

مسند أحمد: بلفظه في: ٣/٢٤٥. و بلفظ مقارب في : ٣/١٥٨. عن أنس ﷺ .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بلفظ مقارب برقم: (٤٠٢٨). قال شعيب الأرناؤوط: "حديث صحيــح لغيره". ٩/٣٣٨. عن أنس ﷺ .

مستدرك الحاكم: نحوه في : ٢/١٧٦. وقال: " هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه بهــذه السّــياقة". و قــال الذّهبي رحمه الله: "صحيح". عن معقل ﷺ .

(3) سبق تخريجه . انظر : ص : ١١٨ .

(4) إنّ دين الإسلام حثّ أتباعه على الإكثار من النّسل ،كما وردت بذلك النّصوص أعلاه . فعلــى المســلم أن لا يلتفت إلى الدّعوة المقرضة الآثمة الّتي ينعق بها دعاة الغرب وأذنابهم من أبناء الشّرق الّذين ينادون بتحديد النّســل ، ويحذّرون من تكثيره ممتطّين أسباباً واهية لا وزن لها عند العقلاء ، ولا يضاهى بها مقاصد الشّرع الحنيف .

(5) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الوصية: (٢٥). باب ما يلحق الإنسان من الثّواب بعــد وفاتــه: (٣). برقــم: (١٦٣١). ٣/١٢٥٥. وانظر: الجامع لأحكام القرآن : ٤/٧٢-٧٣، ١١/٨ .

المبحث الثّالث

المعاصي

لقد سبق بيان إطلاق الفتنة على المعصية والإثم [١].

ولا شك أنّ المعصية فتنة ، لأنّ المرء بارتكابها وفعلها ينصرف عـــن طاعـــة الله تعالى ورسوله ﷺ . إضافة إلى أنّ المعصية تدفع إلى فعلها الشّهوة ، والحديث عن الشّهوات ذكر آنفاً [٢].

ولقد بيّن النّبي ﷺ أنّ هذه الأمّة سوف تظهر فيها كثير من المعاصي . وقـــد ظهر الكثير منها كما نبأ بذلـــك رســـول الله ﷺ . ولازال بعضـــها فـــي ازديـــاد واستشراء . وقد يكون في المستقبل أكثر ممّا هو في الماضي .

ولا يمكن أن نحصر هنا جميع تلك المعاصي ، ولكن نورد بعضاً منـــها فـــي أربعة مطالب على سبيل التّمثيل مع شيء من الإيجاز .

---

(١) انظر: ص :١٨-١٩ .

(٢) انظر: ص: ٨٨ فما بعدها .

﴿ المطلب الأوّل ﴾

القول على الله تعالى بغير علم

حرّم الله عزّ وجلّ على العبد أن يقول عليه سبحانه وعلى رسوله ﷺ ما ليس له به علم ، أو يتكلّم ويفتي في دين الله تعالى بجهل . فقال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء:٣٦].

بل جعل القول عليه بغير علم من أعظم المحرّمات . فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف:٣٣].

فذكر سبحانه في الآية أنواع المحرّمات بدءاً بالأخف متدرّجاً إلى الأثقل .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

"وقد حرّم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء ، وجعله من أعظم المحرّمات ، بل جعله في المرتبة العليا منها ــ فذكر الآية السّابقةــ فرتّب المحرّمات أربع مراتب ، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش ، ثمّ ثنّى بما هو أشدّ تحريماً منه وهو الإثم والظّلم . ثمّ ثلّث بما هو أعظم تحريماً منهما وهو الشّرك به سبحانه ، ثمّ ربّع بما هو أشدّ تحريماً من ذلك كلّه وهو القول عليه بلا علم ، وهذا يعمّ القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه "[1].

ولمّا كان القول على الله بغير علم يتصدّر المحرّمات جميعاً . حذّر الرّسول ﷺ من أناس يتكلّمون في دين الله بجهل ، فيحرّمون ما أحلّ الله تعالى ، أو يحلّون

---

(١) أعلام الموقّعين : ٣٨/١ .

ما حرّم ، متجنّين على شريعة الله ، يصدرون الأحكام ويرسلون الفتاوى من غير مراقبة لله تعالى ولا خوف منه . لا همّ لهم إلاّ حبّ المناصب ، والتّسلّط على رقاب الخلق .

أولئك حذّر منهم رسول الله ﷺ كما جاء في حديث حذيفة بن اليمان ﷺ ـــ فذكر الحديث ـــ وفيه : " قوم يستنّون بغير سنّتي ، ويهدون بغير هدي ، تعرف منهم وتنكر . فقلت: هل بعد ذلك الخير من شرّ ؟ قال : " نعم دعاة على أبواب جهنّم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها " فقلت : يا رسول الله صفهم لنا . قال: " نعم قوم من جلدتنا ويتكلّمون بألسنتنا " الحديث (١)

فهؤلاء الدّعاة هم الّذين يتبوّؤن مناصب العلماء وليسوا بعلماء ، ويوقّعون عن الله ورسوله ﷺ جهلاً وافتراء فيَضِلّون ويُضِلّون . وبسببهم ينزع علم الشّرع من الأرض ، ويَحِلّ الجهل بالعباد ، فلا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك (٢) وذلك عند استحكام الجهل واستشرائه .

---

(١) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في كتاب المناقب: (٣٧/٦١). باب علامات النُّبوّة في الإسلام: (٢٥). برقم: (٣٦٠٦). ص: ٧٥٩. وفي كتاب الفتن : (٦٧/٩٢). باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة: (١١). برقم: (٧٠٨٤). ص: ١٤٩٤.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الإمارة: (٣٣). باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ، وفي كلّ حال ، وتحريم الخروج على الطّاعة ، ومفارقة الجماعة: (١٣). برقم: (١٨٤٧) ٣/١٤٧٥-١٤٧٦ . وبمعناه في: ٣/١٤٧٦.

(٢) ورد ذلك في حديث حذيفة بن اليمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : " يَدْرُسُ ـــ أي يعفى ويذهب ـــ الإسلام كما يدرس وَشْي ـــ نقش ـــ الثّوب حتّى لا يُدْرَى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة ، ولَيُسْرَى على كتاب الله عزّ وجلّ في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية ، وتبقى طوائف من النّاس ، الشّيخ الكبير والعجوز يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلاّ الله فنحن نقولها " . فقال له صِلَةُ ـــ ابن زُفَر التّابعي ـــ : ما تغني عنهم لا إله إلاّ الله ، وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة ؟ فأعرض عنه حذيفة ، ثّم ردّها عليه ثلاثاً كلّ ذلك يعرض عنه حذيفة . ثّم أقبل عليه في الثّالثة فقال :يا صلة تنجيهم من النّار ثلاثاً ".

سنن ابن ماجه . بلفظه في كتاب الفتن: (٣٦). باب ذهاب القرآن والعلم : (٢٦). برقم: (٤٠٤٩). قال الألباني رحمه الله: "صحيح". ص: ٤٣٥. وهو في السِّلسلة الصَّحيحة: ١/١٢٧ . برقم: (٨٧).

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في : ٤/٥٢٠ ، ٥٨٧. وقال: " هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه". و قال الذّهبي رحمه الله: "على شرط مسلم". وانظر: فتح الباري: ١٤/٥٠٧ .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من النّاس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتّى إذا لم يترك عالماً اتخذ النّاس رؤساً جهالاً ، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا " [١].

قال الإمام النّووي (رحمه الله) :

"هذا الحديث يبيّن أنّ المراد بقبض العلم في الأحاديث السّابقة المطلقة ليس هو محوه من صدور حفّاظه ، ولكن معناه أنّه يموت حملته ويتّخذ النّاس جهّالاً يحكمون بجهالتهم فيضلّون ويضلّون " [٢].

ويريد النّووي (رحمه الله) بالأحاديث المطلقة الأحاديث الّتي ورد فيها رفع العلم ، وانتشار الجهل . كحديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "من أشراط السّاعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل ، ويشرب الخمر ، ويظهر الزّنا" [٣].

---

(١) صحيح البخاري : بلفظ مقارب في كتاب العلم : (٣). باب كيف يقبض العلم: (٣٤). برقم: (١٠٠). ص:٤٠ . وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة: (٩٦/٧١). باب ما يذكر من ذمّ الرّأي وتكلّف القياس : (٧/٨). برقم: (٧٣٠٧). ص: ١٥٣٦.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب العلم: (٤٧). باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزّمان: (٥) . برقم: (٢٦٧٣) . ٢٠٥٨/٤ .

(٢) شرح النّووي على مسلم: ٢٢٣/١٦-٢٢٤ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظه ــ إلاّ إنّه قال : إنّ من أشراط السّاعة ــ في كتاب العلم : (٣). باب رفع العلم وظهور الجهل: (٢١). برقم: (٨٠). ص: ٣٥. و بلفظ مقارب : في الكتاب والباب السّابقين برقم: (٨١). ص: ٣٥. وفي كتاب النّكاح: (٦٧/٤١). باب يقلّ الرّجال ويكثر النّساء: (١١٠/١١١). برقم: (٥٢٣١). ص: ١١٤٩. وفي كتاب الأشربة: (٧٤/٤٨). باب قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ ﴾ [المائدة:٩٠]: (١). برقم: (٥٥٧٧). ص: ١٢١٦-١٢١٧. وفي كتاب الحدود: (٨٦/٦١). باب إثم الزّنا: (٢٠/٦). برقم: (٦٨٠٨). ص:١٤٣٨.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب العلم : (٤٧). باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزّمان: (٥). برقم (٢٦٧١) . ٢٠٥٦/٤ .

وفي الرّواية الأخرى "إنّ من أشراط السّاعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل ..." [١]

وفي حديث عبد الله وأبي موسى (رضي الله عنهما) قالا: قال رسول الله ﷺ : "إنّ بين يدي السّاعة أيّاماً يرفع فيها العلم ، وينزل فيها الجهل ، ويكثر فيها الهرج، والهرج القتل " [٢].

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله):

"معناه أنّ العلم يرتفع بموت العلماء ، فكلّما مات عالم ينقص العلم بالنّسبة إلى فقد حامله ، وينشأ عن ذلك الجهل بما كان ذلك العالم ينفرد به عن بقية العلماء" [٣] .

فإذا قبض أهل العلم الصّادقون ، وحلّ مكانهم أدعياء العلم ذهب العلم ، وانتشر الجهل .

ولا شك أنّ الفتنة بدعاة السّوء القائلين على الله وعلى رسوله ﷺ بغير علم عظيمة جداً ، لما يحدث من إضلال للخلق ، وإبعاد عن الحقّ ، وانتشار الأقوال والفتاوى الباطلة ، وما ينتج عن ذلك من تفرّق الأمّة ، وتشتّت شملها كما هو مشاهد ممّن نصّبوا أنفسهم منظّرين وزعماء ، واقتطع كلّ واحد منهم قطعة من المجتمع يبثّ بينهم انحرافاته وضلالاته ، فيستجيبون له وينصاعون لأمره ، بل ويدافعون عنه ، ويبرّرون لأقواله وأفعاله . حتّى طفح الكيل ، وبلغ السّيل الزّبى [٤] ، وعانى أهل الإسلام من أولئك أبلغ المعاناة .

---

(١) صحيح البخاري: بلفظه ــ إلاّ إنّه قال : من أشراط السَّاعة ــ في كتاب الحدود: (٨٦/٦١). باب إثم الزّنا: (٦/٢٠). برقم: (٦٨٠٨). ص:١٤٣٨.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب العلم : (٤٧). باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزّمان: (٥). برقم (٢٦٧١) . ٢٠٥٦/٤ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في كتاب الفتن : (٩٢/٦٧). باب ظهور الفتن: (٥). برقم: (٧٠٦١،٧٠٦٢، ٧٠٦٣، ٧٠٦٤ ، ٧٠٦٥،٧٠٦٦). . ص : ١٤٩١.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب العلم : (٤٧). باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزّمان: (٥). برقم (٢٦٧٢) . ٢٠٥٦/٤. وعبد الله هو ابن مسعود ﷺ .

(٣) فتح الباري : ٥١٠/١٤ .

(٤) الزُبى : جمع زُبْية وهي حفرة تحفر للأسد إذا أرادوا صيده . وأصلها الرّابية لا يعلوها الماء . فإذا بلغها السّيل كان جارفاً مجحفاً . يضرب لما جاوز الحد .

ولذا كان خوف النّبي ﷺ منهم على الأمّة عظيماً . فقال في حديث ثوبان ﷺ : " وإنّما أخاف على أمّتي الأئمّة المضلّين " (١) .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" علماء السّوء جلسوا على باب الجنّة ، يدعون إليها النّاس بأقوالهم ، ويدعونهم إلى النّار بأفعالهم ، فكلّما قالت أقوالهم للنّاس هلمّوا ، قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم ، فلو كان ما دعوا إليه حقّاً كانوا أوّل المستجيبين له ، فهم في الصّورة أدلاّء ، وفي الحقيقة قطّاع الطّرق " (٢) .

مجمع الأمثال . لأبي الفضل أحمد بن محمّد الميداني . تحقيق : محمّد محي الدّين عبد الحميد . طبعة دار المعرفة . بيروت : ٩١/١ . وانظر : كتاب جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري . تحقيق : محمّد أبي الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش . طبعة دار الفكر . بيروت . الطّبعة الثّانية : ١٩٨٨م : ٢٢٠/١ . المستقصى في أمثال العرب . لأبي القاسم محمود بن عمر الزّمخشري . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . الطّبعة الثّانية : ١٩٨٧م : ١٤/٢ .

(١) سبق تخريجه . انظر: ص : ٤٣ .

(٢) الفوائد لابن قيّم الجوزيّة . طبعة دار الكتب العلميّة. بيروت. الطّبعة الثّانية ١٣٩٣هـ ــ ١٩٧٣م : ص:٦١.

﴿ المطلب الثّاني ﴾

ظهور الشِّرك

الشِّرك هو أن يُتَّخذ ندٌّ مع الله ، فيدعى أو يرجى أو يخاف منه أو يحبّ كمحبّة الله ، أو يصرف له أيٌّ عبادة من العبادات ، أو يعطى حقّ التّشريع [١].

فمن فعل شيئاً من ذلك معتقداً لما فعل فقد وقع في الشّرك .

والشّرك أعظم ظلم وقع في الأرض لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان:١٣] . لأنّه صرف لحقّ الله لغيره . وحقّه سبحانه العبادة ، ولا يجوز أن يصرف منها شيء إلى سواه سبحانه .

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨] .

وقد سمّى الله عزّ وجلّ الشّرك فتنة كما سلف ذكره [٢] . وحذّر من الوقوع فيه ، لأنّه يحبط جميع عمل العبد ، ولا تصلح معه طاعة . وفي ذلك يقول المولى سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنعام:٨٨] . ويقول عزّ في علاه : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزمر:٦٥] . وحرّم سبحانه جنّته على كلّ من قدم إليه يوم القيامة متلبّساً به .

---

(١) انظر: الكواشف الجلية .ص: ٣٢٠-٣٢٢ .

(٢) انظر: ص : ١١-١٢ .

فقال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة:٧٢] .

فالشّرك أمره عظيم ، وخطره جسيم ، وشرّه عميم ، ومرتعه وخيم . فلا يفلح العبد ولا يسلم إلاّ باجتنابه ، والبعد عنه ، والحذر من ولوج بابه ، أو القرب من أسبابه .

ولكنّ رسول الله ﷺ أخبرنا! ويا أسفا على ما أخبرنا عنه . لقد أخبرنا أنّ هذه الأمّة سوف تقع في الشّرك ، بل وتنغمس فيه .

عن أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: " لا تقوم السّاعة حتّى تضطّرب أَلَيَات نساء دَوْسٍ على ذي الخَلَصَة [1] ". وذو الخلصة طاغية دوس الّتي كانوا يعبدون في الجاهليّة" [2] .

---

(١) قال ياقوت الحموي (رحمه الله) : " ذو الخلصة : الخلصة مضاف إليها ذو بفتح أوّله وثانيه ، ويروى بضمّ أوّله وثانيه ، والأوّل أصح . والخلصة في اللّغة نبت طيّب الرّيح يتعلّق بالشّجر ، له حبّ كعنب الثّعلب . وجمع الخلصة خلص . وهو بيت أصنام كان لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بتَبَالة ، وهو صنم لهم . فأحرقه جرير بن عبد الله البجلي حين بعثه النّبي ﷺ . وقيل : كان لعمرو بن لحي بن قمعة ، نصبه أعني الصّنم بأسفل مكّة حين نصب الأصنام في مواضع شتّى . فكانوا يلبسونه القلائد ، ويعلّقون عليه بيض النّعام ، ويذبحون عنده . وكان معناهم في تسميتهم له بذلك أنّ عباده والطّائفين به خلصة . وقيل : هو الكعبة اليمانية الّتي بناها أبرهة بن الصّبّاح الحميري ، وكان فيه صنم يدعى الخلصة فهدم . وقيل : كان ذو الخلصة يسمّى الكعبة اليمانية ، والبيت الحرام الكعبة الشّامية ...وقال أبو المنذر : " ومن أصنام العرب ذو الخلصة ، وكانت مروة بيضاء منقوشة ، عليها كهيئة التّاج ، وكانت بتبالة بين مكّة واليمن على مسير سبع ليال من مكّة ، وكان سدنتها بني أمامة من باهلة بن أعصر، وكانت تعظّمها وتهدي لها خثعم وبجيلة وأزد السّراة ومن قاربهم من بطون العرب ومن هوازن... فلمّا فتح رسول الله ﷺ مكّة ، وأسلمت العرب ، ووفدت عليه وفودها ، قدم عليه جرير بن عبد الله مسلماً . فقال له : "يا جرير ألا تكفيني ذا الخلصة ؟ " فقال : بلى . فوجّهه إليه ، فخرج حتّى أتى بني أحمس من بجيلة ، فسار بهم إليه ، فقاتلته خثعم ، وقتل مائتين من بني قحافة بن عامر بن خثعم ، وظفر بهم وهزمهم ، وهدم بنيان ذي الخلصة ، وأضرم فيه النّار فاحترق " . معجم البلدان: ٢/٣٨٣ــ٣٨٤.

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الفتن : (٩٢/٦٧). باب تغيّر الزّمان حتّى يعبدوا الأوثان: (٢٣/٢٤). برقم: (١١٦). ص: ١٥٠٠.

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب لا تقوم السّاعة حتّى تعبد دوس ذا الخلصة : (١٧). برقم: (٢٩٠٦). ٤/٢٢٣٠.

والمراد أنّ النّاس يرجعون إلى الجاهليّة وعبادة الأوثان [١]. وعبّر عن ذلك بطوّاف نساء دوس حول ذي الخلصة حتّى ترتج أعجازهن [٢].

وقد ورد ذلك صراحة في حديث ثوبان ﷺ، وفيه: "ولا تقوم السّاعة حتّى تلحق قبائل من أمّتي بالمشركين، وحتّى تعبد قبائل من أمّتي الأوثان" [٣].

وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: " لا يذهب الليل والنّهار حتّى تعبد اللاّت [٤] والعزّى [٥] " فقلت: يا رسول الله إن كنت لأظنّ حين أنزل الله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣٣] أنّ ذلك تامّاً

---

(١) الوَثَن: هو الصّنم الّذي اتّخذ إلهاً من دون الله ولم يكن له جسم أو صورة.

انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٥٦/٣. لسان العرب: ٣٤٩/١٢.

قال ابن الأثير (رحمه الله):

"الفرق بين الوَثَن والصَّنَم أنّ الوَثَن كلّ مَالَه جُثَّة مَعْمولة من جَواهِر الأرْض، أو من الخَشَب والحجارة كصُورة الآدَميّ، تُعْمَل وتُنْصَب فتُعْبَد، والصَّنَم الصُّورَة بلا جُثَّة. ومِنْهُم من لَم يُفَرِّق بَيْنَهما وأطلقها على المَعْنَيَين. وقد يُطْلَق الوَثَن على غَير الصُّورة". النّهاية في غريب الحديث: ٥ / ١٥١.

ويجمع على أوثان. والأوْثانِ عند العرب كلّ تِمْثالٍ من خشب أو حجارة أو ذهب أو فضّة أو نحاس أو نحوها، وكانت العرب تنصبها وتعبدها. لسان العرب: ١٣ / ٤٤٣.

(٢) انظر: شرح النّووي على مسلم: ٣٣/١٨. التّذكرة: ص: ٧٢١. عمدة القاري: ٢١١/٢٤.

(٣) سبق. ص: ٤٣.

(٤) اللاّت: اسم صنم كانت تعبده ثقيف. وقيل اسم صخرة كان يجلس عليها رجل يلتُّ السّويق للحاج. فلمّا مات بنوا على تلك الصّخرة بيتاً وعبدوه. فبعث النّبي ﷺ أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة (رضي الله عنهما) فهدماه. وهي الّتي جاء ذكرها في القرآن. انظر: معجم البلدان: ٤/٥.

(٥) العُزّى: قال ياقوت الحموي (رحمه الله):

"العُزَّى بضمّ أوّله ... صنم كان لثقيف. والعزّى سمرة كانت لغطفان يعبدونها، وكانوا بنوا عليها بيتاً وأقاموا لها سدنة. فبعث النّبي ﷺ خالد بن الوليد إليها فهدم البيت، وأحرق السّمرة. والعزّى تأنيث الأعز. مثل الكبرى تأنيث الأكبر. والأعز بمعنى العزيز، والعزّى بمعنى العزيزة. وقال ابن حبيب: العزّى شجرة كانت بنخلة عندها وثن تعبده غطفان، وسدنتها من بني صرمة بن مرّة... وكانت العرب وقريش تسمّي بها عبد العزّى. وكانت أعظم الأصنام عند قريش، وكانوا يزورونها ويهدون لها، ويتقرّبون عندها بالذّبائح".

المرجع السّابق: ٤ / ١١٦

قال: "إنّه سيكون من ذلك ما شاء الله ، ثمّ يبعث الله ريحاً طيّبة فتوفّي كلّ من في قلبه مثقال حبّة خردل من إيمان ، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم " (١) .

ولا يعني حديث عائشة (رضي الله عنها) أنّ الشّرك لا يقع في الأمّة إلاّ بعد الرّيح الّتي تقبض أرواح المؤمنين . وإنّما يعني الحديث استحكام ذلك وغلبته في الأمّة . وهو ما جاء مبيّناً في حديث عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) وفيه: " ثمّ يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشّام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرّة من خير أو إيمان إلاّ قبضته . حتّى لو أنّ أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتّى تقبضه " قال: سمعتها من رسول الله ﷺ قال: "فيبقى شرار النّاس في خفّة الطّير وأحلام السّباع . لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً . فيتمثّل لهم الشّيطان فيقول: " ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم في ذلك دارٌ رزقهم ، حسن عيشهم . ثمّ ينفخ في الصُّور (٢) ..." (٣) الحديث .

ويؤيّده حديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "لا تقوم السّاعة حتّى لا يقال في الأرض: الله الله " (٤) .

وفي الرّواية الأخرى: " لا تقوم السّاعة على أحد يقول: الله، الله" (٥) .

---

(١) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب لا تقوم السّاعة حتّى تعبد دوس ذا الخلصة (١٧) . برقم (٢٩٠٧) . ٢٢٣٠/٤ .

(٢) الصّور : هو القرن الّذي ينفُخ فيه ملك الموت (عليه السّلام) عند بَعْثِ المَوتى إلى المحشَر • وقال بعضُهم : إنّ الصُّور جمع صُورَة ، يُريد صُوَر الموتَى يَنْفُخُ فيها الأرواحَ • والصَّحيح الأوّل ، لأنّ الأحاديث تعاضَدَت عليه ، تارةً بالصُّور ، وتارة بالقَرْن . النّهاية في غريب الحديث: ٣ / ٦٠. بتصرُّف يسير.

(٣) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢) . باب في خروج الدَّجّال (٢٣). برقم: (٢٩٤٠). ٢٢٥٨/٤-٢٢٥٩ .

(٤) المرجع السّابق : بلفظه في كتاب الإيمان: (١) . باب ذهاب الإيمان آخر الزّمان : (٦٦) . برقم (١٤٨) . ١٣١/١.

(٥) المرجع السّابق . بلفظه في الكتاب والباب السّابقين . وبالرّقم والصّفحة السّابقة.

وفي رواية : " لا تقوم السّاعة حتّى لا يقال في الأرض لا إله إلاّ الله " [١] .

وهذا عند فساد الزّمان ، واستعلاء الكفر وكثرته ، وبقاء الأشرار واستشراء الفسق والمعاصي [٢] .

ومظاهر الشّرك في الأمّة جلية بيّنة لا لبس فيها ولا غموض . فكم من مشهد بني على قبر وقصد للدّعاء والتّعظيم والتّبرك والنّذر . وكم من وثن طيف به كما يطاف ببيت الله ، وقدّمت له القرابين ، وأقيمت له الأعياد .

وكم من شخص عظّم وقدّس ، وخلع عليه لباس الولاية حقّاً كان أم باطلاً، ودعي في الشّدائد لكشف الملمّات وقضاء الحاجات . وكم من طاغوت[٣]نصّب نفسه نداً لله تعالى ، وشرع من الدّين ما لم يأذن به الله ، وأصدر من الأحكام والقوانين ما يضاهي به شريعة الله سبحانه ، وألزم النّاس بالتّحاكم إليها . كما قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى:٢١].

---

(١) مسند أحمد: بلفظه في : ٣/٢٦٨ .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: ولفظه: " لا تقوم السَّاعة على أحد يقول: لا إله إلاّ الله". في باب ذكر الإخبار عن وصف النّاس الّذين يكون قيام السَّاعة على رءوسهم . برقم: (٦٨٤٨). قال شعيب الأرناؤوط: "إسناده صحيح". ١٥/٢٦٢.

مستدرك الحاكم: بلفظه في ٤/٥٤٠. وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين و لم يخرجاه".

و بلفظ مقارب في نفس الصّفحة. وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه".

(٢) انظر: النّهاية في الملاحم والفتن: ١/٢٤١ .

(٣) طاغوت: هو ما عبد من دون الله عزّ وجلّ ، وكلّ رأس في الضّلال طاغوت . وقيل : الطّاغوت الأصنام ، وقيل: الشّيْطان ، وقيل : الكهنة ، وقيل : مردة أهل الكتاب . لسان العرب: ٨/٤٤٤.

وقال الراغب (رحمه الله) :

"الطّاغوت عبارة عن كلّ متعدّ ، وكلّ معبود من دون الله . ويستعمل في الواحد والجمع " .

المفردات :ص : ٣٠٤-٣٠٥ .

وقال سبحانه: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١].

عن عدي بن حاتم ﷺ قال : أتيت النّبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب: فقال : " يا عدي اطرح عنك هذا الوثن ". وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ . قال : " أما إنّهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنّهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئاً استحلّوه ، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه " (١).

فالأمّة فتنت في أعزّ ما تملك ، وهي العقيدة الصّافية الصّحيحة الّتي سادت بها أمم الضّلال والكفر من قبل ، ونالت بها العزّة والنّصر والتّمكين في الأرض كما قال سبحانه: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [النور:٥٥].

ولكنّها لمّا تنكّبت الطّريق ، واختلت العقيدة في القلوب ، وبسط الشّرك أطنابه في بلدان المسلمين ــ إلاّ ما قلّ وندر ــ ارتبك أمر الأمّة ، وانهار كيانها ، فأصبحت مهضومة الحقوق ، مكسورة الجناح ، مضعضعة الأوصال .

ولا سعادة لها ولا فلاح إلاّ بتصحيح المعتقد ، وإقامة الأساس ، الّذي هو توحيد الله تعالى ، ومحق الشّرك ، وإزالة مظاهره من الوجود .

---

(١) سنن التّرمذي: بلفظه في : كتاب تفسير القرآن: (٤٣). باب ومن سورة التّوبة: (٩). برقم : (٣٠٩٥). قال الألباني رحمه الله: " حسن". ص: ٤٩٢.

سنن البيهقي الكبرى: نحوه برقم: (٢٠١٣٧) ، (٢٠١٣٨). ١١٦/١٠.

معجم الطّبراني الكبير: نحوه برقم : (٢١٨). ٩٢/١٧.

﴿ المطلب الثّالث ﴾

انتشار الزنا

إنّ الله تعالى حرّم الزّنا ، ونهى عباده عنه وعن قربه والدّنوّ منه وعن أسبابه . فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء:٣٢].

وقد أخبر النّبي ﷺ أنّ الزّنا سيفشو في هذه الأمّة ، وأنّ فشوه من أشراط السّاعة وعلاماتها .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ألاّ أحدّثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لا يحدّثكم أحد بعدي سمعه منه : " إنّ من أشراط السّاعة أن يرفع العلم ، ويظهر الجهل ، ويفشو الزّنا ، ويشرب الخمر ، ويذهب الرّجال ، ويبقى النّساء حتّى يكون لخمسين امرأة قيّم واحد " (١) .

ولا يقف الأمر عند فشو الزّنا وانتشاره ، بل يتعدّى ذلك إلى استحلاله .

فعن أبي مالك رضي الله عنه (٢) أنّ النّبي ﷺ قال: " لَيَكُونَنَّ من أمّتي أقوام يستحلّون الْحِرَ(٣) والحرير والخمر والمَعَازِف(٤) " (٥) .

وأمّا في آخر الزّمان ، وبعد ذهاب الخيّرين وبقاء الأشرار ، فإنّ الزّنا يصبح علناً مشاعاً يفعل أمام أعين النّاس من غير خفاء ولا تستر .

---

(١) سبق: ص: ١٣٥ . وقيّم المرأة هو الّذي يقوم بأمرها وما تحتاج إليه. انظر : النّهاية في غريب الحديث: ١٣٥/٤.

(٢) هو أبو مالك الأشعري الصّحابي ، مشهور بكنيته مختلف في اسمه. قيل : اسمه عمرو بن عاصم .: وقيل كعب بن عاصم . وقيل عبيد. وانظر: الإصابة : ٦٥٤/٤، ٥٩٧/٥، ٣٥٦/٧. فتح الباري: ٥٥/١٠. طبعة دار المعرفة.

(٣) الحِر: هو الفرج . وذلك كناية عن الزّنا . وانظر: النّهاية في غريب الحديث: ٣٦٦/١.

(٤) المعازف: هي الملاهي كالعود والطّنبور ، واحدها مِعْزَف ومِعْزَفة . وانظر: لسان العرب: ٢٤٤/٩. القاموس المحيط: ص: ١٠٨٢.

(٥) صحيح البخاري: بلفظه ــ وهو جزء من حديث ــ في كتاب الأشربة: (٤٨/٧٤). باب ما جاء فيمن يستحلّ الخمر ويسمّيه بغير اسمه : (٦). برقم: (٥٥٩٠). ص: ١٢١٨-١٢١٩.

عن النَّوَّاس بن سَمْعَان ﷺ ــ فذكر الحديث ــ وفيه قال ﷺ : "ويبقى شرار النّاس ، يَتَهَارَجُون[1] فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم السّاعة" [2] .

قال الإمام النّووي (رحمه الله):

" أي يجامع الرِّجال النِّساء بحضرة النّاس كما يفعل الحمير ، ولا يكترثون لذلك " [3] .

ويؤيّد ذلك ما جاء عن عبد الله بن عمرو(رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ : " لا تقوم السّاعة حتّى تَتَسَافَدُوا [4] في الطّريق تسَافُد الحمير " . قلت: إنّ ذاك لكائن؟ قال: " نعم ليكوننَّ " [5] .

وهذا إنّما يكون عند تردّي الإنسانية إلى الحضيض ، وغياب من يقوم بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، وانتشار الفواحش ، ورضا النّاس بذلك .

فعن أبي هريرة ﷺ عن النّبي ﷺ قال: "والّذي نفسي بيده لا تفنى هذه الأمّة حتّى يقوم الرّجل إلى المرأة ، فيفترشها في الطّريق ، فيكون خيارهم يومئذ من يقول: لو واريتها وراء هذا الحائط " [6] .

وإن كان الأمّة الإسلاميّة لم تصل الآن إلى هذا المستوى من التّردّي والانحراف الّذي أشار إليه النّبي ﷺ إلاّ أنّ الزّنا يمارس في المجتمعات الإسلاميّة

---

(1) يتهارجون : أي يتجامعون ، يقال : بات فلان يَهْرِجها إذا بات يجامعها .والهَرْج في غير هذا الاختلاط والقتل . انظر: غريب الحديث للهروي : ٧٧/٤. وانظر النّهاية في غريب الحديث: ٢٥٦/٥.

(2) صحيح مسلم: بلفظه ــ وهو جزء من حديث طويل ــ في كتاب الفتن وأشراط السَّاعة : (٥٢) . باب ذكر الدَّجَّال وصفته وما معه: (٢٠) برقم (٢٩٣٧) . ٢٢٥٥/٤ .

(3) شرح النَّووي على مسلم: ٧٠/١٨ .

(4) تتسافدوا : السِّفاد هو نزو الذّكر على الأنثى . لسان العرب: ٢١٨/٣. وانظر القاموس المحيط: ص: ٣٦٩.

(5) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبَّان: بلفظه في : باب ذكر الإخبار عن ظهور الزّنا ، وكثرة الجهر به في آخر الزّمان . برقم : (٦٧٦٧). قال شعيب الأرناؤوط: " إسناده صحيح" . ١٧٠/١٥ .

(6) مسند أبي يعلى : بلفظه برقم : (٦١٨٣). قال المحقّق حسين أسد: " إسناده قوي". ٤٣/١١. وقال الهيثمي "رجاله رجال الصَّحيح". مجمع الزّوائد: ٣٣١/٧ .

وقد أخبرني الشَّيخ سيّد سابق (رحمه الله)أنّ ذلك وقع فعلاً في بعض دول أوربا . أعاذنا الله .

في جنح الخفاء ، وقد يكثر في بعضها دون البعض الآخر، وهذا أمر لا يخفى على عاقل .

وخطر الزّنا لا يقف عند حدّ فاعله بل يتعدّاه إلى غيره ، وذلك بإحداثه كثيراً من المفاسد والشّرور الّتي تؤدّي إلى الفتك بالأمّة وتدهورها . كتفكك الأسر، وتدنّي الأخلاق بانتشار الرّذيلة ، واختلاط الأنساب ، ووجود أفراد في المجتمع لم ينشئوا تحت مظلّة أسرة واقية وكنف أب راعي ممّا يجعلهم وبالاً على ذلك المجتمع . أضف إلى ذلك انتشار الأوبئة الفتّاكة الّتي تنخر في عظام الأمّة فتعطّل سيرها ، وتضعف قوّتها ، وتحدث من الهلع والخوف في النّفوس الشّيء الكثير .
وما الإيدز [1] الّذي أصبح مصدر ذعر للعالم اليوم إلاّ نتيجة ممّا أفرزته فاحشة الزّنا.

وقد صدق رسول الله ﷺ عندما قال في حديث عبد الله بن عمر(رضي الله عنهما) : " يا معشر المهاجرين خمس إذا ابْتُلِيتُم بهنّ ، وأعوذ بالله أن تُدْرِكُوهُنَّ : لم تظهر الفاحشة في قوم قطُّ حتّى يُعلِنُوا بها إلاّ فشا فيهم الطّاعون والأوجاع الّتي لم تكن مضت في أسلافهم الّذين مضوا ..."الحديث [2] .
والفاحشة هي الزّنا .

---

(1) الإيدز: هو نقص المناعة في الجسم ممّا يعرّضه للأمراض .

(2) سنن ابن ماجة : بلفظه في : كتاب الفتن: (٣٦). باب العقوبات: (٢٢). برقم : (٤٠١٩). قال الألباني رحمه الله: " حسن".ص:٤٣٢. وهو في السّلسلة الصّحيحة : ١٦٧/١ . برقم : (١٠٦) .
وتمام الحديث: "و لم ينقصوا المكيال والميزان إلاّ أخذوا بالسّنين ــ أي الجدب والقحط ــ وشدّة المئونة ، وجور السّلطان عليهم ، و لم يمنعوا زكاة أموالهم إلاّ منعوا القطر من السّماء ولو لا البهائم لم يمطروا ، و لم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلاّ سلّط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيّروا ــ أي يطلبوا الخير ــ ممّا أنزل الله إلاّ جعل الله بأسهم بينهم ".

﴿المطلب الرّابع﴾

توسيد الأمر إلى غير أهله

من الفتن الشّائكة الّتي حلّت بأهل الإسلام تولّي أمر النّاس رُذَالتهم وسفهائهم وأسافلهم ، واستئثارهم بمواطن القيادة والمسئولية في الأمّة ، دون أهل الصّلاح والتّقوى . حيث أصبح أولئك قادة النّاس وسادتهم ، فتربّعوا على عروش مصالح العباد . وأقصي أهل الخير والإيمان وأبعدوا ، فأصبحوا لا حول لهم ولا قوّة .

وهذا أمر حذّر منه رسول الله ﷺ ، وحذّر من مغبّته وخطره على أمّة الإسلام .

عن أبي هريرة ﷺ قال: بينما النّبي ﷺ في مجلس يحدّث القوم ، جاءه أعرابي فقال: متى السّاعة ؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدّث ، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال . وقال بعضهم: بل لم يسمع . حتّى إذا قضى حديثه قال: أين أُرَاه السّائل عن السّاعة؟ قال: ها أنا يا رسول الله .

قال: "فإذا ضيّعت الأمانة فانتظر السّاعة " قال: كيف إضاعتها؟ قال: " إذا وسّد الأمر إلى غير أهله فانتظر السّاعة" (١) .

قال العيني (رحمه الله):

" قوله : " إذا وسّد الأمر ": المراد به جنس الأمور الّتي تتعلّق بالدّين ، كالخلافة والقضاء والإفتاء ونحو ذلك ، ويقال : أي بولاية غير أهل الدّين والأمانات ومن يعينهم على الظّلم والفجور . وعند ذلك تكون الأئمّة قد ضيّعوا الأمانة الّتي فرض الله عليهم . حتّى يؤتمن الخائن ويخون الأمين . وهذا إنّما يكون إذا غلب الجهل ، وضعف أهل الحقّ عن القيام به " (٢) .

---

(١) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب العلم : (٣). باب من سئل علماً وهو مشتغل في حديثه فأتمّ الحديث ثمّ أجاب السّائل: (٢). برقم: (٥٩).ص:٢٨. ونحوه في كتاب الرّقاق: (٥٥/٨١). باب رفع الأمانة: (٣٥). برقم: (٦٤٩٦). ص:١٣٨١.

(٢) عمدة القاري : ٧/٢ . وانظر: التّذكرة: ص: ٧٢٧ . جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم . لزين الدّين بن رجب الحنبلي . طبعة دار المعرفة . بيروت الطّبعة الأولى : ١٤٠٨ : ص : ٤١ .

فالّذي يتولّى أمر النّاس ومصالحهم في دينهم ومعاشهم يجب أن يكون أميناً مؤتمناً على ما كلّف به ، ناصحاً للأمّة ، صادقاً في وقوله وفعله ، بعيداً عن الخيانة والظّلم والأثرة . وهذا لا يتأتّى إلاّ لأهل الإيمان والتّقوى ، القائمين بحدود الله ، الملتزمين بأمره ، المجتنبين لنهيه . وهم الّذين يجب على الأمّة أن تسلّم لهم قيادها، وتولّيهم شئونها . لأنّ حياة البشر لا تصلح ، ولا تقوم لها قائمة إلاّ إذا تقلّد المناصب فيها أهل الكفاءة من أصحاب الصّلاح ، الّذين يستشعرون همَّ المسئولية في نفوسهم قبل غيرهم .

وذلك ما كان عليه أمر الأمّة من قبل ، حيث كان بيدي أهل الخير والصّلاح فكانت الأمّة تتبوّأ مركز الصّدارة بين الأمم وقتها ، رفيعة المنزلة ،عزيزة الجانب ، يسودها العدل ، ويكتنف جوانبها الأمن ، لا ظلم ولا خيانة ، لا كذب ولا خداع ، يجد كلّ صاحب حقّ حقّه ، ويردع كلّ صاحب باطل عن باطله .

عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: " حدّثنا رسول الله ﷺ حديثين ، قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر . حدّثنا " أنّ الأمانة نزلت في جَذْر[1] قلوب الرّجال ، ثمّ نزل القرآن ، فعلموا من القرآن وعلموا من السُّنّة " . ثمّ حدّثنا عن رفع الأمانة . قال : " ينام الرّجل النّومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل الْوَكْت .[2] ثمّ ينام النّومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل المَجْل .[3] كجمر دحرجته على رجلك فنَفِط [4] ، فتراه مُنْتَبِراً [5] وليس فيه شيء .

---

(1) جذر: الجَذْر هو الأصل من كلّ شيء . انظر: غريب الحديث للهروي: ١١٧/٤. الفائق: ٢٠٠/١.

(2) الوَكْت: هو أثر يسير في الشّيء من غير لونه . انظر: غريب الحديث للهروي: ١١٨/٤. الفائق: ٢٠٠/١. النّهاية في غريب الحديث: ٢١٧/٥.

(3) المَجْل: هو أثر العمل في الكفّ ، يعالج بها الإنسان الشّيء حتّى يغلظ جلدها . غريب الحديث للهروي: ١١٩/٤. انظر:الفائق: ٢٠١/١. النّهاية في غريب الحديث: ٣٠٠/٤.

(4) نَفِط: أي انتفخ وارتفع الجلد عن اللّحم فكان بينهما ماء من أثر العمل . وانظر: لسان العرب: ٤١٦/٧_٤١٧.

(5) مُنْتَبِراً : أي متنفّخاً مرتفعاً وليس فيه شيء . انظر:غريب الحديث للهروي: ١١٩/٤. الفائق: ٢٠١/١. النّهاية في غريب الحديث: ٦/٥-٧.

(ثمّ أخذ حصى فدحرجه على رجله) . فيصبح النّاس يتبايعون ، لا يكاد أحد يؤدّي الأمانة . حتّى يقال: إنّ في بني فلان رجلاً أميناً . حتّى يقال للرّجل: ما أجلده ، ما أظرفه ، ما أعقله ، وما في قلبه مثقال حبّة من خردل من إيمان" . ولقد أتى عليّ زمان وما أبالي أيّكم بايعت . لئن كان مسلماً ليردّنّه عليّ دينه ، ولئن كان نصرانياً أو يهودياً ليردّنّه عليّ ساعيه[1]. وأمّا اليوم فما كنت لأبايع منكم إلاّ فلاناً وفلاناً " [2].

فقد بيّن حذيفة ﷺ أنّ الأمّة كانت بخير ، وأنّ الثّقة كانت متوفّرة ، والأمانة قائمة ، والعهود مصانة ، لأنّ كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ هما الحكمان على العباد حينها . ولكن بدأ الوهن يدبّ إلى النّفوس ، والتّفلّت عن حكم الكتاب والسنّة يخالط القلوب ، والحال يتغيّر شيئاً فشيئاً ممّا دفع حذيفة ﷺ أن يقف موقف الحيطة والحذر ، ولا يقدم إلاّ على معاملة من يعرف حاله [3] .

إذا كان هذا في عهد حذيفة ﷺ فكيف بنا اليوم؟ لا شك إنّنا في بعد ساحق، وبون شاسع عن الصّفات الّتي يتّسم بها الأخيار الّذين يقودون الأمّة ، ويسيّرون أمرها بأفضل الطّرق وأمثل الوجوه . إلاّ من رحم ربّك . ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص:٢٤].

---

(١) قال الهروي (رحمه الله) :

" وقوله: ليردّنّه عليّ ساعيه — يعني الوالي الّذي عليه ، يقول: يُنصفني منه إن لم يكن له إسلام ، وكلّ من ولي شيئاً على قوم فهو ساعٍ عليهم ، وأكثر ما يقال ذلك في ولاة الصّدقة " . غريب الحديث للهروي: ٤/ ١٢٠.

(٢) صحيح البخاري : بلفظ مقارب في كتاب الرّقاق: (٨١/٥٥). باب رفع الأمانة: (٣٥). برقم: (٦٤٩٧). ص:١٣٨١-١٣٨٢. وفي كتاب الفتن: (٩٢/٦٧). باب إذا بقي في حثالة من النّاس: (١٣). برقم: (٧٠٨٦). ص:١٤٩٥.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الإيمان: (١). باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب ، وعرض الفتن على القلوب: (٦٤) . برقم (١٤٣) . ١/١٢٦-١٢٧ .

(٣) وانظر: شرح النّووي على مسلم: ٢/١٧٠ .

وقوله ﷺ :" حتّى يقال للرّجل : ما أجلده ، ما أظرفه " . أشار إليـــه بكــثرة العقل والظرافة والجلادة ، وقد خلا قلبه من الإيمان [1] .

إنّها مقاييس ومظاهر دنيوية لا تكفل لصاحبها تولّي أمور النّاس. ولكنّها فـــي الحقيقة أصبحت هي السّمات الّتي ينطلق منها فـــي اختيـــار أربـــاب المنـــاصب ، وأصحاب المسئوليات .

عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "سيأتي علـــى النّـــاس ســنوات خدّاعات يُصَدَّقُ فيها الكاذب ، ويُكَذَّبُ فيها الصّادق . ويُؤْتَمَنُ فيها الخائن ويخـــون فيها الأمين ، وينطق فيها الرُّوَيْبِضَةُ[2] " . قيل : وما الرويبضة ؟ قـــال: " الرّجـــل التّافِه[3] في أمر العامّة " [4] .

والّذي يلقي بنظرة فاحصة في عالم اليوم يجد أنّ هذه الأوصاف تنطبق تمامـــاً فيه ، فالكذب عمّ البلاء به ، والخيانة طمّت وعمّت ، وأصبح أهل الكفر والفجور هم الّذين يتصدّرون القافلة ، ويملكون من الوسائل المرئية والمسموعة والمقـــروءة مـــا يشيعون به الكذب ، ويصدّرونه إلى أنحاء العالم المختلفة ، فيتلقّف السّذج ذلك الكذب

---

(1) وانظر: تحفة الأحوذي : ٦/٣٣٨-٣٣٩ . وانظر: أشراط السّاعة . ليوسف بن عبد الله الوابل . دار طيبة . نشـــر مكتبة ابن الجوزي . الدّمام . الطّبعة الأولى: ١٤٠٩-١٩٨٩م. ص:١٤٠.

(2) الرّويبضة: تصغير رابضة ، وهو العاجز الّذي ربض عن معالي الأمور ، وجثم عن طلبها . وزيادة التّاء للمبالغـــة. الفائق: ٢/٢٧.

(3) التّافه : هو الخسيس الحقير الخامل من النّاس . انظر: غريب الحديث للهروي: ٣/١٥٣. الفائق: ٢/٢٧. النّهايـــة في غريب الحديث: ١/١٩٢.

(4) سنن ابن ماجه: بلفظه في : كتاب الفتن: (٣٦). باب شدّة الزّمان: (٢٤) . برقم (٤٠٣٦) . قال الألباني رحمـــه الله: "صحيح ". ص: ٤٣٤. وهو في السّلسلة الصّحيحة: ٤/٥٠٨ . برقم : (١٨٨٧).

مسند أحمد: بلفظ مقارب في : ٢/٢٩١. قال الشّيخ أحمد شاكر رحمه الله: " إسناده حسن ومتنه صحيح". مســـند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٥/٣٧-٣٨. برقم: (٧٨٩٩).

وفي: ٢/٣٣٨ . قال أحمد شاكر رحمه الله: " إسناده صحيح ". مسند أحمد بتحقيق أحمـــد شـــاكر: ١٦/١٩٤. برقم: (٨٤٤٠) . عن أنس ﷺ . في: ٣/٢٢٠.

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في : ٤/٥١٢،٥٥٧. وقال: " هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجـــاه". وقـــال الذّهبي رحمه الله: " صحيح".

مسند أبي يعلى: بلفظ مقارب برقم : (٣٧١٥). عن أنس ﷺ . قال المحقّق: " رجاله ثقات". ٦/٣٧٨.

فيصدّقونه، ويروّجونه . بل ويرتمون في أحضان أولئك الكفرة بزعم أنّهم أهل الصّدق والأمانة ، وأهل العدل والإنصاف ، الّذين يحلّون مشاكل الأمّة ، ويعيدون لها ما سلب من حقوق .

وقد تكلّم في شئون العالم التّافهون من الرّجال ، الّذين يوشكون بقيادتهم له أن يدمّروا جميع البشريّة (١) .

عن حذيفة ﷺ عن النّبي ﷺ قال: " لا تقوم السّاعة حتّى يكون أسعد النّاس بالدّنيا لُكَعُ(٢) بن لُكَعٍ " (٣) .

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : " لا تنقضي الدّنيا حتّى تكون عند لكع بن لكع " (٤) .

---

(١) انظر: اليوم الآخر (١) ص: ١٩٣ .

(٢) لُكَع: هو السّافل من النّاس أو اللّئيم . وقد يطلق على الصّغير . وانظر: غريب الحديث للهروي: ١٥٤/٣. غريب الحديث للخطّابي: ١٠٣/٣. الفائق: ٣٢٩/٣.

قال ابن الأثير: " اللّكع عند العرب العبد ، ثمّ استعمل في الحمق والذّم . يقال للرّجل لكع . وللمرأة لكاع " . النّهاية في غريب الحديث: ٢٦٨/٤.

(٣) سنن التّرمذي: بلفظه في : كتاب الفتن: (٣٠). باب : (٣٧). برقم: (٢٢٠٩). وقال: " هذا حديث حسن غريب ". و قال الألباني رحمه الله: " صحيح". ص: ٣٦٦. وهو في صحيح الجامع :برقم : (٧٤٣١) . ١٢٣٨/٢ .

مسند أحمد: بلفظه في : ٣٨٩/٥ .

(٤) المرجع السّابق: بلفظ مقارب في: ٣٢٦/٢، ٣٥٨. عن أبي هريرة ﷺ . وفي:٤٦٦/٣. عن ابن نيار ﷺ . وفي: ٤٣٠/٥. عن بعض الصّحابة .

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بلفظه في : باب ذكر الإخبار بأنّ الدّنيا يملكها من لاحظّ له في الآخرة . برقم: (٦٧٢١) . قال شعيب الأرناؤوط: " إسناده صحيح". ١١٦/١٥ .

وانظر: مجمع الزّوائد : ١٤٠٧هـ : ٣٢٥/٧ .

المبحث الرّابع

فتنة الدَّجّال

هنالك علامات وأحداث تقع في هذا الكون تدلّ على قرب قيام السّاعة . منها علامات صغرى قد تناولت بعضها فيما سبق . ومنها علامات كبرى وهي الّتي ورد ذكرها في حديث حذيفة بن أَسيد الغفاريِّ ﷺ قال: اطّلع النّبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال: "ما تذاكرون" قالوا: نذكر السّاعة . قال: " إنّها لن تقوم حتّى ترون قبلها عشر آيات: فذكر الدُّخان (١) والدَّجّال ، والدَّابّة ،(٢)

---

(١) الدّخان: هو الّذي ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾ [الدخان:١٠،١١] . وهل وقع الدّخان أم هو آية مرتقبة؟ قولان لأهل العلم .

قال النّووي (رحمه الله):

" هذا الحديث يؤيّد قول من قال إنّ الدّخان دخان يأخذ بأنفاس الكفّار ، ويأخذ المؤمن منه كهيئة الزّكام ، وأنّه لم يأت بعد ، وإنّما يكون قريباً من قيام السّاعة . وقد سبق في كتاب بدء الخلق قول من قال هذا ، وإنكار ابن مسعود عليه . وأنّه قال: إنّما هو عبارة عمّا نال قريشاً من القحط حتّى كانوا يرون بينهم وبين السّماء كهيئة الدّخان . وقد وافق ابن مسعود جماعة ، وقال بالقول الآخر حذيفة وابن عمر والحسن . ورواه حذيفة عن النّبي ﷺ وأنّه يمكث في الأرض أربعين يوماً . ويحتمل أنّهما دخانان للجمع بين هذه الآثار" . شرح النّووي على مسلم ٢٧/١٨ . وانظر: التّذكرة للقرطبي: ص:٧٤١.

وقد رجّح ابن كثير (رحمه الله) انه من الآيات المنتظرة الدّالة على قرب قيام السّاعة . وأيّد ذلك بظاهر القرآن ، وأحاديث مرفوعة ، وآثار من الصّحابة. انظر تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٢١١-٢١٣. وانظر النّهاية في الفتن: ٢٢٤/١. . اليوم الآخر: ص: ٢٢١-٢٢٣. أشراط السّاعة: ص: ٢٩٩-٣٠٤.

(٢) الدّابّة: هي الّتي ورد ذكرها في قول الله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝﴾ [النمل:٨٢] .

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، طلوع الشّمس من مغربها ، والدَّجّال ودابّة الأرض " . صحيح مسلم: كتاب الإيمان: (١) باب بيان الزّمن الّذي لا يقبل فيه الإيمان (٧٢) برقم: (١٥٨)،١/١٣٨ .

وعن أبي أمامة ﷺ يرفعه إلى النّبي ﷺ قال: "تخرج الدّابّة فتسم النّاس على خراطيمهم ، ثمّ يغمرون — أي يكثرون — فيكم حتّى يشتري الرّجل البعير فيقول ممّن اشتريته ؟ فيقول : من أحد المخطّمين" . مسند أحمد ٢٦٨/٥ . مجمع الزّوائد: ٦/٨. وقال: "رواه أحمد ، ورجاله رجال الصّحيح غير عمر بن عبد الرّحمن بن عطيّة

وطلوع الشّمس من مغربها [1] ، ونزول عيسى ابن مريم ﷺ [2] ،

وهو ثقة". وهو في السّلسلة الصّحيحة : ٥٧٦/١ . برقم: (٣٢٢). صحيح الجامع : برقم : (٢٩٢٧) . ٥٦٤/١ .

وهذه الدّابّة تخرج في آخر الزّمان عند فساد النّاس ، وتركهم أوامر الله ، وتبديلهم الدّين الحق .

قيل : تخرج من مكّة . وقيل : من غيرها . فتكلّم النّاس أي تخاطبهم مخاطبة، تقول : ﴿ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ . تفسير القرآن العظيم: ٥٩٨/٣ .

(١) طلوع الشّمس من مغربها : هو الّذي ورد ذكره في قول الله تعالى: ﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأنعام:١٥٨].

بذلك فسّرها رسول الله ﷺ كما جاء في حديث أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: " لا تقوم السّاعة حتّى تطلع الشّمس من مغربها ، فإذا طلعت من مغربها آمن النّاس كلّهم أجمعون ، فيومئذ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً " .

صحيح مسلم: كتاب الإيمان: (١) . باب بيان الزّمن الّذي لا يقبل فيه الإيمان: (٧٢). برقم: (١٥٧). ١٣٧/١ .

فمن كان مؤمناً مصلحاً في عمله قبل طلوع الشّمس من مغربها نفعه إيمانه ، وأمّا من كان كافراً فأنشأ إيماناً ، أو عاصياً فأحدث توبة لا يقبل منه لأنّ تلك العلامة من أكبر أشراط السّاعة الدّالة على اقترابها ودنوّها ، فعومل ذلك الوقت معاملة يوم القيامة .

انظر: تفسير القرآن العظيم: ٣١٣/٢ . النّهاية في الفتن: ٢٢٢/١ .

(٢) لقد بيّن الله سبحانه أنّ عيسى (عليه السّلام) رفع من الأرض إلى السّماء ، وأنّ اليهود ــ عليهم لعائن الله ــ لم يقتلوه و لم يصلبوه كما اعتقد ذلك النّصارى ، وأنّه رفع بروحه وجسده ، وهو حي عند الله تعالى .

فقال سبحانه: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ [النّساء:١٥٧،١٥٨] .

وسوف ينزل بمشيئة الله في آخر الزّمان دلالة وعلامة على قرب قيام السّاعة . كما قال سبحانه ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ [الزخرف:٦١].

ويأجُوج ومأجُوج [1] ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب .

وحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كما قال سبحانه: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النّساء:١٥٩] .

ويترل حاكماً بشريعة محمّد ﷺ لا ناسخاً لها ، ولا يترل برسالة مستقلّة. فيكسر الصّليب إبطالاً لما يزعمه النّصاري من تعظيمه ، ويقتل الختزير ، ويضع الجزية فلا يقبل من الكفّار إلاّ الإسلام ، ويقتل الدّجّال . ويفيض المال ويكثر ، وتترل البركات والخيرات بسبب العدل وعدم التّظالم .

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "والّذي نفسي بيده ليوشكنّ أن يترل فيكم ابن مريم ﷺ حكماً مقسطاً ، فيكسر الصّليب ، ويقتل الختزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتّى لا يقبله أحد".

صحيح البخاري: بلفظ مقارب. في: كتاب أحاديث الأنبياء: (٣٦/٦٠). باب نزول عيسى ابن مريم (عليهما السّلام) : (٥٠/٤٩) ص:٧٣١. صحيح مسلم:بلفظه في: كتاب الإيمان : (١). باب نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشريعة نبينا ﷺ : (٧١). برقم: (١٥٥) : ١٣٥/١.

وانظر في نزول عيسى (عليه السّلام) :

تأويل مختلف الحديث . لابن قتيبة . تصحيح محمّد زهدي النّجار . النّاشر مكتبة الكلّيات الأزهرية : ١٣٨٦هـ — ١٩٦٦م ميدان الأزهر. ص : ١٨٨ . شرح النّووي على مسلم: ١٩٠/٢-١٩١. التّذكرة: ص:٧٦٣-٧٦٤. الجامع لأحكام القرآن: ١٠/٦-١١. النّهاية في الفتن: ١٨٣/١، ١٩٣/١. تفسير القرآن العظيم: ٨٧٢/١-٨٨٩. القناعة فيما يحسن الإحاطة به من أشراط السّاعة . لمحمّد بن عبد الرّحمن السّخاوي. تحقيق : مجدي السّيد إبراهيم . مكتبة القرآن .القاهرة . ص:٢٨. لوامع الأنوار البهيّة وسواطع الأسرار الأثريّة شرح الدّرة المضيئة في عقيدة الفرق المرضيّة . لمحمّد بن أحمد السّفاريني . نشر مكتبة أسامة. الرّياض. طبعة المكتب الإسلامي. بيروت: ٩٤/٢-٩٥. موقف المدرسة العقليّة من السّنّة النّبويّة للباحث . طبعة مكتبة الرّشد . الرّياض . الطّبعة الأولى : ١٤١٨هـ — ١٩٩٨م : ٢١٤/٢-٢٣٠.

(١) إنّ يأجوج ومأجوج أمتان كثيرتا العدد من ذرية آدم ، كانوا يخرجون على بلاد التّرك فيعيثون فيها فساداً ، ويهلكون الحرث والنّسل. فلمّا بلغ ذو القرنين تلك البلاد طلب أهلها منه أن يبني بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدّاً ففعل . وقد جاء خبر ذلك السّد في الآيات: ٩٣-٩٩ من سورة الكهف .

كما بيّن النّبي ﷺ في حديث زينب بنت جحش أنّه قد فتح في عهده من ذلك السّد حلقة صغيرة (انظر الحديث: ص : ٣٠) ولكنّهم لا يتمكّنون من الخروج حتّى يأذن الله لهم به في آخر الزّمان قرب قيام السّاعة فيندك السّد ويخرجون في عدد هائل لا طاقة لأهل الأرض بهم ، فيعيثون في الأرض فساداً .

وآخر ذلك نار(1)

قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٦،٩٧].

وفي حديث النّواس بن سمعان ﷺ قال ﷺ : "إذ أوحى الله إلى عيسى إنّي قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرّز عبادي إلى الطّور . ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كلّ حدب ينسلون ، فيمرّ أوائلهم على بحيرة طبريّة فيشربون ما فيها . ويمرّ آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرّة ماء . ويحصد نبي الله عيسى وأصحابه حتّى يكون رأس الثّور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم . فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه . فيرسل الله عليهم النّغف ــ دود يكون في أنوف الإبل والغنم ــ في رقابهم فيصبحون فرسى ــ قتلى ــ كموت نفس واحدة " الحديث : سبق تخريجه انظر: ص : ١٤٥ .

انظر في شأن يأجوج ومأجوج :

الجامع لأحكام القرآن : ١١/ ٥٥-٦٥. تفسير القرآن العظيم: ٣/١٦٨-١٧٢، ٣١١-٣١٥. النّهاية في الفتن: ١/٢٠١. اليوم الآخر: ص: ٢٧١-٢٧٦. أشراط السّاعة: ص:٢٨٥-٢٩٦.

(1) هذه النّار الحاشرة هي آخر أشراط السّاعة الكبرى ، وأوّل آية تدلّ على قيام السّاعة . وقد جاء في رواية عن حذيفة بن أسيد ﷺ تحديد موطن خروجها قال ﷺ : "ونار تخرج من قعر عدن ترّحل النّاس" .

صحيح مسلم: كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب في الآيات الّتي تكون قبل السّاعة (١٣). برقم: (٢٩٠١). ٤/٢٢٢٦ .

وجاء عن أنس ﷺ أنّ النّبي ﷺ قال: " أوّل أشراط السّاعة فنار تحشر النّاس من المشرق إلى المغرب" .

صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء: (٦٠/٣٦). باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريّته: (١). برقم: (٣٣٢٩). ص:٦٩٩.

ويجمع بينهما بأنّ آخريتها باعتبار ما ذكر معها من الآيات ، وأوّليتها بأنها أوّل الآيات الّتي لا شيء بعدها من أمور الدّنيا أصلاً . بل يقع بانتهائها النّفخ في الصّور ، بخلاف ما ذكر معها فإنّه يبقى بعد كلّ آية منها أشياء من أمور الدّنيا . فتح الباري : ١٣/ ٨٢. طبعة دار المعرفة. القناعة ص: ٤٨.

وهذا الحشر ليس المراد به حشر النّاس يوم القيامة بعد البعث من القبور ، وإنّما حشر يكون في آخر الدّنيا قبيل يوم القيامة . وقد جاء وصفه في حديث أبي هريرة ﷺ عن النّبي ﷺ قال: " يحشر النّاس على ثلاث طرائق راغبين راهبين ، واثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، وتحشر بقيتهم النّار . تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا ، وتصبح معهم حيث أصبحوا ، وتمسي معهم حيث أمسوا " .

صحيح مسلم : كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها: (٥١). باب فناء الدّنيا وبيان الحشر يوم القيامة: (١٤). برقم: (٢٨٦١) . ٤/٢١٩٥ .

تخرج من اليمن تطرد النّاس إلى محشرهم ". [1]

ومن تلك العلامات الكبرى الدّجّال . وهو رجل من بني آدم خلقه الله عزّ وجلّ ، وأقدره على أشياء من الخوارق ليكون فتنة للنّاس وبلاء في آخر الزّمان . فيضلّ الله به كثيراً من العباد ، ويزداد الّذين آمنوا إيماناً[2].

وقد تواترت الأخبار الصّحيحة عن رسول الله ﷺ بذكره ، فهو حقيقة

انظر شرح النّووي على مسلم: ١٧/١٩٤-١٩٥. الجامع لأحكام القرآن : ١٨/٢-٣. النّهاية في الفتن: ١/٢٣٠-٢٣١.

وقد صح في الحديث أنّ ذلك الحشر يكون إلى أرض الشّام كما جاء في حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : " ههنا " ونحا بيده نحو الشّام: "إنّكم محشورون رجالاً وركباناً ، وتجرون على وجوهكم ". سنن التّرمذي .كتاب صفة القيامة والرّقاق والورع. باب ما جاء في شأن الحشر:برقم:(٢٤٢٤) ص:٣٩٧. مسند أحمد.: ٥/٣،٤ مستدرك الحاكم:٤/٦٠٨ . وانظر:صحيح الجامع : برقم : (٢٣٠٢) . ٢/٤٥٦.

وورد أنّه يكون إلى بيت المقدس . كما جاء في حديث ميمونة (رضي الله عنها) أنّه لّما سئل ﷺ عن بيت المقدس قال : " أرض المحشر والمنشر " . ولكن الحديث لم يصح . سنن ابن ماجة. كتاب إقامة الصّلاة. باب ما جاء في الصّلاة في مسجد بيت المقدس. ص:١٥٦ برقم : (١٤٠٧). مسند أحمد: ٦/٤٦٣.

وهذه النّار ليست نار الحجّاز الّتي ورد ذكرها في حديث أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: " لا تقوم السّاعة حتّى تخرج نار من أرض الحجّاز تضيء أعناق الإبل ببُصْرَى " . صحيح البخاري: كتاب الفتن: (٩٢/٦٧). باب خروج النّار: (٢٤/٢٥). برقم: (٧١١٨). ص:١٥٠٠. صحيح مسلم : كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب لا تقوم السّاعة حتّى تخرج نار من أرض الحجّاز: (١٤) برقم: (٢٩٠٢). ٤/٢٢٢٧-٢٢٢٨.

فتلك ظهرت في القرن السّابع الهجري .

قال النّووي رحمه الله: " وقد خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وستمائة ، وكانت ناراً عظيمة جدّاً من جنب المدينة الشّرقي وراء الحرّة . تواتر العلم بها عند جميع الشّام ، وسائر البلدان . وأخبرني من حضرها من أهل المدينة ". شرح النّووي على مسلم: ١٨/٢٨. وانظر: التّذكرة: ص: ٧٢١-٧٢٢. النّهاية في الفتن: ١/٢٧. فتح الباري: ١٤/٥٨٧.

والحديث أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط السّاعة . باب في الآيات الّتي تكون قبل السّاعة : (١٣) برقم: (٢٩٠١) ٤/٢٢٢٥-٢٢٢٦.

(1) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب في الآيات الّتي تكون قبل السّاعة: (١٣). برقم: (٢٩٠١). ٤/٢٢٢٥-٢٢٢٦. ونحوه في: ٤/٢٢٢٦.

(2) انظر: شرح النّووي على مسلم: ١٨/٥٨ . النّهاية في الفتن: ١/١٦٤، ١٧٢ . عمدة القاري: ٢٤/٢١٦ .

خلافاً لمن أنكره [1].

وفتنته ـ قبّحه الله ـ من أعظم الفتن الّتي عرفتها البشريّة قاطبة ، ولذلك حذّر منه رسل الله كافّة .

عن أبي أمامة الباهلي ﷺ قال : " خطبنا رسول الله ﷺ ، فكان أكثر خطبته حديثا حدّثناه عن الدّجّال وحذّرناه . فكان من قوله أن قال:" إنّه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدّجّال ، وإنّ الله لم يبعث نبيّاً إلاّ حذّر أمّته الدّجّال ، وأنا آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم وهو خارج فيكم لا محالة ، وإن يخرج وأنا بين ظَهْرَانَيْكم[2] فأنا حجيج لكلّ مسلم ، وإن يخرج من بعدي فكلّ امرئ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كلّ مسلم..."الحديث [3].

وعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) قال: فقام رسول الله ﷺ في النّاس فأثنى على الله بما هو أهله . ثمّ ذكر الدّجّال فقال: "إنّي لأُنْذِرُكُمُوه . ما من نبيّ إلاّ وقد أنذره قومه . لقد أنذره نوح قومه . ولكن أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبيّ لقومه، تَعَلَّمُوا أنّه أعور ، وأنّ الله تبارك وتعالى ليس بأعور" [4].

---

(1) انظر: النّهاية في الفتن: ١٦٤/١ وممن أنكره: الخوارج والجهميّة وبعض المعتزلة وبعض المُحْدَثِين . انظر: شرح النّووي على مسلم: ٥٨/١٨ . التّذكرة: ص: ٧٥١ . النّهاية في الفتن: ١٦٤/١ . أشراط السّاعة . ص: ٢٤٦ .

(2) ظَهْرانَي: بين أظهرهم .أي بينهم. انظر: الفائق: ٤١/١. النّهاية في غريب الحديث: ١٦٦/٣.

(3) سنن ابن ماجه: بلفظه في : كتاب الفتن: (٣٦). باب فتنة الدَّجّال ، وخروج عيسى ابن مريم ، وخروج يأجوج ومأجوج: (٣٣). برقم: (٤٠٧٧). ص: ٤٣٩-٤٤٠.

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في: ٥٨٠/٤. وقال: " هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه بهذه السّياقة". وقال الذّهبي رحمه الله: " على شرط مسلم".

وانظر: التّصريح بما تواتر في نزول المسيح . للشّيخ محمّد أنور شاه الكشميري . ترتيب محمّد شفيع . تحقيق عبد الفتّاح أبو غدّة . النّاشر: مكتبة المطبوعات الإسلاميّة بحلب . ودار القرآن الكريم . بيروت . الطّبعة الثّالثة : ١٤٠١هـ-١٩٨١.

وفي حديث حذيفة ﷺ قال : قال ﷺ : " إنّها ليست من فتنة صغيرة ولا كبيرة إلاّ تتّضع لفتنة الدَّجّال".

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان : ٢١٨/١٥ . وانظر: مسند أحمد: ٣٨٩/٥. مجمع الزّوائد: ٣٣٥/٧.

(4) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في : كتاب الجهاد والسّير: (٣٢/٥٦). باب كيف يعرض الإسلام على الصّبي: (١٧٧/١٧٨). برقم: (٣٠٥٧). ص:٦٤٤. وفي كتاب أحاديث الأنبياء: (٣٦/٦٠). باب قول الله تعالى :

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ﴾

ولمّا عظمت فتنته أكثر النّبي ﷺ من ذكر أوصافه حتّى ينجلي أمره ، ويتّضح خبره ، ويعرف ضلاله ، وينجو المؤمنون من فتنته ، ولا يهلك فيه إلاّ من كتب الله عليه الهلاك .

والأحاديث في ذلك كثيرة جداً منها:

عن ابن عمر (رضي الله عنهما) أنّ رسول الله ﷺ ذكر الدّجّال بين ظــــهراني النّاس فقال: " إنّ الله تعالى ليس بأعور .ألاّ وإنّ المسيح الدّجّال أعور العين اليمنى . كأن عينه عنبة طافئة[1] " [2] .

[نوح:١] : (٣). برقم: (٣٣٣٧). ص: ٧٠١.وفي كتاب المغازي: (٣٨/٦٤). باب حجّة الـوداع: (٧٨/٧٧). برقم: (٤٤٠٢). ص:٩١٥. وفي كتاب الأدب: (٥٢/٧٨). باب قول الرّجل للرّجل : اخســأ: (٩٧). برقــم: (٦١٧٥). ص:١٣٢٠. وفي كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب ذكر الدَّجّال: (٢٧/٢٦). برقـــم: (٧١٢٧). ص: ١٥٠١-١٥٠٢.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب ذكر ابــن صيّــاد: (١٩). برقــم (١٦٩) . ٢٢٤٥/٤.

(١) طافئة: رويت بالهمز وتركه وكلاهما صحيح. فالمهموزة هي الّتي ذهب نورها ، وغير المهموزة هي الّــتي نتــأت وارتفعت وفيها ضوء . شرح النّووي على مسلم: ٦٠/١٨.القناعة : ص:٢٥. وانظر : النّهاية في الفتن: ١٦٥/١.

(٢)صحيح البخاري: بلفظ مقارب في كتاب أحاديث الأنبياء: (٣٦/٦٠). بــاب ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا ﴾ [مريم:١٦]: (٤٩/٤٨). برقـــم: (٣٤٣٩). ص:٧٣٠. وفي كتــاب المغــازي: (٣٨/٦٤). باب حجّة الوداع: (٧٨/٧٧). برقم: (٤٤٠٢). ص:٩١٥. وفي كتاب الفــتن: (٦٧/٩٢). بــاب ذكر الدَّجّال: (٢٧/٢٦). برقم: (٧١٢٣). ص:١٥٠١. ونحوه في كتاب التّوحيد: (٧٢/٩٧). باب قــول الله تعالى: ﴿ وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾ [طه:٣٩]: (١٧). برقم: (٧٤٠٧). ص:١٥٥٥.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب ذكر الدَّجّال وصفته ومامعه: (٢٠). برقـــم: (١٦٩). ٢٢٤٧/٤. و بلفظ مقارب في كتاب الإيمان : (١). باب ذكر المسيح ابن مريم والمســيح الدَّجّــال: (٧٥). برقم: (١٦٩). ١٥٥/١.

وعن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " الدّجّال ممسوح العين . مكتوب بين عينيه كافر" . ثمّ تهجّاها " ك ف ر ، يقرؤه كلّ مسلم "[1] .

وعن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : " الدّجّال أعور العين اليسرى ، جُفَال الشَّعْر[2] ، معه جنّة ونار ، فناره جنّة ، وجنّته نار" [3] .

وعن عبادة بن الصامت ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: " إنّي قد حدّثتكم عن الدّجّال حتّى خشيت أن لا تعقلوا . إنّ مسيح الدّجّال رجل قصير أفْحَجُ [4] جَعْدٌ [5]

---

(1) صحيح البخاري: نحوه: في كتاب التّوحيد: (٩٧/٧٢). باب قول الله تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ [طه:٣٩]: (١٧). برقم: (٧٤٠٨).ص:١٥٥٥. وفي كتاب الفتن: (٩٢/٦٧). باب ذكر الدَّجَّال: (٢٦/٢٧). برقم: (٧١٣٧). ص:١٥٠٢.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراط السَّاعة: (٥٢). باب ذكر الدَّجَّال وصفته ومامعه: (٢٠). برقم: (٢٩٣٣). ٢٢٤٨/٤.

قال النَّووي رحمه الله:

" الصَّحيح الَّذي عليه المحقّقون أنّ هذه الكتابة على ظاهرها ، وأنّها كتابة حقّيقية جعلها الله آية وعلامة من جملة العلامات القاطعة بكفره وكذبه وإبطاله ، ويظهرها الله تعالى لكلّ مسلم كاتب وغير كاتب ، ويخفيها عمّن أراد شقاوته وفتنته ، ولا امتناع في ذلك ". شرح النَّووي على مسلم: ٦٠/١٨. وانظر: النّهاية في الفتن: ١٦٥/١.

(2) جُفَال الشّعر: أي كثير الشّعر مجتمعه. انظر: الفائق: ٢١٨/١. وانظر: غريب الحديث للهروى: ١٦٣/٣. النّهاية في غريب الحديث: ٢٨٠/١.

(3) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراط السَّاعة: (٥٢). باب ذكر الدَّجَّال وصفته ومامعه: (٢٠). برقم: (٢٩٣٤). ٢٢٤٨/٤-٢٢٤٩.

(4) أفْحَج: أي متباعد مابين الفخذين. انظر: غريب الحديث للخطّابي: ٣٥٢/١. النِّهاية في غريب الحديث: ٤١٥/٣.

(5) جعد : أي قصير . أو المراد: جعد الشّعر: أي شعره متعقّد ومنقبض ليس بسَبْط .والسّبط هو الممتدّ المنبسط.

وانظر: غريب الحديث للهروي: ٢٧/٣. غريب الحديث للخطّابي: ٣٠٣/١. الفائق: ١١٣/١، ٤٤٤.النِّهاية في غريب الحديث: ٢٧٥/١ ، ٣٣٤/١.

أعور مطموس العين ، ليس بناتئة ولا حَجْراء[1]. فإن أُلْبِس عليكم فاعلموا أنّ ربّكم ليس بأعور " [2] .

وعن أبي بن كعب ﷺ عن النّبي ﷺ أنّه قال: " الدّجّال عينه خضراء كزجاجة ، وتعوّذوا بالله من عذاب القبر " [3] .

وعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) أنّ رسول الله ﷺ ذكر المسيح ابن مريم فوصفه ، ثمّ وصف الدّجّال فقال: "رجل جسيم أحمر جعد الرأس ، أعور العين كأن عينه عنبة طافية " [4] .

وعن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) عن النّبي ﷺ أنّه ذكر الدّجّال فقال: "أعور هِجَانٌ[5] أزْهَرُ[6] ،

---

(1) حجراء : أي ليست بصلبة متحجّرة ، لكنّها رخوة لينة . وعلى تقديم الجيم : أي غائرة . انظر: غريب الحديث للخطّابي: ٣٥٢/١. الفائق: ٣٦٨/٢. النّهاية في غريب الحديث: ٣٤٣/١.

(2) سنن أبي داود: بلفظه في : كتاب الملاحم: (٣٦). باب خروج الدَّجَّال: (١٤). برقم: (٤٣٢٠). قال الألباني رحمه الله: " صحيح". ص:٤٧١.وانظر: صحيح الجامع: برقم: (٢٤٥٩). ٤٨٣/١.
مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٣٢٤/٥.

(3) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بلفظه في : باب ذكر الإخبار عن العلامة الّتي يعرف بها الدَّجَّال عند خروجه. برقم: (٦٧٩٥). قال شعيب الأرناؤوط: "إسناده صحيح". ٢٠٦/١٥ . وهو في السّلسلة الصّحيحة:برقم: (١٨٦٣) . ٤٧٧/٤.

(4) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب ذكر الدَّجَّال: (٢٧/٢٦). برقم: (٧١٢٨). ص:١٥٠٢. و بلفظ مقارب في كتاب أحاديث الأنبياء: (٣٦/٦٠). باب : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ [مريم:١٦] : (٤٩/٤٨). برقم: (٣٤٤١). ص:٧٣٠. وفي كتاب التّعبير: (٦٦/٩٨). باب رؤيا اللّيل: (١١). برقم: (٦٩٩٩). ص:١٤٧٨. ونحوه في كتاب اللّباس: (٥١/٧٧). باب الجعد : (٦٨). برقم: (٥٩٠٢). ص:١٢٧٣.
صحيح مسلم: بلفظ مقارب في كتاب الإيمان: (١). باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدَّجَّال: (٧٥). برقم: (١٦٩). (١٧١). ١٥٦/١.

(5) هجان: أي أبيض . انظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ٣٠٧/١. الفائق:١٣٨/٢. النّهاية في غريب الحديث: ١٠٧/٤، ٢٤٧/٥.

(6) أزهر: الأزهر هو الأبيض النّير الّذي لا يخالط بياضه حمرة . انظر: غريب الحديث للهروي: ٢٧/٣. الفائق: ١٣٧/٢. النّهاية في غريب الحديث: ٣٢١/٢.

كأنّ رأسه أصَلَةٌ [1] ، أشبه النّاس بعبد العُزّى بن قَطَن[2] فإن هلك الـهُلّكُ [3]، فـإنّ ربّكم ليس بأعور" [4].

وهذه الصفات الّتي ذكرها رسول الله ﷺ : كلّها صفات ذميمة أو معظمـها ، وهي تبيّن كذب الدّجّال في دعواه الإلهيّة ، وإنّه عاجز عن إزالة ما به مـن عيـب ونقص ، والإله سبحانه يتعالى عن النّقص . ومن كان عاجزاً عن إزالة نقصه فـهو أعجز عن نفع غيره أو مضرّته . فلا يغتر به إلاّ من لم يوفّق للهداية [5] .

---

(1) أصلة: هي حيّة كبيرة الرّأس . انظر:. الفائق: ١٣٨/٢. وانظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ٣٠٧/١

(2) عبد العزّى بن قطن بن عمرو بن جندب . رجل من خزاعة هلك في الجاهليّة. وأمّـه هالـة بنـت خويلـد . انظر: فتح الباري: ٤٨٨/٦. طبعة دار المعرفة. وذكر الألباني (رحمه الله) أنّه من الصّحابـة . انظـر : سلسـلة الأحاديث الصّحيحة : ٣/ ١٩١ . ولم أقف عليه بين أسماء الصّحابة ﷺ . فلعل الشّـيخ (رحمـه الله) وهـم في ذلك ، أو اختلط عليه أمر أكثم بن أبي الجون ﷺ وهو صحابي . فقد روي أنّ رسول الله ﷺ شبّهه بالدّجّـال . ولكنّ الخبر بذلك لم يصح . وإنّما الّذي صحّ تشبيه الرّسول ﷺ لأكثم بعمرو بن لحـي الخزاعـي . وانظـر : الاستيعاب . لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمّد بن عبد البر . تحقيق : علي محمّد البجاوي . طبعة : دار الجيل بيروت . الطّبعة الأولى : ١٤١٢هـ : ١٤٢/١ . الإصابة : ١٠٦/١-١٠٧ . وانظـر : الطبقـات الكـبرى : ٢٩٢/٤ .

(3) الهُلّك : جمع هالك .أي إن هلك به ناس جاهلون وضلّوا فاعلموا أنّ الله ليس بأعور .
وفي الرّواية الأخرى: الهُلْك كلّ الهُلْك : أي الهلاك كلّ الهلاك. انظر: الفائق: ١٣٨/٢. النّهاية في غريب الحديـث: ٢٦٩/٥. وانظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ٣٠٨/١.

(4) مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٢٤٠/١. قال أحمد شاكر رحمه الله: " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٨/٤-١٩. برقم: (٢١٤٨).
ونحوه في: ٣١٢/١. قال أحمد شاكر رحمه الله: " إسناده صحيح ". مسند أحمد بتحقيق أحمد شـاكر: ٣٠٧/٤. برقم: (٢٨٥٤).
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بلفظه في : باب ذكر الإخبار عن وصف خلقة الدّجّال ، ومن كان يشـبه من هذه الأمّة. برقم: (٦٧٩٦). قال شعيب الأرناؤوط: " حديث صحيـح". ٢٠٧/١٥. وانظـر: السّلسـلة الصّحيحة برقم: (١١٩٣) . ١٩٠/٣.

(5) انظر: شرح النّووي على مسلم: ٥٩/١٨ . التّذكرة ص: ٧٤٩ .

وقد ركّز الرّسول ﷺ على عور الدّجّال لأنّه علامة بيّنة بديهيّة يدركها كلّ أحد من الخلق عالماً كان أو عاميّاً (١).

والدّجّال يعطى من الأمور الخارقة الشّيء العظيم ، وهي العوامل المؤدّية إلى فتنة النّاس وإضلالهم . فهو ينتقل في الأرض بسرعة فائقة كسرعة الغيث إذا استدبرته الرّيح ، فلا يتمكّن ضعفاء العقول من الوقوف على حاله . وأنّ معه ما يشبه الجنّة والنّار، فناره جنّة وجنّته نار. ومعه أنهار من الماء وجبال من الخبز. ويأمر السّماء فتمطر والأرض فتنبت ، ويأمر خرائب الأرض فتتبعه كنوزها كيعاسيب(٢) النّحل . ويقتل رجلاً مؤمناً ثمّ يحيه أمام أعين النّاس ، ويستعين بالشّياطين ليروّج بهم إفكه وضلاله . وكلّ ذلك من الأمور الّتي تفتن الخلق فتنة عظيمة .

وقد وردت الأحاديث الصّحيحة بما سبق ذكره . من ذلك:

ما جاء في حديث النّوّاس بن سمعان ﷺ . وفيه قلنا: يا رسول الله: وما إسراعه في الأرض؟ قال: " كالغيث استدبرته الرّيح . فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له ، فيأمر السّماء فتمطر، والأرض فتنبت ، فتروح عليهم

---

(١) انظر: شرح النّووي على مسلم: ١٨/٦٠ . فتح الباري: ١٤/٦٠٧ . عمدة القاري: ٢٤/١٧ . اليوم الآخر (١) : ص: ٢٣٣ .

وأمّا ماجاء من تعارض في وصف كلّ واحدة من العينين بالعور ، وانطباق بقية الصّفات عليهما . وفّق بين كلّ ذلك القاضي عياض (رحمه الله)فيما نقله عنه الإمام النّووي (رحمه الله)واستحسنه. قال:

" يجمع بين الأحاديث وتصحّح الرّوايات جميعاً بأن تكون المطموسة والممسوحة الّتي ليست بجحراء ولا ناتئة هي العوراء الطّافئة بالهمز ، وهي العين اليمنى كما جاء هنا . وتكون الجاحظة والّتي كأنّها كوكب ، وكأنّها نخاعة هي الطّافية بغير همز ، وهي العين اليسرى كما جاء في الرّواية الأخرى . وهذا جمع بين الأحاديث والرّوايات في الطّافية بالهمز وبتركه . وأعور العين اليمنى واليسرى لأنّ كلّ واحدة منهما عوراء . فإنّ الأعور من كلّ شيء المعيب ، لا سيما ما يختصّ بالعين . وكلا عيني الدّجّال معيبة عوراء ، إحداهما بذهابها والأخرى بعيبها ".شرح النّووي على صحيح مسلم: ٢ / ٢٣٥.وانظر كلام الحافظ ابن حجر (رحمه الله)في الجمع بين الرّوايات في فتح الباري : ١٤/ ٦٠٩ _٦١٠.

(٢)يعاسيب: جمع يَعْسُوب وهو السّيّد والرّئيس والمقدّم ، وأصله فحل النّحل. والمعنى أي تظهر له وتجتمع عنده كما تجتمع النّحل على يعاسيبها . انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٣/٢٣٤-٢٣٥. وانظر: غريب الحديث للخطّابي : ٢/٩. الفائق: ٢/٤٣١.

سارِحَتُهُم أطول ما كانت ذُرَاً [١]، وأسبغه ضروعاً، وأمدّه خواصر[٢]. ثمّ يأتي القوم فيدعوهم فيردّون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبحون مُمْحِلِين[٣]، ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمرّ بالخَرِبَة فيقول لها: أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النّحل، ثمّ يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسّيف فيقطعه جَزْلَتَيْن[٤] رمية الغَرَض[٥]، ثمَّ يدعوه فيقبل ويتهلّل وجهه يضحك". الحديث[٦].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "وإنّه يجئ معه مثل الجنّة والنّار، فالّتي يقول إنّها الجنّة هي النّار" [٧].

---

(١) ذُراً: جمع ذروة وهي ما على وارتفع من السّنام. انظر: الفائق: ٢/٨-٩. النّهاية في غريب الحديث: ٢/١٥٩-١٦٠.

(٢) وأمدّه خواصر: أي أوسعها وأتمّها. النّهاية في غريب الحديث: ٤/٣٠٩.

(٣) ممحلين: من المَحْل وهو الجدب ويبس الأرض من الكلأ لانقطاع المطر عنها. انظر: مختار الصّحاح: ص:٦١٦.لسان العرب: ١١/٦١٧. القاموس المحيط: ص: ١٣٦٥.

(٤) جَزْلَتين: أي قطعتين. مفردها جِزْلة.. انظر: غريب الحديث للخطّابي: ١/٢٠٣. الفائق: ١/٢١٠. النّهاية في غريب الحديث: ١/٢٦٩-٢٧٠.

(٥) رمية الغَرَض: الغَرَض الهَدف. أراد أنّه يكون بُعْدُ ما بين القِطْعَتَين بقَدْر رَمْيَة السَّهْم إلى الهَدَف، وقيل معناه وَصْف الضَّرْبة، أي تُصيبُه إصابة رَمْيَة الغَرَض، النّهاية في غريب الحديث: ٣ / ٣٦٠.وانظر: غريب الحديث للخطّابي: ١/٢٠٣. الفائق: ١/٢١٠.

(٦) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب ذكر الدَّجّال وصفته ومامعه: (٢٠). برقم: (٢٩٣٧). ٤/٢٢٥٢-٢٢٥٣.

(٧) صحيح البخاري: بلفظه ــ إلاّ إنّه قال: " بمثال " ــ في كتاب أحاديث الأنبياء: (٦٠/٣٦). باب قول الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [نوح:١] : (٣٣). برقم: (٣٣٣٨).ص:٧٠١.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب ذكر الدَّجّال وصفته ومامعه: (٢٠). برقم (٢٩٣٦). ٤/٢٢٥٠. جزء من حديث.

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله):

" إمّا أن يكون الدَّجّال ساحراً فيخيّل الشّيء بصورة عكسه، وإمّا أن يجعل الله باطن الجنّة الّتي يسخّرها الدَّجّال ناراً، وباطن النّار جنّة، وهذا الرّاجح. وإمّا أن يكون ذلك كناية عن النّعمة والرّحمة بالجنّة، وعن المحنة والنّقمة بالنّار .فمن أطاعه فأنعم عليه بجنّته يؤول أمره إلى دخول نار الآخرة وبالعكس. ويحتمل أن يكون ذلك من جملة المحنة والفتنة، فيرى النّاظر إلى ذلك من دهشته النّار فيظنّها جنّة وبالعكس". فتح الباري: ١٤/٦١٢.

وعن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :" لأنا أعلم بما مع الدّجّال منه ، معه نهران يجريان ، أحدهما رأي العين ماء أبيض ، والآخر رأي العين نار تأجّج فإمّا أدركنّ أحد فليأت النهر الّذي يراه ناراً وليُغمِّضْ ، ثمّ ليطأطىء رأسه فيشرب منه فإنّه ماء بارد ..."الحديث [١] .

وعن المغيرة بن شعبة ﷺ قال: ما سأل أحد النّبي ﷺ عن الدّجّال أكثر ممّا سألته . قال: "وما سؤالك؟ " . قال قلت: إنّهم يقولون: معه جبال من خبز ولحم ونهر من ماء قال: "هو أهون على الله من ذلك " [٢] .

وعن أبي سعيد الخدري قال: حدّثنا رسول الله ﷺ يوماً حديثاً طويلاً عن الدّجّال فكان فيما حدّثنا قال: " يأتي وهو محرّم عليه أن يدخل نِقَاب [٣] المدينة، فينتهي إلى بعض السِّبَاخ [٤] الّتي تلي المدينة ، فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير النّاس أو من خير النّاس فيقول له: أشهد أنّك الدّجّال الّذي حدّثنا رسول الله ﷺ

وما رجّحه الحافظ هو الأولى ، فلا مدعاة إلى التّأويل .

(١) صحيح البخاري: نحوه في كتاب أحاديث الأنبياء: (٦٠/٣٦). باب ما ذكر عن بني إسرائيل: (٥٠/٥١). برقم: (٣٤٥٠). ص: ٧٣٢. وفي كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب ذكر الدّجّال: (٢٧/٢٦). برقم: (٧١٣٠). ص:١٥٠٢.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب ذكر الدّجّال وصفته ومامعه: (٢٠). برقم: (٢٩٣٤) (٢٩٣٥). ٢٢٤٩/٤. وهو جزء من حديث.

(٢) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب ذكر الدّجّال: (٢٧/٢٦). برقم: (٧١٢٢). ص:١٥٠١.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب في الدّجّال وهو أهون على الله عزّ وجلّ: (٢٢). برقم: (٢٩٣٩). ٢٢٥٧/٤-٢٢٥٨. وبلفظ مقارب في كتاب الآداب: (٣٨). باب جواز قوله لغير ابنه :يابني . واستحبابه للملاطفة: (٦). برقم: (٢١٥٢). ١٦٩٣/٣.

ومعنى أهون على الله من ذلك: أي هو أهون على الله من أن يجعل ما خلقه الله تعالى على يده مضلاً للمؤمنين ومشكّكاً لقلوبهم ، بل إنّما جعله له ليزداد الّذين آمنوا إيماناً ، ويثبّت الحجّة على الكافرين والمنافقين ونحوهم ، وليس معناه أنّه ليس معه شيء من ذلك . شرح النّووي على مسلم: ٧٤/١٨-٧٥ . وانظر : فتح الباري: ٦٠٣/١٤-٦٠٤ .

(٣) نقاب: جمع نَقْب وهو الطّريق بين الجبلين . النّهاية في غريب الحديث: ١٠٢/٥.

(٤) السِّباخ: جمع سَبَخة وهي الأرض الّتي تعلوها الملوحة ولا تكاد تنبت إلاّ بعض الشّجر . النّهاية في غريب الحديث: ٣٣٣/٢.

حديثه . فيقول الدّجّال: أرأيتم إن قتلت هذا ثمّ أحييته أتشكّون في الأمر؟ فيقولون: لا . قال: فيقتله ثمّ يحييه ، فيقول حين يحييه: والله ما كنت فيك قطّ أشدّ بصيرة منّي الآن . قال: فيريد الدّجّال أن يقتله فلا يسلّط عليه" [1] .

وعن أبي أمامة الباهلي ﷺ ــ فذكر الحديث ــ وفيه : قال ﷺ "وإنّ من فتنته أنّ معه جنّة وناراً ، فناره جنّة وجنّته نار، فمن ابتلي بناره فليستغث بالله ، وليقرأ فواتح الكهف فتكون عليه برداً وسلاماً كما كانت النّار على إبراهيم . وإنّ من فتنته أن يقول لأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمّك أتشهد أنّي ربّك ؟ فيقول: نعم ، فيتمثّل له شيطانان في صورة أبيه وأمّه ، فيقولان: يا بني اتبعه فإنّه ربّك .

وإنّ من فتنته أن يسلّط على نفس واحدة فيقتلها وينشرها بالمنشار ، حتّى يلقى شقتين ثمّ يقول: انظروا إلى عبدي هذا فإنّي أبعثه الآن ، ثمّ يزعم أنّ له ربّاً غيري. فيبعثه الله ، ويقول له الخبيث من ربّك ؟ فيقول ربّي الله ، وأنت عدوّ الله ، أنت الدّجّال ، والله ما كنت بعد أشدّ بصيرة بك منّي اليوم ...

وإنّ من فتنته أن يأمر السّماء أن تمطر فتمطر ، ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت .

وإنّ من فتنته أن يمرّ بالحي فيكذّبونه فلا تبقى لهم سَائِمَة [2] إلاّ هلكت .

وإنّ من فتنته أن يمرّ بالحي فيصدّقونه فيأمر السّماء أن تمطر فتمطر، ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت ، حتّى تروح مواشيهم من يومهم ذلك أسمن ما كانت وأعظمه ، وأمدّه خواصر وأدرّه ضروعاً .." الحديث[3].

---

(1) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في كتاب الحجّ (فضائل المدينة) : (٨/٢٩). باب لا يدخل الدَّجَّال المدينة: (٢١٨/٩). برقم: (١٨٨٢). ص:٣٩٢. وفي كتاب الفتن: (٩٢/٦٧). باب ذكر الدَّجَّال: (٢٦/٢٧). برقم: (٧١٣٢). ص:١٥٠٢.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراط السَّاعة: (٥٢). باب في صفة الدَّجَّال وتحريم المدينة عليه ، وقتله المؤمن وإحيائه: (٢١). برقم: (٢٩٣٨). ٢٢٥٦/٤.

(2) سائمة: من السَّوْم وهو الرّعي . يقال سامت الماشية إذا رعت فهي سائمة. غريب الحديث للخطَّابي: ٦٤٣/١. وانظر النِّهاية في غريب الحديث: ٤٢٦/٢.

(3) سبق قريباً .انظر : ص: ١٥٧ .

والنّبي ﷺ من رحمته بهذه الأمّة ورأفته بها أرشدها إلى المسالك الّتي تنجو بها من فتنة الدّجّال وشرّها ، لعظم تلك الفتنة وخطرها على عباد الله .

فذكر ﷺ صفاته السّابقة ليعرف حاله ، ويظهر أمره . وكشف عن عوامل فتنته ليكون العبد من أمره على بصيرة ، ولم يكتف بذلك ﷺ بل وجّه الأمّة إلى ما يعصمها من فتنته ، وينجيها من محنته .

❁ أمر بالتعوّذ والالتجاء إلى الله والاحتماء به من فتنته . وكان يداوم على ذلك في صلاته .

عن عائشة زوج النّبي ﷺ أنّ رسول الله ﷺ كان يدعو في الصّلاة: " اللّهم إنّي أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدّجّال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات ..." الحديث (١) .

❁ أمر ﷺ بالبعد عنه ، والفرار من وجهه لما معه من الشّبهات ، وإن وثق المؤمن في نفسه .

عن عمران بن حصين ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "من سمع بالدّجّال فلينأ عنه ، فو الله إنّ الرّجل ليأتيه وهو يحسب أنّه مؤمن فيتبعه ممّا يبعث به من الشّبهات ، أو لما يبعث به من الشّبهات" (٢) .

---

(١) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الصّلاة(الأذان): (١٠/٥). باب الدّعاء قبل السّلام: (١٤٩/٣٠٠). برقم: (٨٣٢). ص:١٨٢. ونحوه في كتاب الدّعوات: (٨٠/٥٤). باب التّعوّذ من المأثم والمغرم: (٣٩). برقم: (٦٣٦٨). ص:١٣٥٧. وفي باب الاستعاذة من أرذل العمر ، ومن فتنة الدّنيا وفتنة النّار: (٤٤). برقم: (٦٣٧٥). ص:١٣٥٩. وفي باب الاستعاذة من فتنة الغنى: (٤٥). برقم: (٦٣٧٦). ص:١٣٥٩. وفي باب التّعوّذ من فتنة الفقر: (٤٦). برقم: (٦٣٧٧). ص:١٣٥٩.

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في كتاب المساجد ومواضع الصّلاة: (٥). باب ما يستعاذ منه في الصّلاة: (٢٥). برقم: (٥٨٩). ٤١٢/١. ونحوه عن أبي هريرة ﷺ . برقم: (٥٨٨). ٤١٢/١. وعن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) . برقم: (٥٩٠). ٤١٣/١. وعن عائشة (رضي الله عنها) . برقم: (٥٨٩). في كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨). باب التّعوّذ من شرّ الفتن وغيرها: (١٤). ٢٠٧٨/٤-٢٠٧٩.

(٢) سنن أبي داود: بلفظه في : كتاب الملاحم: (٣٦). باب خروج الدّجّال: (١٤). برقم: (٤٣١٩) . قال الألباني رحمه الله: " صحيح". ص:٤٧١. وهو في صحيح الجامع: برقم: (٦٣٠١) . ١٠٨٠/٢.

مسند أحمد: نحوه في: ٤٣١/٤،٤٤١.

﴿ أمر ﷺ من أدركه أن يقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، أو يحفظ عشر آيـــات منها .

عن النّواس بن سمعان ﷺ في حديثه الطويل . قال ﷺ : " فمن أدركه منكـــم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف" (١) .

وعن أبي الدّرداء ﷺ أنّ النّبي ﷺ قال: " من حفظ عشر آيات من أوّل سورة الكهف عصم من الدّجّال " (٢) .

﴿ أرشد ﷺ إلى سكنى المدينة ومكّة لأنّ الدّجّال لا يدخلهما(٣) .

عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : " ليس من بلـــد إلاّ ســيطؤه الدّجّال إلاّ مكّة والمدينة ، وليس نقب من أنقابها إلاّ عليه الملائكة صافّين تحرســها . فينزل بالسَّبَخَة(٤) فترجف المدينة ثلاث رجفات ، يخـــرج إليــه منــها كــلّ كــافر ومنافق " .(٥)

مستدرك الحاكم: نحوه في: ٥٧٦/٤. وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم و لم يخرجاه". وسكت عنه الذّهبي .

(١) سبق . ص : ١٦٣ .

(٢) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب صلاة المسافرين : (٦). باب فضل سورة الكهف وآية الكرســي: (٤٤) برقــم (٨٠٩) . قال مسلم: "قال شعبة :من آخر الكهف . وقال همّام : من أوّل الكهف" ٥٥٥/١-٥٥٦ .

قال النّووي رحمه الله:

" سبب ذلك ما في أوّلها من العجائب والآيات ، فمن تدبّرها لم يفتتن بالدّجّال .وكذا في آخرها قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ ﴾ [الكهف:١٠٢] . ٩٣/٦.

(٣) انظر: النّهاية في الفتن : ١٧١/١ .

(٤) السَّبَخَةُ : أَرض ذات ملح ، ولا تكاد تُنْبتُ إلاَّ بعضَ الشّجر . انظر : لسان العرب : ٢٤/٣ .

وقال أبو عبيد الأندلسي : " السّبخة : بفتح أوّله وثانيه وبالخاء المعجمة ، موضع بالمدينة بين موضع الخندق وبـــين سلع الجبل المتّصل بالمدينة " . معجم ما استعجم : ٧١٧/٣ .

(٥) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في كتاب الحجّ(فضائل المدينة): (٨/٢٩). باب لا يدخـــل الدَّجّـــال المدينــة: (٢١٨/٩). برقم: (١٨٨١). ص:٣٩٢. وفي كتاب الفتن: (٦٧/٩٢). باب ذكر الدَّجّال: (٢٧/٢٦). برقـــم: (٧١٢٤). ص:١٥٠١. ونحوه في باب لا يدخل الدَّجّال المدينة: (٢٨/٢٧). برقـــم: (٧١٣٤). ص:١٥٠٢.

الفصل الرّابع

عوامل الثّبات عند الفتن

وفيه تمهيد ومباحث:

التّمهيد

عرض الفتن على القلوب

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الحج:٥٢-٥٤] .

إنّ الله عزّ وجلّ بيّن في هذه الآيات أنّه يجعل ما يلقي الشّيطان من شبه وشكوك فتنة لطائفتين من النّاس :

الأولى : أصحاب القلوب المريضة الّتي بها ضعف وعدم إيمان تامّ وتصديق جازم ، فتتأثر بما يلقيه الشّيطان من شبه فيدخلها الرّيب والشّك فتفتتن بذلك .

وفي كتاب التّوحيد: (٩٧/٧٢). باب قول الله تعالى : ﴿ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران:٢٦] : (٣١). برقم: (٧٤٧٣). ص:١٥٦٩.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراط السّاعة : (٥٢). باب قصّة الجسّاسة: (٢٤). برقم: (٢٩٤٣) . ٢٢٦٥/٤ .

وقد ألحق بعض العلماء بيت المقدس بمكّة والمدينة في عدم دخول الدّجّال إليه . وأوردوا في ذلك بعض الأحاديث الّتي أشاروا إلى صحّة بعضها . انظر: فتح الباري : ١٠٥/١٣ . طبعة دار المعرفة. القناعة: ص: ٢٩-٣٠ .

الثانية :أصحاب القلوب القاسية الغليظة ، الّتي لا يؤثر فيها زجر ولا تذكير، ولا تعي عن الله ورسوله لصلابتها وقسوتها ؛ فإذا سمعت ما ألقاه الشّيطان جعلته حجّة على باطلها ، ومشاقة لله ومعاندة للحقّ ، فتفتن بذلك .

وأمّا الطّائفة الثّالثة الّتي ورد ذكرها في الآيات فهم أصحاب القلوب المخبتة المتواضعة لله ، المطمئنّة بما جاءها عن الله ورسوله ، الخاضعة لأمر الله . فإذا سمعت ما ألقاه الشّيطان علمت أنّه باطل فتمسّكت بالحقّ ، وتشبّثت بالصّراط المستقيم ، وثبتت على ذلك ، فلم تؤثر فيها شبهات الشّيطان ولا شكوكه[1] .

فالقلوب في الآية ثلاثة: قلبان مفتونان: القلب الأوّل : قلب مريض غلبت عليه العلّة فمال إلى العطب وجانب السّلامة . كقلوب أهل النّفاق الّتي فتنت بمرض الشّبهات .

كما قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة:١٠].

وقلوب أهل المعاصي الّتي فتنت بمرض الشّهوات .

كما قال سبحانه: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأحزاب:٦٠].

والقلب الثّاني: قلب قاسي ميّت لا حياة به ، يحكمه الهوى ، وتقوده الشّهوة ، ويسوقه الجهل ، وتدفعه الغفلة ، أسكرته دنياه فغاب عن آخرته [2] .

فهو قلب يابس يفوق الحجارة صلابة . كما قال سبحانه: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة:٧٤] . وهو قلب أغلف مطبوع

---

(١) انظر: كتاب شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتّعليل . للإمام ابن القيّم . صحّحه محمّد بدر الدّين أبو فراس النّفساني الحلبي . مكتبة الرّياض الحديثة . الطّبعة الأولى: ١٣٢٣هـ . ص: ١٠٦، ١٩٢ . إغاثة اللّهفان: ١/١٠. تيسير الكريم الرّحمن: ص: ٤٩١-٤٩٢ .

(٢) انظر: إغاثة اللّهفان: ١/١٠ .

مختوم عليه ، استحوذ عليه الشّيطان فلا يبصر هدى ، ولا يسمع حقّاً ، ولا يفقه أمراً ، ولا يعقل شرعاً .

قال تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾ [النساء:١٥٥].

وقال سبحانه: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ [البقرة:٧] .

قال مجاهد (رحمه الله):

" ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ قال: الطّبع ، ثبتت الذّنوب على القلب فحفّت به من كلّ نواحيه حتّى تلتقي عليه ، التقاؤها عليه الطّبع ، والطّبع الختم " [١] .

والقلب الثّالث: هو القلب المؤمن ، المخبت إلى الله المطمئن ، الّذي سلم من كلّ شهوة تخالف أمر الله ونهيه ، وكلّ شبهة تعارض خبره . خلصت عبوديته لله وخلص عمله له ، وسلّم قياده لرسول الله ﷺ ، فهو يسير على خطاه ، ويتتبّع آثاره . فجرّد الإخلاص لله ، وحقّق المتابعة لرسوله ﷺ . وتلك سمات القلب السّليم .

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء:٨٨،٨٩]. [٢]

قال سعيد بن المسيّب (رحمه الله):

"القلب السّليم هو القلب الصّحيح ، وهو قلب المؤمن ، لأنّ قلب الكافر والمنافق مريض" [٣] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ١/٧١ .

(٢) وانظر:إغاثة اللّهفان:١/٧ .

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣/٥٤٢ .

وقال ابن القيّم (رحمه الله) :

" القلب السّليم هو الّذي سلم من الشّرك والغل والحقد والحسد والشّح والكبر وحبّ الدّنيا والرّياسة ، فسلم من كلّ آفة تبعده من الله ، وسلم من كلّ شبهة تعارض خبره ، ومن كلّ شهوة تعارض أمره ، وسلم من كلّ إرادة تزاحم مراده ، وسلم من كلّ قاطع يقطعه عن الله . فهذا القلب السّليم في جنّة معجّلة في الدّنيا ، وفي جنّة في البرزخ ، وفي جنّة يوم المعاد ، ولا يتمّ له سلامته مطلقاً حتّى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التّوحيد ، وبدعة تخالف السّنّة ، وشهوة تخالف الأمر ، وغفلة تناقض الذّكر ، وهوى يناقض التّجريد والإخلاص" (١)

فلمّا صحّ هذا القلب وسلم لله إخلاصاً ومحبّة وتوكّلاً وإخباتاً وخشية ، ولرسوله ﷺ انقياداً وتحكيماً ، وطاعة والتزاماً . وعلم الله صدقه ووفاءه أنزل الطمأنينة والثّبات عليه . كما قال سبحانه: ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفتح:١٨] (٢) .

فلا تضرّ صاحبه فتنة ، ولا تؤثر فيه شبهة ، ولا يحدث له شكّ ولا ريب ، ولو عرضت عليه الفتن عرضاً .

عن حذيفة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " تعرض الفتن على القلوب كالحَصِير (٣) عوداً عوداً ، فأيّ قلب أُشْرِبَها نكت (٤) فيه نُكْتَةٌ سوداء ، وأيّ قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتّى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصّفا (٥) فلا

---

(١) كتاب الجواب الكافي لمن سأل عن الدّواء الشّافي . لابن القيّم . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت : ص : ٨٤ .

(٢) وانظر معنى الآية في :

الجامع لأحكام القرآن: ٢٧٨/١٦ .تفسير القرآن العظيم: ٢٩٣/٤ .

(٣) الحصير: هو البساط الصّغير المنسوج من النّبات . انظر : لسان العرب: ١٩٦/٤.

(٤) نكت: يقال : نكت الأرض بقضيب : هو أن يضربها بطرفه فيؤثّر فيها. والنّكتة أثر قليل كالنّقطة. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ١١٢/٥-١١٣.

(٥) الصّفا: جمع صفاة ، وهي الصّخرة والحجر الأملس . المرجع السّابق : ٤١/٣.

تضرُّه فتنة ما دامت السّماوات والأرض ، والآخر أسود مُرْبَاداًّ [1] كالكُوز [2] مُجَخِّياً [3] لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلاّ ما أُشرب من هواه" [4].

لقد شبّه الرّسول ﷺ عرض الفتن على القلوب شيئاً فشيئاً كعرض عيدان الحصير عوداً عوداً .

وذلك أنّ ناسج الحصير كلّما صنع عوداً أخذ آخر ونسجه. فشبّه عرض الفتن على القلوب واحدة بعد أخرى بعرض قضبان الحصير على صانعها واحداً تلو الآخر .

وقسّم القلوب إلى قسمين:

قلب كلّما عرضت عليه فتنة أشربها ، ودخلت فيه دخولاً تامّاً ، وحلّت منه محلّ الشّراب . فلا يزال يشرب كلّ فتنة تعرض عليه حتّى يسودّ وينتكس ، فلا يعلق به خير ولا حكمة . مثل الكوز المنكوس . فيشتبه عند ذلك عليه المعروف بالمنكر فلا يميّز بينهما ، بل قد يعتقد المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً، والحقّ باطلاً والباطل حقّاً ، ويتحكّم فيه هواه فينقاد له ويتبعه .

وقلب أبيض تلألأ نور الإيمان فيه ، وأشرقت فيه شمسه ، وكان كالصّخر الأملس الّذي قوي وصلب ، وسلم من الخلل فلا يعلق به شيء . وهكذا هذا القلب لا تلصق به الفتن ولا تؤثّر فيه ، وإذا عرضت عليه أنكرها وردّها، وزاد إيمانه، وقوي نوره.

---

(1) مرباداًّ : من الرُّبْدة وهي لون الرّماد. أو لون بين السّواد والغبرة . وانظر: غريب الحديث للهروي: ١٢١/٤. الفائق: ٤١٨/٢. النّهاية في غريب الحديث: ١٨٣/٢.

(2) الكُوز: من الأواني معروف . وهو كوب له عروة. من اكتاز الماء: أي اغترفه . انظر: لسان العرب: ٤٠٢/٥-٤٠٣.

(3) مُجَخِّياً : أي مائلاً . غريب الحديث للهروي: ١٢٠/٤-١٢١. الفائق: ٤١٨/٢.

قال ابن الأثير (رحمه الله) : " المجخِّي: المائل عن الاستقامة والاعتدال ، فشبَّه القَلْب الّذي لا يعي خَيْراً بالكُوز المائل الّذي لا يَثْبُت فيه شيء . النِّهاية في غريب الحديث: ١ / ٢٤٢.

(4) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الإيمان: (١). باب بيان أنّ الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً وأنّه يأرز بين المسجدين : (٦٥) برقم (١٤٤): ١٢٨/١-١٢٩ .

فالأوّل قلب من افترسته الفتن وأهلكته . والثّاني قلب من ثبت عندها فلم يـــتزعزع ولم يتضعضع(١) .

وهنالك عوامل معينة ومساعدة على الثّبات عند الفتن يلجأ إليها المؤمن أو إلى بعضها متى ما عرضت عليه الفتن أو دهمته . ومنها أمور يحتاط بها المؤمن تجنّبـــاً للفتنة قبل حلولها عليه . أتناول منها بإذن الله ما يمكن تناوله في المباحث الآتية :

---

(١) انظر معنى الحديث في :

شرح النّووي على مسلم: ٢/١٧١-١٧٤ .إغاثة اللّهفان: ١/١٢ .

﴿ المبحث الأوّل ﴾

التّعوّذ من الفتن

إنّ المسلم لابد أن يلجأ إلى الله ، ويستعيذ به لدفع الفتن عنه . فإنّه متى ما طرح نفسه بين يدي ربّه سبحانه مستعيناً به ، راغباً إليه ، ملتجئاً إلى جنابه ، مفتقراً إليه ، أعاذه ربّه من شرّها، وحماه من مفاسدها ، وثبّته على الإسلام .

وهكذا كان يفعل رسول الله ﷺ ، ويأمر غيره بالاستعاذة منها:

عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: كان النّبي ﷺ يقول: " اللّهم إنّي أعوذ بك من فتنة النّار وعذاب النّار، وفتنة القبر وعذاب القبر، وشرّ فتنة الغنى وشرّ فتنة الفقر، اللّهم إنّي أعوذ بك من شرّ فتنة المسيح الدّجّال ..." الحديث [(١)] .

وعنها (رضي الله عنها) أنّ رسول الله ﷺ كان يدعو في الصّلاة: " اللّهم إنّي أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدّجّال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات ، اللّهم إنّي أعوذ بك من المأثم والمغرم[(٢)] " .

فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيذ من المغرم؟ فقال: " إنّ الرّجل إذا غرم حدّث فكذب ووعد فأخلف".[(٣)] وفي رواية "وأعوذ بك من فتنة الدّنيا" [(٤)] .

---

(١) الحديث سبق ص: ١٦٦ . إلا أنّ هذه الرّواية بهذا اللّفظ في صحيح البخاري: كتاب الدّعوات: (٨٠/٥٤). باب التّعوّذ من فتنة الفقر: (٤٦). برقم: (٦٣٧٧). ص: ١٣٥٩.

(٢) قال ابن الأثير (رحمه الله) :

" المَغْرَم : مَصْدَرٌ وُضِعَ مَوْضع الاسم ، ويُريدُ به مَغْرَم الذُّنوب والمَعاصِي . وقيل : المَغْرَم كالغُرْم وهو الدَّيْن . ويُريدُ به ما اسْتُدين فيما يكْرَهُه الله أو فيما يَجُوز ثمّ عَجز عن أدائه ، فأمّا دَيْنٌ احتاج إليه وهو قادر على أدائه فلا يُستَعاذُ منه" . النهاية في غريب الحديث : ٣٦٣/٣ .

(٣) الحديث سبق ص: ١٦٦ .

(٤) هذه الرّواية وردت من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ في صحيح البخاري: في كتاب الدّعوات : (٨٠/٥٤). باب التّعوّذ من عذاب القبر: (٣٧). برقم: (٦٣٦٥). ص: ١٣٥٧. وفي باب التّعوّذ من البخل: (٤١). برقم: (٦٣٧٠). ص: ١٣٥٨. وفي باب الاستعاذة من أرذل العمر ومن فتنة الدّنيا وفتنة النّار: (٤٤). برقم: (٦٣٧٤). ص: ١٣٥٩. ونحوه في باب التّعوّذ من فتنة الدّنيا: (٥٦). برقم: (٦٣٩٠). ص: ١٣٦١.

وعن عمّار بن ياسر (رضي الله عنهما) ـــ فذكر الحديث ـــ وفيه:"وأعوذ بـــك من ضرّاء مضرّة ، وفتنة مضلّة " [1] .

وعن زيد بن ثابت ﷺ ـــ فذكر الحديث ـــ وفيه: قال ﷺ : " تعوّذوا بالله مـــن الفتن ، ما ظهر منها وما بطن " . قالوا: نعوذ بالله من الفتن ، ما ظهر منـــها ومـــا بطن . قال: "تعوّذوا بالله من فتنة الدّجّال " قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدّجّال" [2] .

وعن أنس ﷺ عندما أكثروا على النّبي ﷺ في المسألة . وفيه:
ثمّ أنشأ عمر فقال: " رضينا بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمّد ﷺ رسولاً ، نعـــوذ بالله من سوء الفتن " . [3]

وفي الرّواية الأخرى: قال: " عائذاً بالله من شرّ الفتن ". [4]

---

(1) سنن النّسائي: بلفظه ـــ جزء من حديث طويل ـــ في: كتاب السّهو: (١٣). باب نوع آخـــر مـــن الدّعـــاء: (٦٢) . برقم: (١٣٠٦). و بلفظ مقارب برقم: (١٣٠٥). قال الألباني رحمه الله: " صحيح". ص:١٥٤.
مسند أحمد: بلفظه ـــ إلاّ إنّه قال: "ومن فتنه" ـــ في : ٢٦٤/٤.
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بلفظ مقارب في: باب ذكر جواز دعاء المرء في الصّلاة بما ليس في كتـــاب الله. برقم: (١٩٧١). قال شعيب الأرناؤوط: " إسناده قوي". ٣٠٥/٥.
مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في: ٧٠٥/١. وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه".

(2) صحيح مسلم: بلفظه ـــ جزء من حديث ـــ في كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها: (٥١). باب عـــرض مقعـــد الميّت من الجنّة أو النّار عليه ، وإثبات عذاب القبر والتّعوّذ منه: (١٧) .برقم: (٢٨٦٧) . ٢١٩٩/٤-٢٢٠٠ .

(3) صحيح البخاري: بلفظه ـــ إلاّ إنّه قال: "من الفتن" ـــ في كتاب الدّعوات: (٥٤/٨٠). باب التّعـــوّذ مـــن الفتن: (٣٥). برقم : (٦٣٦٢). ص:١٣٥٦. وفي كتاب الفتن : (٦٧/٩٢). باب التّعوّذ من الفـــتن: (١٥). برقم : (٧٠٨٩). ص:١٤٩٥. ونحوه في كتاب مواقيت الصّلاة: (٥/٩). باب وقت الظّـــهر عنـــد الـــزّوال: (١٢٠/١١). برقم : (٥٤٠). ص:١٢٨.وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة: (٧١/٩٦). باب ما يكره مـــن كثرة السّؤال وتكلّف ما لا يعنيه: (٤/٣). برقم : (٧٢٩٤). ص:١٥٣٣.
صحيح مسلم: بلفظ مقارب في كتاب الفضائل: (٤٣). باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عمّا لا ضرورة إليـــه ، أو لا يتعلّق به تكليف ، وما لا يقع ونحو ذلك: (٣٧). برقم : (٢٣٥٩). ١٨٣٤/٤. ونحوه في : ١٨٣٢/٤.

(4) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الفتن : (٦٧/٩٢). باب التّعـــوّذ مـــن الفـــتن: (١٥). برقـــم : (٧٠٩١). ص:١٤٩٦. ونحوه برقم : (٧٠٩٠).

قال ابن بطّال (رحمه الله): عند قوله ﷺ:"أعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات" :

" هذه كلمة جامعة لمعان كثيرة ، وينبغي للمرء أن يرغب إلى ربّه في رفع ما نزل ، ودفع ما لم ينزل ، ويستشعر الافتقار إلى ربّه في جميع ذلك ، وكان ﷺ يتعوّذ من جميع ما ذكر دفعاً عن أمّته ، وتشريعاً لهم ليبيّن لهم صفة المهمّ من الأدعية "(١) .

فلا تدفع الفتن بأعظم من الالتجاء إلى المولى سبحانه ، والاعتماد عليه ، والاستعانة به في كشف شرورها ، والتّحرّز من الوقوع فيها . فمن لجأ إليه ، واعتمد عليه ، واستعان به فقد أوى إلى ركن ركين ، ومعين لا يغلب ، وناصر لا يهزم .

---

(١) نقلاً عن فتح الباري: ١٢/٤٦٨ .

المبحث الثّاني

تجنّب الفتن والفرار منها

قال الله تعـــــالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال:٢٥].

روى ابن جرير (رحمه الله) بسنده إلـــى الحســن[١] وقتـادة (رحمـهما الله) وغيرهما أنّ هذه الآية نزلت في عليّ وعثمان وطلحة والزّبير ﷺ .

قال الزّبير ﷺ :

" قرأت هذه الآية زماناً وما أرانا من أهلها ، فإذا نحن المعنيّون بها " [٢].

عن مطرّف (رحمه الله) [٣] قال:

" قلنا للزّبير ﷺ : يا أبا عبد الله ما جاء بكم ، ضيّعتم الخليفة حتّى قتل ، ثـــمّ جئتم تطلبون بدمه ؟. قال الزّبير ﷺ :

---

(١) هو الحسن بن أبي الحسن يسار أبو سعيد البصري . ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ﷺ . ثقـــة فقيـــه فـاضل مشهور ، رأس في العلم والعمل . كان يرسل كثيراً ويدلّس . توفي سنة :١١٠هـ .

وانظر: التّاريخ الكبير: ٢٨٩/٢. الجرح والتّعديل: ٤٠/٣. ثقات ابن حبّان: ١٢٢/٤. تهذيب الكمـال: ٩٥/٦. الكاشف: ٣٢٢/١. جامع التّحصيل: ص:١٦٢. تهذيب التّهذيب: ٢٣١/٢.تقريب التّهذيب: ١٦٠/١. طبقـات المدلّسين: ص:٢٩.

(٢) جامع البيان: ٤٧٣/١٣. طبعة شاكر .

(٣) هو مطرّف بن عبد الله بن الشّخّير أبو عبد الله العامري الحَرَشي البصري ، من خيار التّابعين ، وأبوه صحـــابي ، ثقة فاضل مشهور ، عابد ، زاهد ، راس في العلم والعمل . توفي سنة: ٩٥هـ. وقيل :غير ذلك.

وانظر:الطّبقات الكبرى:١٤١/٧. طبقات خليفة: ص:١٩٧. التّـاريخ الكبـير: ٣٩٦/٧. معرفـة الثّقـات: ٢٨٢/٢. الجرح والتّعديل:٣١٢/٨. ثقات ابن حبّان: ٤٢٩/٥. مشـاهير علمـاء الأمصـار:٨٨/١. التّعديـل والتّجريـح:٧٣٤/٢. تهذيـب الكمـــال: ٦٧/٢٨. تذكـــرة الحفّـــاظ:٦٤/١. الكاشـــف:٢٦٩/٢. الإصابة:٢٦٠/٦.تهذيب التّهذيب:١٥٧/١٠. تقريب التّهذيب: ٥٣٤/١.

" إنّا قرأناها على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان ﷺ ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ لم نكن نحسب أنّا أهلها حتّى وقعت منّا حيث وقعت " . [1]

وعن السُّدّي (رحمه الله) [2] قال:

"هذه نزلت في أهل بدر خاصة ، وأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا ".

وعن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) قال:

"أمر الله المؤمنين أن لا يقرّوا المنكر بين أظهرهم فيعمّهم الله بالعذاب " .

وعن مجاهد (رحمه الله) قال:

"هي أيضاً لكم" [3] .

قال ابن كثير (رحمه الله) في قول ابن عبّاس (رضي الله عنهما) :

" هذا تفسير حسن جدّاً " . وعضّده بقول مجاهد (رحمه الله) .

ثمّ قال: "والقول بأنّ هذا التّحذير يعمّ الصّحابة وغيرهم وإن كان الخطاب معهم هو الصّحيح ، ويدلّ عليه الأحاديث الواردة في التّحذير من الفتن " [4] .

---

(1) مسند أحمد: بلفظه في : ١/١٦٥ . قال أحمد شاكر رحمه الله: " إسناده صحيح ". مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٣/٩. برقم: (١٤١٤).

ونحوه في: ١/١٦٧. قال أحمد شاكر رحمه الله: " إسناده صحيح ". مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٣/٢٣. برقم: (١٤٣٨).

مسند الطّيالسي: نحوه برقم: (١٩٢). ص: ٢٧.

(2) السُّدّي هو إسماعيل بن عبد الرّحمن بن أبي كريمة أبو محمّد القرشي الكوفي الأعور. كان يقعد في سدّة باب الجامع بالكوفة فسمّي السّدّي . وهو السّدي الكبير. روى عن بعض الصّحابة ، وهو صدوق يهم ، وقد رمي بالتّشيّع . توفي سنة :١٢٧هـ .

انظر: طبقات بن سعد: ٦/٣٢٣. ضعفاء العقيلي: ١/٨٧. الجرح والتّعديل: ٢/١٨٤. ثقات ابن حبّان: ٤/٢٠. مشاهير علماء الأمصار: ١/١١١. تهذيب الكمال: ٣/١٣٢. الكاشف: ١/٢٤٧.سير أعلام النُّبلاء: ٥/٢٦٤. تهذيب التّهذيب: ١/٢٧٣. تقريب التّهذيب:١/١٠٨.

(3) جامع البيان: ١٣/٤٧٣-٤٧٥ . طبعة شاكر .

(4) تفسير القرآن العظيم: ٢/٤٧١ .

ففي الآية تحذير من الله لعباده المؤمنين باجتناب أصحاب المعاصي والذّنوب لأنّ العقاب والمحن إذا وقعت عمّت المسيء وغيره ، ولا تخصّ من باشر الذّنب ، مادام أقرّ ، ولم يدفع ولم يرفع(١) .

قال الإمام القرطبي (رحمه الله):

"ومقصود الآية: واتّقوا فتنة تتعدّى الظّالم ، فتصيب الصّالح والطّالح " (٢) .

وهذا المعنى هو الّذي تعضدّه الأحاديث المتكاثرة عن رسول الله ﷺ .

من ذلك حديث عائشة (رضي الله عنها) قالت: عَبِثَ رسول الله ﷺ في منامه ، فقلنا: يا رسول الله صنعت شيئاً في منامك لم تكن تفعله . فقال: " العجب إنّ ناساً من أمّتي يؤُمّون بالبيت برجل من قريش قد لجأ بالبيت ، حتّى إذا كانوا بالبَيْدَاء خسف بهم" فقلنا: يا رسول الله إنّ الطّريق قد يجمع النّاس . قال: " نعم ، فيهم المستبصر، والمجبور ، وابن السّبيل ، يهلكون مهلكاً واحداً ، ويصدرون مصادر شتّى ، يبعثهم الله على نيّاتهم " (٣) .

قال الإمام النّووي (رحمه الله):

"وفي هذا الحديث من الفقه التّباعد من أهل الظّلم ، والتّحذير من مجالستهم ومجالسة البغاة ونحوهم من المبطلين ، لئلاّ يناله ما يعاقبون به . وفيه أنّ من كثّر سواد قوم جرى عليه حكمهم في ظاهر عقوبات الدّنيا " (٤) .

---

(١) انظر: المرجع السّابق: ٤٧١/٢ . محاسن التّأويل: ٢٩٧٦/٨ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٣٩٣/٧ .

(٣)صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب الخسف بالجيش الّذي يؤمّ البيت: (٢) . برقم : (٢٨٨٤) . ٢٢١٠/٤-٢٢١١.

معنى : يؤمّون: أي يقصدون . والبيداء: الأرض الملساء الّتي لاشيء بها ، والمراد بها بيداء المدينة وهي الّتي أمام ذي الحليفة إلى جهة مكّة . والمستبصر: المستبين لذلك القاصد له عمداً . والمجبور: المكره . ويهلكون مهلكاً واحداً ، ويصدرون مصادر شتّى: أي يقع الهلاك في الدّنيا على جميعهم ، ثّم يبعثون مختلفين على قدر نيّاتهم فيجازون بحسبها . انظر: شرح النّووي على مسلم : ٥/١٨-٧ .

(٤) المرجع السّابق : ٧/١٨ .

ولهذا أمر النّبي ﷺ باجتناب الفتن ، والابتعاد عنها وعن أهلها، حتّى لا يصاب المسلم بشرّها، فيدخل فيمن دخل فيها ، أو يهلك فيمن هلك .

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "ستكون فتن ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من السّاعي. من تَشَرَّفَ لها تستَشْرِفْهُ (١) فمن وجد فيها ملجأ أو معاذاً فليعذ به" (٢).

وفي الرّواية الأخرى: " تكون فتنة النّائم فيها خير من اليقظان ، واليقظان فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من السّاعي. فمن وجد ملجأ أو معاذاً فليستعذ " (٣) .

فقد حثّ النّبي ﷺ على تجنّب الفتن ، والبعد عنها ، والهرب منها ، وعدم التّشبّث بشيء منها . وأنّ شرّها يكون على حسب التّعلّق بها (٤) .

نقل الحافظ ابن حجر (رحمه الله) عن الدّاودي أنّه قال:

" إنّ المراد من يكون مباشراً لها في الأحوال كلّها ، يعني أنّ بعضهم في ذلك أشدّ من بعض . فأعلاهم في ذلك السّاعي فيها بحيث يكون سبباً لإثارتها ، ثمّ من يكون قائماً بأسبابها وهو الماشي ، ثمّ من يكون مباشراً لها وهو القائم ، ثمّ من يكون مع النّظّارة ولا يقاتل وهو القاعد ، ثمّ من يكون مجتنباً لها ولا يباشر ولا ينظر ، وهو المضطجع اليقظان ، ثمّ من لا يقع منه شيء من ذلك ولكنّه راضي وهو النّائم،

---

(١) أي من تطلّع إليها وتعرّض لها واتته فوقع فيها . النّهاية في غريب الحديث: ٤٦٢/٢.

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الفتن : (٦٧/٩٢). باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم: (٩). برقم : (٧٠٨١). ص: ١٤٩٣. وبلفظ مقارب في كتاب المناقب: (٣٧/٦١). باب علامات النّبوّة في الإسلام: (٢٥). برقم : (٣٦٠١). ص:٧٥٨.وفي كتاب الفتن : (٦٧/٩٢). باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم: (٩). برقم : (٧٠٨٢). ص: ١٤٩٣-١٤٩٤.

صحيح مسلم: بلفظه ــ إلاّ إنّه قال: " ومن وجد" ولم يذكر : " معاذاً " ــ في كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب نزول الفتن كمواقع القطر: (٣). برقم : (٢٨٨٦). ٢٢١١/٤-٢٢١٢.

(٣) المرجع السّابق : بلفظه في كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب نزول الفتن كمواقع القطر: (٣). برقم: (٢٨٨٦) . ٢٢١٢/٤.

(٤) انظر: شرح النّووي على مسلم: ٩/١٨ . مختصر سنن أبي داود مع معالم السّنن وتهذيب ابن القيّم : ١٤٩/٦ . فتح الباري: ٥٢٦/١٤ . عون المعبود: ٢٢٤/١١ . الإذاعة: ص: ٢٣-٢٤ .

والمراد بالأفضليّة في هذه الخيريّة من يكون أقلّ شرّاً ممن فوقه على التّفصيل المذكور" [١].

وكلمّا بعد الإنسان من الفتن كان أفضل ممّن قرب منها ، وأسلم له في دينه . يوضّح ذلك ما جاء من زيادة في رواية أبي بكرة ﷺ . قال ﷺ : " فإذا نزلت أو وقعت فمن كان له إبل فليلحق بإبله ، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه ، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه .." الحديث [٢].

وعن أمّ مالك البَهْزِيَّة قالت: ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقرّبها قالت: قلت يا رسول الله من خير النّاس فيها؟ قال: "رجل في ماشيته يؤدّي حقّها ويعبد ربّه، ورجل آخذ برأس فرسه يخيف العدوّ ويخيفونه " [٣].

وعند أحمد والطّبراني (رحمهما الله): "رجل معتزل في ماله يعبد ربّه ويؤدّي حقّه" [٤].

وقد جاءت الرّوايات تترى عن النّبي ﷺ ، وبصيغ متعدّدة تحذّر من الدّنو من الفتن ، وتأمر بالابتعاد عنها . من ذلك :

❁الدّعوة إلى اجتنابها، والسّعادة لمن جنّبها :

عن المقداد بن الأسود ﷺ قال: أيْمُ الله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: " إنّ السّعيد لمن جنّب الفتن ، إنّ السّعيد لمن جنّب الفتن ، إنّ السّعيد لمن جنّب الفتن .

---

(١) فتح الباري: ١٤/٥٢٦ .

(٢) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢) . باب نزول الفتن كمواقع القطر: (٣) برقم: (٢٨٨٧) . ٤/٢٢١٢-٢٢١٣ .

(٣) سنن التّرمذي: كتاب الفتن: (٣٠). باب ما جاء كيف يكون الرّجل في الفتنة: (١٥) . برقم: (٢١٧٧) . قال الألباني رحمه الله: " صحيح". ص:٣٦١-٣٦٢ . انظر : السّلسلة الصّحيحة: ٢/٣١٨ . برقم: (٦٩٨) . وانظر: صحيح البخاري: كتاب الرّقاق: (٨١/٥٥). باب العزلة راحة من خلاط السّوء : (٣٤).برقم :(٦٤٩٤). ص :١٣٨١.

(٤) مسند أحمد: بلفظه ـ جزء من حديث ـ في: ٦/٤١٩ .
معجم الطّبراني الكبير: بلفظه . برقم: (٣٦٠). ٢٥/١٥٠.

ولمن ابتلي فصبر فوَاها[1] " [2].

❁ الأمر باعتزالها:

عن كُرْز الخُزَاعي قال: أتى النّبيّ ﷺ أعرابيّ فقال: يا رسول الله هل لهذا الأمر من منتهى؟ قال: " نعم! فمن أراد الله به خيراً من أعجم أو عرب أدخله عليهم ثمّ تقع فتن كالظُّلَل [3] يعودون فيها أساود صُبًّا [4]، يضرب بعضكم رقاب بعض، وأفضل النّاس يومئذ مؤمن معتزل في شعب [5] من الشّعاب يتّقي ربّه تبارك وتعالى ويدع النّاس من شرّه" [6].

---

(1) فواها : كلمة تقال للتّلّهف ، وقد توضع موضع الإعجاب بالشّيء ، وقد ترد بمعنى التّوجّع . وقيل التّوجّع يقال فيه :آها . انظر: النّهاية في غريب الحديث: ١٤٣/٥. وانظر: غريب الحديث للخطّابي:٣٣٨/٢-٣٣٩.

(2) سنن أبي داود: بلفظه في : كتاب الفتن والملاحم: (٣٤). باب في النّهي عن السّعي في الفتنة: (٢). برقم: (٤٢٦٣) . قال الألباني رحمه الله: " صحيح". ص: ٤٦٥ . وانظر معنى الحديث في: عون المعبود: ٢٣١/١١-٢٣٢ . إتحاف الجماعة: ٦٥/١ .

(3) الظُّلل: جمع ظُلّة وهي :كلّ ما أظلّك . أراد كأنّها الجبال أو السّحب. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ١٦٠/٣.

(4) الأسود أخبث الحيّات وأعظمها . والصّبّ: جمع صَبُوب . وأصله إنّ الأسود إذا أراد أن ينهش ارتفع ثمّ انصبّ على الملدوغ . شبّه سرعتهم في الدّخول للفتن كسرعة انصباب الأسود إذا نهش . وقيل:
الأساود جمع أُسودة . وأسودة جمع سَواد من النّاس وهم الجماعة . وصُبًّى بوزن غُزًّى جمع صاب من الصّبْوة أي جماعات مائلة إلى الدّنيا متشوّقة إليها ، أو تخفيف صابئ من صبا عليه إذا أُنْذِرَ من حيث لا يحتسب . أي إنّهم يميلون إلى الفتن جماعات كثيرة . وانظر: غريب الحديث للخطّابي: ٤٢٨/٢. الفائق: ٢٠٨/٢. النّهاية في غريب الحديث: ٤١٩/٢. ١١٥/٣.

(5) الشِعْب والشُّعْبة : هو ما تشعّب من الشّيء أي تفرّع منه . وشُعب الجبال ما تفرّق من رءوسها. انظر: الفائق: ٢٥١/٢.

(6) مسند أحمد: بلفظه في: ٤٧٧/٣ . قال شعيب الأرناؤوط: "إسناده صحيح" . شرح السّنّة: ٢٩/١٥ . هامش (٢) . وانظر : الموسوعة الحديثيّة : مسند الإمام أحمد بن حنبل : ٢٦٢/٢٥ . هامش : (١) .
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: نحوه: برقم: (٥٩٥٦). قال شعيب الأرناؤوط: " إسناده حسن". ٢٨٧/١٣.
مستدرك الحاكم: نحوه في: ٨٩/١. وقال: " هذا حديث صحيح وليس له علّة و لم يخرجاه". وقال الذّهبي رحمه الله: " لم يخرجاه لتفرّد عروة عن كرز وهو صحابي".
مسند أبي داود الطّيالسي: نحوه برقم: (١٢٩٠). ص:١٨٢.

❁ *الدّعوة إلى الفرار منها:*

عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنّه قال: قال رسول الله ﷺ : "يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شَعْف [1] الجبال ومواقع القطر ، يفرّ بدينه من الفتن " [2] .

❁ *الأمر بلزوم البيت، وكفّ اللّسان، والاهتمام بأمر نفسه ، وترك غيره:*

وفي ذلك دعوة إلى اعتزال الفتن وأهلها، وإغلاق كلّ المسالك الّتي تؤدّي إليها .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) قال: بينما نحن حول رسول الله ﷺ إذ ذكر الفتنة فقال: " إذا رأيتم النّاس قد مَرِجَت [3] عهودهم ، وخفّت أماناتهم ، وكانوا هكذا " وشبّك بين أصابعه قال: فقمت إليه فقلت: كيف أفعل عند ذلك جعلني الله فداك؟ قال:" الزم بيتك ، واملك عليك لسانك ، وخذ بما تعرف ، ودع ما تنكر، وعليك بأمر خاصّة نفسك ، ودع عنك أمر العامّة " [4] .

---

(1) شَعْف: شعف كلّ شيء أعلاه ، وجمعه شِعاف. والمراد رأس الجبال. انظر: غريب الحديث للهروي: ٧/١. الفائق: ٢٤٨/٢. النّهاية في غريب الحديث: ٤٨١/٢.

(2) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الإيمان: (٢). باب من الدّين الفرار من الفتن: (١٢). برقم : (١٩). ص:١٨.وفي كتاب بدء الخلق: (٥٩/٣٥). باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال: (١٥). برقم : (٣٣٠٠). ص: ٦٩٤. إلاّ إنّه قال: " مال الرّجل". وفي كتاب الفتن : (٩٢/٦٧). باب التّعرّب في الفتنة: (١٤). برقم : (٧٠٨٨). ص:١٤٩٥. و بلفظ مقارب في كتاب المناقب: (٦١/٣٧). باب علامات النُّبوّة في الإسلام: (٢٥). برقم : (٣٦٠٠). ص:٧٥٨.وفي كتاب الرّقاق: (٨١/٥٥). باب العزلة راحة من خلاط السّوء: (٣٤). برقم : (٦٤٩٥). ص: ١٣٨١.

(3) مَرِجَت: أي اختلطت وفسدت. وأصل المَرَج أن يقلق الشّيء فلا يستقر . وانظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ٣٦٨/١. الفائق: ٢٦٠/١. النّهاية في غريب الحديث: ٣١٤/٤.

(4) سنن أبي داود: بلفظه في: كتاب الملاحم: (٣٦). باب الأمر والنّهي: (١٧). برقم (٤٣٤٣). قال الألباني رحمه الله: " حسن صحيح". ونحوه برقم: (٤٣٤٢). قال الألباني رحمه الله: " صحيح". ص:٤٧٤.

سنن ابن ماجه: نحوه في: كتاب الفتن: (٣٦). باب التّثبّت في الفتنة: (١٠). برقم: (٣٩٥٧) . قال الألباني رحمه الله: " صحيح". ص: ٤٢٥. وهو في السّلسلة الصّحيحة: ٣٦٧/١ . برقم: (٢٠٥) .

مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٢١٢/٢. قال أحمد شاكر رحمه الله: " إسناده صحيح ". مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٧٢/١١-١٧٣. برقم: (٦٩٨٧).

۞ والأحاديث دالّة على اعتزال الفتن واجتناب أهلها . وقد أدّى ذلك إلى اختلاف السّلف رحمهم الله في أصل العزلة ، وهل هي جائزة مطلقاً لهذه الأحاديث أم مقيّدة بشروط أخرى؟ .

فذهب الجمهور إلى أن الاختلاط بالنّاس أولى ، لما يترتّب على ذلك من الفوائد الدّينيّة ، كالقيام بشعائر الإسلام ، وتكثير سواد المسلمين ، وإيصال الخير إليهم.

وذهب قوم إلى أنّ العزلة أولى لتحقّق السّلامة فيها .

وذهب البعض إلى تفضيل المخالطة لمن غلب على ظنّه أنّه لا يقع في معصية . فإن أشكل عليه الأمر فالعزلة أولى .

وذهب آخرون: إلى أنّ الأمر يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال ، فمنهم من يتحتّم عليه المخالطة . ومنهم من تترجّح المخالطة في حقّه . ومنهم من يستوي عنده الأمران ، فلا يتحقّق أحدهما من الآخر . ومنهم من تترجّح عنده العزلة .

ونحوه في: ٢/ ١٦٢. قال أحمد شاكر رحمه الله: " إسناده صحيح ". مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٠/٩-١٣. برقم: (٦٥٠٨).

ونحوه في: ٢/٢٢٠. قال أحمد شاكر رحمه الله: " إسناده صحيح ". مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٢/١٢. برقم: (٧٠٤٩).

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: نحوه برقم: (٥٩٥٠). قال شعيب الأرناؤوط: " إسناده صحيح على شرط مسلم". عن أبي هريرة ﷺ. ٢٧٩/١٣. ونحوه عنه برقم: (٥٩٥١). ٢٨١/١٣. وبرقم: (٦٧٣٠). ١٢٤/١٥-١٢٥.

مستدرك الحاكم: نحوه في: ١٧١/٢. وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين و لم يخرجاه بهذه السّياقة". وقال الذّهبي رحمه الله: " على شرط البخاري ومسلم". ونحوه في : ٤٨١/٤. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه". وقال الذّهبي رحمه الله: " صحيح".

مسند أبي يعلى: نحوه برقم: (٥٥٩٣).

وانظر: شرح السّنّة : ١٣/١٥ برقم:(٤٢٢١) . وانظر شرح الحديث في: الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: ٢٠٠/١٥-٢٠١ . عون المعبود: ٣٣٤/١١-٣٣٥ .

وهذا كلّه حيث لا تكون فتنة عامّة ، فإن وقعت الفتنة ترجّحت العزلة ، لما يحدث في الغالب من الوقوع في المحذور ، ووقوع العقوبة على أصحاب الفتن وغيرهم[١].

قال ابن كثير (رحمه الله):

"والمقصود أنّه إذا ظهرت الفتن فإنّه يسوّغ اعتزال النّاس حينئذ " [٢] .

وقال العيني (رحمه الله):

"إنّ اعتزال النّاس عند ظهور الفتن والهرب عنهم أسلم للدّين من مخالطتهم" [٣] .

وقد أمر النّبيّ ﷺ بعض الصّحابة ﷺ باعتزال الفتن وتجنّبها. وقد فعلوا ﷺ فلم يخوضوا في الفتن الّتي وقعت في عصرهم .

من أولئك :

❁ أبو ذر ﷺ :

عن أبي ذر ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ : "يا أبا ذر" قلت : لَبَيْك [٤] يارسول الله وسَعْدَيْك [٥] ــ فذكر الحديث ــ قال فيه كيف أنت إذا أصاب النّاس

---

(١) انظر: فتح الباري: ٥٤١/١٤ .وانظر: ١٣٢/١٣ .

(٢) النّهاية في الفتن: ٣٧/١ .

(٣) عمدة القاري : ٨٣/٢٣ .

(٤) لبيك:من التّلبية ، مأخوذة من لبّ فلان بالمكان إذا لزمه . ومعنى لبيك : أي أنا مقيم على طاعتك وأمرك . وإنّما ثنّوه للتّوكيد لأنّهم أرادوا به : إقامة بعد إقامة ، وطاعة مع طاعة، وإجابة بعد إجابة. انظر: غريب الحديث للهروي: ١٥/٣-١٦. ،٤٠٢/٤. غريب الحديث لابن قتيبة: ٢٢٠/١. غريب الحديث للخطّابي: ٢٢٦/٢-٢٢٧. الفائق: ٢٩٥/٣. النّهاية في غريب الحديث: ٢٢٢/٤ .

(٥) سَعْدَيك: أي سعداً مقروناً بسعد . غريب الحديث لابن قتيبة: ٢٢٠/١. وقيل معناه: إجابة ومساعدة . والمساعدة المطاوعة . أي: أجيبك إجابة وأطيعك طاعة . والمراد بالتّثنية التّكرير والتّكثير . انظر: الفائق: ١٧٩/٢. وانظر: النّهاية في غريب الحديث: ٣٦٦/٢ .

موت يكون البيت فيه بالوَصيف [1] ــ يعني القبر ــ " قلت : الله ورسوله أعلم . أو قال : ما خار الله لي ورسوله ؟ . قال : "عليك بالصّبر ". أو قال: " تصبر " . ثــمّ قال لي : " يا أبا ذر" قلت : لبيك وسعديك . قال: "كيف أنت إذا رأيت أحجار الزّيت [2] قد غرقت بالدّم"؟ قلت: ما خار الله لي ورسوله ؟. قال: "عليك بمن أنــت منــه" قلت: يا رسول الله أفلا أخذ سيفي وأضعه على عاتقي[3] ؟ قال: "شاركت القــوم إذن" . قلت: فما تأمرني؟ قال: "تلزم بيتك" . قلت: فإن دخل عليّ بيتي؟ قال: "فإن خشـيت أن يبهرك شعاع السّيف فألق ثوبك على وجهك يبوء بإثمك وإثمه" [4] .

❁ محمّد بن مسلمة ﷺ :

عن أبي بردة [5] قال: دخلت على محمّد بن مسلمة فقــال: إنّ رســول الله ﷺ قال: " إنّها ستكون فتنة وفرقة واختلاف . فإذا كان كذلك فأت بسيفك أحداً فاضربــه

---

(1) الوصيف:هو العبد ، والأمة وصيفة. وجمعها وصفاء ووصائف . يريد يكثر الموت حتّى يصير موضع قبر يشــترى بعبد من كثرة الموت . وقبر الميّت بيته . النّهاية في غريب الحديث: ١٩١/٥.

(2) أحجار الزّيت : جمع حجر منسوبة إلى الزّيت الّذي يؤتدم به . موضع متّصل بالمدينة قريب من الــزّوراء . إليــه كان يبرز رسول الله ﷺ إذا استسقى . معجم ما استعجم: ١ / ٤٢٦. وانظر:معجم البلدان:١٠٩/١.

(3) العاتق هو المَنْكِب . انظر: القاموس المحيط: ص:١١٧٠.

(4) سنن أبي داود: بلفظه في: كتاب الفتن والملاحم: (٣٤). باب في النّهي عن السّــعي في الفتنــة: (٢). برقــم: (٤٢٦١). قال الألباني رحمه الله: " " صحيح". ص: ٤٦٥. ونحوه في كتاب الحــدود: (٣٧). بــاب في قطــع النّبّاش: (٢٠). برقم: (٤٤٠٩). قال الألباني رحمه الله: " صحيح". ص: ٤٨٢.

سنن ابن ماجه: نحوه في: كتاب الفتن: (٣٦). باب التّثبّت في الفتنة: (١٠). برقــم: (٣٩٥٨). قــال الألبــاني رحمه الله: " " صحيح". ص:٤٢٥.

مسند أحمد: نحوه في: ١٤٩/٥،١٦٣.

مستدرك الحاكم:نحوه في: ١٦٩/٢. وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين ولم يخرجاه". وقال الذّهــبي رحمه الله: " على شرط البخاري ومسلم". ونحوه في: ٤٧٠/٤.

مسند الطّيالسي: نحوه برقم: (٤٥٩). ص: ٦٢.

وانظر : شرح السّنّة : برقم : (٤٢٢٠) . ١٢/١٥.

(5) أبو بردة :هو ابن عبد الله بن قيس أبي موسى الأشعري .قيل اسمه عامر ــ وعليه الأكثرية ــ وقيــل : الحــارث . وقيل: اسمه كنيته. تابعي ، روى عن جماعة من الصّحابة. ثقة، فقيه ، من نبلاء العلماء .كثير الحديث. تولّى القضاء بالكوفة . توفي سنة :١٠٤هــ.

حتّى ينقطع ، ثمّ اجلس في بيتك حتّى تأتيك يد خاطئة ، أو مَنِيَّةٌ [١] قاضية". فقد وقعت ' وفعلت ما قال رسول الله ﷺ " [٢].

ومحمّد بن مسلمة ﷺ هو الّذي قال عنه حذيفة ﷺ : " إنّي لأعرف رجلاً لا تضرّه الفتن شيئاً. قال [٣] : فخرجنا فإذا فسطاط مضروب ، فدخلنا فإذا فيه محمّد ابن مسلمة . فسألناه عن ذلك .، فقال: ما أريد أن يشتمل عليّ شيء من أمصاركم حتّى تنجلي عمّا انجلت " [٤] .

❁ أهبان بن صيفي الغفاري ﷺ :

عن عُدَيْسَة بنت أهبان [٥] قالت: لمّا جاء عليّ بن أبي طالب ههنا البصرة دخل على أبي فقال: يا أبا مسلم ألاّ تعينني على هؤلاء القوم ؟ قال: بلى . قال: فدعا جارية له ، فقال: يا جارية أخرجي سيفي . قال: فأخرجته . فسلّ منه قدر شبر فإذا

وانظر:الطّبقات الكبرى :٢٦٨/٦.طبقات خليفة:ص:١٥٨. التّاريخ الكبير:٤٤٧/٦. معرفة الثّقات: ص:٣٨٧/٢.الجرح والتّعديل:٣٢٥/٦. ثقات ابن حبّان:١٨٧/٥.مشاهير علماء الأمصار:١٠٤/١.تهذيب الكمال:٦٦/٣٣. التّعديل والتّجريح:٩٩٠/٣.تذكرة الحفّاظ:٩٥/١.الكاشف:٤٠٧/٢.جامع التّحصيل:ص:٢٠٤.تهذيب التّهذيب:٢١/١٢.تقريب التّهذيب:٦٢١/١.

(١) المنيّة:هي الموت أو قدر الموت . انظر:لسان العرب:٢٩٤/١٥. القاموس المحيط: ص:١٧٢١.وانظر: غريب الحديث للخطّابي: ٣٠٧/١.

(٢) سنن ابن ماجه : بلفظه في: كتاب الفتن: (٣٦). باب التّثبّت في الفتنة: (١٠). برقم: (٣٩٦٢) . قال الألباني رحمه الله: " صحيح".ص:٤٢٦. وهو في السّلسلة الصّحيحة: ٣٦٩/٣ .

مسند أحمد: نحوه في: ٤٩٣/٣.

مستدرك الحاكم: نحوه في: ١٢٧/٣.

(٣) القائل هو: ثعلبة بن ضبيعة راوي الحديث عن حذيفة ﷺ .

(٤) سنن أبي داود: بلفظه في: كتاب السّنّة: (٣٩). باب ما يدلّ على ترك الكلام في الفتنة: (١٢) . برقم :(٤٦٦٤) . قال الألباني رحمه الله: " صحيح لغيره".ص:٥٠٩.

مستدرك الحاكم: نحوه في: ٤٩١/٣-٤٩٢. وقال: "هذه فضيلة كبيرة بإسناد صحيح". وقال الذّهبي رحمه الله: "صحيح".

(٥) عديسة ـ بالتّصغير ـ بنت أهبان بن صيفي الغفاري . تابعيّة . وأبوها من الصّحابة ﷺ . روت عنه وعن عليّ ابن أبي طالب ﷺ . قال عنها ابن حجر (رحمه الله) : مقبولة.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٤٨١/٨.تهذيب الكمال: ٢٤٠/٣٥. الكاشف:٥١٤/٢. تهذيب التّهذيب: ٤٦٥/١٢. تقريب التّهذيب: ٧٥٠/١.

هو خشب . فقال: إنّ خليلي وابن عمّك ﷺ عهد إليّ إذا كانت الفتنة بين المسلمين فأتّخذ سيفاً من خشب . فإن شئت خرجت معك . قال: لا حاجة لي فيك ، ولا في سيفك "(١).

وقد اعتزل الفتن جماعة من الصّحابة غير ما ذكر . منهم سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وأبوبكرة وعمران بن حصين وغيرهم ﷺ (٢).

وقد احتجّت طائفة من أهل العلم بهذه الأحاديث على اعتزال الفتنة ، ولزوم البيت ، وتسليم النفس للقتل عند جميع الفتن . وأنّه لا يجوز للمسلم أن ينهض في شيء منها ، ولو أدّى ذلك إلى إزهاق نفسه فليس له أن يدفع عنها .

وذهب جماعة إلى الاعتزال ولزوم البيوت ، ولكن إذا أراد أحد نفسه أو ماله فعليه بدفع ذلك عنه ، سواء كان المريد لذلك متعمّداً أو متأوِّلاً .

وهو الصّحيح من القولين . ويسنده حديث أبي هريرة ﷺ . قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: "فلا تعطه مالك" قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: "قاتله" قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: "فأنت شهيد" قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: "هو في النّار" (٣) .

❁ كما أنّ الأحاديث السّابقة دالّة في مضمونها على الهجرة من مواطن الفتن إلى المواطن الّتي يأمن المسلم فيها على دينه .

والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ

---

(١) سنن ابن ماجه: بلفظه في: كتاب الفتن: (٣٦). باب التّثبّت في الفتنة: (١٠) . برقم: (٣٩٦٠) . قال الألباني رحمه الله: " صحيح". ص:٤٢٦. وهو في السّلسلة الصّحيحة: ٣٦٨/٣ .
مسند أحمد: نحوه في: ٦٩/٥.

(٢) انظر: التّذكرة: ص: ٦٥٧ . فتح الباري: ٥٣٠/١٤ .

(٣) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الإيمان: (١) . باب الدّليل على أنّ من قصد أخذ مال غيره بغير حقّ كان القاصد مهدر الدّم في حقّه ، وإن قتل كان في النّار ، وأنّ من قتل دون ماله فهو شهيد: (٦٢) .برقم: (١٤٠). ١٢٤/١ . وانظر: شرح النّووي على مسلم: ١٠/١٨ . التّذكرة: ص: ٦٥٦-٦٥٧ . فتح الباري: ٥٣٠/١٤ . وأمّا القتال في الفتنة لنصر المحقّ ، ودفع الفئة الباغية ، والخلاف في ذلك ، وذكر الرّاجح . سبق الحديث عنه: انظر :ص: ٦٩.

وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [النساء:٩٧-٩٩] .

قال ابن كثير (رحمه الله):

"هذه الآية الكريمة عامّة في كلّ من أقام بين ظهراني المشركين ، وهو قادر على الهجرة وليس متمكّناً من إقامة الدّين فهو ظالم لنفسه ، مرتكب حراماً بالإجماع، وبنصّ هذه الآية " [١] .

وقال الإمام القرطبي (رحمه الله):

"وفي هذه الآية دليل على هجران الأرض الّتي يعمل فيها بالمعاصي" [٢] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٨٢٢/١ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٣٤٦/٥ .

وفي الآية أيضاً تحذير بالغ للذّين يقيمون في بلاد الكفر بحجّة أنّ بلاد الإسلام غير صالحة للإقامة فيها . إمّا لضيق العيش ، أو عدم توفّر فرص للعمل ، أو لضغوط سياسيّة ، أو غير ذلك .

عن أبي الأسود (رحمه الله) قال " قطع على أهل المدينة بعث فاكتتبت فيه ، فلقيت عكرمة فأخبرته . فنهاني أشدّ النّهي . ثّم قال : أخبرني ابن عبّاس أنّ أناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثّرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ ، فيأتي السّهم فيُرمى فيصيب أحدهم فيقتله ، أو يضربه فيقتله . فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [النّساء:٩٧] .

صحيح البخاري: كتاب الفتن: (٩٢/٦٧). باب من كره أن يكثّر سواد الفتن والظّلم: (١٢). برقم: (٧٠٨٥). ص:١٤٩٤-١٤٩٥. وبلفظ مقارب في كتاب التّفسير: (٦٥/٣٩). بلب : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [النّساء:٩٧] . برقم: (٤٥٩٦). ص: ٩٦٢.

وعن بهز بن حكيم بن معاوية عن أبيه عن جده (رحمهم الله) مرفوعاً : " لا يقبل الله عزّ وجلّ من مشرك بعد ما أسلم عملاً أو يفارق المشركين إلى المسلمين".

ولا يعكّر على هذا ما جاء في حديث عائشة (رضي الله عنها) قالت: سئل رسول الله ﷺ عن الهجرة فقال: " لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا" (١).

وقد أجيب على هذا الحديث بأجوبة ، يتوجّه منها جوّابان :

أحدهما: لا هجرة بعد الفتح من مكّة لأنّها صارت دار إسلام .

والثّاني: لا هجرة بعد الفتح فضلها كفضل الهجرة قبل الفتح .

والمراد بالفتح فتح مكّة (٢).

سنن النّسائي: كتاب الزّكاة: (٢٣). باب من سأل بالله عزّ وجلّ: (٧٢). برقم: (٢٥٦٨). قال الألباني (رحمه الله): "حسن".ص: ٢٧٧.سنن ابن ماجه بلفظ قريب . في كتاب الحدود: (٢٠). باب المرتدّ عن دينه: (٢). برقم: (٢٥٣٦). قال الألباني رحمه الله: "حسن". ص: ٢٧٦.

وعن جرير بن عبد الله ﷺ قال : قال ﷺ : " أنا بريء من كلّ مسلم يقيم بين أظهر المشركين" قالوا يا رسول الله لم ؟ قال: " لا تراءى نارهما ".

سنن أبي داود: كتاب الجهاد: (١٥). باب النّهي عن قتل من اعتصم بالسّجود. برقم: (٢٦٤٥). قال الألباني رحمه الله : "صحيح". ص: ٢٩٨.سنن التّرمذي: بلفظ قريب . في: كتاب السّير: (١٨). باب ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين: (٤٢). برقم: (١٦٠٤). قال الألباني رحمه الله: "صحيح". ص: ٢٨٠.

والأحاديث في ذلك كثيرة وكلّها ذامّة لمن أقام بين ظهراني الكفّار لغير سبب شرعي كالدّعوة إلى الله ، أو طلب علمي ضروري يحتاج إليه أهل الإسلام ، ونحو ذلك .

ولذا قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله): "وفيه ـ أي حديث أبي الأسود ـ تخطئة من يقيم بين أهل المعصية باختياره لا لقصد صحيح من إنكار عليهم مثلاً ، أو رجاء إنقاذ مسلم من هلكة . وأنّ القادر على التّحول عنهم لا يعذر كما وقع للذين كانوا أسلموا ومنعهم المشركون من أهلهم من الهجرة .." . فتح الباري ١٤/٥٣٥ .

(١) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/٣٢). باب فضل الجهاد والسّير: (١). برقم : (٢٧٨٣). ص:٥٨٨. عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) . وعنه في باب وجوب النّفير ، وما يجب من الجهاد والنّيّة: (٢٧). برقم : (٢٨٢٥). ص:٥٩٧. و بلفظ مقارب عنه أيضاً في باب لا هجرة بعد الفتح: (١٩٤/١٩٣). برقم : (٣٠٧٧). ص: ٦٤٨.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الإمارة: (٣٣) . باب المبايعة بعد فتح مكّة على الإسلام والجهاد والخير ، وبيان "لا هجرة بعد الفتح" : (٢٠). برقم: (١٨٦٤) . ٣/١٤٨٨ .

(٢) انظر: شرح النّووي على مسلم: ١٢٣/٩، ٨/١٣ الجامع لأحكام القرآن: ٣٥٠/٥ وانظر: فتح الباري: ١٢٢/٦، ٦٣٥/٧ .

وعن عطاء بن أبي رَباح (رحمه الله) (١) قال: زرت عائشة (رضي الله عنها) مع عُبَيد بن عُمَير اللّيثيّ (٢) . فسألناها عن الهجرة . فقالت: " لا هجرة اليوم . كان المؤمنون يفرّ أحدهم بدينه إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ مخافة أن يفتن عليه . فأمّا اليوم فقد أظهر الله الإسلام . واليوم يعبد ربّه حيث شاء ولكن جهاد ونية " (٣) .

فقد بيّنت عائشة (رضي الله عنها) أنّ الهجرة سببها الخوف من الفتنة . والحكم يدور مع علّته وجوداً وعدماً. فمتى ما وجدت الفتنة وعجز الإنسان عن القيام بما يجب عليه وجبت عليه الهجرة (٤) .

وقد أذن النّبي ﷺ لسلمة بن الأكوع رضي الله عنه في سكن البادية بعد هجرته إلى المدينة .

---

(١) هو عطاء بن أبي رباح ـ وأبو رباح اسمه أسلم ـ أبو محمّد القرشي مولاهم اليماني نزيل مكّة. من أئمة التّابعين وسادتهم . ثقة فقيه فاضل لكنّه كثير الإرسال . كان مفتيّ مكّة في زمانه ومحدّثهم . سمع طائفة من الصّحابة. مات سنة :١١٤هـ على المشهور.

وانظر: الطّبقات الكبرى:٢/٣٨٦، ٥/٤٦٧. طبقات خليفة:ص:٢٨٠. التّاريخ الكبير:٦/٤٦٣.معرفة الثّقات :٢/١٣٥.الجرح والتّعديل:٦/٣٣٠. ثقات ابن حبّان:٥/١٩٨.مشاهير علماء الأمصار:١/٨١.التعديل والتّجريح:٣/١٠٠١. تهذيب الكمال:٢٠/٦٩. تذكرة الحفّاظ:١/٩٨.الكاشف:٢/٢١. جامع التّحصيل: ص:٢٣٧. تهذيب التّهذيب:٧/١٧٩.تقريب التّهذيب: ١/٣٩١. لسان الميزان:٧/٣٠٥.

(٢) هو عبيد بن عمير بن قتادة اللّيثيّ ، أبو عاصم المكّي . لأبيه صحبة. من كبار التّابعين ، وروى عن جماعة من الصّحابة. قاص أهل مكّة. كان عالماً واعظاً بليغاً فصيحاً كبير القدر . كثير الحديث ، مجمع على ثقته. مات سنة: ٧٤هـ . وقيل: ٦٨ هـ.

وانظر:الطّبقات الكبرى:٥/٤٦٣. طبقات خليفة:ص:٢٧٩. التّاريخ الكبير:٥/٤٥٥. معرفة الثّقات:٢/١١٨. الجرح والتّعديل:٥/٤٠٩. ثقات ابن حبّان:٥/١٣٢.مشاهير علماء الأمصار:١/٨٢. التّعديل والتّجريح:٢/٩٢٥.تهذيب الكمال:١٩/٢٢٣. تذكرة الحفّاظ:١/٥٠. الكاشف: ١/٦٩١. جامع التّحصيل:ص:٢٣٤. الإصابة:٥/٦٠. تهذيب التّهذيب:٧/٦٥. تقريب التّهذيب:١/٣٧٧.

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب مناقب الأنصار: (٦٣/٣٧). . باب هجرة النّبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة: (٤٥/١٠٥) برقم : (٣٩٠٠). ص:٨١٥. و بلفظ مقارب في كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/٣٢). باب لا هجرة بعد الفتح: (١٩٤/١٩٣). برقم : (٣٠٨٠). ص: ٣٤٩.

ونحوه في كتاب المغازي: (٦٤/٣٨). باب : (٥٣/٥٤). برقم : (٤٣١٢). ص:٨٩٥.

(٤) انظر: فتح الباري: ٧/٦٣٥ .

وقد أجمعت الأمّة على تحريم ترك المهاجر هجرته ورجوعه إلى وطنه ، وعلى أنّ ارتداد المهاجر أعرابياً [١] من الكبائر [٢].

ولذلك قال الحجّاج لسلمة ﷺ : يا ابن الأكوع ارتددت على عقبيك ؟ تَعَرّبت [٣] ؟ قال: لا. ولكنّ رسول الله ﷺ أذن لي في البدو" [٤].

وقد كان ﷺ خرج إلى الرَّبَذة [٥] لمّا قتل عثمان بن عفّان ﷺ ، وتزوّج هناك امرأة وولدت له ، فلم يزل بها حتّى اقبل قبل أن يموت بليال فنزل المدينة[٦].

فيتبيّن ممّا سبق أنّ إذن النّبيّ ﷺ لسلمة ﷺ بالتّعرّب والهجرة عند حلول الفتن . ولذلك عنون البخاري له بباب التّعرّب في الفتنة.

قال الإمام القرطبي (رحمه الله):

"قال علماؤنا: فالفتنة إذا عملت هلك الكلّ وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار المنكر وعدم التّغيير، وإذا لم تُغيّر وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والهرب منها" [٧].

---

(١) الأعرابي : هو ساكن البادية الّذي يقيم في الأمصار ولا يدخلها إلاّ لحاجّة. والجمع أعراب .
انظر: لسان العرب:١/٥٨٧.

(٢) شرح النّووي على مسلم: ١٣/٦ .

(٣) تَعَرَّب: أي صار أعرابياً فعاد للبادية وأقام ها مع الأعراب بعد أن كان مهاجراً . انظر: لسان العرب: ١/٥٨٧.

(٤) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الفتن : (٩٢/٦٧). باب التّعرّب في الفتنة: (١٤). برقم : (٧٠٨٧). ص:١٤٩٥.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الإمارة: (٣٣). باب تحريم رجوع المهاجر إلى استيطان وطنه: (١٩). برقم : (١٨٦٢) . ٣/١٤٨٦ .

(٥) الرَّبَذة: أصلها الشّدّة .وقيل: هي خفّة القوائم في المشي ، وخفّة الأصابع في العمل . وهي قرية معروفة من قرى المدينة النّبويّة. وهي الّتي أقام فيها أبو ذر الغفاري ﷺ حتّى مات وقبر ها . انظر:معجم البلدان:٣/٢٤.

(٦) انظر:صحيح البخاري: كتاب الفتن : (٩٢/٦٧). باب التّعرّب في الفتنة: (١٤). برقم : (٧٠٨٧). ص:١٤٩٥.

(٧) الجامع لأحكام القرآن:٧/٣٩٢ . التّذكرة ص :٦١١-٦١٢ . وفيه اختلاف يسير .

﴿ المبحث الثّالث ﴾

الصّبر عند وقوع الفتن

قال الله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾ [العنكبوت:١-٣] .

أي أحسب الّذين ادّعوا أنّهم مؤمنون وقالوا ذلك بأفواههم أنّنا نقنع منهم بما قالوا دون اختبار وامتحان يتبيّن من خلاله صدق الصّادق في قوله . الّذي رسخ قدمه في الإيمان ، وثبت على دينه ، وصبر عند الفتن فلم يتزعزع ولم يتضعضع . من كذب الكاذب في دعواه . الّذي لم يستقر الإيمان في قلبه ، ولم يصبر عند المحن ، ولم يثبت عند الفتن . فدعواه خالية من الحقيقة ، لا وزن لها ولا قيمة .

وليس هذا التمحيص متعلّقاً بهذه الأمّة فحسب ، بل هو حكم أجري على الأمم السابقة. فقد محّصهم الله وامتحنهم ليتبيّن صدق صادقهم من كذب كاذبهم (١) .

قال الزمخشري:

" أحسب الّذين أجروا كلمة الشّهادة على ألسنتهم ، وأظهروا القول بالإيمان: أنّهم يتركون بذلك غير ممتحّنين ، بل يمحّنهم الله بضروب المحن حتّى يبلو صبرهم، وثبات أقدامهم ، وصحّة عقائدهم ، ونصوع نيّاتهم ، ليتميّز المخلص من غير المخلص ، والرّاسخ في الدّين من المضطّرب ، والمتمكّن من العابد على حرف" (٢) .

---

(١) انظر معاني الآيات في :

جامع البيان: ١٢٨/٢٠-١٢٩ . طبعة الحلبي . معاني القرآن للزّجّاج: ١٥٩/٤-١٦٠ . الجامع لأحكام القرآن: ٣٢٤/١٣ . تفسير القرآن العظيم: ٦٤٤/٣ .

(٢) الكشّاف: ٣٤٥/٣ . مطبعة الاستقامة .

وقال القاسمي (رحمه الله) : بعد إيراده لمجموعة من الآيات الّتي تفيد المعاني السّابقة . *قال:*

" وكلّ هذه الآيات وأمثالها ممّا نزل بمكّة في تثبيت قلوب المؤمنين، وتصبيرهم على ما كان ينالهم من أذى المشركين﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي من أتباع الأنبياء عليهم السّلام بضروب من الفتن من أعدائهم ، كما دوّن التّاريخ اضطهادهم . أي فصبروا وما وهنوا لما أصابهم حتّى علت كلمة الله " [1] .

فالفتن إنّما تأتي لتمحّص العباد ، وتختبر إيمانهم ، فمن صبر فذاك الّذي اجتاز المحنة بصدق وثبات ، ومن وهن عن الصّبر فذاك الّذي رسب في ما اختبر به .

قال الإمام ابن القيّم (رحمه الله):

" فليس لمن قد فتن بفتنة دواء مثل الصّبر، فإن صبر كانت الفتنة ممحّصة له ، ومخلّصة من الذّنوب ، كما يخلّص الكير[2] خبث الذّهب والفضّة . فالفتنة كير القلوب ، ومحكّ الإيمان ، وبها يتبيّن الصّادق من الكاذب .

قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت:٣] .

فالفتنة قسّمت النّاس إلى صادق وكاذب ، ومؤمن ومنافق ، وطيّب وخبيث . فمن صبر عليها كانت رحمة في حقّه ، ونجا بصبره من فتنة أعظم منها ، ومن لم

قوله: العابد على حرف: أصل الحَرْف من كلّ شيء :طرفه وشفيره وحدّه ، ومن الجبل أعلاه المحدّد . والمراد هنا :أي أنّه يعبد الله على وجه . كأن يعبده على السّراء لا على الضّراء ، أو على شكّ ، أو على غير طمأنينة على أمره : أي لا يدخل في الدّين متمكّناً. انظر: القاموس المحيط:ص:١٠٣٢-١٠٣٣.

(١) محاسن التّأويل: ٤٧٣٦/١٣-٤٧٣٧ .

(٢)كير: الكِيرُ:كِير الحدّاد. وهو زِق أو جلد غليظ ذو حافّات . لسان العرب: ١٥٧/٥. انظر: مختار الصّحاح : ص: ٥٨٥. القاموس المحيط: : ص:٦٠٨. وهو إنّما يستخدمه الحدّاد لينفخ به النّار ليليّن بها الحديد ويجلو صدأه . والمراد هنا : أنّ الابتلاء يجلو العبد المؤمن ويطّهره من أدران المعاصي كما يجلو الكير صدأ الحديد.

يصبر عليها وقع في فتنة أشدّ منها " (١).

ولمّا كان الصّبر ذا أثر عظيم في الثّبات عند الفتن قرنه الله عزّ وجلّ بالفتنة في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [النحل:١١٠] .

أي إنّ ربّك لغفور رحيم لمن هاجر في سبيله ، وترك دياره وأمواله مبتغياً رضوان الله ، وفتن على دينه ليرجع إلى الكفر ولكنّه ثبت على إيمانه ، وجاهد أعداء الله وصبر ، فإنّه ينال بذلك مغفرة الله لذنوبه ورحمته له (٢).

كما قرن سبحانه بين الفتنة والصّبر في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴾ [الفرقان:٢٠] .

أي إنّ الله عزّ وجلّ فتن العباد بعضهم ببعض . ففتن الرّسل بالمرسل إليهم في دعوتهم ، والصّبر على أذاهم ، وحمل مشاق تبليغ رسالات الله . وفتن المرسل إليهم بالرّسل هل يطيعونهم وينصرونهم، أم يخالفونهم ويكفرون بهم ؟. وفتن العلماء بالجّهال هل يعلمونهم وينصحونهم ويصبرون على ذلك ؟. وفتن الجهّال بالعلماء هل يطيعونهم ويهتدون بهم ؟ . وفتن الملوك بالرّعيّة ، والرّعيّة بالملوك . والأغنياء بالفقراء ، والفقراء بالأغنياء. والضّعفاء بالأقوياء، والأقوياء بالضّعفاء . والسّادة بالأتباع ، والأتباع بالسّادة . والرّجل بامرأته ، والمرأة بزوجها. والمؤمن بالكافر، والكافر بالمؤمن . والمعافى بالمبتلى ، والمبتلى بالمعافى(٣).

---

(١) إغاثة اللّهفان: ١٦٢/٢ .

(٢) انظر: تيسير الكريم الرّحمن: ص:٤٠٢ ، وانظر في معنى الآية وأسباب نزولها : جامع البيان: ١٨٣/١٤ . طبعة الحلبي . معاني القرآن للزّجّاج: ٢٢٠/٣ . التّفسير الكبير: ١٢٥/٢٠-١٢٦ . تفسير القرآن العظيم: ٩١٣/٢ . محاسن التّأويل: ٣٨٦٦/١٠-٣٨٦٧.

(٣) انظر: إغاثة اللّهفان : ١٦٠/٢-١٦١ . وانظر في معنى الآية: جامع البيان: ١٩٤/١٨-١٩٥ . طبعة الحلبي . التّفسير الكبير: ٦٥/٢٤-٦٦ . الجامع لأحكام القرآن: ١٨/١٣-١٩ . تفسير القرآن العظيم : ٥٠٠/٣ . تفسير الكريم الرّحمن: ٧٠/٦ .

وهكذا فتن الخلق بعضهم ببعض تمحيصاً واختباراً لهم ليعلم مدى صبرهم على الحقّ وثباتهم فيما فتنوا به .

ولذلك كان تخصيص رسول الله ﷺ بكرامة النُّبوّة فتنة لأشراف النّاس من الكفّار في عصره .

ولذا اعترضوا فقالوا: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف:٣١] (١) .

وذلك ليس لهم ، بل هو لله ، فهو أعلم حيث يجعل رسالته. فينتقي لها أزكى الخلق قلباً ونفساً ، وأشرفهم بيتاً وأطهرهم أصلاً . ولذا رد عليهم فقال: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف:٣٢] (٢) .

كما كان إيمان الضّعفاء من الرّجال والنّساء ، والعبيد والإماء في أوّل مبعث النّبيّ ﷺ فتنة للأشراف . إذ استنكر هؤلاء أن يخصّ الضّعفاء من بينهم بإصابة الحقّ ، وهداية الإيمان دونهم ، وهم كما يزعمون أولى بالخير من أولئك الضّعفاء كما قالوا ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ ﴾ [الأحقاف:١١].

فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنعام:٥٣] (٣) .

فالله أعلم بمن يستحقّ نعمة الهداية فيشكره عليها، ومن أغفل قلبه ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف:٢٨].

---

(١) وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٣/١٨ .

(٢) وانظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/١٩٢ .

(٣) وانظر في معنى الآية: جامع البيان: ١١/٣٨٨-٣٨٩ . طبعة شاكر . زاد المسير: ٣/٣٤ . تفسير القرآن العظيم: ٢/٢١٦ . محاسن التأويل: ٦/٢٣٢٦-٢٣٢٧ . إغاثة اللّهفان: ٢/١٦١-١٦٢ .

وقد صبر أولئك الضّعفاء ، وثبتوا على إيمانهم فلم تؤثّر فيهم مزاعم الكفّار وترّهاتهم واستحقارهم واستهزاؤهم بهم . فكان جزاؤهم عند الله عظيماً . ألا وهو الفوز بالجنّة .

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [المؤمنون:١٠٩-١١١] (١).

فالكافر مفتون بالمؤمن ، والمؤمن مفتون بالكافر .

ولهذا جاء في دعاء إبراهيم عليه السّلام ومن معه من المؤمنين الّذين أمر الله المؤمنين من هذه الأمّة بالتأسي بهم فيه:

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ [الممتحنة:٥] .

قال الإمام ابن جرير (رحمه الله):

" يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل إبراهيم خليله والّذين معه: يا ربّنا لا تجعلنا فتنة للّذين كفروا بك ، فجحدوا وحدانيتك ، وعبدوا غيرك بأن تسلّطهم علينا فيروا أنّهم على حقّ ، وأنّا على باطل . فتجعلنا بذلك فتنة لهم " .

ثمّ روى بسنده عن مجاهد (رحمه الله) قال: " لا تعذّبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا: لو كان هؤلاء على حقّ ما أصابهم هذا " .

وروى عن قتادة (رحمه الله) أنّه قال: " لا تظهرهم علينا فيفتتنوا بذلك ، يرون أنّهم إنّما ظهروا علينا لحقّ هم عليه " .

---

(١) وانظر: إغاثة اللّهفان: ١٦٢/٢ .

وعن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) قال: " لا تسلّطهم علينا فيفتتونا " [1].

وقد دعا بذلك أصحاب موسى عليه السّلام: ﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [يونس:٨٥] [2].

فالمؤمن في هذه الحياة معرّض للفتن بشتّى أنواعها ، فإذا أصيب بدائها فعليه أن يلجأ إلى الصّبر فإنّه العلاج النّاجع الّذي يكشف داء الفتن . وهو أعظم العوامل تأثيراً في الثّبات عندها .

ولذلك وجّه رسول الله ﷺ أبا ذر رضي الله عنه للتّمسك بالصّبر متى ما حلّت به الفتن، فقال له: "كيف أنت إذا أصاب النّاس موت يكون البيت فيه بالوصيف"؟ قلت: الله ورسوله أعلم . أو قال: ما خار الله لي ورسوله ؟ . قال: "عليك بالصّبر" أو قال: "تصبر " [3].

بل أرشدّ ﷺ النّاس جميعاً إلى الصّبر عند الفتن . وإن كان في ذلك مشقّة بالغة تبلغ مشقّة من يصبر على قبض الجمر .

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : "يأتي على النّاس زمان الصّابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر " [4] .

ولهذا لمّا شكا النّاس إلى أنس بن مالك رضي الله عنه ما يلقون من فتنة الحجّاج دلّهم رضي الله عنه على الصّبر اقتداء وتأسّياً بحديث النّبيّ ﷺ السّابق .

(١) جامع البيان: ٦٤/٢٨ . طبعة الحلبي . وانظر: التّفسير الكبير: ٣٠٢/٢٩ . الجامع لأحكام القرآن: ٥٧/١٨ . تفسير القرآن العظيم: ٥٤٤/٤ . محاسن التّأويل: ٥٧٦٦/١٦-٥٧٦٧ . تيسير الكريم الرّحمن: ص:٧٩٤ .

(٢) انظر في معنى الآية: زاد المسير: ٧٤/٤ . التّفسير الكبير: ١٤٦/١٧-١٤٧ . الجامع لأحكام القرآن: ٣٧٠/٨ . تفسير القرآن العظيم: ٦٦٣/٢ . وانظر: إغاثة اللّهفان: ١٦٤/٢ .

(٣) سبق . ص : ١٨٦ .

(٤) سنن التّرمذي: بلفظه في: كتاب الفتن: (٣٠). باب: (٧٣). برقم: (٢٢٦٠). وقال: "هذا حديث غريب من هذا الوجه". وقال الألباني رحمه الله: " صحيح". ص:٣٧٤. وهو في السّلسلة الصّحيحة: ٦٨٢/٢ . برقم: (٩٥٧) . وانظر: تحفة الأحوذي: ٤٤٤/٦-٤٤٥ .

عن الزُّبير بن عدي (رحمه الله)[١] قال: أتينا أنس بن مالك فشكونا إليــــه مــا نلقى من الحجّاج فقال: "ا صبروا فإنّه لا يأتي عليكم زمان إلاّ الّذي بعده شـــرّ منـــه حتّى تلقوا ربّكم " سمعته من نبيّكم ﷺ [٢].

(١) هوالزُّبير بن عدي أبو عبد الله أو أبو عدي الأيامي الهمداني الكوفي ، قاضي الرّي .تابعي، ثقة ثبت، فقيه عــــابد، صاحب سنّة.توفي سنة: ١٣١هـ.

وانظر: التّاريخ الكبير: ٤١٠/٣.معرفة الثّقات: ٣٦٨/١. الجرح والتّعديـــل: ٥٧٩/٣. ثقــات ابــن حبّـــان: ٢٦٢/٤. التّعديل والتّجريح: ٥٨٩/٢. تهذيب الكمـــال: ٣١٥/٩. الكاشـــف: ٤٠٢/١. تهذيــب التّـــهذيب: ٢٧٣/٣. تقريب التّهذيب: ٢١٤/١. لسان الميزان: ٢١٩/٧،٤٩٧.

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الفتن : (٩٢/٦٧). باب لا يأتي زمان إلاّ الّذي بعده شرّ منه: (٦). برقـــــم : (٧٠٦٨) . ص:١٤٩٢.

المبحث الرّابع

المبادرة إلى الطّاعات عند حلول الفتن

إنّ الاشتغال بطاعة الله تعالى ، والانصراف إلى عبادته حال حلول الفتن من أعظم العوامل الدّاعية إلى الثّبات . لأنّ العبادة تربط العبد بربّه ومولاه الّذي يعصمه من الفتن ويحميه منها، وهي تقوّي إيمانه فلا تجد الفتن منفذاً إلى قلبه الّذي عمر بالإيمان لملازمة صاحبه على الطّاعات ، مهما عظم شأن تلك الفتن واشتدّ أوارها .

ولذا حثّ النّبيّ ﷺ إلى المسارعة إلى الأعمال الصّالحة عند وقوع الفتن .

فقال في حديث أبي هريرة ﷺ : " بادروا بالأعمال فتناً كقطع اللّيل المظلم ، يصبح الرّجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع أحدهم دينه بعرض من الدّنيا " (١) .

وإن كانت المبادرة إلى الطّاعات ، والمسابقة إلى الصّالحات ، والمسارعة إلى القربات أمر مرّغب فيه من قبل الشّارع الحكيم في كلّ وقت وحين ، ولو لم تكن هنالك فتنة .

وفي ذلك يقول المولى سبحانه : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٣] .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحديد:٢١] .

والمسارعة والمسابقة إلى الجنّة إنّما تكون بالطّاعات والأعمال الصّالحات .

---

(١) سبق تخريجه . ص : ٣١ .

وانظر معناه في : شرح النّووي على مسلم: ١٣٣/٢ . تحفة الأحوذي: ٣٦٤/٦-٣٦٥ . الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: ٢٠٠/١٥-٢٠١ الهامش .

ولذلك مدح سبحانه بعض أنبيائه بمسارعتهم إلى الأعمال الصّالحة فقال : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠ ﴾ [الأنبياء:٨٩-٩٠] .

بل مدح المؤمنين الطّائعين المسارعين في القربات بقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١ ﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١]

ولكنّ المسارعة بالطّاعات عند مداهمة الفتن آكد ، والفرار إليها أقوم وأرشد لأنّ الفتن مزلق عظيم ، ووقعها على النفوس خطير ، قلّ أن ينجو العبد عندها ، ويسلم من ضررها . ولذا يعجّل بالتّشبّث بالطّاعة كي يجتاز عقبتها ، ويسلم من وهدتها .

ولذلك دعا ﷺ أزواجه (رضي الله عنهنّ) إلى الصّلاة والاشتغال بها حال الفتن ليتقوّين بذلك على دفعها والخروج من شرّها .

عن أمّ سلمة زوج النّبيّ ﷺ قالت: استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزعاً يقول: " سبحان الله ! ماذا أنزل الله من الخزائن وماذا أنزل من الفتن ؟ من يوقظ صواحب الحجرات ــ يريد أزواجه ــ لكي يصلّين ، ربّ كاسية في الدّنيا عارية في الآخرة " [١] .

ولمّا كانت العبادة من أعظم العوامل المعينة على الثّبات عند الفتن خشي النّبيّ ﷺ من التّفريط فيها ، والاشتغال عنها بغيرها ، فبيّن عظم أجرها عند وقوع الفتن .

---

(١) سبق . ص : ٢٣ . وانظر معناه: في عمدة القاري: ٢/١٧٢-١٧٥ .

فعن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ : " العبادة في الهرج كهجرة إليّ " (١)

وفي الرّواية الأخرى: " العبادة في الفتنة كالهجرة إليّ " (٢) .

قال الحافظ ابن رجب (رحمه الله):

"وسبب ذلك أنّ النّاس في زمن الفتن يتّبعون أهواءهم ولا يرجعون إلى دين ، فيكون حالهم شبيهاً بحال الجاهليّة ، فإذا انفرد من بينهم من يتمسّك بدينه ويعبد ربّه ويتّبع مراضيه ويجتنب مساخطه كان بمنزلة من هاجر من بين أهل الجاهليّة إلى رسول الله ﷺ مؤمناً به متّبعاً لأوامره مجتنباً لنواهيه " (٣) .

وقال النّووي (رحمه الله):

"وسبب كثرة فضل العبادة فيه أنّ النّاس يغفلون عنها ويشتغلون عنها ولا يتفرغ لها إلاّ الأفراد " (٤) .

وإذا كانت الطّاعات والمبادرة إليها من العوامل الجالبة للثّبات عند الفتن فإنّ المعاصي من المؤثّرات المانعات منه عندها .

قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور:٦٣] .

فمخالفة أمر الرسول ﷺ وعصيانه ، وتنكّب سبيله ومنهاجه يوقع في الفتنة أيّاً كان نوعها ، كفراً أو شركاً أو نفاقاً أو بدعة أو قتلاً أو زلازل وأهوالاً أو سلطاناً

---

(١) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراط السّاعة : (٥٢). باب فضل العبادة في الهرج: (٢٦). برقم (٢٩٤٨) . ٢٢٦٨/٤ .

(٢) مسند أحمد: بلفظه في: ٢٧/٥ .عن معقل ﷺ . أيضاً.

معجم الطّبراني الكبير: بلفظه ـــ إلاّ إنّه قال: " كهجرة" ـــ برقم: (٤٩٢) ،(٤٩٣). ٢١٣/٢٠.

(٣) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف . للحافظ أبي الفرج زين الدّين عبد الرّحمن بن رجب الحنبلي . ضبط ومراجعة : إبراهيم رمضان . وسعيد اللّحام . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . الطّبعة الأولى : ١٤٠٩هـ ـــ ١٩٨٩م : ص :١٥٦ .

(٤) شرح النّووي على مسلم: ٨٨/١٨ .

جائراً أو طبعاً على القلب أو غير ذلك.[1] وبذلك يحرم العاصي من الثّبات على الحقّ فينجرف مع تيار الفتن فيهلك فيمن هلك .

(1) وانظر معنى الآية في:
جامع البيان: ١٨/١٧٨ . الحليي . الكشّاف: ٣/٢٠٥ . الاستقامة . التّفسير الكبير: ٢٣/٤٢ . الجامع لأحكام القرآن: ١٢/٣٢٣ . تفسير القرآن العظيم: ٣/٤٩١ .

المبحث الخامس

تمنّي الموت عند حلول الفتن

لاشكّ إنّ للفتن وقعاً عظيماً على نفس المؤمن وقلبه ، وقد تبلغ إلى الحد الّذي تذهب دينه وإيمانه ، وتلك خسارة عظيمة وهلاك كبير . وخير لهذا المؤمن أن يطلب من ربّه استعجال الموت ليموت وهو ثابت على إيمانه ، باقٍ على دينه . لأنّ الموت خير من الفتنة الّتي تذهب دين الإنسان . وبذلك نطق النّبيّ ﷺ .

فعن محمود بن لبيد ﵁ أنّ النّبيّ ﷺ قال: " اثنتان يكرههما ابن آدم: الموت والموت خير للمؤمن من الفتنة ، ويكره قلّة المال وقلّة المال أقلّ للحساب" (١).

وقد جاءت الأدلّة الدّالّة على تمنّي الموت عند حلول الفتن . من ذلك:

قال تعالى في شأن مريم عليها السّلام: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾ [مريم:٢٣] .

إنّ مريم عليها السّلام خافت من قالة النّاس فيها ، وخشيت عدم ثباتها على دينها وصبرها عليه ، فتمنّت الموت قبل الّذي حدث لها ، وأنّها لو كانت شيئاً لا يؤبه له .

قال القرطبي (رحمه الله):

" تمنّت مريم عليها السّلام الموت من جهة الدّين لوجهين:

أحدهما: أنّها خافت أن يظنّ بها الشرّ في دينها وتعيّر فيفتنها ذلك .

الثّاني: لئلا يقع قوم بسببها في البهتان والنّسبة إلى الزّنا وذلك مهلك . وهو على هذا الحد يكون تمنّي الموت جائزاً " (٢).

---

(١) سبق تخريجه. انظر : ص : ١٢٠ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٩٢/١١ . التّذكرة: ص: ٧ .

والأوّل أوجه. ولذلك *قال الإمام ابن كثير (رحمه الله):*

"وقوله تعالى إخباراً عنها ــ فذكر الآية ــ فيه دليل على جواز تمنّي الموت عند الفتنة . فإنّها عرفت أنّها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الّذي لا يحمل النّاس أمرها فيه على السّداد ، ولا يصدّقونها في خبرها . وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنّون عاهرة زانية . فقالت: ﴿ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا ﴾ أي قبل هذا الحال: ﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾: أي لم أخلق ، ولم أك شيئاً . قاله ابن عبّاس " (١).

واستدلّ بعضهم على جواز تمنّي الموت بقول الله تعالى في شأن يوسف عليه السّلام: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف:١٠١] .

قال قتادة (رحمه الله):

" لم يتمنّ الموت أحد نبي ولا غيره إلاّ يوسف عليه السّلام . حين تكاملت عليه النّعم ، وجمع له الشّمل اشتاق إلى لقاء ربّه عزّ وجلّ " (٢) .

وذكر نحو هذا عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) (٣) .

والصّحيح أنّ يوسف عليه السّلام لم يتمنّ الموت ، وإنّما تمنّى الوفاة على الإسلام ، وأن يتوفّاه الله حين يتوفّاه مسلماً . وعلى ذلك جمهور أهل العلم (٤) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ١٨٩/٣ . وانظر معنى الآية في : الكشّاف ٤٠٨/٢-٤٠٩ . محاسن التّأويل: ٤١٣٤/١١ تيسير الكريم الرّحمن: ص:٤٤١ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢٦٩/٩ . التّذكرة : ص: ٦

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٧٦١/٢ .

(٤) انظر: زاد المسير: ٢١٨/٤ . الجامع لأحكام القرآن: ٢٦٩/٩ . تفسير القرآن العظيم: ٧٦٠/٢-٧٦١ . محاسن التّأويل: ٣٥٩٧/٩ .

وفي دعائه عليه السّلام طلب الثّبات على الإسلام ، والاستمرار عليه حتّى يتوفّاه الله على ذلك [١] .

وممّا يدلّ على جواز سؤال الموت عند الفتن:

حديث ابن عبّاس (رضي الله عنهما) في اختصام الملأ الأعلى وفيه قال ﷺ : " اللّهم إنّي أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحبّ المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون" [٢] .

وفي رواية معاذ بن جبل ﷺ : "وإذا أردت فتنة في قوم فتوفّني غير مفتون " [٣] . فهو صريح في تمنّي الموت حال الفتنة .

واستدلّ بعضهم بحديث أبي هريرة ﷺ عن النّبيّ ﷺ قال:

" لا تقوم السّاعة حتّى يمرّ الرّجل بقبر الرّجل فيقول يا ليتني مكانه " [٤] .

---

(١) انظر تيسير الكريم الرّحمن: ص: ٣٦١ .

(٢) انظر: التّذكرة: ص: ٧ . النّهاية في الملاحم والفتن: ٣٨/١ . والحديث في:
سنن التّرمذي: بلفظه ــ جزء من حديث ــ في: كتاب تفسير القرآن: (٤٣). باب ومن سورة [ص]: (٣٨). برقم: (٣٢٣٣) . قال الألباني رحمه الله: " صحيح". ص:٥١٣.
موطّأ مالك: بلفظ مقارب في: كتاب القرآن: (١٥). باب العمل في الدّعاء: (٩). برقم: (٤٠) . ٢١٨/١ .بلاغاً
مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٣٦٨/١. قال أحمد شاكر رحمه الله: " إسناده صحيح ". مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٦٢/٥-١٦٣. برقم: (٣٤٨٤).
مستدرك الحاكم: نحوه في: ٧٠٢/١. وقال: " هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه". عن عبد الرّحمن بن عايش الحضرمي ﷺ .

(٣) سنن التّرمذي: بلفظه ــ إلاّ إنّه قال: "فتنة قوم" . وهو جزء من حديث ــ في: كتاب تفسير القرآن: (٤٣). باب ومن سورة [ص]: (٣٨). برقم: (٣٢٣٥). قال الألباني رحمه الله: " صحيح". ص: ٥١٤.
مسند أحمد: بلفظه في: ٢٤٣/٥.

(٤) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الفتن : (٩٢/٦٧). باب لا تقوم السّاعة حتّى يغبط أهل القبور (٢٢/٢٣) . برقم : (٧١١٥) . ص:١٥٠٠.
صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب لا تقوم السّاعة حتّى يمرّ الرّجل بقبر الرّجل فيتمنّى أن يكون مكان الميّت من البلاء: (١٨). برقم : (١٥٧). ٢٢٣١/٤.

نقل الحافظ ابن حجر عن ابن بطال (رحمه الله) أنّه قال:

" تغبيط أهل القبور ، وتمنّي الموت عند ظهور الفتن إنّما هو خوف ذهاب الدّين بغلبة الباطل وأهله ، وظهور المعاصي والمنكر " (١).

ولكن ليس في الحديث ما يدلّ على جواز ذلك لأنّه لم يتعرّض للحكم وإنّما سيق مساق الإخبار بأنّ ذلك سوف يقع في آخر الزّمان عند اشتداد الأمر بالنّاس وفساد الحال ، وقد لا يكون ذلك التّمنّي من خوف ذهاب الدّين ، وإنّما لضرّ نزل بالإنسان .

وقد جاء ذلك صراحة في رواية مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : " والّذي نفسي بيده لا تذهب الدّنيا حتّى يمرّ الرّجل على القبر فيتمرّغ عليه ويقول: يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر وليس به الدّين إلاّ البلاء" (٢) .

وقد تمنّى بعض السّلف (رحمهم الله) الموت منهم عمر بن الخطّاب وعلي بن أبي طالب وأبو هريرة ﷺ ، وعمر بن عبد العزيز (٣) والبخاري (رحمهم الله) (٤) .

---

(١) فتح الباري: ٥٨١/١٤ . وانظر: تفسير القرآن العظيم ٧٦٢/٢ . عمدة القاري ٢١١/٢٤ .

(٢) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الفتن وأشراط السّاعة: (٥٢). باب لا تقوم السّاعة حتّى يمرّ الرّجل بقبر الرّجل فيتمنّى أن يكون مكان الميّت من البلاء: (١٨). برقم : (١٥٧). ٢٢٣١/٤ . وانظر: التّذكرة: ص: ٧ . فتح الباري: ٥٨٢/١٤ .

(٣) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم ، أبو حفص الأموي القرشي ، المدني ثمّ الدّمشقي. الإمام العادل والخليفة الصّالح . وأمّه أمّ عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطّاب ﷺ . ولي إمرة المدينة للوليد بن عبد الملك ، وكان مع سليمان كالوزير ، وولي الخلافة بعده ، فأحيا ما أميت قبله من السنن ، وسلك مسلك من تقدّمه من الخلفاء الرّاشدين . عدّه الشّافعي (رحمه الله)الخليفة الرّاشد الخامس .

قال عنه الذّهبي رحمه الله:" كان إماماً فقيهاً مجتهداً عارفاً بالسنن كبير الشّان ثبتاً حجّة حافظاً قانتاً لله أوّاهاً منيباً"توفي سنة:١٠١هـ.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٣٣٠/٥. التّاريخ الكبير: ١٧٤/٦. الجرح والتّعديل: ١٢٢/٦. ثقات ابن حبّان: ١٥١/٥. مشاهير علماء الأمصار: ١٧٨/١. التّعديل والتّجريح: ٩٤١/٣. تهذيب الكمال: ٤٣٢/٢١. تذكرة الحفّاظ: ١١٨/١. الكاشف: ٦٥/٢. جامع التّحصيل: ص: ٢٤٢.تهذيب التّهذيب: ٤١٨/٧. تقريب التّهذيب: ٤١٥/١.

(٤) وانظر: التّذكرة: ص: ٧ . تفسير القرآن العظيم: ٧٦٢/٢ . فتح الباري: ٥٨٢/١٤ .

ولا يعكّر على ما سبق ما ورد من نهي عن تمنّي الموت في بعض الأحاديث والآثار . من ذلك:

عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : " لا يتمنينّ أحدكم الموت لضرّ نزل به ، فإن كان لابد متمنّياً فليقل: اللّهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي" (١) .

وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: " لا يتمنّى أحدكم الموت ، ولا يدع به من قبل أن يأتيه ، إنّه إذا مات أحدكم انقطع عمله ، وإنّه لا يزيد المؤمن عمره إلاّ خيراً " (٢) .

قال أنس ﷺ :

" لو لا أنّ رسول الله ﷺ قال: " لا يتمنّينّ أحدكم الموت" . لتمنّيته" (٣) .

وعن قيس بن أبي حازم (رحمه الله) (٤) قال: دخلنا على خبّاب وقد اكتوى سبع كيّات في بطنه. فقال: " لو ما أنّ رسول الله ﷺ نهانا أن ندعوا بالموت

---

(١) صحيح البخاري: بلفظه ـــ إلاّ إنّه قال: " أحد منكم " . وقال : "متمنّياً للموت" ـــ في كتاب الدّعوات: (٥٤/٨٠). باب الدّعاء بالموت والحياة: (٣٠). برقم : (٦٣٥١). ص:١٣٥٤. و بلفظ مقارب في كتاب المرضى: (٤٩/٧٥). باب تمنّي المريض الموت: (١٩). برقم : (٥٦٧١). ص: ١٢٣٣.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨) . باب تمنّي كراهة الموت لضرّ نزل به : (٤) . برقم: (٢٦٨٠) . ٢٠٦٤/٤ .

(٢) المرجع السّابق . في الكتاب والباب السّابقين . برقم : (٢٦٨٢). ٢٠٦٥/٤ .

(٣) المرجع السّابق . في الكتاب والباب السّابقين: برقم : (٢٦٨٠). ٢٠٦٤/٤ .

(٤) هو قيس بن أبي حازم ـــ واسم أبي حازم عوف بن الحارث على قول الأكثر ـــ أبو عبد الله البجلي الكوفي . ولأبيه صحبة . أسلم في عهد النّبي ﷺ ، وهاجر إلى المدينة فقبض النّبي ﷺ قبل أن يلقاه . ثقة مخضرم. وقيل : له رؤية ولم تثبت . روى عن كبار الصّحابة. مات بعد التّسعين أو قبلها ، وقد جاز المائة وتغيّر.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٦٧/٦. طبقات خليفة :ص: ١٥١. التّاريخ الكبير: ١٤٥/٧.معرفة الثّقات: ٢٢٠/٢. الجرح والتّعديل: ١٠٢/٧. ثقات ابن حبّان: ٣٠٧/٥. مشاهير علماء الأمصار: ١٠٢/١. تاريخ بغداد: ٤٥٢/١٢.التعديل والتّجريح: ١٠٥٩/٣. تهذيب الكمال: ١٠/٢٤.تذكرة الحفّاظ: ٦١/١. الكاشف: ١٣٨/٢. جامع التّحصيل: ص: ٢٥٧. الإصابة: ٥٣١/٥. تهذيب التّهذيب: ٣٤٦/٨. تقريب التّهذيب: ٤٥٦/١. لسان الميزان: ٣٤٣/٧.

لدعوت به" [1].

ويوفّق بين هذه الأحاديث بأنّ تمنّي الموت إنّما يكون عند حلول الفتن ، والخشية من ذهاب الدّين وضياعه . والنّهي ينصب على ضرّ أصاب الإنسان في نفسه أو ماله أو غير ذلك . فهذا عليه بالصّبر ليعظم له الأجر .

ولذا قال *الإمام النّووي (رحمه الله)* في بيانه لحديث أنس ﷺ السّابق:

" فيه: التّصريح بكراهة تمنّي الموت لضرّ نزل به من مرض أو فاقة أو محنة من عدوّ أو نحو ذلك من مشاق الدّنيا . فأمّا إذا خاف ضرراً في دينه ، أو فتنة فيه فلا كراهة فيه لمفهوم هذا الحديث وغيره . وقد فعل هذا الثّاني خلائق من السّلف عند خوف الفتنة في أديانهم .

وفيه: أنّه إن خاف ولم يصبر على حاله في بلواه بالمرض ونحوه فليقل: اللّهم أحيني إن كانت الحياة خيراً لي ... الخ . والأفضل الصّبر والسّكون للقضاء" [2].

وهذا توفيق حسن منه (رحمه الله) بين الأدلّة الّتي يظهر منها التّعارض .

---

(1) صحيح البخاري: نحوه : في كتاب المرضى: (٧٥/٤٩). باب تمنّي المريض الموت: (١٩). برقم : (٥٦٧٢). ص:١٢٣٣. وفي كتاب الدّعوات: (٨٠/٥٤). باب الدّعاء بالموت والحياة: (٣٠). برقم : (٦٣٤٩) (٦٣٥٠). ص:١٣٥٤.وفي كتاب الرّقاق: (٨١/٥٥). باب ما يحذر من زهرة الدّنيا والتّنافس فيها: (٧). برقم : (٦٤٣٠) . ص:١٣٦٩. وفي كتاب التّمنّي: (٩٤/٦٩). باب ما يكره من التّمنّي: (٦). برقم : (٧٢٣٤). ص:١٥٢٣.
صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨). باب تمنّي كراهة الموت لضرّ نزل به: (٤). برقم : (٢٦٨١). ٢٠٦٤/٤ .

(2) شرح النّووي على مسلم: ٧/١٧-٨ .

الفصل الخامس

نماذج للثّبات عند الفتن

وفيه مباحث:

المبحث الأوّل

رسل الله عليهم السّلام

إنّ رسل الله وأنبياءه صفوة البشريّة ، وخيرتهم عند الله تعالى . قوم اختارهم الله لحمل رسالته وتبليغها للخلق ، وقذف في قلوبهم الإيمان ، وغرس في نفوسهم اليقين ، وجبلهم على مكارم الأخلاق ومحاسن الشّيم ، وهيّأهم لحمل الأمانة وأداء الرّسالة ، كما قال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام:١٢٤].

وقد أدّوا ما كلّفوا به تمام الأداء ، وقاموا بذلك خير قيام ، وواجهوا أقوامهم بكلّ جرأة وثبات . فلم تؤثر فيهم أراجيف أعداء الله ، ولم تضعف نفوسهم أمام كيدهم ، ولم تهن قواهم أمام مكرهم ، ولم يذلّوا أمام جبروتهم ، ولم يتضعضعوا أمام فتنتهم . بل ثبتوا على الحقّ ثبات الجبال الرواسي ، حتّى شهد الله سبحانه لهم بذلك فقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ (١) كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ (٢) وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٤٦-١٤٨] .

---

(١) ربّيون :جمع ربّي وهو الرّبّاني ، والرّبّاني هو الّذي يربّي نفسه بالعلم . انظر: المفردات:ص:١٨٤ .

(٢) استكانوا: أي خضعوا وذلّوا . من الاستكانة وهي الذّلّة والخضوع . انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٤/٢٣٠.
وانظر: لسان العرب: ١٣/٢١٨ .

وقد جعل سبحانه ثباتهم أنموذجاً للثّبات الصّادق ، وصبرهم مثالاً للصّبر الحقّ . به يقتدي الثّابتون ، ومنه يأخذ الأسوة الصّابرون ، وعلى ضوئه يستنير المهتدون .

ولو لم يبلغ ثباتهم ذلك المبلغ ما أُمِر إمام الهدى وسيّد المرسلين أن يتأسّى بهم في الثّبات.

وذلك حين قال له المولى عزّ وجلّ: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هود:١٢٠] .

يقول ابن كثير (رحمه الله):

" يقول تعالى : وكلّ أخبار نقصها عليك من أنباء الرّسل المتقدّمين من قبلك مع أممهم ، وكيف جرى لهم من المحاجّات والخصومات ، وما احتمله الأنبياء من التّكذيب والأذى ، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين. كلّ هذا ممّا نثبّت به فؤادك أي قلبك يا محمّد ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة " (١) .

فمن قصصهم تُؤخذ العبر ، ومن أخبارهم تُلتقط الدّرر، وفي حوادثهم تُحار الفِكَر. ولكن ذلك لأهل العقول النيّرة ، والقلوب الخيّرة .

قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف:١١١].

عجزت الفتن أن تنال منهم بغيتها ، وتهاوت المحن أن تصل منهم إلى غايتها، وتساقطت الخطوب أن تجد فيهم رغبتها . ويكفيهم شرفاً وفخراً أنّهم رسل الله ، وواسطة بين الله وعباده في تبليغ دينه ، وإقامة شرعه . فكيف لا يكونون قدوة

(١) تفسير القرآن العظيم:٢/٧٢٠.

في الثّبات ؟ ، وكيف لا يكونون أسوة في الصّبر عند الشّـــدائد والملمّــات ، مـــهما تكاثرت حولهم الفتن ، ومهما تفاقمت حولهم المحن ؟.

وهذه نماذج رائعة ، أقتطفها من رياض رسل الله اليانعة ، تبرز عظيم ثباتـــهم في الفتن ، وجليل صبرهم فيها . أضمّنها مطالب أربعة :

﴿ المطلب الأوّل ﴾

محمّد بن عبد الله ﷺ

إنّ الله تعالى قدّمه على الرّسل جمعياً فقدّمته ، وفضّله عليهم طرّة ففضّلته ، وختمهم به فبدأت به ﷺ .

لقد حاول أعداؤه من المشركين أن يفتنوه عن بعض ما أنزل إليه ، متّخذين في ذلك شتّى الوسائل ، وسالكين لذلك كلّ السّبل من كيد ومكر وعداوة وتعنّت وأذى، بأنواع الأساليب المختلفة ، وضروب الحيل المتعدّدة . ولكنّه ﷺ ثبت على الحقّ فلم يزل عنه ، وظلّ على الاستقامة فلم ينحرف عنها ولو في جزئية يسيرة من أمر دينه ، لتثبيت الله له وعنايته به ، وحفظه من كيد الأعداء وفتنهم . فباءت جميع محاولاتهم بالفشل ، وذهبت جميع مساوماتهم أدراج الرياح .

قال تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـٔٗا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذٗا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرٗا ﴿٧٥﴾ ﴾ [الإسراء:٧٣-٧٥] .

ذكر الإمام ابن الجوزي (رحمه الله) أنّ سبب نزول هذه الآيات ينحصر في أربعة أقوال:

أولّها: إنّ وفد ثقيف أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: متّعنا باللاّت سنة ، وحرّم وادينا كما حرّمت مكّة . فأبى ذلك . فأقبلوا يكثرون مسألتهم ، وقالوا: إنّا نحبّ أن تعرف العرب فضلنا عليهم . فإن خشيت أن يقول العرب: أعطيتهم مالم تعطنا، فقل: الله أمرني بذلك . فأمسك رسول الله ﷺ عنهم ودخلهم الطّمع . فنزلت هذه الآية . رواه عطاء (رحمه الله) عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) .

وروى عطيّة (رحمه الله) [1] عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) أنّهم قالوا: أجّلنا سنة ثمّ نسلم ونكسر أصنامنا . فهمّ أن يؤجّلهم فنزلت هذه الآية .

الثّاني: إنّ المشركين قالوا للنّبيّ ﷺ : لا نكفّ عنك إلاّ بأن تُلِمّ [2] بآلهتنا ، ولو بأطراف أصابعك . فقال رسول الله ﷺ : "ما عليّ لو فعلت والله يعلم أنّي لكـاره"؟ فنزلت هذه الآية . قاله سعيد بن جبير (رحمه الله)[3] .

وقد ذكر ابن الجوزي (رحمه الله) أنّ هذا باطل ، وما ذكر أيضاً عن عطيـة (رحمه الله) . لأنّ كلّ ذلك مخالف في حقّه ﷺ .

الثّالث: إنّ قريشاً خلت برسول الله ﷺ ليلة إلى الصّباح يكلّمونـه ويفخّمـونه ويقولون: أنت سيّدنا وابن سيّدنا، وما زالوا به حتّى كاد يقاربـهم فـي بعـض مـا يريدون ، ثمّ عصمه الله من ذلك . ونزلت هذه الآية .

الرّابع: إنّ بعض زعماء قريش قالوا لرسول الله ﷺ : اطرد عنـا سُـقّاط [4] النّاس ومواليهم ، وهؤلاء الّذين رائحتهم رائحة الضّأن . وذلك أنّهم كانوا يلبسـون

---

(1) هو عطيّة بن سعد بن جُنادة أبو الحسن العوفي الجَدلي القيسي الكوفي . تابعي معروف ، ضعيف الحفظ ، مشـهور بالتّدليس القبيح . وقال الحافظ ابن حجـر رحمـه الله:" صـدوق يخطـئ كثـيراً وكـان شـيعيّاً مدلّسـاً". توفي سنة :١١١هـ .

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٣٠٤/٦. طبقات خليفة :ص: ١٦٠. التّـاريخ الكبـير: ٨/٧. ضعفـاء العقيلـي: ٣٥٩/٣. الجرح والتّعديل: ٣٨٢/٦. المجروحين: ١٧٦/٢. الكامل في ضعفاء الرّجال: ٣٦٩/٥. تهذيب الكمـال: ١٤٥/٢٠. الكاشف: ٢٧/٢.تهذيـب التّـهذيب: ٢٠٠/٦. تقريـب التّـهذيب: ٣٩٣/١. لسـان المـيزان: ٥١٥/٧.طبقات المدلّسين: ص:٥٠.

(2) تلمّ : أي تجتمع بها . وانظر: لسان العرب: ٥٤٩/١٢.

(3) هو سعيد بن جبير بن هشام أبو عبد الله أو أبو محمّد الأسدي الكوفي الوالبي مولاهم المقرئ . أحد أعلام التّـابعين. كان ثقة ثبتاً فقيهاً عابداً ورعاً فاضلاً. خرج مع ابن الأشعث فقتله الحجّاج سنة ٩٥هـ. وله ٥٧سنة ، وقيـل : ٤٩سنة.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٢٥٦/٦. طبقات خليفة :ص: ٢٨٠. التّاريخ الكبـير: ٤٦١/٣. معرفـة الثّقـات: ٣٩٥/١. الجرح والتّعديل: ٩/٤. ثقات ابن حبّان: ٢٧٥/٤. مشاهير علماء الأمصار: ٨٢/١.التّعديل والتّجريـح: ١٠٧٥/٣. تهذيب الكمال: ٣٥٨/١٠. تذكرة الحفّاظ: ٧٦/١. الكاشف: ٤٣٣/١. تهذيب التّـهذيب: ١١/٤. تقريب التّهذيب: ٢٣٤/١.إسعاف المبطأ: ص: ١٢.

(4) سقّاط : جمع ساقط. وهم رذالة النّاس وأدواهم . انظر: لسان العرب: ٣١٩/٧.

الصّوف . حتّى نجالسك ونسمع منك ، فهمّ رسول الله ﷺ أن يفعل ما يستدعي به إسلامهم فنزلت هذه الآيات [1] .

والأولى أن تحمل الآيات على العموم من غير نظر إلى سبب معيّن لنزولها لأنّ فتن المشركين برسول الله ﷺ لا تنحصر . وهم الّذين دأبوا صباح مساء باذلين أقصى ما عندهم من جهد لإطفاء دينه وإخماد دعوته .

ولذا *قال الإمام ابن جرير (رحمه الله)* بعد ذكره لبعض أسباب النّزول السّابقة:

" الصّواب من القول في ذلك أن يقال: إنّ الله تعالى ذكره أخبر عن نبيّه ﷺ أنّ المشركين كادوا أن يفتنوه عمّا أوحاه الله إليه ليعمل بغيره ، وذلك هو الافتراء على الله . وجائز أن يكون كان ذلك ما ذكر عنهم من ذكر أنّهم دعوه إلى أن يمسّ آلهتهم ويُلمّ بها ، وجائز أن يكون كان ذلك ما ذُكر عن ابن عبّاس من أمر ثقيف ومسألتهم إياه ما سألوه ممّا ذكرنا ، وجائز أن يكون غير ذلك . ولا بيان في الكتاب ولا في خبر يقطع العذر أي ذلك كان . والاختلاف فيه موجود على ما ذكرنا فلا شيء فيه أصوب من الإيمان بظاهره حتّى يأتي خبر يجب التّسليم له ببيان ما عُني بذلك منه " [2] .

وفي الآية منّة وفضل لله على رسوله ﷺ في تثبيته على الحقّ ، وعصمته من الفتنة ، ولو لا ذلك لركن إلى المشركين وأجابهم إلى ما سألوه ، وحينئذ يذيقه الله ضعف عذاب الدّنيا وضعف عذاب الآخرة. ولكن ثبّته وقوّى أمره بسبب قوّة إيمانه وصدق توكّله .

قال ابن كثير (رحمه الله):

" يخبر تعالى عن تأييده رسوله صلوات الله عليه وسلامه، وتثبيته وعصمته وسلامته من شرّ الأشرار وكيد الفجار، وأنّه تعالى هو المتولّي أمره ونصره، وأنّه

---

(1) زاد المسير: ٤٩/٥ وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٩٩/١٠-٣٠٠ . والأقوال الثّلاثة الأولى أوردها ابن جرير (رحمه الله) بأسانيده في جامع البيان: ١٢٩/١٥-١٣٠. طبعة الحلبي . والقول الرّابع ذكره الزّجّاج في معاني القرآن: ٢٥٤/٣ والنّحاس في معاني القرآن: ١٧٩/٤ .

(2) جامع البيان: ١٣٠/١٥ . طبعة الحلبي . وانظر : التّفسير الكبير: ٢٢/٢١-٢٣ . محاسن التّأويل: ٣٩٥٥/١٠-٣٩٥٦ .

لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليّه وحافظه وناصره ومؤيّده ومظفره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه في مشارق الأرض ومغاربها ﷺ تسليماً كثيراً إلى يوم الدّين" (١) .

وقد حاول اليهود ــ عليهم لعائن الله المتتالية إلى يوم القيامة ــ أن يسلكوا مسلك إخوانهم المشركين فيكيدوا رسول الله ﷺ فيفتنوه عن بعض ما أنزله الله إليه ، ويصرفوه عن دين الله تعالى فيفوزوا بغاية ما يتمنّون ، وينالوا غاية ما يرجون ، إذ همّهم إطفاء نور هذا الإسلام الّذي شرقوا به ، وغصّت به حلوقهم ، وأديل عليهم به .

وما فتئوا يبحثون عن كلّ ثغرة ليلجوا من خلالها إلى جسد الإسلام الشّامخ المنيع فيبثّوا شرورهم وينفّسوا عن أحقادهم، وأنّى لهم ذلك؟

فالله قد عصم رسوله ﷺ منهم ، وحماه من مكرهم ، وحفظه من حسدهم، ووقاه من كيدهم . فلم يفلحوا في صرفه ولو عن جزء يسير من شرع الله . وقد أكثروا المحاولة في ذلك فما نجحوا ، وبذلوا غاية الجهد فما أفلحوا . لتثبيت الله لرسوله ﷺ .

قال تعالى : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة:٤٩-٥٠] .

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/٨٧-٨٨ . وانظر: تيسير الكريم الرّحمن: ص:٤١٥-٤١٦ . وقد أشار (رحمه الله) إلى أمر مهمّ جداً وهو افتقار العبد إلى تثبيت الله له . في ظلال القرآن للشّيخ سيّد قطب .طبعة دار الشّروق . الطّبعة العاشرة : ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م : ٤/٢٢٤٥ .

قال ابن جرير (رحمه الله) :

"يقول تعالى ذكره لنبيّه محمّد ﷺ : احذر يا محمّد هؤلاء اليهود الّذين جاءوك محتكمين إليك أن يفتنوك فيصدّوك عن بعض ما أنزل الله إليك من حكم كتابه ، فيحملوك على ترك العمل به واتّباع أهوائهم ".

ثمّ روى بسنده عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) أنّه قال: " قال كعب بن أسد وابن صوريا وشاس بن قيس بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمّد لعلّنا نفتنه عن دينه . فأتوه فقالوا: يا محمّد إنّك قد عرفت أنّا أحْبَار [1] يهود وأشرافهم وساداتهم ، وأنّا إن اتّبعناك اتّبعنا يهود ولم يخالفونا ، وإنّ بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم ، ونؤمن لك ونصدّقك . فأبى رسول الله ﷺ . فأنزل الله فيهم: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ إلى قوله ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [2] .

لقد اجتاز رسول الله ﷺ فتنتهم بثبات كما اجتاز فتن المشركين من قبل بثبات وصبر . وما برح أعداء الله يرسلون إليه الفتنة عقب الفتنة ، والمحنة تلو المحنة وهو ثابت ، يفوق بثباته الجبل الأشم حتّى فارق هذه الحياة وهو كذلك ﷺ .

---

(1) أحبار: جمع حَبْر أو حِبْر وهو العالم . انظر: لسان العرب: ٣١٧/٤.

(2) جامع البيان: ٣٩٢/١٠-٣٩٣ . طبعة شاكر . وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢١٣/٦ .

﴿ المطلب الثّاني ﴾

موسى بن عمران عليه السّلام

لقد مرّ عليه السّلام بفتن كثيرة ومحن عظيمة ، من ابتداء أمره إلى منتهاه. فحفظه الله منها ، وعصمه عنها ، فما وجدت إليه سبيلاً .

قال تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝﴾ [طه:٤٠].

سأل سعيد بن جبير (رحمه الله) ابن عبّاس (رضي الله عنهما) عن قوله تعالى: ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ ﴾ فقال: " نستأنف لها النّهار ". ثمّ لمّا أصبح أخذ ابن عباس (رضي الله عنهما) يقرأ عليه الآيات الواردة في شأن موسى عليه السّلام من أوّل أمره . فأورد قصّة فرعون وقتله لأولاد بني إسرائيل الذّكور، وأنّ موسى عليه السّلام ولد في السّنة الّتي يقتل فيها الأولاد . وأنّ أمّه خافت عليه فوضعته في تابوت وألقته في اليمّ فالتقطه آل فرعون . وامتنع من الارتضاع من الأجانب . وأنّه أخذ بلحية فرعون فجرّها فأراد فرعون قتله فاختبره بجمرة ودرّة فأخذ الجمرة. ثمّ قتل القبطي فأرادوا قتله فخرج من مصر خائفاً يترقّب ، وهرب إلى مدين فصار أجيراً ، ثمّ عاد إلى مصر وقد أخطأ الطّريق في ليلة مظلمة . ثمّ ذكر ما كان من شأن النّار والعصا ويده ، وخوفه من العصا . ثمّ ما كان من أمر فرعون والسّحرة . وانفلاق البحر ، وإتمامه لميعاد ربّه ، وعبادة قومه للعجل. إلى آخر ما ذكر.

وكان ابن عبّاس (رضي الله عنهما) يقول عند كلّ بليّة: " وهذا من الفتون يـــا ابن جبير " (١)

وفي كلّ هذه الفتن ثبّت الله نبيّه موسى عليه السّلام فلم تؤثر فيه ، ولم يستجب لفتنة منها . فكان مثالاً يحتذى به في الثّبات عند الفتن ، ونبراساً يستضاء بصـــبره عند المصاعب والمحن .

---

(١) هذا الأثر أورده بطوله النّسائي في سننه الكبرى . طبعة دار الكتب العلميّة. بيروت. الطّبعة الأولى : ١٤١١هـــ ـــ ١٩٩١م : كتاب التّفســير . حديــث الفتــون . برقــم: (١١٣٢٦) : ٦/٣٩٦-٤٠٥ . وأبــو يعلــى في مسنده :٥/١٠ برقم: (٢٦١٨) .قال عنه المحقّق: "رجاله ثقات " .

وأورده جماعة من المفسّرين عند تفسيرهم للآية السّابقة، وأشار بعضهم إليه إجمالاً.

انظر: جامع البيان: ١٦/١٦٤-١٦٧ طبعة الحلبي . الكشّاف: ٢/٤٣٤. زاد المسير:٥/١٩٩. التّفسير الكبــير: ٢٢/٥٥. الجامع لأحكام القرآن: ١١/١٩٨. تفسير القرآن العظيم: ٣/٢٣٨-٢٤٥. ونسبه للإمــام النّســائي في سننه الكبرى ثمّ قال عقبه: " وهو موقوف من كلام ابن عبّاس ، وليس فيه مرفوع إلاّ قليل منه، وكأنّه تلقّاه ابـــن عبّاس (رضي الله عنهما) ممّا أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار ، أو غيره . والله أعلم . وسمعت شـيخنا الحافظ أبا الحجّاج المزّي يقول ذلك أيضاً " اهـــ . وكثير ممّا أورده ابن عبّاس (رضي الله عنهما) في هذا الأثر جـاء ذكره في القرآن الكريم .

﴿ المطلب الثّالث ﴾

داود عليه السّلام

مثل موسى عليه السّلام نبي الله داود عليه السّلام فقد اجتاز الفتنة والمحنة الّتي مرّت به بثبات ويقين وصدق وإيمان ، قائماً بأمر ربّه ، عابداً له منيباً إليه ، حتّـــى نال من الدّرجات ما عظم ، ومن المراتب ما علا .

قال تعالى في شأنه:

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [ص:٢١-٢٥] .

ولكن ما هي الفتنة الّتي وقع فيها داود عليه السّلام ثمّ تعدّاها بثبات وصبر؟

للمفسّرين في هذه الفتنة أقوال كثيرة ، وآراء متنوّعة ترجع في جملتـــها إلـــى قولين:

قول من يرى أنّ داود عليه السّلام ألمّ بذنب ثمّ غفر له .

وقول من يرى أنّ ما وقع عبارة عن حكومة جرت بين خصمين لا علاقة لـــها بما سبق (١) .

---

(١) انظر: محاسن التّأويل: ١٤/٥٠٨٨ .

وأصحاب القول الأوّل يطيلون في ذكر قصّة هنا. حاصل كلامهم فيها:

إنّ داود عليه السّلام عشق امرأة رجل من جنده يدعى أوريا ، وكان لداود عليه السّلام تسع وتسعون امرأة . فاحتال على أوريا بأوجه كثيرة حتّى قتل ، ثمّ تزوّج بامرأته . فأرسل الله له ملكين في صورة متخاصمين في حادثة شبيهة بتلك الحادثة . فحكم داود عليه السّلام بحكم يلزم منه وقوعه في الذّنب ، فلجأ عند ذلك إلى التّوبة والاستغفار (١) .

والّذي يدين الإنسان ربّه به أنّ داود عليه السّلام نبيّ معصوم من الله تعالى، حاشاه أن يقع منه أمثال هذه الحثالات الّتي يترفّع عن مثلها سائر المسلمين .

ثمّ أين في سياق الآيات ما يدلّ على هذا الّذي قيل ؟ . بل المتفحّص للآيات يرى أنّ فيها مدحاً وثناء على داود عليه السّلام .

بل يكفي داود عليه السّلام فخراً أن أمر الله رسوله محمّداً ﷺ بالتّأسّي به والاقتداء به في المصابرة ومكابدة المشاق ، وتحمّل أذى قومه له كما تحمّل داود عليه السّلام أذى قومه وسفههم وشططهم وصبر على ذلك وثبت (٢).

فذكر هذه الحادثة جاء في سياق الاقتداء والتّأسي في الصّبر والثّبات . ولذا قال تعالى مفتتحاً إيّاها بقوله لمحمّد ﷺ :

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [ص:١٧].

ولو كان الأمر كما ذكر ما صلح ذلك التّأسّي ولا الاقتداء . فكيف يمدح الله داود عليه السّلام بقوله:﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [ص: ٢٥]. وقد صدر منه ذلك الجرم؟ .

وكيف يفوّض له خلافة الأرض والحكم بين النّاس بالحقّ بقوله: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ [ص:٢٦] . وقد صدر منه

---

(١) انظر: التّفسير الكبير: ٢٦/١٨٩ .

(٢) انظر: المرجع السّابق : ٢٦/١٨٩-١٩٤ .

ذلك الظّلم ؟ . والله لم يورد في الآيات هذا الذّنب المزعوم ، ولم يكشف النّقاب عنه، فلم النّبش عن ذلك ، والتّكلّف الّذي لا فائدة فيه ؟ .

والفائدة إنّما تكمن فيما قصّه الله علينا من توبته وإنابته، وأنّه قد تبوّأ منزلة عظيمة بذلك . [1] فلا حاجة للدّخول في مضايق لا يسلم الإنسان من ذكرها.

وأمّا الاستغفار والتّوبة فلا يلزم منهما وقوع ذنب أو معصية . وها هو رسول الله ﷺ الّذي غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر[2] .

يقول في حديث أبي هريرة ﷺ : "والله إنّي لأستغفر الله وأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرّة " [3] .

ولذا قال الإمام ابن حزم (رحمه الله):

"وأمّا استغفاره وخروره ساجداً ، ومغفرة الله تعالى له فالأنبياء عليهم السّلام أولى النّاس بهذه الأفعال الكريمة . والاستغفار فعل خير لا ينكر من ملك ولا من نبيّ ولا من مذنب ولا من غير مذنب . فالنّبيّ يستغفر الله لمذنبي أهل الأرض، والملائكة كما قال الله تعالى: ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَ ٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [غافر:٧] .

وأمّا قوله تعالى عن داود عليه السّلام: ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ ﴾ [ص: ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ﴾ [ص: ٢٥] .

(١) انظر: تيسير الكريم الرّحمن: ص: ٦٥٧ .

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ ﴾ [الفتح:١-٢] .

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الدّعوات: (٥٤/٨٠). باب استغفار النّبي ﷺ في اليوم واللّيلة: (٣). برقم : (٦٣٠٧). ص: ١٣٤٦.

فقد ظنّ داود عليه السّلام أن يكون ما أتاه الله عزّ وجلّ من سعة الملك العظيم فتنة. فقد كان رسول الله ﷺ يدعو في أن يثبّت الله قلبه على دينه(١). فاستغفر الله تعالى من هذا الظّنّ فغفر الله تعالى له هذا الظّنّ إذ لم يكن ما آتاه الله تعالى من ذلك فتنة " (٢) .

والقصّة مع كثرة من ذكرها من المفسّرين لم تثبت ، وإنّما كانت من ترّهات اليهود ليطعنوا بها في نبي الله داود عليه السّلام كشأنهم دائماً مع أنبياء الله تعالى .

ولذا قال الإمام ابن كثير (رحمه الله):

" قد ذكر المفسّرون هاهنا قصّة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتّباعه ... فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصّة وأن يردّ علمها إلى الله عزّ وجلّ ، فإنّ القرآن حقّ ، وما تضمّن فهو حقّ " (٣) .

فالرّواية لم تثبت لها صحة ، ولم تقم لها قائمة . ولذلك تناولها علماء الإسلام قديماً وحديثاً بالرّد والتّضعيف ، وأبانوا عوارها ، وكشفوا عن زيفها سنداً ومتناً، وشرعاً وعقلاً ، فبطل الاستناد عليها واللّجوء إليها (٤) .

والمراد هنا أنّ داود عليه السّلام ظنّ أنّه مرّ بفتنة ، ولكنّه اجتاز ذلك الظّن بصبر وثبات ممّا أدّى إلى مدح الله له وثنائه عليه ، فصار بعد ذلك في مقام أسمى من الّذي كان فيه .

---

(١) تأتي الأدلّة على ذلك .

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنّحل: ٤/١٨-١٩ .

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٤/٤٧ .

(٤) من أولئك:

الإمام ابن حزم في الفصل في الملل والأهواء والنّحل: ٤/١٨-١٩ . القاضي عياض في الشّفا بتعريف حقوق المصطفى . طبعة : المكتبة التّجاريّة الكبرى . وتوزيع دار الفكر . بيروت : ٢/١٦٣-١٦٤ . الإمام الرّازي في التّفسير الكبير: ٢٦/١٨٨-١٩٩ وقد أطال (رحمه الله) في الرّد عليها . الإمام القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١٥/١٧٥ . أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط في التّفسير . مراجعة : صدقي محمّد جميل . طبعة دار الفكر . بيروت . ١٤١٢هـ — ١٩٩٢م : ٩/١٤٦-١٥٢ . السّيوطي في الإكليل في استنباط التّنزيل . مراجعة : أبي الفضل عبد الله محمّد الصّديق الغماري . مطابع دار الكتاب العربي بالقاهرة . ص : ١٨٤-١٨٦ . القاسمي في محاسن التّأويل: ١٤/٥٠٨٨-٥٠٩٣ . سيّد قطب في ظلال القرآن ٥/٣٠١٨ .وغيرهم الكثير .

﴿ المطلب الرّابع ﴾

سليمان بن داود عليهما السّلام

مثل داود عليه السّلام ابنه سليمان عليه السّلام الّذي احتوشته فتنة ، الله أعلم بها وبشأنها ؟. فصبر كما صبر أبوه من قبل ، وثبت عندها فلم تصل إلى غايتها منه . بل عاد منها ظافراً منتصراً نال من الملك ما لا ينبغي لأحد بعده ، وسخّرت له الرّيح تسير بأمره حيث شاء ، والشّياطين يعملون بأمره فيما أراد وشاء ، ويعطي من يريد ويمنع من يشاء بإذن الله تعالى ، ولا حساب عليه . وفوق كلّ ذلك له يوم القيامة القربة من الله تعالى ، والمرجع الحسن ، وهو الدّرجات العالية في الجنّة .

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [ص:٣٤-٤٠] .

وما ذكره العلماء هنا من قصّة مطوّلة في فتنة سليمان عليه السّلام. تتلخّص في أنّ شيطاناً سلبه ملكه مدّة من الزّمن ثمّ رجع إليه ملكه . فهي مأخوذة عن أخبار بني إسرائيل ، وفيهم من لا يعتقد بنبوّته عليه السّلام . وفي القصّة ما ينكر ، وبعضها كذب [١] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٥٤/٤-٥٥ . وانظر في بيان عدم ثبات تلك القصّة والرّد عليها : الفصل في الملل والأهواء والنّحل: ١٩/٤-٢٠ . الشّفا : ١٦٦/٢-١٦٧ . التّفسير الكبير: ٢٠٧/٢٦-٢٠٩ . الجامع لأحكام القرآن: ٢٠١/١٥ . البحر المحيط : ١٥٥/٩-١٥٦ . محاسن التّأويل : ٥١٠٤/١٤-٥١٠٥ . في ظلال القرآن: ٣٠٢٠/٥ .

فالدّرس الّذي يستفاد ، والعبرة الّتي تؤخذ أن سليمان عليه السّلام حلّت به فتنة فثبت عندها وصبر ، فنال جزاء ذلك في الدّنيا والآخرة كما سبق بيانه في معاني الآيات . فهو عليه السّلام أنموذج رابع يوضّح ثبات الرّسل عليهم السّلام عند الفتن .

هذه نماذج وغيرها كثير، ذكرت على سبيل التّمثيل لا الحصر، إذ أن رسل الله عليهم السّلام كانوا جميعاً أثبت النّاس عند فتنة ، وأصبرهم عند محنة . ولكن راعيت في ذكر هؤلاء اقتران أسمائهم بلفظ الفتنة في القرآن ليكون ذلك أقرب للاستدلال .

المبحث الثّاني

أصحاب الكهف

إنّ قصّة أصحاب الكهف من القصص العجيبة الّتي أوردها الله في قرآنه . تتمثّل فيها قوّة الإيمان الصّادق الّذي يطمئن النّفوس ، ويقذف في القلوب الثّبات واليقين ، ويهوّن أمر هذه الدّنيا ببهرجها وزينتها على أصحابه ، فيلجأ أصحابه إلى الله فارّين بدينهم إليه من الفتن ، معتزلين المجتمع بأسره ، حفاظاً على دينهم ، وحماية لعقيدتهم . فيحيط الله أولئك بكنفه ، ويرعاهم بحفظه ، وتشملهم رحمته ، ويهيّئ لهم من الأسباب الحامية المانعة ما يكفّ عنهم شرّ كلّ ذي شرّ وأذى كلّ ذي أذى .

إنّ أصحاب الكهف جماعة من الشّباب جمعت بينهم العقيدة ، ووحّدت بين قلوبهم كلمة التّوحيد فعلموا ألاّ إله إلاّ الله ، وألاّ ربّ يعبد سواه ، ورأوا في قومهم انحرافاً عن هذه الحقيقة ، وانغماساً في أدناس الكفر والشّرك . فواجهوهم بالحقّ، وصدعوا بالأمر بكلّ جرأة وثبات . لا يخافون في الله لومة لائم . ولكنّ قومهم أجمعوا أمرهم على الكيد بهم ، وأرادوا صدّهم عمّا هم فيه، وفتنتهم عن دينهم الحقّ .

قال تعالى : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًاۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الكهف:١٣-١٥].

قوله تعالى: ﴿ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴾ :

قال ابن جرير (رحمه الله):

"وزدناهم إلى إيمانهم بربّهم إيماناً وبصيرة بدينهم حتّى صبروا على هجران دار قومهم ، والهرب من بين أظهرهم بدينهم إلى الله ، وفراق ما كانوا فيه من خفض العيش ولينه إلى خشونة المكث في كهف الجبل" (١) .

وقال الزّمخشري:

"بالتوفيق والتّثبيت" (٢).

وقال ابن الجوزي (رحمه الله):

"أي ثبّتناهم على الإيمان" (٣) .

وقال القرطبي (رحمة الله):

"أي يسّرناهم للعمل الصّالح ، من الانقطاع إلى الله تعالى ، ومباعدة النّاس ، والزّهد في الدّنيا . وهذه زيادة على الإيمان" (٤) .

وقوله تعالى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ :

قال ابن جرير (رحمه الله):

"وألهمناهم الصّبر وشددنا قلوبهم بنور الإيمان حتّى عزفت أنفسهم عمّا كانوا عليه من خفض العيش" (٥) .

وقال النّحّاس (رحمه الله):

"والمعنى عند أهل اللّغة: صبّرناهم وثبّتناهم" (٦) .

---

(١) جامع البيان: ٢٠٧/١٥ . طبعة الحلبي .

(٢) الكشّاف: ٣٨٢/٢ .

(٣) زاد المسير: ٨٠/٥ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٣٦٥/١٠ .

(٥) جامع البيان: ٢٠٧/١٥ طبعة الحلبي

(٦) معاني القرآن: ٢٢٢/٤ .

وقال الزّمخشري:

"وقويّناها بالصّبر على هجر الأوطان والنّعيم ، والفرار بالدّين إلى بعض الغيران ، وجسرناهم على القيام بكلمة الحقّ والتّظاهر بالإسلام" [١] .

وقال ابن الجوزي (رحمه الله):

"أي ألهمناها الصّبر" [٢] .

وقال الرّازي (رحمه الله):

"أي ألهمناها الصّبر وثبّتناها" [٣].

وقال القرطبي (رحمه الله):

"عبارة عن شدّة عزم وقوّة صبر، أعطاها الله لهم حتّى قالوا بين يدي الكفّار:﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ ولمّا كان الفزع وخور النّفس يُشبه بالتّناسب الانحلال حَسُن في شدّة النّفس وقوّة التّصميم أن يشبه الرّبط " [٤] .

وقال ابن كثير (رحمه الله):

"وصبّرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرّغيد والسّعادة والنّعمة ، فإنّه قد ذكر غير واحد من المفسّرين من السّلف والخلف أنّهم كانوا من أبناء ملوك الرّوم وسادتهم" [٥] .

---

(١) الكشّاف: ٣٨٢/٢ . الطبعة التجارية .

(٢) زاد المسير: ٨٠/٥ .

(٣) التّفسير الكبير: ٩٧/٢١ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٣٦٥/١٠ .

(٥) تفسير القرآن العظيم: ١٢١/٣ .

وقال القاسمي (رحمه الله):

"أي قوّيناها بالصّبر على المجاهدة . وشجّعناهم علـــى محاربــة الشّـيطان، والفرار بالدّين إلى بعض الغيران ، ومخالفة النّفس ، وهجر المألوفات الجســمانيّة، واللّذّات الحسيّة ، والقيام بكلمة التّوحيد" (١) .

وقال السّعدي (رحمه الله):

"أي صبّرناهم وثبّتناهم ، وجعلنا قلوبهم مطمئنّة في تلك الحالـــة المزعجــة ، وهذا من لطفه تعالى بهم وبرّه ، أن وفّقهم للإيمـــان والــهدى والصّــبر والثّبــات والطمأنينة" (٢) .

وقال سيّد قطب (رحمه الله):

"فإذا هي ثابتة راسخة ، مطمئنّة إلى الحقّ الّذي عرفت ، معتزّة بالإيمان الّـذي اختارت" (٣) .

وقال ابن القيّم رحمه الله:

" والرّبط على قلوبهم يتضمّن الشّدّ عليها بالصّبر والتّثبيت ، وتقويتها وتأييدها بنــور الإيمان ، حتّى صبروا على هجران دار قومهم ، ومفارقة ما كانوا فيه من خفــض العيش ، وفرّوا بدينهم إلى الكهف" (٤) .

وكلّ هذه الأقوال تفيد رباطة جاش أولئك الفتية المؤمنين ، وقوّة عزائمـــهم ، وشدّة صبرهم ، وصلابتهم في الحقّ . وذلك كلّه يترجم ثباتهم (رحمهم الله) .

---

(١) محاسن التّأويل: ٤٠٢٨/١١ .

(٢) تيسير الكريم الرّحمن: ص:٤٢٢ .

(٣) في ظلال القرآن: ٢٢٦٢/٤ .

(٤) مدارج السّالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين: للإمام ابــن قيّــم الجوزيّــة. مطبعــة السّــنّة المحمّديّــة: ١٣٧٥هـــ ١٩٥٦م. نشر دار الكتاب العربي . بيروت. تحقيق محمّد حامد الفقي : ٦٧/٣ .

ولمّا خاف أولئك الفتية من قومهم أن يفتنوهم فرّوا بدينهم فلجأوا إلى غار في جبل ليختفوا فيه . فقالوا حين دخلوه سائلين الله من رحمته ولطفه ، وأن يحفظهم من كلّ شرّ، ويوفّقهم لكلّ خير، وييسّر لهم كلّ سبب موصل إلى الرّشد ، ويصلح لهم دينهم ودنياهم:

قال تعالى: ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الكهف:١٠] .

فجمعوا بين السّعي والفرار من الفتنة إلى محل يمكن الاستخفاء فيه ، وبين تضرّعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم ، وعدم اتّكالهم على أنفسهم وعلى الخلق .

فلذلك استجاب الله دعاءهم ، وقيّض لهم ما لم يكن في حسابهم . قال: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الكهف:١١] . أي أنمناهم سنين عدداً . وهي ثلاثمائة وتسع سنين . وفي النّوم حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف ، وحفظ لهم من قومهم [1] .

وأحاطهم الله عزّ وجلّ بسياج سميك من الحماية والرّعاية والعناية، وهيّأ لهم من أسباب الحفظ ما يكفل بقاء أجسامهم هذه المدّة الطّويلة .

فحفظهم من الشّمس . فإذا طلعت مالت عنهم يمنة، وإذا غربت مالت عنهم يسرة ، فلا تؤثّر حرارتها في أبدانهم . وهم في موضع متّسع من ذلك الغار فلا يتأذّون بضيق المكان ولا بقلّة الهواء .

ومن رآهم حسبهم إيقاظاً وهم رقود . وهم في نومهم يتقلّبون ذات اليمين وذات الشّمال حتّى لا تفسد الأرض أجسامهم . وقد ألقيت عليهم المهابة فلا يتأتّى لأحد قربهم والدّنو منهم ، بل يتملّكه الخوف ويمتلئ قلبه ذعراً فيلوذ بالفرار خوفاً ورعباً.

---

(١) تيسير الكريم الرّحمن: ص:٤٢١ .بتصرّف يسير.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الكهف:١٧،١٨] [١] .

ثمّ بعثهم الله ليكونوا آية للعالمين ، وبصيرة ويقيناً للمؤمنين ، وحجّة ودليلاً على الجاحدين الكافرين .

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾ [الكهف:٢١] .

وليقف أهل الإيمان على خبرهم فيتعلّموا منهم الثّبات على الدّين، والاعتصام بالله واللّجوء إلى جنابه ، وتحمّل كلّ أذى في سبيله وابتغاء مرضاته ، ولو أدّى ذلك إلى اعتزال المجتمع والفرار منه ما دام الغاية أن يبقى للإنسان دينه ، وتسلم له عقيدته .

---

(١) وانظر معاني الآيات في:

الجامع لأحكام القرآن: ١٠/٣٦٨-٣٧٠ . تفسير القرآن العظيم: ٣/١٢٤-١٢٥ . تيسير الكريم الرّحمن: ص:٤٢٢ .

المبحث الثّالث

أصحاب الأخدود

إنّهم فئة من المؤمنين في أمّة سابقة ، آمنوا بالله تعالى ، ورسخت عقيدة الإيمان في قلوبهم . فتسلّط عليهم طغاة من أهل الكفر والإلحاد والظّلم ، وأرادوهم أن يقلعوا عن عقيدتهم ويرتدّوا عن دينهم فأبوا ، فعمد الطّغاة والجبّارون فشقّوا شقوقاً في الأرض ، وأجّجوا فيها النّيران ، ثمّ قذفوا المؤمنين فيها على مشهد ومرأى من الظّلمة وأعوانهم . ولم يكن لأولئك المؤمنين جريرة ارتكبوها ولا ذنب قارفوه عند هؤلاء إلاّ إيمانهم بالله العزيز الحميد .

فثبت المؤمنون على إيمانهم ، فلم ينثنوا عن عقيدتهم ، ولم يستجيبوا لفتنة أولئك مع شدّة العقاب وهول العذاب .

قال الله تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠ ﴾ [البروج:٤-١٠] .

قال ابن كثير (رحمه الله):

"هذا خبر عن قوم من الكفّار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله عزّ وجلّ ، فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم فأبوا عليهم ، فحفروا لهم في الأرض أخدوداً وأجّجوا فيه ناراً ، وأعدّوا لها وقوداً يسعّرونها به ، ثمّ أرادوهم فلم يقبلوا منهم فقذفوهم فيها... وما كان لهم عندهم ذنب إلاّ إيمانهم بالله العزيز الّذي لا يضام من لاذ بجنابه ، المنيع الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره" (١) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤/٧٧٦ .

والقصّة سيقت لبيان ثبات أولئك القوم على دينهم ، ولكـي يـأخذ المؤمنـون العبرة والعظة ، ويتأسّوا بهم في الصّبر على الحقّ .

ولذا قال الزّمخشري:

" إنّ السّورة وردت في تثبيت المؤمنين وتصبيرهم علـى أذى أهـل مكّـة، وتذكيرهم بما جرى على من تقدّمهم من التّعذيب على الإيمان وإلحاق أنواع الأذى ، وصبرهم وثباتهم حتّى يأنسوا بهم ، ويصبروا على ما كانوا يلقون مـن قومـهم ، ويعلموا أنّ كفّارهم عند الله بمنزلة أولئك المعذّبين المحرّقين بالنّار ملعونون أحقّـاء بأن يقال فيهم: قتلت قريش كما قيل ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ و﴿ قُتِلَ﴾ دعـاء عليهم كقوله: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ [عبس:١٧] (١) .

وقد أشار النّبيّ ﷺ إلى قصّة أصحاب الأخدود في حديث طويل ، مبيّناً فيـه ثبات أولئك القوم على دينهم ، وصبرهم على العذاب في ذات الله تعـالى ، وكيـف جادوا بأنفسهم حفاظاً على إيمانهم .

عن صهيب ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: " كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان لـه ساحر ، فلمّا كبر قال للملك : إنّي قد كبرت فابعث إلى غلاماً أعلّمـه السّحر (٢) ، فبعث إليه غلاماً يعلّمه ، فكان في طريقه إذا سلك راهب (٣) ، فقعد إليه وسمع كلامه

---

(١) الكشّاف: ٢٣٧/٤ . الطبعة الحلبية .

(٢) السِّحْر: هو كلّ مالطف مأخذه ودقّ فهو سحر . انظر:مختار الصِّحاح: ص:٢٨٨. لسـان العـرب: ٣٤٨/٤. القاموس المحيط: ص:٥١٩.

وهو في الشّرع عمل يتقرّب فيه إلى الشّيْطان ويتمّ بمعونة منه . وأصله صرف الشّيء عن حقّيقته إلى غيره. انظـر: لسان العرب: ٣٤٨/٤.

وقيل: لفظ السّحر في عرف الشّرع يختصّ بكلّ أمر يخفى سببه ويتخيّل على غير حقيقته ، ويجري مجرى التّمويـه والخداع . وإذا أطلق ذمّ فاعله . وقد يستعمل مقيّداً فيما يمدح ويحمد . التّعاريف: ١ / ٣٩٩. والسّحر ليس كلّـه تخيّل ، بل منه ماهو حقيقة وما هو تخيّل .

وهو يقال على معان : الأوّل: تخيّلات لا حقيقة لها نحو ما يفعله المشعبذ . الثّاني: استجلاب معاونة الشّـيْطان بضرب من التّقرّب إليه. الثّالث: ما يغيّر الصّور والطّبائع كجعل الإنسان حماراً . انظر: المفردات:ص:٢٢٦.

(٣) الرَّاهب: هو المتعبّد .وجمعه رُهْبان . وأصله من الـتَّرَهُّب وهـو اسـتعمال الرّهبـة وهـي الخـوف ــ في العبادة.ويطلق على ذلك الفعل :رَهْبانية وهي: غلو في تحمّل التّعبد من فرط الرّهبة. وانظر: المفـردات:ص:٢٠٤.

فأعجبه ، فكان إذا أتى السّاحر مرّ بالرّاهب وقعد إليه ، فإذا أتى السّاحر ضربه، فشكا ذلك إلى الرّاهب ، فقال: إذا خشيت السّاحر فقل: حبسني أهلي ، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني السّاحر. فبينما هو كذلك إذ أتى على دابّة عظيمة قد حبست النّاس . فقال: اليوم أعلم السّاحر أفضل أم الرّاهب أفضل ؟. فأخذ حجراً فقال: اللّهم إن كان أمر الرّاهب أحبّ إليك من أمر السّاحر فاقتل هذه الدّابّة حتّى يمضي النّاس. فرماها فقتلها ومضى النّاس . فأتى الرّاهب فأخبره . فقال له الرّاهب: أي بني أنت اليوم أفضل منّي ، قد بلغ من أمرك ما أرى وإنّك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدلّ عليّ . وكان الغلام يبرئ الأكْمَه[1] والأبرص ويداوي النّاس من سائر الأدواء [2].

فسمع جليس للملك كان قد عمي ، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتني . فقال: إنّي لا أشفي أحداً إنّما يشفي الله ، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك . فآمن بالله ، فشفاه الله . فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من ردّ عليك بصرك ؟ قال: ربّي . قال: ولك ربّ غيري ؟ قال: ربّي وربّك الله . فأخذه فلم يزل يعذّبه حتّى دلّ على الغلام ، فجئ بالغلام ، فقال له الملك: أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل ، فقال: إنّي لا أشفي أحداً ، إنّما يشفي الله ، فأخذه فلم يزل يعذّبه حتّى دلّ على الرّاهب ، فجئ بالرّاهب فقيل له: ارجع عن دينك فأبى ، فدعا بالمِئشار[3] ، فوضع المئشار في مفرق رأسه فشقّه حتّى وقع شقّاه ، ثمّ جئ بجليس الملك ، فقيل له ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المئشار في مفرق رأسه فشقّه به حتّى وقع شقّاه. ثمّ جيء بالغلام فقيل له ارجع عن دينك فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فلصعدوا

لسان العرب: ١/٤٣٧. ورهبانيّة النّصارى الّتي عرفوا بها : أنّهم كانوا يترهّبون بالتّخلّي من أشغال الدّنيا وترك ملاذها والزّهد فيها ، والعزلة عن أهلها ، وتعمّد مشاقّها ، حتّى إنّ منهم من كان يخصي نفسه ويضع السّلسلة في عنقه . وغير ذلك . النّهاية في غريب الحديث: ٢/٢٨٠. بتصرُّف يسير.

(١) الأكْمَه: هو الأعمى . وقيل هو الّذي ولد أعمى. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٤/٢٠١.

(٢) الأدواء : جمع داء وهو المرض . انظر: مختار الصّحاح: ص:٢١٤. لسان العرب: ١/٧٩.

(٣) المئشار: بهمزة بعد الميم وهو الأفصح ، ويجوز تخفيف الهمزة ياء ، ويجوز المنشار بالنون . وعلى هذا يقال : نشرت الخشبة . وعلى الأوّل يقال أشرتها . شرح النّووي على صحيح مسلم :١٨/٧٤ بتصرُّف.

به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلاّ فاطرحوه . فذهبوا به ، فصعدوا به الجبل فقال: اللّهم اكفينهم بما شئت . فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك . فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله . فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قُرْقُور (١) ، فتوسّطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلاّ فاقذفوه . فذهبوا به . فقال: اللّهم اكفنيهم بما شئت ، فانكفأت بهم السّفينة فغرقوا ، وجاء يمشي إلى الملك . فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله . فقال للملك: إنّك لست بقاتلي حتّى تفعل ما آمرك به . قال: وما هو؟ قال: تجمع النّاس في صعيد (٢) واحد ، وتصلبني على جذع ، ثمّ خذ سهماً من كنانتي (٣) ، ثمّ ضع السّهم في كبد القوس ، ثمّ قل: باسم الله ربّ الغلام ، ثمّ ارمني . فإنّك إذا فعلت ذلك قتلتني . فجمع النّاس في صعيد واحد ، وصلبه على جذع ، ثمّ أخذ سهماً من كنانته ، ثمّ وضع السّهم في كبد القوس ، ثمّ قال باسم الله ربّ الغلام ، ثمّ رماه فوقع السّهم في صُدْغِه (٤) ، فوضع يده في صدغه في موضع السّهم فمات . فقال النّاس: آمنّا بربّ الغلام . آمنّا بربّ الغلام . آمنّا بربّ الغلام . فأتي الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك(٥). قد آمن النّاس. فأمر بالأخدود في أفواه السّكك (٦) فخدّت ، وأضرم النّيران، وقال: من لم يرجع عن

---

(١) قُرْقُور: هو السّفينة العظيمة وجَمْعُها قَراقِير . النّهاية في غريب الحديث :٤ / ٤٨.

(٢) الصعيد : هو التّراب ، ويطلق على وجه الأرض وعلى الطّريق . والجمع صُعُد وصُعْدان. : انظر: لسان العرب: ٢٥٤/٣. وانظر: المرجع السّابق: ٢٩/٣.

(٣) الكنانة: أصلها من الكِنّ وهو السّتر والوقاء . وهي جعْبة السّهام الّتي توضع فيها ، وتتّخذ من جلود أو خشب . انظر: لسان العرب: ٣٦٠/١٣-٣٦١. وانظر: غريب الحديث للخطّابي:١١٢/١. مختار الصّحاح:ص:٥٨٠. القاموس المحيط:ص:١٥٨٥.

(٤) الصُّدْغ : هو ما بين العين إلى شحمة الأذن . النّهاية في غريب الحديث:١٧/٣.

(٥)نزل بك حذرك : أي ما كنت تحذر وتخاف . شرح النّووي على مسلم: ١٣٣/١٨ .

(٦) السِّكَك : هي الطّريقة المستوية المصطفّى من النّخل . ومنها قيل للأزقّة سكك لاصطفاف الدّور فيها. غريب الحديث للهروي: ٣٤٩/١.. الفائق: ١٨٩/٢. النّهاية في غريب الحديث: ٣٨٤/٢.
وقال النّووي (رحمه الله) : " السّكك :الطّرق . وأفواهها : أبوابها." شرح النّووي على مسلم:١٣٣/١٨.

دينه فأحْمُوه [1] فيها . أو قيل له: اقتحم . ففعلوا . حتّى جاءت امرأة ومعها صبي لها . فتقاعست [2] أن تقع فيها ، فقال لها الغلام: يا أمّهِ اصبري فإنّك على الحقّ " [3] .

لقد أضحى هؤلاء المؤمنون مثالاً يحتذى به لكلّ مفتون في الأرض من أهل الإيمان من أجل دينه وعقيدته ، مهما بلغت تلك الفتنة، ولو أدّت إلى إزهاق الأرواح وسفك الدّماء ، بل والحرق بالنّار كما حدث لهؤلاء . لأنّ كلّ شيء في ذات الله يهون ، وكلّ صعب من أجله يسهل . وما أعدّه للصّابرين الثّابتين على الحقّ يفوق كلّ ما يتصوّر من عظيم الثّواب وفائق الأجر .

ولذا حرص رسول الله ﷺ أن يورد هذه الحادثة بطولها ليدفع أهل الإيمان على الثّبات عند شدائد الفتن بذكره لهم أخبار السّابقين من الأمم ، وما عانوه من مشاقّ من أجل دينهم .

قال الإمام القرطبي (رحمه الله):

" قال علماؤنا: أعلم الله عزّ وجلّ المؤمنين من هذه الأمّة في هذه الآية ما كان يلقاه من وحّد قبلهم من الشّدائد يؤنسهم بذلك . وذكر لهم النّبيّ ﷺ قصّة الغلام ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام ، والمشقّات الّتي كانوا عليها ليتأسّوا بمثل هذا الغلام في صبره وتصلّبه في الحقّ وتمسّكه به، وبذله نفسه في حقّ إظهار دعوته ، ودخول النّاس في الدّين مع صغر سنّه وعظم صبره . وكذلك الرّاهب صبر على التّمسّك بالحقّ حتّى نشر بالمنشار . وكذلك كثير من النّاس لمّا آمنوا بالله

---

(1) يقال :حَمِيَ الشّمس وحَمْوها: اشتداد حرّها. ويقال: حَمِيَ المسمار وغيره في النّار حَمْياً وحُمُوًّا: سَخُنَ. انظر: مختار الصِّحاح: ص:١٥٨. لسان العرب: ١٤/٢٠١.

والمراد : ارموه فيها حتّى يحترق . وانظر: شرح النّووي على مسلم:١٨/١٣٣.

(2) فتقاعست: أي تأخّرت . انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٤/٨٧.

وقيل: توقّفت ولزمت موضعها وكرهت الدّخول في النّار. شرح النّووي على مسلم: ١٨/١٣٣.

(3) صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب الزّهد الرّقائق (٥٣) . باب قصّة أصحاب الأخدود والسّاحر والرّاهب والغلام : (١٧) برقم : (٣٠٠٥) . ٤/٢٢٩٩-٢٣٠١ .

تعالى ورسخ الإيمان في قلوبهم صبروا على الطّرح في النّار ولم يرجعوا في دينهم " (١) .

إنّ الثّبات على العقيدة يمثّل انتصاراً للحقّ على الباطل ، واستعلاء للإيمان وأهله على الحياة الماديّة الفانية . إنّ فقد النّفوس ، وضياع الأجساد لا يوازن بضياع الإيمان والدّين ، إذ خسارة الأجساد خسارة دنيا زائلة بينما خسارة الاعتقاد خسارة أخرى باقية ، والفرق بين ذلك شاسع وبعيد .

إنّ وهج النّار ولفحها لم يزل إلاّ الأبدان ، وأمّا الإيمان الّذي استقرّ في القلوب فإنّه لم يصل إليه ، وهو الّذي ضمن لأولئك القوم السّعادة الأبديّة في الجنان الوارفة .

ولو نجت تلك النّفوس المؤمنة من تلك النّار الحارقة في مساومة مع الإيمان لخسرت خسارة لا تجبر، وفقدت سعادة لا تقوّم .

وتعجبني كلمة للشّيخ سيّد قطب (رحمه الله) في روعة سياقها، وعذوبة معناها، أعضّد بها ما ذكرت ، وأذيّل بها هذه الجزئيّة من البحث . يقول:

" تنتهي رواية الحادث وقد ملأت القلب بالرّوعة . روعة الإيمان المستعلي على الفتنة ، والعقيدة المنتصرة على الحياة ، والانطلاق المتجرّد من أوهاق (٢) الجسم وجاذبية الأرض . فقد كان في مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم . ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدّنيا قبل الآخرة؟ وكم كانت البشريّة كلّها تخسر؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير: معنى زهادة الحياة بلا عقيدة ، وبشاعتها بلا حريّة ، وانحطاطها حين يسيطر الطّغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد ! إنّه معنى كريم جداً ، ومعنى كبير جداً هذا الّذي ربحوه وهم بعد في الأرض . ربحوه وهم يجدون مسّ النّار ، فتحترق

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٩/٢٩٣ .

(٢) الأوهاق : جمع وَهَق بالتّحريك وقد يسكن ، وهو حبل كالطِّوَل تشدّ به الإبل والخيل لئلا تَنِدّ. لسان العرب: ١٠/٣٨٦.

فلعله أراد بقوله : والانطلاق المتجرّد من أوهاق الجسم : أي الانطلاق المتجرّد من تقيدات الجسم . لأنّ الوهق يُقيِّدُ به.

أجسادهم وينتصر هذا المعنى الكريم الّذي تذكيه النّار، وبعد ذلك لـــهم عنـــد ربّـــهم حساب ، ولأعدائهم الطّاغيين حساب . يعقـــب بـــه السّـــياق: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [البروج:١٠-١١] (١) .

(١) في ظلال القرآن: ٦/٣٨٧٤ .

﴿ المبحث الرّابع ﴾

أصحاب رسول الله ﷺ

إنّ أصحاب رسول الله ﷺ هم الفئة المختارة من هذه الأمّة بعد نبيّها ﷺ ، جعلهم الله وزراء نبيّه يدافعون عن دينه ، وينافحون عن شرعه ، وامتدحهم في قرآنه في آيات كثر.

فقال تبارك وتعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح:٢٩] .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾ [التوبة:٨٨،٨٩] .

ولا سيما السّابقون على الإسلام منهم . وفيهم يقول المولى سبحانه: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [التوبة:١٠٠].

وأثنى عليهم رسول الله ﷺ جملة في قوله: "خير النّاس قرني ثمّ الّذين يلونهم ، ثمّ الّذين يلونهم" (١) .

وقال ابن مسعود ﷺ :

" من كان منكم مستنّاً فليستنّ بمن قد مات ، فإنّ الحيّ لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمّد ﷺ ، كانوا أفضل هذه الأمّة ، أبرّها قلوباً ، وأعمقها علماً، وأقلّها تكلّفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيّه وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم، واتّبعوهم في آثارهم ، وتمسّكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم ، فإنّهم كانوا على الهدى المستقيم " (٢) .

إنّهم لم يبلغوا المنزلة العظيمة ، والتّكرمة الرّفيعة ، والثّناء العاطر إلاّ لصدقهم في حمل هذا الدّين ، علماً وعملاً ودعوة . حملوه بقلوب لا تعرف الملال ، وأجساد لا تعرف الكلال ، وصبر وثبات كثبات الرّاسيات من الجبال . وذلك في وقت قلّ

---

(١) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الشّهادات: (٥٢/٢٨). باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد: (٩). عن عمران بن حصين ﷺ . برقم : (٢٦٥١). إلاّإنّه قال: " خيركم" . وعن عبد الله بن مسعود ﷺ . برقم : (٢٦٥٢). ص:٥٥١. وفي كتاب فضائل أصحاب النّبي ﷺ : (٣٧/٦٢). باب فضائل أصحاب النّبي ﷺ : (٢٩/١) . عن عمران ﷺ برقم : (٣٦٥٠). إلا إنّه قال: "خير أمّتي". وعن عبد الله ﷺ برقم : (٣٦٥١). ص: ٧٦٧. وفي كتاب الرّقاق: (٨١/٥٥). باب ما يحذر من زهرة الدّنيا والتّنافس فيها: (٧). عن عمران ﷺ برقم : (٦٤٢٨). إلاّ إنّه قال: "خيركم". وعن عبد الله ﷺ . برقم : (٦٤٢٩). ص: ١٣٦٩. وفي كتاب الأيمان والنّذور: (٨٣/٥٧). باب إثم من لا يفي بالنّذر: (٢٧). برقم : (٦٦٩٥). إلاّ إنّه قال: "خيركم". ص: ١٤١٦. و بلفظ مقارب عن عبد الله ﷺ في باب إذا قال أشهد بالله ، أو شهدت بالله: (١٠). برقم : (٦٦٥٨). ص:١٤٠٩.

صحيح مسلم: بلفظه في كتاب فضائل الصّحابة: (٤٤). باب فضل الصّحابة ثمّ الّذين يلونهم ثمّ الّذين يلونهم: (٥٢). عن عبد الله ﷺ . برقم : (٢٥٣٣). ٤/١٩٦٣. و بلفظ مقارب عن عمران ﷺ . برقم : (٢٥٣٥). ٤/١٩٦٤.

(٢) شرح العقيدة الطّحاوية: ص: ٤٣٢. طبعة المكتب الإسلامي . وقد أورد أبو نعيم قريباً منه من قول عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) . حلية الأولياء . طبعة دار الكتاب العربي . بيروت . الطّبعة الرّابعة ١٤٠٥هـ : ١/٣٠٥-٣٠٦.

وانظر: الاعتصام لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمّد الشّاطبي . طبعة المكتبة التّجاريّة. مصر. تعريف محمّد رشيد رضا : ١/٣٣٧ .

فيه المعين من البشر وندر فيه النّاصر ، وطغى فيه سلطان الكفر والشّرك ، وكشّر عن أنياب العداء السّافر لحملة الحقّ من الصّحابة الميامين . وكلّ ذلك لم يثن عزائمهم ، ولم يضعضع قواهم . بل واجهوا جحافل الشّرك بقلوب ثابتة ، وإيمان راسخ .

لقد ثبتوا على هذا الدّين منذ بزوغ فجره عندما كانوا في قلّة من العدد وضعف من العُدد . يحتوشهم مجتمع بلغ في الطّغيان منتهاه ، وفي الظّلم أعلاه ، وفي العدوان غايته . جرّدت قلوب أصحابه من الشّفقة ، وأرواحهم من الرّحمة ، لأنّها قلوب دنّست بوحل الشّرك ، وأرواح لطّخت بظلم الكفر . فانبروا لأولئك الضّعفة يذيقونهم الأمرّين ، تفنّناً في التّنكيل ، وتنوّعاً في التّعذيب . والقصد أن يفتن أولئك المؤمنون عن دينهم ، ويرتدّوا عن توحيدهم .

وبذل أولئك القساة كلّ جهد يملكونه ، وكلّ أسلوب يعرفونه لينالوا من تلك الفئة الثّابتة. واشتدّت وطأة تعذيبهم عليهم فما استجاب لها إلاّ النّزر اليسير ، وبعضهم مكرهاً . وثبت الجلّ الكثير فلم ينتكس .

قال ابن إسحاق (رحمه الله):

" ثمّ إنّهم ــ أي المشركون ــ عدو على من أسلم ، واتّبع رسول الله ﷺ من أصحابه ، فوثبت كلّ قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ويعذّبونهم بالضّرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكّة إذا اشتدّ الحرّ، من استضعفوا منهم، يفتنونهم عن دينهم . فمنهم من يفتن من شدّة البلاء الّذي يصيبه ، ومنهم من يصلب لهم ، ويعصمه الله منهم" (١) .

وأولئك الّذين أجابوا المشركين في بعض ما أرادوا إنّما أجابوا دفعاً للتّعذيب ، وإكراهاً على الكفر ، وليس رضاً به .

---

(١) السّيرة النّبويّة لابن هشام: ١٩٤/١ . ولم أقف على النّص كاملاً كما ذكره ابن هشام (رحمه الله) .في سيرة ابن إسحاق المسمّاة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي . تحقيق : محمّد حميد الله . طبعة : معهد الدّراسات والأبحاث للتّعريب : ٤ /١٧٠ .

وفي شأنهم يقول الله عـــزّ وجــلّ: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ﴾ [النحل:١٠٦] (١) .

عن سعيد بن جبير (رحمه الله) قال: قلت لعبد الله بـــن عبّــاس (رضــي الله عنهما): " أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ مـــن العــذاب مــا يعذرون به في ترك دينهم ؟ قال : " نعم والله ؟ إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطّشونه حتّى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدّة الضرّ الّذي نــزل بـــه ، حتّــى يعطيهم ما سألوه من الفتنة . حتّى يقولوا له اللاّت والعزّى إلــــهك مــن دون الله ؟ فيقول: نعم . حتّى إنّ الجعل ليمرّ بهم ، فيقولون له: أهذا الجعل إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . افتداء منهم ممّا يبلغون من جهده " (٢) .

وقد غفر الله لهم ذلك كلّه بعد هجرتهم وجهادهم وصبرهم .

وذلك فــــي قولــه تعــالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠ ﴾ [النحل:١١٠] .

يقول الإمام ابن جرير (رحمه الله):

" يقول تعالى ذكره: ثمّ إنّ ربّك يا محمّد للّذين هاجروا من ديارهم ومســاكنهم وعشائرهم من المشركين ، وانتقلوا عنهم إلى ديار أهل الإسلام ومســـاكنهم وأهـــل ولايتهم من بعد ما فتنهم المشركون الّذين كانوا بين أظهرهم قبـــل هجرتـــهم عــن دينهم ، ثمّ جاهدوا المشركين بعد ذلك بأيديهم بالسّيف ، وبألسنتهم بـــالبراءة منـــهم وممّا يعبدون من دون الله ، وصبروا على جـهادهم﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾يقول: إنّ ربّك من بعد فعلتهم هذه لهم لغفور . يقول: لذو ستر على مـــا

(١) وانظر: في معنى الآية: الجامع لأحكام القرآن: ١٠/١٨٠-١٩١ وفيه تفصيل جامع في معنى الإكراه ، وحـــدّه ، وتطبيقه في الفروع الفقهيّة . ومذاهب أهل العلم في ذلك .

(٢) السّيرة النّبويّة لابن هشام: ١/١٩٦ .

كان منهم من إعطاء المشركين ما أرادوا منهم من كلمة الكفر بألسنتهم ، وهم لغيرها مضمرون ، وللإيمان معتقدون . رحيم بهم أن يعاقبهم عليها مع إنابتهم إلى الله وتوبتهم "[1].

ولمّا رأى النّبيّ ﷺ ما أصاب أصحابه من الشدّة والبلاء والفتنة ، وأنّه لا يقدر على منعهم وحمايتهم أمرهم بالهجرة إلى أرض الحبشة لأنّ بها ملكاً لا يظلم عنده أحد . حتّى يجعل الله لهم مخرجاً ممّا هم فيه . فخرجوا إليها مخافة الفتنة ، وفراراً بدينهم إلى الله [2] .

وفي ذلك يقول جعفر بن أبي طالب ﷺ للنّجاشي [3] . بعد أن عدّد له أمور الإسلام :

" فعدا علينا قومنا فعذّبونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ، وأن نستحل ما كنّا نستحل من الخبائث ، فلمّا قهرونا وظلمونا ، وشقّوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيّها الملك " [4] .

ثمّ لمّا بلغهم أنّ قريشاً كفّت أذاها عن من أسلم رجعوا إلى مكّة . وازداد عدد المسلمين بها . فعاود المشركون الكرّة ، واشتدّ العذاب والفتنة على المسلمين . فأمرهم النّبيّ ﷺ بالهجرة إلى المدينة فراراً بدينهم من الفتن .

---

(1) جامع البيان: ١٨٣/١٤ . طبعة الحلبي . وانظر: معاني القرآن للزّجّاج: ٢٢٠/٣ . تفسير القرآن العظيم: ٩١٣/٢ محاسن التّأويل: ٣٨٦٦/١٠ . وفي الآية أقوال أخرى . انظر: التّفسير الكبير: ١٢٥/٢٠-١٢٦ . الجامع لأحكام القرآن: ١٨٠/١٠-١٨١ وقد ذكر أسماء من فتن ، ومن لم يجب المشركين في تلك الفتنة .

(2) انظر: السّيرة النّبويّة لابن هشام: ١٩٧/١ .

(3) النّجَاشي: هو أصحمة بن أبجر النّجاشي ملك الحبشة ، واسمه بالعربية عطيّة والنّجاشي لقب له . أسلم على عهد النّبي ﷺ ولم يهاجر إليه ، وكان ردءاً للمسلمين نافعاً . أحسن إلى من هاجر إليه في صدر الإسلام . صلّى عليه النّبي ﷺ صلاة الغائب . انظر: الإصابة: ٢٠٥/١.

(4) مسند أحمد: بلفظه —وهو جزء من حديث أمّ سلمة (رضي الله عنها) الطّويل في شأن الهجرة الأولى إلى الحبشة — في: ٢٠٢/١ . قال أحمد شاكر رحمه الله: " إسناده صحيح ". مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٨٠/٣-١٨٥. برقم: (١٧٤٠). وبلفظه عدا أحرف يسيرة في: ٢٩١/٥.

وفي ذلك يقول *عروة بن الزّبير (رحمه الله)* [1]:

"وكانت الفتنة الأولى هي أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ قبل أرض الحبشة مخافتها ، وفراراً ممّا كانوا فيه من الفتن والزّلازل . فلمّا استُرْخي عنهم ، ودخل في الإسلام من دخل منهم ، تُحُدِّث باسترخائهم عنهم . فبلغ ذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ أنّه استُرخي عمّن كان منهم بمكّة، وأنّهم لا يفتنون . فرجعوا إلى مكّة ، وكادوا يأمنون بها ، وجعلوا يزدادون ويكثرون . وأنّه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير ، وفشا بالمدينة الإسلام ، وطفق أهل المدينة يأتون رسول الله ﷺ بمكّة . فلمّا رأت ذلك قريش تذامرَتْ [2] على أن يفتنوهم ويشتدّوا عليهم . فأخذوهم ، وحرصوا على أن يفتنوهم ، فأصابهم جهد شديد . وكانت الفتنة الآخرة . فكانت ثنتين: فتنة أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة ... وفتنة لمّا رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة " [3].

---

(1) هو عروة بن الزُّبير بن العوام بن خويلد أبو عبد الله الأسدي القرشي المدني . وأمّه أسماء بنت أبي بكر (رضي الله عنها) . من أئمة التّابعين وفقهائهم الأفاضل . كان ثقة عابداً صالحاً ، كثير الحديث . لم يدخل في شيء من الفتن. توفي سنة : ٩٤هـ. على الصّحيح .

وانظر: الطّبقات الكبرى: ١٧٨/٥. طبقات خليفة :ص: ٢٤١. التّاريخ الكبير: ٣١/٧. معرفة الثّقات: ١٣٣/٢. الجرح والتّعديل: ٣٩٥/٦. ثقات ابن حبّان: ١٩٤/٥. مشاهير علماء الأمصار: ٦٤/١. التّعديل والتّجريح: ١٠٢٠/٣. تهذيب الكمال: ١١/٢٠. تذكرة الحفّاظ: ٦٢/١. الكاشف: ١٨/٢.جامع التّحصيل: ص: ٢٣٦. تهذيب التّهذيب: ١٦٣/٧. تقريب التّهذيب: ٣٨٩/١. إسعاف المبطأ: ص: ٢١.

(2) تذامرت: أي تحاضّت على القتال. انظر: القاموس المحيط: ص: ٥٠٩.

(3) هذا الأثر أورده الإمام ابن جرير (رحمه الله) مطوّلاً عن عروة بن الزُّبير (رحمه الله) فيما كتبه إلى عبد الملك بن مروان . في جامع البيان: ٥٣٩/١٣-٥٤٢ (طبعة شاكر) . عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال:٣٩].

وأشار الشّيخ أحمد شاكر (رحمه الله) إلى أنّه أورده في مواضع متفرّقة من التّفسير والتّاريخ . وذكر أنّ إسناده صحيح . انظر: جامع البيان ٥٤٢/١٣ هامش: ٣ . كما أورده الإمام ابن كثير (رحمه الله) في تفسيره بطوله عند تفسير الآية السّابقة وقال: "وهذا صحيح على عروة (رحمه الله) " .

تفسير القرآن العظيم: ٤٨٧/٢ .

والقصد أنّ أصحاب رسول الله ﷺ داهمتهم فتن مدلهمّة ، وأصابتـــهم محــن وشدائد عظيمة ، فصبروا وثبتوا على دين الله ، وظلّوا يكـــافحون وينـــافحون مــع رسول الله ﷺ لنصرة هذا الدّين وإعلاء رأيته . حتّى نصر الله الدّين بهم ، ورفـــع شأنه بثباتهم ، وقوّى أمره بصبرهم . وأبدلهم بعد الضّعف قوّة ، وبعد الذّل عــــزّة، وبعد الغلبة نصرة ، وبعد الفقر غنىّ . وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنفال:٢٦] .

وظهر الإسلام بعد أن كان خافياً ، ووضح الحقّ بعد أن كان عافياً .

قالت عائشة (رضي الله عنها):

" لا هجرة اليوم ، كان المؤمنون يفرّ أحدهم بدينه إلى الله تعالى ، وإلى رسوله ﷺ مخافة أن يفتن عليه ، فأمّا اليوم فقد أظهر الله الإسلام ، واليوم يعبد ربّه حيـــث شاء ، ولكن جهاد ونية " (١) .

هذا عن الصّحابة في الجملة . وأمّا الأفراد فهناك نمـــاذج مشـــرقة لصّحابـــة رسول الله ﷺ ضربوا بها أروع الأمثلة في الثّبات عند الفتن ، والصّبر على المحن، وعطّروا بها تاريخ الإسلام الحافل بالبطولات النّادرة ، وورّثوها للأجيال من بعدهـم لتكون نبراساً يضئ لهم الطّريق متى ما استشفّوا القدوة منـــها ، وتعلّقـــوا بالأســـوة فيها .

وقد اخترت من أولئك أنموذجين رائعين من نماذج شتّى ، ومثلين فذّيـــن مـــن أمثال عدّة ، تأكيداً لما سبق ، وتأييداً لما مضى . وليكونا في مطلبين .

---

(١) سبق .ص : ١٩١ .

﴿ المطلب الأوّل ﴾

بلال بن رباح رضي الله عنه

إنّه مؤذّن رسول الله ﷺ ، ومن السّابقين الأولّين الّذين عذّبوا في الله تعالى .

كان مولى لبعض بني جمح[١] ، مولّداً من مولّديهم ، فهو من المستضعفين فيهم . وقر الإيمان في قلبه ، فصدق مع الله حقّ الصّدق . فأعلنها مدويّة في سماء مكّة: ألاّ إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله . فجمح إليه مواليه يذيقونه حرّ العذاب ، وعظيم الأذى ووافر العقاب . يريدون أن يفتنوه عن دينه ، ويطفئوا النّور الّذي ملأ جوانح صدره ، واستقرّ في سويداء قلبه ليعود مرّة أخرى إلى ظلام الوثنية ، وضلال الشّرك .

كانوا يخرجونه إذا حميت الظّهيرة ، واشتدّ حرّها ، فيطرحونه على ظهره في بطحاء مكّة وبين صخورها ، ثمّ يأتون بالصّخرة العظيمة فتوضع على صدره . كلّ ذلك من أجل أن يكفر بمحمّد ﷺ ، ويعبد اللاّت والعزّى . ولكنّهم لا يجدون عنده ما يطمعون ، ولايصلون منه إلى ما يتمنّون ، وإنّما يصكّ آذانهم بقوله: أحد ، أحد [٢] .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

" كان أوّل من أظهر إسلامه سبعة : رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمّار وأمّه سميّة وصهيب وبلال والمقداد . فأمّا رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمّه أبي طالب [٣]، وأمّا أبو بكر فمنعه الله بقومه ، وأمّا سائرهم فأخذهم المشركون ، وألبسوهم أدراع

---

(١)بنو جمح : بطن من قريش . وهم بنو جمح بن عمرو . من مضر من العدنانية . انظر : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة . لعمر رضا كحالة . طبعة دار العلم للملايين . بيروت . الطبعة الثانية : ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م : ٢٠٢/١-٢٠٣ . معجم قبائل الحجاز . لعاتق بن غيث البلادي : ٨٦/١ .

(٢) انظر: السّيرة النّبويّة لابن هشام: ١٩٤/١ .

(٣) أبو طالب اسمه : عبد مناف بن عبد المطّلب بن هاشم . القرشي الهاشمي . والد عليّ رضي الله عنه ، وعمّ رسول الله ﷺ وكافله ومربّيه وناصره وحاميه . من أبطال قريش وعقلائهم وزعمائهم وخطبائهم وشعرائهم . دعاه النّبيّ ﷺ للإسلام فامتنع خوفاً من أن تعيّره العرب ، ووعده بالنّصر والحماية . وظلّ على ذلك حتّى توفي قبل الهجرة النّبويّة بثلاثة أعوام . والشّيعة تزعم أنّه أسلم وكتم إسلامه ، وذلك مخالف للنّصوص . انظر : الأعلام : ١٦٦/٤ .

الحديد ، وصهروهم في الشّمس . فما منهم من أحد إلاّ وقد واتاهم[1] على ما أرادوا إلاّ بلالاً فإنّه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه ، فأخذوه فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكّة وهو يقول : أحد أحد " [2] .

إنّ ذلك العذاب كلّه لم يؤثّر في ثبات بلال ﷺ ، هانت عليه هذه الدّنيا ، وهانت عليه هذه النّفس ، فلم يعبأ بما يصيبها من الأذى ، ولو قطّعت أو أزهقت .

فثبت ثبات الجبال الشّم الّتي لا تؤثّر فيها العواصف المزمجرة ، ولا السّيول العاتية . إنّه الإيمان الصّادق ، واليقين الخالص الّذي استقرّ في ذلك القلب الطّاهر فلم يتّجه إلى غير الله ، ولم يذكر سوى الله حتّى أعجز قومه أن يفتنوه عن دينه ، فسعوا في الخلاص منه . فخلّصه أبو بكر ﷺ .

قال ابن سيرين [3] (رحمه الله):

"إنّ بلالاً لمّا ظهر مواليه على إسلامه مَطُّوه في الشمس ، وعذّبوه ، وجعلوا يقولون: إلهك اللاّت والعزّى . وهو يقول: أحد ، أحد . فبلغ أبا بكر فأتاهم ، فقال: علام تقتلونه ؟ فإنّه غير مطيعكم . قالوا: اشتره . فاشتراه بسبع أواق ، فأعتقه" [4] .

---

(١) واتاهم : أي أعطاهم . انظر : مختار الصّحاح : ص : ٥ .

(٢) سنن ابن ماجه: بلفظه في: المقدّمة. باب فضل سلمان وأبي ذر والمقداد . برقم: (١٥٠). قال الألباني رحمه الله: " حسن". ص: ٣٢.

مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٤٠٤/١. قال أحمد شاكر رحمه الله: " إسناده صحيح ". مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٣١٩/٥. برقم: (٣٨٣٢).

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بلفظه إلاّ أحرف يسيرة في: باب ذكر بلال بن رباح المؤذّن ﷺ . برقم: (٧٠٨٣). قال شعيب الأرناؤوط: " إسناده حسن ". ٥٥٨/١٥.

مستدرك الحاكم: نحوه في: ٣٢٠/٣. وقال: "صحيح الإسناد و لم يخرجاه". وقال الذّهبي رحمه الله: " صحيح" .

(٣) هو محمّد بن سيرين أبو بكر الأنصاري ، مولى أنس بن مالك ﷺ . من أئمّة التّابعين وفقهاء أهل البصرة وعبّادهم . رأى ثلاثين من الصّحابة . وكان إماماً ربّانياً عالياً رفيعاً كثير العلم كبير القدر ، ثقة ثبتاً ، علاّمة في التّعبير ، رأساً في الورع . وكان به صمم . توفي سنة : ١١٠هـ .

وانظر: الطّبقات الكبرى: ١٩٣/٧. طبقات خليفة :ص: ٢١٠. التّاريخ الكبير: ٩٠/١. معرفة الثّقات: ٢٤٠/٢. الجرح والتّعديل: ٢٨٠/٧. ثقات ابن حبّان: ٣٤٨/٥. مشاهير علماء الأمصار: ٨٨/١. تاريخ بغداد: ٣٣١/٥. التّعديل والتّجريح: ٦٧٦/٢. تهذيب الكمال: ٣٤٤/٢٥. تذكرة الحفّاظ: ٧٧/١. الكاشف: ١٧٨/٢. جامع التّحصيل: ص: ٢٦٤. تهذيب التّهذيب: ١٩٠/٩. تقريب التّهذيب: ٤٨٣/١. إسعاف المبطأ: ص: ٢٥.

(٤) سير أعلام النّبلاء: ٣٥٣/١ .

﴿ المطلب الثّاني ﴾

عبد الله بن حذافة السّهمي ﷺ

إنّ هذا الصّحابي الجليل ، الّذي كان أحد السّابقين إلى الإسلام ، ومن مهاجري الحبشة الأول ضرب أروع الأمثلة في الثّبات على الحقّ . جابهته الفتن في أعتى صورها فلم تزعزعه عن دينه ، وواجهته في أسوأ أشكالها فلم تردّه عن يقينه بهذا الإسلام . خبره من أعجب ما يروى وأغرب ما يذكر .

إنّ عمر بن الخطّاب ﷺ وجّه جيشاً إلى الرّوم فيه عبد الله بن حذافة ﷺ ، فقدّر الله له أن يقع أسيراً في أيديهم ، فذهبوا به إلى ملكهم وأخبروه أنّه من أصحاب محمّد ﷺ . فدعاه الملك إلى دين النّصرانية ، وساومه بأن يعطيه نصف ملكه، ويزوّجه ابنته . فقال بصدق وثبات: " لو أعطيتني جميع ما تملك ، وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمّد ﷺ طرفت عين ما فعلت " .

فقال: إذاً أقتلك . فقال: " أنت وذاك " . فأمر به فصلب ، ثمّ أمر الرّماة أن يرموه قريباً من يديه ورجليه ، وهو يعرض عليه دين النّصرانية فيأبى . ثمّ دعا بقدر صب فيها ماء ، وأحمي عليه حتّى احترق ، ثمّ دعا بأسير أو أسيرين من المسلمين فألقيا فيها فإذا هما عظام تلوح . وعبد الله ينظر إلى ذلك ، فعرض عليه النّصرانية مرّة أخرى وهو يأبى . فأمر به أن يلقى في القدر فبكى ، فظنّ الملك أنّه قد جزع ، وطمع فيه . فقال: ردّوه ثمّ سأله عن سبب بكائه فقال: " إنّي إنّما بكيت لأنّ نفسي إنّما هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر السّاعة في الله فتذهب ، فأحببت أن يكون لي بعدد كلّ شعرة في جسدي نفس تعذّب هذا العذاب في الله " .

وفي بعض الرّوايات إنّ الملك سجنه في بيت ، ومعه خمر ولحم خنزير ثلاثاً وهو لا يأكل حتّى كاد أن يهلك . فلمّا أخرج سأله الملك: ما منعك أن تأكل وتشرب؟ قال: " أما إنّ الضّرورة كانت قد أحلّتها لي ، ولكن كرهت أن أشمتك بالإسلام" .
فقال الملك: قبّل رأسي وأنا أطلقك . قال: "وتطلق معي جميع أسارى المسلمين" .

قال: نعم . فقبّل رأسه . فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين . فلمّا رجع إلى عمر ﷺ وعلم الخبر قال: "حقّ على كلّ مسلم أن يقبّل رأس عبد الله بن حذافة ، وأنا ابدأ " . فقام فقبّل رأسه (١) .

إنّ عبد الله ﷺ لم يصدّه عن الثّبات ما هدّد به من قتل وإزهاق نفس ، ولو كان ذلك بأسوأ الأساليب ، وأقبح الوسائل . ولم تلن عريكته ، ولم يفتّ في عضده شدّة الجوع والظّمأ ، والطّعام والشّراب على مقربة منه ، وقد أباح له الشّرع حال الضّرورة ما لم يبحه له في غيره .

وليس الأمر أن تزول نفسه ، وتذهب روحه كي لا يزول الإسلام أو يدمّر. وإنّما الأمر أن تزول نفسه كي لا يشمت فقط في الإسلام ! .

أعظِم به من موقف مشرّف جليل القدر . أين هو من مواقف متخاذلة من كثيرين انتموا إلى هذا الدّين العظيم ، ولكنّهم جهلوا قدره أو تجاهلوه ؟. لم يقنعهم ما يرونه من سعي حثيث من أعداء الله عزّ وجلّ من اليهود والنّصارى لتدمير الإسلام وكتم أنفاسه ، وسفك دماء أبنائه ، وإذلالهم وتشريدهم ، وسلب حقوقهم . لم يقنعهم كلّ ذلك فراحوا يساومون على حساب دين الله الّذي أزهقت نفوس من أجله ، وقطّعت أعضاء في سبيله ، وذهبت أموال في نصرته ، وأبيدت جيوش من أجل حمايته . يساومون إرضاء لأعداء الله . ولو دعاهم ذلك إلى تحريف النّصوص ، وتغيير أحكام الشّرع الثّابتة لفعلوا . أما سمع هؤلاء قول الله عزّ وجلّ لأمثالهم من قبل :

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا

(١) انظر: أسد الغابة في معرفة الصّحابة . لأبي الحسن عليّ بن محمّد عز الدّين بن الأثير. طبعة دار المعرفة. بيروت. الطّبعة الأولى : ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م . تحقيق خليل مامون شيخا : ٥٧٨/٢. سير أعلام النّبلاء: ١٤/٢-١٥. تفسير القرآن العظيم: ٩١٢/٢ . الإصابة : ٥٨/٤.

دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [المائدة: ٥١-٥٢]

أم يظنّ هؤلاء المتخاذلون أنّ أعداء الله يرضيهم ذلك منهم ؟ فإن ظنّوا ذلك فليستمعوا لقول الله تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٠] .

وهذه مواقف ينأ عنها أصحاب رسول الله ﷺ الّذين كانوا نماذج فذّة في الثّبات على الدّين ، ومصابرة الشّدائد ومغالبة الأهوال حيث لا يرضى أحدهم أن يتنازل عن جزء يسير من دين الله ، أو يرضخ لفتنة من الفتن تمسّ جسد الإسلام ولو كان فيها هلاك نفسه ، وذهاب روحه.

لقد تركوا آثاراً مضيئة في الثّبات تفوق حدّ الوصف ، ويعجز اليراع أن يحيط بها أو يأتي عليها جميعاً . وما ذكر إنّما هو قليل من كثير؛ ونزر يسير يقصد به التّمثيل وليس الحصر .

المبحث الخامس

الإمام أحمد بن حنبل (رحمه الله)

إنّ تاريخ الإسلام حافل بالنّماذج الفريدة في الثّبات على الحقّ . وقد ترك المخلصون من هذه الأمّة بصمات خالدة ، وخلّدوا آثاراً عظيمة تدلّ على صدقهم في التّمسّك بدين الله القويم ، والصّبر على الأذى فيه ، وتحمّل المشاقّ من أجل إعزازه ونصرته .

وقد طفحت كتب السّير والتّاريخ بذكر أخبارهم ، ودوّنت آثارهم ، ممّا يعجز جميع الأمم الأخرى أن توجد أمثالهم ، أو تبرز أشباههم .

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ******* إذا جمعتنا يا جرير المجامع(١)

ولعلي اختار من بين أولئك أنموذجاً فذّاً ، ضرب بأطنابه في أعماق الثّبات على الحقّ ، وسلك طريقاً في مجابهة الفتن والصّبر عندها عجز عن السّير عليه كثير من السّالكين . نصر الله بثباته الدّين ، وأبان الحقّ وأزهق الباطل . ورُفع علم السّنّة ونُكّست رايات البدع . إنّه: إمام أهل السّنّة أحمد بن حنبل (رحمه الله) .

قال عنه الشّافعي (رحمه الله):

" خرجت من بغداد فما خلّفت بها رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أفقه ، ولا اتقى من أحمد بن حنبل " (٢) .

---

(١) بيت الشّعر للفرزدق . وهو في ديوانه . شرح وضبط وتقديم الأستاذ عليّ فاعور . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . الطّبعة الأولى : ١٤٠٧هـ ـــ ١٩٨٧م : ص : ٣٦٠ .

(٢) سير أعلام النّبلاء: ١١/١٩٥ . انظر : طبقات الحنابلة للقاضي أبي الحسين محمّد بن أبي يعلى . طبعة دار المعرفة. بيروت. توزيع دار المؤيّد . الرّياض : ١/١٨ .

وقال أبو عمر بن النّحّاس (رحمه الله) عنه :

" في الدّين ما كان أبصره ، وعن الدّنيا ما كان أصبره ، وفي الزّهد ما كان أخبره ، وبالصّالحين ما كان ألحقه ، وبالماضين ما كان أشبهه ، عرضت عليه الدّنيا فأباها ، والبدع فنفاها " (١) .

وقال الذّهبي (رحمه الله):

" وإلى الإمام أحمد المنتهى في معرفة السّنّة علماً وعملاً ، وفي معرفة الحديث وفنونه ، ومعرفة الفقه وفروعه . وكان رأساً في الزّهد والورع والعبادة والصّدق " (٢) .

وأقوال العلماء في مدحه والثّناء عليه كثيرة جداً .

لقد ثبت هذا الإمام (رحمة الله عليه) عند تلك الفتنة المظلمة الّتي أوشكت أن تقتلع جذور العقيدة الإسلاميّة من نفوس المسلمين ، وتبثّ البدع والضّلال بينهم . وهي فتنة خلق القرآن الّتي تحالف على نصرتها وحمايتها قوّة السّلطان مع علماء الضّلال والابتداع . والّذي تولّى كبرها الخليفة العبّاسي المأمون . ولم يكن في الخلفاء قبله من بني أميّة وبني العبّاس خليفة إلاّ على مذهب السّلف ومنهاجهم في أنّ القرآن كلام الله تعالى ووحيه وتنزيله ، لا يعرفون غير ذلك . فظهر المأمون وكان متكلّماً ، فاستجلب كتب الأوائل ، وعرّب كتب اليونان ، والتفّ حوله جماعة من المعتزلة ،(٣)

---

(١) البداية والنّهاية: ٣٣٦/١٠ .

(٢) سير أعلام النُّبلاء: ٢٩١/١١-٢٩٢ .

(٣) المعتزلة فرقة من الفرق الكلاميّة الّتي تمجّد العقل ، وتعطيه منزلة فوق منزلة النّصوص الشّرعيّة ، ممّا حدا بها إلى الانحراف في كثير من جوانب الاعتقاد السّليم الّذي كان عليه سلف الأمّة رحمهم الله تعالى .

وقد بيّنت كثيراً من جوانب انحراف هذه الفرقة في كتابي موقف المدرسة العقليّة من السّنّة النّبويّة . انظر: ٩٥/١ فما بعدها .

وقد أشار الإمام الشّهرستاني إلى سبب تسميتهم بالمعتزلة فقال:

" دخل واحد على الحسن البصري فقال : يا إمام الدّين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفّرون أصحاب الكبائر . والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملّة ، وهم وعيديّة الخوارج . وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر . والكبيرة عندهم لا تضرّ مع الإيمان . بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان ، ولا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا

والجهميّة ، والشّيعة [1]، وزيّنوا له القول بخلق القرآن ، وحملوه على ذلك . فقام في هذه البدعة قيام معتقد متعبّد بها . وآل به الحال إلى أن حمل الأمّــة علــى ذلــك ، وكتب إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب [2] يــأمره أن يدعــو النّــاس إليها ، وأن يمتحن العلماء عليها ، ويتهدّدهم بالضّرب وقطع الأرزاق بل والقتــل . فعظمت المصيبة ، وأشتدّ البلاء ، وعمّ الخطب . وأجاب أكثر العلماء علــى ســبيل الإكراه ، وتوقّف بعضهم ثمّ أجاب تحت وطأة التّعذيب . وثبت قلّة فلم يجيبوا.

ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الآمّة . فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً . فكّر الحسن في ذلــك ، وقبــل أن يجيب قال واصل بن عطاء : أنا لا أقول إنّ صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً ، بل هو في منزلــة بــين المنزلتين : لا مؤمن ولا كافر . ثمّ قام واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرّر ما أجاب على جماعة مــن أصحاب الحسن . فقال الحسن : اعتزل عنّا واصل . فسمّي هو وأصحابه معتزلة " .

الملل والنّحل: ١/٤٨.

(١) الشّيعة : هم الّذين شايعوا عليّاً ﷺ على الخصوص ، وقالوا بإمامته وخلافته نصّاً ووصية ، إمّا جليّاً وإمّا خفيّــاً، واعتقدوا أنّ الإمامة لا تخرج من أولاده ، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده . وقــالوا ليســت الإمامة قضية مصلحيّة تناط باختيار العامّة وينتصب الإمام بنصبهم ، بل هي قضية أصوليّة ، وهي ركن الدّيــن ، لا يجوز للرّسل عليهم الصّلاة والسّلام إغفاله وإهماله ، ولا تفويضه إلى العامّة وإرساله.

وهم فرق شتّى يجمعهم القول بوجوب التّعيين والتّنصيص ، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمّة وجوباً عن الكبــائر والصّغائر ، والقول بالتّولّي والتبرّي قولاً وفعلاً وعقداً إلاّ في حال التّقية، ويخالفهم بعض الزّيديّة في ذلك . ولهــم في تعدية الإمام كلام وخلاف كثير . وعند كلّ تعدية وتوقّف مقالة ومذهب وخبط .

وأصول فرقهم خمس : كيسانيّة وزيديّة وإماميّة وغلاة وإسماعيليّة . وبعضهم يميل في الأصــول إلى الاعــتزال ، وبعضهم إلى السّنّة ، وبعضهم إلى التّشبيه. الملل والنّحل: ١/١٤٦-١٤٧.بتصــرّف يســير . وانظــر: مقــالات الإسلاميين: ص:٥ فما بعدها . التّعريفات : ص:١٧١. التّعاريف: ٢/٤٤٣

(٢) هو إسحاق بن إبراهيم بن مصعب الخزاعي أمير بغداد نحواً من ثلاثين سنّة ، وعلى يده امتحــن العلمــاء بــأمر المأمون في خلق القرآن . وكان صارماً سائساً حازماً. توفي سنة : ٢٣٥هـــ.

انظر: سير أعلام النّبلاء:١١/١٧١. العبر:١/٣٣٠. شذرات الذّهب:٣/١٦٤.

منهم إمام أهل السّنّة أحمد بن حنبل (رحمه الله) [1] .

فلمّا لم يجب الإمام أحمد (رحمه الله) فيمن أجاب حمل إلى المأمون على بعير مثقلاً بقيود الحديد ، وقد أقسم المأمون إن لم يجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنّه . فدعا الإمام أحمد ربّه ألاّ يراه . فهلك قبل قدومه عليه [2].

وتولّى الخلافة بعده أخوه المعتصم ، الّذي نهج نهج أخيه في امتحان النّاس، وفتنتهم بتلك القولة المبتدعة .

ولمّا حمل إليه الإمام أحمد في قيوده دعا علماء المبتدعة لمناظرته . فناظرهم أمام المعتصم بقلب ثابت وحجج نافذة كسر بها حججهم ، ودحض بها باطلهم [3] .

قال ابن مصعب[4]:

" ما رأيت أحداً لم يداخل السّلطان ، ولا خالط الملوك ، كان أثبت قلباً من أحمد يومئذ ، ما نحن في عينه إلاّ كأمثال الذّباب " [5] .

---

(١) انظر: سير أعلام النُّبلاء: ١١/٢٣٦ . العبر: ١/٢٩٣ . البداية والنِّهاية: ١٠/٣٣٤ .

قال ابن كثير (رحمه الله):

"وكان الّذين ثبتوا على الفتنة فلم يجيبوا بالكلّية أربعة: أحمد بن حنبل وهو رئيسهم ، ومحمّد بن نوح بن ميمون الجنديسابوري ومات في الطّريق ، ونعيم بن حمّاد الخزاعي وقد مات في السّجن ، وأبو يعقوب البويطي وقد مات في سجن الواثق على القول بخلق القرآن وكان مثقلاً بالحديد ، وأحمد بن نصر الخزاعي " .

البداية والنِّهاية: ١٠/٣٣٥ .

(٢) انظر: سير أعلام النُّبلاء: ١١/٢٤١ .

(٣) انظر: ذكر محنة الإمام أحمد بن حنبل . جمع أبي عبد الله حنبل بن إسحاق بن حنبل . دراسة وتحقيق د. محمّد نغش . الطّبعة الأولى: ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م . مطبعة دار نشر الثّقافة – القاهرة: ص: ٦٦ . سير أعلام النُّبلاء: ١١/٢٤٥ .

(٤) هو محمّد بن إبراهيم بن مصعب صاحب شرطة المعتصم بعد أخيه إسحاق بن إبراهيم .

انظر: سير أعلام النُّبلاء: ١١/٢٤٠.

(٥) المرجع السّابق : ١١/٢٤٠ .

وقال ابن أبي دواد [1]:

"ما رأيت أحداً أشدّ قلباً من هذا . يعني: أحمد ، جعلنا نكلّمه ، جعل الخليفة يكلّمه ، يسمِّيه مرّة ويكْنيه مرّة ، وهو يقول: يا أمير المؤمنين ، أوجدني شيئاً من كتاب الله أو سنّة رسوله حتّى أجيبك إليه " [2] .

ولمّا عجز أولئك عن مناظرته أغروا الخليفة على تعذيبه وضربه ، بل وزيّنوا له قتله . والخليفة يتودّد إليه بكلّ ما يمكن . فلمّا يئس عن إجابته أمر به فضرب ضرباً مبرحاً حتّى ذهب عقله مراراً تحت ألم الضرب، وكبّ على وجهه ، وسحب وخلع وديس عليه ، وهو مع ذلك صائم فلم يفطر [3] .

قال أحد جلاّديه:

"ضربت أحمد بن حنبل ثمانين سوطاً ، لو ضربته فيلاً لهدمته " [4] .

ثمّ ألقي في السّجن ، وزيد في قيوده ، وكان يخرج فيضرب ثمّ يعاد . وهو مع ذلك ثابت لم يجد منه أعداؤه ما يتمنّون .

وظلّ في الحبس مدّة تربو على ثلاثين شهراً ، ذاق فيها الأمرّين حتّى يئس من إجابته المعتصم فأطلقه [5] .

ولمّا هلك المعتصم وتولّى الأمر الواثق تبع أباه في امتحان النّاس بخلق القرآن ، وضيّق على الإمام أحمد تضييقاً عظيماً ، فأرسل إليه بأن لا يجتمعنّ إليه أحد ، ولا يساكنه بأرض ولا مدينة هو فيها ، وأن يذهب حيث شاء من أرض الله .

---

(1) هو أحمد بن فرج بن كَرِيز أبو عبد الله بن أبي دُواد الإيادي البصري ثمّ البغدادي ، الجهمي . القاضي .كان داعية إلى خلق القرآن ، وهو من ألّب المأمون على امتحان العلماء على القول بخلقه. مات سنة : ٢٤٠هـ.

وانظر: تاريخ بغداد: ١٤١/٤. وفيات الأعيان: ٨١/١. سير أعلام النُّبلاء: ١٦٩/١١. العبر: ٣٣٩/١. شذرات الذّهب: ١٧٩/٣.

(2) سير أعلام النُّبلاء: ٢٩٥/١١ .

(3) انظر: ذكر محنة الإمام أحمد: ص: ٦٠،٦٣،٦٤ . سير أعلام النُّبلاء: ٢٤٧/١١، ٢٤٩/١١-٢٥٢ .

(4) ذكر المحنة: ص: ١٢ .

(5) انظر: المرجع السّابق : ص: ١٢ . سير أعلام النُّبلاء: ٢٤٣ .

فاختفى (رحمه الله) بقية حياة الواثق ، لاقى في أثناء ذلك محناً عظيمة وفتناً بالغة (١).

فلمّا ولي المتوكّل بعد الواثق رفع المحنة عن النّاس ، وأظهر السّنّة وأمات البدعة ، وأطلق من اعتقل بسبب تلك المقالة ، وعاقب من يقول بها ، ثمّ استدعى الإمام أحمد فأكرمه وعظّمه وأجلّه (٢) .

لقد ثبت الإمام أحمد (رحمه الله) في تلك الفتنة ثباتاً عظيماً ، وصبر صبراً جميلاً حتّى نال بذلك إمامة الدّين ، فلا يذكر اسمه إلاّ مقروناً بذكرها .

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة:٢٤] .

لقد ذاق أصنافاً من العذاب: قيّد بثقيل الحديد ، وحبس في غياهب السّجون، وضرب بأقسى أنواع الضّرب حتّى ظلّ أثره في مواضع من جسده يجد ألمه حتّى توفي ، وخلعت يداه ، وديس عليه ، وهدّد بالقتل ، وضيّق عليه بالنفي والتّشريد. وهو مع ذلك صابر لا يجيبهم إلى شيء ممّا طلبوه .

قال بشر بن الحارث (رحمه الله) (٣):

" قام أحمد مقام الأنبياء ، وأحمد عندنا امتحن بالسّراء والضّراء، فكان فيهما معتصماً بالله " (٤) .

---

(١) انظر: ذكر المحنة: ص: ٨٤ . سير أعلام النُّبلاء: ٢٦٤/١١ .

(٢) انظر: ذكر المحنة: ص: ١٣ . سير أعلام النُّبلاء: ٢٦٥/١١ . العبر: ٣٢٥/١ . البداية والنّهاية: ٣٣٧/١٠ .

(٣) هو بشر بن الحارث بن عبد الرّحمن بن عطاء بن هلال ، أبو نصر المعروف بالحافي ، الزّاهد الجليل المشهور. نزيل بغداد . طلب الحديث في أوّل أمره ثمّ أقبل على العبادة واعتزل النّاس فلم يحدّث . ثقة قدوة .

قال عنه الخطيب رحمه الله:" كان ممّن فاق أهل عصره في الورع والزّهد، تفرّد بوفور العقل وأنواع الفضل ، وحسن الطّريقة ، واستقامة المذهب ، وعزوف النّفس ، وإسقاط الفضول ". توفي سنة : ٢٢٧ هـ .

وانظر : الطّبقات الكبرى:٣٤٢/٧. الجرح والتعديل: ٣٥٦/٢. ثقات ابن حبّان: ١٤٣/٨. تاريخ بغداد: ٦٧/٧. تهذيب الكمال: ٩٩/٤. سير أعلام النُّبلاء: ٤٦٩/١٠. تهذيب التّهذيب: ٣٨٩/١. تقريب التّهذيب:١٢٢/١.

(٤) سير أعلام النُّبلاء: ٢٠٢/١١ .

ولو أجاب (رحمه الله) لا نفتح باب شرّ عظيم على الأمّة ، لأنّه إمام يقتدى به ، ويتمسّك النّاس وخاصّة العوام بهديه . فلو أجاب لظنّوا أنّ ذلك حقّ . وعندئذ يلتبس الحقّ بالباطل . وكان (رحمه الله) يعرف هذه الحقيقة كما كان يعرفها معاصروه من العلماء .

قال حنبل (رحمه الله) [1]:

" قال أبي[2]: فدخلت على أبي عبد الله ، ومعي حاجبه فقلت له: يا أبا عبد الله، قد أجاب أصحابك ، وقد أعذرت فيما بينك وبين الله ، وقد أجاب أصحابك والقوم، وبقيت أنت في الحبس والضيّق . فقال لي: يا عم إذا أجاب العالم تَقِيَّة [3] والجاهل يجهل ، فمتى نتبيّن الحقّ ؟ قال أبي: فأمسكت " [4] .

قال الإمام أحمد (رحمه الله) :

"ما رأيت أحداً على حداثة سنّه ، وقدر علمه أقوم بأمر الله من محمّد بن نوح [5] ، إنّي لأرجو أن يكون قد ختم له بخير . قال لي ذات يوم: يا أبا عبد الله، الله الله ، إنّك لست مثلي .أنت رجل يقتدى بك . قد مدّ الخلق أعناقهم إليك ، لما

---

(1) هو حنبل بن إسحاق بن حنبل بن هلال بن أسد أبو عليّ الشّيباني . ابن عم الإمام أحمد وتلميذه. حافظ ، ثقة ثبت ، مصنّف . سمع المسند من الإمام أحمد (رحمه الله).

وانظر: طبقات الحنابلة: ١٤٣/١. تاريخ بغداد: ٢٨٦/٨. تذكرة الحفّاظ: ٦٠٠/٢. سير أعلام النُّبلاء: ٥١/١٣. العبر: ٣٩٤/١. البداية والنّهاية: ٥٢/١١. شذرات الذّهب: ٣٠٧/١.

(2) أبوه هو: إسحاق بن حنبل بن هلال بن أسد أبو يعقوب الشّيباني ، عم الإمام أحمد رحمه الله . وكان يلازمه في أكثر أوقاته ، ونقل عنه كثيراً . وهو ثقة . توفي سنة: ٢٥٣هـ.

وانظر: طبقات الحنابلة: ١١١/١. تاريخ بغداد: ٣٦٩/٦.

(3) تَقِيَّة:من الوقاية وهي الحذر والحماية. انظر: لسان العرب: ٤٠١/١٥.

والمراد أن يجيب العالم إجابة يدفع بها المكروه عن نفسه.

(4) ذكر المحنة: ص: ٤٤

(5) هو محمّد بن نوح بن ميمون بن عبد الحميد بن أبي الرّجال العجلي ، المعروف والده بالمضروب . كان أحد المشهورين بالسّنّة . أثنى عليه الإمام أحمد ووثّقه. توفي سنة: ٢١٨هـ في الطّريق وهو محمول مع الإمام أحمد إلى المأمون .

وانظر: تاريخ بغداد: ٣٢٢/٣.العبر: ٢٩٦/١. البداية والنّهاية:٢٧٤/١٠.

يكون منك ، فاتّق الله واثبت لأمر الله . أو نحو هذا . فمـــات ، وصلّيــت عليــه ، ودفنته " (١) .

لقد خشي أبو عبد الله (رحمه الله) أن يفتح ثلمة في دين الله فثبــت وصــبر ، متجرّعاً غصص العذاب وويلات العقاب نصرة لديــن الله ، وإعــلاء لكلمــة الله . فصدق فيه قول *علي بن المديني* (٢) *(رحمه الله):*

" أعزّ الله الدّين بالصّدّيق يوم الرّدة ، وبأحمد يوم المحنة " (٣).

إنّه أنموذج عزيز في الثّبات يضاف إلى رصيد عظيم وحصيلة وافرة لنمــاذج مدّخرة ثبتت على هذا الدّين الخاتم ، وحملته بصدق وإخلاص ، وتجرّعت من أجلــه غصص العذاب ، وويلات الألم ، ولكنّها ظلّت شموساً شامخة في الثّبات ، وأعلامــاً راسخةً في الصّبر ، لتلفت انتباه كثرة كاثرة من أبناء هذه الأمّة الفاضلة كي يحملــوا هذا الدّين بحقّ وصدق ، وثبات وصبر ، لتعرف الأمم مقامــه ، وتقــرّ بعظمتــه ، ويبان لها فضله ، وتتّضح لها عزّته ، فتأتي إليه خاضعة لأوامره ، متمسّكة بهديــه ، مجانبة لنهيه ، لتتحقّق لها السّعادة في هذه الدّنيا ، وتنال الفلاح في الآخرة .

---

(١) سير أعلام النُّبلاء: ٢٤٢/١١ . وذكر نحوه عن أبي جعفر الأنباري ٢٣٩/١١ . وانظر: ذكر المحنة: ص: ٤٠ .

(٢) هو عليّ بن عبد الله بن جعفر بن نجيح أبو الحسن التّميمي السّعدي مولاهم المديني ثمّ البصري . حــافظ العصــر وصاحب التّصانيف . ثقة ثبت إمام ، أعلم أهل عصره بالحديث وعلله . قال عنه البخاري:" ما استصغرت نفســي إلاّ عند عليّ بن المديني ". توفي سنة:٢٣٤هـ.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٣٠٨/٧. التّاريخ الكبير: ٢٨٤/٦. الجرح والتّعديل: ١٩٣/٦. ثقات ابــن حبّــان: ٤٦٩/٨. تاريخ بغداد: ٤٥٨/١١. التّعديل والتّجريح: ٩٦٢/٣. تهذيب الكمــال: ٥/٢١. تذكــرة الحفّــاظ: ٤٢٨/٢. الكاشف: ٤٢/٢. تهذيب التّهذيب: ٣٠٦/٧. تقريب التّهذيب: ٤٠٣/١. لسان الميزان: ٣١٢/٧.

(٣) سير أعلام النُّبلاء: ١٩٦/١١ .

الباب الثاني

الثبات عند الابتلاء

وفيه فصول :

الفصل الأوّل
معاني الابتلاء في اللغة والشّرع

الفصل الثّاني
ابتلاء الإنسان سنّة من سنن الله في الكون

الفصل الثّالث
أنواع الابتلاء والحكمة منها

الفصل الرّابع
عوامل الثّبات عند الابتلاء

الفصل الخامس
نماذج للثّبات عند الابتلاء

الفصل الأوّل

معانـي الابتلاء في اللّغة والشّرع

وفيه مبحثان :

المبحث الأوّل

معانـي الابتلاء في اللّغة

يقال : بَلَوْتُ الرّجل بَلْواً وبلاءً ، وابتليتـه ابتـلاء : إذا جرّبتـه واختبرتـه وامتحنته .[١] وبلاه يَبْلُوه بَلْواً : إذا جرّبه واختبره .[٢]

ومن ذلك قول القائل :

بُلِيتُ وفُقْدانُ الحبيب بَلِيَّةٌ ...... وكم من كريم يُبْتَلى ثمّ يصبرُ[٣]

وبُلى الشّيء بلاء وابتُلى ابتلاء إذا اختبر . والاسم : البلْوَى والبِلْوَةُ والبِلْيَةُ والبَلِيَّـةُ والبلاء .[٤] فالبلاء والابتلاء هو الامتحان والاختبار ، ويكون في الخير والشّر .[٥]

يقال : ابتليته بلاء حسناً وبلاء سيّئاً .

---

(١) انظر : تهذيب اللّغة : ١٥/٣٩٠ . الصّحاح : ٦/٢٢٨٥ . لسان العرب : ١٤/٨٣ . المصباح المنير . لأحمد بن محمّد بن عليّ المقري الفيومي : تصحيح مصطفى السّقا – طبعة مصطفى الحلبي بمصر : ١/٦٩ . القاموس المحيط : ١٦٣٢ . تاج العروس : ١٩/٢١٦ . ٢١٧ .

(٢) انظر : لسان العرب : ١٤/٨٣ . معجم متن اللّغة : ١/٣٤٦ . المعجم الوسيط لجماعة من العلماء : ١/٧١ .

(٣) معجم مقاييس اللّغة : ١/٢٩٣ . وهو لحسان بن ثابت ﷺ في ديوانه : ص : ٩٩ . وأوله : بلاء .

(٤) انظر : لسان العرب : ١٤/٨٤ . القاموس المحيط : ص : ١٦٣٢ . تاج العروس : ١٩/٢١٧ . معجم متن اللّغة : ١/٣٤٦ .

(٥) انظر : تهذيب اللّغة : ١٥/٣٩١ . معجم مقاييس اللّغـة : ١/٢٩٣ . مجمـل اللّغـة : ١/١٣٣. الصّحـاح : ٦/٢٢٨٥ . لسان العرب : ١٤/٨٤ . معجم متن اللّغة : ١/٣٤٦

ويقال : بلاه اللّه وأبلاه وابتلاه : إذا اختبره وامتحنه بالخير والشّر ليُعلم شكره وصبره .[1] . فالبلاء : الشدّة والمحنة تنزل بالمرء ليختبر بها .[2]

والبلاء : الإنعام .

ومنه قول زهير :[3]

رأى اللّه بالإحسان ما فعلا بكم ****** فأبلاهما خير البلاء الّذي يبْلُو[4]

أي أعطاهما خير العطاء أو الصّنيع الّذي يبلو به عباده .[5]

والبلاء : الغم . لأنّه يبلي الجسم [6] . والحزن أيضاً يسمّى بلاء [7] .

والبلاء : الإخبار . يقال : ابتليته فأبلاني : إذا استخبرته فأخبرني [8] .

والبلاء : الحلْف . يقال : بليت فلاناً وأبليته يميناً : إذا حلفت له بيمين طيّبت بها نفسه [9] .

ومن ذلك قول أوْس بن حُجْر[10] :

---

(١) انظر : معجم مقاييس اللّغة : ٢٩٣/١ . لسان العرب : ٨٤/١٤ .

(٢) انظر : المعجم الوسيط : ٧١/١ .

(٣) هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني . حكيم الشّعراء في الجاهليّة . وأحد شعراء المعلّقات . أسلم أبناه كعب وبجير . وله ديوان شعر مطبوع . الأعلام: ٥٢/٣.

(٤)ديوان زهير بن أبي سلمى . طبعة : دار صادر . بيروت . ص : ٦١ .

(٥) انظر : تهذيب اللّغة : ٣٩٠/١٥ . معجم مقاييس اللّغة : ٢٩٤/١ . الصّحاح : ٢٢٨٥/٦ . لسان العرب : ٨٤/١٤ . تاج العروس : ٢٢٠/١٩ .

(٦) انظر : القاموس المحيط : ص : ١٦٣٢. تاج العروس : ٢١٧/١٩ . معجم متن اللّغة : ٣٤٨/١ . المعجم الوسيط : ٧١/١ .

(٧) انظر : المرجع السّابق : ٧١/١ .

(٨) انظر : معجم مقاييس اللّغة : ٢٩٤/١ . لسان العرب : ٨٣/١٤ . القاموس المحيط : ص : ١٦٣٢ . تاج العروس : ٢١٦/١٩ . معجم متن اللّغة : ٣٤٦/١

(٩) انظر : مجمل اللّغة : ١٣٤/١ . الصّحاح : ٢٢٨٥/٦ . لسان العرب : ٨٤/١٤ . ٨٦ . تاج العروس : ٢١٧/١٩ . معجم متن اللّغة : ٣٤٦/١ .

(١٠) هو أوس بن حجر بن مالك التّميمي أبو شريح . شاعر تميم في الجاهليّة . عمِّر طويلاً ولم يدرك الإسلام . له ديوان شعر مطبوع . انظر: الأعلام: ٣١/٢.

كأنّ جديدَ الأرض يُبْليك عنهمُ •••••• تقيِّ اليمين بعد عَهْدِك حالِفُ (١)

والبلاء : الجهد الشّديد (٢) .

وأبلى فلان : إذا اجتهد في صفة حرب أو كرم . فيقال : أبلى فلان ذلك اليوم بلاء حسناً (٣) .

والبلاء : التّكليف ، لأنّ فيه جهد ومشقّة (٤) . فيقال ابتلاه بكذا : أي كلّفه (٥) .

والبلاء : الاختيار . تقول : ابتليت فلاناً إذا اخترته (٦) . وأصله من الاختبار (٧) .

والبليّةُ والبلِيُّ : النّاقة الّتي صارت نِضْواً (٨) هالكاً (٩) . والجمع البلايا .

فيقال : ناقةُ بِلْوُ سَفَر . وهي الّتي أبلاها السّفر وأجهدها (١٠) .

والبَلِيّةُ أيضاً : النّاقة الّتي كانت تعقل في الجاهليّة عند قبر صاحبها ، فلا تعلف ولا تسقى حتّى تموت ، أو يحفر لها حفرة وتترك فيها إلى أن تموت . لأنّهم

---

(١) تهذيب اللّغة : ٣٩٠/١٥ . معجم مقاييس اللّغة : ٢٩٤/١ . لسان العرب : ٨٦/١٤ . تاج العروس : ٢١٧/١٩
أي يحلف لك جديد الأرض أنّه ما حلّ بهذه الدّار أحد لدروس معاهدها . المرجع السّابق : ٢١٧/١٩ .

(٢) انظر : المعجم الوسيط : ٧١/١ .

(٣) انظر : تهذيب اللّغة : ٣٩١/١٥ .لسان العرب : ٨٤/١٤ . تاج العروس : ٢٢٠/١٩ .

(٤) انظر : القاموس المحيط : ص : ١٦٣٢ . تاج العروس : ٢١٧/١٩ . معجم متن اللّغة : ٣٤٨/١ .

(٥) انظر المرجع السّابق : ٣٤٦/١ .

(٦) انظر : تهذيب اللّغة : ٣٩١/١٥ . لسان العرب : ٨٤/١٤ . تاج العروس : ٢١٦/١٩ .

(٧) انظر : لسان العرب : ٨٤/١٤ .

(٨) نضواً : النّضْوُ بالكسر : البَعير المهزول . وقيل: هو المهزول من جميع الدّواب . وهو أكثر . والجمع أنضاء . وقد يستعمل في الإنسان . لسان العرب: ٣٣٠/١٥ . وانظر القاموس المحيط: ص:١٧٢٦.

(٩) انظر : تاج العروس : ٢٢٠/١٩ . معجم متن اللّغة : ٣٤٦/١ .

(١٠) انظر : تهذيب اللّغة : ٣٩١/١٥ . معجم مقاييس اللّغة : ٢٩٣/١ . الصّحاح : ٢٢٨٤/٦ . لسان العرب : ٨٥/١٤ . تاج العروس : ٢١٥/١٩ .

كانوا يزعمون : أنّ النّاس يحشرون ركباناً على البلايا ، ومشاة إذا لم تعكس مطاياهم على قبورهم[1] .

قال أبو زُبيد [2] :

كالبلايا رؤوسها في الوَلايا ...... ما نحاتِ السّموم حُرَّ الخدود[3]

والبِلاء : لغة في البِلَى وهو إخلاق الشّيء . يقال : بَلِي الثّوبُ يَبْلى بِلَىً أي خلق ، فإذا فتحت الباء قلت : بَلاء .

ومن ذلك قول العَجّاج [4] :

والمرء يُبليه بَلاء السِّربال ...... مرُّ اللّيالي واختلافُ الأحوال [5]

وهذه المعاني لا تخرج عن أصل معنى الابتلاء الّذي هو الاختبار والامتحان ، لأنّ الابتلاء كما سبق إمّا أن يكون بالمنحة وهي النّعمة ، أو المحنة وهي الشّدة . فالإخبار والاختيار والحلف وإخلاق الثّوب لا تخرج عن ذلك . لأنّها يمكن أن تتأتّى عن طريق الاختبار والتّمحيص . ويتّضح ذلك من خلال المعنى الشّرعي للابتلاء .

---

(١) الصّحاح : ٦/٢٢٨٥ . وانظر : تهذيب اللّغة : ١٥/٣٩١ . لسان العرب : ١٤/٨٥ . القاموس المحيط : ص : ١٦٣٢. تاج العروس : ١٩/٢١٦ . معجم متن اللّغة : ١/٣٤٦-٣٤٨ . المعجم الوسيط : ١/٧١ .

(٢) هو حرملة بن المنذر بن معد يكرب الكندي الطّائي . أبو زبيد . مشهور بكنيته . قيل : كان نصرانيّاً. واختلفوا في إسلامه. عاش في الجاهليّة والإسلام . توفي نحو سنة ٦٢هـ. وهو من المعمّرين.

وانظر: الإصابة: ٢/١٦٢. ١٧٠. الأعلام: ٢/١٧٤.

(٣) تهذيب اللّغة : ١٥/٣٩١ . معجم مقاييس اللّغة : ١/٢٩٢-٢٩٣ . لسان العرب : ١٤/٨٦ . تاج العروس : ١٩/٢١٩ .

(٤) هو عبد الله بن رؤبة بن لبيد بن صخر السّعدي التّميمي أبو الشّعثاء . راجز مجيد . ولد في الجاهليّة وأسلم وعاش إلى أيّام الوليد بن عبد الملك. وهو والد رؤبة بن العجّاج الرّاجز المشهور. وله ديوان شعر مطبوع. الأعلام: ٤/٨٦-٨٧.

(٥) انظر : تهذيب اللّغة : ١٥/٣٩٠ . معجم مقاييس اللّغة : ١/٢٩٢ . مجمل اللّغة : ١/١٣٣ . الصّحاح : ٦/٢٢٨٥ . لسان العرب : ١٤/٨٥ . تاج العروس : ١٩/٢١٤-٢١٥ .

والسّرْبال هو : القَميص والدّرْع . وقيل : كُلّ ما لُبِسَ فهو سِرْبالٌ ، وقد تَسَرْبَل به ، سَرْبَلَه إياه ، سَرْبَلْتُه فتَسَرْبَل : أي ألبسته السّرْبالَ . لسان العرب: ١١/٣٣٥. وانظر: مختار الصّحاح: ص:٢٩٣. القاموس المحيط: ص:١٣١١.

المبحث الثّاني

معاني الابتلاء في الشّرع

الابتلاء في الأصل هو الاختبار والامتحان ، وقد ورد ذلك في القرآن كثيراً .

من ذلك قوله تعالى :

﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ [النساء:٦] (١) .

والمراد أن يختبر الأولياء اليتامى في عقولهم وأفهامهم وحسن تصرّفهم فيما يؤول إليهم من أموال ، فإن تبيّن صلاحهم وحسن تصرّفهم ورشدهم دفعت إليهم أموالهم ، وإلاّ منعوا من تسلّمها (٢) .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٦٨].

أي اختبرناهم بالخصب والعافية والجدب والشّدائد ليرجعوا عن كفرهم(٣) .

وحقيقة الابتلاء أن يظهر بالفعل أو التّرك أمر يستحسن أو يستقبح .

ولذا قال الرّازي (رحمه الله) :

" والتّحقيق هو أن الابتلاء والامتحان والاختبار فعل يظهر بسببه أمر غير متعيّن عند العقلاء بالنّظر إليه قصداً إلى ظهوره " (٤) .

---

(١) تأويل مشكل القرآن : ص ٤٦٩ . كتاب الغريبين : غريب القرآن والحديث . لأبي عبيد أحمد بن محمّد الهروي . رواية أبي سعد الماليني . تحقيق محمود محمّد الطّناحي ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠م . مطابع الأهرام التّجارية . القاهرة : ٢١٠/١

(٢) انظر : جامع البيان : ٥٧٤/٧ . طبعة شاكر . الجامع لأحكام القرآن : ٣٤/٥ . محاسن التّأويل : ١١٢٧/٥ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١٣١ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن : ٣١٠/٧ . وانظر : تأويل مشكل القرآن : ٤٦٩

(٤) التّفسير الكبير : ٤٦/٢٨

وقال القاسمي (رحمه الله) :

" والابتلاء في الأصل الاختبار ، أي تطلّب الخبرة بحال المختبر بتعريضه لأمر يشقّ عليه غالباً فعله أو تركه " [1] .

وقال الرّاغب (رحمه الله) :

" إذا قيل : ابتلى فلان كذا وأبلاه . فذلك يتضمّن أمرين : أحدهما : تعرّف حاله ، والوقوف على ما يجهل من أمره .

والثّاني : ظهور جودته ورداءته . وربّما قصد به الأمران ، وربّما يقصد به أحدهما . فإذا قيل في اللّه تعالى : بلا كذا أو أبلاه : فليس المراد منه إلاّ ظهور جودته ورداءته ، دون التّعرّف لحاله والوقوف على ما يجهل من أمره ، إذ كان اللّه علاّم الغيوب "[2].

فالابتلاء من الإنسان لظهور ما جهل ، وأمّا من اللّه تعالى فهو لإظهاره ما علم لأنّه لا تخفى عليه خافية سبحانه .

وقد جاء الابتلاء في القرآن والسّنّة مستوعباً لمعانيه السّابقة في اللّغة ، والّتي في الحقيقة لا تخرج عن معنى الاختبار والامتحان . وهو يكون حسناً ويكون سيّئاً لأنّه يكون بالخير ويكون بالشّر . فاللّه يبتلي عباده بالمحن والشّدائد الّتي يكرهونها ليظهر صبرهم ، كما يبتليهم بالنّعم والصّنع الجميل ليظهر شكرهم .

قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٥].

قال ابن جرير (رحمه الله) :

" ونختبركم أيّها النّاس بالشّر ، وهو الشّدّة نبتليكم بها ، وبالخير وهو الرّخاء والسّعة والعافية فنفتنكم به " [3] .

---

(١) محاسن التّأويل : ٢/٢٤٤ .

(٢) المفردات : ص: ٦١-٦٢ .

(٣) جامع البيان : ٢٤/١٧ .طبعة الحلبي . ٤٩/٢ . طبعة شاكر .

وقال ابن عطيّة (رحمه الله):

" والظّاهر أنّ المراد من الخير والشّر هنا كلّ ما يصحّ أن يكون فتنة وابتلاء ، وذلك خير المال وشرّه ، وخير البدن وشرّه ، وخير الدّنيا في الحياة وشرّها " [١] .

وقد ورد الابتلاء بمعنى الإنعام والعطاء الحسن في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة:٤٩] [٢] .

ففي الآية يعدّد اللّه نعمه على بني إسرائيل ويذكّرهم بها ، حيث خلّصهم من عدوّهم فرعون وملئه ، إذ كانوا يبطشون بهم فيذيقونهم أشدّ العذاب والنّكال ، وذلك بتسخيرهم في الأعمال الشّاقة ، وتذبيح الأبناء الذّكور وتقتيلهم ، وإبقاء النّساء على قيد الحياة على سبيل المنّة والإهانة . فأهلك عدوّهم وأنجاهم من كلّ ذلك . وتلك نعمة عظيمة تستوجب الشّكر .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أنّ الإشارة في قوله: ﴿ ذَٰلِكُم ﴾ تعود إلى ما كانوا فيه من العذاب ، وذبح الأبناء ، واستحياء النّساء إلى غير ذلك . فيكون البلاء ههنا بمعنى المحنة والشّدّة .

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز . لأبي محمّد عبد الحق بن عطيّة الأندلسي . تحقيق جماعة من العلماء . الطّبعة الأولى . الدّوحة . ١٤٠٢هـ — ١٩٨٢ م : ١٤٦/١٠-١٤٧ . وانظر معنى الآية في : تأويل مشكل القرآن : ص : ٤٦٩ . الكشّاف : ٩٢/٣. طبعة الاستقامة . التّفسير الكبير : ١٦٩/٢٢ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٨٧/١١ . تفسير القرآن العظيم : ٢٨٦/٣ . روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني . لشهاب الدّين محمود الألوسي البغدادي . إدارة الطّباعة المنيريّة . دار إحياء التّراث العربي . بيروت : ٤٧/١٧

(٢)ونحوها في سورة الأعراف الآية : ١٤١ . وسورة إبراهيم الآية : ٦

والأولى المعنى الأوّل ، لأنّ الآية ذكرت في تعداد النّعم . وقد ورد ذلك عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) ، ومجاهد ، وابن جُرَيج [(١)] ، وغيرهم . فيما رواه ابن جرير (رحمه الله) عنهم [(٢)] .

وأصرح من هذه الآية قوله تعالى في سياق غزوة بدر : ﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال:١٧].

أي : لينعم على المؤمنين نعمة عظيمة ، ويعطيهم عطاء حسناً يتمثّل في الظّفر بأعدائهم ، وغنيمة ما معهم ، ويكتب لهم أجور جهادهم ، وثواب أعمالهم .

فالبلاء هنا الإنعام والعطاء الحسن[(٣)] .

ومن الأحاديث : قول كعب بن مالك ﷺ في حديثه الطّويل ، قال كعب : " وقلت يا رسول اللّه إنّ اللّه إنّما أنجاني بالصّدق ، وإنّ من توبتي أن لا أحدّث إلاّ صدقاً ما بقيت ، قال : فو اللّه ما علمت أنّ أحداً من المسلمين أبلاه اللّه في صدق

---

(١) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج أبو الوليد . ويقال أبو خالد . الرّومي . الأموي . القرشي مولاهم المكّي. من فقهاء أهل مكّة وقرائهم . وممّن جمع العلم وصنّف فيه. ومن العبّاد. ثقة كثير الحديث جداً . وكان يدلّس ويرسل . أدرك صغار الصّحابة . وتوفي سنة ١٥٠هـ.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٤٩١/٥. طبقات خليفة: ص: ٢٨٣. التّاريخ الكبير: ٤٢٢/٥. الجرح والتّعديل: ٣٥٦/٥. ثقات ابن حبّان: ٩٣/٧. مشاهير علماء الأمصار: ١٤٥/١. تاريخ بغداد: ٤٠٠/١٠. التّعديل والتّجريح: ٩٠٤/٢. تهذيب الكمال: ٣٣٨/١٨. تذكرة الحفّاظ: ١٦٩/١. الكاشف: ٦٦٦/١. جامع التّحصيل: ص:٢٢٩. تهذيب التّهذيب: ٣٥٧/٦. تقريب التّهذيب: ٣٦٣/١. طبقات المدلّسين: ص:٤١.

(٢) جامع البيان : ٤٨/٢-٤٩ " طبعة شاكر " . وانظر في معنى الآية : تأويل مشكل القرآن ص : ٤٧٠ . كتاب الغريبين : ٢٠٩/١ . إصلاح الوجوه والنّظائر ص : ٧٧ . الطّبعة الأولى ١٩٧٠م . المفردات ص : ٦١ . المحرر الوجيز : ٢٨٦/١ . التّفسير الكبير : ٧٠/٣ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٨٧/١ . تفسير القرآن العظيم : ١٣٦/١-١٣٧ . تفسير أبي السّعود المسمّى " إرشاد العقل السّليم إلى مزايا القرآن الكريم " لأبي السّعود محمّد بن محمّد العمادي . طبعة دار إحياء التّراث العربي . بيروت : ١٠٠/١ – روح المعاني : ٢٥٤/١ – محاسن التّأويل : ١٢٢/٢-١٢٣ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٣٤ .

(٣) انظر : جامع البيان : ٤٤٨/١٣ طبعة شاكر . الكشّاف : ١٦٢/٢ طبعة الاستقامة . المحرر الوجيز : ٢٥١/٦ . التّفسير الكبير : ١٤١/١٥ . تفسير القرآن العظيم : ٤٦٧/٢ . تفسير أبي السّعود : ١٣/٤ . روح المعاني : ١٨٧/٩ . محاسن التّأويل : ٢٩٦٨/٨ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٧٩ .

الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول اللّه ﷺ إلى يومي هذا أحسن ممّا أبلاني اللّه بــه " الحديث [١] .

قال الإمام النّووي (رحمه الله) :

" أي أنعم عليه . والبلاء والإبلاء يكون في الخير والشّر لكن إذا أطلق كــان للشّر غالباً ، فإذا أريد الخير قيّد كما قيّده هنا ، فقال : أحسن ممّا أبلاني " [٢]

ومن ذلك حديث جابر ﷺ عن النّبي ﷺ قال : " من أبلى بلاء فذكــره فقد شكره ، وإن كتمه فقد كفره " [٣] .

أي من أعطي نعمة أو عطاء حسن فذكره فقد شكره ، وإن كتمه فقد كفره . فــالبلاء هنا الإنعام والإحسان [٤] .

كما يأتي البلاء بمعنى المشقّة والجهد الشّديد .

ومن ذلك قول عمر ﷺ في تقسيمه للفيء[٥] ، قال : " وقسم رسول اللّه ﷺ :

---

(١) صحيح البخاري : بلفظ مقارب في كتاب المغازي: (٣٨/٦٤). باب حديث كعب بن مالك . وقول اللّــه عــزّ وجلّ : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ [التّوبة:١١٨] : (٨٠/٧٩). برقم: (٤٤١٨). ص: ٩٢٠. صحيح مسلم: بلفظه في كتاب التّوبة: (٤٩). باب حديث توبة كعب بــن مــالك وصاحبيــه: (٩). برقــم: (٢٧٦٩). ٢١٢٧/٤.

(٢) شرح النّووي على مسلم : ٩٧/١٧ . وانظر : فتح الباري : ٤٦٥/٨ . النّهاية في غريب الحديث : ١٥٥/١

(٣) سنن أبي داود: بلفظه في : كتاب الأدب: (٤٠). باب في شكر المعروف: (١١). برقــم: (٤٨١٤) . قــال الألباني (رحمه اللّه) : " صحيح". ص: ٥٢٤. وهو في السّلسلة الصّحيحة: ١٨٢/٢ . برقم: (٦١٨).

(٤) انظر : المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث . للحافظ أبي موسى محمّد بن أبي بكر بن أبي عيســى المديــني الأصفهاني . تحقيق : عبد الكريم الغرباوي – الطّبعة الأولى : ١٤٠٦ هــــ –١٩٨٦ م . دار المــدني : ١٩٠/١ النّهاية في غريب الحديث : ١٥٥/١ . عون المعبود : ١١٥/١٣ الطّبعة الثّانيــة ١٤١٥ هــــــ طبعــة دار الكتب العلميّة . بذل المجهود في حل أبي داود . للشّيخ خليل أحمد السّهارنفوري مع تعليق العلامة محمّد زكريا بن يحي الكاندهلوي . طبع شركة الطّباعة العربية السّعودية المحدودة . نشر دار اللّواء . الرّياض : ٦٨/١٩.

(٥) الفَــيْءُ: الغَنــيمةُ. والــخراجُ. تقول : أفاءَ اللّهُ علــى الــمُسْلِـمِينَ مالَ الكفّار يُفِــيءُ إفاءَةً. وهــو مــا يَحْصَلُ لِلــمُسْلِـمينَ من أموالِ الكفّار من غير حَرْبٍ ولا جِهاد. وأَصْلُ الفَــيْءِ: الرّجوعُ. كأنّه كــانَ فــي الأَصْلِ لهم فَرَجَعَ إلَــيهم . ومنه قــيل للظِّلِّ الّذي يكون بعدَ الزّوالِ فَــيْءٌ لأنّه يَرْجِعُ من جــانِب الغَــرْب إلــى جانب الشّرْق . لسان العرب: ١٢٦/١. بتصرّف يسير . و انظر: القاموس المحيط: ص: ٦١.

فالرّجل وقِدَمه ، والرّجل وبلاؤه ، والرّجل وعياله ، والرّجل وحاجته "[١] .

فقوله : الرّجل وبلاؤه : أي مشقّته وسعيه في الحرب[٢] .

ومثله حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ يوم بدر : " عسى أن يعطى هذا من لا يُبْلي بلائي " . الحديث[٣] .

وممّا ورد بمعنى الإخبار أو الحلف ، ما جاء في حديث أمّ سلمة (رضي الله عنها) أنّ النّبي ﷺ قال : " إنّ من أصحابي من لا يراني بعد أن يفارقني " قال – القائل عبد الرّحمن بن عوف ﷺ – فأتى عمر فذكر ذلك له . قال : فأتاها عمر فقال: أذكّرك اللّه أمنهم أنا ؟ قالت: اللّهم لا، ولن أُبلي أحداً بعدك "[٤] .

---

(١) سنن أبي داود : بلفظه في كتاب الخراج والإمارة والفيء . باب فيما يلزم الإمام من أمر الرّعيّة والحجبة عنه: (١٣،١٢). برقم (٢٩٥٠). قال الألباني (رحمه اللّه) : " حسن موقوف " ص:٣٣٤.

سنن البيهقي: بلفظه إلاّ أحرف يسيرة. في باب ما جاء في قسمة ذلك – أي الفيء – على قدر الكفاية. ٣٤٦/٦-٣٤٧ . مسند أحمد : نحوه في:٤٢/١

(٢) انظر : عون المعبود : ١١٩/٨ . بذل المجهود : ٢٣٩/١٣ وانظر : النّهاية في غريب الحديث : ١٥٦/١

(٣) هذا جزء من حديث أصله في صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسّير: (٣٢). باب الأنفال: (١٢). برقم: (١٧٤٨) . ١٣٦٧/٣-١٣٦٨. وهو في:

سنن أبي داود: بلفظ مقارب في كتاب الجهاد: (١٥). باب في النّفل: (١٤٤/١٤٥). برقم: (٢٧٤٠). قال الألباني (رحمه اللّه) : " حسن صحيح". ص: ٣٠٩.

سنن التّرمذي: بلفظه في كتاب تفسير القرآن: (٤٣). باب ومن سورة الأنفال: (٨). برقم: (٣٠٧٩). وقال: "هذا حديث حسن صحيح". و قال الألباني (رحمه اللّه) : " حسن صحيح". ص: ٤٨٩-٤٩٠.

سنن البيهقي: بلفظ مقارب في باب بيان مصرف الغنيمة في ابتداء الإسلام. ٢٩١/٦.

مسند أحمد: بلفظ مقارب في : ١٧٨/١. قال أحمد شاكر (رحمه اللّه): " إسناده صحيح". مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٦٩/٣. برقم: (١٥٣٨).

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في : ١٤٤/٢. وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه". وقال الذّهبي : " صحيح".

مسند أبي يعلى . نحوه في: ٨٤/٢. برقم: (٧٣٥).

(٤) مسند أحمد: بلفظه في : ٣٠٧/٦. ونحوه في: ٢٩٨،٣١٢/٦.

الطّبراني في الكبير: نحوه في: ٣١٧/٢٣. برقم: (٧١٩). ورجال أحمد ثقات .

أي لن أخبر أحداً بعدك . ويمكن أنّها حلفت له بيمين طيّبت بها نفسه ،فيكون البلاء بمعنى الحلف [١] .

كما ورد بمعنى الاختيار في حديث حذيفة ، عندما أقيمت الصّلاة فتدافعوا فتقدّم حذيفة ﷺ فصلّى بهم ، ثمّ قال : " لَتَبْتَلُنَّ لها إماماً غيري أو لَتُصَلُّنَّ وُحداناً " [٢] . أي لَتَخْتَارُنَّ لها إماماً غيري [٣] .

(١) انظر : المجموع المغيث : ١/١٨٨ . التّهاية في غريب الحديث : ١/١٥٦

(٢) سنن البيهقي: بلفظه في : باب كراهيّة الإمامة. ٣/١٢٧.

مصنّف عبد الرّزاق: لأبي بكر عبد الرّزاق بن همّام الصّنعاني . طبعة المكتب الإسلامي . الطّبعة الثّانية :١٤٠٣هـ تحقيق : حبيب الرّحمن الأعظمي : بلفظ مقارب في باب الإمامة وما كان فيها. برقم: (١٨٧٩). ١/٤٨٩.

(٣) انظر : كتاب الغريبين : ١/٢١٠ . التّهاية في غريب الحديث : ١/١٥٦-١٥٧

الفصل الثاني

ابتلاء الإنسان سنّة من سنن اللّه في الكون

لقد خلق اللّه عزّ وجلّ هذا الإنسان وكرّمه في هذه الحياة ، وعظّم شأنه ورفع قدره ، وبسط عليه فضله كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء:٧٠].

ولم يخلقه عبثاً ، ولم يتركه سدىً ، ولم يوجده هملاً ، كما قال : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون:١١٥]

وقال : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾ [القيامة:٣٦].

وخلق له السّماوات والأرض ، ورتّب فيهما جميع ما يحتاج إليه من مبادئ الحياة وأسباب المعاش ، وبثّ بينهما من آياته الدّالة على كمال قدرته سبحانه وعظيم سلطانه ، بل وسخّر له الكون علويه وسفليه ليحقّق هذا الإنسان حكمة وجوده ، وغاية خلقه وهي سنّة الابتلاء .

فقال تعالى في تسخير ما في الكون له : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَـٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

[إبراهيم:٣٢-٣٤].

وقال في خلق ذلك من أجل الابتلاء : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ [هود:٧] (١) .

فوجود ذلك الخلق ، وهذا التّسخير ليستشعر الإنسان عظمة هذا الابتلاء وجدّيته وأهمّية وجوده (٢) .

كما جعل سبحانه هذه الدّنيا بأسرها داراً للابتلاء والاختبار ، وهيّأها بالوسائل المعينة على تحقّقه واستمراره . فجعل ما على الأرض من أنواع المنافع ، وتعدّد المصالح ، وما فيها من زخارف وبهارج ومحاسن كلّ ذلك من أجل الابتلاء .

فقال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ [الكهف:٧-٨] (٣) .

وقد أوجد اللّه الإنسان من العدم ، وأخرجه إلى هذه الأرض ليحيا عليها من أجل الابتلاء ، ثمّ ينتقل منها إلى دار أخرى لينال عاقبة الابتلاء . فحياته وموته من أجل الابتلاء .

---

(١) انظر معنى الآية في : الكشّاف : ٢٩٧/٢ " طبعة الاستقامة " . تفسير القرآن العظيم : ٦٧٨/٢ . تفسير أبي السّعود : ١٨٧/٤-١٨٨ . روح المعاني : ١٠/١٢ . محاسن التّأويل : ٣٤١٢/٩-٣٤١٣

(٢) انظر : في ظلال القرآن : ١٨٥٨/٤

(٣) انظر معنى الآية في : جامع البيان : ١٩٥/١٥-١٩٦ " طبعة الحلبي " . الكشّاف : ٥٤٩/٢ . المحرر الوجيز : ٢٣٤/٩-٢٣٥ . التّفسير الكبير : ٨٠/٢١-٨١ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٥٤/١٠ . تفسير القرآن العظيم : ١١٨/٣-١١٩ . تفسير أبي السّعود : ٢٠٤/٥-٢٠٥ . روح المعاني : ٢٠٦/١٥-٢٠٧ . محاسن التّأويل : ٤٠٢٤/١١ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٤٢٠-٤٢١ . في ظلال القرآن : ٢٢٦٠/٤

قال تعالى : ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ [الملك:١-٢] . (١)

والإنسان هو الّذي استخلفه اللّه في هذه الأرض ، وملّكه إيّاها ، وجعل له حقّ التّصرّف فيها ، والقيام بعمارتها ، وأبقى فيها نوعه ، يخلف بعضهم بعضاً ، جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، وخلفاً بعد سلف . وخالف بين أحوالهم في الخلق والعقل والرّزق والقوّة والبسطة والعلم والفضل . كلّ ذلك لتتحقّق سنّة الابتلاء ، ويتحقّق استمرارها .

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمۡ خَلَـٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمُۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٥] (٢).

وقد خلقه اللّه طوراً إثر طور ، وحالاً بعد حال ، حتّى استقام عوده ، وكمل خلقه ، بعد أن كان شيئاً حقيراً بل لم يكن شيئاً . وزوّده بوسائل الإدراك ليميّز بها غاية وجوده وحكمة خلقه ، ويتمكّن بواسطتها من اجتياز مدّة الابتلاء والاختبار ، ويحقّق الهدف المرجو من وجوده .

---

(١) انظر معنى الآية في : التّفسير الكبير : ٣٠/٥٤-٥٦ . تفسير القرآن العظيم : ٤/٦١٩ . تفسير أبي السّعود : ٩/٢-٣ . روح المعاني : ٢٩/٤-٥ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٨١٠ .

(٢) انظر معنى الآية في : جامع البيان : ١٢/٢٨٧-٢٨٩ " طبعة شاكر " . الكشّاف : ٢/٦٦ " طبعة الاستقامة " . المحرر الوجيز : ٥/٤٢١ . التّفسير الكبير : ١٤/١٣ . الجامع لأحاكم القرآن : ٧/١٥٨ . تفسير القرآن العظيم : ٤/٣٢٠ . تفسير أبي السّعود : ٣/٢٠٨ . محاسن التّأويل : ٦/٢٥٩٦-٢٥٩٧ .

قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ ﴾ [الإنسان:١-٣]. (١)

واللّه لم يوجده مجرّداً عن ما يعينه على تحقيق الحكمة الّتي أوجد بسببها ومن أجلها ، بل وهبه من الوسائل والعوامل الّتي يتمكّن بها من أن يجتاز سنّة الابتلاء ويتعدّى مرحلة الاختبار .

وتلك الوسائل والعوامل هي :

❁ *أولاً : الفطرة :*

الْفَطْر في اللّغة : هو الشّق ، وفطر اللّه الخلق : خلقهم وبرأهم . وفطر الأمر : ابتدأه وأنشأه (٢) .

وأمّا الفطرة في الشّرع ، فقد اختلفت عبارة السّلف في المراد بها . والأشهر من أقوالهم والأرجح أنّ المراد بها الإسلام (٣) .

يؤيّد ذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠ ﴾ [الروم:٣٠] .

فقد أمر اللّه رسوله ﷺ أن يسدّد وجهه ، ويستمر على الدّين الّذي شرعه اللّه له ، وهو دين إبراهيم عليه السّلام ، وهو الملّة الحنيفيّة ، وهو الإسلام المركوز في

---

(١) انظر معنى الآية في : الكشّاف : ١٩٤/٤-١٩٥ " طبعة الحلبي " . الجامع لأحكام القرآن : ١٢١/١٩-١٢٢ . تفسير القرآن العظيم : ٧١٠/٤-٧١١ . تفسير أبي السّعود : ٧٠/٩ . روح المعاني : ١٥٢/٢٩-١٥٣ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٨٣٣-٨٣٤ . في ظلال القرآن : ٣٧٨٠/٦ . والأمشاج . هي : الأخلاط .

(٢) انظر : القاموس المحيط : ص: ٥٨٧ . وانظر : المفردات : ص : ٣٨٢ .

(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢٥/١٤ . مجموعة الرّسائل الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية : الرّسالة الرّابعة عشر في الكلام على الفطرة . مطبعة محمّد عليّ صبيح وأولاده بالأزهر . ١٣٨٦ هـ — ١٩٦٦ م . فتح الباري : ٦١٩/٣

الفطر ، الّذي فطر اللّه خلقه عليه ، وهو الدّين المستقيم الّذي لا يبدّل ولا يغيّر[1] .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" فبيّن سبحانه أنّ إقامة الوجه وهو إخلاص القصد وبذل الوسع لدينه ، المتضمّن محبّته وعبادته ، حنيفاً مقبلاً عليه ، معرضاً عمّا سواه هو فطرته الّتي فطر عليها عباده . فلو خلوا ودواعي فطرهم لما رغبوا عن ذلك ولا اختاروا سواه " [2] .

ولكن مع ذلك قد يطرأ على الفطرة ما يغيّرها ويبدّلها ، ويفسد سلامتها واستقامتها .

عن أبي هريرة ﷺ أنّه كان يقول : قال رسول اللّه ﷺ : " ما من مولود إلاّ يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويُمَجِّسَانِه[3] . كما تُنْتَج[4] البهيمةُ بهيمةً جمعاء[5] هل تحسون فيها من جَدْعَاء[6] ؟ " ثمّ يقول أبو هريرة : واقرؤا إن شئتم : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم:٣٠] [7] .

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم : ٣/٦٨٨-٦٨٩

(٢) مفتاح دار السّعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة : لابن قيّم الجوزيّة . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت : ٢/٨٧ . الضّوء المنير على التّفسير : جمعه عليّ الحمد المحمّد الصّالحي من كتب الإمام ابن القيّم . مؤسّسة النّور بعنيزة مع التّعاون مع مكتبة دار السّلام بالرّياض : ٤/٥٢٩-٥٣٠

(٣) من المجوسيّة . وقد سبق تعريفها. انظر: ص: ٨٣ .

(٤) كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاء : أي تَلِدُ . يقال : نُتِجَت النّاقةُ إذا وَلَدتْ فهي مَنْتُوجة ، وأنْتَجَت إذا حَملتْ فهي نَتُوج . ولا يقال : مُنْتِج . ونَتَجْتُ النّاقةَ أنْتِجُها : إذا وَلّدْتُها ، والنّاتِج للإبل كالقابلة للنّساء . النّهاية في غريب الحديث: ٥/١٢.

(٥) جَمْعَاءَ : أي سَلِيمه من العيوب ، مُجْتمِعَة الأعْضاء كاملَتها ، فلا جَدْعَ بها وَلاَ كَي . النّهاية في غريب الحديث: ١/٢٩٦. وانظر : الفائق: ٣/١٢٧.

(٦) جدعاء : هي المجدوعة الأنف . غريب الحديث للهروي : ١/١٠١.

(٧) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في كتاب الجنائز: (٢٣/٦). باب إذا أسلم الصّبي فمات هل يصلّى عليه . وهل يعرض على الصّبي الإسلام: (٧٩). برقم: (١٣٥٨. ١٣٥٩). ص: ٢٨٥. وفي كتاب التّفسير : (٦٥/٣٩). باب ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الرّوم:٣٠] : (٠/٢). برقم: (٤٧٧٥). ص: ١٠٢٨.

وفي حديث عياض بن حمار المُجاشِعيّ رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خُطبته : " ألا إنّ ربّي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم ممّا علّمني يومي هذا . كلّ مال نحلته [١] عبداً حلال . وإنّي خلقت عبادي حنفاء [٢] كلّهم ، وإنّهم أتتهم

ونحوه في: كتاب الجنائز: (٦/٢٣). باب ما قيل في أولاد المشركين: (٩٢). برقم: (١٣٨٥). ص: ٢٩٠-٢٩١.
وفي كتاب القدر: (٨٢/٥٦) . باب الله أعلم بما كانوا عاملين: (٣). برقم: (٦٥٩٩). ص: ١٣٩٩.
صحيح مسلم: بلفظه وبنحوه في: كتاب القدر: (٤٦). باب معنى كلّ مولود يولد على الفطرة . وحكم موت أطفال الكفّار وأطفال المسلمين: (٦). برقم: (٢٦٥٨). ٤/ ٢٠٤٧-٢٠٤٨.
قال ابن قتيبة (رحمه الله):
" أمّا قوله : " كلّ مولود يولد على الفِطْرة " : فإنّه يريد: أنّه يولد على الإقْرار بالله ، وهو الميثاق الّذي أخذه الله عليهم حين أخرجهم من ظهر آدم أمثال الذّر وأشْهَدَهم على أنفسهم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف:١٧٢]. فالنّاس جميعاً وإن اختلفوا في أديانهم ونِحَلهم عالمون بأنّ الله عزّ وجلّ خالقهم . والفِطْرة ابْتداء الخِلْقة ومنه قول الله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [فاطر:١] أي مبتدئهما... والبَهيمةُ الجَمْعاء هي السّليمة ، سُمّيَتْ بذلك لاجْتماع السّلامة لها في أعضائها... وشبّه المولود حين يُولَد في سَلامته من الكُفْر بها، ثمّ يُهَوِّد اليهود أبناءَهم ويُنَصِّر النّصارى أبناءَهم أي يعلّمونهم ذلك كما كانت الجاهليّة تقطَعُ آذان البَهائم السّليمة وتفْقأ عُيونَها " .غريب الحديث لابن قتيبة: ١/٣٥٠-٣٥١.
وانظر معنى الحديث في : النّهاية في غريب الحديث : ٤٥٧/٣ . شرح النّووي على مسلم : ٢٠٧/١٦-٢٠٩ . فتح الباري : ٦١٩/٣-٦٢٢

(١) النُّحْل . بالضّم: إعْطاؤك الإنسانَ شيئاً بلا اسْتِعاضةٍ. وعمَّ به بعضهم جميعَ أنواع العَطاء. وقيل: هو الشّيء المُعْطى. وقد أنْحَله مالاً و نَحَله إيّاه. وأبى بعضُهم هذه الأخيرة. و نُحْل المرأة: مَهْرُها. والاسم النِّحْلة. تقول: أعطيتها مهرَها نِحْلة. بالكسر. إذا لم تُردمنها عِوَضاً. لسان العرب: ١١/ ٦٥٠.
وانظر: مختار الصّحاح: ص:٦٤٩. القاموس المحيط: ص:١٣٧١.

(٢) حُنَفاءَ : أي طاهِري الأعْضاء من المعاصي، لاَ أنّه خَلَقهم كُلّهم مُسْلِمين ، لقوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ [التّغابن:٢]. وقيل أراد أنّه خلقهم حُنَفاءَ مؤمنين لّما أخذ عليهم الميثاق ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف:١٧٢]. فلا يَوجَدُ أحَدٌ إلاّ وهو مُقِرٌّ بأنّ له ربّاً وإنْ أشْرك به، واخْتَلَفوا فيه. والحُنَفاء جمع حَنيف: وهو المائِل إلى الإسلام الثّابت عليه والحَنيف عند العرب: من كان على دين إبراهيم عليه السّلام. وأصْل الحَنف المَيْلُ . النّهاية في غريب الحديث ١ / ٤٥١.

الشّياطين فاجتالتهم[1] عن دينهم ، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزّل به سلطاناً ... " الحديث[2] .

فاللّه سبحانه فطر عباده على محبّته وعبادته وحده ، فإذا تركت الفطرة بلا فساد كان القلب عارفاً باللّه محبّاً له ، عابداً له وحده . لكن تفسد فطرته من مرضه فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه ، وهذه كلّها تغيّر فطرته الّتي فطر عليها ، وإن كانت بقضاء اللّه وقدره ، كما يغيّر البدن بالجوع ، ثمّ قد يعود إلى الفطرة إذا يسّر اللّه تعالى لها من يسعى في إعادتها إلى الفطرة .

والرّسل صلّى اللّه عليهم وسلم بعثوا لتقرير الفطرة وتكميلها لا لتغيير الفطرة وتحويلها ، وإذا كان القلب محبّاً لله وحده مخلصاً له الدّين لم يبتل بحبّ غيره أصلاً [3].

فالإنسان إذا لم تفسد فطرته يكون مجبولاً على سلوك الطّريق الّذي يجتاز به مرحلة الابتلاء ، ويحقّق بذلك الغاية الّتي خلق من أجلها .

❁ *ثانيًا : العقل والسّمع والبصر :*

إنّ اللّه تعالى منّ على الإنسان بنعم شتّى . ومن أعظم تلك النّعم نعمة العقل الّذي يميّز به ، وهو الّذي اختصّه به دون الحيوان البهيم ، كما وهبه نعمة السّمع ونعمة البصر . فقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل:٧٨].

وقال : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الملك:٢٣] .

---

(١) فاجتالتهم الشّياطين : أي استخفّتهم فجالوا معهم في الضّلال . يقال جال واجتال : إذا ذهب وجاء ومنه الجولان في الحرب ، واجتال الشّيءَ إذا ذهب به وساقه ، والجائل الزّائل عن مكانه . وروي بالحاء المهملة . النّهاية في غريب الحديث : ١ / ٣١٧.

(٢) صحيح مسلم : بلفظه في كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها : (٥١) . باب الصّفات الّتي يعرف بها في الدّنيا أهل الجنّة وأهل النّار : (١٦) . برقم (٢٨٦٥) . ٤/٢١٩٧ .

(٣) مجموع الفتاوى : ١٠/١٣٥ . وانظر : ١٤/٢٩٦

وهذه الحواس هي أعظم المدارك لاستيعاب أمر الابتلاء وتحقيق غايته .

قال سيّد قطب (رحمه الله) :

" إنّ اللّه لم ينشئ البشر ويمنحهم هذه الخصائص عبثاً ولا جزافاً لغير قصد ولا غاية ، إنّما هي فرصة الحياة للابتلاء " [(١)] .

ولذلك ربط اللّه سبحانه بين قضيّة الابتلاء وبين هذه المدارك ليبيّن لنا أنّها الوسائل الّتي يستطيع الإنسان من خلالها أن يحقّق غايته الّتي خلق من أجلها .

فقال سبحانه : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الإنسان:٢].

فعلى الإنسان أن يستخدم هذه الحواس استخداماً صحيحاً خالياً من الآفات الّتي تعطّل ما فيها من الاستعداد الفطري حتّى يتمكّن من اجتياز عقبة الابتلاء على مواد اللّه .

ولهذا عاتب سبحانه لفيفاً عظيماً من هذه البشريّة عطّلوا هذه الحواس عن منافعها وغايتها فانحدروا إلى حضيض البهيميّة بل تجاوزوا ذلك بمراحل .

إذ البهيميّة تؤدّي ما أسند إليها من وظائف أداءً صحيحاً على قدر ما أودع فيها من خصائص . وأمّا الإنسان قد يعطّل تلك المدارك فلا يؤدّي ما أسند إليه من مهام أنيطت به ، فعندها ينحطّ مقامه فيكون أسوأ من الأنعام .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وقال في الآية الأخرى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان:٤٤].

---

(١) في ظلال القرآن : ٣٦٤٦/٦

ومن هنا كانت المسئوليّة عظيمة جداً على من عطّـــل هـــذه الحـــواس ، أو استخدمها اســـتخداماً ســـيّئاً ينـــافي الأداء السّـــليم الّـــذي خلقـــت وهيّئـــت لـــه .

فقال ســبحانه : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء:٣٦].

وهناك يعود المعطّلون للانتفاع بها بالملامة على أنفسهم ، ويندمون حيـــث لا ينفع النّدم ولا يجدي اللّوم فتيلاً (١) .

قال تعـــالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾ [الملك:١٠-١١].

قال العلامة ابن كثير (رحمه الله) :

" أي لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزله اللّه من الحقّ ، لما كنّـــا على ما كنّا عليه من الكفر باللّه والاغترار به ، ولكن لم يكن لنا فهم نعي بــــه مـــا جاءت به الرّسل ، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتّباعهم " (٢) .

فهؤلاء فشلوا في اجتياز عقبة الابتلاء حيث لم ينتفعـــوا مـــن عقولـــهم وأســـماعهم وأبصارهم .

❁ ثالثاً : الهداية :

لمّا أهبط اللّه آدم عليه السّلام من الجنّة إلى دار الابتلاء والاختبـــار أعطـــاه عهداً له ولبنيه من بعده إن تمسّكوا به ردّهم تارة أخرى إلى جنّته .

---

(١) الفَتـــيل: حبل دقـــيق من لِـــيف أو عِرْق أو غير ذلك . و الفَتِـــيل و الفَتِـــيلة: ما فتلْتـــه بـــين أصـــابعك. وقـــيل: الفَتِـــيل ما يخرج من بـــين الإصبعين إذا فتلْتهما ، وما يكون فـــي شَقِّ النّواة . وفـــي التّتريل العزيـــز : ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النّساء:٤٩] . أي لا يظلمون قدر ما يكون بين شقّ النّواة. وهو يضـــرَب مثـــالاً للشّيء التّافِه الـــحقـــير القلـــيل . انظر: لسان العرب: ٥١٤/١١. وانظر: القاموس المحيط: ص: ١٣٤٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٦٢٠/٤

فقال سبحانه : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [البقرة:٣٨].

وفي الآيـــة الأخـــرى : ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه:١٢٣] (١) .

وعهده سبحانه هو هداية البيان والدّلالة الّتي أقام بها حجّته علـــى عبـــاده ، وميّز لهم بها بين الحقّ والباطل . وهي الّتي أرسل بها رسله وأنزل بها كتبه . فقـال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ [إبراهيم:٤].

وقـــال ســـبحانه : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [فصلت:١٧] (٢) .

وهي لا تخصّ الرّسل وحدهم بل لهم وللعلماء من بعدهم .

واللّه لا يعذّب أحداً من خلقه إلاّ بعد إيصال هذه الهداية إليه ، فيدعوه ســبحانه ويبيّن له طريق الحقّ من طريق الضّلال لتقوم بذلك حجّته علـــى الخلـــق وينتـــهي عذرهم .

فقال ســبحانه : ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء:١٥].

---

(١) انظر : مفتاح دار السّعادة ١/٣٢-٣٣ . الضّوء المنير : ١/٢٠٣-٢٠٤

(٢) انظر : مدارج السّالكين : ١/ ٤٢-٤٣. الضّوء المنير : ١/٦٨

وقال : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ [النساء:١٦٥] (١) .

فبهذه الهداية يميّز الإنسان طريق الحقّ الموصل إلى اللّه تعالى ، الّذي من سلكه حقّق مراد اللّه من خلقه وسبب جوده على الأرض ، ومن تنكّبه وسلك طريق الضّلال فشل في تحقيق الغاية الّتي وجد من أجلها وهي الابتلاء .

ولهذا لمّا كان الابتلاء يتوقّف تحقّقه على هذه الهداية الّتي تميّز بين الطّريقين ، وتدعو الإنسان لسلوك الطّريق الأقوم ، قرن اللّه بينها وبين الابتلاء في قرآنه . فقال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان:٢-٣].

ونحو ذلك قوله : ﴿ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البلد:١٠].

ومع كلّ هذا أعطى الإنسان حريّة الاختيار. فيسلك الطّريق الّذي أراده . وعلى ذلك ينبني أمر الثّواب والعقاب الأخروي .

وهذه العوامل الثّلاثة – أعني : الفطرة ومدارك الإنسان والهداية – بينهم رابطة وثيقة وعلاقة حميمة .

فالرّسل عليهم السّلام الّذين بعثوا بالهداية إنّما جاءوا مذكّرين بما في الفطرة ، مقرّرين لذلك ، مكمّلين له (٢) .

والهداية إنّما تتأتّى بواسطة العقل والسّمع والبصر(٣) .

والمؤمن يحسن الاختيار متى ما اختار طريق الخير وتجنّب طريق الشّر ، وذلك بانتفاعه بما وهبه اللّه من عقل وسمع وبصر فيميّز بهم ما يسعده ممّا يشقيه ،

---

(١) انظر : شفاء العليل : ص : ٨٠ .

(٢) انظر : التّبيان في أقسام القرآن لابن القيّم : تصحيح وتعليق طه يوسف شاهين . مكتبة القاهرة . دار الطّباعة المحمّدية بالأزهر : ص : ٣٩

(٣) انظر : مفتاح دار السّعادة : ١/١٠٧. الضّوء المنير : ٦/٣٦٣

منصاعاً في ذلك لما جاءه من قبل اللّه على أيدي رسله عليهم السّلام ، محافظاً على فطرته من الانحراف والتّبديل ، وهو بذلك يجتاز مرحلة الابتلاء ، بفوز ونجاح .

❁ وقد جاء الدّليل من كتاب اللّه عزّ وجلّ يبيّن أنّ الخلق إنّما خلقوا من أجل العبادة : فقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذّاريات:٥٦].

والعبادة هي اسم جامع لكلّ ما يحبّه اللّه ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظّاهرة .

وهي الغاية المحبوبة لله ، المرضيّة له ، الجامعة لكمال الحبّ مع كمال الخضوع والانقياد لأوامره سبحانه (١) .

ومن أجلها أرسلت الرّسل ، وأنزلت الكتب ، وشرعت الشّرائع . فما من رسول من رسل اللّه إلاّ ودعا قومه إليها فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ(٢) فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل:٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٥] (٣) .

ومقصود العبادة : ألاّ يعبد إلاّ اللّه ، وأن يعبد بما أمر وشرع ، لقوله سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن

(١) العبوديّة لشيخ الإسلام ابن تيمية : وهي الرّسالة الرّابعة عشرة من مجموعة التّوحيد " طبعة دار الفكر : ص : ٥٤٤-٥٤٥ . مجموع الفتاوى : ١٠/١٤٩-١٥٠، ١٥٣ .

(٢) الطّاغوت : هو كلّ متعدّ وكلّ معبود من دون اللّه . ويستعمل في الواحد والجمع . وأصله من طغى الّذي هو تجاوز الحدّ في العصيان. انظر: المفردات: ص: ٣٠٤-٣٠٥.

(٣) انظر الآيات من : سورة الأعراف : ٥٩، ٦٥، ٧٣ ، ٨٥ . سورة الأنبياء : ٩٢ . سورة الأحقاف : ٢١

كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف:١١٠]. وقوله تعالى : ﴿ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النساء:١٢٥] (١) .

وخلق الخلق من أجل العبادة لا ينافي ويعارض خلقهم من أجل الابتلاء ، لأنّ العبادة هي الّتي تظهر نتيجة الابتلاء ، وتبرز حقيقته إن كانت ثواباً أو عقاباً على حسب الطّائع أو العاصي (٢) . لأنّ حقيقة العبادة هي امتثال الأوامر واجتناب النّواهي .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" فأخبر سبحانه عن خلق العالم ، والموت والحياة ، وتزيين الأرض بما عليها أنّه للابتلاء والامتحان ليختبر خلقه أيّهم أحسن عملاً . فيكون عمله موافقاً لمحابّ الرّبّ تعالى ، فيوافق الغاية الّتي خلق هو لها وخلق لأجلها العالم ، وهي عبوديّته المتضمّنة لمحبّته وطاعته . وهي العمل الأحسن ، وهو مواقع محبّته ورضاه . وقدّر سبحانه مقادير تخالفها بحكمته في تقديرها ، وامتحن خلقه بين أمره وقدره ليبلوهم أيّهم أحسن عملاً " (٣) .

وسوف يأتي لهذا الأمر مزيد بيان في المبحث القادم بإذن اللّه .

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى : ١٠/١٧٢-١٧٤

(٢) انظر : الابتلاء في القرآن الكريم . رسالة دكتوراه . إعداد الطّالب : محمّد عبد العزيز خمادي الرّحالي . إشراف الدّكتور سمير عبد العزيز شيلوي . جامعة أمّ القرى . كليّة الدّعوة وأصول الدّين . قسم الكتاب والسّنّة . ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م . ص : ٣٦ .

(٣) روضة المحبّين : ص : ٦١

الفصل الثّالث

أنواع الابتلاء والحكمة منها

وفيه مبحثان :

المبحث الأوّل

الابتلاء بالتّكليف وحكمته .

التّكليف في اللّغة : من الكلَفة ، وهي : المشقّة .

قال الفيروزآبادي (رحمه الله) :

" التّكليف : الأمر بما يشقّ عليك ، وتكلّفه : تجشّمه . والمتكلّف : العرِّيض لما لا يعنيه . وحملتُهُ تكلفة إذا لم تُطقه إلاّ تكلّفاً [1] "

قالت الخنساء (رضي الله عنها) [2] :

يُكَلِّفُه القومُ ما عالهم ******* وإن كان أصغرَهم مولداً [3]

---

(١) القاموس المحيط : ص : ١٠٩٩ . وانظر : الصّحاح : ١٤٢٤/٤ . تاج العروس : ٤٦٥/١٢ . النّهاية في غريب الحديث : ١٩٦/٤ .

(٢) الخنساء : هي تماضر بنت عمرو بن الشّريد السّلميّة . الشّاعرة المشهورة. الصّحابية. أجمع أهل العلم بالشّعر أنّه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها . انظر: الإصابة: ٦١٣/٧.

(٣) ديوان الخنساء . طبعة : دار صادر . دار بيروت . بيروت . ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م : ٣٠ . وهي ترثي به أخاها صخراً . وقولها : عالهم : أي افتقروا إليه . انظر : القاموس المحيط : ص : ١٣٤٠ .

وأمّا التّكليف في الشّرع : فقيل : هو إلزام ما فيه مشقّة وكُلفة . وعلى هذا فلا يدخل في حدّه إلاّ الواجب [١] والحرام[٢] فقط .

وقيل : هو طلب ما فيه مشقّة وكُلفة ، وعليه يدخل في حدّه الواجب والمندوب[٣] والحرام والمكروه[٤] .

---

(١) الواجب : هو ما توعّد بالعقاب على تركه . وقيل : ما يعاقب تاركه . وقيل : ما يذمّ تاركه شرعاً.
روضة النّاظر : لعبد اللّه بن أحمد بن قدامة المقدسي . طبعة جامعة الإمام محمّد بن سعود . الرّياض . الطّبعة الثّانية ١٣٩٩هـ . تحقيق : د . عبد العزيز عبد الرّحمن السّعيد : ص: ٢٦. وانظر: المستصفى:لأبي حامد الغزالي . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . الطّبعة الأولى : ١٤١٣هـ . تحقيق : محمّد عبد السّلام عبد الشّافي : ص: ٥٣. المنخول: لأبي حامد الغزالي . طبعة دار الفكر . دمشق . الطّبعة الثّانية : ١٤٠٠هـ .تحقيق : د . محمّد حسن هيتو :ص: ١٣٦. الموافقات:لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشّاطبي . طبعة دار الفكر . ١٣٤١هـ : ١/٨٧-٨٨. إرشاد الفحول :لمحمّد بن عليّ الشّوكاني . طبعة دار الفكر . بيروت . الطّبعة الأولى : ١٤١٢هـ . ١٩٩٢م . تحقيق محمّد سعيد البدري : ص: ٢٣.

(٢) الحرام : هو ما يذمّ فاعله ويمدح تاركه ، ويقال له المحرّم والمحظور والمعصية والذّنب والمزجور عنه والمتوعّد عليه والقبيح . انظر : إرشاد الفحول: ص: ٢٤. و انظر: المستصفى: ص: ٢٣. المنخول: ص: ١٣٧. روضة النّاظر: ص: ٤١.

(٣) المندوب : النّدب في اللّغة الدّعاء إلى الفعل كما قال الشّاعر :

لا يسألون أخاهم حين يَنْدُبُهُمْ   في النّائبات على ما قال برهاناً

وحدّه في الشّرع : مأمور لا يلحق بتركه ذمّ من حيث تركه من غير حاجة إلى بدل . وقيل : هو ما في فعله ثواب ولا عقاب في تركه . روضة النّاظر: ص: ٣٥. وبيت الشّعر لقُرَيط بن أُنَيف أحد بني العنبر . انظر : ديوان الحماسة . لأبي تمّام حبيب بن أوس الطائي . (دون توثيق) : ١/٥ .

وقال الشّوكاني (رحمه اللّه):

"المندوب ما يمدح فاعله ولا يذمّ تاركه . وقيل : هو الّذي يكون فعله راجحاً في نظر الشّرع ، ويقال له مرغّب فيه ومستحبّ ونفل وتطوّع وإحسان وسنّة .وقيل : إنّه لا يقال له سنّة إلاّ إذا داوم عليه الشّارع كالوتر ورواتب الفرائض " . إرشاد الفحول: ص: ٢٤. و انظر: المستصفى: ص: ٥٣. المنخول: ص: ١٣٧. الموافقات: ١/٨٦، ٩٩.

(٤) المكروه : هو ما يمدح تاركه ولا يذمّ فاعله . ويقال بالاشتراك على أمور ثلاثة :على ما نُهي عنه نهي تنزيه وهو الّذي أشعر فاعله أنّ تركه خير من فعله . وعلى ترك الأولى كترك صلاة الضّحى . وعلى المحظور. إرشاد الفحول: ص: ٢٤ . وانظر: المستصفى: ص: ٥٣-٥٤. المنخول: ص: ١٣٧. روضة النّاظر: ص: ٤١. الموافقات: ١/٨٦.

ولذا قال صاحب مراقي السّعود في تعريفه :

وهو إلزام الّذي يشقّ ****** أو طلب فاه بكلّ خلق [١]

والطّلب يشمل الأمر والنّهي .

فالتّكليف إذن هو : خطاب الشّارع للمكلّفين بأمر أو نهي[٢]. والأمر قد يكون واجباً أو مندوباً ، كما أنّ النّهي قد يكون حراماً أو مكروهاً . وبالأمر والنّهي تتحقّق العبادة الّتي خلق الخلق من أجلها [٣] .

وليس المقصود بالعبادات المشقّة والكلفة بالقصد الأوّل ، وإن وقع ذلك ضمناً وتبعاً في بعضها لأسباب اقتضت ذلك لابد منها [٤] .

فالمشقّة الموجودة في العبادة والتّكاليف هي مشقّة معتادة .

واللّه سبحانه إذ ابتلى عباده بالأوامر والنّواهي الّتي هي التّكاليف ، لم يكن لمنفعة تعود عليه سبحانه ، بل أمرهم بما يعود نفعه ومصلحته عليهم في معاشهم ومعادهم ، ونهاهم عمّا يعود مضرّته عليهم في معاشهم ومعادهم . فحكمة ابتلائه مختصّة بهم [٥] .

وهو سبحانه علم أعمال عباده وأحوالهم وما هم إليه صائرون قبل أن يخلقهم ويوجدهم في دار الابتلاء ، ثمّ أخرجهم إليها ، وأرسل إليهم رسله ، وأنزل كتبه،

---

(١) نثر الورود على مراقي السّعود : للشّيخ محمّد الأمين بن محمّد المختار الشّنقيطي . ومراقي السّعود لعبد اللّه بن إبراهيم العلوي . تحقيق الدّكتور : محمّد ولد سيدي ولد حبيب الشّنقيطي . دار المنارة للنّشر والتّوزيع . الطّبعة الأولى : ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م : ٤٢/١-٤٣ . وانظر : البرهان في أصول الفقه لأبي المعالي عبد الملك بن عبد اللّه بن يوسف . تحقيق وتقديم دكتور : عبد العظيم الدّيب . طبعة قطر . الطّبعة الأولى : ١٣٩٩هـ : ١٠١/١

(٢) انظر : الإحكام في أصول الأحكام : لسيف الدّين أبي الحسن عليّ بن أبي عليّ بن محمّد الآمدي . مطبعة المعلوف بمصر . ١٣٣٢هـ – ١٩١٤م : ٢١٥/١ . نزهة الخاطر العاطر للشّيخ عبد القادر بن أحمد بن مصطفى بدران . شرح كتاب روضة النّاظر وجنّة المناظر . للشّيخ موفّق الدّين أبي محمّد عبد اللّه بن أحمد بن قدامة المقدسي . دار الكتب العلميّة . بيروت : ١٣٦/١ . وانظر : مجموع الفتاوى : ٣٤٤/١٠

(٣) انظر : شفاء العليل : ص : ٢٤٨

(٤) انظر : إغاثة اللّهفان : ٣١/١ . الضّوء المنير : ٤٥٧/٣ . وانظر في ذلك : المفردات : ص : ٤٣٩

(٥) انظر : شفاء العليل : ص : ٢٤٦ . إغاثة اللّهفان : ٣١/١ .

وشرع شرائعه ، فابتلاهم بأوامره ونواهيه ، وبالخير والشّر ليظهر معلومه الّذي علمه من قبل فيهم ، فيستحقّوا بذلك المدح أو الذّم ، والثّواب أو العقاب ، ويعذر اللّه إليهم بإقامة الحجّة عليهم (١) .

وهو بهذا الابتلاء يميّز بين المؤمن والكافر ، والمطيع والعاصي ، والصّادق والكاذب ، ومن يشكره ويعبده ومن يكفره ويعرض عنه .

قال سبحانه : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٧٩].

أي : ما كان اللّه تعالى ليدع المؤمنين مختلطين بالمنافقين والكفّار حتّى يميّز بينهم بما يشرعه من تكاليف لا يستجيب لها إلاّ المؤمنون الصّادقون ، فيُعْرَف عند ذلك المؤمن من غيره . ولو لم تكن التّكاليف هي الّتي تميّز بين أولئك لما استطاع أحد أن يميّز بينهم لأنّه من الغيب الّذي لا يمكن الاطلاع عليه إلاّ بواسطة رسل اللّه الّذين يوحى إليهم (٢) .

وهو سبحانه بهذا الابتلاء يعلم عباده المؤمنين ليجزيهم . وإن كان سبحانه يعلم ذلك قبل وقوعه ، ولكن اقتضى عدله وحمده أنّه لا يجزي العباد بمجرّد علمه فيهم حتّى يوجد معلومه ، ويتحقّق منهم فيقع الجزاء عليه . كما قال سبحانه : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٤٢].

---

(١) انظر : شفاء العليل : ص : ٢٤٦

(٢) انظر معنى الآية في : جامع البيان : ٤٢٤/٧-٤٢٧ " طبعة شاكر " . الكشّاف : ٤٨٣/١ "طبعة الحلبي" . التّفسير الكبير : ١١٠/٩-١١١ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٨٩/٤ . تفسير القرآن العظيم : ٦٤٩/١ . محاسن التّأويل : ١٠٤٤/٤-١٠٤٥ . زاد المعاد : ٢٢٠/٣

قال ابن كثير (رحمه الله) :

" أي لا يحصل لكم دخول الجنّة حتّى تبتلوا ويرى اللّه منكم المجاهدين في سبيله ، والصّابرين على مقاومة الأعداء " (١) .

واللّه تعالى جعل لعباده المؤمنين منازل في الجنّة أراد أن يكرمهم بها ، فابتلاهم بالتّكاليف المختلفة المتنوّعة لكي ينالوا بذلك أرفع المقامات وأسمى الدّرجات في عالي الجنّات . فلم يقف الأمر عند جزائهم بل تعدّى ذلك إلى رفع درجاتهم بالابتلاء .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" لولا هذا الابتلاء والامتحان لما ظهر فضل الصّبر والرّضا والتّوكّل والجهاد والعفّة والشّجاعة والحلم والعفو والصّفح . واللّه سبحانه يحبّ أن يكرم أولياءه بهذه الكمالات ، ويحبّ ظهورها عليهم ليثني بها عليهم هو وملائكته ، وينالوا باتّصافهم بها غاية الكرامة واللّذّة والسّرور ، وإن كانت مرة المبادئ فلا أحلى من عواقبها " (٢) .

كما ربط سبحانه تحقّق بعض الحكم بالابتلاء بتكاليف متعدّدة . أوامر ونواهي . الّتي لولا ذلك الابتلاء بتلك التّكاليف المتنوّعة لما تحقّقت . فقال في شأن إبراهيم عليه السّلام :

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة:١٢٤].

ولا خلاف بين العلماء أنّه ابتلاه بأوامر ونواهي كلّفه بالقيام بها ، فقام بذلك عليه السّلام خير قيام ، وأدّاهن أحسن تأدية ، من غير تفريط ولا توان . وإن كانوا قد اختلفوا في تعيين تلك الكلمات . ولم يأت ما يعيّنها فتبقى على الإطلاق .

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٦١٢/١ . وانظر : شفاء العليل : ص : ٢٤٥ . إغاثة اللّهفان : ١٨٨/٢

(٢) شفاء العليل : ص : ٢٤٤ . وانظر : زاد المعاد : ٢٢١/٣

قال ابن جرير (رحمه الله) :

" وكان اختبار اللّه تعالى ذكره إبراهيم اختباراً بفرائض فرضها عليه ، وأمر أمره به . وذلك هو الكلمات الّتي أوحاهنّ إليه ، وكلّفه العمل بهنّ امتحاناً منه له واختباراً[(١)] " .

فلمّا وفّى بذلك عليه السّلام جعله اللّه إماماً يقتدى به ، وأبقى له الثّناء الدّائم في الدّنيا ، وجعل في ذريته النّبوّة ، وأجزل له العطاء في الآخرة [(٢)] .

وكلّ هذه الحكم والغايات العظيمة إنّما حدثت له نتيجة لقيامه بتلك التّكاليف الّتي ابتلي بها .

ومن ذلك ما ابتلى اللّه به أصحاب طالوت عندما خرجوا لقتال جالوت وقومه ، فابتلاهم بالنّهي عن الشّرب من النّهر مع شدّة عطشهم واحتياجهم إلى الماء ، ولم يأذن إلاّ بغرفة [(٣)] ليرى طاعتهم وامتثالهم لنهيه فيتميّز عند ذلك الصّابر الّذي يثبت عند القتال من غيره .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة:٢٤٩].

قال الرّازي (رحمه الله) :

" المقصود من هذا الابتلاء أن يتميّز الصّدّيق عن الزّنديق [(٤)] ، والموافق عن المخالف ، فلمّا ذكر اللّه تعالى أنّ الّذين يكونون أهلاً لهذا القتال هم الّذين لا يشربون

---

(١) جامع البيان : ٧/٣ . وانظر : ١٤/٣-١٥ " طبعة شاكر " .

(٢) انظر في معنى الآية : الكشّاف : ٣٠٨/١-٣٠٩ " طبعة الحلبي " . المحرر الوجيز : ٤٧٣/١ . الجامع لأحكام القرآن : ٩٦/٢-٩٧ . تفسير القرآن العظيم : ٢٤٥/١-٢٤٩ " وفيه تحقيق قيّم للمراد بالكلمات " . تفسير أبي السّعود : ١٥٤/١-١٥٥ . محاسن التّأويل : ٢٤٤/٢-٢٤٥ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٤٧ . وسوف يأتي مزيد بيان لابتلاء إبراهيم عليه السّلام والغايات الّتي تحقّقت له في النّماذج .

(٣) غرفة : الغَرْف: أخذ الماء باليد. والغَرْفة هي المرّة الواحدة منه. انظر: القاموس المحيط: ص: ١٠٨٧.

(٤) الزّنديق : من الزّندقة . وقد سبق بيانها . انظر : ص : ٨٠ .

من هذا النّهر ، وأنّ كلّ من شرب منه فإنّه لا يكون مأذوناً في هذا القتال ، وكـــان في قلبهم نفرة شديدة عن ذلك القتال ، لا جرم أقدموا على الشّرب ، فتميّز الموافــق عن المخالف ، والصّديق عن العدوّ " [1] .

ونحو هذا ما حدث لأصحاب القرية من بني إسرائيل الّذين حرّم اللّــه عليــهم صيد السّمك في يوم السّبت لأنّه يوم معظّم عندهم . فنهاهم اللّه عن الاصطياد فيـــه ابتلاء وامتحاناً لهم . فكانت الحيتان تكثر وتظهر فيه دون بقية الأيّام ابتلاء من اللّـــه لهم ليعلم امتثالهم لنهيه وانصياعهم لطاعته . ولكنّهم خالفوا النّهي فاحتالوا على صيد السّمك في اليوم المحرّم عليهم فمسخوا قردة.

قال تعـــالى : ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَـةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٦٣] [2] .

وفي ذلك يقول النّبي ﷺ في حديث أبي هريرة ﷺ : " لا ترتكبوا ما ارتكـــب اليهود فتستحلّوا محارم اللّه بأدنى الحيل " [3] .

وقد وقع نحو ذلك لصحابة النّبي ﷺ الّذين هم قدوة هذه الأمّة بعد نبيّهم ﷺ .

---

(١) التّفسير الكبير : ١٨٢/٦ . وانظر في معنى الآية : جامع البيان : ٣٣٨/٥-٣٤٩ " طبعـــة شـــاكر " . الجـــامع لأحكام القرآن : ٢٥١/٣ . تفسير القرآن العظيم : ٤٥٢/١ . تيسير الكـــريم الرّحمـــن : ص : ٩٠ . مجمـــوع الفتاوى : ١٤٥/١٤ .

(٢) انظر : الآيات بعدها . والآيتين : ٦٥-٦٦ من سورة البقرة . وقوله :﴿ شُرَّعًا ﴾ : أي شوارع ظاهرة علـــى الماء كثيرة . الجامع لأحكام القرآن : ٣٠٥/٧. وانظر معنى الآية في : الكشّاف : ١٣٤/٢ " طبعة الاســـتقامة " . المحرر الوجيز : ١١٤/٦-١١٦ . التفسير الكبير : ٣٦/١٥-٣٧ . الجامع لأحكـــام القـــرآن : ٣٠٥/٧-٣٠٦ . تفسير القرآن العظيم : ٤٠٨/٢ . تفسير أبي السّعود : ٢٨٤/٣-٢٨٥ . إغاثة اللّهفان : ٣١٧/٢-٣١٨ . أعـــلام الموقعين : ١٦٢/٣. الضّوء المنير : ٢١٨/١ .

(٣) هذا الحديث أورده ابن كثير (رحمه اللّه) في تفسيره . ونسبه إلى الإمام أبي عبد اللّه بن بطّة (رحمه اللّه) الّـذي رواه بإسناده . ثمّ قال ابن كثير (رحمه اللّه) : " وهذا إسناد جيّد ... ويصحّح التّرمذي بمثل هذا الإســـناد كثـــيراً " . تفسير القرآن العظيم: ٤٠٨/٢ .و لم أقف عليه في شيء من كتب الحديث الّتي رجعت إليها مع شهرته .

فقد ابتلاهم اللّه بأوامر ونواهي ليظهر امتثالهم لأمر اللّه واجتنابهم لنهيه ، ويتحقّق فيهم مراد اللّه من ذلك الابتلاء . من ذلك :

أنّ اللّه جلّ في علاه شرع للنّبيّ ﷺ أن يتوجّه أوّلاً بالصّلاة إلى بيت المقدس ثمّ صرفه عنه إلى الكعبة ليظهر حال من يتّبعه ويطيعه ويتّجه معه أينما اتّجه ممّن انقلب على عقبيه وارتدّ عن دينه . وإن كان صرف القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة أمراً عظيماً على النّفوس إلاّ إنّه سهل ميسور على الّذين هدى اللّه قلوبهم وصدّقوا برسول اللّه ﷺ ، وأيقنوا أنّ كلّ ما جاء به فهو حقّ ، وأنّ اللّه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وله أن يكلّف عباده بما شاء ، وله الحكمة التّامّة والحجّة البالغة [1] .

قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة:١٤٣].

روى ابن جرير (رحمه الله) بسنده إلى قتادة (رحمه الله) أنه قال :

" كانت القبلة فيها بلاء وتمحيص . صلّت الأنصار نحو بيت المقدس حولين قبل قدوم نبي اللّه ﷺ ، وصلّى نبي اللّه ﷺ بعد قدومه المدينة مهاجراً نحو بيت المقدس سبعة عشر شهراً ، ثمّ وجّهه اللّه بعد ذلك إلى الكعبة البيت الحرام . فقال في ذلك قائلون من النّاس : ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِم الَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ ﴾ [البقرة:١٤٢] . لقد اشتاق الرّجل إلى مولده . قال اللّه عزّ وجلّ : ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [البقرة:١٤٢] . فقال أناس – لمّا صرفت

(١) تفسير القرآن العظيم : ١/٢٨٥ بتصرّف .

القبلة نحو البيت الحرام : كيف بأعمالنا الّتي كنّا نعمل في قبلتنا الأولى ؟ فأنزل اللّه عزّ وجلّ : ﴿ ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ [البقرة:١٤٣] ".

وقد يبتلي اللّه العباد بما شاء من أمره ، الأمر بعد الأمر ، ليعلم مـن يطيعـه ممّن يعصيه ، وكلّ ذلك مقبول ، إذ كان في ذلك إيمان باللّه ، وإخلاص له ، وتسليم لقضائه " (١) .

ومن ذلك أنّ اللّه تعالى شرع لعباده الجهاد ، وهو تكليف عظيم ، وبيّن أنّه لـه فيه حكمة ، وهو اختباره لعبيده من يطيعه ممّن يعصيه .

فليس المراد من الجهاد القتال فقط ، وإنّما المراد الانقياد لأمر اللّـه تعـالى ، ولحكمه وتكليفه ، فيحصل حينئذ الانتفاع بذلك ، وينال المجاهد رضوان اللّه مع مـا يحصل عليه من أجر .

قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [التوبة:١٦] (٢) .

قال ابن جرير (رحمه الله) :

" أم حسبتم أيّها المؤمنون أن يترككم اللّه بغير محنة يمتحنكـم بـها ، وبغـير اختبار يختبركم به ، فيعرف الصّادق منكم في دينه من الكاذب فيه " (٣) .

ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يَشَـآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَـن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٤﴾ ﴾ [محمد:٤] .

---

(١) جامع البيان : ١٥٧/٣ " طبعة شاكر " .

(٢) قال في القاموس المحيط : " الوليجة الدّخيلة. وخاصّتك من الرّجال . أو من تتّخذه معتمداً عليه من غير أهلـك . وهو وليجتهم أي لصيق بهم ". ص: ٢٦٧. وانظر: المفردات: ص: ٥٣٢. والمراد هنا البطانة من غير المسلمين .

(٣) جامع البيان : ٩٢/١٠ " طبعة الحلبي " . وانظر في معنى الآية : الكشّـاف : ١٩٨/٢ " طبعـة الاسـتقامة " . التفسير الكبير : ٦/١٦ . الجامع لأحكام القرآن : ٨٨/٨ . تفسير القرآن العظيم : ٥٣٢/٢ . تفسير أبي السّعود : ٤٩/٤ . روح المعاني : ٦٣/١٠-٦٤ . محاسن التّأويل : ٣٠٨٤/٨ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٩١ .

أي : لو شاء اللّه لانتصر من المشركين بغير قتال وكفى المؤمنين ذلك كلّه ، ولكنّه سبحانه أمر المؤمنين بالجهاد ليعلم المطيع الصّابر فيثيبه ، ويعاقب بأيدي المؤمنين من شاء منهم حتّى ينيبوا إلى اللّه .

ومثلها قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد:٣١] (١) .

ومثال ما جاء في الابتلاء بالنّهي لهذه الأمّة قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة:٩٤] .

والآية كما جاء في سبب نزولها أنّها نزلت في عمرة الحديبية حيث ابتلى اللّه عزّ وجلّ المؤمنين بالصّيد وهم محرمون ، فيغشاهم في رحالهم ، فكانوا متمكّنين من صيده أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم ، ولكنّ اللّه نهاهم عن ذلك لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره وجهره من معصية العاصي (٢) .

عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) قال : في قوله تعالى : ﴿ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾. هو الضّعيف من الصّيد وصغيره ، يبتلي اللّه تعالى ذكره به عباده في إحرامهم ، حتّى لو شاءوا نالوه بأيديهم ، فنهاهم اللّه أن يقربوه " (٣) .

---

(١) وانظر في معنى الآيتين : جامع البيان : ٤٣/٢٦ ، ٦١ " طبعة الحلبي " . الكشّاف : ٥٣١/٣ " طبعة الحلبي " . التّفسير الكبير : ٤٦/٢٨-٤٧ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٢٩/١٦-٢٣٠ ، ٢٥٣-٢٥٤ . تفسير القرآن العظيم : ٢٦٦/٤ ، ٢٧٧ . تفسير أبي السّعود : ٩٣/٨ ، ١٠١ . روح المعاني : ٤٢/٢٦ ، ٧٨ . محاسن التّأويل : ٥٣٧٨/١٥ . تيسير الكريم الرّحمن : ص:٧٣٠ ، ٧٣٤ .

(٢) انظر في معنى الآية : جامع البيان : ٥٨٢/١٠-٥٨٥ " طبعة الحلبي " . الكشّاف : ٦٤٣/١-٦٤٤ ."طبعة الحلبي" . المحرر الوجيز : ٣٤/٥ . التّفسير الكبير : ٨٥/١٢ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٩٩/٦-٣٠٠ . تفسير القرآن العظيم : ١٥٧/٢ . تفسير أبي السّعود : ٧٨/٣ . روح المعاني : ٢١/٧-٢٢ .محاسن التّأويل : ٢١٥٣/٦. تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٠٦ .

(٣) جامع البيان: ٣٩/٧. (طبعة دار الفكر) . تفسير القرآن العظيم: ١٥٧/٢

المبحث الثّاني

الابتلاء بالنّعم والمصائب وحكمته

إنّ الله تعالى شاء وأراد أن يبتلي عباده بالنّعم والنّقم ، والمنح والمحن وله في ذلك الحكم البالغة والحمد التّام ، وإن كانت عقول العباد لا تدرك كثيراً ممّا في ذلك الابتلاء من عواقب حميدة وحكم عظيمة .

فإنّ لله عبودية على عباده فيما ابتلاهم به من مصائب ، كما له عبودية فيما ابتلاهم به من نعم ، فعلى العباد أن يحقّقوا عبادة اللّه في ذلك [1] .

قال سليمان عليه السّلام فيما ذكره ربّه سبحانه عنه : ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل:٤٠].

أي ما أعطاني اللّه من التّمكّن والملك والسّلطان الّذي أنا فيه حتّى حُمل إليّ عرش من اليمن إلى الشّام في قدر ارتداد الطّرف لهو فضل عظيم ونعمة جزيلة من اللّه ، جاد عليّ بها ليختبرني أأشكره على ذلك أم أكفره ، ومن شكر فإنّما ينفع نفسه ، ومن كفر فإنّما يضرّها واللّه غني عن كلّ ذلك [2] .

ولهذا عدّد اللّه ابتلاءاته على عباده بنعمه ، كما نوّعها عليهم بنقمه ، وقرن ذلك بكثير من حكمه . فقال سبحانه :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٥] .

---

(١) انظر : طريق الهجرتين وباب السّعادتين لابن القيّم . طبعة دار ابن القيّم . الدّمام . الطّبعة الثّانية : ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م . تحقيق : عمر بن محمود أبي عمر : ص : ٤٠٢ . ٤١٧ . عدّة الصّابرين وذخيرة الشّاكرين : لابن القيّم . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . تحقيق زكريا عليّ يوسف : ص : ٩ .

(٢) انظر : جامع البيان : ١٦٥/١٩ . " طبعة الحلبي " .

قال ابن عبّاس (رضي الله عنهما) :

" نبتليكم بالشّدّة والرّخاء ، والصّحة والسّقم ، والغنى والفقر ، والحلال والحرام ، والطّاعة والمعصية ، والهدى والضّلال . وإلينا يردّون فيجازون بأعمالهم ، حسنها وسيّئها " .

وقال ابن زيد (رحمه الله) :

" نبلوهم بما يحبّون وبما يكرهون ، نختبرهم بذلك ، لننظر كيف شكرهم فيما يحبّون ، وكيف صبرهم فيما يكرهون " [(١)] .

وقول ابن زيد (رحمه الله) أعمّ من قول ابن عبّاس (رضي الله عنهما) .

ولذا قال ابن عطيّة (رحمه الله) :

" والظّاهر أنّ المراد من الخير والشّرّ هنا كلّ ما يصحّ أن يكون فتنة وابتلاء ، وذلك خير المال وشرّه ، وخير البدن وشرّه ، وخير الدّنيا في الحياة وشرّها " [(٢)] .

ثمّ استبعد دخول الهدى والضّلال والأوامر والنّواهي في معنى الآية [(٣)] .

ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٨].

أي اختبرناهم بالرّخاء والشّدّة ، والرّغبة والرّهبة ، والعافية والبلاء لعلّهم ينيبون إلى اللّه ويرجعون إليه [(٤)] .

---

(١) جامع البيان : ٢٥/١٧ . " طبعة الحلبي " .

(٢) المحرر الوجيز : ١٤٦/١٠-١٤٧ .

(٣) انظر : المرجع السّابق : ١٤٧/١٠ . وانظر في معنى الآية : الكشّاف : ٩٢/٣ " طبعة الاستقامة " . التّفسير الكبير : ١٦٩/٢٢ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٨٧/١١ . تفسير القرآن العظيم : ٢٨٦/٣ . تفسير أبي السّعود : ٦٦/٦ . روح المعاني : ٤٧/١٧ . عدّة الصّابرين : ص : ١٣٢ .

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم : ٤١٢/٢ .

وهذه كقوله تعـــالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الأعراف:٩٤-٩٥].

أي جرت سنّة اللّه تعالى أنّه يبتلي الأمم الّتي أرسل إليها الرّسل بالبأساء ، وهي ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام ، وبالضّراء وهي ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك لعلهم يخشعون إلى اللّه ، ويدعونه ويبتهلون له في كشف ما نزل بهم ، فلمّا لم يفعلوا ما أردنا منهم قلبنا عليهم الحال فأبدلنا الشدّة رخاء ، والمرض والسّقم صحّة وعافية ، والفقر غنى ليشكروا وينيبوا إلى اللّه ، فما فعلوا هذا ولا ذلك ولا استشعروا ابتلاء اللّه لهم في الحالين ، وإنّما زعموا أنّ تلك عادة جارية في الأوّلين واللاّحقين ، فتارة يكونون في سرّاء ، وأخرى في ضرّاء إذ هي تقلّبات الزّمن . عند ذلك أخذناهم بالعذاب بغتة وهم في غفلة لا يشعرون [١] .

فابتلاء اللّه للعباد بالنّعم وسعة الرّزق لا يدلّ على إكرامه وتفضيله لهم ، كما أنّ ابتلاءهم بالمصائب وتقتير الرّزق وتضييقه ليس إهانة وإذلالاً لهم . بل إنّما ذلك للاختبار والامتحان لتظهر طاعة الطّائع من معصية العاصي . لأنّ إكرام اللّه للعبد إنّما يكون بالتّقوى والطّاعة ، وإهانته له تكون بالمعصية والذّنب لا بالغنى والفقر .

---

(١) انظر : جامع البيان : ١٢/٥٧٢-٥٧٣ " طبعة الحلبي " . تفسير القرآن العظيم : ٢/٣٧٢-٣٧٣ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢٦٠ .

قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الفجر:١٥-١٦] (١) .

وقال سبحانه في معرض الابتلاء بالنّعم : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ [الكهف:٧].

فقد بيّن سبحانه أنّه جعل ما على الأرض من زينة كالذّهب والفضّة والمسلكن والملابس والمراكب والزّروع والثّمار والحيوان والنّساء والبنين وغير ذلك من أنواع النّعم كلّ ذلك خلقه لابتلاء عباده أيّهم أطوع له وأرضى (٢) .

قال الفضيل بن عياض(٣) *(رحمه الله)* في قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك:٢] :

---

(١) انظر معنى الآيات في : جامع البيان : ٣٠/١٨١-١٨٢ " طبعة الحلبي " . الكشّاف : ٤/٢٥١ " طبعة الحلبي " . المحرر الوجيز : ١٥/٤٤١-٤٤٢ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٠/٥١-٥٢ . تفسير القرآن العظيم : ٤/٨٠٥ . تفسير أبي السّعود : ٩/١٥٦ . روح المعاني : ٣٠/١٢٥-١٢٧ . محاسن التّأويل : ١٧/٦١٥٢ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٨٥٤ . عدّة الصّابرين : ص : ١٣٢-١٣٣ .

(٢) انظر : عدّة الصّابرين ص : ١٣٣ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٤٢٠-٤٢١ . قال تعالى في بيان أنواع الزّينة : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٤] . وهي الأولى في بيان الآية .

(٣)هو الفضيل بن عياض بن مسعود أبو عليّ التّميمي اليربوعي المروزي الخرساني. المكّي . الزّاهد المشهور. كان إماماً ربانيّاً عابداً قانتاً فاضلاً ثقة كبير الشّأن ورعاً . كثير الحديث .توفي بمكّة سنة ١٨٧هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٥/٥٠٠. التّاريخ الكبير: ٧/١٢٣. معرفة الثّقات: ٢/٢٠٧. الجرح والتّعديل: ٧/٧٣. ثقات ابن حبّان: ٧/٣١٥. مشاهير علماء الأمصار: ١/١٤٩. التّعديل والتّجريح: ٣/١٠٥١. تهذيب الكمال: ٢٣/٢٨١. تذكرة الحفّاظ: ١/٢٤٥. الكاشف: ٢/١٢٤. تهذيب التّهذيب: ٨/٢٦٤. تقريب التّهذيب: ١/٤٤٨. لسان الميزان: ٧/٣٣٧ .

" أخلصه وأصوبه " ، قالوا : يا أبا عليّ : ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : " إنّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صوّاباً لم يقبل ، وإذا كان صوّاباً ولم يكون خالصاً لم يقبل ، حتّى يكون خالصاً وصوّاباً ، والخالص أن يكون لله ، والصّوّاب أن يكون على السّنّة " (١) .

وقال سبحانه في معرض الابتلاء بالنّقم : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

لقد بيّن سبحانه أنّه لابد أن يبتلي عباده بالمحن والمصائب ليميّز الصّادق من الكاذب ، وأهل الخير من أهل الشّر ، لأنّ حكمته تقتضي ذلك . فأخبر أنّه سيبتليهم بشيء من الخوف وشيء من الجوع ، لأنّه إذا ابتلاهم بالخوف كلّه أو الجوع كلّه لهلكوا ، والمحن تمحّص لا تهلك غالباً ، ونقص من الأموال بما يعتريها من جوائح وغرق وحرق وضياع وأخذ الظّلمة وقطاع الطّريق لها وغير ذلك ، والأنفس بذهاب الأحباب من أولاد وأقارب وأصحاب ، أو بالأمراض في بدن العبد أو من يحبّه ، والثّمرات أي الحبوب كثمار النّخيل والأشجار كلّها والخضر ببرد أو حرق أو آفة كالجراد ونحو ذلك (٢) .

---

(١) قول الفضيل (رحمه الله) . أورده أبو نعيم (رحمه الله) في حلية الأولياء بلفظ مقارب. ٩٥/٨. وقد ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) في عدّة مواطن. انظر على سبيل المثال: مجموع الفتاوى : ١٧٤/١. ٣٣٣. ١٢٤/٣. ٤٩٥/٧. ٥٠٩/١١،٥٨٥،٦٠٠ . ٢٥٠/١٨. ١٨٨/٢٢. ١٥١/٢٦. ١٤٨/٢٧. ٢٣/٢٨،١٣٤،١٧٧. الاستقامة:لشيخ الإسلام ابن تيمية . طبعة جامعة الإمام محمّد بن سعود . بلد النّشر : المدينة المنورة . الطّبعة الأولى : ١٤٠٣هـ . تحقيق : محمّد رشاد سالم : ٢٤٨/١-٢٤٩ .وتلميذه ابن القيّم (رحمه الله) في مدارج السّالكين: ٨٣/١. وابن كثير (رحمه الله) في البداية والنّهاية: ١٩٩/١٠. وابن رجب (رحمه الله) في جامع العلوم والحكم: ص:١٣-١٤.

(٢) تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٥٨-٥٩ . " بتصرّف " . وانظر معنى الآيات في : جامع البيان : ٢١٩/٣-٢٢٣ " طبعة شاكر " . الكشّاف : ٣٢٣/١ " طبعة الحلبي " . التّفسير الكبير : ١٤٩/٤-١٥٥ . الجامع لأحكام

فاللّه يبتلي عباده بهذه المصائب وغيرها لتظهر طاعتهم وصبرهم ورجوعهم إليه .

ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٦].

وقوله : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ﴾ الأذى اسم جامع لكلّ ما يحدث به الضّرر ، والمراد أنواع ما يقع من أذى على المؤمنين من أعداء اللّه ، سواء كان قولاً أو فعلاً ، من الطّعن فيهم ، وفي دينهم ، وكتابهم ورسولهم ، ومخالفتهم ، وحربهم وتثبيطهم والإساءة إليهم ، وكلّ ذلك من الابتلاء لتظهر تقوى المؤمنين وصبرهم ، وليوطّنوا أنفسهم على وقوع ذلك من أعداء اللّه فيستعدّوا له طائعين منقادين (١) .

القرآن : ٢/١٧٣-١٧٧. تفسير القرآن العظيم: ١/٢٩٤. تفسير أبي السّعود : ١/١٨٠-١٨١ . روح المعاني : ٢/٢٢-٢٣ . محاسن التّأويل : ٢/٣٢٥-٣٢٩ .

وقد ذكر (رحمه اللّه) فوائد الابتلاء بالمصائب والمحن وحكمها ملخصاً لها من كلام الإمام عز الدّين محمّد بن عبدالسّلام .. وأنا أشير لك إلى ما ذكر مختصراً لتعمّ الفائدة . وهي :

١/ معرفة عز الرّبوبية وقهرها .
٢/ معرفة ذل العبودية وكسرها .
٣/ الإخلاص للّه تعالى .
٤/ الإنابة إلى اللّه والإقبال عليه .
٥/ التّضرع والدّعاء .
٦/ الحلم ممن صدرت منه .
٧/ العفو عن جانيها .
٨/ الصّبر عليها .
٩/ الفرح بها لأجل فوائدها .
١٠/ الشّكر عليها .
١١/ تمحيصها للذّنوب والخطايا .
١٢/ رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلواهم .
١٣/ معرفة قدر نعمة العافية والشّكر عليها .
١٤/ ما أُعد على هذه الفوائد من ثواب أخروي .
١٥/ ما في طيها من الفوائد الخفية .
١٦/ أنّها تمنع من الأشر والبطر والفخر والخيلاء والتّكبر والتّجبر
١٧/ الرّضا الموجب لرضوان اللّه .
* انظر : محاسن التّأويل : ٢/٣٢٩-٣٣٩ .

(١) انظر في معنى الآية : جامع البيان : ٧/٤٥٤-٤٥٥ " طبعة شاكر " . الكشّاف : ١/٤٨٦ " طبعة الحلبي " . المحرر الوجيز : ٣/٤٤٨-٤٤٩ . التّفسير الكبير : ٩/١٢٧-١٢٩ . الجامع لأحكام القرآن : ٤/٣٠٣ .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" إنّ البلاء الّذي يصيب العبد في اللّه لا يخرج عن أربعة أقسام . فإنّه إمّا أن يكون في نفسه ، أو في ماله ، أو في عرضه ، أو في أهله ومن يحبّ . والّذي في نفسه قد يكون بتلفها تارة ، وبتألّمها بدون التّلف . فهذا مجموع ما يبتلي به العبد في اللّه . وأشدّ هذه الأقسام : المصيبة في النّفس " (١) .

والمصائب بخلاف النّعم ، فإنّ النّعم إنّما تكون من فضل اللّه ومنّه ، وأمّا المصائب إنّما تكون بسبب الذّنوب والمعاصي ، إمّا بترك واجب أو فعل محرّم ، وكلّ ذلك لا يخرج عن نطاق الابتلاء .

قال تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [النساء:٧٨-٧٩] .

الّذي عليه عامّة المفسّرين أنّ المراد بالحسنة والسّيّئة : النّعم والمصائب . فبيّن اللّه عزّ وجلّ أنّ الكفّار والمنافقين كانوا إذا أصابتهم نعمة كخصب ورزق من ثمار وأولاد ونتاج وغير ذلك قالوا : هذا من اللّه لما علم فينا من الخير . وإذا أصابتهم مصيبة كقحط وجدب ونقص في الثّمار والزّروع أو موت أولاد ونتاج وغير ذلك قالوا : هذا من عند محمّد بسبب الدّين الّذي جاء به ، تشاؤماً وتطيّراً. (٢)

تفسير القرآن العظيم : ٦٥٣/١ . تفسير أبي السّعود: ١٢٣/٢-١٢٤. روح المعاني: ١٤٧/٤-١٤٨.محاسن التّأويل : ١٠٦٠/٤-١٠٦١ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١٢٧ . .

(١) إغاثة اللّهفان : ١٩٣/٢-١٩٤ .

(٢) التّطيّر : من قولك تطيّرْت من الشّيء وبالشّيء . والاسم منه الطِّيَرَةُ. بكسر الطّاء وفتح الياء . مثال العِنَبَةِ. وقد تُسكَّنُ الياءُ. وهو ما يُتشاءمُ به من الفَأْل الرّديء. وأصله فيما يقال : التّطيُّر بالسّوانح والبوارح من الظِّباء والطَّيْر وغيرهما. وكان ذلك يَصُدُّهم عن مقاصِدِهم فنفَاه الشّرْعُ وأَبْطَلَه ونهى عنه ، وأخبر أنّه ليس له تأثيرٌ في جَلْب نَفْع ولا دَفْع ضَرَر. انظر: لسان العرب: ٥١٢/٤.وانظر: مختار الصّحاح: ص:٤٠٢. القاموس المحيط: ص: ٥٥٥.

كما قال تعالى عن قوم فرعـــون : ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:١٣١] . وعن قوم صالح : ﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ [النمل:٤٧].

وتلك عادة في الكفّار يضيفون ما أصابهم من المصائب إلى فعل أهل الإيمان . فبيّن اللّه لرسوله ﷺ أنّ ما أصابه من نعمة ونقمة كلّ ذلك من عند اللّه تعالى خلقـاً وإيجاداً وتقديراً لأنّ الجميع بقضائه وقدره . ثمّ بيّن له أنّ ما أصابـه مـن نعمة ورخاء وعافية وسلامة فمن فضل اللّه ونعمته وكرمه ومنّه عليه ، وما أصابه مـن مصيبة وشدّة ومشقّة وأذى ومكروه فبسبب ذنبه وما كسبته يده ، وإن كـان مقـدّراً عليه . والخطاب للنّبي ﷺ والمراد جنس الإنسان .

قال أبو صالح (رحمه الله) [(١)] . عن ما أصاب العبد من المصائب :

" بذنبك وأنا قدّرتها عليك " [(٢)]

(١)أبو صالح : هو ذَكْوان السّمان أو الزّيات التّميمي الغطفاني. المدني الكوفي. مولى جويرية بنت الأحمس. تابعي. ثقـة ثبت. مات سنة ١٠١هـ.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٣٠١/٥. ٢٢٦/٦. طبقات خليفة: ص:٢٤٨. التّاريخ الكبير: ٢٦٠/٣. معرفة الثّقات: ٣٤٥/١. الجرح والتّعديل: ٤٥٠/٣. ثقات ابن حبّان: ٢٢١/٤. مشاهير علماء الأمصار: ٧٥/١. التّعديل والتّجريح: ٥٦٨/٢. تهذيب الكمال: ٥١٣/٨. تذكرة الحفّاظ: ٨٩/١. الكاشف: ٣٨٦/١. جامع التّحصيل: ص: ١٧٤. تهذيب التّهذيب: ١٨٩/٣. تقريب التّهذيب: ٢٠٣/١ .

(٢) جامع البيان : ٥٥٩/٨ " طبعة شاكر " . وانظر : معنى الآيات من ســورة النّساء في : المرجـع السّـابق : ٥٥٦/٨-٥٥٩ " طبعة شاكر " . التّفسير الكبير : ١٨٨/١٠-١٨٩ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٨٤/٥-٢٨٥ . تفسير القرآن العظيم : ٧٩٩/١-٨٠٠ . روح المعاني : ٨٨/٥-٩٠ . محاســن التّـأويل : ١٤٠٢/٥-١٤٠٥ . مجموع الفتاوى : ١١٢/٨-١١٤ . وانظر : ١٦٢/٨-١٦٣ .

فالنّعم من فضل اللّه والمصائب بسبب الذّنوب ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى:٣٠].

وقال : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم:٤١].

وقال : ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الروم:٣٦].

وقد ذكر النّبي ﷺ بعض المصائب ورتّب وقوعها على فعل بعض الذّنوب ، ومع ذلك لا تخرج عن كونها ابتلاء .

عن عبد اللّه بن عمر(رضي الله عنهما) قال : أقبل علينا رسول اللّه ﷺ فقال : " يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهنّ ، وأعوذ باللّه أن تُدركوهنّ : لم تظهر الفاحشة في قوم قطّ ، حتّى يُعلنوا بها إلاّ فشا فيهم الطّاعون والأوجاع الّتي لم تكن مضت في أسلافهم الّذين مضوا . ولم ينقصوا المكيال والميزان إلاّ أخذوا بالسّنين وشدّة المئونة وجور السّلطان عليهم . ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلاّ منعوا القطر من السّماء ، ولولا البهائم لم يمطروا . ولم ينقضوا عهد اللّه وعهد رسوله إلاّ سلّط اللّه عليهم عدوّاً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم . وما لم تحكم أئمّتهم بكتاب اللّه ويتخيّروا ممّا أنزل اللّه إلاّ جعل اللّه بأسهم بينهم " (١) . وهذا الحديث يؤكّد ما سبق . وفيه تحذير من الوقوع في هذه الذّنوب الجالبة لتلك المصائب .

فابتلاء اللّه عزّ وجلّ لعباده له حكم كثيرة يضيق هذا المقام عن ذكرها . وقد يجهل العبد كثيراً من حقائق الابتلاء وما يترتّب على ذلك من مصالح جمة وفوائد عدّة .

---

(١) سبق تخريجه. انظر: ص: ١٤٦ .

يقول الإمام ابن القيّم(رحمه الله) :

" من تمام رحمة أرحم الرّاحمين : تسليط أنواع البلاء على العبد ، فإنّه أعلم بمصلحته ، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته من رحمته به ، لكنّ العبد لجهله وظلمه يتّهم ربّه بابتلائه ، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه ... فمن رحمته سبحانه بعباده ابتلاؤهم بالأوامر والنّواهي رحمة وحمية ، لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به فهو الغني الحميد ، ولا بخلاً منه عليهم بما نهاهم عنه فهو الجّواد الكريم .

ومن رحمته أن نغّص عليهم الدّنيا وكدّرها لئلا يسكنوا إليها ، ولا يطمئنّوا إليها ، ويرغبوا في النّعيم المقيم في داره وجواره ، فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان ، فمنعهم ليعطيهم ، وابتلاهم ليعافيهم ، وأماتهم ليحيهم " (1) .

وهذه عبارات ضافية ، وكلمات قيّمة ذيّلت بها هذه الجزئيّة لعظيم وقعها على النّفس ، وكبير أثرها على الحس . ألا رحم اللّه ابن القيّم وأجزل له عظيم المثوبة .

---

(1) إغاثة اللّهفان : ٢/١٧٤-١٧٥ .

الفصل الرّابع

عوامل الثّبات عند الابتلاء

فيه تمهيد ومباحث:

التّمهيد

الابتلاء يظهر حقيقة الإيمان

إنّ اللّه عزّ وجلّ يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان ليظهر حقيقة إيمانهم ، ويتبيّن صدق الصّادق من كذب الكاذب ، وتلك سنّة اللّه في عباده المؤمنين السّابقين واللاّحقين ، فإنّه يمتحنهم بأنواع المحن والبلايا ليظهر ثباتهم على الإيمان ورسوخ أقدامهم فيه . وينكشف الكاذب في دعواه وزعمه ، فيبان عواره وتبدو حقيقته للعيان .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾ [العنكبوت:١-٣].

قال الزّمخشري :

" أحسب الّذين أجروا كلمة الشّهادة على ألسنتهم وأظهروا القول بالإيمان : أنّهم يتركون بذلك غير ممتحنين ؟ بل يمحّنهم اللّه بضروب المحن ، حتّى يبلو صبرهم ، وثبات أقدامهم ، وصحّة عقائدهم ، ونصوع نيّاتهم ، ليتميّز المخلص من

غير المخلص ، والرّاسخ في الدّين من المضطّرب ، والمتمكّن من العابد على حرف " (١) .

ولذلك أنكر اللّه على قوم من المكذّبين الّذين يدّعون الإيمان بألسنتهم ، ولم يثبت الإيمان في قلوبهم ، فإذا جاءتهم محنة وبلاء اعتقدوا أنّ ذلك من عذاب اللّه ونقمته بهم ، فارتدّوا عن الإسلام (٢) .

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [العنكبوت:١٠].

روى ابن جرير (رحمه الله) بسنده إلى مجاهد *(رحمه الله) أنّه قال* :

" أناس يؤمنون بألسنتهم فإذا أصابهم بلاء من اللّه أو مصيبة في أنفسهم افتتنوا فجعلوا ذلك في الدّنيا كعذاب اللّه في الآخرة " .

وروى نحوه عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) والضّحّاك (٣) وابن زيد (رحمهما اللّه) (٤) .

---

(١) الكشّاف : ٣٤٥/٣ . " طبعة الاستقامة " . وانظر : جامع البيان : ١٢٨/٢٠-١٢٩ . " طبعة الحلبي " . معاني القرآن للزّجّاج : ١٥٩/٤-١٦٠ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٢٤/٣ . تفسير القرآن العظيم : ٦٤٤/٣ . محاسن التأويل : ٤٧٣٦/١٣-٤٧٣٧ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٦٤٦/٣-٦٤٧ " بتصرّف يسير " .

(٣)هو الضّحاك بن مزاحم الهلالي . أبو القاسم أو أبو محمّد . الخرساني. اعتنى بعلم القرآن مع لزوم الورع. لم يسمع التّفسير من ابن عبّاس على الرّاجح وإنّما أخذه عن سعيد بن جبير . صدوق كثير الإرسال. قيل: لم يثبت له سماع من أحد من الصّحابة. مات سنة ١٠٥هـ.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٣٠٠/٦. طبقات خليفة: ص: ٣١١. التّاريخ الكبير: ٣٣٢/٤. الضّعفاء الكبير: ٢١٨/٢. ثقات ابن حبّان: ٤٨٠/٦. مشاهير علماء الأمصار: ١٩٤/١. الكامل في الضّعفاء: ٩٥/٤. تهذيب الكمال: ٢٩١/١٣. الكاشف: ٥٠٩/١. جامع التّحصيل: ص: ١٩٩. تهذيب التّهذيب: ٣٩٧/٤. تقريب التّهذيب: ٢٨٠/١. لسان الميزان: ٢٤٩/٧

(٤) جامع البيان : ١٣٢/٢٠-١٣٣. " طبعة الحلبي " .

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾ [الحج:١١].

فهؤلاء لا يثبت إيمانهم عند الشّدائد ، ولا يستقر عند المحن ، وإنّما ارتبط إيمانهم بمصالح الدّنيا العاجلة ، فإذا فقدوها فقدوا الإيمان .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" إنّ المكلّفين بعد إرسال الرّسل إليهم بين أمرين : إمّا أن يقول أحدهم آمنت ، وإمّا أن لا يقول بل يستمر على السّيّئات . فمن قال آمنّا امتحنه الرّب تعالى وابتلاه لتتحقّق بالإيمان حجّة إيمانه ، وثباته عليه ، وإنّه ليس بإيمان عافية ورخاء فقط ، بل إيمان ثابت في حالتي النّعماء والبلاء . ومن لم يؤمن فلا يحسب أنّه يعجز ربّه تعالى ويفوته ، بل هو في قبضته ، وناصيته بيده ، فله من البلاء أعظم ممّا ابتلى به من قال آمنت " (١) .

وقال (رحمه الله) في موطن آخر :

" فلا ريب أنّ الإيمان الّذي يثبت على محلّ الابتلاء والعافية هو الإيمان النّافع وقت الحاجة ، وأمّا إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبد ويبلغه منازل المؤمنين ، وإنّما يصحبه إيمان يثبت على البلاء والعافية " (٢) .

فاللّه سبحانه قد ابتلى من سبق من الرّسل والمؤمنين بما كلّفهم به وبأنواع البلايا والمحن ، فأصابتهم الأمراض والأسقام والآلام والمصائب والشّدائد والنّوائب وأذى أعداء اللّه ، وبلغ بهم الجهد مبلغه ، والشّدّة منتهاها ، وأزعجوا إزعاجاً عظيماً ، وحرّكوا بالتّخويف ، والرّعب ، حتّى استبطئوا النّصر من اللّه تعالى مع تيقّنهم بوقوعه ، ولكن استعجلوه لمّا بلغ بهم من الشّدّة والعنت وطول البلاء وضيق الحال ، ومع ذلك ثبتوا على إيمانهم ثبات الجبال الشّامخة ، وظلّوا متمسّكين بدينهم

---

(١) شفاء العليل : ص : ٢٤٥ . وانظر : إغاثة اللّهفان : ١٩٢/٢ . الفوائد : ص : ٢٠٨ .

(٢) طريق الهجرتين : ص : ٤١٧ .

فلم ينحرفوا ولـــم ينجرفــوا حتّــى أظلّـــهم اللّـــه بنصـــره .﴿ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة:٢١٤] . وهذه سنّته في عباده المؤمنين الّتي لا تتبدل ولا تتغيّر . فمن كان مؤمناً فليوطّن نفسه على الابتلاء فإنّه واقع به ولا شك .

قال تعـــالى : ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة:٢١٤] (١)
وفي الآية دعوة إلى التّأسّي . ومثلها قوله تعالى : ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٤٢].

وفي معناهما حديث خبّاب بن الأرتّ ﷺ قال : " شكونا إلى رســول اللّــه ﷺ وهو متوسّد بُرْدَةً (٢) له في ظلّ الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا ؟ فقــال : " قد كان من قبلكم يؤخذ الرّجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، فيؤتى بالمنشـــار فيوضع على رأسه فيجعل بنصفين ، ويُمْشَط بأمشاط الحديد فيما دون عظمه ولحمـه فما يصرفه ذلك عن دينه ، واللّه لَيُتِمَنّ اللّه هذا الأمر حتّــى يسـير الرّاكــب مــن

---

(١) انظر معنى الآية في : جامع البيان : ٢٨٨/٤ " طبعة شاكر " . الكشّاف : ٣٥٥/١-٣٥٦ " طبعـة الحلـبي " . التّفسير الكبير : ١٩/٦-٢١ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٤/٣-٣٥ . تفسير القرآن العظيـم : ٣٧٦/١-٣٧٧ . تفسير أبي السّعود : ٢١٥/١ . روح المعاني : ١٠٤/٢ . محاسن التّأويل : ٥٢٩/٣-٥٣٠ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٢١٤ .

(٢) بردة : البُرْدة الشّملَةُ المخطّطة . وقيل كِساء أسود مُربّع فيه صورٌ تَلْبسه الأعرابُ ، وجمعها بُرَدُ. النّهاية في غريـب الحديث: ١١٦/١.

صَنْعاءَ [١] إلى حَضْرَمَوتَ [٢] لا يخاف إلاّ اللّه والذّئب على غنمه ، ولكنّكم تستعجلون"[٣] .

وفي رواية : " وهو متوسّد بردة ، وهو في ظلّ الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدّة "[٤].

يقول سيّد قطب (رحمه الله) في كلمة قيّمة ضافية حول معنى الآية[٥] ، أقتطع منها – بلفظها – ما يناسب المقام لفائدتها :

" هكذا خاطب اللّه الجماعة المسلمة الأولى ، وهكذا وجّهها إلى تجارب الجماعات المؤمنة قبلها ، وإلى سنّته سبحانه في تربية عباده المختارين ، الّذين يكل إليهم رايته ، وينوط بهم أمانته في الأرض ومنهجه وشريعته . وهو خطاب مطّرد لكلّ من يختار لهذا الدّور العظيم .

---

(١)صنعاء : مدينة باليمن معروفة . كان أوّل من نزلها صنعاء بن أزال بن يعير بن عابر فسمّيت به . وقيل : إنّ الحبشة لّما دخلتها فرأتها مبنية بالحجارة قالوا :صنعة صنعة . وتفسيره بلسانهم : حصينة ، فسمّيت بذلك . قال الهمداني : "وقد كانت في الجاهليّة تسمّى أزال " . قال : " وأوّل من نزلها وأسّس قصبتها غمدان بن سام بن نوح فبها تعرف ذريته " . معجم ما استعجم : ٨٤٣/٣ . وقد أطال ياقوت الحموي في ذكرها والحديث عنها . انظر : معجم البلدان : ٣/٤٢٥-٤٢٩ . وهي عاصمة جمهورية اليمن اليوم .

(٢)حضرموت : بالفتح ثمّ السّكون وفتح الرّاء والميم اسمان مركّبان . والنّسبة إليها حضرمي . والتّصغير حُضَيرموت تصغير الصّدر منهما ، وكذلك الجمع . يقال : فلان من الحضارمة مثل المهالبة . وقيل : سمّيت بحاضر ميّت وهو أوّل من نزلها ، ثمّ خفف بإسقاط الألف . وقال أبو عبيدة : " حضرموت بن قحطان نزل هذا المكان فسمّي به فهو اسم موضع واسم قبيلة " . وهي ناحية واسعة في شرقي عدن بقرب البحر ، وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف ، وبها قبر هود عليه السّلام . معجم البلدان : ٢/٢٦٩-٢٧٠ . بتصرف . وانظر : معجم ما استعجم : ١/٤٥٥ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في كتاب المناقب: (٣٧/٦١). باب علامات النّبوّة في الإسلام: (٢٥). برقم: (٣٦١٢). ص: ٧٦٠. وفي كتاب مناقب الأنصار: (٣٧/٦٣). باب ما لقي النّبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكّة: (٨٩/٢٩). برقم: (٣٨٥٢). ص:٨٠٥. وفي كتاب الإكراه: (٦٤/٨٩). باب من اختار الضّرب والقتل والهوان على الكفر: (٢/١). برقم: (٦٩٤٣). ص: ١٤٦٦.

وأمّا اللّفظ أعلاه فهو في : الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: في باب ذكر الإخبار عن أمن النّاس عند ظهور الإسلام في جزائر العرب. برقم: (٦٦٩٨). ١٥/ ٩١.

(٤) هذه الرّواية أوردها البخاري بلفظها ضمن روايته. في كتاب مناقب الأنصار . الموطن السّابق.

(٥) أي آية سورة البقرة السّابقة .

وإنّها لتجربة عميقة جليلة مرهوبة . إنّ هذا السّؤال من الرّسول والّذين آمنوا معه ، من الرّسول الموصول باللّه ، والمؤمنين الّذين آمنــــوا باللّـــه . إنّ ســؤالهم ﴿ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ ؟ ليصوّر مدى المحنة الّتــــي تزلــزل مثــل هــذه القلــوب الموصولة . ولن تكون إلاّ محنة فوق الوصف ، تلقي ظلالها علــى مثــل هــاتيك القلوب . فتبعث منها ذلك السّؤال المكروب : ﴿ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ ؟ .

وعندما تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة ، عندئذ تتمّ كلمــة اللّــه ، ويجيء النّصر من اللّه : ﴿ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ .

إنّه مدّخر لمن يستحقّونه ، ولن يستحقّه إلاّ الّذين يثبتون حتّى النّهاية ، الّذيــن يثبتون على البأساء والضرّاء ، الّذين يصمدون للزلزلة ، الّذين لا يحنون رؤوســهم للعاصفة ، الّذين يستيقنون أن لا نصر إلاّ نصر اللّه ، وعندما يشاء اللّــه ، وحتّــى حين تبلغ المحنة ذروتها ، فهم يتطلّعون فحسب إلى نصر اللّه لا إلى أي حلّ آخــو ، ولا إلى أي نصر لا يجيء من عند اللّه ، ولا نصر إلاّ من عند اللّه " (١) .

والابتلاء يمحّص قلوب أهل الإيمان ، ويخلّصها من الشّوائب المنافية للإيمان وينقّيها ويهذّبها ، ويصهر ما فيها من أدران الزّيف والرّيـــاء والشّــك والذّنــوب ، فيرتبط أصحابها بربّهم في الشّدّة والرّخاء ، وعند المصائب والنّعم ، فـــلا تــتزلزل أقدامهم ، ولا تتهاوى قوّتهم ، ولا يضعف جنانهم ، فهم أكثر النّاس طاعة ، وأسـوع النّاس استجابة ، وأمثلهم انصياعاً ، وأثبتهم أقداماً .

قال تعـــالى : ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٤] (٢) .

---

(١) في ظلال القرآن : ١/٢١٨-٢١٩ .

(٢) الآية في سياق غزوة أحد . وانظر معناها في : جامع البيان : ٧/٣٢٤-٣٢٥ " طبعــة شــاكر " . الكشّــاف : ١/٤٧٣ " طبعة الحلبي " . تفسير القرآن العظيم : ١/٦٢٧ . تفســير أبي السّــعود : ٢/١٠٢ . روح المعــاني : ٤/٩٧-٩٨ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ١٢١ . في ظلال القرآن : ١/٤٩٧ .

فالابتلاء كير العبد ، ومحكّ إيمانه ، يتمحّص به كما يتمحّص الذّهب بالنّار لينصع طيبه ويذوب خبثه ، فيخرج تبراً أحمر يثبت في مواطن الثّبات ويرسو عند عظـــائم البلايا (١) . وهنالك عوامل تدفع للثّبات عند الابتلاء متى ما تمسّك المؤمن بها وجـــد فيها إعانة على الثّبات ، أتناولها في المباحث الآتية :

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى : ١٤/٢٥٤-٢٥٥ . طريق الهجرتين : ص : ٤١٧ . زاد المعاد : ٣/٢٣٧-٢٣٨ .

﴿ المبحث الأوّل ﴾

عامل الثّبات عند الابتلاء بالتّكليف

إنّما يثبت المؤمن عند التّكليف إذا أطاع أمر اللّه ورسوله ، وانصاع انصياعاً كاملاً لذلك ، وانقاد انقياداً تامّاً له ، واجتنب ما نهى اللّه عنه ورسوله ، وابتعد عنه كلّ البعد ، وحذر من الوقوع فيه .

قال المولى سبحانه في شأن الطّاعات: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [النساء:٦٦] .

قال ابن جرير (رحمه الله):

" ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ ﴾ يعني: ما يذكّرون به من طاعة اللّه والانتهاء إلى أمره .﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ في عاجل دنياهم وآجل معادهم . ﴿ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ وأثبت لهم في أمورهم ، وأقوم لهم عليها " [١] .

وقال أبو السّعود (رحمه الله):

" ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ ﴾ من متابعة الرّسول وطاعته والانقياد لما يراه ويحكم به ظاهراً وباطناً. وسمّيت أوامر اللّه تعالى ونواهيه مواعظ لاقترانهما بالوعد والوعيد.﴿ لَكَانَ ﴾ أي فعلهم ذلك . ﴿ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ عاجلاً وآجلاً ﴿ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ لهم على الإيمان ، وأبعد من الاضطراب فيه.﴿ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ لثواب أعمالهم ". [٢]

---

(١) جامع البيان: ٥/ ١٦١. " طبعة دار الفكر".

(٢) تفسير أبي السّعود: ٢/١٩٨.

وقال السّعدي (رحمه الله) :

" فإنّ اللّه يثبّت الّذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان ، الّذي هو القيام بما وعظوا به ، فيثبّتهم في الحياة الدّنيا عند ورود الفتن في الأوامر والنّواهي والمصائب ، فيحصل لهم ثبات يوفّقون به لفعل الأوامر وترك الزّواجر الّتي تقتضي النّفس فعلها ، وعند حلول المصائب الّتي يكرهها العبد ، فيوفّق للتّثبيت بالتّوفيق للصّبر أو للرّضا أو للشّكر. فينزل عليه معونة من اللّه للقيام بذلك ، ويحصل له الثّبات على الدّين عند الموت وفي القبر. وأيضاً فإنّ العبد القائم بما أمر به لا يزال يتمرّن على الأوامر الشّرعيّة حتّى يألفها ، ويشتاق إليها وإلى أمثالها ، فيكون ذلك معونة له على الثّبات على الطّاعات " (١) .

وروى ابن جرير بسنده إلى *أبي إسحاق السّبيعي*(٢) *قال:*

" لمّا نزلت: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ قال رجل: لو أمرنا لفعلنا، والحمد لله الّذي عافانا! فبلغ ذلك النّبيﷺ فقال: " إنّ من أمّتي لرجالاً ، الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرّواسي " (٣) .

---

(١) تيسير الكريم الرّحمن: ص: ١٥٠. وانظر: معالم التّتريل: للحسين بن مسعود الفرّاء البغوي . طبعة دار المعرفة . بيروت . الطّبعة الثّانية : ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م . تحقيق : خالد العك ـ مروان سوار : ٤٤٩/١. الجامع لأحكام القرآن: ٢٧٠/٥. تفسير القرآن العظيم: ٧٩٠/١-٧٩١. فتح القدير الجامع بين فني الرّواية والدّراية من علم التّفسير . لمحمّد بن عليّ الشّوكاني . طبعة دار الفكر . بيروت : ٤٨٥/١.

(٢)هو عمرو بن عبد الله الهمداني الكوفي أبو إسحاق السّبيعي . مشهور بكنيته. ثقة مكثر عابد حافظ. من أوعية العلم . سمع ثمانية وثلاثين صحابياً. مشهور بالتدليس ، واختلط بآخرة. توفي سنة: ١٢٩هـ. وقيل قبل ذلك. وانظر: الطّبقات الكبرى: ٣١٣/٦. التّاريخ الكبير: ٣٤٧/٦. معرفة الثّقات: ١٧٩/٢. الجرح والتّعديل: ٢٤٢/٦. ثقات ابن حبّان: ١٧٧/٥. مشاهير علماء الأمصار: ١١١/١. التّعديل والتّجريح: ٩٧٦/٣. تهذيب الكمال: ١٠٢/٢٢. تذكرة الحفّاظ: ١١٤/١. الكاشف: ٨٢/٢. جامع التّحصيل: ص:٢٤٥. التّبيين لأسماء المدلّسين: ص: ١٦٠. تهذيب التّهذيب: ٥٦/٨. تقريب التّهذيب: ٤٢٣/١. لسان الميزان: ٣٢٦/٧. ٤٥١ .

(٣) جامع البيان: ٥/ ١٦٠-١٦١. " طبعة دار الفكر".

وقال سبحانه في الإنفاق في سبيله وهو من أجلّ الطّاعات:﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٥].

قال ابن جرير (رحمه الله):

" يعني بذلك جلّ ثناؤه: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ﴾ فيصدّقون بها، ويحملون عليها في سبيل اللّه ، ويقوّون بها أهل الحاجة من الغزاة والمجاهدين في سبيل اللّه ، وفي غير ذلك من طاعات اللّه و طلب مرضاته.

يعني بذلك :"وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ " يعني : لهم على إنفاق ذلك في طاعة اللّه وتحقيقاً، من قول القائل: ثبّت فلاناً في هذا الأمر -إذا صحّحت عزمه، وحقّقته، وقوّيت فيه رأيه- أثبته تثبيتاً ، كما قال ابن رواحة:

فثبّت اللّه ما آتاك من حسن ******* تثبيت موسى ، ونصراً كالّذي نصروا

وإنّما عنى اللّه جلّ وعزّ بذلك: أنّ أنفسهم كانت موقنة مصدّقة بوعد اللّه إيّاها فيما أنفقت في طاعته بغير منٍّ ولا أذىً ، فثبّتهم في إنفاق أموالهم ابتغاء مرضاة اللّه، وصحّح عزمهم وآراءهم يقيناً منها بذلك، وتصديقاً بوعد اللّه إيّاها ما وعدها. ولذلك قال من قال من أهل التّأويل في قوله:﴿ وَتَثْبِيتًا ﴾ :وتصديقاً، ومن قال منهم: ويقيناً . لأنّ تثبيت أنفس المنفقين أموالهم ابتغاء مرضاة اللّه إيّاهم إنّما كان

ذكر السّيوطي أنّ ذلك القول صدر من جماعة من الصّحابة سمّى منهم أبا بكر الصّدّيق وعبد اللّه بن مسعود وعبد اللّه بن رواحة وغيرهم ﷺ جميعاً . انظر : الدّر المنثور: لجلال الدّين السّيوطي . طبعة دار الفكر . بيروت . سنة الطّبع : ١٩٩٣م : ٢/٥٨٧-٥٨٨.

روى الرّبيع بن حبيب بسنده إلى جابر بن زيد ﷺ عن النّبي ﷺ قال : " الإيمان أثبت في قلوب أهله من الجبال الرّواسي على قرارها " . مسند الرّبيع : تحقيق : محمّد إدريس . عاشور بن يوسف . طبعة : دار الحكمة بيروت . مكتبة الاستقامة . سلطنة عُمان . الطّبعة الأولى : ١٤١٥هـ . ص : ٣٧٧ . برقم : (٩٩٥) . وهذا شاهد لرواية أبي إسحاق (رحمه اللّه) .

عن يقين منها وتصديق بوعد الله...عن الشّعبي:﴿ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ قال: وتصديقاً من أنفسهم ، ثبات ونصرة " (١).

كما بيّن سبحانه أنّ ارتكاب المعاصي يزيح عن الثّبات ، ويجرف عن الاستقامة ، ويوقع في الزّلل والاضطّراب والحيرة. فقال:﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ ﴾ [النحل:٩٤].

قال ابن كثير (رحمه الله):

" حذّر تعالى عباده عن اتّخاذ الأيمان دخلاً أي خديعة ومكراً لئلا تزلّ قدم بعد ثبوتها، مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها ، وزلّ عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصدّ عن سبيل اللّه ، لأنّ الكافر إذا رأى أنّ المؤمن قد عاهده ثمّ غدر به لم يبق له وثوق بالدّين، فانصدّ بسببه عن الدّخول في الإسلام ، ولهذا قال ﴿ وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ " (٢).

وقال الشّوكاني (رحمه الله):

" ومعنى ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا ﴾ فتزلّ قدم من اتّخذ يمينه دخلاً عن محجّة الحقّ بعد ثبوتها عليها ورسوخها فيها. قيل: وأفرد القدم للإيذان بأنّ زلل قدم واحد أي قدم كانت عزّت أو هانت محذور عظيم ، فكيف بأقدام كثيرة؟ وهذا استعارة للمستقيم الحال يقع في شرّ عظيم ويسقط فيه ، لأنّ القدم إذا زلّت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شرّ ، ويقال لمن أخطأ في شيء زلّت به قدمه"(٣).

---

(١) جامع البيان: ٦٩/٣. "طبعة دار الفكر". وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٣١٤/٣-٣١٧. تفسير القرآن العظيم: ٤٧٦/١. فتح القدير: ٢٨٥/١.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٩٠٧/٢.

(٣) فتح القدير: ١٩١/٣. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٧٢/١٠. تيسير الكريم الرّحمن: ص: ٤٠٠.

فترك الطّاعات وارتكاب المعاصي يزلق السّالك عن الثّبات على الحقّ ، ويرديه في أودية المهالك ، فيصبح أمره في سفال ، وشأنه في وبال ، فلا يستقيم أمره، ولا يصلح حاله. وإنّما الثّبات يكمن في قيامه بما أمره اللّه به ، وتجنّبه لما نهاه عنه.

المبحث الثّاني

عوامل الثّبات عند الابتلاء بالنِّعم

إنّما يثبت العبد عند النّعم حين يبتليه الله بها إذا شكر اللّه عليها . لأنّ حقيقة الشّكر هو ظهور أثر نعمة اللّه على لسان عبده ثناء واعترافاً ، وعلى قلبه شهوداً ومحبّة ، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة . إذ الشّكر قيد النّعم الموجودة ، وصيد النّعم المفقودة (1).

ولذا قرنه اللّه بالنّعم في آيات كثر . فقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [البقرة:١٧٢].

وقال عن إبراهيم عليه السّلام : ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾ ﴾ [النحل:١٢٠-١٢١].

وقال سبحانه : ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم:٧].

ويعينه على شكرها أن يديم تذكّرها عليه ، فيعدّد الحالّة به ولا ينس السّالفة عنه ، وليعلم أنّها نعم زائلة لا بقاء لها ولا استقرار ، ومع ذلك هي مكدّرة بما يعقبها من أضداد .

قال سبحان : ﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١١﴾ ﴾ [الضحى:١١] .

---

(1) انظر : مدارج السّالكين : ٢/٢٤٤-٢٤٥

قال السّعدي (رحمه الله) :

" وهذا يشمل النّعم الدّينيّة والدّنيويّة ، أي : أثـن علـى الله بـها ، وخصـّـها بالذّكر ، إن كان هناك مصلحة . وإلاّ فحدّث بنعم الله على الإطلاق ، فإنّ التّحـدّث بنعمة الله داع لشكرها ، وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها ، فـإنّ القلـوب مجبولة على محبّة المحسن " [١].

ويؤيّد ما سبق قوله سـبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [فاطر:٣] .

وهذا أمر شامل لذكرها بالقلب اعترافاً ، وباللّسان ثناء ، وبالجوارح انقياداً . فإنّ ذكر نعمه تعالى داع لشكره [٢].

وينافي شكرها وذكرها أن تؤدّي بالعبد إلى الإعراض عن طاعة الله ، والتّلبّس بالمعاصي ، والوقوع في الآثام .

وفي ذلك يقول سبحانه وتعـالى : ﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [الإسراء:٨٣] .

ويقول عـزّ وجـلّ : ﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾ [فصلت:٥١]

---

(١) تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٨٥٨ .

(٢) المرجع السّابق : ص : ٦٣٠ . بتصرّف يسير .

كما ينافي شكرها أن يركن العبد إليها ، ويغتر بها حتّى تحملـــه علـــى البطـــر[1] والأشر[2] ، والفرح المذموم الّذي لا يحبّه اللّه ولا يحبّ أهله .

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ " انظروا إلى من أسفل منكــم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله " [3] .

ولا ينهمك في نيلها والوصول إليها بكلّ السّبل ولو كانت محرّمة ، ويبالغ فـــي استقصائها . كما يصبر على أداء حقّ اللّه فيها ولا يضيّعه ، فإنّها تسلب منه بضياع حقّ اللّه فيها ، ويصبر عن صرفها في الحرام فلا يمكّن نفسه في كـــلّ مـــا تريـــده منها[4].

فإنّ النّعم تحتاج من العبد إلى ثبات عندها وصبر كمـــا تحتـــاج إلـــى ذلـــك المصائب والنّقم ، بل لعلّ الصّبر والثّبات عند النّعم أشدّ على النّفس من الصّبر على المصيبة .

قال عبد الرّحمن بن عوف ﷺ :

" ابتلينا مع رسول اللّه ﷺ بالضّرّاء[5] فصبرنا ، ثمّ ابتلينا بالسّرّاء بعده فلـــم نصبر " [6] .

---

(١) البَطَرُ: هو شدّة الـــمَرَح والطّغيان عند النّعمة وطول الغنى . انظر :لســـان العـــرب: ٦٩/٤. وانظـــر: مختـــار الصّحاح: ص: ٥٥-٥٦. القاموس المحيط: ص: ٤٤٩.

(٢) الأَشَرُ: الـــمَرَح . يقال :أَشِـــرَ الرّجلُ . بالكسر . يَأْشَرُ أَشَراً . فهو أَشِرٌ وأَشُرٌ وأَشْرانٌ: مَرِحَ . وقـــيل: أَشَـــدُّ البَطَر . انظر: لسان العرب: ٢٠/٤.

(٣) صحيح مسلم : بلفظه في : كتاب الزهد والرّقائق : (٥٣) . برقم : (٢٩٦٣) . ٢٢٧٥/٤ .

(٤) وانظر : عدّة الصّابرين : ص : ١٠٩ . .

(٥) الضَّرّاءُ الحالَةُ الّتي تَضُرُّ وهي نَقيض السّرّاء ، وهُما بناآن للمؤنّث ولا مُذَكّر لهما . يُريد إنّا اختُبرنا بالفَقْر والشّـدّة والعَذاب فصَبَرنا عليه ، فلمّا جاءتْنا السّرّاءُ وهي الدّنيا والسّعَة والرّاحة بَطِرْنا و لم نَصْبر .
النّهاية في غريب الحديث: ٨٢/٣.

(٦) سنن التّرمذي : بلفظه في كتاب صفة القيامة: (٣٤). باب : (٢٨). برقم: (٢٤٦٤). وقال: "هـــذا حديـــث حسن". وقال الألباني (رحمه اللّه): " حسن الإسناد". ص: ٤٠٣.

لأنّ الصّبر على النّعمة مقرون بالقدرة والاختيـــار بخـــلاف الصّــبر علـــى المصيبة فهي خارجة عن قدرة الإنسان واختياره .

فالمؤمن إذا قام تجاه النّعم بما سبق ذكره أعانه ذلك على الثّبات على الحــقّ ، وعدم الانزلاق عنه ، ولو أعطي من النّعم ما أعطي ، ونال منها ما نال ، لأنّه علــم قدر النّعم عنده ، وقدر المنعم بها ، فلا تكون سبباً يحيله عــن الثّبــات أو يصرفــه عنه .

وانظر : دقائق التّفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية . تحقيق : محمّد السّيّد الجليند . طبع مطبعة التّقدّم . القاهرة . نشر دار الأنصار . القاهرة . الطّبعة الأولى : ١٣٩٨هـ ـــ ١٩٧٨م : ٢/٢٠٥-٢٠٦ . ففيه كلام قيّـــم عـــن الصّبر على النّعم .

المبحث الثّالث

عوامل الثّبات عند الابتلاء بالمصائب

وفيه مطالب:

﴿المطلب الأوّل﴾

ملاحظة حسن الجزاء

قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

لقد بشّر اللّه عزّ وجلّ الصّابرين الّذين صبروا وثبتوا عند حلول المصائب عليهم ــ إذ الصّبر هو قوّة الثّبات ــ بشّرهم بأجر الصّابرين الّذين يوفّون أجرهم بغير حساب . كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر:١٠].

وقال عزّ وجلّ: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [النحل:٩٦].

فنالوا ذلك الأجر العظيم والثّواب الجسيم بصبرهم وثباتهم عند مداهمة المصيبة لهم ، لأنّ ذلك هو الصّبر المطلوب المرغّب فيه الّذي يعظم ثوابه ، وذلك عند هجوم المصيبة وحرارتها ، لأنّه يكون حينئذ شاقّاً على النّفس صعباً عليها ، ولا يقع إلاّ من أهل القلوب الثّابتة والعزائم الرّاسخة ، وأمّا إذا بردت حرارة المصيبة فكلّ أحد يصبر حينئذ . ولذا قال ﷺ : " إنّما الصّبر عند الصّدمة الأولى " (١) .

---

(١) هذا جزء من حديث عن أنس بن مالك ﷺ . وهو في:

فلمّا ثبتوا وصبروا تسلّوا حينئذ بقولهم : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ أي نحن مملوكون لله عبيد له ، وهو خالقنا ونحن تحت أمره وتصريفه ، فإن ابتلانا بشيء من المصائب فقد تصرّف بعدله وحكمته فلا اعتراض عليه فيما فعل ، وسوف نرجع إليه لننال الأجر كاملاً في يوم المعاد .

فهؤلاء الّذين يستحقّون المغفرة من اللّه والرّحمة ، والمدح والثّناء الحسن ، والثّواب الجزيل ، وهم المهتدون الّذين عرفوا الحقّ وتشبّثوا به [١] .

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ :

" نعم العدلان [٢] ونعمة العلاوة : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ فهذان العدلان ؛ ﴿ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ " فهذه العلاوة " [٣] .

وهي ما توضع بين العدلين وهي زيادة في الحمل فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً . [٤]

صحيح البخاري: بلفظه في كتاب الجنائز: (٦/٢٣). باب زيارة القبور: (٣١). برقم: (١٢٨٣). ص: ٢٧٠. و بلفظ مقارب في الكتاب السّابق . باب الصّبر عند الصّدمة الأولى: (٤٢). برقم: (١٣٠٢). ص: ٢٧٤. وفي كتاب الأحكام: (٩٣/٦٨). باب ما ذكر أنّ النّبي ﷺ لم يكن له بواب: (١١). برقم: (٧١٥٤) . ص: ١٥٠٦. صحيح مسلم: بلفظ مقارب في كتاب الجنائز: (١١). باب في الصّبر على المصيبة عند الصّدمة الأولى: (٨). برقم: (٩٢٦). ٦٣٧/٢.

(١) انظر معنى الآيات في : جامع البيان : ٢٢١/٣-٢٢٣ " طبعة شاكر " . الكشّاف : ٣٢٣/١ " طبعة الحلبي " . التّفسير الكبير : ١٥١/٤-١٥٦ . الجامع لأحكام القرآن : ١٧٤/٢-١٧٧ . تفسير القرآن العظيم : ٢٩٤/١ . تفسير أبي السّعود : ١٨٠/١-١٨١ . روح المعاني : ٢٣/٢ . محاسن التّأويل : ٣٢٦/٢-٣٢٧ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٥٨-٥٩ . عدّة الصّابرين : ص : ٥٨ . زاد المعاد : ١٨٩/٣

(٢) العدل : المثل والنّظير . والعدلان : المتماثلان . انظر : القاموس المحيط : ص : ١٣٣٢ .

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٢٩٤/١. والأثر في:

صحيح البخاري: بلفظ مقارب ــ معلّقاً ــ في كتاب الجنائز: (٦/٢٣). باب الصّبر عند الصّدمة الأولى: (٤٢). ص: ٢٧٤.

سنن البيهقي: نحوه في: باب الرّغبة في أن يتعزّى بما أمر اللّه تعالى به من الصّبر والاسترجاع. ٦٥/٤.

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في :٢٩٦/٢. وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين و لم يخرجاه".

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٢٩٤/١.

عن أمّ سلمة (رضي الله عنها) زوج النّبي ﷺ قالت : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : " ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : " إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، اللّهم أجرني في مصيبتي وأخْلِف لي خيراً منها ، إلاّ أجره اللّه في مصيبته ، وأخلف له خيراً منها " . قالت : فلمّا توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول اللّه ﷺ فأخلف اللّه لي خيراً منه رسول اللّه ﷺ " (١) .

ففي الحديث جزاء الاسترجاع عند المصيبة لمن صبر ، وعلاوة على ذلك أن يخلف اللّه له خيراً ممّا أخذ منه ، وهو معضّد لما جاء في الآيات .

قال السّعدي (رحمه الله) :

" فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النّفوس على المصائب قبل وقوعها ، لتخفّ وتسهل إذا وقعت ، وبيان ما تقابل به إذا وقعت ، وهو الصّبر ، وبيان ما يعين على الصّبر ، وما للصّابرين من الأجر ، ويعلم حال غير الصّابر بضدّ حال الصّابر ، وأنّ هذا الابتلاء والامتحان سنّة اللّه الّتي قد خلت ، ولن تجد لسنّة اللّه تبديلاً ، وبيان أنواع المصائب " (٢) .

وقال سبحانه في بيان جزاء الابتلاء بالمصائب : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [التوبة:١٢٠-١٢١].

---

(١) صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الجنائز: (١١). باب ما يقال عند المصيبة: (٢). برقم: (٩١٨). ٢/٦٣٣.
وبلفظ مقارب في ٢/٦٣٢.

(٢) تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٥٩ .

فقد بيّن سبحانه وتعالى أنّ من خرج مجاهداً في سبيل اللّه ، وأصابه من أنواع المشقّة ما أصابه نال الأجر العظيم والثّواب الجزيل .

وقد ذكر سبحانه أنواعاً من المصائب مدلّلاً بها على غيرها ، وهي : العطش الشّديد ، والإعياء والتّعب ، والمجاعة الشّديدة الّتي تضمر البطن ، ووضع أحدهم قدمه أو حافر فرسه في موضع يغضب الكفّار ويغيظهم ، أو أسرهم لعدوّ أو قتله أو هزيمته . وكلّ ذلك يجلب المشقّة والعنت ؛ وهو قربة عند اللّه تعالى ، وأعمال صالحة تجلب عظيم الأجر والمثوبة (١) .

وهذه المصائب وقعت آثاراً ونتيجة لعمل العبد ، وناشئة عن فعله ، ومع ذلك يثاب بالصّبر عليها الثّواب العظيم الّذي هو أعظم من الثّواب النّاتج من الصّبر على المصائب الّتي لم تقع أثراً لأعماله كالمرض . لأنّ الأولى وقعت نتيجة لأفعال تمّت بمراد العبد طاعة لله ومن أجل مرضاته ، وأمّا الثّانية فوقعت بغير مراد العبد (٢).

وأمّا الأحاديث الّتي ورد فيها إثبات الجزاء لمن ثبت عند الابتلاء بالمصائب كثيرة جداً منها :

حديث جابر ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : " يودّ أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثّواب لو أنّ جلودهم كانت قرضت في الدّنيا بالمقاريض " (٣).

---

(١) انظر معنى الآيات في : جامع البيان : ١١/٦٤-٦٦ . " طبعة الحلبي " . التّفسير الكبير : ١٦/٢٢٤ . الجامع لأحكام القرآن : ٨/٢٩٠-٢٩١ . تفسير القرآن العظيم : ٢/٦٢٠ . روح المعاني : ١١/٤٦-٤٧

(٢) انظر : مجموع الفتاوى : ١٠/١٢٢-١٢٤

(٣) سنن التّرمذي : بلفظه في كتاب الزّهد: (٣٣). باب: (٥٩). برقم: (٢٤٠٢). وقال: "هذا حديث غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلاّ من هذا الوجه". وقال الألباني (رحمه اللّه): " حسن". ص: ٣٩٣. وهو في السّلسلة الصّحيحة: ٥/٢٤٠ . برقم: (٢٢٠٦) . ومشكاة المصابيح . لمحمّد بن عبد اللّه الخطيب التّبريزي . تحقيق : محمّد ناصر الدّين الألباني . طبعة المكتب الإسلامي . بيروت . الطّبعة الثّانية : ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م : ١/٤٩٤ . برقم : (١٥٧٠) .

سنن البيهقي: بلفظ مقارب في باب ما ينبغي لكلّ مسلم أن يستشعره من الصّبر على جميع ما يصيبه من الأمراض والأوجاع والأحزان لما فيها من الكفّارات والدّرجات. ٣/٣٧٥.

المعجم الصّغير : بلفظ مقارب في : ١/١٥٦. برقم: (٢٤١).

وفي الكبير نحوه موقوفاً على ابن مسعود ﷺ في: ٩/١٥٥. برقم: (٨٧٧٧ ، ٨٧٧٨).

وحديث أنس ﷺ عن النّبي ﷺ قال : " إنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإنّ اللّه إذا أحبّ قوماً ابتلاهـم ، فمـن رضـي فلـه الرّضـا ، ومـن سـخط فلـه السّخط ". [1]

وحديث عبد اللّه بن عمرو(رضي الله عنهما) قال : قال رسول اللّه ﷺ : " ما أحد من المسلمين يبتلى ببلاء في جسده إلاّ أمر اللّه عـزّ وجـلّ الحفظـة الّذيـن يحفظونه : اكتبوا لعبدي مثل ما كـان يعمـل وهـو صحيـح مـا دام محبوسـاً في وثاقي" [2] .

كما وردت أحاديث في جزاء من ابتلي بمصائب معيّنة من ذلك :

حديث أنس بن مالك ﷺ قال : سمعت النّبي ﷺ يقول : " إنّ اللّه قـال : إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوّضته منهما الجنّة " . يريد عينيه [3] .

---

(١) سنن التّرمذي : بلفظه في: كتاب الزّهد: (٣٣). باب ما جاء في الصّبر على البلاء : (٥٧). برقـم: (٢٣٩٦). وقال: "هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه". و قال الألباني (رحمه اللّه):" حسن".ص: ٣٩٣.

سنن ابن ماجة : بلفظه ـ إلاّ أحرف يسيرة ـ في كتاب الفتن : (٣٦). باب الصّبر على البـلاء: (٢٣). برقـم: (٤٠٣١). قال الألباني (رحمه اللّه): " حسن". ص:٤٣٤. وهو في : السّلسلة الصّحيحـة: ٢٢٧/١ . برقـم: (١٤٦) . ومشكاة المصابيح : ٤٩٣/١ . برقم: (١٥٦٦) .

(٢) سنن أبي داود: بمعناه عن أبي موسى ﷺ . كتاب الجنائز: (٢٠). باب إذا كان الرّجل يعمل عملاً صالحاً فشـغله عنه مرض أو سفر. برقم: (٣٠٩١). قال الألباني (رحمه اللّه): " حسن". ص: ٣٥٠.

سنن الدّارمي: بلفظ مقارب في باب المرض كفّارة. ٤٠٧/٢.

مسند أحمد : بلفظه في : ١٩٤/٢ . قال أحمد شاكر (رحمه اللّه): "إسناداه صحيحان". مسند أحمد بتحقيق أحمـد شاكر: ١/:٦٥-٦٦. برقم: (٦٨٢٥). و بلفظ مقارب في ١٥٩/٢. قال أحمد شاكر (رحمه اللّـه): "إسـناده صحيح". مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٩٦/٩-١٩٧. برقم: (٦٤٨٢).

(٣) صحيح البخاري : بلفظه في: كتاب المرضى: (٤٩/٧٥). باب فضل من ذهب بصره : (٧). برقـم: (٥٦٥٣). ص:١٢٢٩.

قال الحافظ ابن حجر (رحمه اللّه) :

"والمراد بالحبيبتين المحبوبتان لأنهما أحبّ أعضاء الإنسان إليه . لما يحصل له بفقدهما من الأسف على فوات رؤيـة ما يريد رؤيته من خير فيسرّ به . أو شرّ فيجتنبه " . فتح الباري : ١١٦/١٠ . طبعة دار المعرفة .

وحديث عائشة (رضي الله عنها) أنّ النّبي ﷺ قالَ : " من ابتُلي من البنات بشيء فأحسن إليهنّ كنّ له ستراً من النّار " [1] .

والمراد بما سبق أنّ المبتلى إذا نظر إلى جزاء بلائه في الآخرة أعانه ذلك على الصّبر عليه والثّبات عنده .

ولذا قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" وعلى حسب ملاحظته – أي حسن الجزاء – والوثوق به ومطالعته يخفّ حمل البلاء ، لشهود العوض ، وهذا كما يخفّ على كلّ متحمّل مشقّة عظيمة حملها ، لما يلاحظه من لذّة عاقبتها وظفره بها ، ولولا ذلك لتعطّلت مصالح الدّنيا والآخرة ، وما أقدم أحد على تحمّل مشقّة عاجلة إلاّ لثمرة مؤجّلة ، فالنّفس موكلة بحبّ العاجل ، وإنّما خاصّة العقل تلمح العواقب ، ومطالعة الغايات " [2] .

---

(١) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الزّكاة: (٢٤/٧). باب اتّقوا النّار ولو بشقّ تمرة . والقليل من الصّدقة: (١٠/٩). برقم: (١٤١٨). ص:٢٩٩. وفي كتاب الأدب: (٧٨/٥٢). باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته: (١٨). برقم: (٥٩٩٥). ص: ١٢٨٨.

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب البر والصّلة والآداب : (٤٥). باب فضل الإحسان إلى البنات: (٤٦). برقم: (٢٦٢٩). ٢٠٢٧/٤.

قال ابن بطّال (رحمه اللّه) :

" إنّما سمّاه ابتلاء لأنّ النّاس يكرهون البنات . فجاء الشّرع بزجرهم عن ذلك . ورغّب في إبقائهنّ وترك قتلهنّ بما ذكر من الثّواب الموعود به من أحسن إليهنّ ، وجاهد في نفسه في الصّبر عليهنّ " . نقلاً عن فتح الباري : ٣٩/١٢ . وانظر : شرح النّووي على مسلم : ١٧٩/١٦ .

(٢) مدارج السّالكين : ١٦٦/٢ .

﴿ المطلب الثّاني ﴾

حطّ الذّنوب وتكفير السّيئات

من نعم اللّه عزّ وجلّ على عباده المؤمنين ورحمته بهم أن جعل ما يصيبهم من المصائب والشّدائد مكفّراً لما وقع منهم من معاصي وذنوب .

والمراد بتكفير الذّنوب هو سترها ، أو محو أثرها المترتّب عليها من استحقاق العقوبة (١) .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْـزَ بِهِۦ ﴾ [النساء:١٢٣].

قال ابن بطّال (رحمه الله) :

" ذهب أكثر أهل التّأويل إلى أنّ معنى الآية أنّ المسلم يجازى على خطاياه في الدّنيا بالمصائب الّتي تقع له فيها فتكون كفّارة لها " (٢) .

ولذا عقد البخاري (رحمه الله) باباً في كتاب المرضى ، فقال :

" باب ما جاء في كفّارة المرض . وقوله تعالى :﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْـزَ بِهِۦ ﴾ (٣) ". فهو يرى أنّ الآية دليل على كفّارة الذّنوب بالمصائب .

ويؤيّد ذلك ما ورد عن أبي هريرة ﷺ قال : لمّا نزلت :﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْـزَ بِهِۦ ﴾ بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً ، فقال رسول اللّه ﷺ : " قاربوا وسدّدوا ، ففي كلّ ما يصاب به المسلم كفّارة حتّى النّكْبَة يُنْكَبُها (٤) ، أو الشّوكة يُشَاكُها (٥) " (٦) .

---

(١) انظر : فتح الباري : ١٠٩/١٠ . طبعة دار المعرفة .

(٢) نقلاً عن المرجع السّابق : ١٠٤/١٠ . طبعة دار المعرفة .

(٣) صحيح البخاري : ص:١٢٢٧.

(٤) النّكْبَة :هي ما يصيب الإنسان من الحوادث . النّهاية في غريب الحديث: ١١٣/٥.

(٥) أي أصابته شوكة في جسده ودخلت فيه . انظر : لسان العرب: ٤٥٣/١٠.

(٦) صحيح مسلم : بلفظه في: كتاب البر والصّلة والآداب : (٤٥) باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتّى الشّوكة يشاكها: (١٤) : برقم (٢٥٧٤) . ١٩٩٣/٤.

وقد ورد كثير من الأحاديث الّتي تفيد تكفير الذّنوب بالابتلاء بالمصائب ، من ذلك :

عن أبي هريرة ﷺ عن النّبي ﷺ قال : " ما يصيب المسلم من نَصَب [(١)] ولا وَصَبٍ [(٢)] ولا همٍّ ولا حُزْن ولا أذى ولا غمٍّ حتّى الشّوكة يشاكها إلاّ كفّر اللّه بها من خطاياه " [(٣)] .

وعن عبد اللّه بن مسعود ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : " ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه ، إلاّ حطّ اللّه به سيئاته كما تحطّ الشّجرة ورقها " [(٤)] .

---

(١) النّصَبُ : التعَبُ . وقد نَصِبَ يَنْصَبُ ونَصَبَه غيرُه وأنصَبَه. النّهاية في غريب الحديث: ٦٢/٥.

(٢) الوَصَب : دَوَام الوَجَع ولُزومه . وقد يطلق على التّعَب والفُتور في البدن .

انظر: المرجع السّابق : ١٨٩/٥.

(٣) صحيح البخاري : بلفظه في: كتاب المرضى : (٤٩/٧٥). باب ما جاء في كفّارة المرض وقول اللّه تعالى : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النّساء:١٢٣] : (١). برقم : (٥٦٤١ ، ٥٦٤٢) . ص:١٢٢٧.

صحيح مسلم : نحوه في: كتاب البر والصّلة والآداب : (٤٥). باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أونحو ذلك حتّى الشّوكة يشاكها : (١٤) . برقم : (٢٥٧٣) : ١٩٩٢/٤-١٩٩٣ .

(٤) صحيح البخاري : بلفظه إلاّ أحرف يسيرة في: كتاب المرضى (٤٩/٧٥) : باب وضع اليد على المريض: (١٣). برقم: (٥٦٦٠). ص: ١٢٣١. وفي باب قول المريض : إنّي وجع . أو وارأساه . أو اشتدّ بي الوجع: (١٦). برقم: (٥٦٦٧).ص: ١٢٣٢. ونحوه في: باب شدّة المرض: (٢). برقم: (٥٦٤٧). ص: ١٢٢٨. وفي باب أشدّ النّاس بلاء الأنبياء ثمّ الأوّل فالأوّل: (٣). برقم: (٥٦٤٨). ص:١٢٢٨. وفي باب ما يقال للمريض ويجيب: (١٤). برقم: (٥٦٦١). ص: ١٢٢٩.

صحيح مسلم : بلفظه في: كتاب البر والصّلة والآداب : (٤٥). باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتّى الشّوكة يشاكها : (١٤) . برقم : (٢٥٧١) : ١٩٩١/٤ .

قال العيني (رحمه اللّه) :

" حاصل المعنى أنّ المرض إذا اشتدّ ضاعف الأجر ، ثمّ زاد عليه بعد ذلك أنّ المضاعفة تنتهي إلى أن تحطّ السّيئات كلّها " . عمدة القارئ : ٢١٢/٢١ .

وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : " ما من مسلم يُشاك شوكة فما فوقها إلاّ كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة " (١) .

وعن يحيى بن سعيد (رحمه الله) (٢) أنّ رجلاً جاءه الموت في زمان رسول اللّه ﷺ ، فقال رجل : هنيئاً له ، مات ولم يُبتل بمرض ، فقال رسول اللّه ﷺ : " ويحك ، وما يدريك لو أنّ اللّه ابتلاه بمرض يكفّر به من سيئاته " (٣) .

فقد غبط الرّجل من مات ولم يبتل بمرض ، غبطه بسلامته من الأمراض ، فأنكر عليه النّبي ﷺ ذلك مبيّناً له أنّ إصابته بالمرض الّذي يكفّر سيئاته أفضل من سلامته من الأمراض مع بقاء سيئاته (٤) .

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) :

" وفي هذه الأحاديث بشارة عظيمة لكلّ مؤمن ، لأنّ الآدمي لا ينفك غالباً من ألم بسبب مرض أو همّ أو نحو ذلك ممّا ذكر ، وأنّ الأمراض والأوجاع والآلام – بدنيّة كانت أو قلبيّة – تكفّر ذنوب من تقع له " (٥) .

---

(١) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب البر والصّلة والآداب : (٤٥). باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتّى الشّوكة يشاكها : (١٤) . برقم: (٢٥٧٢).١٩٩١/٤.

(٢) هو يحي بن سعيد بن قيس بن عمرو أبو سعيد الأنصاري ، قاضي المدينة ، ثمّ قاضي العراق لأبي جعفر المنصور. تابعي صغير مشهور ، سمع أنس بن مالك ﷺ ، حافظ فقيه ثقة ثبت متقن ، من أهل الصّلاح . مات سنة ١٤٣هـ وقيل: بعدها.

وانظر: التّاريخ الكبير: ٢٧٥/٨. معرفة الثّقات: ٣٥٢/٢. الجرح والتعديل: ١٤٧/٩. ثقات ابن حبّان: ٥٢١/٥. مشاهير علماء الأمصار: ٨٠/١ . تهذيب الكمال: ٣٤٦/٣٠. تذكرة الحفّاظ: ١٣٧/١. الكاشف: ٣٦٦/٢. تهذيب التّهذيب: ١٩٤/١١. تقريب التّهذيب: ٥٩١/١.

(٣) موطّأ مالك : كتاب العين : (٥٠) باب ما جاء في أجر المريض : (٣). برقم (٨) : ٩٤٢/٢ . ورجاله ثقات .

(٤) انظر : كتاب المنتقى شرح موطّأ إمام دار الهجرة . للقاضي أبي الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي الأندلسي . الطّبعة الأولى: ١٣٣٢هـ . مطبعة السّعادة بمصر : ٢٥٩/٧

(٥) فتح الباري : ١٠٨/١٠ . طبعة دار المعرفة .

۞ وقد وقع الخلاف بين أهل العلم : هل الابتلاء بالمصائب يكفّر الذّنوب فقط أم يقع الأجر مع التّكفير ؟ وهل الأجر يقع بمجرد حصول المصيبة أمّ بالصّبر عليها ؟ .

نقل النّووي(رحمه الله) عن القاضي عياض (رحمه الله) فيما حكاه عن بعضهم : أنّ المصائب تكفّر الخطايا فقط ، ولا ترفع درجة ولا تكتب حسنة [١] .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) تفصيل في ذلك . فهو يرى أنّ المصائب الّتي تجري بغير اختيار العبد كالمرض وموت العزيز تكفّر الخطايا فقط ، ولا يؤجر الإنسان عليها إلاّ بالصّبر . وأمّا المصائب الّتي تنتج باختيار العبد كالمصائب الّتي تقع للمجاهد في سبيل اللّه بأيدي الأعداء فإنّه يؤجر عليها إضافة إلى تكفير الذّنوب ، وبالصّبر معها يعظم أجره [٢] .

وبيّن الحافظ ابن حجر (رحمه الله) أنّ الأحاديث صريحة في ثبوت الأجر بمجرد حصول المصيبة ، وأمّا الصّبر والرّضا فقدر زائد يثاب عليهما زيادة على ثواب المصيبة [٣] . ثم قال :

" والتّحقيق أنّ المصيبة كفّارة لذنب يوازيها ، وبالرّضا يؤجر على ذلك ، فإن لم يكن للمصاب ذنب عوّض عن ذلك من الثّواب بما يوازيه " [٤] .

وهو توجيه حسن ولكن يعوزه الدّليل .

والقصد هنا أنّ المؤمن الّذي ابتلي بالمصائب إذا علم أنّ في ذلك تكفيراً لخطاياه ومحواً لذنوبه أعانه ذلك على الصّبر والثّبات عند الابتلاء .

---

(١) شرح النووي : ١٦/١٢٨-١٢٩ . ومن يرى هذا المذهب الشّيخ عز الدّين بن عبد السّلام (رحمه اللّه) . فتح الباري : ١٠/ ١٠٥ . طبعة دار المعرفة .

(٢) مجموع الفتاوى : ١٠/١٢٤ . ١٤/٢٥٥ .

(٣) انظر : فتح الباري : ١٠/١٠٥ . طبعة دار المعرفة . وعلى هذا القول جماهير العلماء وهو الّذي ارتضاه الإمام النّووي (رحمه اللّه) . انظر: شرح النّووي على مسلم: ١٦/١٢٨-١٢٩.

(٤) فتح الباري :١٠/١٠٥ . طبعة دار المعرفة .

ولهذا السبب كان أهل الإيمان كثيري الابتلاء بالمصـــائب دون أهـل الكفـر والنّفاق ، لأنّ اللّه سبحانه يكفّر عنهم بذلك ذنوبهم ، ويحطّ عنهم خطاياهم ، ويرفـع لهم درجاتهم .

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : " مثل المؤمن كمثل الـزّرع ، لا تزال الرّيح تميله ، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء . ومثل المنافق كمثل شـجرة الأرْز[1] لا تهتز حتّى تستحصد " [2] .

وفي رواية : " مثل المؤمن كمثل خامة الزّرع يفيء ورقه من حيـث أتتـها الرّيح تُكَفِّئُها فإذا سكنت اعتدلت . وكذلك المؤمن يُكَفَّأُ [3] بالبلاء . ومثل الكافر كمثل الأرْزَة صمّاء معتدلة حتّى يقصمها اللّه إذا شاء " [4] .

قال الإمام النّووي (رحمه الله) :

" قال العلماء : معنى الحديث أنّ المؤمن كثير الآلام في بدنه أو أهله أو ماله ، وذلك مكفّر لسيئاته ورافع لدرجاته ، وأمّا الكافر فقليلها ، وإن وقع به شيء لم يكفّـر شيئاً من سيئاته بل يأتي بها يوم القيامة كاملة " [5] .

---

(١) الأرز : بتسكين الرّاء ، وهو شجر معروف بالشّام ، واحدها أرزة. انظر: غريب الحديث للهروي : ١١٨/١.

(٢) صحيح البخاري: نحوه في: كتاب المرضى : (٧٥/٤٩). باب ما جاء في كفّارة المرض: (١). برقـم: (٥٦٤٣). عن كعب بن مالك ﷺ . وبرقم: (٥٦٤٤).عن أبي هريرة ﷺ . ص:١٢٢٧.

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم: (٥٠). باب مثل المؤمن كـالزّرع ومثـل الكـافر كشجرة الأرز: (١٤). برقم: (٢٨٠٩). عن أبي هريرة ﷺ . ونحـوه برقـم: (٢٨١٠).عـن كعـب ﷺ . ٢١٦٣/٤-٢١٦٤.

(٣) أي يميله ويقلبه. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ١٨٢/٤.

(٤) صحيح البخاري: بلفظه في: في كتاب التّوحيد: (٩٧/٧٢). باب قول اللّـه تعـالى: ﴿ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران:٢٦] . برقم: (٧٤٦٦) . عن أبي هريرة ﷺ .ص:١٥٦٨.

(٥) شرح النّووي على مسلم : ١٥٣/١٧ .

شبّه المؤمن بالخامة الّتي تميلها الرّيح لأنّه مُرَزأ ــ أي مصاب من الرزيئة وهي المصيبة ــ في نفسه وأهله وماله وولده ، وأمّا الكافر فمثل الأرزة الّتي لا تميلها الرّيح ، والكافر لا يرزأ شيئاً حتّى يموت فإن رزئ لا يؤجر عليـه ، فشبّه موته بانجعاف تلك حتّى يلقى اللّه بذنوبه جمّة . غريب الحديث للهروي : ١١٨/١. وانظر معناه في : فتـح الباري : ١٠٦/١٠-١٠٨ .طبعة دار المعرفة . عمدة القارئ : ٢٠٩/٢-٢١٠ .

ويؤيّد هذا المعنى حديث أبي هريرة ﷺ الآخر . قال : قال رسول اللّــــه ﷺ : " ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتّى يلقى اللّه وما عليـــه خطيئة " (١) .

---

(١) سنن التّرمذي: بلفظه في: كتاب الزّهد: (٣٣). باب ما جاء في الصّبر على البــــلاء: (٥٧). برقـــم: (٢٣٩٩). وقال: " هذا حديث حسن صحيح". و قال الألباني (رحمه اللّه): " حسن صحيح". ص:٣٩٣. وهو في السّلســـلة الصّحيحة: ٣٤٩/٥ . برقم: (٢٢٨٠) .

موطّأ مالك: نحوه في: كتاب الجنائز: (١٦). باب الحسبة في المصيبة: (١٣). برقم: (٤٠). ٢٣٦/١.

سنن البيهقي: بلفظ مقارب في: باب ما ينبغي لكلّ مسلم أن يستشعره من الصّبر على جميع ما يصيبه: ٣٧٤/٣.

مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٢٨٧/٢ ، ٤٥٠. وفي مسند أحمد بتحقيـــق أحمـــد شـــاكر: برقـــم: (٧٨٤٦) ، (٩٨١٠) . قال أحمد شاكر (رحمه اللّه): " إسناده صحيح ". ٢٤٧/١٤ ، ٤٢/١٩

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بلفظ مقارب في: ذكر البيان بأنّ تواتر البلايا على المسلم قد لا تبغي عليـــه سيئة يناقش عليها في العقبة . برقم: (٢٩١٣) . قال شعيب الأرناؤوط: " إسناده حسن". ١٧٦/٧.

وفي باب ذكر البيان بأنّ البلايا بالمرء قد تحطّ خطاياه بها . برقم: (٢٩٢٤) . ١٨٧/٧.

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في: ٤٩٧/١. وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه وله شـــاهد صحيح". وفي : ٣٥٠/٤. و قال الذّهبي (رحمه اللّه): " على شرط مسلم".

مسند أبي يعلى: بلفظ مقارب في: ٣١٩/١٠. برقم: (٥٩١٢). قال المحقّق: "إسناده حسن".

وفي: ٤٠٦/١٠. برقم: (٦٠١٢).

وانظر معناه في : تحفة الأحوذي : ٦٧/٧-٦٨ .

﴿ المطلب الثّالث ﴾

الإيمان بقدر الله السّابق

قال سبحانه وتعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحديد:٢٢-٢٣].

يخبر اللّه سبحانه وتعالى أنّ ما يصيب العباد من بلاء في الأرض ، كالقحط وقلّة النّبات والثّمار وغلاء الأسعار . وما يصيب الأنفس : كالأوصاب والأسقام وذهاب الأحباب ، كلّ ذلك بقدر اللّه السّابق الّذي قدّره قبل أن يخلق الأنفس ، أو المصيبة أو الأرض أو مجموع ذلك – وهو الأحسن – حتّى لا يحزن عباده بما أصابهم من النّقم وفوات النّعم ، ولا يفرحوا بما أعطاهم من نعم الدّنيا فيتخذونها أشراً وبطراً ويفخرون بها على النّاس ، فإنها كلّها بقدر اللّه ، وكلّها ذاهبة (١) .

وقال سبحانه : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [التغابن:١١].

يبيّن اللّه سبحانه وتعالى أنّه لا أحد من الخلق يبتلى بمصيبة إلاّ كان ذلك بمشيئة اللّه وتقديره . فمن أصيب بمصيبة فآمن باللّه واستسلم له وانقاد ، وعلم أنّ ذلك بقضائه وقدره فصبر واحتسب هدى اللّه قلبه وقذف فيه اليقين والثّبات (٢) .

روى ابن جرير (رحمه الله) بسنده إلى ابن عبّاس (رضي الله عنهما) أنّه قال في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ : " يهد قلبه لليقين ، فيعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه " .

---

(١) انظر معنى الآية في : جامع البيان : ٢٧/٢٣٣-٢٣٥ . " طبعة الحلبي " . التّفسير الكبير : ٢٩/٢٣٦-٢٣٧ . الجامع لأحكام القرآن : ١٧/٢٥٧-٢٥٨ . تفسير القرآن العظيم : ٤/٤٨٩-٤٩٠ . شفاء العليل : ص : ١٩٤.

(٢) انظر معنى الآية في : جامع البيان : ٢٨/١٢٣ . " طبعة الحلبي " . المحرر الوجيز : ١٤/٤٨٠ . الجامع لأحكام القرآن : ١٨/١٣٩ . تفسير القرآن العظيم : ٤/٥٨٦-٥٨٧

وروى عن علْقَمَة [1] أنّه قال : " هو الرّجل تصيبه المصيبة فيعلم أنّها من عند اللّه فيسلّم لها ويرضى " [2] .

وقال القرطبي (رحمه الله) :

﴿ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ للصّبر والرّضا ، وقيل : يثبّته على الإيمان " [3] .

فالمؤمن عليه أن ينظر إلى المصائب بعين القدر ، وأنّها مكتوبة عليه لابد لــه منها ، وأنّ ذلك اختيار اللّه له وتقديره .

واختياره سبحانه لعبده المؤمن خير من اختيار المؤمن لنفسه ، لأنّه ســبحانه أعلم بمصلحة المؤمن من نفسه ، وهو لا يقضي له قضاء إلاّ كان خيراً له .

كما قال النّبي ﷺ : " عجباً لأمر المؤمن ، إنّ أمره كلّه خير ، وليس ذاك لأحــد إلاّ للمؤمن ، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضرّاء صــبر فكــان خيراً له". [4] .

---

(١) هو علقمة بن قيس بن عبد اللّه . أبو شبل النّخعي الكوفي . التّابعي الجليل . أدرك الجاهليّة والإسلام فهو مخضــرم. لازم ابن مسعود ﷺ وكان من أنبل أصحابه. ثقة ثبت فقيه عابد ورع. مات بعد سنة ٦٠هـــ وقيل : بعد ســنة ٧٠هـــ.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٨٦/٦. طبقات خليفة: ص: ١٤٧. التّاريخ الكبير: ٤١/٧. معرفة الثّقـات: ١٤٥/٢. الجرح والتّعديل: ٤٠٤/٦. ثقات ابن حبّان: ٥/ ٢٠٧. مشاهير علمـــاء الأمصــار: ١٠٠/١. تــاريخ بغــداد: ٢٩٦/١٢. التعديل والتّجريح: ١٠١٥/٣. تهذيب الكمال: ٣٠٠/٢٠. تذكـــرة الحفّــاظ: ٤٨/١. الكاشــف: ٣٤/٢. جامع التّحصيل: ص: ٢٤٠. الإصابة: ١٣٦/٥. تهذيب التّهذيب: ٢٤٤/٧. تقريب التّهذيب: ٣٩٧/١.

(٢) جامع البيان : ١٢٣/٢٨ " طبعة الحلبي " .وأثر ابن عبّاس (رضي الله عنهما). أورده البخاري في صحيحه بمعنـاه في : كتاب التّفسير: (٣٩/٦٥). سورة التّغابن: (٦٤). ص:١٠٧١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن : ١٣٩/١٨ .

(٤) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الزّهد والرّقائق: (٥٣). باب المؤمن أمــره كلّــه لــه خــير: (١٣). برقــم: (٢٩٩٩).عن صهيب ﷺ . ٢٢٩٥/٤. وانظر فتح الباري : ١٠٩/١٠. طبعة دار المعرفــة . وانظــر مجمــوع الفتاوى : ٤٤/١٠ .

فاللّه سبحانه إذا أراد بعبده المؤمن خيراً ابتلاه بالمصائب فتكون خيراً له من عدمها .

عن أبي هريرة ﷺ قال : " قال رسول اللّه ﷺ : " من يرد اللّه به خيراً يصب منه " (١) .

وعن أنس ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : " إذا أراد اللّه بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدّنيا ، وإذا أراد اللّه بعبده الشّر أمسك عنه بذنبه حتّى يوافي به يوم القيامة " (٢) .

فالمصيبة قد تكون في نفسها مكروهة للعبد المؤمن نظراً لما يتأذّى من ذلك ، ولكنّها تكون محبوبة مرضية من وجه آخر ، وذلك بالنّظر لحكمة اللّه وقضائه لها، وما تضمنته من خير لذاك المؤمن (٣) .

والقصد هنا أنّ إيمان المؤمن بقضاء اللّه وقدّره فيما قدّره عليه من مصائب يعينه على الثّبات عند تلك المصائب ، لأنّها حينئذ تهون عليه ، ويخفّ وقعها ، ويسهل أمرها على قلبه فيثبت ويصبر (٤) .

---

(١) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب المرضى: (٤٩/٧٥) . باب ما جاء في كفّارة المرض:(١). برقم : (٥٦٤٥) ص:١٢٢٨.

وانظر في معنى الحديث : فتح الباري : ١٠٨/١٠ .طبعة دار المعرفة . عمدة القارئ : ٢١١/٢١ . شرح موطّأ الإمام مالك لأبي عبد اللّه محمّد بن عبد الباقي الزّرقاني . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . الطّبعة الأولى : ١٤١١هـ : ٤١٤/٤ .

(٢) سنن التّرمذي : بلفظه في: كتاب الزّهد: (٣٣). باب ما جاء في الصّبر على البلاء: (٥٧). برقم: (٢٣٩٦). وقال: "هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه" و قال الألباني (رحمه اللّه): " حسن صحيح". ص:٣٩٣. وهو في : السّلسلة الصّحيحة: ٢٢٠/٣ . برقم: (١٢٢٠) . ومشكاة المصابيح : ٤٩٣/١ . برقم: (١٥٦٥) .

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في: ٦٥١/٤.

مسند أبي يعلى: بلفظ مقارب في: ٢٤٧/٧. برقم: (٤٢٥٤).

(٣) انظر مجموع الفتاوى : ٤٢/١٠ .

(٤) هنا أمر تعرّض له أهل العلم وهو : هل الرّضا بما يقدّره اللّه على المؤمن من مصائب لا اختيار له فيها واجب عليه كالصّبر عليها أم هو مستحبّ ؟ . خلاف بين العلماء . والّذي رجّحه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيّم (رحمهما اللّه) : أنّه مستحبّ وليس بواجب . وللمزيد انظر : مجموع الفتاوى : ١٩١/٨ . مدارج السّالكين : ١٩٣/٢ .

﴿ المطلب الرّابع ﴾

ملاحظة العواقب المحمودة

❁ إنّ الابتلاء بالمصيبة قد يكون نعمة ، وذلك إذا نظر العبد إلى العواقب الحسنة المترتّبة على الثّبات والصّبر عليها .

قال تعالى : ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [التوبة: ٥٠-٥٢].

فهذا وصف للمنافقين الّذين كان يسوءهم ما يصيب النّبي ﷺ والمؤمنين من حسنة ونعمة ، ويفرحهم ما يصيبهم من مصيبة ونقمة ، زاعمين أنّهم لم يصابوا مع من أصيب لحذرهم ويقظتهم وتعقّلهم . فأرشد اللّه رسوله إلى أن يجيبهم بأنّ ما أصابه والمؤمنين بقدر اللّه وقضائه ، وأنّه نعمة من نعم اللّه عليهم أي ذلك كان : فإمّا أن نظفر بالعدوّ فننال الأجر والغنيمة والسّلامة ، وإمّا أن نقتل بأيديهم فننال الشّهادة في سبيل اللّه ، والفوز بالجنّة ، والنّجاة من النّار . وكلّ ذلك أمر محبوب لا يكره ، وهو نعمة (١) .

---

(١) انظر في معنى الآيات : جامع البيان : ١٠/١٥٠-١٥١ " طبعة الحلبي " . المحرر الوجيز : ٦/٥١٧ . التفسير الكبير : ١٦/٨٤-٨٧ . تفسير القرآن العظيم : ٢/٥٦٤-٥٦٥ . روح المعاني : ١٠/١١٤-١١٦ . محاسن التأويل : ٨/٣١٧٢-٣١٧٣ .

ولكن كيف تصير المصيبة نعمة ؟

قال شُرَيح (رحمه الله) [1]:

" ما أصيب عبد بمصيبة إلاّ كان لله عليه فيها ثلاث نعم : ألاّ تكون كانت في دينه ، وألاّ تكون أعظم ممّا كانت ، وأنّها لابد كائنة فقد كانت " [2] .

وقال الغزالي (رحمه الله) :

" البلاء صار نعمة باعتبارين : أحدهما بالإضافة إلى ما هو أكثر منه : إمّا في الدّنيا أو في الدّين ، والآخر بالإضافة إلى ما يرجى من الثّواب " [3] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" ما يصيب الإنسان ، إن كان يسرّه : فهو نعمة بيّنة ، وإن كان يسوءه : فهو نعمة من جهة أنّه يكفّر خطاياه ، ويثاب بالصّبر عليه . ومن جهة أنّ فيه حكمة ورحمة لا يعلمها : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦ ﴾ [البقرة:٢١٦] [4] .

---

(١) هو شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم . أبو أميّة الكندي الكوفي . تابعي مخضرم . ثقة فقيه مشهور. وقيل: له صحبة و لم تثبت. تولّى قضاء الكوفة لعمر وعليّ (رضي الله عنهما). مات سنة ٧٨هـ. وقيل بعدها. ويقال عاش ١٢٠سنة.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ١٣١/٦. طبقات خليفة: ص: ١٤٥. التّاريخ الكبير: ٢٢٨/٤. معرفة الثّقات: ٤٥١/١. الجرح والتّعديل: ٣٣٢/٤. ثقات ابن حبّان: ٣٥٢/٤. مشاهير علماء الأمصار: ٩٩/١. تهذيب الكمال: ٤٣٥/١٢. تذكرة الحفّاظ: ٥٩/١. الكاشف: ٤٨٣/١. جامع التّحصيل: ص:١٩٥. الإصابة: ٣٣٤/٣. تهذيب التّهذيب: ٢٨٧/٤. تقريب التّهذيب: ٢٦٥/١.

(٢) عدّة الصّابرين : ص : ١٠٠ .

(٣) إحياء علوم الدّين . لأبي حامد محمّد بن محمّد الغزالي . نشر مؤسّسة الحلبي وشركاه . ١٣٨٧هـ – ١٩٦٨م : ١٦٧/٤ . وانظر : ١٦٠/٤ .

(٤) مجموع الفتاوى : ٢١٠/٨ . وانظر : ٣٠٦/١٤

❁ من نظر إلى مصيبته يجد أنّ اللّه أبقى له أفضل منها أو مثلها ، ولو شـــاء سبحانه أن يصيبه بأعظم منها في الدّنيا لفعل ، ويمكن أن تكون في دينـــه ، وذلـك أعظم بلاء وأشدّ ، فعليه بالشّكر والصّبر (١) .

❁ الابتلاء بالمصائب دواء لكثير من الأمراض والأخلاط الفاســـدة كـالكبر العجب وقسوة القلب ، فاللّه يرحم عباده بالمصائب كي لا يطغوا ولا يبغوا ، فيشفيهم بها ويهذّبهم ويطهّرهم وينقّيهم ليشرّفهم بأعلى المراتب وأعظم الثّواب (٢) .

❁ لو فتّش المصاب حوله لم ير في العالم إلاّ مبتلـى بفـوات محبـوب ، أو حصول مكروه ، وأن بلاء الدّنيا لا يدوم بل هو منقطع فـي العـاجل أو الآجـل ، فالصّبر عليه أهون من بلاء الآخرة السّرمدي (٣) الّذي لا ينقطع . فـالفرق بينـهما شاسع والبون بينهما كبير (٤) .

❁ إنّ الله سبحانه هيّأ منازل لعباده المؤمنين في الجنّة لم تبلغـها أعمالـهم ، فقيّض لهم من الأسباب ما يوصلهم إليها ، فابتلاهم بالمحن ليبلغوا تلك المنازل (٥) .

قال رسول اللّه ﷺ : " إذا سبقت للعبد من اللّه منزلة لم يبلغها بعمله ابتـلاه اللّه في جسده أو في ماله ، أو في ولده ، ثمّ صبّره حتّى يبلّغه المنزلة الّتي سبقت له منه " (٦) .

---

(١) انظر : إحياء علوم الدّين : ٤/١٦٠ . زاد المعاد : ٤/١٩٠ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى : ١٠/١٤٧ . زاد المعاد : ٣/٢٢١ . ٤/١٩٥ .

(٣) السّرْمَد دوام الزّمان من ليل أو نهار. وليل سرمد : طويل . وفي التّنزيل العزيز : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا ﴾ [القصص:٧٢] .أي دائماً لا ينقطع . انظر: لسان العرب: ٣/٢١٢.

(٤) انظر : إحياء علوم الدّين : ٤/١٦١ . شفاء العليل : ص : ٢٤٦ . زاد المعاد : ٤/١٩٠-١٩١ .

(٥) انظر : المرجع السّابق : ٣/٢٢١ .

(٦) سنن أبي داود: بلفظ مقارب في: كتاب الجنائز: (٢٠). باب الأمراض المكفّرة للذّنوب: (١). برقم: (٣٠٩٠).
قال الألباني (رحمه اللّه): " صحيح ". ص: ٣٥٠. عن رجل من أصحاب النّبي ﷺ .
سنن البيهقي: بلفظ مقارب في: باب ما ينبغي لكلّ مسلم أن يستشعره من الصّبر على جميع ما يصيبه. ٣/٣٧٤.
مسند أحمد: بلفظه في: ٥/٢٧٢.
مسند أبي يعلى: بلفظ مقارب في: ٢/٢٢٤. برقم: (٩٢٣).

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" وإذا تأمّلت حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجلّ الغايات وأكمل النّهايات ، الّتي لم يكونوا يعبرون إليها إلاّ على جسر من الابتلاء والامتحان ، وكان ذلك الجسر لكماله كالجسر الّذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنّة إلاّ عليه ، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنهج في حقّهم والكرامة ، فصورته صورة ابتلاء وامتحان ، وباطنه فيه الرّحمة والنّعمة ، فكم لله من نعمة جسيمة ومنّة عظيمة تجنى من قطوف الابتلاء والامتحان " [(١)] . وهذه عبارات رصينة ، جمعت بين حسن المعنى وجودة السّبك .

فهذه العواقب المحمودة وغيرها الكثير متى ما استحضرها المسلم عند ابتلائه وجد فيها خير معين وأبلغ مساعد على صبره وثباته .

❀ ولا يفهم ممّا سبق أنّ المسلم يتمنّى الابتلاء بالمصائب ويتعرّض له لما يرى فيه من الأجر والثّواب ، لأنّ العافية خير من البلاء بالمصيبة ، وأسلم للمسلم منه .

ولذا كان الرّسول ﷺ يتعوّذ من جهد البلاء كما في حديث أبي هريرة ﷺ قال : " كان رسول اللّه ﷺ يتعوّذ من جهد البلاء ، ودَرَك الشّقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء " [(٢)] .

وجهد البلاء هو شدّة المشقّة ، وما لا طاقة للمرء بحمله ولا قدرة له على دفعه . وقيل : هو قلّة المال وكثرة العيال ، والأولى حمله على العموم [(٣)] .

---

(١) مفتاح دار السّعادة : ص : ١/٢٩٩ . وللمزيد من الوقوف على عوامل الثّبات عند الابتلاء فانظر : إحياء علوم الدّين : ٤/٩٠-٩٣ . ٤/١٥٨-١٦٩ . زاد المعاد : ٤/١٨٨-١٩٦ . شفاء العليل : ص : ٣٤-٣٥ . ١٩٤-١٩٥ . ٢٤٤-٢٤٨ . فتح الباري : ١٠/١٠٤ فما بعدها . طبعة دار المعرفة .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الدّعوات: (٨٠/٥٤). باب التّعوّذ من جهد البلاء: (٢٨). برقم: (٦٣٤٧). ص:١٣٥٤. وفي كتاب القدر: (٨٢/٥٦). باب من تعوّذ باللّه من درك الشّقاء وسوء القضاء: (١٣). برقم: (٦٦١٦). ص: ١٤٠٢. ولفظه: "تعوّذوا باللّه من جهد البلاء . ودرك الشّقاء . وسوء القضاء. وشماتة الأعداء".
صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨). باب التّعوّذ من سوء القضاء ودرك الشّقاء وغيره: (١٦). برقم: (٢٧٠٧). ٤/٢٠٨٠.

(٣) انظر : شرح النّووي على مسلم : ١٧/٣١ . فتح الباري : ١٢/٤٣٧ .

وكان ﷺ يحمد اللّه على العافية والسّلامة من البلاء بالمصائب .

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : " من رأى مبتلى فقال : الحمد لله الّذي عافاني ممّا ابتلاك به ، وفضّلني على كثير ممّن خلق تفضيلاً ، لم يصبه ذلك البلاء " (١) .

فالمسلم لا ينبغي له أن يتعرّض للبلاء بالمصيبة ولا للأسباب الّتي تؤدّى إلى ذلك ، والسّلامة خير له وأفضل (٢) .

---

(١) سنن التّرمذي :بلفظه في: كتاب الدّعوات: (٤٤) . باب ما يقول العبد إذا رأى مبتلى : (٣٧) . برقم : (٣٤٣٢) . وقال: "هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه". و قال الألباني (رحمه اللّه): " صحيح "
و بلفظ مقارب برقم: (٣٤٣١). وقال: "هذا حديث غريب ". و قال الألباني (رحمه اللّه): " حسن". ص: ٥٤٣. وهو في السّلسلة الصّحيحة : ٥٣١/٦ . القسم الأوّل . برقم: (٢٧٣٧) .
سنن ابن ماجه: بلفظ مقارب في: كتاب الدّعاء: (٣٤). باب ما يدعو به الرّجل إذا نظر إلى أهل البلاء: (٢٢). برقم: (٣٨٩٢). قال الألباني (رحمه اللّه): " حسن". ص:٤١٧.
معجم الطّبراني الصّغير نحوه عن أبي هريرة ﷺ . في:٤/٢. برقم: (٦٧٥).

(٢) للمزيد في هذه الجزئية . انظر : مجموع الفتاوى : ٣٨/١٠-٣٩ . وأشار إلى ذلك الغزالي في إحياء علوم الدّين : ١٦٨/٤ .

﴿ المطلب الخامس ﴾

مجانبة العوارض القادحة

وهناك أمور إضافة إلى ما سبق متى ما طرأت على ثبات المسلم عند الابتلاء بالمصائب كدّرته ، وأقضّت مضجعه ، فترهّل ذلك الثّبات ، وعجز أن يؤهل صاحبه لاجتياز الامتحان بتفوق ونجاح . من ذلك :

١/ الشّكوى :

وهي أن يذكر للنّاس ما به من مصيبة على سبيل التّضجّر والتّبرّم (١) . لأنّ المشتكي في الحقيقة طالب بلسان الحال إمّا إزالة ما يضرّه ، أو حصول ما ينفعه (٢) . وهذا ينافي الصّبر والثّبات لأنّه يقدح في رضا العبد بقضاء الله ، ورجائه في مولاه ، وأنّه يطلب من الخلق ملا يقدر عليه إلاّ الله سبحانه . وفيه شكوى العبد ربّه إلى عباده .

وأمّا الشّكوى إلى اللّه فإنّها لا تنافي الصّبر والثّبات لقول اللّه عن يعقوب عليه السّلام : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يوسف:٨٦] (٣) . مع قوله : ﴿ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ ﴾ [يوسف:٨٣،١٨] (٤) . لأنّ الشّكوى إليه سبحانه استعطاف وتملّق واسترحام (٥) .

---

(١) وانظر : الرّوح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدّلائل : للإمام ابن القيّم . نشر : دار الكتب العلميّة . بيروت . ١٣٩٥هـ ـــ ١٩٧٥م : ص : ٢٥٩ . فتح الباري : ١٢٤/١٠ . طبعة دار المعرفة .

(٢) مجموع الفتاوى : ٦٦٧/١٠ .

(٣) قال الرّاغب (رحمه اللّه):

" وقوله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ ﴾ أي غمّي الّذي يَبُثُّه عن كتمانٍ . فهو مصدر في تقدير مفعول . أو بمعنى غمّي الّذي بثّ فكري نحو: توزّعني الفكر . فيكون في معنى الفاعل". المفردات: ص: ٣٧.

(٤) وانظر : مجموع الفتاوى : ١٨٤/١٠ . ٦٦٦ . الرّوح : ص : ٢٥٩ . وجاء ذلك عن أيوب عليه السّلام . وسوف يأتي خبره في النّماذج .

(٥) انظر : الرّوح : ص : ٢٥٩ .

فاللّه يبتلي عبده بالمصائب ليسمع شكواه وتضرّعه إليه ودعاه ، والانكسار بين يديه ، وإظهار التّذلّل والفاقة والعجز .

ولذا ذمّ من لم يتضرّع إليه في كشف البلاء فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [المؤمنون:٧٦] [(١)] .

والشّكوى لا تنافي الإخبار بالحال ، كإخبار الإنسان لمن يودّ الاسترشاد منه ، أو معاونته ، أو إزالة ضرر به في مقدرته إزالته ، كإخبار المريض لصديقه أو طبيبه بحاله من غير تبرّم ، أو المظلوم لمن يرجو منه إزالة الظّلم عنه[(٢)] .

ولذا عنون *البخاري (رحمه الله)* في كتاب المرضى من صحيحه باباً قال فيه : " ما رخّص للمريض أن يقول : إنّي وجع أو وارأساه ، أو اشتدّ بي الوجع . وقول أيوب : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٣] " [(٣)] .

واستدلّ لذلك بأحاديث منها :

حديث عائشة (رضي الله عنها) لمّا قالت : " وارأساه " فقال لها النّبي ﷺ : " بل أنا وارأساه .. الحديث " [(٤)] .

---

(١) انظر : عدّة الصّابرين : ص : ٢٦ . الرّوح : ص : ٢٥٩-٢٦٠ .

(٢) انظر : عدّة الصّابرين : ص : ١٠ . ٢٣٢ .و انظر : الرّوح : ص : ٢٥٩ . فتح الباري : ١٠/١٢٤ . طبعة دار المعرفة .

(٣) صحيح البخاري : رقم الكتاب: (٧٥/٤٩). ورقم الباب: (١٦). ص:١٢٣٢.

والآية في الشّكوى إلى اللّه لا إلى الخلق . وذلك مطلوب شرعاً . فذكرها هنا لا يسلم من اعتراض .

(٤) هذا جزء من حديث في:

صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب المرضى: (٧٥/٤٩). باب قول المريض: إنّي وجع ، أو وارأساه ، أو اشتدّ بي الوجع: (١٦). برقم: (٥٦٦٦). ص:١٢٣٢. وفي كتاب الأحكام: (٩٣/٦٨). باب الاستخلاف: (٥١). برقم: (٧٢١٧). ص:١٥٢٠.

وقد وجّهه ابن القيّم(رحمه اللّه) بمعنيين . قال فيهما :

" فالمعنى الأوّل : يفهم أنّك لا تشتكي واصبري ، في من الوجع مثل ما بك ، فتأسّي بي في الصّبر وعدم الشّكوى. والمعنى الثّاني : يفهم إعلامها بصدق محبّته لها أي : انظري قوّة محبّتي لك كيف واسيتك في ألمك ووجع رأسك ، فلم تكوني متوجّعة وأنا سليم من الوجع ، بل يؤلمني ما يؤلمك كما يسرّني ما يسرّك " . الرّوح : ص : ٢٥٩.

فالمعنى الأوّل يعني به التّأسّي . والثّاني موافقة المحبّ لمحبوبه في ألمه وسروره .

وحديث سعد بن أبي وقاص ﷺ لمّا قال : " جاءنا رسول اللّه ﷺ يعودني من وجع اشتدّ بي زمن حجّة الوداع فقلت : بلغ بي ما ترى .. الحديث " [1] .

٢/ الجزع والسّخط :

الجزع نقيض الصّبر [2] ، والسّخط نقيض الرّضا [3] .

لقد خلق اللّه الإنسان وخلق فيه نفساً تميل أحياناً إلى الأخلاق الذميمة ، والأفعال القبيحة ، فإذا أصابه ضرّ ومكروه فزع وجزع ، وأصابه الهلع والرّعب واليأس ، إلاّ من عصمه اللّه وهداه إلى الحقّ ، ووفّقه ويسّر له السّبيل الموصل إليه سبحانه .

قال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ﴾ [المعارج:١٩-٢٢] [4] .

والجزع والسّخط داءان منافيان للثّبات ، معارضان له ، لأنّ فيهما اعتراضاً على قدر اللّه وحكمه ، ويتطرّق معهما الشّك إلى قضاء اللّه وحكمته .

عن أنس ﷺ عن النّبي ﷺ قال: " إنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإنّ اللّه إذا أحبّ قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرّضا ، ومن سخط فله السّخط " [5].

---

(١) هذا جزء من حديث في:
صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب المرضى: (٧٥/٤٩). باب قول المريض: إنّي وجع ، أو وارأساه ، أو اشتدّ بي الوجع: (١٦). برقم: (٥٦٦٨). ص:١٢٣٢. و بلفظ مقارب في: كتاب الجنائز: (٢٣/٦). باب رثى النّبي ﷺ سعد بن خولة: (٣٦). برقم: (١٢٩٥). ص:٢٧٢. وفي كتاب مناقب الأنصار: (٦٣/٣٧). باب قول النّبي ﷺ :" اللّهم امض لأصحابي هجرتهم" : (٤٩/١٠٩). برقم: (٣٩٣٦). ص:٨٢٥. وفي كتاب المغازي: (٦٤/٣٨). باب حجّة الوداع: (٧٧/٧٨). برقم: (٤٤٠٩). ص:٩١٦. وفي كتاب الدّعوات: (٨٠/٥٤). باب الدّعاء برفع الوباء والوجع: (٤٣). برقم: (٦٣٧٣). ص: ١٣٥٨.
صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب الوصيّة: (٢٥). باب الوصيّة بالثّلث: (١). برقم: (١٦٢٨). ٣/١٢٥٠-١٢٥١.

(٢) القاموس المحيط : ص : ٩١٦ .

(٣) المرجع السّابق : ص : ٨٦٤ .

(٤) وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٦٥٩/٤ .

(٥) سبق تخريجه .ص: ٣٢٤ .

وفي رواية : " ومن جزع فله الجزع " (١) .

قال ابن القيّم (رحمه الله) في الجزع :

" إنّ الجزع ضعف في النّفس ، وخوف في القلب ، يمدّه شدّة الطّمع والحرص ، ويتولّد من ضعف الإيمان بالقدر ، وإلاّ فمتى علم أنّ المقدّر كائن ولابد كان الجزع عناء محضاً ومصيبة " (٢) .

والسّخط باب للهمّ والغمّ والحزن ، وشتات القلب ، والظّن بالله خلاف ما هو أهله . والرضى يخلّص العبد من كلّ ذلك ، ويعينه على الثّبات .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" إنّ السّخط يوجب تلوّن العبد ، وعدم ثباته مع اللّه ، فإنّه لا يرضى إلاّ بما يلائم طبعه ونفسه ، والمقادير تجري دائماً بما يلائمه وبما لا يلائمه ، وكلّما جرى عليه منها ما لا يلائمه أسخطه ، فلا تثبت له قدم على العبوديّة ، فإذا رضي عن ربّه في جميع الحالات ، استقرّت قدمه في مقام العبوديّة ، فلا يزيل التّلوّن عن العبد شيء مثل الرّضا " (٣) .

وللجزع والسّخط مظاهر متعدّدة ، كشقّ الثّياب عند المصيبة ، ولطم الوجه ، وضرب الخدّ ، وحلق الشّعر ، والصّياح والدّعاء بالويل والثّبور (٤) ، وعظائم الأمور ، وغير ذلك ممّا نهى عنه الرّسول ﷺ .

---

(١) هذه الرّواية في مسند أحمد :بلفظها عن محمود بن لبيد ﷺ . في: ٤٢٩،٤٢٧/٥ .
وفي شعب الإيمان . لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي . تحقيق : محمّد السّعيد بسيوني زغلول . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . الطّبعة الأولى : ١٤١٠هـ : بلفظها : في : ١٤٥/٧ .
وأورده الهيثمي في مجمع الزّوائد . وقال : " ورجاله ثقات " . ٢٩١/٢ . والمنذري في التّرغيب والتّرهيب . وقال : " ورواته ثقات" . ١٤٢/٤ .
وانظر في معنى الحديث : تحفة الأحوذي : ٦٥/٧ .

(٢) الرّوح : ص : ٢٥٠ .

(٣) مدارج السّالكين : ٢٠٧/٢-٢٠٨ .

(٤) الثّبورُ: الهلاك والخسران والويل . وقد ثَبَرَ يَثْبُرُ ثُبوراً. وثَبَرَهُ اللّه: أهلكه إهلاكاً لا ينتعش . انظر: لسان العرب: ٩٩/٤. وانظر: مختار الصّحاح: ص: ٨٢ . القاموس المحيط: ص: ٤٥٦.

فعن عبد اللّه بن مسعود ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : " ليس منا من ضرب الخدود ، أو شقّ الجيوب ، أو دعا بدعوى الجاهليّة (١) " (٢) .

وعن أبي موسى ﷺ : " إنّ رسول اللّه ﷺ بريئ من الصّالقة (٣) ، والحالقة (٤) ، والشّاقّة (٥) " (٦) .

وكلّ هذه الأمور تنافي الصّبر والثّبات عند الابتلاء بالمصيبة .

---

(١) دعوى الجاهليّة: هي النّياحة ، وندبه الميّت ، والدّعاء بالويل وشبهه . والمراد بالجاهليّة ما كان في الفترة قبل الإسلام . شرح النّووي على مسلم: ٢/١١٠.

(٢) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الجنائز: (٦/٢٣). باب ليس منّا من شقّ الجيوب: (٣٥). برقم: (١٢٩٤). ص:٢٧٢. وفي باب ليس منّا من ضرب الخدود: (٣٨). برقم: (١٢٩٧). وفي باب ما ينهى من الويل ودعوى الجاهليّة عند المصيبة: (٣٩). برقم: (١٢٩٨). ص :٢٧٣. وفي كتاب المناقب: (٣٧/٦١). باب ما ينهى من دعوى الجاهليّة: (٨/١١). برقم: (٣٥١٩). ص: ٧٤٤.

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الإيمان: (١). باب تحريم ضرب الخدود . وشقّ الجيوب. والدّعاء بدعوى الجاهليّة: (٤٤). برقم: (١٠٣). ١/٩٩.

(٣) الصّالقة: من الصّلق وهو الصّوت الشّديد . ويقال بالسّين أيضاً. والمراد بالصّالقة المرأة الّتي ترفع صوتها عند المصيبة والفجيعة بالموت . انظر : النّهاية في غريب الحديث: ٣/٤٨. وانظر: غريب الحديث للهروي : ١/٩٧ ، ٣/٢٧٥. الفائق: ٢/٣٠٩.

(٤) الحالقة: هي الّتي تحلق شعرها عند المصيبة. شرح النّووي على مسلم:٢/١١٠. فتح الباري: ٣/١٦٦. طبعة دار المعرفة . وانظر: الفائق: ١/٣٠٦. النّهاية في غريب الحديث: ١/٤٢٧.

(٥) الشّاقّة: الّتي تشقّ ثوبها عند المصيبة. شرح النّووي على مسلم: ٢/١١٠.وانظر: فتح الباري: ٣/١٦٦. طبعة دار المعرفة.

(٦) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الجنائز: (٦/٢٣). باب ما ينهى من الحلق عند المصيبة: (٣٧). برقم: (١٢٩٦). ص: ٢٧٣.

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الإيمان: (١). باب تحريم ضرب الخدود . وشقّ الجيوب. والدّعاء بدعوى الجاهلية: (٤٤). برقم: (١٠٤). ١/١٠٠ .

٣/ الحُزْنُ :

هو عبارة عمّا يحصل لوقوع مكروه ، أو فوات محبوب في الماضي(١) .

والحزن نهى اللّه عنه في مواطن عدّة من كتابه كقوله سبحانه :﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٩] .

وكقوله لرسوله ﷺ : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل:١٢٧] .

وكقوله : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة:٤٠] .

والآيات كثيرة في ذلك . وإنّما نهى عنه لأنّه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرّة ، فليس فيه فائدة ، ولا يأثم الإنسان به إذا لم يقارنه محرّم . كحزن يعقوب عليه السّلام كما جاء عنه في قوله تعالى : ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف:٨٤] .

وأمّا الحزن إذا أفضى إلى ترك مأمور أو فعل محظور فإنّه محرّم ، وذلك كالحزن الّذي ينافي الصّبر عند المصائب نتيجة لضعف قلب صاحبه ، وضعف ثباته ، ويظهر في فعل الأيدي ، كشقّ الثّياب ولطم الخدود ، أو فعل اللّسان كالصّياح والعويل والدّعاء بالويل والثّبور وغير ذلك . وهذا الّذي ينافي الثّبات عند المصائب .

ولذا قال ﷺ : " إنّ اللّه لا يعذّب بدمع العين ولا بحزن القلب ، ولكن يعذّب بهذا ــ وأشار إلى لسانه ــ أو يرحم " (٢) .

---

(١) التّعريفات : ص : ١١٧ .

(٢) هذا جزء من حديث في:

صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الجنائز: (٢٣/٦). باب البكاء عند المريض: (٤٤). برقم: (١٣٠٤). ص: ٢٧٤. عن عبد اللّه بن عمر (رضي اللّه عنهما).

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الجنائز: (١١). باب البكاء على الميّت: (٦). برقم: (٩٢٤). ٦٣٦/٢.

وقال ﷺ : " تدمع العين ، ويحـــزن القلـب ، ولا نقـول إلاّ مـا يرضـي ربّنا " [1] .

وفي الحديثين دلالة أيضاً على أنّ البكاء الّذي لا ندب فيه ولا نياحة ولا صياح ولا عويل لا شيء فيه ، ولا ينافي الثّبات عند المصيبة . والأدلّة على ذلـك كثـيرة جداً [2].

---

(١) هذا جزء من حديث في:

صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب الجنائز: (٢٣/٦). باب قول النّبي ﷺ : " إنّا بك لمحزونـــون " : (٤٣). برقم: (١٣٠٣). ص: ٢٧٤. عن أنس ﷺ .

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الفضائل: (٤٣). باب رحمته ﷺ الصّبيان والعيال ، وتواضعه وفضل ذلـك: (١٥). برقم: (٢٣١٥). ١٨٠٧/٤-١٨٠٨.

وانظر : مجموع الفتاوى : ١٦/١٠-١٧ . وانظر : عدّة الصّابرين : ص : ٢٣٣ .

(٢) انظر إلى بحث تفصيلي قيّم عن البكاء وعدم منافاته للثّبات في : عدّة الصّابرين : ص : ٨١-٨٣ .

الفصل الخامس

نماذج للثّبات عند الابتلاء

وفيه مباحث :

المبحث الأوّل

رسل الله عليهم السّلام

إنّ رسل اللّه وأنبياءه عليهم السّلام هم الصّفوة المختارة من البشريّة جمعاء الّذين حباهم اللّه جزيل نعمه ، وأمطر عليهم سحائب مننه ، وهيّأهم لحمل رسالته ، وأداء أمانته ، ووهبهم من السّمات والصّفات ما يجعلهم في المقام الّذي يؤهلهم لإبلاغ ما كلّفوا به .

ولذلك محّصهم بالابتلاء ، وصقلهم بالاختبار ليكونوا أهلاً لذلك ، فكانوا عليهم السّلام أعظم النّاس بلاء وأشدّهم محنة . قاسوا الشّدائد بأنواعها ، وذاقوا المصائب بأشكالها ، فما لانت عريكتهم ، وما تضعضعت قواهم ، ولا فترت هممهم ، ولا انحلّت عزائمهم ، بل كانوا أهل اليقين والثّبات ، والإيمان والصّبر حتّى حازوا قصب السّبق في معالي الأمور ، وعبروا إلى أعظم الغايات وأجل النّهايات فنالوا الجزاء والثّواب ، ورفع اللّه قدرهم ، وأعلى ذكرهم ، وجعلهم قدوة الأنام ، وأئمة الخلق الّذين يُهتدى بهم ، ويتأسّى بأقوالهم وأفعالهم .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السّجدة:٢٤].

عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال : قلت يا رسول اللّه أي النّاس أشدّ بلاء ؟ قال : " الأنبياء ثمّ الأمثل فالأمثل ، فيبتلى الرّجل على حسب دينه ، فإن كان دينه

صُلْباً اشتدّ بلاؤه ، وإن كان في دينه رقّة ابتُلي على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتّى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة " [1] .

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : دخلت على النّبي ﷺ وهو يُوعَك [2] . فوضعت يدي عليه ، فوجدت حَرَّهُ بين يدي ، فوق اللّحاف ، فقلت : يا رسول اللّه ما أشدّها عليك ! قال : " إنّا كذلك . يُضَعَّفُ لنا البلاء ويضعّف لنا الأجر " قلت : يا رسول اللّه أي النّاس أشدّ بلاء ؟ قال : " الأنبياء " قلت : يا رسول اللّه ثمّ من ؟ قال: " ثمّ الصّالحون . إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتّى ما يجد أحدهم

---

(١) سنن التّرمذي : بلفظه في كتاب الزّهد: (٣٣). باب ما جاء في الصّبر على البلاء: (٥٧). برقم : (٢٣٩٨). وقال:" حسن صحيح". وقال الألباني (رحمه اللّه): "حسن صحيح ". ص:٣٩٣.
سنن ابن ماجه: بلفظه إلاّ أحرف يسيرة. في كتاب الفتن: (٣٦). باب الصّبر على البلاء: (٢٣). برقم : (٤٠٢٣). قال الألباني (رحمه اللّه): " حسن صحيح ". ص: ٤٣٣.
سنن الدّارمي: بلفظ مقارب في كتاب الرّقاق . باب أشدّ النّاس بلاء : ٢/ ٤١٢.
سنن البيهقي: بلفظ مقارب في باب ما ينبغي لكلّ مسلم أن يستشعره من الصّبر على جميع ما يصيبه من الأمراض والأوجاع والأحزان .٣٧٢/٣.
مسند أحمد: بلفظ مقارب في : ١٧٢/١، ١٧٣، ١٨٠. وبلفظه إلاّ أحرف يسيرة في: ١٨٥/١.
قال أحمد شاكر (رحمه اللّه): "إسناده صحيح ". مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٤٦/٣، ٥٢، ٧٨،٩٧، برقم : (١٤٨١)، (١٤٩٤)،(١٥٥٥)، (١٦٠٧).
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: : بلفظ مقارب في باب ذكر الإخبار عمّا يجب على المرء من توطين النّفس على تحمّل ما يستقبلها من المحن والمصائب. برقم : (٢٩٠٠). قال شعيب الأرناؤوط: " إسناده حسن". ١٦٠/٧. وبلفظه سوى أحرف يسيرة برقم : (٢٩٠١). ١٦١/٧. ونحوه في باب ذكر البيان بأنّ المسلم كلّما ثخن دينه كثر بلاؤه . برقم : (٢٩٢٠) ، (٢٩٢١). ١٨٣/٧-١٨٤.
مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في: ١/ ٩٩-١٠٠. وقال : "هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين".
مسند أبي يعلى: بلفظ مقارب . برقم : (٨٣٠). قال المحقّق: "إسناده حسن". ١٤٣/٢.

(٢) يوعك : الوعك بفتح الواو وسكون العين المهملة الحمى . وقد تفتح . وقيل : ألم الحمى . وقيل : تعبها . وقيل إرعادها الموعوك وتحريكها إياه . وعن الأصمعي : الوعك : الحَر . فتح الباري: ١١١/١٠-١١٢. طبعة دار المعرفة . وانظر: النّهاية في غريب الحديث : ٥ / ٢٠٦.

إلاّ العبَاءة [١] يُحوِّيها[٢] ، وإن كان أحدهم ليفـــرح بـالبلاء كمـا يفـرح أحدكـم بالرّخاء "[٣] .

قال الإمام النّووي (رحمه الله) :

" قال العلماء : والحكمة في كون الأنبياء أشدّ بلاء ثمّ الأمثـل فـالأمثل أنّـهم مخصوصون بكمال الصّبر ، وصحّة الاحتساب ، ومعرفة أنّ ذلك نعمة مـن اللّـه تعالى ليتمّ لهم الخير، ويضاعف لهم الأجر ، ويظهر صبرهم ورضاهم " [٤] .

وقد بيّن اللّه سبحانه وتعالى أنّ الأنبياء يبلغ بهم الابتـلاء مبلغـه ، والمحنـة غايتها حتّى يستبطئوا النّصر من اللّه مع تيقّنهم بوقوعه ، وثقتهم به ، ومـع عظيـم ثباتهم ، وقوّة جلدهم واصطبارهم ، ولكن مع ذلك يظلّوا على الثّبات مـهما تـأخّر نصر اللّه عنهم ، حتّى تتفرج الشّدّة ويزول الضّنك .

ولذا أمر اللّه تعالى أهل الإيمان أن يتأسّوا بهم في الثّبات فقال تعـالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة:٢١٤] [٥] .

والرّسل عليهم السّلام وإن اشتدّ ابتلاؤهم فإنّ العاقبة لهم .

---

(١) العباءة : ضَرْبٌ من الأكْسِيَةِ ، ويقال :عَبَايَة . والجمع عباء . انظر : النّهاية في غريب الحديث : ١٧٥/٣ .

(٢) يحوّيها : أي يجمعها . انظر : الفائق : ٣٢٨/١ . النهاية في غريب الحديث : ٤٦٦/١ .

(٣) سنن ابن ماجة :بلفظه في كتاب الفتن: (٣٦). باب الصّبر على البلاء: (٢٣). برقم : (٤٠٢٤) . قال الألبـاني (رحمه اللّه): " صحيح ". ص:٤٣٣.وهو في السّلسلة الصّحيحة : ٢٢٦/١ . برقم : (١٤٤) .
مسند أحمد: نحوه في: ٩٤/٣ .

(٤) شرح النّووي على مسلم : ١٢٩/١٦ . وانظر : عمدة القارئ : ٢١١/٢١ . تحفة الأحوذي : ٦٦/٧-٦٧ .

(٥) والآية سبق شرحها مع مصادر الشّرح . انظر : ٣٠٦

فعن عبد اللّه بن عبّاس(رضي الله عنهما) في حديث هِرَقْل [1] الطّويل وفيه : قال هرقل لأبي سفيان : " وسألتك هل قاتلتموه وقاتلكم ؟ فزعمت أن قد فعل ، وأنّ حربكم وحربه يكون دُولاً . ويُدال [2] عليكم المرّة وتُدالون عليه الأخرى ، وكذلك الرّسل تبتلى وتكون لها العاقبة " [3] .

وهذا من حكمة اللّه وسنّته في رسله بأن يدالوا مرّة ، ويدال عليهم أخرى ليتميّز من يتّبعهم بصدق وإخلاص ممّن يتّبعهم من أجل الغلبة [4] . وليعظّم اللّه بذلك أجرهم ، ويكثّر ثوابهم [5] . وليكمل لهم أنواع العبادة فيتعبّدهم في الشّدّة كما تعبّدهم في الرّخاء ، ويتعبّدهم بالصّبر والثّبات كما تعبّدهم بالحمد والشّكر . وله في كلّ ذلك الحكمة الكاملة ، والحجّة البالغة .

وهذه نماذج مضيئة لثلّة قليلة من صفوة البشريّة ، ضربوا بها أروع الأمثلة في الثّبات عند الابتلاء ، والصّبر عند الاختبار ، أدلّل بها على صدق ما أسلفت من القول بأنّ الأنبياء عليهم السّلام كانوا أكثر النّاس ابتلاء ، وأعظمهم ثباتاً .

وأتناول ذلك في مطالب أربعة :

---

(١) هِرَقْل : هو ملك الرّوم. وهرقل اسمه. ولقبه قيصر. وكان له علم في دين النّصرانيّة. وهو الّذي أرسل إليه النّبي ﷺ خطاباً يدعوه فيه إلى الإسلام. فأراد أن يسلم ولكنّ الرّوم أبت عليه . فضنّ بملكه فلم يسلم .

انظر: البداية والنّهاية: ٤/٢٦٢-٢٦٨. فتح الباري: ١/٣٣-٣٧. طبعة دار المعرفة .

(٢) الإدالة : الغَلَبة . يقال : أديل لنا على أعْدائنا أي نُصِرْنا عليهم ودانت الدّولةُ لنا ، والدّولةُ الانْتقالُ من حالِ الشّدّة إلى الرّخاء . ومعنى: يُدال عليكم وتُدالون عليه: أي يغلبكم مرّة . وتغلبونه أخرى .

انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٢/١٤١.

(٣)جزء من حديث أبي سفيان ﷺ الطّويل:

صحيح البخاري: كتاب: بدء الوحي. باب : (١/٦). برقم: (٧) . ص: ١٤. وفي كتاب: الجهاد والسّير: (٥٦/٣٢). باب دعاء النّبي ﷺ إلى الإسلام والنّبوّة: (١٠٢/١٠١). برقم: (٢٩٤١). ص: ٦٢٠. وفي كتاب: التّفسير: (٦٥/٣٩). باب ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [آل عمران:٦٤] : (٤). برقم: (٤٥٥٣). ص: ٩٥٠.

صحيح مسلم: كتاب: الجهاد والسّير: (٣٢). باب كتاب النّبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام: (٢٦). برقم: (١٧٧٣). ٣/١٣٩٣-١٣٩٧.

(٤) انظر : زاد المعاد : ٣/٢١٩ .

(٥) انظر : شرح النّووي على مسلم : ١٢/١٠٦ . تحفة الأحوذي : ٧/٦٧ .

﴿ المطلب الأوّل ﴾

محمّد بن عبد الله ﷺ

إنّ المتأمّل في سيرة هذا الرّسول الكريم ﷺ يجد أنّه قد تحمّل من الابتلاءات ما لم يتحمّله غيره ، وذاق من أنواع الشّدائد ما لم يذقه سواه ، منذ أن انبثق فجر نبوّته إلى أن لقي ربّه سبحانه وتعالى .

فمنذ أن صدع بالحقّ في مكّة واجهه قومه الّذين ترعرع بينهم بكلّ سبّة وبلاء ، تفنّنوا في أذيته بأنواع الأذى وأصنافه ، بالقول والفعل ، والافتراء عليه والبهتان ، فتارة بأنّه ساحر ، وأخرى بأنّه كاهن ، وحيناً بأنّه كذّاب ، وضيّقوا عليه وعلى من معه الخناق حتّى ألجئوه إلى الخروج من وطنه ومسقط رأسه (١) .

وهو في المدينة لم يهدأ له بال ، ولم يهنأ براحة من العيش ولذيذ المطعم ، بل ظلّ عليه السّلام يكابد المشاقّ ، ويقاوم أنواع المحن . حروب من أعداء اللّه لا ينطفئ لهيبها ولا تخمد نارها ، يفقد في بعضها من أعزّ أهله وأصحابه إليه ، كما فقد أبناءه وفلذات كبده من قبل . ويشجّ وجهه ، وتكسر رباعيته ، ويلاقي من الأذى ما يلاقي .

وكيد من اليهود والمنافقين الّذين لم يرعووا عن إيصال كلّ أذيّة وبلاء إليه وإلى أصحابه ، سالكين كلّ مسلك يوصلهم إلى ذلك .

وهو مع هذا لم يهنأ برغد العيش ، وطيّب الطّعام ، فلم يمتلئ جوفه قطّ بخبز برّ إلى أن لقي اللّه تعالى .

قالت عائشة (رضي الله عنها) :

" ما شبع رسول اللّه ﷺ ثلاثة أيام تباعاً من خبز برّ حتّى مضى لسبيله " (٢) .

---

(١) انظر : فيما لقي النّبي ﷺ من أذى قومه : السّيرة النّبويّة لا بن هشام : ١/١٧٣-١٧٤ . ٢٢١ . وانظر : مفتاح دار السّعادة : ص : ١/٣٠١ .

(٢) صحيح البخاري: نحوه في كتاب الأطعمة: (٧٠/٤٤). في باب قول اللّه تعالى: ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ [البقرة:٥٧] : (١). برقم : (٥٣٧٤). ص: ١١٧٩. عن أبي هريرة ﷺ .

وقد كان يشتدّ به المرض ﷺ إلى منتهاه ، ويبلغ به الوجع غايته .

عن عبد اللّه بن مسعود ﷺ قال : دخلت على رسول اللّه ﷺ وهو يوعك فقلت : يا رسول اللّه : إنّك توعك وعكاً شديداً ، قال : " أجل إنّي أوعك كما يوعك رجلان منكم " قلت : ذلك أنّ لك أجرين ، قال : " أجل ذلك كذلك ، ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلاّ كَفَّرَ اللّه بها سيّئاته كما تحطّ الشّجرة ورقها " (١) .

وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت :

" ما رأيت أحداً أشدّ عليه الوجع من رسول الله ﷺ " (٢) .

وفي باب ما كان النّبي ﷺ وأصحابه يأكلون: (٢٣). برقم : (٥٤١٦). ص:١١٨٧. وفي باب ما كان السّلف يدّخرون في بيوتهم وأسفارهم من الطّعام وغيره : (٢٧). برقم : (٥٤٢٣). ص: ١١٨٨. وفي باب القديد: (٣٧). برقم : (٥٤٣٨). ص: ١١٩٠. وفي كتاب الرّقاق :(٨١/٥٥). باب كيف كان عيش النّبي ﷺ وأصحابه وتخلّيهم من الدّنيا: (١٧). برقم : (٦٤٥٤). ص: ١٣٧٤-١٣٧٥. وفي كتاب الأيمان والنّذور: (٨٣/٥٧). باب إذا حلف أن لا يأتدم فأكل تمراً بخبز . وما يكون من الأدم : (٢٢). برقم : (٦٦٨٧). ص: ١٤١٤.

صحيح مسلم: بلفظه وبنحوه في كتاب الزّهد والرّقائق: (٥٣). برقم : (٢٩٧٠). ٤/٢٢٨١-٢٢٨٢.

ونحوه عن أبي هريرة ﷺ برقم : (٢٩٧٦). ٤/٢٢٨٤.

(١) صحيح البخاري : بلفظه في كتاب المرضى : (٧٥/٤٩). باب : أشدّ النّاس بلاء الأنبياء ثمّ الأوّل فالأوّل :(٣). برقم : (٥٦٤٨). ص: ١٢٢٨. و بلفظ مقارب في باب شدّة المرض: (٢). برقم : (٥٦٤٧). ص: ١٢٢٨. وفي باب وضع اليد على المريض: (١٣). برقم : (٥٦٦٠). ص: ١٢٣١. وفي باب ما يقال للمريض وما يجيب: (١٤). برقم : (٥٦٦١). ص: ١٢٣١. وفي باب قول المريض : إنّي وجع . أو وارأساه . أو اشتدّ بي الوجع: (١٦). برقم : (٥٦٦٧). ص: ١٢٣٢.

صحيح مسلم: بلفظ مقارب في كتاب البر والصّلة والآداب: (٤٥). باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض ، أو حزن ، أو نحو ذلك ، حتّى الشّوكة يشاكها: (١٤). برقم : (٢٥٧١). ٤/١٩٩١.. وانظر معنى الحديث في : فتح الباري :١١٢/١٠ . طبعة دار المعرفة .

(٢) صحيح البخاري : بلفظه في : كتاب المرضى : (٧٥/٤٩) . باب شدّة المرض : (٢) . برقم : (٥٦٤٦) . ص : ١٢٢٨ .

صحيح مسلم : بلفظه ــ إلاّ إنّها قالت : " رجلاً " ــ في : كتاب البر والصّلة والآداب : (٤٥) . باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك : (١٤) . برقم : (٢٥٧٠) . ٤/١٩٩٠ .

ومع عظيم هذه الابتلاءات ، وشديد هذه الامتحانات ، ثبت رسـول اللّـه ﷺ على الحقّ ولم ينحرف عنه يسرة ولا يمنة ، بل ظلّ على الطّريق المستقيم والمنـهج القويم ، يكافح وينافح من أجل إرضاء ربّه ونصرة دينه .

قال فخر الدّين الرّازي (رحمه الله) :

" إنّه ﷺ تحمّل في أداء الرّسالة أنواعاً من المشاقّ والمتاعب ، ولم يتغيّر عـن المنهج الأوّل البتّة . ولم يطمع في مال أحد ولا جاهه ، بل صبر على تلك المشـاقّ والمتاعب ، ولم يظهر في عزمه فتور ، ولا في إصراره قصور " [١] .

ويقول *جمال الدّين القاسمي (رحمه الله)* عند تفسير قول تعـالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب:٢١]. يقول :

" أي في أخلاقه وأفعاله قدوة حسنة ، إذ كان منها ثباته فـي الشّـدائد وهـو مطلوب ، وصبره على البأساء والضرّاء وهو مكروب ومحروب [٢] ، ونفسه فـي اختلاف الأحوال ساكنة ، لا يخور في شديدة ، ولا يستكين لعظيمة أو كبيرة ، وقـد لقي بمكّة من قريش ما يُشيِّبُ النّواصي ، ويهدّ الصّياصي [٣] ، وهو مع الضّعـف يصابر صبر المستعلي ، ويثبت ثبات المستولي " [٤] .

وكيف لا يثبت ﷺ عند الابتلاء وهو الّذي يعلم أنه ما بعث إلاّ للابتلاء ، وأنّـه لابد أن يبتلى ، كما أخبره ربّه بذلك ؟.

---

(١) الأربعين في أصول الدّين . لفخر الدّين محمّد بن عمر الخطيب الرّازي . النّاشر . مكتبة الكلّيات الأزهريّـة . ص : ٣١٢ .

(٢) محروب : أي سلب ماله . من حَرَبَ .. انظر : القاموس المحيط : ص : ٩٣ .

(٣) الصّياصي : جمع الصّيصَة . وهي : الحصن . وكلّ ما امتنع به . انظر : المرجع السّـابق : ص : ٨٠٣ . مـادّة : صيص .

(٤) محاسن التّأويل : ٤٨٣٦/١٣ .

عن عياض بن حمار المجاشعي ﷺ : أنّه ﷺ قال : " ألا إنّ ربّي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم ممّا علمني يومي هذا " . وفيه : " وقال : إنّما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك " الحديث (١) .

قال النّووي (رحمه الله) :

" معناه لامتحنك بما يظهر منك من قيامك بما أمرتك به من تبليغ الرّسالة ، وغير ذلك من الجهاد في اللّه حقّ جهاده ، والصّبر في اللّه تعالى ، وغير ذلك . وأبتلي بك من أرسلتك إليهم ، فمنهم من يظهر إيمانه ، ويخلص في طاعاته ، ومن يتخلّف ويتأبّد(٢) بالعداوة والكفر ، ومن ينافق " (٣) .

---

(١) الحديث سبق تخريجه . انظر : ص : ٢٧٧ .

(٢) أي يظلّ ويقيم على العداوة والكفر . وانظر : لسان العرب : ٦٨/٣ .

(٣) شرح النّووي على مسلم : ١٩٨/١٧

﴿ المطلب الثّاني ﴾

إبراهيم عليه السّلام

إنّ اللّه تعالى امتدح نبيّه إبراهيم عليه السّلام وأثنى عليه في آيات كثر ، ورفع مكانه وأعلا مقامه ، فقال في شأنه سبحانه : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النّحل:١٢٠-١٢٣].

فهو أمّة ، والأمّة : القدوة المعلّم للخير الّذي يأتمّ النّاس به . وهو قانت ، والقانت : المطيع لله ، الملازم لطاعته . وهو حنيف ، والحنيف : المقبل على اللّه ، المعرض عمّا سواه . وهو الشّاكر لنعم اللّه القائم بحقّها خير قيام . وهو إمام التّوحيد وقائد الموحّدين ، الّذين أخلصوا العبادة لله . وهو الّذي أُمر رسول اللّه ﷺ باتّباع ملّته دون غيره من الأنبياء (١) . وهو خليل الرّحمن الّذي اتخذه خليلاً كما قال : ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النّساء:١٢٥] . وذلك لأنّ محبّة اللّه تخلّلت روحه وقلبه حتّى لم يبق فيه موضع لغيره(٢) . وهو المتضرّع إلى اللّه المكثر من دعائه ، الحليم عمّن ظلمه وأناله مكروها . كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة:١١٤] (٣) . وهو صاحب القلب السّليم ، الّذي قد سلم لربّه ، وسلم لأمره ، فسلم من كلّ شبهة تعارض خبره ، ومن كلّ شهوة تعارض أمره ، ومن كلّ

---

(١) انظر : جلاء الأفهام في فضل الصّلاة على محمّد خير الأنام : لابن القيّم . نشر : دار العروبة . الكويت . الطّبعة الثّانية : ١٤٠٧هـ . ١٩٨٧م . تحقيق : شعيب الأرناؤوط ـ عبد القادر الأرناؤوط : ص : ٢٦٩ . مفتاح دار السّعادة : ١٧٤/١ . الضّوء المنير : ٧٩/٤-٨٠ . ١٤٤/٥-١٤٥ .

(٢) انظر : مدارج السّالكين : ٣٠/٣ . الضّوء المنير : ١٥٠/٥

(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم : ٦١٤/٢

إرادة تزاحم مراده ، ومن كلّ قاطع يقطعه عن اللّه ، وفي ذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الصّافات:٨٣، ٨٤] (١) .

وقد لاقى هذا النّبي الكريم أصنافاً من الابتلاءات ، وأنواعاً من الاختبارات فاجتازاها بثبات ورباطة جأش ، وقوّة عزيمة ، وصدق إيمان ، وصبر ومصابرة ، حتّى جعله اللّه إماماً يحتذى حذوه ، وجعل النّبوة في ذريته .

قال سبحانه : ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة:١٢٤] (٢) .

ابتلاه بما كلّفه به من الأوامر والنّواهي فقام بهنّ خير قيام ، وأداهنّ أحسن تأدية ، حتّى شهد اللّه له بذلك ، فقال : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النّجم:٣٧] .

وابتلاه بالنّار حين قذفه قومه فيها بعد أن حطّم أصنامهم ، وحاجّهم ، فألزمهم الحجّة ، فاجتاز بلاء النّار بصبر وثبات ، فأنجاه اللّه منها ، وسلّمه من قومه .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٦٨-٧٠] (٣) .

---

(١) انظر : كتاب الجواب الكافي : ص : ٨٤ . مفتاح دار السّعادة : ٤١/١ . الضّوء المنير : ٤٣٤/٤-٤٣٥

(٢) قد سبق الكلام في معنى هذه الآية . انظر ص : ٢٨٨

(٣) انظر : الآيات قبلها .

ولقد خاض مع ابنه إسماعيل[1] عليهما السّلام تجربة قاسية ، واختباراً شاقاً لا يثبت فيه إلاّ أهل الإيمان الصّادق ، واليقين الّذي لا يتطرّق إليه الشّك ، ولا يعتريه الوهن .

قال تعالى في سياقه لتلك الحادثة المروّعة :

﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾
فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى
ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن
شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن
يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا
لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾
سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ
إِسْحَـٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الصّافات:٩٩-١١٣] .

---

(١) اختلف أهل العلم في الذّبيح على أقوال . حصرها الألوسي (رحمه اللّه) في أربعة أقوال : الأوّل : أنّه إسماعيل عليه السّلام . الثّاني : أنّه إسحاق عليه السّلام . الثّالث : اللّه أعلم أيّهما الذّبيح (أي التّوقف فيه) . الرّابع : حدث مرّتين : مرّة بالشّام لإسحاق . ومرّة بمكّة لإسماعيل . انظر : روح المعاني : ١٣٦/٢٣ .

فإذا استبعدنا القول الثّالث والرّابع لضعفهما فإنّ بعض أهل العلم نصر القول بأنّه إسحاق كما زعم أهل الكتاب – من أولئك الإمام القرطبي (رحمه اللّه) وقد انتصر لذلك في مواضع من تفسيره . انظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٠٠/١٥،١٠١،١١٢،١١٣ – وذهب جمهور الصّحابة والتّابعين وجمهور أهل العلم على أنّه إسماعيل عليه السّلام . وهو الصّواب الّذي تدعمه الأدلّة . انظر : التّفسير الكبير : ١٥٨/٢٦ . تفسير القرآن العظيم : ٢٧/٤-٣٠ . تفسير أبي السّعود : ٢٠٠/٧ . روح المعاني : ١٣٦/٢٣ . تيسير الكريم الرّحمن : ص: ٦٥٢ .

وانتصر لهذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيّم . وأبطلا القول بأنّه إسحاق بأكثر من عشرين وجهاً. انظر : زاد المعاد : ٧١/١-٧٥ . الضّوء المنير : ٤٩٦/٣-٤٩٩ . إغاثة اللّهفان : ٣٥٥/٢-٣٥٧ .

إنّ إبراهيم عليه السّلام بعد أن نجا من النّار أيس من قومه ، فاعتزلهم مهاجراً إلى حيث يتمكّن من عبادة ربّه ، طالباً الهداية من اللّه في أمر دينه ودنياه .

ثمّ توجّه إلى ربّه بالدّعاء ليهب له أبناء صالحين يستعيض بهم عن قومه وعشيرته الّذين فارقهم . فأجاب اللّه دعاءه ، وبشّره بغلام ذكر موصوف بالحلم ، الّذي يتضمّن الصّبر ، وحسن الخلق ، وسعة الصّدر ، والعفو عمّن جنى في حقّه . ثمّ وهبه إياه فكان أوّل ابن له ، وهو إسماعيل عليه السّلام . فلمّا كبر وترعرع وبلغ المبلغ الّذي يسعى مع أبيه ويعينه في أمور دنياه ، أو طاق ما يفعله أبوه من السّعي ، وبلغ سنّاً يكون فيها أحبّ لوالديه ، حيث ذهبت مشقّته وأقبلت منفعته ، رأى أبوه في النّوم أنّه يذبحه – ورؤيا الأنبياء وحي[(١)] – عند ذلك استشار ابنه في هذا الخطب العظيم ، والأمر الجلل ليرى صبر ابنه وثباته في طاعة اللّه ، والانقياد لأمره ، ولتقرّ عينه بذلك ، وليكون الذّبح أهون على ابنه ، ولينال الثّناء الحسن في الدّنيا ، والثّواب العظيم في الآخرة[(٢)] .

---

(١) روى البخاري في صحيحه عن عبيد بن عمير (رحمه اللّه) قال: " رؤيا الأنبياء وحي ثمّ قرأ : ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ ﴾ [الصّافات:١٠٢] . كتاب الوضوء: (٤). باب التّخفيف في الوضوء: (٥). ص: ٤٨.

(٢) بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه اللّه) الحكمة من ابتلاء إبراهيم بذبح ابنه . والمنفعة الّتي تعود على المبتلى من ذلك . فقال : " والتّحقيق أنّ الأمر الّذي هو ابتلاء وامتحان يحضّ عليه من غير منفعة في الفعل متى اعتقده العبد وعزم على الامتثال حصل المقصود . وإن لم يفعله كإبراهيم لمّا أمر بذبح ابنه ...... وهذا هو الحكمة النّاشئة من نفس الأمر والنّهي لا من نفس الفعل . فقد يؤمر العبد وينهى . وتكون الحكمة طاعته للأمر وانقياده له . وبذله للمطلوب . كما كان المطلوب من إبراهيم تقديم حبّ اللّه على حبّه لابنه حتّى تتمّ خلّته به قبل ذبح هذا المحبوب لله . فلمّا أقدم عليه ، وقوي عزمه بإرادته لذلك تحقّق بأنّ اللّه أحبّ إليه من الولد وغيره . و لم يبق في قلبه محبوب يزاحم محبّة اللّه .

وكذلك أصحاب طالوت . ابتلوا بالامتناع من الشّرب ليحصل من إيمانهم وطاعتهم ما تحصل به الموافقة . والابتلاء ههنا كان بنهي لا بأمر . وأمّا رمي الجمار والسّعي بين الصّفا والمروة فالفعل في نفسه مقصود لما تضمّنه من ذكر اللّه " . مجموع الفتاوى : ١٤/١٤٥ . وانظر : إغاثة اللّهفان : ٢/٣٥٦ . زاد المعاد : ١/٧٤ . الضّوء المنير : ٣/٤٩٨ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٦٥٢ .

عندها أجاب إسماعيل عليه السّلام منصاعاً لأمر اللّه ، منقاداً له : امض يـــا أبت لما أمرك اللّه فإنّي سأصبر واحتسب أجري عند اللّه ، وقرن ذلك بمشيئة اللّــــه لأنّه لا شيء يكون إلاّ بمشيئته ، وفيه طلب العون من اللّه .

ولقد الزم نفسه عليه السّلام بالصّبر ووعد أباه به ، وفي ذلك توطين للنفـــس على الثّبات . وقد وفّى بوعده وبما التزم به من الصّبر والثّبات فمدحه اللّه بذلـــك ، فقال : ﴿ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٥].

وقـــال : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾ [مريم:٥٤] .

لقد استسلما لأمر اللّه وانقادا له ، وأخلصا نفســيهما إلـــى ربّــهما ســبحانه وتعالى . إبراهيم جازم بذبح ثمرة فؤاده امتثالاً لأمر اللّه ، وإسماعيل موطّن نفســـه على الصّبر في طاعة اللّه وطاعة والده .

ويتحقّق العزم على الفعل ، وتوطّن النّفس على مقدّماته ، فيصرع إبراهيـــم عليه السّلام فلذة كبده الوحيد على أحد جنبيه استعداداً لتنفيذ أمر اللّه فيـــه ، فيـأتي الفرج من اللّه ، وينكشف الكرب ، وتزول الغمّة .

لقد قام إبراهيم عليه السّلام بما كلّف به خير قيام ، وأدّى الطّاعة على أكمـل وجه ، وفعل ما أمكنه فعله ، صابراً ثابتاً ، ممتثلاً ، طائعاً . ولذا خلّصه اللّــه مــن هذه المحنة بكبش عظيم القدر يذبح فداء لابنه عليه السّلام .

وتلك سنّة اللّه في تخليص المحسنين من الشّدائد والابتلاءات . بل واســتحقّ بذلك الثّناء الحسن والأجر العظيم ، لأنّه اجتاز بثباته وثبات ابنه عقبة كأداء ، ومحنة بيّنة صعبة ، شديدة المراس ، لا يجتازها إلاّ الصّادقون المخلصون . فأبقى اللّه لـــه ثناء جميلاً عاطراً في الأمم .

فما من أمّة إلاّ وتعظّمه ، وتوّج اللّه ابتلاءه له بسلام منه ، وشرّفه بالإضافـة إليه لأنّه أعطى العبوديّة حقّها .

وجعل اللّه ما جرى على يديه سنّة في أهل الإسلام : أن يذبح كلّ قادر منهم مستطيع كبشاً تعظيماً لله ، وتأسّياً بإبراهيم عليه السّلام (١) .

إنّ تلك الحادثة تغرس في نفس المسلم الإيمان الصّادق بالخالق عزّ وجلّ ، والانصياع التّام لأوامره سبحانه وتعالى ، ولو كان في ذلك هلاك النّفس ، وذهاب الرّوح . كما تتجلّى فيها حكمته سبحانه في ابتلاء عباده ببعض التّكاليف الشّاقة التّي توصلهم بالثّبات والصّبر عليها إلى المقامات السّامية ، والمنازل العالية . وفيها تنبيه لكلّ مسلم صادق في هذه الحياة بأنّه معرّض للابتلاء مهما بلغ إيمانه ، وزاد يقينه . وقد يكون ذلك بما تكرهه نفسه ، ويأباه قلبه ليوطّن نفسه على الثّبات ، ويهيّئها على الصبر .

---

(١) انظر في معنى الآيات : الكشّاف : ٣/٣٤٨-٣٤٩ . " طبعة الحلبي " . المحرر الوجيز : ١٢/٣٨٤-٣٨٧ . التّفسير الكبير : ٢٦/١٥٦-١٥٩ . الجامع لأحكام القرآن : ١٥/٩٧-١١٢ . تفسير القرآن العظيم : ٤/٢٣-٣٦ . تفسير أبي السّعود : ٧/٢٠٠-٢٠٢ . روح المعاني : ٢٣/١٣١-١٣٦ . محاسن التّأويل : ١٤/٥٠٤٩-٥٠٥٢ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٦٥٢ . وانظر : مفتاح داو السّعادة . ص : ١/٣٠٠ .

﴿ المطلب الثّالث ﴾

يوسف بن يعقوب عليهما السّلام

لقد ابتلي يوسف عليه السّلام بمحن متتالية ، وابتلاءات متعاقبة ثبت عندها ثبات الكرام ، وصبَر صبْر الأبطال العظام ، حتّى اجتازها مكرّماً منعّماً ، نال بها سعادة الدّنيا والآخرة .

ابتلي عليه السّلام بحسد إخوته له لحبّ أبيه له ولأخيه دون من سواه ، حيث قالوا : ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ [يوسف:٨] (١) .

وكادوه عليه السّلام حتّى فرّقوا بينه وبين أبيه . وأجمعوا أمرهم على إلقائه في أسفل الجبّ(٢) وحيداً فريداً .

كما قال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [يوسف:١٥] (٣) .

ثمّ باعوه رقيقاً بثمن قليل جدّاً لمن ذهب به إلى بلاد الكفر ، وكانوا فيه زاهدين لأنّ قصدهم إبعاده عن أبيه لا الثّمن ، وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى : ١٢١/١٠ .. وانظر في معنى الآية : الجامع لأحكام القرآن : ١٣٠/٩-١٣١ . تفسير القرآن العظيم : ٧٢٦/٢ .

(٢) الجُبُّ: البئرُ ، مذكر . وقيل: هي البئر الّتي لم تُطْوَ . وقيل: هي الجَيِّدةُ الموضع من الكلأ. وقيل: هي البئر الكثيرة الماء البَعيدةُ القَعْرِ ، أو هي ممّا وجد لا ممّا حفره النّاس . انظر: القاموس المحيط: ص:٨٣. وانظر : لسان العرب: ٢٥٠/١.

(٣) انظر : إغاثة اللّهفان : ١١٤/٢. وانظر في معنى الآية : الجامع لأحكام القرآن : ١٤١/٩-١٤٤ . تفسير القرآن العظيم : ٧٢٨/٢-٧٢٩ .

عَلِيمٌۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يوسف:١٩-٢٠] (١) .

وقد باعه أولئك مملوكاً إلى عزيز مصر الّذي أعجب بـه ، وتوسّم الخير والصّلاح فيه ، فوصّى عليه امرأته قائلاً لـها : ﴿ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ ﴾ [يوسف:٢١].

وفي بيت العزيز ابتلي يوسف عليه السّلام بمحنة عظيمة فاقت في عظمها كلّ المحن السّابقة .

لقد كانت محن إخوته له من باب المصائب الّتي لا اختيار له في دفعها ، وأمّا ابتلاؤه هنا فبمعصية له الاختيار في دفعها أو الوقوع فيها . والثّبات عندها أشدّ على النّفس من الثّبات على ما سبق ، خاصّة وأنّ تلك المعصية حفّت بالدّواعي المتكاثرة الّتي تدفع العبد دفعاً لارتكابها ، والإقدام على فعلها (٢) .

يقول تعالى : ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف:٢٣-٢٤] (٣) .

لقد كان يوسف عليه السّلام ذا جمال وكمال وبهاء ، فتعلّقت به امرأة العزيز وأحبّته حبّاً بلغ شغاف (٤) قلبها ، حتّى حملها على مراودته ومحاولته أن يواقعها ،

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى : ١٠/١٢١ . شفاء العليل . ص : ٣٤ .. وانظر في معنى الآيتين : الجامع لأحكام القرآن : ٩/١٥٢-١٥٧ . تفسير القرآن العظيم : ٢/٧٣٠-٧٣١ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٣٥١ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى : ١٠/١٢٢ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٣٥١-٣٥٢ .

(٣) انظر في معنى الآيتين : الجامع لأحكام القرآن : ٩/١٦٢-١٧٠ . تفسير القرآن العظيم : ٢/٧٣٢-٧٣٤ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٣٥١-٣٥٢ .

(٤) شغاف : الشّغَافُ غِلافُ القَلْب . وهو جلدة دونه كالحجاب . وقيل : هي سُوَيْداؤُه . ويقال: بل هو غشاء القلب . وشَغَفَهُ الحُبُّ يَشْغَفُه شَغْفاً وشَغَفاً . وَصَل إلى الحبّ شِغَاف قلبه.

وكانت الدّواعي الدّاعية لوقوع تلك المواقعة قويّة جداً لا يثبت عندها إلاّ من ثبّته اللّه وصبّره ، من ذلك :

١/ إنّ الرّجل بطبعه يميل إلى المرأة كما تميل هي إليه ، كميل العطشان إلى الماء ، والجائع إلى الطّعام ، بل قد يكون أشدّ .

٢/ إنّ يوسف عليه السّلام كان شابّاً ، والشّهوة في الشّباب أقوى وأحدّ .

٣/ إنّه كان عزباً ، لا زوجة تكسر قوّة شهوته .

٤/ كان غريباً ، لا يحتشم كما يحتشم من كان في وطنه وبين أهله ومعارفه .

٥/ كانت المرأة ذات منصب وجمال ، وكلّ من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها .

٦/ إنّها لم تكن ممتنعة ولا آبية ، بل كانت طالبة راغبة .

٧/ إنّه كان في دارها وتحت سلطانها ، وقد غلّقت الأبواب وغيّبت الرّقباء ، وتهيّأت بما يحسّنها ويجمّلها لتدفعه على الفاحشة .

٨/ كان غلامها ومملوكها وفي دارها وخدمتها ، يتاح له ما لا يتاح لغيره .

٩/ إنّها استعانة عليه بأئمّة المكر والاحتيال اللاّئي أعنّها عليه ، ودعنّه لطاعة أمرها ، وتحقيق ما تصبو إليه .

١٠/ توعّدته بالسّجن والعذاب الأليم ، وفي ذلك إكراه وإجبار له .

١١/ لم تظهر من الزّوج غيرة ونخوة تفرّق بينهما ، وتبعد كلّ واحد عن صاحبه ، والغيرة في الرّجل من أقوى ما يمنع من وقوع الفاحشة في أهله (١) .

إلاّ إنّه عليه السّلام مع كلّ هذه الدّواعي وقوّتها آثر مرضاة اللّه ، وقدّم حبّ اللّه على شهوة النّفس ، وطاعة اللّه على طاعة الهوى ، وثبت ثبات الرّاسيات في موطن لا يثبت فيه إلاّ الّذين كمل إخلاصهم وصدقهم ، وغمرت قلوبهم مخافة اللّه ،

وقوله: ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [يوسف:٣٠] قيل: دخل حُبُّه تحت الشّغاف . وقيل: غَشَّى الحُبُّ قَلْبَهَا. وقيل: أصاب شَغَافها. انظر: لسان العرب: ١٧٩/٩. وانظر: القاموس المحيط: ص:١٠٦٦.

(١) الجواب الكافي . ص : ١٤٨-١٤٩ . " بتصرّف " .. وانظر : دقائق التّفسير : ٤٣٦/٣ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٣٥١ .

وصقلها اليقين ، فلا تتحرك إلاّ في طاعتــــه ، ولا تتســاق إلاّ لمــراده واختيــاره سبحانه ، يحيط كلّ ذلك حفظ اللّه وعنايته .

كما قـــال ســبحانه : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف:٢٤] (١) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" فليتدبّر اللّبيب هذه الدّواعي الّتي دعت يوسف إلى ما دعته ، وأنّه مع توفّرها وقوّتها ليس له عن ذلك صارف إذا فعل ذلك ، ولا من ينجيه من المخلوقين ، ليتبيّن له أنّ الّذي ابتلي به يوسف كان من أعظم الأمور ، وأنّ تقواه وصبره عن المعصية حتّى لا يفعلها مع ظلم الظّالمين له حتّى لا يجيبهم كان من أعظم الحســنات وأكــبر الطّاعات ، وإنّ نفس يوسف عليه الصّلاة والسّلام كانت من أزكى الأنفس " (٢) .

لقد امتنع يوسف عليه السّلام أشدّ الامتناع من الوقوع في الفاحشة ، وعصمــه اللّه لصدقه وإخلاصه من مطاوعة المرأة ، واختار السّجن والـــذّل والحبــس مــع الطّهارة والنّقاء ، على العز وقضاء الشّهوة والمـــال مــع المعصيــة والفحشــاء . ولــذا قـــال : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي

---

(١) والهمّ هنا : همّ خطرات ، وهو حديث النّفس ، لا همّ إصرار . وعلى مثله يجازى العبد بالحسنات . وفي الحديث القدسي : عن ابن عبّاس (رضي اللّه عنهما)عن رسول اللّه ﷺ فيما يروي عن ربّه تبارك وتعالى قال: "إنّ اللّه كتب الحسنات والسّيئات ثمّ بيّن ذلك . فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها اللّه عنده حسنة كاملة . وإن همّ بها فعملهـــا كتبها اللّه عزّ وجلّ عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة . وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبـــها اللّه عنده حسنة كاملة . وإن همّ بها فعملها كتبها اللّه سيّئة واحدة " . صحيـــح مســـلم: بلفظـــه. في كتـــاب الإيمان : (١). باب إذا همّ العبد بحسنة كتبت . وإذا همّ بسيّئة لم تكتب: (٥٩). برقم: (١٣١). ١١٨/١. وانظــر مجموع الفتاوى : ٧٤٠/١٠ . دقائق التّفسير : ٤٣٢/٣-٤٣٣ . تفسير القرآن العظيم : ٧٣٤/٢

(٢) دقائق التّفسير : ٤٣٦/٣-٤٣٧ .

كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ [يوسف:٣٣-٣٤] (١) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" وفي قول يوسف – فذكر الآية الأولى – عبرتان :

أحدهما : اختيار السّجن والبلاء على الذّنوب والمعاصي .

والثّانية : طلب سؤال اللّه ودعائه أن يثبّت القلب على دينه ، ويصرّفه إلى طاعته ، وإلاّ فإذا لم يثبت القلب وإلاّ صبا إلى الآمرين بالذّنوب ، وصار من الجاهلين .

ففي هذا توكّل على اللّه واستعانة به أن يثبّت القلب على الإيمان والطّاعة ، وفيه صبر على المحنة والبلاء والأذى الحاصل إذا ثبت على الإيمان والطّاعة "(٢) .

وجزاء لهذا الثّبات وذاك الصّبر أخرجه اللّه عزّ وجلّ من السّجن معزّزاً مكرّماً ، فتحقّق الملك من براءته ونزاهة عرضه ممّا نسب إليه ، وعلم أمانته وصبره وجلده ، وعظمت عنده منزلته ، فجعله من خاصّته وأهل مشورته ، ومكّنه في أمر مملكته بتمكين اللّه له ، فصار نافذ القول ، عزيز الجانب ، فنال بذلك عزّ الدّنيا وسعادتها . وما ادّخره اللّه له في الآخرة أعظم وأجل .

قال سبحانه : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يوسف:٥٤-٥٧] (٣) .

---

(١) وانظر في معنى الآيتين : الجامع لأحكام القرآن : ٩/١٨٤-١٨٥ . تفسير القرآن العظيم : ٢/٧٣٨ . روح المعاني : ١٢/٢٣٦ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٣٥٢-٣٥٣ .

(٢) دقائق التّفسير : ٣/٤٢٩ .

(٣) انظر في معنى الآيات : الجامع لأحكام القرآن : ٩/٢١٠-٢٢٠ . تفسير القرآن العظيم : ٢/٧٤٥-٧٤٦ .

إنّ يوسف عليه السّلام لمّا لم يخش للنّوائب وعيداً ، ولا للتّجارب تهديداً ، ولم يخف للسّجن ظلماً وشرّاً ، ولا للتّنكيل به ألماً وضرّاً ، بل ألقى توكّله على الـربّ ، وصبر إزاء تلك البلية ثابت القلب ، نال بطهارته وتقواه تاج الفخر ، ولسان الصّدق طول أيّام الدّهر ؛ وها إنّ فضيلته لم يعف جميل ذكراها مرور الأيّام ، ولم يعبـث بنضارته كرور الأعوام ، بل ادّخـرت لنـا مثـالاً نقتفـي أثـره عنـد طـروء التّجارب ، وملاذاً نعوذ به في المحن والمصائب ، ومقتدى نتدرب به على التّثبـت في مواقف العثار ، وننهج منهاجه في التّقوى وطيب الإزار ، فننال في الدّنيا سـمة المجد ، ونفوز في الآخرة بدار الخلد (١) .

قال بعضهم :

أما في نبـيّ اللّه يوسـف أسـوة ...... مثلك محبوساً على الجور والإفك (٢)
أقام جميل الصّبر في الحبس برهة ...... فآل به الصّبر الجميل إلى الملك (٣)

---

(١) محاسن التّأويل : ٩/٣٥٥٨ .
(٢) الإفْك : هو الكذب. انظر: مختار الصّحاح: ص: ١٩. لسان العرب: ١٠/٣٩٠. القاموس المحيط: ص:١٢٠٣.
(٣) هذان البيتان للبحتري في ديوانه . طبعة : دار صادر . دار بيروت . بيروت . ٢/٣٧١ .

﴿ المطلب الرّابع ﴾

أيّوب عليه السّلام .

إنّ قصة أيّوب عليه السّلام مثل رائع للثّبات عند الابتلاء ، وأنموذج فريد للصّبر عند الشّدائد والمحن . فيها عبرة لكلّ معتبر ، وأسوة لكلّ متأسٍ . ولذا أوردها اللّه في قرآنه في سياق التّذكير والتّنبيه ، والحضّ والتّنويه ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾ [ص:٤١] .

وفي الآية الأخرى : ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٣] .

ففيها تسلية للنّبي محمّد ﷺ فيما أصابه من الأذى ، وتذكير له بحال إخوته الأنبياء السّابقين ، وما أصابهم من البلاء ليجد في ذلك عوناً على الصّبر والثّبات عند حدوث الملمّات والشّدائد القاسيات ، وأن يحسن الثّناء والذّكر على أيّوب عليه السّلام ، الّذي ضرب مثلاً في الصّبر للعالمين طرّاً ، فتحدّثت بصبره الرّكبان ، وشاع ذكره في جميع الأوطان .

لقد ذكر أهل العلم أنّ أيّوب عليه السّلام كان في نعمة عظيمة وخير وفير . كثرت عنده الأموال بأصنافها وأنواعها ، من الأنعام والعبيد والأراضي والمساكن ، وكثر أولاده وأهله ، ثمّ حلّ به البلاء في ماله وولده فذهب ذلك كلّه ، وأصيب في جسده بمرض شديد وخيم .

وقد ورد في بلائه روايات متعدّدة ومختلفة ، وأكثرها من الإسرائيليات الّتي ملئت بما ينافي مقام النّبوّة .

وإن كان يؤخذ من مجموع تلك الرّوايات ما يفيد أنّ أيّوب عليه السّلام ابتلي ببلاء فادح وضرّ عظيم ، ولكن لم يزده ذلك البلاء إلاّ صبراً وثباتاً ، وحمداً وشكراً حتّى ضرب به المثل (١) .

فلمّا طال به الأمد ، واشتدّ به الحال ، وتمّ الأجل المقدّر لمكثه في البلاء ، رفع أكفّ الضّراعة لباسط الأرض ورافع السّماء ليكشف ما به من ضرّ ويرفع ما به من ابتلاء .

لقد علم عليه السّلام أنّ الّذي يكشف الضّرّ هو اللّه ، والّذي يلجأ إليه عند المحن والشّدائد هو قيّوم السّماوات والأرض ، الّذي إذا دعي أجاب وإذا سئل أعطى .

فطرح نفسه بين يديه ، وشكا حاله مبتهلاً إليه ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٣]. ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾ [ص:٤١] (٢) . وليس ذلك جزعاً منه عليه السّلام لأنّ الشّكوى إلى اللّه لا تنافي الثّبات والصّبر ، وإنّما ينافيه الشّكوى إلى المخلوق(٣) ، وقد أزال اللّه اللّبس بقوله مادحاً له : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ﴾ [ص:٤٤] .

عند ذلك أمره اللّه بأمر فيه صلاحه ونجاحه ، فقال له : ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [ص:٤٢] .

---

(١) انظر : البداية والنّهاية : ١/٢٠٧ " طبعة دار الكتب العلميّة " .

(٢) وانظر معنى الآيتين في : جامع البيان : ١٧/٥٧ . ٢٣/١٦٦ " طبعة الحلبي " . المحرر الوجيز : ١٢/٤٦٤ . التّفسير الكبير : ٢٢/٢٠٣ . ٢٦/٢١٢ . الجامع لأحكام القرآن : ١١/٣٢٥ . ١٥/٢٠٧-٢٠٨ . تفسير القرآن العظيم : ٣/٣٠١ . ٤/٦٠ . تفسير أبي السّعود : ٧/٢٢٨ . روح المعاني : ١٧/٨٠-٨١ . ٢٣/٢٠٦ . محاسن التّأويل : ١١/٤٢٩٦ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٤٧٨ . ٦٦٠ .

(٣) انظر . ص : ٣٤٠ من هذا البحث .

أي حرّك الأرض وادفعها برجلك ، فانبجست[1] له عين ، اغتسل منـــها وشـــرب . وقيل عينان اغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى ، فبالاغتسال ذهب البلاء مـــن ظاهره، وبالشّراب ذهب البلاء من باطنه ، ففرّج اللّه عنه ، وتكاملت لـــه العافيـــة ظاهراً وباطناً[2].

وهكذا يفعل اللّه بعباده الأتقياء ، فيفرّج عنهم عند الشّدّة ، ويكشف ما بهم عند الضّيق ، متى علم إخلاصهم وصدقهم ، وصبرهم وثباتهم .

وأعطي عليه السّلام أهله ومثلهم معهم ، كما قال سـبحانه : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ [الأنبياء:٨٤] .

وفي الآية الأخرى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴿٤٣﴾ ﴾ [ص:٤٣] .

قيل : ردّوا عليه بأعيانهم . وقيل : بل أعطي مثـــل أهلـــه الّذيـــن هلكـــوا ، وأعطي أجرهم في الدّنيا [3] .

وقوله:﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ [الأنبياء:٨٤] . وقولـــه : ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[ص:٤٣] .

أي فعلنا به ذلك ، ورحمناه رحمة شاملة ينال بها الجـــزاء عـــاجلاً وآجـــلاً لصبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته [4] . ورزقناه رزقاً واسعاً حتّـــى صببنـــا عليه المال صباً .

---

(١) انبجست : أي انشقّت وتفجّرت . انظر : القاموس المحيط : ص : ٦٨٤ .

(٢) انظر : جامع البيان : ٢٣/١٦٦-١٦٧ " طبعة الحلبي " . الجامع لأحكام القرآن : ١٥/٢١١ . تفسـير القـرآن العظيم : ٤/٦٠ . تفسير أبي السّعود : ٧/٢٢٩ . روح المعاني : ٢٣/٢٠٧ .

(٣) انظر : جامع البيان : ١٧/٧٢-٧٣ " طبعة الحلبي " . تفسير القرآن العظيـم : ٣/٣٠٣-٣٠٤ . ٤/٦١ . روح المعاني : ١٧/٨١ .

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم : ٤/٦١ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٦٦٠ .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبي ﷺ قال : " بينما أيوب يغتسل عرياناً خرّ عليه رِجْل جراد [1] من ذهب ، فجعل يحثي في ثوبه فنادى ربّه : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عمّا ترى ؟ قال : بلى يا ربّ ، ولكن لا غنى لي عن بركتك " [2] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ رسول اللّه ﷺ قال: " إنّ أيّوب نبي اللّه ﷺ لبث في بلائه ثمان عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلاّ رجلين من إخوانه كانا من أخصّ إخوانه ، كانا يغدوان إليه ويروحان . فقال أحدهما لصاحبه : تعلم واللّه لقد أذنب أيّوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين . قال له صاحبه : وذاك ؟ قال : منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به . فلمّا راح إليه لم يصبر الرّجل حتّى ذكر ذلك له . فقال أيّوب : لا أدري ما تقول غير أنّ اللّه يعلم أنّي كنت أمرّ على الرّجلين يتنازعان فيذكران اللّه ، فأرجع إلى بيتي فأكفّر عنهما كراهيّة أن يذكر اللّه إلاّ في حقّ . قال : وكان يخرج إلى حاجته ، فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده . فلمّا كان ذات يوم أبطأ عليها فأوحى اللّه إلى أيّوب في كتابه ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [ص:٤٢] فاستبطأته فبلغته ، فأقبل عليها قد أذهب اللّه ما به من البلاء فهو أحسن ما كان ، فلمّا رأته قالت : أي بارك اللّه فيك هل رأيت نبي اللّه هذا المبتلى ؟ واللّه على ذلك ما رأيت أحداً كان أشبه به منك

---

(١) رِجْل جراد: هي الجماعة الكثيرة من الجراد . انظر: الفائق: ٢/٤٧. وانظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ٢/٤١١. غريب الحديث للخطّابي: ٢/٣٨٨. النّهاية في غريب الحديث: ٢/٢٠٣.

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في كتاب : أحاديث الأنبياء : (٣٦/٦٠). باب: قول اللّه تعالى: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٣] : (٢١/٢٠). برقم: (٣٣٩١). ص: ٧١٥. وبلفظه إلاّ أحرف يسيرة في كتاب التّوحيد: (٧٢/٩٧). باب قول اللّه تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح:١٥] : (٣٥). برقم: (٧٤٩٣). ص: ١٥٧٣. وبلفظ مقارب في كتاب: الغسل (الوضوء) : (٥/٤). باب من اغتسل عرياناً وحده في الخلوة . ومن تستّر فالسّتر أفضل: (٩٩/٢٠). برقم: (٢٧٩). ص: ٧٥.

إذ كان صحيحاً ؟ قال فإنّي أنا هو. وكان له أندران ، أندر [١] القمح وأندر الشّعير. فبعث اللّه سحابتين ، فلمّا كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذّهب حتّى فاضت ، وأفرغت الأخرى على أندر الشّعير الوَرِق حتّى فاضت " [٢] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٤] ، وقوله : ﴿ وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٤٣] .

أي إنّ اللّه تعالى جعل قصّته عبرة لأصحاب العقول النّيّرة ، ليستشفّوا من خلالها القدوة والأسوة ، فيوطّنوا أنفسهم على الصّبر والثّبات عند الشّدائد والبلايا ، وليعلموا أنّ اللّه قد يبتلي أولياءه وأحباءه بأنواع من البلاء ، في النّفس والأهل والمال ، لا لهوانهم عليه ، ولكن لبلوغ ما أعدّ لهم من منازل لم تبلغها أعمالهم ، فيجزيهم بذلك الجزاء الحسن والثّواب العظيم .

وفيه تثبيت لقلوبهم ، مهما طال بهم البلاء واشتدّ عليهم الأذى ، فلا ييأسوا من رحمة اللّه وسعة فضله [٣] .

---

(١) الأَنْدَر : هو البَيْدَرُ ، وهو الموضع الّذي يُداسُ فيه الطّعام بلغة الشّام . والأَنْدَر أيضا صُبْرة من الطّعام ، وهَمْزة الكلمة زائدة . النّهاية في غريب الحديث: ٧٤/١.

(٢) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: : بلفظه في : باب من امتحن بمحنة في الدّنيا فيلقاها بالصّبر. برقم : (٢٨٩٨). قال شعيب الأرناؤوط: " إسناده على شرط مسلم" : ١٥٧/٧ـــ١٥٩.

مستدرك الحاكم: بلفظ مقارب في : ٦٣٥/٢-٦٣٦. وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين ولم يخرجاه". وقال الذّهبي (رحمه اللّه): " على شرط البخاري ومسلم". وفيه : " أنّه لبث في بلائه خمس عشرة سنة" .

مسند أبي يعلى: بلفظ مقارب في : ٢٩٩/٦-٣٠١. برقم : (٣٦١٧).

وقال الهيثمي (رحمه اللّه): "رواه أبو يعلى والبزار . ورجال البزار رجال الصّحيح". مجمع الزّوائد: ٢٠٨/٨.

وقال الحافظ ابن حجر (رحمه اللّه): : "أصح ما ورد في قصته" . فذكره . إلاّ أنّه ذكر أنّ مدّة بلائه ثلاث عشرة سنة. فتح الباري : ٧٨/٧ .

(٣) انظر في معنى الآيتين : جامع البيان : ٧٣/١٧ " طبعة الحلبي " . المحرر الوجيز : ٤٦٨/١٢ . التّفسير الكبير : ٢١٠/٢٢ . ٢١٥/٢٦ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٢٧/١١ . تفسير القرآن العظيم : ٣٠٤/٣ . روح المعاني : ٨١/١٧ . ٢٠٧/٢٣ . محاسن التّأويل : ٤٢٩٧/١١-٤٢٩٨ .

ومن تمام نعمة الله وفضله عليه قوله له : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (١) ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص:٤٤] .

وذلك أنّه غضب على امرأته في أمر فعلته ، فحلف إن شفاه الله ليضربنّها ، فلمّا شفي أبرّ الله يمينه ، وجعل له مخرجاً من نذره ، فأمره أن يأخذ حزمة من حشيش أو شجر أو شمراخ (٢) فيضربها بها ضربة واحدة لأنّها كانت محسنة له ، صابرة محتسبة ، كابدت معه المشاقّ ، وقاست معه الشّدائد ، فمن الإحسان إليها ألاّ تجازى بالضّرب والأذى ؛ فخفّف الحكم في شأنها رحمة بها ، ومنعاً لأيّوب عليه السّلام من الحنث في يمينه (٣) .

وكلّ هذه النّعم وذلك الإحسان الّذي سيق لأيّوب عليه السّلام من كشف البلاء عنه ، وإرجاع أهله وأولاده أو مثلهم له ، وبسط المال وسعة الرّزق ، إضافة إلى ما ادّخر له من أجر عظيم في الآخرة . كلّ ذلك بسبب صبره وثباته عند البلاء ، وإقباله على طاعة ربّه ورضائه بقدره ، وإكماله لمراتب العبوديّة له في الشّدّة والرّخاء ، والضّرّاء والسّرّاء . ولذلك مدحه الله بقوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص:٤٤] .

---

(١)الأوّاب : كالتوّاب وهو الرّاجع إلى الله تعالى بترك المعاصي وفعل الطّاعات . المفردات: ص: ٣٠

(٢) شمراخ : الشّمْراخُ و الشّمْروخ: العِثْكالُ الّذي عليه البُسْرُ . وأصله في العِذْق . وقد يكون في العنب. لسان العرب: : ٣١/٣. و انظر: القاموس المحيط: ص:٣٢٥.

(٣) انظر : جامع البيان : ١٦٨/٢٣-١٦٩ " طبعة الحلبي " . تفسير القرآن العظيم : ٦١/٤ . تفسير أبي السّعود : ٢٢٩/٧ . روح المعاني : ٢٠٨/٢٣-٢٠٩ . تيسير الكريم الرّحمن : ص : ٦٦٠ . و انظر : البداية والنّهاية : ٢٠٩/١-٢١٠ .

المبحث الثّاني

أتباع الرّسل عليهم السّلام

ما سبق من نماذج للثّابتين على الابتلاء يتعلّق بأنبياء اللّه تعالى ورسله . وقد يعترض معترض بأنّ أنبياء اللّه ورسله معصومون ، ومن عصمة اللّه لهم أن يثبّتهم عند المحن والشّدائد ، وعند الأوامر والنّواهي ، فكيف بغيرهم ممّن لم يعصموا ؟

وللجواب على ذلك في الجملة :

فأقول : إنّ الأنبياء والرّسل جعلوا أسوة وقدوة للبشر فيما كلّفهم اللّه به لإبلاغه للعباد ، والأسوة والقدوة لا تتأتّى في غير المستطاع والمقدور عليه من الأقوال والأفعال ، والثّبات عند الابتلاء من المقدور عليه الّذي يتأتّى فيه التّأسّي والاقتداء . ولذا أخبر اللّه تعالى من أخبار الرّسل والأنبياء في شأن الثّبات على البلاء لهذا القصد .

وأمّا التّفصيل فإنّي أورد مثالين فذّين من غير الأنبياء والرّسل ، أحدهما في هذه الأمّة والآخر في الأمم السّابقة . وإن كانت الأمثلة كثيرة جداً لا يمكن حصرها ، ولكن في القليل ما يغني عن الكثير ، والقصد من ذلك التّمثيل لا الحصر .

وليكن الأوّل في الثّبات عند النّقم والآخر في الثّبات عند النّعم ليتحقّق المراد ، ويتمّ المقصود . والحديث عنهما في المطلبين الآتيين :

﴿ المطلب الأوّل ﴾

خبيب بن عدي رضي الله عنه

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " بعث رسول اللّه ﷺ عشرة عيناً ، وأمّر عليهم عاصم بن ثابت [١] الأنصاري جد عاصم بن عمر بن الخطاب[٢] حتّى إذا كانوا بالهَدْأة [٣] بين عَسْفان[٤] ومكّة ذكروا لحيّ من هُذْيل [٥] يقال لهم

(١) عند ابن إسحاق(رحمه الله) : أنّه أمّر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي . انظر : السّير النّبوية لابن هشام : ١٢٥/٣ .وإن كان ابن إسحاق (رحمه اللّه) إماماً في المغازي والسّير إلاّ إنّ ما في الصّحيح أكثر طمأنينة.واللّه أعلم

(٢) عاصم بن عمر بن الخطاب بن نفيل العدوي . أبو عمر ويقال أبو عمرو القرشي المدني. ولد في حياة النّبي ﷺ . فهو من كبار التّابعين. كان جوّاداً نبيلاً . من عقلاء قريش وعبّاد التّابعين. مات سنة ٧٠هـ وقيل : بعدها.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ١٥/٥. طبقات خليفة: ص:٢٣٤. التّاريخ الكبير: ٤٧٧/٦. معرفة الثّقات: ٩/٢. الجرح والتعديل: ٣٤٦/٦. ثقات ابن حبّان: ٢٣٣/٥. مشاهير علماء الأمصار: ٦٦/١. التّعديل والتّجريح: ٩٩٥/٣. تهذيب الكمال: ٥٢٠/١٣. الكاشف: ٥٢٠/١. الإصابة: ٣/٥. تهذيب التّهذيب: ٤٦/٥. تقريب التّهذيب: ٢٨٦/١.

(٣) الهدأة : اسم موضع بين عسفان ومكّة. وليس هو الهدة الّذي بين مكّة والطّائف. فهذا بدون ألف. انظر: معجم البلدان: ٣٩٥/٥.

(٤) عسفان: بضم أوّله ـــ في صحيح البخاري بفتح أوّله ـــ وسكون ثانيه ثمّ فاء وآخره نون فعلان من عسفت المفازة وهو يعسفها ، وهو قطعها بلا هداية ولا قصد. وكذلك كلّ أمر يركب بغير رويّة. قيل: سميت عسفان لتعسّف السّيل فيها كما سمّيت الأبواء لتبوّء السّيل بها. وهي منهلة من مناهل الطّريق بين الجحفة ومكّة .على ستة وثلاثين ميلاً من مكّة وهي حدّ تهامة. معجم البلدان: ٤/١٢١-١٢٢. بتصرف .

(٥) هُذيل : قبيلة من كبار القبائل الحجازيّة . ينسبون إلى هذيل بن مدركة بن الياس . ولهم بطون متعدّدة .
انظر : جمهرة أنساب العرب . لأبي محمّد عليّ بن أحمد بن حزم . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . الطّبعة الأولى : ١٤٠٣هـ ـــ ١٩٨٣م : ١٩٦/١ . قلائد الجمان في التّعريف بقبائل عرب الزّمان . لأبي العبّاس أحمد ابن عليّ القلقشندي . تحقيق : إبراهيم الأبياري . طبع : مطبعة السّعادة . نشر : دار الكتب الحديثة . القاهرة . الطّبعة الأولى : ١٣٨٣هـ ـــ ١٩٦٣م : ص : ١٣٣-١٣٤ . المنتخب في ذكر أنساب قبائل العرب . لعبد الرّحمن بن حمد بن زيد المغيري اللاّمي الطّائي . تحقيق : إبراهيم محمّد الزّايد . الطّبعة الأولى : ١٤٠٤هـ ـــ ١٩٨٤م : ص : ٥٤٣-٥٤٦ .

بنو لِحْيان [١] ، فنفروا لهم بقريب من مائة رجل رامٍ ، فاقتصّوا آثارهم حتّى وجدوا مأكلهم التّمر في منزل نزلوه ، فقالوا تمر يَثْرب [٢] ، فاتّبعوا آثارهم ، فلمّا حسّ بهم عاصم وأصحابه لجؤوا إلى موضع ، فأحاط بهم القوم ، فقالوا لهم : انزلوا فأعطوا بأيديكم ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحداً .

فقال عاصم بن ثابت : أيّها القوم أمّا أنا فلا أنزل في ذمّة كافر ، ثمّ قال : اللّهم أخبر عنّا نبيك ﷺ . فرموهم بالنّبل فقتلوا عاصماً ، ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق ، منهم خبيب وزيد بن الدَّثِنَة ورجل آخر[٣] ، فلمّا استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قِسيِّهم فربطوهم بها ، قال الرّجل الثّالث : هذا أوّل الغدر ، واللّه لا أصحبكم ، إنّ لي بهؤلاء أسوة ، يريد القتلى ، فجرّروه وعالجوه فأبى أن يصحبهم . فانطلق بخبيب وزيد بن الدّثنة حتّى باعوهما بعد وقعة بدر ، فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل خبيباً ، وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر . فلبث خبيب عندهم أسيراً حتّى أجمعوا قتله ، فاستعار من بعض بنات الحارث موسى يَسْتَحِدُّ [٤] بها ، فأعارته ، فدرج بُنَيٌّ لها وهي غافلة حتّى أتاه ، فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده . قالت : ففزعت فزعة عرفها خبيب ، فقال : أتخشين أن أقتله ، ما كنت لأفعل ذلك . قالت : واللّه ما رأيت أسيراً قطّ خيراً من خبيب ، واللّه لقد وجدته يوماً يأكل قطفاً من عنب في يده وإنّه لموثق بالحديد وما بمكّة من ثمرة . وكانت تقول : إنّه لرزق رزقه اللّه خبيباً .

فلمّا خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحلّ ، قال لهم خبيب : دعوني أصلّي ركعتين . فتركوه ، فركع ركعتين . فقال : واللّه لولا أن تحسبوا أنّ ما بي جزع

---

(١) بنو لحيان : بطن من هذيل . وهم بنو لحيان بن هذيل . ولهم أفخاذ عدّة . وانظر : جمهرة أنساب العرب: ١/١٩٦-١٩٧ . قلائد الجمان : ص : ١٣٣ . المنتخب في ذكر أنساب قبائل العرب : ص : ٥٤٦ .

(٢) يثرب : بفتح أوله وسكون ثانيه وكسر الرّاء وباء موحدة هي مدينة رسول اللّه ﷺ . سمّيت بذلك لأنّ أوّل من سكنها عند التّفرق يثرب بن قانية . فلمّا نزلها رسول اللّه ﷺ سمّاها طيبة وطابة كراهية للتثريب. وسمّيت مدينة الرّسول لنزوله بها. معجم البلدان: ٥/٤٣٠. بتصرّف. وانظر: معجم ما استعجم: ٤/١٣٨٩.

(٣) واسمه : عبد اللّه بن طارق . السّيرة النّبوية لابن هشام : ١٢٧/٣ .

(٤) يستحدّ : من الاسْتِحْدَاد وهُو حلق العَانة بالحَدِيدة . واستَحَدَّ ﷺ لئلا يَظْهَر شعر عَانَتِه عنْد قتلِه . انظر: النّهاية في غريب الحديث: ١/٣٥٣. و انظر: غريب الحديث للهروي : ٢/٣٦-٣٧.

لزدت . ثمّ قال : اللّهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بَدَداً [(١)] ولا تبق منهم أحداً ، ثمّ أنشأ يقول :

فلست أبالي حين أقتل مسلماً .... على أي جنب كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ .... يبارك على أوصال شِلْو ممزّع [(٢)]

ثمّ قام إليه أبو سَرْوَعَةَ عقبة بن الحارث فقتله ، وكان خبيب هو سنّ لكلّ مسلم قتل صبراً الصّلاة.

وأخبر أصحابه يوم أصيبوا خبرهم . وبعث ناس من قريش إلى عاصم بن ثابت حين حدّثوا أنّه قتل أن يؤتوا بشيء منه يُعرف – وكان قتل رجلاً عظيماً من

---

(١)بدداً : البِدَد : جمع بِدَّة وهي الحِصّة ، والتّقدير : واقْتُلْهم قَتْلاً بِدَداً ، أي قَتْلاً مقسوماً عليهم بالحِصص . وعن الأصمعي : اللّهُمّ اقتلهم بَدَداً ، بفتح الباء أي متُفرّقين . انظر: الفائق: ٢١/٣. و انظر: غريب الحديث للخطّابي: ١١٠/١

(٢) الشّلْو هو العضو . انظر: الفائق: ٢٦٠/٢. وممزّع : مقطّع . وانظر: الفائق: ٣٦٣/٣. النّهاية في غريب الحديث: ٣٢٥/٤.

قال ابن إسحاق (رحمه الله) : وكان مّما قيل في ذلك من الشّعر . قول خبيب بن عدي حين بلغه أنّ القوم قد اجتمعوا لصلبه :

لقد جمع الأحزاب حولي وألّبوا .... قبائلهم واستجمعوا كلّ مجمع
وكلّهم مبدي العداوة جاهد .... عليّ لأنّي في وثاق بمضيع
وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم .... وقرّبت من جذع طويل ممّنع
إلى اللّه أشكو غربتي ثمّ كربتي .... وما أرصد الأحزاب لي عند مصرعي
فذا العرش صبّرني على ما يراد بي .... فقد بضّعوا لحمي وقد يأس مطمعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ .... يبارك على أوصال شلو ممزّع
وقد خيروني الكفر والموت دونه .... وقد هملت عيناي من غير مجزع
وما بي حذار الموت . إنّي لميّت .... ولكن حذاري جحم نار ملفّع
فو اللّه ما أرجو إذا مت مسلماً .... على أي جنب كان في اللّه مصرعي
فلست بمبد للعدوّ تخشّعاً .... ولا جزعاً إنّي إلى اللّه مرجعي

قال ابن هشام (رحمه الله) : وبعض أهل العلم بالشّعر ينكرها له . السّيرة النّبوية لابن هشام : ١٣٠/٣ .

عظمائهم – فبعث اللّه لعاصم مثل الظُّلّة (١) من الدّبْرِ (٢) فحمته من رسلهم فلم يقدروا أن يقطعوا منه شيئاً " (٣) .

إنّ خبيباً ﷺ ضرب مثلاً رائعاً ، وأنموذجاً فريداً في الثّبات قلّ أن يوجد نظيره . رجل يقاد إلى الموت من أناس أطغى الكفر قلوبهم ، وغطّ الحقد نفوسهم ، وغابت الرّحمة والشّفقة من بين جوانحهم ، وهو يعلم مصيره الّذي ينتظره ، إنّه القتل ، وقد يكون بأبشع صوره . ومع ذلك يملأ الإيمان قلبه ، واليقين نفسه ، فيتدفّق صبراً وثباتاً فلا يخاف ولا يجزع ، بل ولم يصدر منه فعل أو قول يجد المشركون فيه بغيتهم أو يُشفى به غليلهم ، بل الصّلاة الّتي هي قربة لله لمّا خشي أن يجدوا فيها متنفّساً لهم إذا أطال فيها أو زاد من ركعاتها فيستشعروا من ذلك جزعه وعدم ثباته تجوّز فيها ﷺ .

بل من يلقي نظرة خاطفة على أبيات الشّعر الّتي تفوه بها عند قتله يجدها تشعّ صبراً وثباتاً وصدقاً وولاء لهذا الدّين ، وقد خير أن يطلق سراحه عند مفارقة دينه أو القتل مع بقائه عليه ، فاختار البقاء مع القتل ، ومادام ذلك في ذات اللّه ومن أجله فالأمر ميسور عنده لا وزن لقتله حينئذ ، إذ كان هدفه الآخرة ، ونيل رضا اللّه ليست هذه الدّنيا الفانية ، ولذا أظهر من البسالة ما يعجز المرء عن تصوّره .

---

(١) الظُّلّة: هي كلّ ما أظلّك . وتطلق على السّحابة. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٣/١٦٠.

(٢) الدّبْر : بسكون الباء النّحْلُ . وقيل الزّنابير. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٢/٩٩. وانظر: الفائق: ٣/٢١١.

(٣) صحيح البخاري : كتاب المغازي : (٣٨/٦٤) باب : (١٠). برقم : (٣٩٨٩). ص:٨٣٤-٨٣٥.ونحوه في باب غزوة الرّجيع ورعل وذكوان وبئر معونة : (٢٩/٢٨) . برقم : (٤٠٨٦). ص:٨٥٥-٨٥٦. وفي كتاب الجهاد والسّير: (٣٢/٥٦). باب هل يستأسر الرّجل ومن لم يستأسر . ومن ركع ركعتين عند القتل: (١٦٩/١٧٠) . برقم : (٣٠٤٥). ص:٦٤١-٦٤٢. وقطعة منه في كتاب التوحيد : (٧٢/٩٧). باب ما يذكر في الذّات والنّعوت . وأسامي اللّه عزّ وجلّ : (١٤) . برقم : (٧٤٠٢).ص:١٥٥٤.

وانظر في شأن خبيب ﷺ : السّيرة النّبوية لابن هشام : ٣/١٢٥-١٣٤ . زاد المعاد : ٣/٢٤٤-٢٤٦ . البداية والنّهاية : ٤/٦٤-٧١ . سير أعلام النّبلاء : ١/٢٤٦-٢٤٩ . الإصابة : ٢/٢٦٢-٢٦٣ .

قال له أبو سفيان : أيسرّك أنّ محمّداً عندنا تضرب عنقه ، وإنّك في أهلـــك ؟ فقال : " لا واللّه ، ما يسرّني أنّي في أهلي ، وأنّ محمّداً في مكانه الّذي هـــو فيـــه تصيبه شوكة تؤذيه " [1] .

إنّها عبارة تترجم الولاء والصّدق الّذي ملئ به قلبه .

بهذا النّوع من البشر نصر اللّه دينه ، وأعلى كلمته . ولذلك اختـــارهم لصحبـــة نبيّه وإعزاز دينه ، فرضي اللّه عن خبيب وعن الصّحابة أجمعين .

---

(١) زاد المعاد : ٣/٢٤٥ . وانظر : البداية والنّهاية : ٤/٦٦ . عند ابن إسحاق (رحمه الله) : أنّ قائل ذلك هو زيد بن الدّثِنة . انظر : السّيرة النّبوية لابن هشام : ٣/١٢٧ .

﴿ المطلب الثّاني ﴾

الأعمى الشّكور

عن أبي هريرة ﷺ أنّه سمع النّبي ﷺ يقول : " إنّ ثلاثة في بني إسرائيل : أبرص [1] وأقرع [2] وأعمى ، فأراد اللّه أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً ، فأتى الأبرص فقال : أيّ شيء أحبّ إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ، ويذهب عنّي الّذي قد قَذِرَني[3] النّاس . قال فمسحه فذهب عنه قذره ، وأعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً . قال : فأيّ المال أحبّ إليك ؟ قال : الإبل (أو قال : البقر . شكّ إسحاق[4]) إلاّ أنّ الأبرص أو الأقرع قال أحدهما : الإبل . وقال الآخر : البقر . قال : فأعطي ناقة عُشَرَاء [5] . فقال : بارك اللّه لك فيها .

قال : فأتى الأقرع فقال : أيّ شيء أحبّ إليك ؟ قال : شعر حسن ، ويذهب عنّي هذا الّذي قذرني النّاس . قال : فمسحه ، فذهب عنه . وأعطي شعراً حسناً . قال : فأيّ المال أحبّ إليك ؟ قال : البقر . فأعطي بقرة حاملاً . فقال : بارك اللّه لك فيها .

---

(١) قال في القاموس : " البرص : - محرّكة - بياض يظهر في ظاهر البدن لفساد مزاج . بَرِص كفرح فهو أبرص . وأبرصه اللّه . والّذي ابيضّ من الدّابة من أثر العضّ " . القاموس المحيط . ص : ٧٩٠ .

(٢) الأقرع : هو الّذي ذهب شعر رأسه . انظر المرجع السّابق . ص : ٩٦٩ .

(٣) قذرني النّاس : يقال قَذِرْت الشّيء أقْذَرُه إذا كَرِهْتَه واجْتَنَبْته . يريد أنّهم تقذّذوا منه واشمأزّوا من رؤيته . وانظر: النّهاية في غريب الحديث: ٢٨/٤. فتح الباري : ١٨٠/٧ .

(٤) هو إسحاق بن عبد اللّه بن أبي طلحة ، أبو يحيى الأنصاري ، مدني ، تابعي ، ثقة حجة ، توفي سنة ١٣٢هـ . وقيل : بعدها .
وانظر : التاريخ الكبير : ٣٩٣/١ . معرفة الثقات : ٢١٩/١ . الجرح والتعديل : ٢٢٦/٢ . ثقات ابن حبان :٢٣/٤ . تهذيب الكمال : ٤٤٤/٢ . الكاشف : ٢٣٧/١ . تهذيب التهذيب : ٢١٠/١ . التقريب : ١٠١/١.

(٥) عُشَرَاء : هي النّاقة الّتي أتى على حملها عشرة أشهر ، ثمّ لا يزال ذلك أسمها حتّى تضع ، وبعد أن تضع أيضاً. وجَمْعُها عِشار ، ومنه قول اللّه تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝ ﴾ [التكوير:٤] . ومثله في التّقدير امرأة نُفَسَاء ، وجمْعُها نِفَاس . ويقال عشَّرت فهي عُشَرَاء ، ولا يقال ذلك إلاّ للنّاقة . وهي من أنفس المال . انظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ٣٤٠/١. وانظر: غريب الحديث للخطّابي: ١٦٤/٣. النّهاية في غريب الحديث: ٢٤٠/٣. فتح الباري : ١٨٠/٧ . عمدة القارئ : ٤٨/١٦ .

قال : فأتى الأعمى . فقال : أيّ شيء أحبّ إليك ؟ قال : أن يرد اللّه إليّ بصري فأبصر به النّاس . قال : فمسحه ، فردّ اللّه إليه بصره . قال: فأيّ المال أحبّ إليك ؟ قال : الغنم . فأعطي شاة والداً .

فأُنْتِجَ [١] هذان وولّد هذا . قال : فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم .

قال : ثمّ إنّه أتى الأبرص في صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين ، قد انقطعت بي الحِبال [٢] في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلاّ باللّه ثمّ بك ، أسألك بالّذي أعطاك اللّون الحسن والجلد الحسن والمال ، بعيراً أتبلّغ عليه في سفري . فقال : الحقوق كثيرة . فقال له : كأنّي أعرفك ، ألم تكن أبرص يَقْذَرُك النّاس ؟ فقيراً فأعطاك اللّه ؟ فقال : إنّما ورثت هذا المال كابراً عن كابر[٣] . فقال : إن كنت كاذباً فصيّرك اللّه إلى ما كنت .

قال : وأتى الأقرع في صورته فقال له مثل ما قال لهذا ، وردّ عليه مثل ما ردّ على هذا . فقال : إن كنت كاذباً فصيّرك اللّه إلى ما كنت .

قال : وأتى الأعمى في صورته وهيئته . فقال : رجل مسكين وابن سبيل ، انقطعت بي الحِبَالُ في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلاّ باللّه ثمّ بك ، أسألك بالّذي ردّ عليك بصرك ، شاة أَتَبَلَّغُ بها في سفري . فقال : قد كنت أعمى فردّ اللّه إليَّ بصري

---

(١) أُنتِج : – رباعي – وهي لغة قليلة الاستعمال . والمشهور نتج – ثلاثي – ومعناه : تولّي الولادة . وهي النّتج والإنتاج . شرح النّووي على مسلم : ٩٨/١٨ . وانظر : فتح الباري : ١٨٠/٧ . عمدة القارئ : ٤٨/١٦ .
قال ابن الأثير: " فَأَنْتَج هَذَان وَوَلَّدَ هَذَا :كذا جاء في الرّواية أنْتج وإنّما يُقال : نَتَجَ . فأمّا أنْتَجَتْ فمعناه إذا حَمَلت أو حَانَ نَتَاجُها . وقيل : هُما لُغتان". النّهاية في غريب الحديث: ١٢/٥.

(٢) جمع حبل : أي الأسباب الّتي يقطعها في طلب الرّزق . وقيل العقبات . وقيل : الحبل هو المستطيل من الرّمل . فتح الباري : ١٨٠/٧–١٨١ . وانظر : النّهاية في غريب الحديث: ٣٣٣/١. شرح النّووي على مسلم : ٩٩/١٨ . عمدة القارئ ك ٤٩/١٦ .

(٣) أي ورثته عن آبائي الّذين ورثوه من أحدادي الّذين ورثوه من آبائهم كبيراً عن كبير في العزّ والشّرف والثّروة . شرح النّووي على مسلم ٩٩/١٨ . وانظر : فتح الباري : ١٨١/٧ . عمدة القارئ : ٤٩/١٦ .

فَخُذْ مَا شِئْتَ ، وَدَعْ ما شئتَ ، فَوَ اللّـــهِ لا أَجْـهَدُكَ اليـومَ شـيئاً أَخَذْتَـهُ لله [1] .

فقال : أَمْسِكْ مَالَكَ ، فإنّما ابتليتمْ فَقَدْ رُضِيَ عنك ، وسُخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ " [2] .

إنّ اللّه تعالى ابتلى هؤلاء الثّلاثة ، فأبدل حالهم من شرّ إلى خير ، ومن نقـم إلى نعم . فبعد أن كانوا فقراء لا مال لهم ، يستقذرهم النّاس على مـا فيـهم مـن عاهات ، فأصلح شأنهم ، ووهبهم من الأموال الطّائلة ليشكروا نعمتـه ، ويحمـدوه على فضله ، ويعرفوا حقّه فيها ، فيكرموا الضّعفاء ، ويعطوا الفقراء ، ويحسنوا إلى المحتاجين ، لتدوم لهم تلك النّعم .

أمّا الأبرص والأقرع فلم يفعلا من ذلك شيئاً ، بل جحدا نعم اللّـه عليـهما ، وكفرا فضل اللّه لهما ، وحرما من يستحقّ الإنفاق والعطاء ، وبخلا بمال اللّه الّـذي أعطاهما ، بل وحملهما ذلك البخل على الكذب فأنكرا أن يكونا على الحال الّذي كانا عليه من قبل . فلم يثبتا عند الابتلاء ، ولم يجتازا اختبار اللّه لهما ، فسـلبا النّعـم ، وأبدلا النّقم ، وعادا إلى ما كانا عليه من الحال السّيئ ، والفقـر المدقـع ، وإهانـة النّاس لهما .

وأمّا الأعمى فقد وفّقه اللّه وأعانه وثبّته عند الابتلاء ، فعرف النّعمة وعـرف المنعم بها . شكر اللّه الّذي أنار له بصره بعد العمى ، وأغناه بعد الفقر ، وأعزّه بعد الذّل ، وحمده على ما وهبه من نعم وأزال عنه مـن المصـائب والنّقـم ، وبـذل المطلوب ، وأعطى من يستحقّ العطاء ، غير بخيل بمال اللّه ، ولا شحيح بفضـل اللّه ، فثبت عند الامتحان وصبر عند الاختبار ، فثبتت له النّعمـة ، وزالـت عنـه النّقمة ، ودام له الفضل . وهكذا يكون الثّبات عند الابتلاء بالنّعم .

---

(١) أي : لا أشقّ عليك بردّ شيء تأخذه أو تطلبه مـن مـالي . شـرح النـووي علـى مسـلم : ١٨/١٠٠ . وانظر : فتح الباري : ٧/١٨١ . عمدة القارئ : ١٦/٤٩ .

(٢) صحيح البخاري – بلفظ مقارب – كتاب أحاديث الأنبياء : (٦٠/٣٦). باب : حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل : (٥١) : برقم : (٣٤٦٤) . ص:٧٣٤.
صحيح مسلم: بلفظه في كتاب الزّهد والرّقائق : (٥٣). برقم : (٢٩٦٤) . ٤/٢٢٧٥-٢٢٧٧

الباب الثالث

الثبات في الدّعوة إلى الله تعالى

وفيه فصول :

الفصل الأوّل

معاني الدّعوة في اللغة والشّرع واصطلاح الدّعاة

الفصل الثّاني

أهميّة الدّعوة إلى الله والغاية منها وحكمها

الفصل الثّالث

عوامل الثبات في الدّعوة إلى الله تعالى

الفصل الرّابع

نماذج للثبات في الدّعوة

الفصل الأوّل

معانـي الدّعوة في اللّغة والشّرع والاصطلاح

وفيه مبحثان :

المبحث الأوّل

معانـي الدّعوة في اللّغة

يقال : دعا بالشّيء دَعْواً ودَعْوةً ودُعاءً ودَعْوى : طلب إحضـــاره ، ودعـــاه إليه : حثّه على قصده [١] ، ورغْبة فيه ، وقرّبه إليه [٢] ، وساقه إليه[٣] .

ودعوت فلاناً : صحت به واستدعيته[٤] ، وناديته[٥] . ومنه دعا الميّـت : أي ندبه ، كأنّه ناداه[٦] .

---

(١) انظر : المعجم الوسيط : ٢٨٦/١ .

(٢) انظر : معجم متن اللّغة : ٤١٩/٢ .

(٣) انظر : لسان العرب : ٢٥٩/١٤ . القاموس المحيط . ص : ١٦٥٥. معجم مـــتن اللّغـــة : ٤١٩/٢ . المعجـــم الوسيط : ٢٨٦/١ .

(٤) انظر : الصّحاح : ٢٣٣٧/٦ . أساس البلاغة . ص : ١٣١. مختار الصّحـــاح : ص: ٢٠٦. لســـان العـــرب : ٢٥٨/١٤ .

(٥) انظر : لسان العرب : ٢٥٨/١٤ . تاج العروس : ٤٠٨/١٩ . معجم متن اللّغة : ٤١٩/٢ . المعجم الوســـيط : ٢٨٦/١

(٦) انظر : أساس البلاغة . ص : ١٣١ . لسان العرب : ٢٥٩/١٤ . تاج العروس : ٤٠٨/١٩ . معجم متن اللّغـة : ٤١٩/٢ . المعجم الوسيط : ٢٨٦/١

ودعوته زيداً : أي سمّيته به[1] . وتدعو القطا : أي تصوّت[2] . ويقال : ما دعـــاك إلى هذا الأمر : أي ما الّذي جرّك إليه واضطّرك[3] . ودعاه اللّه بمكروه : أنزلـــه به[4] . ودعا إلى الصّلاة : أذّن[5] . ودعا بالكتاب : استحضره[6] .

ودعا اللّه : طلب منه الخير ، وابتهل إليه ، واستغاث به ، وعبده ، وأثنـــى عليه[7] . ولذا يقال : دعا اللّه لفلان : طلب له الخير منه ، ودعا علـــى فـلان : طلب له الشّرّ[8] .

والدّعاء : واحد الأدعية[9] ، وهو الرّغبة إلى اللّه تعالى[10] والاستغاثة به[11] .

---

(1) انظر : أساس البلاغة . ص : ١٣١ . لسان العرب : ٢٦١/١٤ . القاموس المحيط . ص : ١٦٥٥ . معجم مـــتن اللّغة : ٤١٩/٢ . المعجم الوسيط : ٢٨٦/١ .

(2) انظر : تهذيب اللّغة : ١٢٣/٣ . لسان العرب : ٢٦٠/١٤ .

(3) تهذيب اللّغة : ١٢٣/٣ . لسان العرب : ٢٦٠/١٤ . تاج العروس : ٤٠٨/١٩ .

(4) انظر : أساس البلاغة . ص : ١٣١ . لسان العرب : ٢٦٠/١٤ . القاموس المحيط . ص : ١٦٥٥ . معجم مـــتن اللّغة : ٤١٩/٢ .

(5) المرجع السّابق : ٤١٩/٢ .

(6) انظر : أساس البلاغة . ص : ١٣١ . تاج العروس : ٤٠٩/١٩.

(7) انظر : معجم متن اللّغة : ٤١٩/٢ .

(8) انظر : المعجم الوسيط : ٢٨٦/١ .

(9) الصّحاح : ٢٣٣٧/٦ . لسان العرب : ٢٥٨/١٤ . تاج العروس : ٤٠٥/١٩.

(10) انظر : لسان العرب : ٢٥٧/١٤ . القاموس المحيط . ص : ١٦٥٥ .

(11) انظر : تهذيب اللّغة : ١١٩/٣ . لسان العرب : ٢٥٧/١٤ . تاج العروس : ٤٠٨/١٩ .

والدّعْوة : المرّة الواحدة من الدّعاء[1] ، وتطلق على الدّعاء إلـــى الطّعــام والشّراب ، وخصّها البعض بالوليمة [2] . كما تطلق على الحِلْـف[3] ، والأذان[4] . وأمّا الدّعوة – بالكسر – فهي الادِّعاء[5] .

والدّاعيــة : هــو الدّاعــي الّــذي يدعــو إلــى الدّيــن أو إلــى فكــرة . والهاء : للمبالغة[6] . والجمع دُعاة وداعون ، كقضاة وقاضون[7] . ويطلق علــى صريخ الخيل في الحروب[8] .

ويقال : المؤذّن داعي اللّه[9] . والنّبي داعي الأمّة إلى توحيــد اللّــه تعــالى وطاعته[10] .

---

(١) انظر : الصّحاح : ٢٣٣٧/٦ . مختار الصّحاح . ص : ٢٠٦ . لسان العرب : ٢٥٨/١٤ . تــاج العــروس : ٤٠٨/١٩ .

(٢) انظر : المرجع السّابق : ٤٠٧/١٩ .

(٣) انظر : لسان العرب : ٢٦٢/١٤ . القاموس المحيط .ص : ١٦٥٥ . تاج العروس : ٤٠٧/١٩ . معجــم مــتن اللّغة : ٤٢٠/٢ .

والحِلْف هو : العهد بين القوم . مختار الصّحاح . ص : ١٤٩ . القاموس المحيط .ص : ١٠٣٥ .

(٤) انظر : لسان العرب : ٢٥٩/١٤ . تاج العروس : ٤٠٦/١٩ . معجم متن اللّغة : ٤٢٠/٢ .

(٥) انظر : تهذيب اللّغة : ١٢٠/٣ . معجم متن اللّغة : ٤٢٠/٢ .

(٦) انظر : المعجم الوسيط : ٢٨٧/١ . وانظر : تهذيب اللّغة : ١٢٢/٣ . لسان العرب : ٢٥٩/١٤ .

(٧) انظر : تاج العروس : ٤٠٦/١٩ .

(٨) انظر : تهذيب اللّغة : ١٢١/٣ . لسان العرب : ٢٥٩/١٤ . القاموس المحيط . ص : ١٦٥٥ . تاج العــروس : ٤٠٦/١٩ . معجم متن اللّغة : ٤٢٠/٢ .

(٩) انظر : تهذيب اللّغة : ١٢٠/٣ . لسان العرب : ٢٥٩/١٤ . القاموس المحيط . ص : ١٦٥٥ .

(١٠) تهذيب اللّغة : ١٢٠/٣ . وانظر : لسان العــرب : ٢٥٩/١٤ . القــاموس المحيــط . ص : ١٦٥٥ . تــاج العروس : ٤٠٦/١٩ .

وداعي اللّبن : ما يبقى في الضّرع ليدع ما بعده[1] .

والدّعاة : قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة[2] . ودواعي الدّهر : صروفه[3] .

نخلص من هذه التّعريفات : أنّ الدّعوة تطلق ويراد بها معاني عـــدّة ، منـــها : الطّلب ، والحثّ على الشيْ ، والرّغبة فيه ، والاســـتغاثة ، والنّـــداء ، والنّـــدب ، والتّسميّة ، والثّناء .

---

(١) انظر : تهذيب اللّغة : ١٢١/٣ . الصّحاح : ٢٣٣٧/٦ . أساس البلاغة . ص : ١٣١ . مختار الصّحـــاح . ص : ٢٠٦ . لسان العرب : ٢٥٩/١٤ . القاموس المحيط . ص : ١٦٥٥ .

(٢) تهذيب اللّغة : ١٢٢/٣ . لسان العرب : ٢٥٩/١٤ .

(٣) الصّحاح : ٢٣٣٧/٦ . أساس البلاغة . ص : ١٣١ . لسان العرب : ٢٦٠/١٤ . القـــاموس المحيـــط . ص : ١٦٥٥ . تاج العروس : ٤٠٨/١٩ . معجم متن اللّغة : ٤٢٠/٢ . المعجم الوسيط : ٢٨٧/١ .

﴿ المبحث الثّاني ﴾

معاني الدّعوة في الشّرع واصطلاح الدّعاة

وفيه مطلبان :

﴿المطلب الأوّل ﴾

معاني الدّعوة في الشّرع

لقد تعدّدت معاني الدّعوة في القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة كما تعدّدت في اللّغة ، وإن كان جلّ تلك المعاني يدور حول الحثّ على الشّيء ، وقصده ، والرّغبة فيه ، وطلبه ، والميل نحوه . وبيان ذلك :

١/ الحثّ على الشّيء وقصده :

قال اللّه تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ [يوسف:٣٣] . وقال سبحانه : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [يونس:٢٥] .

فهي تعني هنا : الحثّ على الشّيء وقصده[١] .

٢/ الاستغاثة :

قال تعالى : ﴿ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٣]

أي استغيثوا بهم[٢] .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:٣٨] [٣] .

---

(١) انظر : المفردات في غريب القرآن . ص : ١٧٠ .

(٢) انظر : تهذيب اللّغة : ١١٩/٣ . لسان العرب : ٢٥٧/١٤ . تاج العروس : ٤٠٨/١٩ .

(٣) انظر : إصلاح الوجوه والنّظائر . ص : ١٧٤ .

٣/ العبادة :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف:١٩٤] . أي الّذين تعبدون من دون اللّه(١) .

ومثلها قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ [الأنعام:٧١]. أي أنعبدوا من دون اللّه(٢) .

٤/ النّداء :

قال عزّ وجلّ : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ ﴾ [القمر:٦] . أي يوم ينادي المنادي .

وقال ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ ﴾ [فاطر:١٤] . أي إن تنادوهم لا يسمعوا نداءكم(٣) .

٥/ السّؤال :

قال سبحانه : ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ [البقرة:٦٨] . أي سل لنا ربّك(٤) .

٦/ الجَعْل :

قال عزّ في علاه : ﴿ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ ﴾ [مريم:٩١] . أي جعلوا له ولداً .(٥)

---

(١) انظر : تهذيب اللّغة : ١١٩/٣ . لسان العرب : ٢٥٧/١٤ .

(٢) إصلاح الوجوه والنّظائر . ص : ١٧٣ .

(٣) انظر : المرجع السّابق : ص : ١٧٤ .

(٤) انظر : المرجع السّابق : ص : ١٧٤ . المفردات في غريب القرآن . ص : ١٧٠ . تهذيب اللّغة : ١٢٣/٣ . لسان العرب : ٢٦٠/١٤ .

(٥) انظر : تهذيب اللّغة : ١٢٤/٣ . لسان العرب : ٢٦١/١٤ .

٧/ *النّسبة :*

قال تعالى : ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ ﴾ [الأحزاب:٥] . أي أنسبوهم لهم[١] .

وحمل بعضهم قوله تعالى : ﴿ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴾ [مريم:٩١] . على هذا المعنى[٢] .

٨/ *التّسمية :*

قال سبحانه : ﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا ﴾ [النور:٦٣] . أي لا تسمّوه باسمه فتقولوا : يا محمّد . وفي ذلك حثّ على تعظيمه عليه السّلام[٣] .

ومن ذلك أثر عمر ﷺ : " كان يقدّم النّاس على سابقتهم في أُعْطياتهم[٤] ، فإذا انتهت الدّعوة إليه كبّر " [٥] . أي إذا انتهت التّسمية إليه . ويمكن أن يحمل المعنى هنا على النّداء[٦] .

---

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ١١٩/١٤ . تفسير القرآن العظيم : ٧٤٣/٣ . لسان العرب : ٢٦١/١٤ .

(٢) انظر : معجم الألفاظ والأعلام القرآنية .لمحمد إسماعيل إبراهيم . طبعة دار الفكر العربي .الطبعة الثانية . ص : ١٨٨ .

(٣) انظر : المفردات في غريب القرآن . ص : ١٧٠ . تفسير القرآن العظيم : ٤٩١/٣ .

(٤) أُعطياهم : العَطاءُ و العَطِيَّة: اسمٌ لما يُعْطَى ، والجمع عَطايا و أَعْطِيَة، و أَعْطِياتٌ جمعُ الجمع . لسان العرب : ٦٩/١٥ .

(٥) الأثر أورده ابن الأثير في النّهاية : ١٢١/٢ . ولم أقف عليه في شيء من كتب الحديث والآثار الّتي رجعت إليها.

(٦) انظر : النّهاية في غريب الحديث : ١٢١/٢ .

٩/ كلمة الشّهادة :

قال سبحانه وتعالى : ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ﴾ [الرّعد:١٤]. جاء عن عليّ ﷺ أنّ دعوة الحقّ هي التّوحيد . وعن محمّد بن المنكـــدر[١] : أنّـــها لا إلـــه إلاّ اللّـــه[٢] . والمعنى مترادف .

وفي كتابه ﷺ إلى هرقل : " أدعوك بدعاية الإسلام "[٣] أي بدعوته ، وهـــي كلمة الشّهادة الّتي يدعى إليها أهل الملل الكافرة [٤] .

فهي هنا تعنى حقيقة الإسلام كدين له أصوله وتكاليفه الّتي تقتضيها الشّهادة ، وبـــهذا المفهوم عرّفها بعض كتاب المسلمين [٥] .

---

(١) محمّد بن المنكندر بن عبد اللّه بن الهُدير أبو عبد اللّه القرشي التّيمي المدني ، إمام حافظ عابد مقـــريء ، تـــابعي جليل. مجمع على ثقته وتقدّمه في العلم و العمل . مات سنة: ١٣٠هـــ أو بعدها.
وانظر:طبقات خليفة: ص:٢٦٨. التّاريخ الكبير: ٢١٩/١. معرفة الثّقات: ٢٥٥/٢. الجرح والتّعديـل: ٩٧/٨. ثقات ابن حبان: ٣٥٠/٥. مشاهير علماء الأمصار: ٦٥/١. التّعديل والتّجريـــح: ٦٣٨/٢. تهذيـــب الكمـــال: ٥٠٣/٢٦. تذكرة الحفّاظ: ١٢٧/١. الكاشف: ٢٢٤/٢.جامع التّحصيل: ص:٢٧٠. تهذيب التّهذيب: ٤١٧/٩. تقريب التّهذيب: ٥٠٨/١.

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم : ٧٨٤/٢ . وانظر : لسان العرب : ٢٥٨/١٤ . تاج العروس : ٤٠٨/١٩ .

(٣) سبق تخريجه : ص : ٣٥٠ .

(٤) النّهاية في غريب الحديث : ١٢٢/٢ . لسان العرب : ٢٥٨/١٤

(٥) انظر : الإحكام بين مراحل العمل في دعوة النّبي ﷺ ، للدّكتور / يوسف محي الدّين أبـــو هالـــة . طبعـــة دار العاصمة بالرّياض : ١٤١١هـــ . ص : ١٠ . وانظر : مجموعة مـــن تلـــك التّعريفـــات في الكتـــاب نفســـه . ص : ١٠ – ١١ . وانظر : فصول في الدّعوة الإسلامية . د . حسن عيسى عبدالظّاهر . نشر وتوزيع دار الثّقافـــة بقطر . الطّبعة الأولى . ١٤٠٦ هـــــــ – ١٩٨٥ م . ص : ٢٢ .

١٠/ العذاب :

قال تبارك وتعـالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝ ﴾ [المعارج:١٥-١٧]. يعني تعذّب(١) . وقد حمل بعض العلماء المعنى هنا على النّداء ، أي تنادي من كانوا يعملون في الدّنيا عملها(٢) .

١١/ التّمنّي :

قال عزّ وجـــلّ : ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ۝ ﴾ [الانشـقاق:١١]. أي يتمنّـى هلاكاً (٣) .

١٢/ الأذان :

قال ﷺ : " الخلافة في قريش ، والحكـــم فـــي الأنصـــار ، والدّعـــوة فـــي الحبشة " .(٤)

أراد بالدّعوة : الأذان(٥) .

---

(١) انظر : إصلاح الوجوه والنّظائر . ص : ١٧٥ .

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم : ٦٥٨/٤ . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢٨٩/١٨ .

(٣) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية . ص : ١٨٨ .

(٤) سنن التّرمذي: بمعناه عن أبي هريرة ﷺ في: كتاب: المناقب: (٤٥). باب في فضـــل اليمـــن: (٧١). برقـم: (٣٩٣٦). قال الشّيخ الألباني (رحمه الله): " صحيح ". ص: ٦٠٥ .
مسند أحمد: بلفظه في: ١٨٥/٤. عن عتبة بن عبد ﷺ . و بمعناه في: ٣٦٤/٢. عن أبي هريرة ﷺ . قال الشّـيخ أحمد شاكر (رحمه الله): " إسناده صحيح ". مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٣١٠/١٦. برقم: (٨٧٤٦).
معجم الطّبراني الكبير: بلفظه في: ١٢١/١٧. عن عتبة ﷺ .

(٥) النّهاية في غريب الحديث : ١٢٢/٢ .

وفي حديث جابر بن عبدالله (رضي الله عنهما) أنّ رسول اللّه ﷺ قال : " من قال حين يسمع النّداء اللّهمّ ربّ هذه الدّعوة التّامّة ... " الحديث[1] .

المراد بالدّعوة هنا : ألفاظ الأذان[2] .

(١) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب: الأذان" الصّلاة " : (٥/١٠). باب الدّعاء عند النّداء: (١٥٩/٨). برقم: (٦١٤). ص: ١٤١. وفي كتاب: التّفسير: (٣٩/٦٥). باب ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴾ [الإسراء:٧٩] : (١٠/١١). برقم: (٤٧١٩). ص: ١٠٠٢.

(٢) عمدة القارئ : ١٢٢/٥ .

﴿المطلب الثّاني﴾

الدّعوة في اصطلاح الدّعاة

إنّ الدّعوة إذا أطلقت فالمراد بها الدّعوة إلى اللّه تعالى ، وهي تعني أمرين :

الأوّل : الدّين الإسلامي . فهي مرادفة لكلمة إسلام كما سبق في معناها الشّرعي(١) .

الثّاني : عملية نشر الإسلام بين النّاس(٢) .

وعلى هذا الإطلاق الأخير حاول بعض الكتّاب أن يصطلحوا تعريفاً جامعاً مانعاً لكلمة الدّعوة .

وقد تعدّدت تعريفاتهم وتكاثرت ، والكثير منها يعتريه القصور والنّقص . ولعلّي أنتقي من بين تلك التّعريفات ما أراه أقرب إلى الصّواب ، وأبلغ في الدّلالة .

قال الشّيخ محمّد الحبيب :

" إنّ الدّعوة إلى اللّه هي : قيام من له أهلية بدعوة النّاس جميعاً في كلّ زمان ومكان لاقتفاء أثر رسول اللّه ﷺ والتّأسّي به قولاً وعملاً وسلوكاً " (٣) .

فشمل تعريفه : الدّعاة ، والمدعوّين ، والمدعو إليه ، وعالمية الدّعوة .

وقال محمّد السّيد الوكيل :

" جمع النّاس على الخير ، ودلالتهم على الرّشد بأمرهم بالمعروف ونهيهم

---

(١) انظر : ص : ٣٩٠ -٣٩١ من هذا البحث .

(٢) انظر : الدّاعي إلى اللّه : تكوينه – مسؤوليّته : للدّكتور / زيد بن عبدالكريم الزّيد . طبعة دار العاصمة . الرّياض الطّبعة الأولى . ١٤١٥ هـ . ص : ١١-١٢ . الإحاكم بين مراحل العمل . ص : ٩-١١ .

(٣) الدّعوة إلى اللّه في سورة إبراهيم الخليل . للدّكتور / محمّد بن سيدي بن الحبيب . دار الوفاء . جدّة . الطّبعة الأولى . ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٥ م . ص : ٢٧ .

عن المنكر " (١) .

وقد استقى ذلك من قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٤].

وقال د . يوسف أبو هالة :

" هي قيام المسلمين المؤهلين ، دولة ، وأمّة ، وأفراداً ، بتبليغ النّاس كافّة ، وحثّهم على اتّباع الإسلام ، إيماناً ، وعملاً ، ومنهاج حياة ، بطرق مشروعة مخصوصة " (٢) .

فتعريفه شمل موضوع الدّعوة ، والدّاعية ، والمدعو ، والوسيلة .

ويمكن أن أستخلص ممّا سبق تعريفاً جامعاً مانعاً يتضمّن كلّ جوانب الدّعوة . وهو :

أنّ يقوم من له أهلية واستطاعة من المسلمين فرداً أو جماعة بتبليغ دين الإسلام إلى النّاس كافّة أفراداً أو جماعات ، في كلّ زمان ومكان بالقول أو الفعل أو السّلوك ، مقتفين في ذلك أثر رسول اللّه ﷺ ، متأسّين به ، سالكين لذلك طرقاً مشروعة مخصوصة .

والدّعوة بهذا التّعريف هي المقصودة بهذا البحث .

---

(١) أسس الدّعوة وآداب الدّعاة . للدّكتور / محمّد السّيد الوكيل . مطابع الأخبار . ١٩٧٩م . نشر دار الطّباعة والنّشر الإسلاميّة . القاهرة . ص : ٩ .

(٢) الإحكام بين مراحل العمل . ص : ١٣

الفصل الثّاني

أهمّيّة الدّعوة إلى اللّه والغاية منها وحكمها

وفيه مبحثان :

المبحث الأوّل

أهمّيّة الدّعوة إلى الله

إنّ الدّعوة إلى اللّه مقام عظيم من مقامات الإيمان والعمل الصّالح ، لقوله عزّ في علاه : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت:٣٣].

وهي أشرف مقامات العبد وأجلّها وأفضلها ، لأنّها أعظم الأعمال وأرفع العبادات .

وهي أخصّ خصائص رسل اللّه عليهم السّلام ووظيفتهم ومهمّتهم الّتي بها بعثوا ، ولها حملوا ، ومن أجلها شرّفوا ، وبها فضّلوا ، ولها اختيروا .

وهي أبرز مهام عباد اللّه الصّالحين ، وأوليائه المخلصين ، الّذين بها قاموا ، وللوائها رفعوا ، ولها نصروا ، وبها عظّموا .

والدّعوة إلى اللّه هي الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر الّذي أنزل اللّه به كتبه ، وأرسل به رسله(١) .

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى : ١٥/١٦٦ .

قال الرّازي (رحمه الله) في قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران:١٠٤] . قال :

" الدّعوة إلى الخير جنس تحته نوعان : أحدهما :التّرغيب في فعل ما ينبغي وهو بالمعروف . والثّاني : التّرغيب في ترك ما لا ينبغي وهو النّهي عن المنكر ، فذكر الجنس أوّلاً ثمّ أتبعه بنوعيه مبالغة في البيان ".التّفسير الكبير : ٨/١٦٧.

قال الغزالي (رحمه الله) :

" إنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدّين ، وهو المهمّ الّذي ابتعث اللّه له النّبيّين أجمعين ، ولو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطّلت النّبوّة ، واضمحلت الدّيانة ، وعمّت الفترة ، وفشت الضّلالة ، وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد ، واتّسع الخرق ، وخربت البلاد ، وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلى يوم التّناد " (١) .

وكيف لا تتأتّى هذه الأهميّة للدّعوة إلى اللّه وهي الّتي تعرّف الإنسان بسرّ وجوده على هذه الأرض ، والغاية الّتي لها خلق ، والهدف الّذي من أجله وجد ، وهو عبادة ربّه سبحانه كما قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ ﴾ [الذاريات:٥٦] ؟ .

فتعرّفه بربّه وخالقه ، وكيف يعبده ويوحّده ، ويلتزم شرعه ، ويقوم بأمره ، ويتجنّب نهيه ، ويتحرّر من رقّ العبوديّة لغيره .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" الدّعوة إلى اللّه هي الدّعوة إلى الإيمان به ، وبما جاءت به رسله . بتصديقهم فيما أخبروا به ، وطاعتهم فيما أمروا ، وذلك يتضمّن الدّعوة إلى الشّهادتين ، وإقام الصّلاة ، وإيتاء الزّكاة ، وصوم رمضان ، وحجّ البيت ، والدّعوة إلى الإيمان باللّه ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت ، والإيمان بالقدر خيره وشرّه ، والدّعوة إلى أن يعبدَ العبدُ ربّه كأنّه يراه " (٢) .

وقيل : ذلك من باب عطف الخاص على العام لمزيد فضلهما . انظر : روح المعاني : ٢١/٤ . فتح البيان في مقاصد القرآن . لأبي الطّيب صدّيق بن حسن القنوجي البخاري . طبعة إدارة إحياء التّراث الإسلامي بدولة قطر : ٣٠٥/٢ . محاسن التّأويل : ٩٢١/٤ .

(١) إحياء علوم الدّين : ٣٩١/٢ .

(٢) مجموع الفتاوى : ١٥٧/١٥-١٥٨ .

وهي شاملة لحاجة الإنسان في هذه الحياة فيما يتعلّق بجوانب الاعتقاد ، والتّكاليف ، وتصحيح مساره فيما يتعلّق بجوانب الأخلاق ، والاجتماع ، والاقتصاد والسّياسة ، وبيان حقوق نفسه ، وعلاقته بخالقه ، وبالكون ، وبالنّاس من حوله أفراداً وجماعات ، وما في هذه الحياة من عوالم ، وما وراء هذه الحياة(١) .

وهي الّتي تدلّ النّاس على الخير ، وتجمعهم على الحقّ ، وتنشر بينهم العدل ، وتبثّ بينهم الأمن ، وتدفعهم إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشّيم ، وتحقّق لهم المصالح العظيمة في معاشهم ومعادهم ، وتدفع عنهم كلّ شرّ ، وتبعد عنهم كلّ ضلال .

❁ إنّ النّاس كانوا أمّة واحدة على توحيد اللّه تعالى منذ أن بعث اللّه آدم عليه السّلام ، ثمّ بدأ يدبّ فيهم الانحراف عن الحقّ حتّى حادوا عنه ، وتركوا عبادة اللّه إلى غيره فأرسل اللّه لهم نوحاً عليه السّلام في طليعة الرّسل مبشّراً ومنذراً ليردّ النّاس إلى عقيدة التّوحيد ، ويرجعهم إلى دين اللّه تعالى .

قال سبحانه : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ [البقرة:٢١٣].

قال ابن عبّاس (رضي الله عنهما) :

" كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلّهم على شريعة من الحقّ ، فاختلفوا ، فبعث اللّه النّبيّين مبشّرين ومنذرين " (٢) .

---

(١) انظر : فصول في الدّعوة الإسلاميّة ، ص : ٦٣ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى : ١٠٦/٢٠ . تفسير القرآن العظيم : ٣٧٤/١ .

وأثر ابن عبّاس (رضي الله عنهما) في : جامع البيان : ٣٣٤/٢ . طبعة دار المعرفة . البداية والنّهاية : ١٠١/١ . وقد أورده الحاكم في المستدرك . ولفظه : "عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) قال : " كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلّهم على شريعة من الحقّ ، فلمّا اختلفوا بعث اللّه النّبيّين والمرسلين ، وأنزل كتابه فكانوا أمّة واحدة" . وقال: " هذا حديث صحيح على شرط البخاري و لم يخرجاه". ٤٨٠/٢. وانظر: ٥٩٦/٢.

ولم تغب شمس الرّسالة بعد نوح عليه السّلام ، ولم يندثر أثرها من الأرض ، بل كلمّا انحرفت أمّة عن جادّة الصّواب بعث اللّه لها رسلاً ليُقيمَ عِوجـــها ويزيـل صلفها . كما قال سبحانه وتعـالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المؤمنون:٤٤].

ولقد اصطفاهم اللّه عزّ وجلّ واختارهم واجتباهم لحمل دعوته وتبليغ دينـــه . فقــال ســـبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [آل عمران:١٧٩] . وقال عـــزّ وجــلّ : ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام:١٢٤].

يقول ابن القيّم (رحمه الله) :

" فاللّه سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وميراثاً ، فهو أعلم بمن يصلـح لتحمّل رسالته فيؤدّيها إلى عباده بالأمانة والنّصيحة ، وتعظيم المرسل والقيام بحقّــه، والصّبر على أوامره ، والشّكر لنعمه ، والتّقرّب إليه ، ومن لا يصلح لذلك " (١) .

ولذا تولّى سبحانه تنشئتهم ورعايتهم كي يقوموا بهذا الواجب العظيم ، ويؤدّوا تلك الوظيفة الرّفيعة ، فقال عزّ وجلّ عن موسى عليه السّـــلام : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه:٣٩] .

---

(١) طريق الهجرتين . ص : ١٧١-١٧٢ .

قال قتادة (رحمه الله) :

" أي تُربّى وتُغذّى على مرأى مني " (١) .

وقال السّعدي (رحمه الله) :

" أي ولتتربّى على نظري وفي حفظي وكلاءتي . وأي نظر وكفالة أجلّ وأكمل من ولاية البر الرّحيم القادر على إيصال مصالح عبده ، ودفع المضار عنه " (٢) .

وقال سبحانه عن محمّد ﷺ : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ ﴾ [الضحى:٦-٨].

فلو لم تكن الدّعوة إلى الله بالغة الأهميّة ، جليلة القدر ماهيّأ الله لها تلك الصّفوة ، واختار لها أولئك الجلّة ليقوموا بأدائها وإبلاغها .

وهم بهذه الكفالة وتلك الكلاءة قاموا بحملها خير قيام ، وأدّوها أعظم أداء ، وكانوا جميعاً دعاة إلى اللّه تعالى ، بل أعظم دعاة إليه سبحانه ، بشّروا وأنذروا ، ودعوا وحذّروا كما قال العزيز الرّحيم عنهم : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٤٨ ﴾ [الأنعام:٤٨].

وتلك زبدة ما أرسلوا به ، وهي البشارة والنّذارة ، وذلك مستلزم لبيان المبشِّر والمبشَّر به والأعمال المؤدّية إلى حصول البشارة ، ولبيان المنذِر والمنذَر به والأعمال المؤديّة إلى النّذارة (٣) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ١٩٧/١١ .

(٢) تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٤٥٤ .

(٣) انظر : المرجع السّابق : ص : ٢١٩ .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الكهف:٥٦].

فهم يدعون النّاس لكلّ خير ، وينهونهم عن كلّ شرّ ، ويبشّرون من صدّقهم من أهل الإيمان بالثّواب على الطّاعات ، وينذرون من كذّبهم وخالفهم من الكفّار بالعقاب على المعاصي [1] .

وكلّهم دعا إلى دين اللّه الأوحد الّذي لا دين سواه . قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ ﴾ [آل عمران:١٩]. ولا يقبل غيره . كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران:٨٥]. وهو المشروع على ألسنتهم جميعاً عليهم السّلام . كما قال سبحانه : ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ [الشورى:١٣] .

وغايته أن يُعْبَد اللّه وحده ولا يشرك معه أحد من خلقه . وهو القدر المشترك الّذي دعا له جميع الرّسل ولم يشذّ عنهم أحد في الدّعوة إليه . وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ ﴾ [النحل:٣٦]. وقال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٥] .

---

(١) انظر : جامع البيان : ٢٦٧/١٥ . التفسير الكبير : ١٤١/٢١ . تفسير القرآن العظيم : ١٤٨/٣ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٤٣٠ .. وانظر : مجموع الفتاوى : ٣٣٦/١٥ .

وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم كما قال عــزّ وجــلّ : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المــائدة:٤٨] فدينـــهم واحــد وهـــو الإســـلام .(١) وفي ذلك يقول ﷺ في حديث أبي هريرة : " والأنبياء إخوة لِعَلاَّت(٢) أمهاتهم شــتّى ودينهم واحد " (٣) .

وكلّ ذلك يبرز أهميّة الدّعوة إلى الله الّتي كلّف الله بها تلك الصّفوة ، وأمرهم بإبلاغ تلك الغايات العظمى إلى الخلق طرّة .

وقد ختمت كوكبة الأنبياء بأعظمهم قدراً ، وأعلاهم رتبة ، وأكملهم دعــوة ، خيرة اللّه في خلقه ، وأمينه على وحيه ، الدّاعي بإذن ربّه ، والهادي إلى ســبيله . قال اللّه عزّ وجــلّ : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ۝ ﴾ [الأحــزاب:٤٠] .

وعن جابر رضي الله عنه عن النّبي ﷺ قال : " مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأتمّها وأكملها إلاّ موضع لبنة ، فجعل النّاس يدخلونها ويتعجّبون منها ، ويقولــون :

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم : ١٦٤/٤ .. وانظر : مجموع الفتاوى : ١٥٨/١٥-١٥٩ .

(٢) بنو العلاّت هم الإخوة لأب واحد وأمّهات شتّى . ويقال : إنّما سمّيت ضرّة المرأة عَلّة لأنّها تعلّ بعد صاحبتها . أي ينتقل الزّوج من إحداهما إلى الأخرى كالعلل في الشّرب بعد النّهل . فإذا كان الإخوة لأب واحد وأمّ واحدة فهم بنو الأعيان ، وإن كانوا لأمّ واحدة وآباء شتّى فهم الأخياف لاختلاف أصولهم .
انظر : غريب الحديث للخطّابي : ١٦٠/٢ .

(٣) جزء من حديث في:
صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب: أحاديث الأنبياء: (٣٦/٦٠). بــاب : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ [مــريم:١٦] : (٤٩/٤٨). برقــم: (٣٤٤٣). ص: ٧٣٠. و بلفـــظ مقــارب برقم: (٣٤٤٢). ص: ٧٣٠.
صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب: الفضائل: (٤٣). باب فضائل عيســى عليــه السّــلام: (٤٠). برقــم: (٢٣٦٥). ١٨٣٧/٤.

لولا موضع اللّبنة " قال رسول اللّه ﷺ : " فأنا موضع اللّبنة ، جئت فختمت الأنبياء " (١) .

قال أبو العبّاس القرطبي (رحمه الله) :

" ومقصود هذا المثل أن يبيّن به ﷺ أنّ اللّه تعالى ختم به النّبيّين والمرسلين ، وتمّم به ما سبق في علمه إظهاره من مكارم الأخلاق ، وشرائع الرّسل . فبه كمُل النّظام ، وهو ختم الأنبياء والرّسل الكرام ، صلّى اللّه عليه وعلى آله أفضل صلاة وسلّم عليه أبلغ سلام " (٢) .

فدعوته خاتمة ، ولذا جمعت بين طيّاتها دعوات الرّسل جميعاً وفاضت عليها بالتّشريع الكامل الدّائم .

ولمّا كانت خاتمة ، كانت عامّة ، وللنّاس كافّة ، عربهم وعجمهم ، وأبيضهم وأسودهم ، وإنسهم وجنّهم .

قال سبحانه : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٨].

---

(١) صحيح البخاري: بلفظ مقارب في: كتاب: المناقب: (٣٧/٦١). باب خاتم النّبيين ﷺ : (١٨). عن جابر رضي الله عنه برقم: (٣٥٣٤). ونحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه برقم: (٣٥٣٥). ص: ٧٤٧.
صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب: الفضائل: (٤٣). باب ذكر كونه ﷺ خاتم النّبيين: (٧). برقم: (٢٢٨٧).
ونحوه عن أبي هريرة وأبي سعيد (رضي الله عنهما) . ٤/١٧٩٠-١٧٩١.
اللّبِنَة : بفتح اللاّم وكسْر الباء وَاحِدة اللّبِن وهي الّتي يُبْنى بها الجِدَار ، ويُقَال : بِكَسْر اللاّم وسُكون البَاء .
النّهاية في غريب الحديث : ٤/٢٢٩-٢٣٠ .

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم . لأبي العبّاس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي . تحقيق جماعة من أهل العلم .طبعة :دار ابن كثير . دار الكلم الطّيّب . دمشق . الطّبعة الأولى : ١٤١٧هـ ـــ ١٩٩٦م : ٦/٨٨.

يقول ابن كثير (رحمه الله) :

" يقول تعالى لنبيّه ورسوله محمّد ﷺ " قل :يا محمّد : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ وهذا خطاب للأحمر والأسود ، والعربي والعجمي .﴿ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ أي جميعكم. وهذا من شرفه وعظمه ﷺ أنّه خاتم النّبيّين ، وأنّه المبعوث إلى النّاس كافّة " [(١)] .

ويؤيّد ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ:٢٨].

وفي الحديث قال ﷺ : " أعطيتُ خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحد قبلي ، كان كلّ نبيّ يبعث إلى قومه خاصّة ، وبعثت إلى كلّ أحمر وأسود " [(٢)] .

ولمّا كانت عامّة ، كانت شاملة كاملة لا نقص فيها ، ولا زلل يعتريها ، جمعت الخير كلّه ، والفضل جلّه ، كافية وافية ، استغنت بها الأمّة عن سواها ، واكتفت بها عمّا وراءها .

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٢/٤٠٤-٤٠٥ . وانظر : جامع البيان : ٨٦/٩ . التّفسير الكبير : ٢٦/١٥ . الجواهر الحسان في تفسير القرآن . للشّيخ عبدالرّحمن بن مخلوف الثّعالبي ، تحقيق محمّد الفاضلي . طبعة المكتبة العصريّة . بيروت : ٥٦/٢ . محاسن التّأويل : ٢٨٨٣/٧ .

(٢) صحيح البخاري: نحوه في: كتاب: التّيمّم" الطّهارة" : (٤/٧). باب التّيمّم: (١٣٩/١). برقم: (٣٣٥). ص: ٨٧. وفي كتاب: الصّلاة: (٥/٨). باب قول النّبي ﷺ : " جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً " : (٥٦). عن جابر بن عبد اللّه (رضي اللّه عنهما). برقم: (٤٣٨). ص: ١٠٨.
صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب: المساجد ومواضع الصّلاة: (٥). عن جابر ﷺ . برقم: (٥٢١). و بمعناه عن أبي هريرة ﷺ . برقم: (٥٢٣). ٣٧٠/١-٣٧١.

يقول ابن القيّم (رحمه الله) :

" وبالجملة فقد جاءهم رسول اللّه ﷺ بخير الدّنيا والآخرة بحذافيره[1] . ولم يجعل اللّه بهم حاجة إلى أحد سواه ، ولهذا ختم اللّه به ديوان النّبوّة فلم يجعل بعده رسولاً ، لاستغناء الأمّة به عمّن سواه " [2] .

ولذا قام ﷺ بالدّعوة على قدم وساق ، غير مفرّط فيها ولا متكاسل عنها ، وهو الّذي علم أنّه ما أرسل إلاّ من أجلها ، وما اصطُفِيَ إلاّ بسببها ، وقد قال له ربّه سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦]. وقال : ﴿ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الحج:٦٧]. وقال : ﴿ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [القصص:٨٧]. والآيات في ذلك كثيرة جداً .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية(رحمه الله) في وصف اللّه لنبيّه ﷺ بقوله : ﴿ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف:١٥٧] . يقول :

" هو بيان لكمال رسالته ، فإنّه ﷺ هو الّذي أمر اللّه على لسانه بكلّ معروف ، ونهى عن كلّ منكر ، وأحلّ كلّ طيّب ، وحرّم كلّ خبيث " [3] .

---

(١) حَذَافِيرُ الشّيء: أعالِيهِ ونَواحِيه . واحدها حِذْفار . بحَذَافِيره أي بجميعه . ويقال: أعطاه الدّنيا بحَذافِيرها أي بأسْرها . انظر : لسان العرب : ٤/١٧٧ . وانظر : مختار الصّحاح : ص : ١٢٧ . القاموس المحيط : ص : ٤٧٨ .

(٢) بدائع الفوائد : لابن قيّم الجوزيّة . تحقيق جماعة من المحقّقين . النّاشر : مكتبة نزار مصطفى الباز . مكة . الطّبعة الأولى : ١٤١٦هـ ـــ ١٩٩٦م : ٣/٣٧٧ . الضّوء المنير : ٤/٥١٦ .

(٣) الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تقديم د/ محمّد جميل غازي ، مطبعة المدني . المؤسّسة السّعودية بمصر . ص : ١٢ . وهو في مجموع الفتاوى : ٢٨/١٢١ .

وأمّا ما تحمله دعوته ﷺ بين جنباتها فقد كشف النّقاب عنه جعفر بن أبي طالب ﷺ عندما أخبر النّجاشي بشأنها حين قال :

" أيّها الملك كنّا وقومنا أهل جاهليّة ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منّا الضّعيف ، فكنّا على ذلك ، حتّى بعث اللّه إلينا رسولاً منّا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى اللّه لنوحّده ونعبده ، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرّحم ، وحسن الجوار ، والكفّ عن المحارم والدّماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزّور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات[1] ، وأمرنا أن نعبد اللّه وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصّلاة والزّكاة والصّيام .. " فعدّد عليه أمور الإسلام[2] .

إذاً هي دعوة جمعت الخير كلّه ، وحذّرت من الشّر كلّه ، فحقّ لها أن توصف بقول اللّه تعالى : ﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [الأنعام:١٥٧]. وبقوله : ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الجاثية:٢٠]. وأن يوصف صاحبها بقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء:١٠٧] .

وهذا كلّه يبرز عظم مقام الدّعوة إلى اللّه ، وسمو شأنها ، وعلو منزلتها ، ورفيع مكانتها .

---

(١) المحصنات : أصل الإحْصانِ المنعُ .والمرأة تكون مُحْصَنة بالإسلام والعَفاف والحرّية والتزويج. يقال: أَحْصَنَت المرأة، فهي مُحْصَنة و مُحْصِنَة، وكذلك الرّجل. و المُحْصَنُ، بالفتح : يكون بمعنى الفاعل والمفعول . لسان العرب : ١٢٠/١٣ . وانظر : غريب الحديث لابن قتيبة : ٢١٤/١ . المفردات : ص : ١٢١ .

(٢) السّيرة النّبويّة لابن هشام : ٢٠٦/١ . سير أعلام النّبلاء : ٤٣٢/١-٤٣٤ . وأثر جعفر ﷺ سبق تخريجه. انظر: ص : ٢٤٣ .

وما خيّرت هذه الأمّة وفُضّلت على النّاس جميعاً إلاّ لقيامها بواجب الدّعــــوة إلى اللّه والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر .

وفي ذلك يقول المولى عـــزّ وجــلّ :﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١١٠].

وهذا وصف لها بما وصف به نبيّها من قبل ، فهي تشترك معه فـــي واجـــب القيام بالدّعوة إلى اللّه تعالى(١) .

وقد أورد ابن جرير (رحمه الله) عدّة أقوال عن أهل العلم تفيد أنّ الآية تخصّ فئة معيّنة ، ثمّ ذكر أقوالاً أخرى في إفادتها العموم ، ورجّح ذلك(٢) .

وإن كان ظاهر الخطاب يفيد الخصوصية إلاّ أنّه عامّ في كلّ الأمّة ، ونظـيره قوله تعالى :﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقــرة:١٨٣] . ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ ﴾ [البقرة:١٧٨] (٣) .

ولذا قال ابن كثير (رحمه الله) :

" والصّحيح إنّ هذه الآية عامّة في جميع الأمّة كلّ قـــرن بحسـبه ، وخـير قرونهم الّذي بعث فيهم رسول اللّه ﷺ ، ثمّ الّذين يلونهم ، ثمّ الّذين يلونهم(٤) ، كمـــا

---

(١) انظر : الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية . ص : ١٣ . مجموع الفتـــاوى :١٢٢/٢٨ . مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر لفاروق عبد المجيد حمود السّامرّائي . مطـــابع دار المطبوعـــات الحديثة جدّة . نشر مكتبة دار الوفاء . جدّة . ص : ١٨ .

(٢) جامع البيان : ٤٣/٤-٤٥ .

(٣) انظر : التّفسير الكبير : ١٧٩/٨ .

(٤) هذا لفظ حديث سبق تخريجه . انظر : ص : ٢٤٠ .

قال في الآية الأخرى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أي خياراً ﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة:١٤٣] "(١) .

وهذا الّذي تسنده الأدلّة الدّالة على أفضلية هذه الأمّة على سائر الأمم .

قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣] .

فقد أخبر تعالى أنّه جعلهم أمّة خياراً عدولاً ، وهذا حقيقة الوسط ، فهم خير الأمم وأعدلها في أقوالهم وأعمالهم وإراداتهم ونيّاتهم . وبهذا استحقّوا أن يكونوا شهداء للرّسل على أممهم يوم القيامة (٢) .

وفي حديث علي بن أبي طالب ﷺ . قال رسول اللّه ﷺ : " أُعْطيتُ ما لم يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبياء " وذكر فيه : " وجعلت أمّتي خير الأمم " (٣) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٥٨٥/١ . وانظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٧١/٤ . الجواهر الحسان : ٢٨٠/١ . فتح البيان : ٣١٠/٢-٣١١ . روح المعاني : ٢٧/٤-٢٨ .

(٢) أعلام الموقّعين : ١٣٢/٤-١٣٣ بتصرّف يسير . الضّوء المنير : ٢٧٦/١ .

(٣)سنن البيهقي: بلفظه في: باب الدّليل على أنّ الصّعيد الطّيب هو التّراب. ٢١٣/١-٢١٤ .

مسند أحمد : بلفظه في: ٩٨/١ . قال الشّيخ أحمد شاكر (رحمه الله): " إسناده صحيح " . مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١١٣/٢. برقم: (٧٦٣). و بلفظ مقارب في: ١٥٨/١. قال الشّيخ أحمد شاكر (رحمه الله): " إسناده صحيح ". مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٣٤٩/٢. برقم: (١٣٦١).

قال ابن كثير (رحمه الله) : " تفرّد به أحمد من هذا الوجه ، وإسناده حسن " . تفسير القرآن العظيم : ٥٨٥/١ . والحديث أصله في الصّحيحين . وقد مرّ قريباً في : ص : ٤٠٣ .

وعن معاوية بن حَيْدة ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : " ألا إنّكم توفـــون ســبعين أمّة ، أنتم خيرها وأكرمها على اللّه عزّ وجلّ " (١) . والأحاديث في ذلك كثيرة (٢) .

وعن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال :

" يا أيّها النّاس ، من سرّه أن يكون من تلك الأمّة ، فليؤدّ شرط اللّه منها " (٣) .

وإنّما استحقّت الأفضليّة على الأمم ، ونالت الخيريّة عليها لإيمانـــها باللّـــه ، ولقيامها بالدّعوة إليه والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، وذلك هو علّة الخيريّـــة الّتي حكم اللّه تعالى بثبوت الوصف بها لهذه الأمّة (٤) .

ومن أجل ذلك قدّم الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر في الآية على الإيمـــان باللّه ، مع أنّ الإيمان شرط في الأعمال ، ولكنّه قدر مشترك بين جميع الأمـــم دون الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر الّذي فضّلت به هذه الأمّة (٥) .

---

(١) سنن التّرمذي: بلفظ مقارب في: كتاب: تفسير القرآن: (٤٣). باب ومـــن ســـورة آل عمـــران: (٤). برقـــم: (٣٠٠١). وقال: "هذا حديث حسن". و قال الشّيخ الألباني (رحمه الله): " حسن". ص: ٤٧٩.
سنن ابن ماجه: بلفظ مقارب في كتاب: الزّهد: (٣٧). باب صفة أمّـــة محمّـــد ﷺ : (٣٤). برقـــم: (٤٢٨٨). ونحوه برقم: (٤٢٨٧). قال الشّيخ الألباني (رحمه الله): " حسن". ص: ٤٦٢.
سنن الدّارمي: بلفظ مقارب في: باب قول النّبي ﷺ " أنتم آخر الأمم" . ٤٠٤/٢.
سنن البيهقي: بلفظه إلاّ أحرف يسيرة في كتاب: السّير . باب مبتدأ الخلق. ٥/٩.
مسند أحمد: بلفظه في: ٣/٥. و بلفظ مقارب في: ٤٤٧/٤. و نحوه في: ٣/٥،٥.
مستدرك الحاكم: بلفـــظ مقـــارب في: ٩٤/٤. وقـــال: " هـــذا حديـــث صحيـــح الإســـناد و لم يخرجـــاه". وقال الذّهبي (رحمه الله): "صحيح".
قال ابن كثير : " وهو حديث مشهور " . تفسير القرآن العظيم : ٥٨٥/١ .

(٢) ساق الحافظ ابن كثير (رحمه الله) جمهرة منها في تفسيره . انظر : ٥٨٦/١-٥٩٢ .

(٣) جامع البيان : ٤٣/٤ . تفسير القرآن العظيم : ٥٩٣/١ .

(٤) انظر : التّفسير الكبير : ١٧٩/٨-١٨٠.

(٥) انظر : المرجع السّابق : ١٨٠/٨ . روح المعاني : ٢٨/٤ .

وقد يعترض على ذلك بأنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر كان موجوداً في الأمم السّابقة ، ويدلّ على ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [آل عمران: ٢١].

قال القرطبي (رحمه الله) :

" دلّت هذه الآية على أنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر كان واجباً في الأمم المتقدّمة ، وهو فائدة الرّسالة وخلافة النّبوّة " (١) .

ولكن القليل منهم من كان يقوم بذلك ، وسائرهم كان تاركاً للأمر والنّهي ، وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [هود: ١١٦].

يقول ابن كثير (رحمه الله) :

" وقوله : ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي قد وجد منهم من هذا الضّرب قليل لم يكونوا كثيراً ، وهم الّذين أنجاهم اللّه عند حلول غضبه وفجأة نقمته " (٢) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٤/٤٧ .. وانظر في معنى الآية وسبب نزولها : جامع البيان : ٣/٢١٥-٢١٦ . التّفسير الكبير : ٧/٢١٥ . فتح البيان : ٢/٢٠٨ . محاسن التّأويل : ٤/٨١٧ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٢/٧١٨ .. وانظر : جامع البيان : ١٢/١٣٨-١٣٩ . التّفسير الكبير : ١٨/٧٤-٧٥ . الجامع لأحكام القرآن : ٩/١١٣ . الجواهر الحسان : ٢/٢٠٣ . روح المعاني : ١٢/١٦١ . فتح البيان : ٦/٢٧٠ . محاسن التّأويل : ٩/٣٤٩٦ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٣٤٧ .

وأكّد القرطبي(رحمه الله) ذلك بقوله :

" إنّما صارت أمّة محمّد ﷺ خير أمّة لأنّ المسلمين منهم أكثر ، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر فيهم أفشى " (١) .

وقد ذكر القفّال (رحمه الله) وجهاً آخر فيما نقله الرّازي (رحمه الله) عنه. إذ يقول :

" تفضيلهم على الأمم الّذين كانوا قبلهم إنّما حصل لأجل أنّهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بآكد الوجوه وهو القتال ، لأنّ الأمر بالمعروف قد يكون بالقلب وباللّسان وباليد ، وأقواها ما يكون بالقتال ، لأنّه إلقاء النّفس في خطر القتل " (٢) . ولا تنافر بين الوجهين .

والخيريّة مشتركة بين أوّل هذه الأمّة وآخرها بالنّسبة إلى غيرها من الأمم ، وإن كانت متفاضلة في ذاتها ، كما ورد في فضل الصّحابة على غيرهم (٣) .

وهم خير الأمم للنّاس ، وأنفعهم لهم ، وأعظمهم إحساناً إليهم ، لأنّهم أكمل النّاس أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ، حيث أمروا بكلّ معروف ونهوا عن كلّ منكر لكلّ أحد ، وأقاموا ذلك بالجهاد في سبيل اللّه بأنفسهم وأموالهم . وهذا كمال النّفع للخلق (٤) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٤/١٧١ .

(٢) التّفسير الكبير : ٨/١٨٠ .

(٣) مكاشفة القلوب المقرّب إلى علاّم الغيوب لأبي حامد الغزالي . دار المعرفة بيروت . الطّبعة الأولى : ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م . ص : ٦٤ . فتح البيان : ٢/٣١٠ .

(٤) مجموع الفتاوى : ٢٨/١٢٣ . بتصرّف .

وفي ذلك يقول أبو هريرة ﷺ : في قوله تعالى :

" ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّـةٍ أُخْـرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١١٠]: خير النّاس للنّــاس، تأتون بهم في السّلاسل في أعناقهم حتّى يدخلوا في الإسلام " (١) .

وفي ذلك قمّة النّفع لعباد اللّه .

وتلزمهم هذه الخيريّة ما أقاموا على ذلك واتّصفوا به ، فــإذا تركــوا الأمــر بالمعروف والنّهي عن المنكر زالت عنهم (٢) .

والمراد أنّ الأمّة نالت الخيريّة وحازت قصب السّبق على الأمم قاطبة لمّــا قامت بالدّعوة إلى اللّه ، وهذا يبيّن أهميّة الدّعوة إلى اللّه وعظيم نفعها .

---

(١) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب: التّفسير: (٣٩/٦٥). بــاب ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّـةٍ أُخْـرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١١٠] : (٧). برقم: (٤٥٥٧). ص: ٩٥١.

(٢) انظر : مكاشفة القلوب . ص : ٦٤ . الجامع لأحكام القرآن : ١٧٣/٤ . فتح البيان : ٣١٠/٢ .

﴿ المبحث الثّاني ﴾

الغاية من تبليغ الدّعوة إلى الله وحكمها

إنّ الإنسان مكوّن : من روح تسمو إلى العلو ، وتدفعه إلى الهدى ، وتهديه إلى التّقى ، تعينها فطرة ترفض الشّرّ وتأباه ، وتسعى إلى الخير وترجوه ، ومن جسم خُلق من طين يرنو إلى السّفول ، ويخلد إلى الأرض ، ويهوي إلى الحضيض ، تحيط به شياطين ، وتدفعه أهواء ، وتحفّ به شهوات فيطلب حصول اللّذّة العاجلة ، والرّاحة المستعجلة فيهوي الشّرّ ، ويتتبّع طرق الغواية . فيحتدم الصّراع بين هذا وتلك ، ويشتدّ النّزاع بينهما ، وغالباً ما يتغلّب الجسم على الرّوح لكثرة دواعي الشّرّ ، فتفسد الفطرة ، ويتحكّم الهوى ، وتسيطر الشّهوة فتختل الموازين والقيم ، وينحرف الإنسان عن جادّة الطّريق ، ويرتمي بين أحضان الباطل والضّلال (١) .

والفطرةُ داعيةٌ للحقّ مجانبة للباطل ، ساعية للخير مباعدة للشّرّ .

قال ابن القيّم (رحمه الله):

" فإنّ اللّه سبحانه فطر القلوبَ على قبول الحقّ والانقياد له ، والطّمأنينة به، والسّكون إليه ومحبّته ، وفطرها على بُغْضِ الكذب والباطل ، والنّفور عنه ، والرّيبة به ، وعدم السّكون إليه . ولو بقيت الفِطَرُ على حالها لما آثرت على الحقّ سواه ، ولما سكنت إلاّ إليه ، ولا اطمأنّت إلاّ به ، ولا أحبّت غيره " (٢) .

وهي لا تصل إلى الحقّ في جميع جوانبه ، ولا إلى الصّلاح في كلّ مراميه ، ومع ذلك تتأثّر بالزّمان والمكان ومَنْ حولها .

---

(١) انظر : أسس الدّعوة وآداب الدّعاة . ص : ٩ – ١٠ .

(٢) مدارج السّالكين : ٣/٤٧١ .الضّوء المنير : ٢/٣٥ .

أضف إلى ذلك العوامل المؤثّرة الأخرى ، كالنّفس الأمّارة . قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف:٥٣] . والهوى الطّالب . قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية:٢٣].والشّيطان الغرور. قال عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ ﴾ [يوسف:٥] (١) .

وفي الحديث : " وإنّي خلقت عبادي حنفاء كلّهم ، وإنّهم أتتهم الشّياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزّل به سلطاناً " (٢) .

والمحيط الّذي تنشأ فيه . وفي الحديث : " كلّ مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه ، أو ينصّرانه ، أو يمجّسانه " (٣) .

فهذه وغيرها الكثير صارفة للفطرة عن الوصول إلى الحقّ القويم ، وجارفة لها عن الصّراط المستقيم .

والعقول أيضاً قاصرة عن إدراك الحقّ ، والوصول إلى الهداية بذاتها مهما بلغت تلك العقول من حصافة وذكاء ونبوغ .

والحكماء والمفكّرون والأذكياء والمنظّرون والفلاسفة والطّبيعيون لا يمكنهم أبداً أن يهدوا البشريّة ، وأن يقودوها إلى برّ الأمان وطريق النّجاة .

وإنّما يكون الصّلاح ، وتتحقّق الهداية والنّجاة على أيدي رُسُلِ اللّه عليهم السّلام ، المُبَلِّغين لدين اللّه ، الدّاعين بأمر اللّه ، السّائرين على هدى اللّه .

---

(١) وانظر : مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر : ص : ٣٣ .

(٢) سبق تخريجه. انظر : ص : ٢٧٧ .

(٣) سبق تخريجه. انظر : ص : ٢٧٥ .

ومن هنا كانت الحاجة ماسّة إلى الرّسالة ، ففيها السّعادة والهدى ، وفي البعد عنها الضّلال والشّقاء ، وكلّ خير في الوجود فمن جهتها نشأ ، وكُلُّ شَرٍّ في الوجود بمخالفتها جاء .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" والرّسالةُ ضروريّة للعباد ، لابد لهم منها ، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كلّ شيء . والرّسالةُ روح العالم ونوره وحياته ، فأي صلاح للعالم إذا عدم الرّوح والحياة والنّور ؟ ... فإنّ اللّه سبحانه جعل الرّسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرّهم ، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم ، وبعثوا جميعاً بالدّعوة إلى اللّه وتعريف الطّريق الموصل إليه ، وبيان حالهم بعد الوصول إليه .... والرّسالة ضروريّة في إصلاح العبد في معاشه ومعاده ، فكما أنّه لا صلاح له في آخرته إلاّ باتّباع الرّسالة ، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلاّ باتّباع الرّسالة ، فإنّ الإنسان مضطّر إلى الشّرع ، فإنّه بين حركتين : حركة يجلب بها ما ينفعه ، وحركة يدفع بها ما يضرّه . والشّرع هو النّور الّذي يبيّن ما ينفعه وما يضرّه . والشّرع نور اللّه في أرضه وعدله بين عباده ، وحصنه الّذي من دخله كان آمناً ... ولولا الرّسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النّافع والضّار في المعاش والمعاد . فمن أعظم نعم اللّه على عباده وأشرف مِنَّة عليهم أن أرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه ، وبيّن لهم الصّراط المستقيم . ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم بل أشرّ حالاً منها . فمن قبل رسالة اللّه واستقام عليها فهو من خير البريّة ، ومن ردّها وخرج عنها فهو من شرّ البريّة ، وأسوأ حالاً من الكلب والخنزير والحيوان البهيم ... الخ " [١] .

---

(١) مجموع الفتاوى : ١٩/٩٣ – ١٠٠ .

فحاجة النّاس إلى الرّسالة فوق كلّ حاجة ، وضرورتهم إليها فوق كلّ ضرورة [١] . ولا تصل الرّسالة إلى العباد إلاّ عن طريق الدّعوة إلى اللّه الّتي يقوم بها رسل اللّه ، والدّعاة إلى اللّه السّائرون على طريق الرّسل عليهم السّلام .

فالدّعوة هي المسلك الأوحد الّذي يسلكه رسل اللّه وأتباعهم لإيصال دين اللّه إلى النّاس كافّة . وهي الواسطة الّتي تعرف بها أحكام اللّه وشريعته ، وبغيرها الأبواب موصدة والطّرق مغلقة [٢] .

وإذا كانت الدّعوة بهذه المثابة فإنّ بها تتحقّق غايات عظمى ، وأهداف كبرى يعجز هذا المقام عن حصرها . من أهمّها :

١ـ عبادةُ اللّه وحده ، وعدمُ الإشراك به . فالغاية العظمى ، والهدف السّامي على هذه الأرض أن تتحقّق العبوديّة لله تعالى ، وأن تتوجّه القلوب إليه بالذّل والخضوع والخوف والرّغبة والإنابة ، وأن تخلع عنه الأنداد والأمثال ، فلا تعبد ولا ترجى . إذ هو الخالق الواحد الّذي يستحقّ العبادة .

فما رفعت السّماء ، وما بسطت الأرض ، وشقّ فيها من أنهار وبحار ، وأرسي عليها من جبال ، وأنبت فيها من أشجار ، وما وجد عليها من مخلوقات إلاّ من أجل عبادة اللّه وحده .

يقول ابن القيّم (رحمه الله) :

" إن اللّه عزّ وجلّ أرسل رسله وأنزل كتبه ، وخلق السّماوات والأرض ليُعرف ويُعْبَد ويُوَحَّد ويكون الدّين كلّه له ، والطّاعة كلّها له ، والدّعوة له كما قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]. وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الحجر:٨٥].

---

(١) انظر : زاد المعاد : ٦٩/١ . مفتاح دار السّعادة : ١١٧/٢ .

(٢) وانظر : المفهم : ٢١٨/٦-٢١٩ . فتح الباري : ٢٩٩/١ .

وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق:١٢] (١) .

فإنّ تحقيق الألوهيّة لله وتوحيده ، وزوال الشّرك من الأرض هو مقصود الدّعوة إلى اللّه وأصلها وحقيقتها (٢) .

قال ربْعي بن عامر ﷺ عندما سأله رُستم(٣) عن سبب مجيء جيش المسلمين إلى بلاد الفرس . قال :

" اللّه ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللّه ، ومن ضيق الدّنيا إلى سعتها ، ومن جوْرِ الأديان إلى عدل الإسلام " (٤) .

ولذا كانت عبادته وحده أوّل ما يدعو له رسل اللّه عليهم السّلام . قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف:٥٩] . وقال : ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف:٦٥].

---

(١) الجواب الكافي . ص : ٨٨-٨٩ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى : ١٥/١٦٣-١٦٤ .

(٣) رستم هو قائد جيش الفرس في معركة القادسيّة الّتي كانت بين المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص ﷺ والفرس في العام الخامس عشر أو السّادس عشر من الهجرة . وفيها انتصر المسلمون ، وقتل رستم .
انظر: العبر: ١/١٥. شذرات الذّهب: ١/١٦١-١٦٢.

(٤) البداية والنّهاية : ٧/٣٩ .

وهكذا عن صالح[١] وشعيب[٢] ، وغيرهما عليهم السّلام .

قال الرّازي (رحمه الله) :

" ما العبادة الّتي خلق الجنّ والإنس لها ؟

قلنا : التّعظيم لأمر اللّه والشّفقة على خلق اللّه ، فإنّ هذين النّوعين لم يخل شرع منهما ... ولمّا كان التّعظيم اللائق بذي الجلال والإكرام لا يعلم عقلاً لزم اتّباع الشّرائع فيها ، والأخذ بقول الرّسل عليهم السّلام . فقد أنعم اللّه على عباده بإرسال الرّسل وإيضاح السّبل في نوعي العبادة " [٣]

٢ـ الإيمان باللّه ورسله والملائكة والكتب المنزّلة من عند اللّه ، والإيمان بالقدر خيره وشرّه وبالبعث يوم الجزاء ، وتحقيق العمل الصّالح الّذي هو قرين الإيمان . قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الكهف:١٠٧] ، وهو يشمل كلّ ما ينفع الإنسان في دينه ونفسه وأهله ومجتمعه ، وكلّ ما يقوّي المسلمين علميّاً واجتماعيّاً وسياسيّاً واقتصاديّاً وخلقيّاً على الأسس الّتي جاء بها الإسلام [٤] .

وبيان الصّراط المستقيم وهو الطّريق الموصل إلى اللّه الّذي نصبه لرسله وأتباعهم ، المتمثّل في امتثال أمره واجتناب نهيه ، والإيمان بوعده ووعيده ، وتعريف حال عباده بعد الوصول إليه ، وهو ما يتضمّنه اليوم الآخر من حساب وحوض وميزان وصراط وجنّة ونار .

---

(١) انظر : الأعراف : الآية (٧٣) .

(٢) انظر : الأعراف : الآية (٨٥) .

(٣) التّفسير الكبير : ٢٨/٢٣٣-٢٣٤ .

(٤) انظر : الدّعوة إلى اله في سورة إبراهيم الخليل . ص : ٦٣ فما بعدها . وانظر : مجموع الفتاوى : ١٥/١٥٧-١٥٨ .

وبيان عاقبة المؤمنين وما أعدّ اللّه لهم من نعيم مقيم ، وبيان عاقبة الكافرين وما أعدّ لهم من عقاب وخيم . (١).

٣ــ إصلاح الأمّة في جميع شئونها العقديّة والخلقيّة والاجتماعيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة ، لتكون أمّة تكلؤها السّعادة ، وتحيط بها الطّمأنينة ، ويُبَثّ في جوانبها الأمن ، ويرفرف عليها العدل ، وتسودها المحبّة ، ويسري بين وجدانها التّعاون ، وينخذل الظّلم ، ويتلاشى الخوف ، ويغيب العداء ، وتنطمس الأحقاد ، ويذوب الحسد ، وتندثر الشّحناء ، ويتهاوى الفجور ، ويذبل الضّلال ، فتشمخ العزّة ، وتعلو الكرامة ، فتكون للأمّة السّيادة والرّيادة ، فتقام المدنيات ، وتشيّد الحضارات فيتأتّى الفلاح والنّجاح ، والخير والصّلاح .

٤ــ دفع الهلاك والدّمار عن الأمّة ، وإنقاذها من عذاب اللّه ونقمته .

وذلك أنّ انزواء أهل الصّلاح عن ساحة الدّعوة إلى اللّه ، وإحجامهم عن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر يفتح الباب على مصراعيه لأهل الفساد ، فيبثّوا بضاعتهم في الأمّة ، فتتداعى الأخلاق ، وتتساقط القيم ، وتتحكّم الأهواء والشّهوات ، ويعمّ الشّرّ ، ويستشري الفساد فيحلّ بالأمّة الهلاك والدّمار .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء:١٦].

أي سلّطنا شرارها فعصوا فيها ، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم(٢) . والعقاب إذا وقع عم الصّالح والطّالح . وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال:٢٥].

---

(١) انظر : مدارج السّالكين : ٣/٣٤٨-٣٤٩ . الضّوء المنير : ٥/٢٧٧ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ١٠/٢٣٢ .

نقل ابن كثير (رحمه الله) عن ابن عبّاس(رضي الله عنهما) في قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال:٢٥] قال:

"يعني أصحاب النّبي ﷺ خاصّة ".

وقال في رواية له أخرى في تفسير هذه الآية :

" أمر اللّه المؤمنين أن لا يقرّوا المنكر بين ظهرانيهم فيعمّهم اللّه بالعذاب " .

قال ابن كثير (رحمه الله):

" وهذا تفسير حسن جداً " (١) .

ففي الآية تحذير من اللّه لعباده المؤمنين من مغبّة عذاب ومحنة ، لا تختصّ بأهل المعاصي ومن باشر الذّنوب ، وإنّما تعمّ المسيئ وغيره (٢) .

وهذا ما تؤيّده الأدلّة الواردة عن رسول اللّه ﷺ .

فعن أمّ المؤمنين زينب بنت جحش (رضي الله عنها) أنّ النّبي ﷺ دخل عليها فزعاً يقول : " لا إله إلاّ اللّه ، ويل للعرب من شرّ قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه – وحلّق بإصبعيه الإبهام والّتي تليها – فقلت : يارسول اللّه أنهلك وفينا الصّالحون ؟ قال : " نعم إذا كثر الخبث " (٣) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٤٧١/٢ .

(٢) انظر في معنى الآية : أحكام القرآن لأبي بكر محمّد بن عبد اللّه المعروف بابن العربي .تحقيق علي محمّد البجاوي . الطّبعة الثّانية : ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م . طبعة عيسى الحلبي : ٨٣٥/٢-٨٣٦ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٩١/٧-٣٩٣ . تفسير القرآن العظيم : ٤٧١/٢-٤٧٣ . الجواهر الحسان : ٨٤/٢-٨٥ . روح المعاني : ١٩٢/٩-١٩٤ . فتح البيان : ١٥٨/٥-١٦٠ . محاسن التّأويل : ٢٩٧٦/٨-٢٩٧٧ . تيسير الكريم الرّحمن ص : ٢٨٠ .

(٣) سبق تخريجه. انظر : ص : ٣٠ .

وعن حذيفة ﷺ عن النّبي ﷺ قال : " والّذي نفسي بيده لتأمُرُنّ بالمعروف ولتَنْهَوُنّ عن المنكر أو لَيُوشِكَنّ اللّه أن يبعث عليكم عقاباً منه ثمّ تدعونه فلا يستجاب لكم " (١) . والأحاديث في ذلك كثيرة (٢) .

وإنّما يتعدّى العقاب إلى من لم يباشر الذّنب إذا ترك المنكر فاستفحل ، ولم يسع إلى تغييره . ويؤيّد ذلك حديث النّعمان بن بشير (رضي الله عنهما) عن النّبي ﷺ قال : " مثل القائم على حدود اللّه والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الّذين في أسفلها إذا استَقَوْا من الماء مرّوا على من فوقهم . فقالوا : لو أنّا خرقنا في نصيبنا خَرْقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعاً " (٣) .

وحديث جرير ﷺ قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : " ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون على أن يغيّروا عليه فلا يغيّروا إلاّ أصابهم اللّه بعذاب من قبل أن يموتوا " (٤) .

---

(١) سنن التّرمذي: بلفظه في: كتاب الفتن: (٣٠). باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر: (٩). وقال: "هذا حديث حسن صحيح". و قال الألباني (رحمه الله): " حسن". برقم: (٢١٦٩). ص: ٣٦٠.
مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٣٨٨/٥. و بنحوه في: ٣٩١،٣٠/٥.

(٢) أورد ابن كثير (رحمه الله) جملة منها في تفسيره . انظر : ٤٧١/٢-٤٧٣ .

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الشّركة: (٤٧/٢٣). باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه: (٦). برقم: (٢٤٩٣). ص: ٥١٨. و بنحوه في: كتاب الشّهادة: (٥٢/٢٨). باب القرعة في المشكلات: (٣٠/٣١). برقم: (٢٦٨٦). ص: ٥٦٠.
قال النّووي (رحمه الله) : " القائم في حدود اللّه تعالى : معناه : المنكر لها القائم في دفعها وإزالتها ، والمراد بالحدود : ما نهى اللّه عنه " . رياض الصّالحين : طبعة المكتب الإسلامي . ص : ١١٥ .

(٤) سنن أبي داود: بلفظه في: كتاب الملاحم: (٣٦). باب الأمر والنّهي: (١٧). برقم: (٤٣٣٩). قال الألباني (رحمه الله): " حسن". ص : ٤٧٤.

فإنّ النّاس إذا تظاهروا بالمنكر كان على كلّ من رآه أن يغيّره ، فإذا سكت عنه فكلّهم عاص ، هذا بفعله ، وهذا برضاه به ، وحينئذ تنتظم العقوبة الجميع(١) .

كما أنّ سكوت الدّعاة والعلماء عن بيان المنكر يدفع بالعامّة إلى فعله واستحسانه بحجّة أنّ أهل العلم رأوهم على ذلك فلم يعترضوا . وإذا تكاثر المنكر أمام أعين النّاس ألفته القلوب واستساغته النّفوس واستمرأته ، فيصبح معروفاً عند من جهل أمره .

ولذا كان على الدّعاة إلى اللّه أن يقوموا بواجب الدّعوة على أكمل الوجوه حتّى ينكفّ الشّرّ من الأرض ، وينقمع أهله فلا يبقى لشرّهم أثر ليندفع العقاب والعذاب عن الأمّة .

٥ــ إقامة الحجّة على العباد بأداء الأمانة الّتي كلّف بها الرّسل والدّعاة ، وانتفاء المعذرة .

قال تعالى : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ [النساء:١٦٥].

سنن ابن ماجه: بنحوه في: كتاب الفتن: (٣٦). باب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر: (٢٠). قال الألباني (رحمه اللّه): " حسن". ص:: ٤٣١.

سنن البيهقي: بنحوه في: باب ما يستدلّ به على أنّ القضاء وسائر أعمال الولاة ممّا يكون أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر من فروض الكفاية. ١٠/٩١.

مسند أحمد: بنحوه في: ٤/٣٦١،٣٦٣،٣٦٤،٣٦٦.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بلفظ مقارب في: باب ذكر استحقاق القوم الّذين لايأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر عن قدرة منهم عموم العقاب من اللّه جلّ وعلا. برقم: (٣٠٠). قال شعيب الأرناؤوط: " إسناده حسن". ١/٥٣٦. وفي باب ذكر توقّع العقاب من اللّه جلّ وعلا لمن قدر على تغيير المعاصي و لم يغيّرها. برقم: (٣٠٢). ١/٥٣٧.

مسند أبي يعلى: بنحوه . برقم: (٧٥٠٨). قال محققه: "رجاله ثقات". ١٣/٤٩٧.

(١) انظر : أحكام القرآن لابن العربي : ٢/٨٣٦ .

قال ابن جرير (رحمه الله) :

" يقول : أرسلت رسلي إلى عبادي مبشّرين ومنذرين لئلا يحتجّ من كفر بي ، وعبد الأنداد من دوني ، أو ضلّ عن سبيلي ، بأن يقول إن أردت عقابه﴿ لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [طـه:١٣٤]. فقطع حجّة كلّ مبطل ألحد في توحيده ، وخالف أمره بجميع معاني الحجج القاطعة عذره ، إعذاراً منه بذلك إليهم ، لتكون لله الحجّة البالغة عليهم ، وعلى جميع خلقه " (١) .

وعن عبد اللّه بن مسعود ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : " ليس أحد أحبّ إليه المدح من اللّه عزّ وجلّ ، من أجل ذلك مدح نفسه ، وليس أحد أغْيَر من اللّه ، من أجل ذلك حَرَّمَ الفواحش ، وليس أحد أحبّ إليه العذر من اللّه من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرّسل " (٢) .

---

(١) جامع البيان : ٣٠/٦ .. وانظر : التّفسير الكبير : ١١٠/١١ . تفسير القرآن العظيم : ٨٩٦/١ . روح المعاني : ١٨/٦-١٩ . فتح البيان : ٣٠٣/٣ . محاسن التّأويل : ١٧٥٢/٥-١٧٥٣ .

(٢) صحيح البخاري: بنحوه في: كتاب التّفسير: (٣٩/٦٥). باب : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأنعام:١٥١] : (٧). برقم: (٤٦٣٤). ص: ٩٧٢. وفي باب : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف:٣٣] : (١). برقم: (٤٦٣٧). ص: ٩٧٤. وفي كتاب النّكاح: (٤١/٦٧). باب الغيرة: (١٠٨/١٠٧). برقم: (٥٢٢٠). ص: ١١٤٧. وفي كتاب التّوحيد: (٧٢/٩٧). باب قول اللّه تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران:٢٨] : (١٥). برقم: (٧٤٠٣). ص: ١٥٥٤. عن عبد اللّه بن مسعود ﷺ . وفي باب قول النّبي ﷺ "لاشخص أغير من اللّه" : (٢٠). برقم: (٧٤١٦). ص: ١٥٥٧. عن المغيرة بن شعبة ﷺ .

صحيح مسلم: بلفظه و بنحوه في: كتاب التّوبة: (٤٩). باب غيرة اللّه وتحريم الفواحش: (٦). برقم: (٢٧٦٠). ٢١١٣/٤-٢١١٤. عن عبد اللّه ﷺ . و بنحوه في: كتاب اللّعان: (١٩). برقم: (١٤٩٩). ١١٣٦/٢. عن المغيرة ﷺ .

فاللّه سبحانه أرسل رسله ، وأنزل إليهم كتبه ، وأمرهم بالدّعوة إليه ليقيم حجّته على العباد ، ويقطع معذرتهم يوم القيامة ، حتّى لا يأتي من يقول بأنّ دعوة اللّه لم تبلغه .

ومن عدله وحكمته سبحانه أنّه لا يعذّب أحداً إلاّ بعد قيام الحجّة عليه .

قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء:١٥] .

وقال : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ ﴾ [الملك:٨-٩]

وقال سبحانه : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الأنعام:١٣٠] .

فهو سبحانه لا يعذّب إلاّ من قامت عليه الحجّة ، وهو المذنب المعترف بذنبه ، وذلك إمّا بإعراضه عن الحجّة وعدم إرادتها والعمل بموجبها ، وإمّا العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها(١) .

وهذه غاية عظيمة شرعت لها الدّعوة إلى اللّه .

قال صديق حسن خان (رحمه الله) :

" وإنّما شرع لك الدّعوة ، وأمرك بها قطعاً للمعذرة ، وتتميماً للحجّة ، وإزاحة للشّبهة " (٢) .

---

(١) طريق الهجرتين . ص : ٦١٠-٦١١ بتصرّف .

(٢) فتح البيان : ٣٤٠/٧ .

وقد أخبرنا ربّنا سبحانه وتعالى عن قرية من قرى بني إسرائيل انقسم أهلـــها إلى ثلاث فرق :

* فرقة ارتكبت المحذور ، واحتالوا على صيد السّمك في يوم السّبت ، وهـــو محرّم عليهم .

* وفرقة وعظت الفرقة المذنبة ، وزجرتها عن ذلك الفعل ، وحذّرتـــها مـــن عاقبة ذنبها .

* وفرقة لم تأمر ولم تنه ، بل أنكرت على الواعظة وعظها بحجّة أن أولئـــك قوم استحقّوا العذاب فلا فائدة في النّهي .

فأجابهم النّاهون بأنّهم قاموا بذلك إعذاراً إلى اللّه ، وإقامة لحجّته على أولئـك المذنبين ، ولعلهم يرتدعون عن منكرهم ، ويؤوبون إلى رشدهم . فأبوا فأمطر اللّـــه عليهم سحائب نقمته ، ومسخهم إلى قردة خاسئين .

وفي ذلك يقـــول ســـبحانه وتعـــالى : ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٦٣-١٦٦] (١) .

---

(١)وانظر في معناها : جامع البيان : ٩/٩٠-١٠١ . أحكام القرآن لابن العربي : ٢/٧٨٥-٧٨٨ . التفسير الكبـــير : ١٥/٣٨-٤١ . الجامع لأحكام القرآن : ٧/٣٠٤-٣٠٩ . تفسير القرآن العظيـــم : ٢/٤٠٨-٤١١ . الجواهـــر الحسان : ٢/٥٨-٦٠ .روح المعاني: ٩/٩٠-٩٤.فتح البيان: ٥/٥٨-٦٣. محاسن التأويل : ٧/٢٨٨٧-٢٨٩٣ .

" وهذا هو المقصود الأعظم من إنكار المنكر ، ليكون معــذرة ، وإقامــة حجّــة علــى المأمور المنهي ، ولعلّ اللّه أن يهديه فيعمل بمقتضى ذلك الأمر والنّهي " [١].

٦ ــ ردّ شبه أعداء الإسلام من الوثنين وأصحاب الأديان الباطلة ، والمحرّفة ، وأرباب المذاهب الفكرية المعاصرة .

هذه هي أهم الغايات والأهداف الّتي يمكن أن تحصل بالدّعوة إلــى اللّــه ، وتبليــغ دينــه لعباده ، وبيان هديه لخلقه .

۞ وأمّا حكم الدّعوة إلى اللّه :

فقد اتّفق أهل العلم على وجوب الدّعوة إلى اللّه ، ثمّ اختلفوا في نوعيــة الوجــوب . أهــو فرض عين[٢] على كلّ مكلّف ؟ أم هو فرض كفاية [٣] تأثم الأمّة جميعاً بتركــه ، وإذا قــام بــه البعض سقط الإثم عن الباقين .

ومنشأ الخلاف في كلمة " من " في قولــــه تعــالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٤].

فقيل : إنّها لبيان الجنس ، والمعنى : كونوا جميعاً أمّة داعية للخــير، آمــرة بالمعروف ، ناهية عن المنكر . مثالـــه قولــه تعــالى : ﴿ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ ﴾ [الحج:٣٠] . وعلّة ذلك :

أوّلاً : إنّ الأمّة كلّها خوطبت بالدّعوة إلى اللّه في قولــه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران:١١٠].

---

(١)تيسير الكريم الرّحمن ، ص : ٢٧٠ .

(٢)فرض العين : هو ما قصد الشّارع حصوله من كلّ واحد من المكلّفين بعينه . سمّي عيناً لتعلّقه بكلّ عين .

انظر : نثر الورود على مراقي السّعود : ١/٢٢٦ .

(٣) فرض الكفاية : هو ما قصد الشّارع بطلبه مجرد حصوله من غير نظر إلى ذات الفاعل . سمّي بذلك لأنّ البعــض يكفي فيه . انظر : المرجع السّابق : ٢/٢٢٦ .

ثانياً : إنّه لا مكلّف إلاّ ويجب عليه الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، إمّا بيده أو بلسانه ، أو بقلبه [1].

وفي ذلك يقول ابن حزم (رحمه الله) :

" والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر فرض على كلّ مسلم ، إن قدر بيده فبيده ، وإن لم يقدر بيده فبلسانه ، وإن لم يقدر بلسانه فبقلبه ولابد ، وذلك أضعف الإيمان ، فإن لم يفعل فلا إيمان له "[2] .

وقيل : إنّ " من " للتّبعيض . وعلّة ذلك :

أولاً : العجز عن الدّعوة ، وعدم القدرة على القيام بها لكلّ فرد .

ثانياً : عدم توفّر العلم الكافي عند كلّ أحد[3] . فليس كلّ فرد يصلح للقيام بالدّعوة .

وهذا هو القول الرّاجح ، وعليه جمهور أهل العلم[4] .

---

(١) انظر : التّفسير الكبير : ٨/١٦٦ .

(٢) المحلّى . لأبي محمّد علي بن أحمد بن حزم . تحقيق : أحمد محمّد شاكر . طبعة : دار الفكر : ٩/٣٦١ .

وقوله (رحمه الله) يمكن أن يحمل على درجات إنكار المنكر فهو يجب على المسلم باليد ، فإن لم يستطع فيجب عليه باللّسان ، فإن لم يستطع فيجب عليه بالقلب . ووجوبه بالقلب أمر في مقدرة الجميع ، فهو بذلك يكون واجباً على كلّ أحد . وبهذا التّفصيل يمكن أن يجمع القولين .

(٣) انظر : التّفسير الكبير : ٨/١٦٧ . المفهم : ١/٢٣٣ .

(٤) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٤/١٦٥ . روح المعاني : ٤/٢١ . الدّعوة إلى اللّه في سورة إبراهيم . ص : ٣٥ . مناهج العلماء ، ص : ٥٦ .

قال الغزالي (رحمه الله) :

" ففي الآية بيان الإيجاب ، فإنّ قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن ﴾ أمر وظاهر الأمـر الإيجاب . وفيها بيان أنّ الفلاح منوط بـه إذ حصـر . وقـال : ﴿ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ . وفيها بيان أنّه فرض كفاية لا فرض عين ، وأنّه إذا قام به أمّـة سقط الفرض عن الآخرين ، إذ لم يقل كونوا كلّكم آمرين بالمعروف ، بـل قـال : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾ فإذاً مهما قام به واحد أو جماعـة سـقط الحـرج عـن الآخرين ، واختصّ الفلاح بالقائمين به المباشرين . وإن تقاعد عنه الخلق أجمعـون عمّ الحرج كافّة القادرين عليه لا محالة " (١) .

ومع ذلك قد تجب الدّعوة على كلّ مسلم بالقدر الّذي يطيقه ، وفي حدود مـا تعلّمه من العلم . وقد وجب على كلّ مسلم من العلم ما يؤدّي به الفرائض المفروضة عليه صحيحة كاملة (٢) . كما أنّ الجميع مطالب بالدّعوة في حدود مسئوليّته(٣) .

ولذا قال ابن كثير (رحمه الله) في بيان معنى الآية السّابقة :

" والمقصود من هذه الآية ، أن تكون فرقة من هذه الأمّة متصدّية لهذا الشّأن ، وإن كان ذلك واجباً على كلّ فرد فرد من الأمّة بحسبه " (٤) .

---

(١) إحياء علوم الدّين : ٢/٣٩١-٣٩٢ .

(٢) انظر : أسس الدّعوة ، ص : ١٧ .

(٣) انظر : الدّعوة إلى الله في سورة إبراهيم . ص : ٤١ .

(٤) تفسير القرآن العظيم : ١/٥٨٣ . وانظر : أحكام القرآن لابن العربي : ١/٢٩٢ . شرح النووي على مسـلم : ٢/٢٣ . مجموع الفتاوى : ١٥/١٦٦ .

الفصل الثّالث

عوامل الثّبات في الدّعوة إلى اللّه تعالى

وفيه تمهيد ومباحث :

التّمهيد

مشقّة الدّعوة إلى الله والعقبات الّتي تعترض طريقها

إنّ طريق الدّعوة إلى اللّه ليس بميسّر ولا سهل ، بل هو طريق شاقّ صعب ، ومسلك وعر ، مملوء بالمخاطر ، ومحفوف بالمخاوف ، ومليء بالعقبات ، لا يقوى على السّير فيه إلاّ مَنْ كان راسخ القدمين ، عالي الهمّة ، قوي العزيمة ، ثابت الجأش ، مفعّماً بالصّبر ، لا تزعزعه الأهوال ، ولا تزعجه العواصف . يظلّ حاملاً لدعوته بعزم وإصرار ، لا يعرف الفتور ، ولا ينتابه الخمول ، يسعى بجدّ ونشاط مع ملازمة الأناة ، ودوام المُثَابرة ، متمادياً في سيره ، مواصلاً لسعيه .

فالدّعوة لا تُقدّر بعدد ، ولا تضبط بزمن إذا استنفده الدّاعي برئ من العهدة ، بل يستأنفها مرّة بعد أخرى حتّى يبلغ مداها وتأثيرها في نفوس المدعوّين مبلغه ، بل شمسها لا تغيب أبداً من نفس الدّاعي طيلة بقائه على قيد الحياة ، بل يظلّ داعية إلى الممات .

والثّبات هو المعين بعد عون اللّه على مواصلة الدّعوة .

ولا شك أنّ العقبات الّتي تقابل الدّاعية عقبات كؤود صعبة المراس ، كلّما اجتاز عقبة اعترضته أخرى .

فهو يودّ أن ينقل نفوساً من ملّة إلى أخرى ، ومن عقيدة ظلّوا عليها سنين عدداً إلى عقيدة لم يعرفوها . ومن مشارب ألفوها إلى مشرب جهلوه ، ومن أمر دأبوا عليه إلى أمر آخر لا عهد لهم به . وهذا فيه من الصّعوبة البالغة ما فيه .

وليس وحيداً في ميدان الدّعوة ، خلا له الجوّ من المنافس والمناهض . بل هنالك دعاة آخرون يُؤآزرون الباطل ، ويقفون بإزائه ، وينصرون الضّلال ويقاومون الحقّ ، لا يتزحزحون . لا يفلّ عزمهم ، ولا تلين عريكتهم .

يتقدّمهم كبيرهم وعدوّ البشريّة – عليه لعائن الله – وفي شأنه يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [فاطر:٦].

وفي الآية الأخرى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾ [لقمان:٢١].

وليست دعوة الشّيطان لهؤلاء وآبائهم محبّة ومودّة لهم ، وإنّما عداوة ومكر بهم ، فقبلوا دعوته فتمكّن منهم ، وظفر بهم ، وقرّت عينه باستحقاقهم عذاب السّعير[١] .

وليس للشّيطان دليل فيما دعا إليه ، ولا حجّة تسند دعوته ، وإنّما كانت مجرّد دعوة صادفت قلوباً خاوية فتمكّنت ، وآذاناً صاغية فاستجابت ، تعينها الأهواء والشّهوات . قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ

---

(١) انظر : تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٥٩٨ .

ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٢٢] [(١)] . فالشّيطان داعية إلى الضّلال ، مصادم لدعوة الحقّ ، دائم على دعوته ، مستمرّ عليها .

ويلي الشّيطان في المرتبة أئمّة الكفر والضّلال الّذين نصبّوا أنفسهم دعاة للباطل ، وأبواقاً للفساد ، وزعماء للضّلال ، يترجمون دعوة الشّيطان في الأرض ، ويقودون بها الغوغاء المنحرفين إلى مهاوي الرّدى ، ودار الشّقاء .

قال تعالى : ﴿ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [القصص:٤١] [(٢)] .

وهم شوكة في حلق الدّعاة إلى اللّه دوماً ، يتفنّنون في الكيد والمكر ، كما قال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٣].

يقول الشّيخ السّعدي (رحمه الله) :

" ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا ﴾ أي : الرّؤساء الّذين قد كبر جرمهم ، واشتدّ طغيانهم ﴿ لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ ﴾ بالخديعة والدّعوة إلى سبيل الشّيطان ، ومحاربة الرّسل وأتباعهم بالقول والفعل " [(٣)] .

وهم ثابتون على باطلهم لا يتراجعون عنه ، بل داعون غيرهم للثّبات عليه ، قال سبحانه : ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴿٦﴾ ﴾ [ص:٦] .

---

(١) وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٨١٩/٢ .

(٢) وانظر معنى الآية في الجامع لأحكام القرآن : ٢٨٩/١٣-٢٩٠ .

(٣) تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٢٣٤ .

باذلون أموالهم في الذّود عنه ليضمنوا له الاستمرار والدّوام كما قال عزّ في علاه :
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنفال:٣٦].

بل ولو دعا ذلك إلى تجريد السّيوف وإزهاق الأرواح ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْۚ ﴾ [البقرة:٢١٧] .

وغير هؤلاء دعاة آخرون ، وهم كُثر ، يسعون جاهدين إلى تكثير سواد الهالكين ، مناهضين بأقوالهم وأفعالهم لدعاة الحقّ ، سالكين ثبج[1] الباطل ، دائبين على نشر الضّلال بين النّاس ، يقودون النّاس إلى النّار ويدفعونهم إليها دفعاً .
وفي شأنهم قال تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾ [البقرة:٢٢١].
وهم الّذين عناهم حديث رسول اللّه ﷺ : " دعاة على أبواب جهنّم من أجابهم إليها قذفوه فيها " الحديث[2] .

وهذا الزّخم من دعاة الباطل يحتاج إلى ثبات من دعاة الحقّ ، ليردّوا كيدهم ، ويدحروا باطلهم ، ويكشفوا عوارهم .
فعلى دعاة الحقّ أن يتمسّكوا بالحقّ ويصبروا عليه بكلّ ثبات وجرأة ليتمكّنوا من إزالة تمسّك أهل الباطل بباطلهم .

---

(١) ثَبَج : ثبج كلّ شيء معظمه ووسطه وأعلاه ، والجمع أثْباج و ثُبُوج . لسان العرب: ٢١٩/٢.

(٢) سبق تخريجه .ص : ١٣٤ .

ولا يزول ذلك بِخَورٍ وضعف عزيمة ، بل لابد من عزيمة ثابتة ، وحركة مؤثّرة ، وجرأة صلبة ليقوم الحقّ ويذهب الباطل[1] .

قال الشّيخ السّعدي (رحمه الله) :

" وكذلك يجعل اللّه كبار أئمّة الهدى وأفاضلهم يناضلون هؤلاء المجرمين ، ويردّون عليهم أقوالهم ، ويجاهدونهم في سبيل اللّه ، ويسلكون بذلك السّبل الموصلة إلى ذلك ، ويعينهم اللّه ، ويسدّد رأيهم ، ويثبّت أقدامهم ، ويداول الأيام بينهم وبين أعدائهم ، حتّى يدول الأمر في عاقبته ، بنصرهم وظهورهم ، والعاقبة للمتّقين " [2] .

فالباطل له دعوة ، وله إصرار وعزيمة فلابد من أن يقابل بعزيمة أقوى وأشدّ .

ولابد لمن حمل دعوة اللّه تعالى أن يناله من أذى الخلق المعارضين لدعوته . أذى بالقول وأذى بالفعل ، ولا يسلم أحد البتّة من ذلك حتّى رسل اللّه عليهم السّلام .

قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الذاريات:٥٢-٥٣]

وقال سبحانه : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٤].

وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجر:١٠-١١].

---

(١) طرق الدّعوة الإسلاميّة – للدّكتور أحمد بن محمّد العدناني . ص : ٦٨-٦٩ – بتصرّف .

(٢) تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٢٣٤ .

والآيات في هذا المضمار كثيرة جداً ، وهي تعكس أنواعاً من الأذى الذي يواجه به رسل اللّه ودعاة الحقّ في سبيل الدّعوة إلى اللّه .

قال ابن كثير (رحمه الله) مؤكّداً لما سبق تقريره :

" فكلّ من قام بحقّ ، أو أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر فلابد أن يؤذى فما له دواء إلاّ الصّبر في اللّه ، والاستعانة به ، والرّجوع إلى اللّه " (١) .

والأذى نوعان : أذى يضرّ الدّعوة فذلك غير مقبول المآل ، لأنّه يوقف سير عجلتها ، ويكبّلها عن الانطلاق ، وأذى يصيب حملتها فذلك مآل لابد منه ، ولذا فرّق اللّه بينهما في قوله : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [آل عمران:١١١] (٢) .

وأذى الخلق الموجّه إلى الدّعاة إلى اللّه ليس له علاج أنجع وأنفع من الصّبر والثّبات على الدّعوة .

فإذا ارتضم بالدّعاة الصّادقين فحينها يتحطّم أذاهم على عتبة الثّبات ، وتتلاشى مضايقاتهم ورعوناتهم عند قدم الصّبر ، فلا يتأثّر الدّعاة ولا يتزلزلون ، بل يظلّون أرسى من الجبال الرّواسي ، حاملين لدعوة اللّه غير مبالين ، مشمّرين عن سواعد الجد غير متخاذلين ، ضاربين بأذى الخلق عُرْض الحائط غير آبهين به .

ولذا وجّه اللّه الرّسل والدّعاة إلى اللّه أن يقابلوا أذى المتمرّدين على دين اللّه بالصّبر والثّبات ، فقال تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٦٥٤/١ .

(٢) وانظر : عقبات في طريق الدّعوة . لأبي زكريا إبراهيم محمّد أبكر عبّاس . منشورات نادي جازان الأدبي . طبعة دار العلم بجدّة . الطّبعة الأولى : ١٤١١هـ – ١٩٩١ م . ص : ٨٤ .

لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنعام:٣٣-٣٤].

وقال عزّ وجلّ : ﴿ ۞ لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٦].

يقول سيّد قطب(رحمه الله) :

" إنّها سنّة العقائد والدّعوات ، لابد من بلاء ، ولابد من أذى في الأموال والأنفس ، ولابد من صبر ومقاومة واعتزام . إنّه الطّريق إلى الجنّة ، وقد حفّت الجنّة بالمكاره ، بينما حفّت النّار بالشّهوات (١) .

ثمّ إنّه هو الطّريق الّذي لا طريق غيره ، لإنشاء الجماعة الّتي تحمل هذه الدّعوة ، وتنهض بتكاليفها . طريق التّربية لهذه الجماعة ، وإخراج مكنوناتها من الخير والقوّة والاحتمال ... ذلك ليثبت على هذه الدّعوة أصلب أصحابها عُوداً . فهؤلاء هم الّذين يصلحون لحملها إذاً والصّبر عليها . فهم عليها مؤتمنون .

وذلك لكي تعزّ هذه الدّعوة عليهم وتَغْلُو ، بقدر ما يصيبهم في سبيلها من عَنَتٍ وبلاء ، وبقدر ما يُضَحُّون في سبيلها من عزيز وغالٍ . فلا يفرّطوا فيها بعد ذلك ، مهما تكن الأحوال . وذلك لكي يصلب عود الدّعوة والدّعاة ...

إنّها سنّة الدّعوات . وما يصبر على ما فيها من مشقّة ، ويحافظ في ثنايا الصّراع المرير على تقوى اللّه ، فلا يشطّ فيعتدي وهو يردّ الاعتداء ، ولا ييأس من رحمة اللّه ويقطع أمله في نصره وهو يعاني الشّدائد ... ما يصبر على ذلك كلّه إلاّ أولو العزم الأقوياء : ﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ " (٢) .

---

(١)عن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حفّت الجنّة بالمكاره وحفّت النّار بالشّهوات " . صحيح البخاري : نحوه في : كتاب الرّقاق : (٨١/٥٥) . باب حجبت النّار بالشّهوات : (٢٨) . برقم : (٦٤٨٧) . ص : ١٣٨٠. صحيح مسلم بلفظه في : كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها : (٥١) . برقم : (٢٨٢٢) . ٢١٧٤/٤ .

(٢) في ظلال القرآن : ٥٣٩/١-٥٤٠ .

عقد *الإمام البخاري (رحمه الله)* في صحيحه باباً في كتاب الأدب قال فيه :

" باب الصّبر على الأذى . وقـول اللّـه تعـالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ ﴾ [الزمر:١٠] .

ثمّ روى بسنده عن أبي موسى ﷺ عن النّبي ﷺ قال : " ليس أحد – أوْ ليـس شَيْءٌ – أَصْبَرَ عَلَى أَذًى سمعهُ من اللّه ، إنّهم ليدعون لَهُ ولـداً ، وإنّـه ليعافيـهم ويرزقهم " (١) .

وروى بسنده عن عبد اللّه بن مسعود ﷺ . قال : قسم النّبي ﷺ قسمة كبعض ما كان يقسم . فقال رجل من الأنصار : واللّه إنّها لقِسمة ما أُريدَ بها وجـهُ اللّـه . قلت : أما أنا لأقولنّ للنّبي ﷺ . فأتيتُه وهو في أصحابه فسارَرْتُه ، فشقَّ ذلك علـى النّبي ﷺ ، وتغيّر وجههُ ، وغضب ، حتّى وددّت أنّي لم أكن أخبرته . ثـمّ قـال : " قَدْ أُوذي مُوسى بأكثرَ مِنْ ذَلكَ فَصَبَرَ " (٢) .

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني(رحمه الله) :

" قوله : " باب الصّبر في الأذى " : أي حبس النّفس عن المجازاة على الآذى قولاً أو فعلاً ، وقد يطلق على الحلم ... قال بعض أهل العلم :

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الأدب: (٥٢/٧٨). باب الصّبر على الأذى: (٧١). برقـم: (٦٠٩٩). ص: ١٣٠٦.

و بلفظ مقارب في: كتاب التّوحيد: (٧٢/٩٧). بـاب قـول اللّـه تعلـى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝ ﴾ [الذّاريات:٥٨] (٣). برقم: (٧٣٧٨). ص: ١٥٥٠.

والحديث في صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم: (٥٠). باب لا أحد أصبر علـى أذى من اللّه عزّ وجلّ : (٩). برقم: (٢٨٠٤). ٢١٦٠/٤.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأدب: (٥٢/٧٨). باب الصّبر على الأذى: (٧١). برقـم: (٦١٠٠). ص: ١٣٠٦.

و بلفظ مقارب في: كتاب فرض الخمس: (٣٣/٥٧). باب ما كان النّبي ﷺ يعطي المؤلّفة قلوبهم وغـيرهم مـن الخمس ونحوه: (١٩). برقم: (٣٠٥٠). ص: ٦٦٥.

والحديث في صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب الزّكاة: (١٢). باب إعطاء المؤلّفة قلوبهم على الإسلام وتصبّر من قوي إيمانه: (٤٦). برقم: (١٠٦٢). ٧٣٩/٢.

الصّبر على الأذى جهاد النّفس ، وقد جبل اللّه الأنفس على التّألّم بما يفعل بها ويقال فيها ، ولهذا شقّ على النّبي ﷺ نسبتهم له الجور في القسمة ، لكنّه حلم عن القائل فصبر لما علم من جزيل ثواب الصّابرين ، وأنّ اللّه تعالى يأجره بغير حساب " (١) .

فالدّاعية وهو ينطلق بدعوته إلى اللّه فلابد أن يضع في حسبانه ما يكال له من اتّهامات كاذبة ، وأقاويل باطلة ، وشبهات مدلهمّة ، وإساءات بالغة .

بل يتوقّع ما يجده من حبس واعتقال ، وتعذيب وتشريد ، واعتداء مادي وجسمي . وفوق ذلك تهجيره وإبعاده من بلده وأهله وولده ، ولعلّه يبلغ به الاضطهاد إلى القتل والاستشهاد .

بل يضع في حسبانه ما يقابل به من إغراء بالمنصب والوظيفة والمال والجاه ، وإغواء بالجنس والنّساء(٢) .

فعليه أن يضع كلّ ذلك وغيره الكثير من ضروب الأذى أمام عينيه فلا يتنازل عن دعوته ، ولا يتزعزع عنها . بل يظلّ ثابتاً كالجبل الأشم ، لأنّ ما عند اللّه له أجلّ وأعظم.

وله أسوة بمن سبقه من الأنبياء ، وما وجدوه من أقوامهم من أذى وسخرية واستهزاء ، وإعراض وإخراج وشبه . بل تقتيل وسفك دماء ، فكان الثّبات شعارهم والصّبر دثارهم .

وهذا من طبيعة دعوة اللّه أنّها تقتضي الصّدام بين الحقّ والباطل ، لأنّ النّفوس الخبيثة الملتوية النّافرة الفاسدة لابد أن تطعن في أهل الخير والصّلاح ، وتقدح فيهم .

---

(١) فتح الباري : ١٢/١٤٠ .

(٢) وانظر : صفات الدّاعية النّفسيّة . لعبد اللّه ناصح علوان . طبعة دار السّلام . ص : ٣٥-٣٦ .

لا يسلم الشّرف الرّفيع من الأذى ****** حتّى يراق على جوانبه الدّم[١]

فعلى الدّاعية أن يلاقي كلّ ذلك بتحمّل وصبر وثبات حتّى لا يضيّع دعوتـه ، وتذهب جهوده أدراج الرّياح .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" لابد ... أن يكون حليماً ، صبوراً على الأذى ، فإنّه لابـد أن يحصـل لـه أذى ، فإن لم يحلم ويصبر يفسد أكثر ممّا يصلح " [٢] .

فعظمة الدّعوة تستوجب عِظم الجهد . وقديماً قال المتنبّي[٣] :

وإذا كانت النّفوس كباراً ****** تعبت في مرادها الأجسام .[٤]

ولمّا كانت الدّعوة إلى اللّه تحتاج إلى الثّبات في جميع مراحلها قرن اللّه معها الصّبر في آيات كثر .

---

(١) انظر : عقبات في طريق الدّعوة . ص : ١١٠-١١١ . وبيت الشّعر للمتنبّي . في ديوانه : ص : ٥٧١ . طبعة دار صادر . انظر : يتيمة الدّهر . لأبي منصور عبد الملك الثّعالبي . تحقيق : د . مفيد محمّد قميحة . طبعة دار الكتب العلميّة . بيروت . الطّبعة الثّانية : ١٩٨٣م : ٢٥٨/١ .

(٢) الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر . ص : ٣٢ . وهو في مجموع الفتاوى : ١٣٦/٢٨ .

(٣) هو أحمد بن الحسين بن حسن أبو الطّيّب الجعفي الكندي الكوفي ، حامل لواء الشّعر في زمنه ، ومـن أذكيـاء عصره . بلغ شعره الذّروة في النّظم ، وله أبيات فائقة الحسن يضرب بها المثل . تنبّأ ثمّ تاب فلقّب بالمتنبّي. قتل سنة ٣٥٤هـ . وله ديوان شعر مطبوع ومشروح.

وانظر: تاريخ بغداد: ١٠٢/٤. المنتظم: ٢٤/٧. وفيات الأعيان: ١٢٠/١. سير أعلام النّبلاء: ١٩٩/١٦. العبر: ٩٤/٢. لسان الميزان: ١٥٩/١. النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة . لجمال الدّين أبي المحاسن يوسـف بـن تغري بردي الأتابكي . طبعة : المؤسّسة المصريّة العامّة : ٣٤٠/٣. شذرات الذّهب: ٢٨٢/٤.الأعلام: ١١٥/١.

(٤) ديوان المتنبّي . وبهامشه العرف الطّيّب في شرح ديوان أبي الطّيّب . للشّيخ ناصف اليازجي . طبعة : دار صادر . دار بيروت . بيروت . ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م : ١٤/٢ .

قال تعالى : ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان:١٧].

فهذا فيما أوصى به لقمان ابنه ، وذلك بعد أن أمره بتكميل نفسه بفعل الخير وترك الشّرّ ، أمره أن يكمل غيره بأمره بالخير ونهيه عن الشّرّ ، وقد علم أنّ ذلك يشقّ على النّفوس ويزعجها ، فأمره بالصّبر ، وأنّه من الأمور الّتي يعزم عليها ، ويهتمّ بها ، ولا يوفّق لها إلاّ أهل العزائم (١) .

ولمّا أمر الله رسوله ﷺ بالدّعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالّتي هي أحسن ، أمره عقب ذلك ومَنْ معه من المؤمنين بالصّبر ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النحل:١٢٦-١٢٧].

وفي هذا دعوة حارّة للثّبات على الدّعوة .

قال صديق حسن خان (رحمه الله) :

" أمر سبحانه رسوله ﷺ بالصّبر فقال : ﴿ وَٱصۡبِرۡ ﴾ على ما أصابك من صنوف الأذى ﴿ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ أي بتوفيقه وتثبيته " (٢) .

---

(١) انظر : تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٥٩٧ . وانظر في معنى الآية : جامع البيان : ٧٣/٢١ . التفسير الكبير : ١٤٩/٢٥ . الجامع لأحكام القرآن : ٦٨/١٤ . تفسير القرآن العظيم : ٧١٠/٣ . روح المعاني : ٨٩/٢١ . فتح البيان : ٢٨٧/١٠ .

(٢) المرجع السّابق : ٣٤٢/٧ .

وقال القاسمي (رحمه الله) :

" أكّد تعالى الأمر بالصّبر ليقوى الثّبات والاحتمال لكلّ ما يلاقيه في سبيل الحقّ بقوله : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ (١)

وقال السّعدي (رحمه الله) :

" ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ هو الّذي يعينك عليه ويثبّتك " (٢) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر:١-٣].

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" قال الشّافعي : لو فكّر النّاسُ كلّهم في هذه الآية لوسعتهم . وذلك أنّ العبد كماله في تكميل قوّتيه : قوّة العلم وقوّة العمل ، وهما الإيمان والعمل الصّالح ، وكما هو محتاج إلى تكميل نفسه فهو محتاج إلى تكميل غيره ، وهو التّواصي بالحقّ والتّواصي بالصّبر . وأخيّة(٣) ذلك وقاعدته وساقه الّذي يقوم عليه إنّما هو الصّبر " (٤) .

وقال : " صَبَرُوا على الحقّ ووَصَّى بعضُهم بعضاً بالصّبر عليه والثّبات " (٥) .

---

(١) محاسن التّأويل : ٣٨٨٠/١٠ .

(٢) تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٤٠٤ . وانظر معنى الآية في : جامع البيان : ١٩٧/١٤-١٩٨ . التّفسير الكبير : ١٤٢/٢٠-١٤٣ . تفسير القرآن العظيم : ٩١٩/٢ . روح المعاني : ٢٥٨/١٤-٢٥٩ .

(٣) الأخية العروة الّتي تثبّت فيها الدّابة . ومراده : مستند ذلك ومتمسّكه . انظر : لسان العرب : ٢٣/١٤-٢٤ .

(٤) عدة الصّابرين . ص : ٦٠ . وانظر التّبيان في أقسام القرآن . ص : ٦٢-٦٣ .

(٥) مفتاح دار السّعادة : ٥٦/١ .

وقال الرّازي (رحمه الله) :

" كما يلزم المُكلَّفُ تحصيل ما يخصّ نفسه ، فكذلك يلزمه في غيره أمور . منها : الدّعاء إلى الدّين ، والنّصيحة ، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، وأنّ يحبّ له ما يحبّ لنفسه . ثمّ كرّر التّواصي ليضمن الأوّل الدّعاء إلى الله ، والثّاني الثّبات عليه " (١) .

فاللّه تعالى أمر المؤمنين بأن يتواصوا بالحقّ ، وهو القيام بالدّعوة إليه ، والتّبليغ لدينه ، ولمّا كان ذلك يجلب الأذى والضّنك للآمر النّاهي أردف الأمر بالتّواصي بالصّبر ، وفي ذلك دعوة إلى الثّبات .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" أمر اللّهُ الرّسلَ وهم أئمّة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر بالصّبر ... بل ذلك مقرون بتبليغ الرّسالة . فإنّه ــ أي محمّد ﷺ ــ أوّل ما أرسل أنزلت عليه سورة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ ﴾ [المدثر:١] بعد أن أنزلت سورة ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ [العلق:١] الّتي بها نُبِّئ . فقال اللّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧ ﴾ [المدثر:٥-٧] . فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالإنذار ، وختمها بالصّبر . ونفس الإنذار أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، فعُلم أنّه يجب بعده الصّبر " (٢) .

ثمّ أورد (رحمه الله) مجموعة من الآيات الّتي تأمر بالصّبر في مواجهة أعباء الدّعوة .

---

(١) التّفسير الكبير : ٣٢/٨٩-٩٠ .

(٢) الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر . ص : ٣٢ وهو في مجموع الفتاوى : ٢٨/١٣٦-١٣٧ . مع اختلاف طفيف وانظر : ١٥/١٦٧-١٦٨ .

ومن هنا تتبيّن لنا أهميّة الثّبات للدّاعية ، وأنّه لا يمكنه أن يواصل سيره في دعوته إلاّ إذا اصطحبه معه في جميع مراحلها .

وبثباته في ميدان الدّعوة يتحقّق له كثير من النّتائج الّتي لا تتأتّى له دون ذلك . منها :

- قوّة العزيمة وشدّة الاحتمال على مواجهة الصّعاب .
- اصطفاء الشّخصيات الدّاعية ، واستخلاص العناصر القويّة .
- الوقوف على صدق الصّادقين من الدّعاة وقوّة ارتباطهم وتماسكهم (١) .
- برهنته جدارة الدّعوة وأنّها حقّ يجب الاتباع .
- ضمان استمراريّة الدّعوة ووقوفها أمام التّحدّيات .
- عجز أهل الباطل من النّيل منها لصلابة سياجها ومنعة حصنها .
- تكثير أتباعها. ونيل ما يترتّب عليها من ثواب دنيوي وأخروي .

وثمّت عوامل كثيرة تعين على الثّبات على الدّعوة ، أتناول منها ما كان ذا صلة قويّة بهذا الجانب في المباحث الآتية :

---

(١) وانظر : طرق الدّعوة . ص : ٨٦ . وانظر فيه قولاً قيّماً عن الثّبات في الدّعوة وما يجنيه الدّعاة من ثباتهم . ص : ٨٢-٨٣ .

المبحث الأوّل

التّرغيب في الدّعوة والثّواب المترتّب على ذلك .
والتّرهيب من تركها والعقاب المترتّب عليه

لقد أمر اللّه سبحانه عباده المؤمنين بالدّعوة إليه في أكثر من موضع في كتابه ، وبيّن ما يناله الدّعاةُ إلى اللّه من الأجر الجزيل والثّواب العظيم .

فقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت:٣٣] .

أي لا أحد أحسن كلاماً ولا أطيب مقالاً من الّذي قام بتبليغ دين اللّه لعباد اللّه ، على مراد اللّه ، بأمر من اللّه .

قال الرّازي (رحمه الله) :

" قوله :﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ يدلّ على أنّ الدّعوة إلى اللّه أحسن من كلّ ما سواها . إذا عرفت هذا فنقول : كلّ ما كان أحسن الأعمال وجب أن يكون واجباً ، لأنّ كلّ ما لا يكون واجباً فالواجب أحسن منه ، فثبت أنّ كلّ ما كان أحسن الأعمال فهو واجب ، إذا عرفت هذا فتقول : الدّعوة إلى اللّه أحسن الأعمال بمقتضى هذه الآية ، وكلّ ما كان أحسن الأعمال فهو واجب ، ثمّ ينتج أنّ الدّعوة إلى اللّه واجبة " [١] .

---

(١) التّفسير الكبير : ٢٧/١٢٥-١٢٦ . وقد سبق بيان نوعيّة هذا الوجوب والتّفصيل فيه . انظر : ص : ٤٢٥-٤٢٧ . من هذا البحث .

والآية عامّة لكلّ من دعا إلى اللّه من الأنبياء والمؤمنين ، ولا تختصّ بشخص أو صنف معيّن من النّاس كما ذهب إلى ذلك بعض أهل العلم(١) .

وقال سبحانه : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٤].

ففي الآية أمر من اللّه عزّ وجلّ للأمّة أن تنصّب دعاة أتقياء ناصحين ليقوموا بأمر اللّه في الدّعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، وأولئك هم الّذين وصفوا بالفلاح .

والفلاح هو الظّفر وإدراك البغية ، وهو دنيوي وأخروي . فالدّنيوي : هو إدراك السّعادة الّتي تطيب بها الحياة . والأخروي : بقاء بلا فناء – في دار البقاء وهي الجنة – وعزّ بلا ذل ، وغنى بلا فقر ، وعلم بلا جهل(٢) .

والأمّة تنال الفلاح في الدّنيا والأخرى إذا عملت بدينها الّذي شرعه اللّه لها ولم تتنكّب طريقه ، وقامت بالدّعوة إلى اللّه خير قيام ، فبلّغت رسالة اللّه ، وأدّت أمانته ، ونصحت فيه أبلغ النّصح ، وجاهدت فيه حقّ الجهاد ، فحينها تتبوّأ مراتب العزّ ، وتنال المجد والسّؤدد ، والشّرف على الأمم قاطبة ، وتستحقّ في يوم الخلود النّعيم المقيم والفوز العظيم .

---

(١) وانظر : جامع البيان : ٢٤/١١٧-١١٨ . أحكام القرآن لابن العربي : ٤/١٦٥٠ . التفسير الكبير : ٢٧/١٢٤-١٢٦ . الجامع لأحكام القرآن : ١٥/٣٦٠ . تفسير القرآن العظيم : ٤/١٥١ . الجواهر الحسان : ٣/١٧٦ . روح المعاني : ٢٤/١٢٢-١٢٣ . فتح البيان : ١٢/٢٥١ . محاسن التّأويل : ١٤/٥٢٠٥ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٦٩٤-٦٩٥ . وفيه تفصيل قيّم لأنواع الدّعوة الّتي يجب أن يقوم بها الدّعاة إلى اللّه .

(٢) محاسن التّأويل : ٤/٩٢٠ بتصرّف . وانظر في معنى الآية : جامع البيان : ٤/٣٨ . أحكام القرآن لابن العربي : ١/٢٩٢-٢٩٣ . التّفسير الكبير : ٨/١٦٦-١٦٨ . تفسير القرآن العظيم : ١/٥٨٣ . الجواهر الحسان : ١/٢٧٧-٢٧٨ . روح المعاني : ٤/٢٠-٢٢ . فتح البيان : ٢/٣٠٤-٣٠٥ .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [النساء:١١٤].

فاللّه وعد بالثّواب الجزيل والأجر العظيم الّذي لا حد لمبلغه لمن أمر بالخير المتضمّن لوجوه الصّلاح في الأرض ، وحذّر من الشّر المتضمّن لوجوه الفساد ، إذ كلّ أمرٍ بخير يقتضي نهياً عن شرّ مقابل .

وفي الآية بيان لما يناله الدّعاة إلى اللّه من ثواب عظيم جزاء قيامهم بأمر الدّعوة (١) .

وقال تعالى في وصف المنافقين : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [التوبة:٦٧] .

ثمّ وصف المؤمنين بضدّ ذلك فقال : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة:٧١].

فمن صفات أهل الإيمان الّتي يتميّزون بها عن المنافقين ، والّتي استحقّوا بها رحمة الله تعالى أنّهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر إضافة إلى ما ذكر من صفات في الآية ، بينما يتميّز المنافقون بخلاف ذلك .

---

(١) وانظر في معنى الآية : جامع البيان : ٥/٢٧٦ . أحكام القرآن لابن العربي : ١/٤٩٨-٤٩٩ . التفسير الكبير : ١١/٤٠-٤٢ . الجامع لأحكام القرآن : ٥/٣٨٣ . تفسير القرآن العظيم : ١/٨٤٢ .الجواهر الحسان :١/٣٨٤ . روح المعاني : ٥/١٤٤-١٤٥ . فتح البيان : ٣/٢٣٧-٢٣٩ . محاسن التأويل : ٥/١٥٤٢-١٥٤٣ .

ولذا قال القرطبي (رحمه الله) :

" فجعل تعالى الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر فرقاً بين المؤمنين والمنافقين ، فدلّ على أنّ أخصّ أوصاف المؤمن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر " [١]

وفي هذا دافع للمؤمن كي يقوم بأمر الدّعوة حتّى يتّسم بسمة من سمات الإيمان الفارقة بينه وبين النّفاق .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٢١-٢٢].

قال القاسمي (رحمه الله):

" قد دلّت الآية على عظم حال من يأمر بالمعروف ، وعظم ذنب قاتله ، لأنّه قرن ذلك بالكفر باللّه تعالى ، وقتل الأنبياء " [٢] .

والآيات في هذا الشّأن كثيرة . وأمّا الأحاديث :

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٤٧/٤ . وانظر : جامع البيان : ١٧٨/١٠-١٧٩ . التّفسير الكبير : ١٣٠/١٦-١٣١ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٠٢/٨-٢٠٣ . تفسير القرآن العظيم : ٥٧٤/٢-٥٧٥ . روح المعاني : ١٣٥/١٠-١٣٦ . فتح البيان : ٣٤٥/٥-٣٤٧ . محاسن التّأويل : ٣٢٠٠/٨-٣٢٠١ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٣٠٣ .

(٢) محاسن التّأويل : ٨١٧/٤ .

فعن أبي سعيد ﷺ قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : " من رأى منكم مُنكراً فليغيّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان " (١) .

فقد وصف ﷺ من قام بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر – وهما شقّا الدّعوة – بالإيمان ، وأنّه يتناقص ذلك الإيمان كلّما ضعف صاحبه في جانب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر .

قال أبو العبّاس القرطبي (رحمه الله) :

" وقوله " من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده " هذا الأمر على الوجوب ، لأنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر من واجبات الإيمان ، ودعائم الإسلام بالكتاب والسّنة وإجماع الأمّة " (٢)

بل من لم يباشر ذلك ، ولو بقلبه ، يسلب إيمانه . وقد صرّح ﷺ بذلك في حديث عبد اللّه بن مسعود ﷺ حينما قال : " ما من نبيٍّ بعثه اللّه في أمّة قبلي إلاّ كان له من أمّته حَوَارِيُّون(٣) وأصحاب يأخذون بسنّته ويقتدون بأمره ، ثمّ إنّها تَخْلُف من بعدهم خُلُوف(٤) ، يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم

---

(١) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الإيمان: (١). باب بيان كون النّهي عن المنكر من الإيمان: (٢٠). برقم: (٤٩). ١/٦٩.

(٢) المفهم : ١/٢٣٣ .

(٣) حواريّون : جمع حواري وهم خلصاء الأنبياء وأنصارهم .

انظر: غريب الحديث للهروي: ٢/١٦. النّهاية في غريب الحديث: ١/٤٥٨.

(٤) خُلُوف : جمع خَلْف وهو من يجئ بعد من مضى . انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٢/٦٥-٦٦. وانظر: الفائق: ١/٤٨. غريب الحديث لأبي الفرج عبد الرّحمن بن عليّ بن الجوزي . تحقيق : عبد المعطي أمين قلعجي . طبعة : دار الكتب العلميّة . بيروت . الطّبعة الأولى : ١٩٨٥م : ١/٢٩٧.

بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل " [١] .

وعن عليّ رضي الله عنه أنّ الرّسول ﷺ قال له : " انفُذ على رِسْلِك[٢] حتّى تنزل بساحتهم ، ثمّ ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقّ اللّه فيه ، فواللّه لأن يهدي اللّه بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمْرُ النّعَم "[٣] .

وفي هذا إثبات للأجر العظيم الّذي ينال الدّاعية إلى اللّه متى ما اهتدى على يديه عَبْدٌ من عباد اللّه . فإنّ ذلك خير له من حمر النّعم ، الّتي هي أشرف النّعم وخيارها عند أهلها .

قال أبو العبّاس القرطبي (رحمه الله) :

" وقوله " فو اللّه لأن يهدي اللّه ... النّعم " حضّ عظيم على تعليم العلم وبثّه في النّاس ، وعلى الوعظ والتّذكير بالدّار الآخرة والخير ... والهداية : الدّلالة والإرشاد . والنّعم : هي الإبل . وحُمْرُها : هي خيارها حسناً وقوّة ونفاسة ، لأنّها أفضل عند العرب . ويعنى به – واللّه أعلم – أنّ ثواب تعليم رجل واحد ، وإرشاده

---

(١) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الإيمان: (١). باب بيان كون النّهي عن المنكر من الإيمان: (٢٠). برقم: (٥٠) . ١/٧٠ .

(٢) الرِّسْل : هو السّكون والتّأني . والمراد أي اتّئد في أمرك ولا تعجل فيه . وانظر: الفائق: ٢/٥٦. ٣/٩٤. النّهاية في غريب الحديث: ٢/٢٢٢-٢٢٣.

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب فضائل أصحاب النّبي ﷺ " المناقب": (٦٢/٣٧). باب مناقب عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : (٩/٣٨). برقم: (٣٧٠١). ص: ٧٨٠. وفي كتاب المغازي: (٦٤/٣٨). باب غزوة خيبر: (٣٨/٣٩). برقم: (٤٢١٠). ص: ٨٨٠. و بلفظ مقارب في: كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/٣٢). باب دعاء النّبي ﷺ إلى الإسلام والنّبوة: (١٠٢/١٠١). برقم: (٢٩٤٢). ص: ٦٢١. وفي باب فضل من أسلم على يديه رجل: (١٤٣/١٤٢). برقم: (٣٠٠٩). ص: ٦٣٣.

صحيح مسلم: بلفظه برقم: (٢٤٠٦) و بمعناه برقم: (٢٤٠٥). في: كتاب فضائل الصّحابة: (٤٤). باب من فضائل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : (٤). ٤/ ١٨٧١-١٨٧٢.

للخير أعظم من ثواب هذه الإبل النّفيسة لو كانت لك فتصدّقت بها ، لأنّ ثواب تلــك الصّدقة ينقطع بموتها ، وثواب العلم والهدى لا ينقطع إلى يوم القيامة " [١] .

والهداية في الحديث هي هداية البيان والدّلالة والإرشاد ، وهي الّتي كلّف بـها الرّسل والدّعاة إلى اللّه ، ومن ذلك قولـــه تعــالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢] . وليست بهداية التّوفيق والإلهام ، إذ ليست هذه فـــي مقدور الخلق ، لقوله تعــــالى :﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص:٥٦] [٢] .

وعن أبي هريرة ﷺ أنّ رسول اللّه ﷺ قال : " من دعا إلى هدى كان لـــه من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً . ومـــن دعــا إلــى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً "[٣] .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" أخبر ﷺ أنّ المتسبّب إلى الهدى بدعوته له مثل أجر مـــن اهتــدى بــه ، والمتسبّب إلى الضّلالة بدعوته عليه مثل إثم من ضلّ به ، لأنّ هذا بذل قدرته فـــي هداية النّاس ، وهذا بذل قدرته في ضلالتهم ، فنزل كلّ واحد منهما بمنزلة الفـــاعل التّام " [٤] .

---

(١) المفهم : ٢٧٦/٦ . وانظر : مفتاح دار السّعادة : ٦٢/١ .

(٢) وانظر : مجموع الفتاوى : ١٧٢/١٨-١٧٣ . مفتاح دار السّعادة : ٨٤/١-٨٥ .

(٣) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب العلم: (٤٧). باب من سنّ سنّة حسنة أو سيّئة ، ومن دعا إلى هدى أو ضلالــة: (٦). برقم: (٢٦٧٤). ٢٠٦٠/٤ .

(٤) مفتاح دار السّعادة : ٦٢/١ . وانظر : مجموع الفتاوى : ٧٢٤/١٠ . طريق الهجرتين . ص : ٥٣٣ .

وعن أبي مسعود الأنصاري ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : " من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله "(١) .

قال النّووي (رحمه الله) :

" فيه فضيلة الدّلالة على الخير والتّنبيه عليه والمساعدة لفاعله . وفيه فضيلة تعليم العلم ووظائف العبادات لا سيما لمن يعمل بها من المتعبّدين وغيرهم " (٢) .

فالدّاعية في الحديثين نال الأجر العظيم لأنّه :

١ – أنقذ ذلك المهتدي من النّار ، وهي دار الشّقاء إلى الجنّة الّتي هي دار السّعادة . وذلك أعظم معروف وإحسان يقدّمه الدّاعية لغيره .

٢ – كلّ ما يقوم به المهتدي من حركات وسكنات ينال بها أجراً كان للدّاعية مثل أجره ، لأنّه السّبب في اهتدائه . وذلك باب من الأجر لا يغلق .

٣ – من اهتدى يكون عوناً للدّاعية على أداء رسالته ، حيث تضمّ الجهود إلى بعضها ، وتتقوّى الدّعوة بزيادة عناصرها .

٤ – يكتسب الإسلام فرداً جديداً من أفراده ، ويخسر الشّيطان بعض أعوانه ، وفي ذلك لبنة في بناء الإسلام الشّاهق تسبّب في إضافتها الدّاعية (٣) .

وعن ابن مسعود ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : " نَضَّرَ اللّهُ امرءاً سمع مقالتي فوعاهَا ، وحفظها وبلّغها، فَرُبَّ حامل فقه إلى مَنْ هُوَ أفقه منه " الحديث (٤)

---

(١) صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الإمارة: (٣٣). باب فضل إعانة الغازي في سبيل اللّه بمركوب وغيره ، وخلافه في أهله بخير: (٣٨). برقم: (١٨٩٣). ١٥٠٦/٣ .

(٢) شرح النّووي على مسلم : ٣٩/١٣ .

(٣) وانظر : قواعد الدّعوة إلى اللّه – للدّكتور همّام عبد الرّحيم سعيد – دار العدوي . عمّان الأردن . الطّبعة الأولى : ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ . ص : ٢٣-٢٦ .

(٤) سنن أبي داود: بنحوه في: كتاب العلم: (٢٤). باب فضل نشر العلم: (١٠). برقم: (٣٦٦٠). عن زيد بن ثابت ﷺ . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح ". ص:: ٤٠٤.

فلو لم يكن في فضل الدّعوة إلاّ هذا الحديث لكفى ، فإنّ رسول اللّه ﷺ دعا لمن سمع كلامه ووعاه وحفظه ، ثمّ بلّغه وبثّه في الأمّة بالنّضارة ، وهي البهجة والحسن الّذي يكساه الوجه من آثار الإيمان وابتهاج الباطن به ، وفرح القلب وسروره واللّذاذة به ، فتظهر هذه البهجة والسّرور والفرحة نضارة على الوجه (١) .

۞ وقد جاء خطاب الشّرع بالأمر بالدّعوة متنوّع الأساليب ، متعدّد الأوجه، حاثّاً للدّعاة إلى اللّه أن يقوموا بها على أكمل الوجوه ، وأحسن الطّرق ، وأقوم السّبل .

قال تعالى : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ ﴾ [النحل:١٢٥].

سنن التّرمذي: بلفظه عن ابن مسعود ﷺ . برقم: (٢٦٥٨) — مع زيادة فيه — و بنحوه عنه برقم: (٢٦٥٧). كتاب العلم: (٣٨). باب ماجاء في الحثّ على تبليغ السّماع: (٧). وقال: " هذا حديث حسن صحيح". و قال الألباني (رحمه الله): " صحيح ". ص:: ٤٣٠.

سنن ابن ماجه: بلفظ مقارب في: المقدّمة. باب من بلّغ علماً: (١٨). عن زيد ﷺ برقم: (٢٣٠). وعن جبير بن مطعم ﷺ برقم: (٢٣١). وعن أنس ﷺ برقم: (٢٣٦). و بنحوه عن عبد اللّه ﷺ برقم: (٢٣٢). قال الألباني (رحمه الله): " صحيح ". ص: ٤٠. و بلفظ مقارب في: كتاب المناسك: (٢٥). باب الخطبة يوم النّحر: (٧٦). برقم: (٣٠٥٦). عن جبير ﷺ . ص: ٣٣١.

سنن الدّارمي: بلفظ مقارب في: باب الاقتداء بالعلماء . عن جبير ﷺ . ونحوه عن أبي الدّرداء ﷺ . ٨٦/١-٨٧.

مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ٨٠/٤. عن جبير ﷺ . ونحوه عن ابن مسعود ﷺ في: ٤٣٦/١. وعن جبير ﷺ في: ٨٢/٤. وزيد ﷺ في: ١٨٣/٥.

هذه بعض طرق هذا الحديث . وهو حديث متواتر . انظر : دراسة وافية وقيّمة له لشيخنا عبد المحسن بن حمد العبّاد حفظه اللّه. في كتابه : دراسة حديث نضّر اللّه امرءاً سمع مقالّتي...رواية ودراية . فقد ذكر له أربعة وعشرين صحابياً ممّن رواه عن النّبي ﷺ . وذكره السّيوطي في قطف الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة . تحقيق الشّيخ خليل محي الدّين عيسى . المكتب الإسلامي . الطّبعة الأولى : ١٤٠٥هـ — ١٩٨٥م— . ص: ٢٨.

(١) انظر : مفتاح دار السّعادة : ٧٢/١ .

أمر اللّه سبحانه في الآية الدّعاة إلى اللّه أن يدعوا إلى دينه بالحكمة ، وهي كما يقول مالك (رحمه الله) : " طاعة اللّه والاتّباع لها ، والفقه في دين اللّه ، والعمل به " [١] . أو هي معرفة الحقّ والعمل به ، والإصابة في القول والعمل [٢] .

وهي دعامة ثابتة ، وركيزة قويّة من ركائز الدّعوة ، ولكنّها لا تتأتّى إلاّ لمن نال قسطاً وافراً من فقه الدّعوة .

ولذا مدح اللّه أهلها فقال : ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة:٢٦٩].

ولا تكون الدّعوة بحكمة إلاّ إذا كان مقصوداً بها الوصول إلى الغايات المحمودة ، والمطالب النّافعة المشتملة على العلم النّافع والعمل الصّالح [٣] .

كما أمرهم أن يدعوا إليه بالموعظة الحسنة ، وهي الأمر والنّهي المقرون بالتّرغيب والتّرهيب[٤] ، لما في ذلك من الأثر العظيم والخير العميم . إذ التّرغيب

---

(١) جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله . لأبي عمر يوسف بن عبد البر النّمري القرطبي . تقديم : عبد الكريم الخطيب . الطّبعة الثّانية : ١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢ م . طبع المطبعة الفنيّة بالقاهرة . نشر دار الكتب الإسلاميّة . ص : ٤٠ .

(٢) مدارج السّالكين : ٤٧٨/٢ . الضّوء المنير : ٤٥٦/١ . وقد تعدّدت أقوال أهل العلم في المراد بالحكمة . انظر : جامع البيان : ٨٩/٣-٩١ . التّفسير الكبير : ٦٧/٧-٦٩ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٣٠/٣ . روح المعاني : ٤١/٣ . فتح البيان : ١٣٠/٢ . فتح الباري : ٢٣٠/١ . وما ذكرته هو القول الجامع لمعنى الحكمة . ولذا استحسنه ابن القيّم (رحمه الله) انظر : مدارج السّالكين :٤٧٨/٢ .

(٣) انظر : شفاء العليل : ص : ١٩٠ . الضّوء المنير : ٢٩٣/٢ .

(٤) انظر : تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٤٠٤ . ويقصد بالتّرغيب : كلّ ما يشوّق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحقّ ، والثّبات عليه . ويقصد بالتّرهيب : كلّ ما يخيف ويحذّ المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحقّ أو عدم الثّبات عليه بعد قبوله . والأصل في التّرغيب أن يكون في نيل رضا اللّه ورحمته وجزيل ثوابه في الآخرة ، وأن يكون التّرهيب بالتّخويف من غضب اللّه وعذابه في الآخرة . أصول الدّعوة . لعبد الكريم زيدان . مؤسّسة الرّسالة بيروت . الطّبعة السّابعة : ١٤١٨هـ — ١٩٩٧ م . ص : ٤٣٧ بتصرّف يسير .

والتّرهيب عاملان مؤثّران في دفع النّاس للخير وتجنيبهم للشّرّ . ولأجل هذا تكاثرت الآيات الآمرة بالدّعوة بالموعظة ، كقوله تعالى :

﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٣١]. وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ﴾ [النساء:٥٨]. وقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ ﴾ [النساء:٦٣]. وقوله : ﴿ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾ [لقمان:١٣] . وغيرها الكثير .

كما أمرهم بالجدال بالّتي هي أحسن ، وهو إقامة الحجج والبراهين لنصرة الحقّ وكبت الباطل ، ودفع الشّبهات ، وإفساد حجج الخصم [(١)] .

ولكن بما يَحْسُنُ من الأدلّة ، ويَجْمُل من الكلام ، بأن يكون منك للخصم تمكين ، وفي خطابك له لين ، وأن تستعمل من الأدلّة أظهرها وأنورها ، وإذا لم يفهم المجادل أعاد عليه الحجّة وكررها [(٢)] .

وقال في آية مماثلة : ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ ﴾ [العنكبوت:٤٦] . أي جادلوهم بالخصلة الّتي هي أحسن للثّواب على سبيل الدّعوة لهم ، والتّنبيه على حجج اللّه وبراهينه رجاء أن ينصاعوا للإسلام ، لا عن طريق الإغلاظ والمخاشنة [(٣)] .

---

(١) وانظر : الفروسيّة لابن قيّم الجوزيّة . تحقيق : مشهور بن حسن بن محمود بن سليمان . طبعة دار الأندلس . حائل . الطّبعة : الأولى : ١٤١٤هـ ــ ١٩٩٣م . ص : ١٨٥-١٨٦ . مفتاح دار السّعادة : ٥٨/٢ . الضّوء المنير :١٧٣/٥ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي : ١٤٧٥/٣ .

(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٣٥٠/١٣ . فتح البيان : ٢٠١/١٠ .

مستندين إلى العلم الصّحيح ، والهدى الرّشيد ، والكتاب البيّن ، قاصدين الحقّ . ليس كقوم قال اللّه في شأنهم : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ﴾ [الحج:٨-٩].

والّذي يحسن الجدال هو العالم الّذي تتأتّى له الحجج ، ويحضره الجواب ، ويسرع إليه الفهم (١) .

والنّاس ليسوا أمام الدّعوة في حدّ سواء ، فهم مختلفون في الفهم والانقياد والاقتناع ، فيسلك معهم أقرب السّبل الّتي توصلهم إلى الحقّ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) :

" النّاس ثلاثة أقسام : إمّا أن يعترف بالحقّ ويتّبعه ، فهذا صاحب الحكمة . وإمّا أن يعترف به لكن لا يعمل به ، فهذا يوعظ حتّى يعمل . وإمّا أن لا يعترف به فهذا يجادل بالّتي هي أحسن ، لأنّ الجدال في مظنّة الإغضاب ، فإذا كان بالّتي هي أحسن حصلت منفعته بغاية الإمكان كدفع الصّائل " (٢) .

وممّا أمر به الدّعاة إلى اللّه أن يؤدّوا واجب النّصح لعباد اللّه ، لأنّ الدّعاة أمناء على دين اللّه ، فإذا لم يقوموا بنصح الأمّة فقد نقضوا تلك الأمانة .

---

(١) انظر : جامع بيان العلم . ص : ٤٣٣ .

ولمعرفة أنواع الجدال وما يجوز منه وما يمنع . انظر : فتح الباري : ١٥/٢٥٢ .

(٢) مجموع الفتاوى : ٢/٤٥ .

قال أبو حاتم (رحمه الله) :

" الواجب على المرء لزوم النّصيحة للمسلمين كافّة ، وترك الخيانة لهم ، بالإضمار والقول والفعل معاً ، إذ المصطفى ﷺ كان يشترط على من بايعه من أصحابه النّصح لكلّ مسلم مع إقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة " (١) .

ولمّا كان النّصح عظيماً جعله اللّه من صفات رسله . فقال عن نوح عليه السّلام : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأعراف:٦٢] . وقال عن هود عليه السّلام : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأعراف:٦٨] . وقال عن صالح عليه السّلام : ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأعراف:٧٩].

وقد جعل رسول اللّه ﷺ عماد الدّين وقوامه النّصيحة (٢) . فقال في

---

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء . للإمام أبي حاتم محمّد بن حبّان البستي . تحقيق : عادل أحمد عبدالموجود ، وعليّ محمّد معوّض – الطّبعة الثّالثة : ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م . مكتبة نزار مصطفى الباز . مكّة – الرّياض . ص: ٣٢٦ . عن جرير بن عبد اللّه ﷺ قال : " بايعت رسول اللّه ﷺ على إقام الصّلاة ، وإيتاء الزّكاة ، والنّصح لكلّ مسلم " . صحيح البخاري: كتاب الإيمان: (٢). باب قول النّبي ﷺ " الدّين النّصيحة: (٤٢/٤٣). برقم: (٥٧). ص:: ٢٨ — وهو في مواضع أخرى من صحيحه — . صحيح مسلم: كتاب الإيمان: (١). باب بيان أنّ الدّين النّصيحة: (٢٣). برقم: (٥٦). ٧٥/١.

(٢) النّصيحة : كلمة جامعة معناها حيازة الحظّ للمنصوح له . وهي من وجيز الكلام الّذي ليس في كلام العرب كلمة مفردة تستوفي بها العبارة عن معنى هذه الكلمة . وقيل : هي مأخوذة من نصح الرّجل ثوبه إذا خاطه ، فشبّهوا فعل النّاصح فيما يتحرّاه من صلاح المنصوح له بما يسدّه من خلل الثّوب . وقيل : مأخوذة من نصحت العسل إذا صفيّته من الشّمع . فشبّهوا تخليص القول من الغش بتخليص العسل من الخلط .
شرح النّووي على مسلم : ٣٧/٢ بتصرّف يسير .

حديث تميم الدّاري ﷺ : " الدّين النّصيحة " قلنا : لمن ؟ قال : " لله ولكتابه ولرسوله ولأئمّة المسلمين وعامّتهم " (١) .

وقيام الدّاعية إلى اللّه بالنّصح فيه دلالة على بذله غاية الجهد في إبلاغ دين اللّه وبيانه للنّاس ، إذ ليس كلّ أحد يؤدّي النّصيحة إلى عباد اللّه أداء سليماً ، لما تحتاجه من جوانب شتّى يجب على الدّاعي أن يتحلّى بها .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" النّصيحة إحسان إلى من تنصحه بصورة الرّحمة لـه ، والشّفقة عليه ، والغيرة له وعليه ، فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقّة ، ومراد النّاصح بها وجه اللّه ورضاه ، والإحسان إلى خلقه ، فيتلطّف في بذلها غاية التّلطّف ، ويحتمل أذى المنصوح ولائمته ، ويعامله معاملة الطّبيب العالم المشفق للمريض المشبع مرضاً ، وهو يحتمل سوء خلقه وشراسته ونفرته ، ويتلطّف في وصول الدّواء إليه بكلّ ممكن فهذا شأن النّاصح " (٢) .

ولكي ينجح الدّاعي في حصول مقصوده في النّصيحة فليقدّمها سرّاً بينه وبين المنصوح له حتّى تؤتى أكلها . وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [النساء:٦٣] . أي انصحهم فيمابينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم (٣) .

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان: (١). باب بيان أنّ الدّين النّصيحة: (٢٣). برقم: (٥٥). ٧٤/١. وانظر شرح الحديث ، ومراد النّبي ﷺ من النّصح لله ولرسوله ولأئمّة المسلمين وعامّتهم . في : المفهم : ٢٤٣/١-٢٤٤ . شرح النّووي على مسلم : ٣٧/٢-٣٩ . فتح الباري : ١٨٧/١-١٨٨

(٢) الرّوح . ص : ٢٥٧ .

(٣) تفسير القرآن العظيم : ٧٨٦/١ . وانظر : تيسير الكريم الرّحمن . ص : ١٤٩ .

۞ والله عزّ وجلّ كما أمر الدّعاة بالقيام بأمر الدّعوة حذّرهم أيّما تحذير عن النّكوص عنها ، وترك القيام بها ، وبيّن لهم العاقبة الوخيمة الّتي تنالهم إذا هم أهملوا أمرها ، وتركوا شأنها .

قال تعالى : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [المائدة:٧٨-٧٩].

لقد طرد اللّه وأبعد من رحمته قوماً من بني إسرائيل بشهادة وإقرار بعض أنبيائهم ، وذلك لمّا عصوا اللّه وظلموا عباده ، ثمّ فسّر ذلك العصيان الّذي استجلب لهم اللّعن ، أنّهم كانوا يفعلون المنكر ، ولا ينهى بعضهم بعضاً عنه . فانتظم اللّعن المباشر للمنكر والسّاكت عن نهيه مع قدرته عليه(١) .

والآية ذامّة لكلّ من فعل فعلهم ، ومحذّرة له من أن يرتكب ما ارتكبوه(٢) .

ولذا قال الألوسي (رحمه الله) :

" وفي هذه الآية زجر شديد لمن يترك الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر " (٣) .

---

(١) تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٢٠٣ . وانظر معنى الآية في : جامع البيان : ٦/٣١٧-٣٢٠ . التفسير الكبير : ١٢/٦٣-٦٤ . الجامع لأحكام القرآن : ٦/٢٥٢-٢٥٤ . تفسير القرآن العظيم : ٢/١٣٢ . الجواهر الحسان : ١/٤٤١-٤٤٢ . روح المعاني : ٦/٢١١-٢١٣ . فتح البيان : ٤/٣١-٣٢ . محاسن التأويل : ٦/٢١١٠-٢١١٣ .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٦/٢٥٣ . تفسير القرآن العظيم : ٢/١٣٢ .

(٣) روح المعاني : ٦/٢١٣ .

وقال الغنوجي (رحمه الله) :

" والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر من أهمّ القواعد الإسلاميّة ، وأجلّ الفرائض الشّرعيّة ، ولهذا كان تاركه شريكاً لفاعل المعصية ، ومستحقّاً لغضب اللّه وانتقامه " [(١)] .

وأي خير فيمن يرى محارم اللّه تنتهك ، وأوامره تترك ، وحدوده تُضيَّع ، ودينه يهمل ، وشرعه يرغب عنه وهو مع ذلك ساكت أخرس ، بارد القلب ، عاجز الهمّة ، لا يحرك ساكناً ، ولا يتمعّر وجهه في اللّه يوماً .

وهل ابتلي الإسلام إلاّ بمثل هؤلاء الّذين يرون – صباح مساء – دين اللّه يعطّل ، وشرعه يدّنس ، ولا مبالاة لهم بما يجري ، وكأن الأمر لا يعنيهم ؟! .

---

(١) فتح البيان : ٣٢/٤ . وقد نقل القاسمي عن الحاكم (رحمهما اللّه) أنّه قال في الآية : " تدلّ على أن ترك النّهي من الكبائر " محاسن التّأويل : ٢١١١/٦ .

وقد أطبق علماء التّفسير على إيراد حديث ابن مسعود ﷺ عند تفسير هذه الآية . ومفاده : أن الرّجل من بني إسرائيل إذا لقي من يفعل المنكر ينهاه ، ثمّ لا يمتنع بعد ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلمّا فعلوا ذلك ضرب اللّه على قلوب بعضهم ببعض ولعنهم . والحديث أخرجه أبو داود في سننه : كتاب الملاحم : (٣٦) . باب : الأمر والنّهي : (١٧) . برقم : (٤٣٣٦) . قال الألباني (رحمه الله) : " ضعيف " . ص : ٤٧٣ . والتّرمذي في سننه :كتاب تفسير القرآن : (٤٣) . باب ومن سورة المائدة : (٥) . برقم : (٣٠٤٨) . قال الألباني (رحمه الله) : " ضعيف " . ص : ٤٨٦ . وابن ماجه في سننه : كتاب الفتن : (٣٦) . باب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر : (٢٠) . برقم : (٤٠٠٦) . قال الألباني (رحمه الله) : " ضعيف " . ص : ٤٣٠-٤٣١. والبيهقي في سننه : باب ما يستدلّ به على أنّ القضاء وسائر أعمال الولاة ممّا يكون أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر من فروض الكفايات : ٩٣/١٠ . وأبو يعلى في مسنده : ٤٤٨/٨ . برقم : (٥٠٣٥) . قال محقّقه : " إسناده ضعيف " . والطّبراني في المعجم الأوسط : ٣١٦/١ .

وعلّة ضعفه أنّه رواه أبو عبيدة بن عبد اللّه بن مسعود ﷺ عن أبيه وهو لم يسمع منه . فالحديث منقطع . وانظر : التّرغيب والتّرهيب : ١٦١/٣ . ولذا ضربت عنه صفحاً لمّا تبيّن لي عدم صحّته . انظر : سلسلة الأحاديث الضّعيفة و الموضوعة : ١١٠٥/٣ .

فأي خير في هؤلاء ، إنّهم لا خـــير فيـــهم ، فحــقّ لمثلـــهم أن يلحقــوا بالعصـــاة والمجرمين [١] .

ولعلّ البعض تقوم في ذهنه شبهة إذا رأى الفساد استشرى ، والباطل صلـــب عوده ، والمعاصي استفحلت ، ولا أثر للدّعوة فيمن فسد ، فحينـــها يــترك الأمـــر والنّهي ، ويرفع عقيرته بقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [المائدة:١٠٥] . حيث يستمدّ من الآية فهماً خاطئاً فحـــواه : أن الأمـــر بالمعروف والنّهي عن المنكر سقطا عنه ، إذ لا يضرّه ضلال من ضلّ ، وغوايـــة من غوى ما دام هو على الجادّة .

وقد تطرّق هذا الفهم الخاطئ للآية قديماً ممّا جعل خليفة رسول اللّه ﷺ أبـــا بكر الصّدّيق ﷺ ينبري لتصويبه .

عن قيس (رحمه الله) [٢] قال : قال أبو بكر ﷺ بعد أن حمد اللّه وأثنى عليه :

" يا أيّها النّاس إنّكم تقرؤون هذه الآية ، وتضعونها على غير موضعـــها﴿ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ ... وإنّا سمعنا النّبي ﷺ يقول :

" إنّ النّاس إذا رأوا الظّالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يَعُمَّهم اللّه بعقاب " ...

وإنّي سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : " ما من قوم يُعمَل فيـــهم بالمعـــاصي ، ثـــمّ يقدرون على أن يغيّروا ، ثمّ لا يغيّروا إلاّ يوشك أن يعمّهم اللّه منه بعقاب " [٣] .

---

(١) انظر : أعلام الموقعين : ١٧٧/٢ . الضّوء المنير : ٢٢٢/٣ .

(٢) هو ابن أبي حازم (رحمه الله) . سبقت ترجمته. انظر: ص : ٢٠٨ .

(٣) سنن أبي داود: بلفظه في: كتاب الملاحم: (٣٦). باب الأمر والنّهي: (١٧). برقم: (٤٣٣٨). قـــال الألبـــاني (رحمه الله): " صحيح ". ص: ٤٧٣.

فقد أجلى الصّدّيق ﷺ معنى الآية بحيث لا يصبح للسّاكت عن الدّعوة متمسّك فيها ، بل هي آية حاثّة للقيام بأمر الدّعوة .

ولذا قال الإمام أبو بكر بن العربي (رحمه الله) عنها :

" هذه الآية من أصول الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر الّذي هو أصل الدّين وخلافة المسلمين " [1] .

وبيان ذلك أنّ اللّه أمر عباده أن يصلحوا أنفسهم ، ثمّ يصلحوا غيرهم بأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، فإن هم فعلوا ذلك فلم يرتدع من أُمِر أو نُهي فلا يضرّهم ضلاله وانحرافه حينئذ .

قال الطّبري (رحمه الله) :

" فإنّه لا يضرّكم ضلال من ضلّ إذا أنتم رمتم العمل بطاعة اللّه ، وأدّيتم فيمن ضلّ من النّاس ما ألزمكم اللّه به فيه ، من فرض الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، الّذي يركبه أو يحاول ركوبه ، والأخذ على يديه ، إذا رام ظلماً لمسلم

سنن التّرمذي: بنحوه في: كتاب الفتن: (٣٠). باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغيّر المنكر: (٨). برقم: (٢١٦٨). ص: ٣٦٠. وقال: " وهذا حديث صحيح". قال الألباني (رحمه الله): " صحيح ".

سنن ابن ماجه: بنحوه في: كتاب الفتن: (٣٦). باب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر: (٢٠). برقم: (٤٠٠٥). قال الألباني (رحمه الله): " صحيح ". ص: ٤٣٠.

مسند أحمد: بنحوه في: ١/٧، ٩. قال أحمد محمّد شاكر (رحمه الله): " إسناده صحيح ". مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١/١٦٨، ١٧٦. برقم: (٢٩، ٥٣).

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بنحوه في: باب ذكر البيان بأنّ المنكر والظّلم إذا ظهرا كان على من علم تغييرها حذر عموم العقوبة . برقم: (٣٠٤ ، ٣٠٥) . قال شعيب الأرناؤوط: " إسناده صحيح على شرط مسلم". ص: ١/٥٣٩-٥٤٠.

مسند أبي يعلى: نحوه برقم: (١٢٨، ١٣١). قال محقّقه: "إسناده صحيح ". ١/١١٨-١١٩.

(١) أحكام القرآن : ٢/٧٠٣ .

أو معاهد ومنعه منه ، فأبى النّزوع عن ذلك ، ولا ضير عليكم في تماديه في غيّه وضلاله إذا أنتم اهتديتم ، وأدّيتم حقّ اللّه تعالى فيه " [1] .

فالآية آمرة بالدّعوة حاثّة عليها ، ليست بمثبّطة عنها .

وبعد هذا ، فإنّ الدّاعية إلى اللّه متى ما استشعر أوامر اللّه ورسوله الحاثّة له على القيام بتبليغ دين اللّه ، وما ينتج من ذلك من ثمرات دنيويّة وأخرويّة ، كما استشعر الزّواجر النّاهية له عن النّكوص عن الدّعوة والسّكوت عن بيان دين اللّه ، وما يترتّب على ذلك من عواقب دنيويّة وأخرويّة ، دفعه ذلك كلّه للقيام بالدّعوة إلى اللّه والثّبات عليها ، والصّبر على مايقابله من شدّة فيها وعنت مهما كانت العقبات والمعوّقات والمصاعب والآلام الّتي تصاحب الدّعوة إلى اللّه والّتي تعترض طريق سيره إليه سبحانه .

---

(١) جامع البيان : ٧/٩٩-١٠٠ . وانظر : التفسير الكبير : ١٢/١١١-١١٣ . الجامع لأحكام القرآن : ٦/٣٤٢-٣٤٥ . تفسير القرآن العظيم : ٢/١٧٦ . الجواهر الحسان : ١/٤٥٤-٤٥٥ . روح المعاني : ٧/٤٥-٤٦ فتح البيان : ٤/٦٩-٧١ . محاسن التأويل : ٦/٢١٨٩-٢١٩٣ .

المبحث الثّاني

العلـــم الشّرعي*

إنّ العلم هو الرّوح الّذي تحيا به الدّعوة ، وهو النّور الّذي تستضيء به ، وهو الغذاء الّذي يضمن لها بقاءها وقوّتها .

والدّاعية بغيره ، يعجز أن يؤدّي دوره الّذي كلّف به ، ومهمّته الّتي أنيطت به ، وهي تبليغ دعوة اللّه إلى النّاس كافّة .

قال سبحانه : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٢].

فبنور العلم والإيمان يستطيع الدّاعية أن يمشي بين النّاس متبصّراً في أموره ، مهتدياً لسبيله ، عارفاً للخير ، مؤثّراً له ، مجتهداً في تنفيذه في نفسه وغيره ، عارفاً بالشّرّ ، مبغضاً له ، مجتهداً في تركه وإزالته عن نفسه وعن غيره (١) .

والعلم الّذي تحتاجه الدّعوة هو العلم الدّيني المستمدّ من كتاب اللّه وسنّة رسوله ، وليس هو العلم بمعناه الواسع الّذي يشمل مختلف العلوم والمعارف ، كالطّبّ والهندسة والفلك ونحو ذلك .

---

* العلم : عاملٌ مُعينٌ على الثّبات في كلّ المواطن ، فهو من العوامل العامّة ، ولكن آثرت الحديث عنه هنا لارتباطه الوثيق بالدّعوة ، وأهميّته العظمى في ثبات الدّاعية .

(١) تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٢٣٤ . بتصرّف يسير .

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني (رحمه الله) :

" والمراد بالعلم : العلم الشّرعي الّذي يفيد معرفة ما يجب على المكلّف من أمر دينه في عباداته ومعاملاته ، والعلم بالله وصفاته ، وما يجب له من القيام بأمره ، وتنزيهه عن النّقائص ، ومدار ذلك على التّفسير والحديث والفقه " (١) .

۞ وقد ندب الله المؤمنين إلى التّفقه في الدّين وتعلّمه ، كي ينذروا قومهم ، ويبلّغوهم دين الله إذا رجعوا إليهم .

فقال تعالى : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة:١٢٢] (٢) .

---

(١) فتح الباري : ١٩٢/١ .

(٢) وقد اختلف العلماء في المراد من الآية : هل الطّائفة النّافرة هي الّتي تتفقّه أم القاعدة مع النّبي ﷺ ؟ . قولان .

ولكلّ قول مؤيّدون من أهل التّفسير . انظر : جامع البيان : ٦٦/١١-٧١ . أحكام القرآن لابن العربي : ١٠١٨/٢-١٠١٩ . التّفسير الكبير : ٢٢٥/١٦-٢٢٨ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٩٣/٨-٢٩٧ . تفسير القرآن العظيم : ٦٢١/٢-٦٢٢ . الجواهر الحسان : ١٤٩/٢-١٥٠ . روح المعاني : ٤٨/١١-٤٩ . فتح البيان : ٤٢٤/٥-٤٢٥ . محاسن التّأويل : ٣٢٩٨/٨-٣٣٠١ .

وعلى القولين فإنّ الآية مرغّبة في التّفقه في الدّين ، وتعلّمه وتعليمه . انظر : مفتاح دار السّعادة : ٥٦/١ .

ولذا قال القرطبي(رحمه الله) : " هذه الآية أصل في وجوب طلب العلم " .

الجامع لأحكام القرآن : ٢٩٣/٨ . وانظر : أحكام القرآن لابن العربي : ١٠١٩/٢ .

وقد أساء إلى دعوة الله أناس نالوا قسطاً من علوم شتّى كالطّبّ والهندسة والجغرافيا وغيرها ، وخلا وفاضهم من علم الكتاب والسّنّة إلاّ من بصيص لم يكْفِ لإيضاح الرّؤية ، ومنهم من قذفت به جامعات الغرب ، فنصّب هؤلاء أنفسهم دعاة إلى الله ، بل لم يقف بعضهم عند ذلك الحدّ ، فتبوّأ مقام الصّدارة في موكب الدّعوة ، يرسل الفتاوى ويُكثِرُ التّنظيرات فيزيد الأمّة وبالاً على ما هي عليه ، ويفتك بأبنائها فيقتطع طائفة منهم يبثّ سمومه فيهم ، ويملي رعوناته عليهم فيردّدونها كالببغاوات ، فتنحرف الدّعوة عن مسارها الصّحيح ، وتقف عجلة تقدّمها بل لعلها تعود إلى الوراء .

وخير لهؤلاء أن يكفّوا ويتركوا الأمر إلى أهل العلم الشّرعي الّذين يبصّرون الأمّة ، ويحسنون قيادها ، ويقيمون عوجها ، فهم أولى وأرشد ، وليُذَيِّل أولئك القافلة فذاك المقام بهم أحرى وأنسب .

قال الرّازي (رحمه الله) :

" دلّت الآية على أنّه يجب أن يكون المقصود من التّفقّه والتّعلّم دعوة الخلق إلى الحقّ ، وإرشادهم إلى الدّين القويم والصّراط المستقيم ، لأنّ الآية تدلّ على أنّه تعالى أمرهم بالتّفقّه في الدّين لأجل أنّهم إذا رجعوا إلى قومهم أنذروهم بالدّين الحقّ ... فكلّ من تفقّه وتعلّم لهذا الغرض كان على المنهج القويم والصّراط المستقيم " (١) .

والعلم للدّعوة سلاح مضاء ، وضرورة ملحّة ، وغاية مستهدفة ، وزاد لجميع مراحلها لا يمكنها أن تسير إلاّ به ، ولا تتقدّم إلاّ في ضوئه ، ولا يتّضح طريقها ويستقيم أمرها إلاّ باصطحابه ، ولذا قرنه اللّه بها في قوله :

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف:١٠٨].

فقد أمر سبحانه رسوله ﷺ أن يخبر النّاس بأنّ هذه سبيله ، أي طريقه ومسلكه وسنّته وهي الدّعوة إلى اللّه على بصيرة ، وهي العلم واليقين والبرهان . وكلّ من تبعه يدعو إلى ما دعا إليه على بصيرة ويقين وبرهان(٢) .

قال ابن القيّم (رحمه الله) :

" وإذا كانت الدّعوة إلى اللّه أشرف مقامات العبد وأجلّها وأفضلها ، فهي لا تحصل إلاّ بالعلم الّذي يدعو به وإليه ، بل لابد في كمال الدّعوة من البلوغ في العلم إلى حدّ يصل إليه السّعي "(٣) .

---

(١) التّفسير الكبير : ٢٢٨/١٦ .

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم : ٧٦٦/٢-٧٦٧ . وانظر معنى الآية في : جامع البيان : ٧٩/١٣-٨٠ . التّفسير الكبير : ٢٢٥/١٨ . الجامع لأحكام القرآن : ٢٧٤/٩ . الجواهر الحسان : ٢٣٦/٢-٢٣٧ . روح المعاني : ٦٧/١٣ . فتح البيان : ٤١٥/٦-٤١٦ . محاسن التّأويل : ٣٦١٠/٩-٣٦١١ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٣٦١ .

(٣) مفتاح دار السّعادة : ١٥٤/١ .

ونفع العلم للدّعوة عظيم وخيره لها عميم ، فهو يحيي القلوب الميتة كما يحيي الغيث البلد الميّت ، وهكذا شبّهه النّبي ﷺ .

عن أبي موسى رضي الله عنه عن النّبي ﷺ قال : " مثل ما بعثني اللّه به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ[1] والعشب الكثير ، وكانت منها أجَادِب[2] أمسكت الماء فنفع اللّه بها النّاس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت منها طائفة أخرى إنّما هي قِيعَان[3] لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ . فذلك مثل من فقه في دين اللّه ونفعه ما بعثني اللّه به فعلم وعلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى اللّه الّذي أرسلت به "[4] .

فقد شبّه ﷺ العلم والهدى الّذي جاء به بالغيث ، لما يحصل بكّل واحد منهما من الحياة والمنافع والأغذية والأدوية ، وسائر مصالح العباد فإنّها بالعلم والمطر . وشبّه القلوب بالأراضي الّتي يقع عليها المطر ، لأنّها المحل الّذي يمسك الماء فينبت

(١) الكلأ : هو العشب سواء كان رطباً أو يابساً. انظر: النّهاية في غريب الحديث:٤/١٩٤.

(٢) أجادب : الأجادب صلاب الأرض الّتي تمسك الماء فلا تشربه سريعاً . وقيل : هي الأرض التي لا نبات بها ، مأخوذ من الجدب وهو القحْط . النّهاية في غريب الحديث: ١/٢٤٢-٢٤٣.

(٣) قيعان : القيعان جمع قاع والقاع أرض حرّة لا رمل فيها ، ولا يثبت فيها الماء لاستوائها ، ولا غدر فيها تمسك الماء ، فهي لا تنبت الكلأ ولا تمسك الماء . غريب الحديث لابن الجوزي: ٢/٢٧٤. وانظر النّهاية في غريب الحديث: ٤/١٣٢-١٣٣.

(٤) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب العلم: (٣). باب فضل من علم وعلّم: (٢٠). برقم : (٧٩). ص: ٣٥. صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب الفضائل: (٤٣). باب بيان مثل ما بعث النّبي ﷺ من الهدى والعلم: (٥). برقم : (٢٢٨٢). ٤/١٧٨٧-١٧٨٨.

سائر أنواع النّبات النّافع ، كما أنّ القلوب تعي العلم فيثمر فيها ويزكـــو ، وتظـــهر بركته وثمرته(١) .

قال لقمان (رحمه الله) (٢) لابنه :

" يا بني جالسّ العلماء وزاحمهم بركبتيك فإنّ اللّه سبحانه يحيي القلوب بنور

(١) مفتاح دار السّعادة : ٦٠/١ . وانظر شرحاً قيّماً للحديث في : المفهم : ٨٣/٦-٨٤ . شـــرح النّـــووي علـــى مســـلم : ٤٧/١٥-٤٨ . فتـــح البـــاري : ٢٣٨/١ . طريـــق الهجرتـــين . ص : ١٧٢-١٧٣ .
قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) في قولـــه تعـــالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرّعد:١٧] قال :
" فشبّه العلم بالماء المترّل من السّماء لأنّ به حياة القلوب ، كما أنّ بالماء حياة الأبدان ، وشبّه القلوب بالأوديـــة لأنّها محلّ العلم كما أنّ الأودية محلّ الماء . فقلب يسع علماً كثيراً وواد يسع ماء كثيراً ، وقلب يسع علمـــاً قليـــلاً وواد يسع ماء قليلاً . وأخبر تعالى أنّه يعلو على السّيل من الزّبد بسبب مخالطة الماء ، وأنّه يذهـــب جفـــاء ، أي : يرمى به ويخفى ، والّذي ينفع النّاس يمكث في الأرض ويستقر ، وكذلك القلوب تخالطها الشّهوات والشّبهات فإذا ترابى فيها الحقّ ثارت فيها تلك الشّهوات والشّبهات ، ثمّ تذهب جفاء ويستقر فيها الأيمان والقرآن الّـــذي ينفـــع صاحبه والنّاس " . مجموع الفتاوى : ٩٤/١٩-٩٥

(٢) لقمان : هو لقمان بن عنقاء بن سدون .ويقال : لقمان بن ثاران . وكان نوبيّاً من أهل أيلة ، وكـــان رجـــلاً صالحاً ذا عبادة وعبارة وحكمة عظيمة . ويقال : كان قاضياً في زمن داود عليه السّلام .
عن عكرمة عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) قال كان : " عبداً حبشيّاً نجّاراً " . وعـــن ســـعيد بـــن المسـيّب (رحمه الله) قال: " كان لقمان من سودان مصر ، ذو مشافر ، أعطاه اللّه الحكمة ومنعه النّبوّة " . وعن عكرمـــة (رحمه الله) أنّه قال : " كان لقمان نبيّاً " . وهذا ضعيف . والمشهور عن الجمهور أنّه كان حكيماً وليّاً و لم يكـــن نبيّاً . وقد ذكره اللّه تعالى في القرآن فأثنى عليه ، وحكى من كلامه فيما وعظ به ولده . انظر : البداية والنّهايـــة : ١٢٣/٢-١٢٦ . وانظر : البدء والتّاريخ : ١٠٢/٣-١٠٣ .

الحكمة كما يحيي الأرض بوابل(١) السّماء " (٢) .

فحاجة الدّاعية إلى العلم الّذي يحيى به قلبه وقلوب العباد كحاجة الأرض إلى المطر ، بل هو أعظم من ذلك بكثير لعظيم نفع العلم .

قال الإمام أحمد(رحمه الله) :

" النّاس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطّعام والشّراب ، لأنّ الطّعام والشّراب يحتاج إليه في اليوم مرّة أو مرّتين ، والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس" (٣) .

ويبيّن الغزالي (رحمه الله) هذه الفضيلة فيقول :

" لأنّ العلم حياة القلوب من العمى ، ونور الأبصار من الظّلم ، وقوّة الأبدان من الضّعف ، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدّرجات العلى ، والتّفكر فيه يعدل الصّيام ، ومدارسته بالقيام ، به يطاع اللّه عزّ وجلّ وبه يعبد ، وبه يوحّد وبه يمجّد ، وبه يتورّع ، وبه توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو إمام والعمل تابعه ، يلهمه السّعداء ويحرمه الأشقياء " (٤) .

ولقد مدح اللّه رسله وذكر فضله ومنّته عليهم بما آتاهم من العلم لأنّ الرّسالة لا تتأتّى إلاّ به ، فقال عن خاتمهم ﷺ : ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾ ﴾ [النساء:١١٣].
وقال في يوسف عليه السّلام : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ

---

(١) الوابل : هو المطر الشّديد الضّخم القطر . لسان العرب: ١١/ ٧٢٠. القاموس المحيط: ص: ١٣٧٨. وانظر مختار الصّحاح : ص: ٧٠٧. المصباح المنير: ٢/ ٦٤٦.

(٢) إحياء علوم الدّين : ١/ ١٨ .

(٣) مفتاح دار السّعادة : ١/ ٦١ . وانظر : ١/ ٨١ .

(٤) إحياء علوم الدّين : ١/ ٢٢ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف:٢٢]. وقال في موسى عليه السّلام : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص:١٤]. وقال في عيسى عليه السّلام : ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [المائدة:١١٠]. وقال عن الخضر عليه السّلام : ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف:٦٥] . وقال عن داود وسليمان عليهما السّلام : ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء:٧٩][1] .

وقال عن إبراهيم عليه السّلام : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل:١٢٠]. والأمّة : هو المعلّم للخير ، أو الّذي اجتمعت فيه صفات الكمال من العلم والعمل ، أو هو الإمام الّذي يقتدى به[2] .

فاللّه سبحانه ربّى رسله بالعلم تهيئة لهم ليقوموا بالدّعوة إليه .

بل افتتح نبوّة محمّد ﷺ الّتي هي أصل دعوته بالعلم ، فكان أوّل ما أنزل عليه : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ [العلق:١-٥][3] .

---

(١) انظر : مفتاح دار السّعادة : ٥٧/١-٥٨ .

(٢) انظر : المرجع السّابق : ١٧٤/١. وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٩١٦/٢ .

(٣) قال سيّد قطب : " إنّها السّورة الأولى من هذا القرآن ، فهي تبدأ باسم اللّه . وتوجّه الرّسول ﷺ أوّل ما توجّه في أوّل لحظة من لحظات اتصاله بالملأ الأعلى ، وفي أوّل خطوة من خطواته في طريق الدّعوة الّتي اختير لها توجّهه إلى أن يقرأ باسم اللّه ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ [العلق:١] . في ظلال القرآن : ٣٩٣٨/٦ .

كما أثنى اللّه ورسوله ﷺ على أهل العلم القائمين به ، الدّاعين إليه ، المبلّغين له ، المحسنين إلى النّاس به ، وهم الأمناء الموكّلون بحفظ دينه ، والقيام بأمره ، والذّب عنه ، وهم خلفاء رسل اللّه في أممهم نصحاً وإرشاداً وتعليماً وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر .

فقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ﴾ [الزمر:٩] . وقال : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ ﴾ [المجادلة:١١] (١) . وقال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝ ﴾ [فاطر:٢٨]. والآيات في ذلك كثيرة جدّاً . وأمّا الأحاديث فمنها :

حديث معاوية ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : " من يرد اللّه به خيراً يفقّهه في الدّين " (٢) .

---

(١) انظر كلاماً قيّماً لشيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) في بيان رفع درجات العلماء . مجموع الفتاوى : ١٦/٤٨-٤٩ .

قال ابن عبد البر (رحمه الله) : " أنشدني أبو بكر قاسم بن مروان الورّاق لنفسه :

والعلم زين وتشريف لصاحبه *** أتت إلينا بذا الأنباء والكتب

والعلم يرفع أقواماً بلا حسب *** فكيف من كان ذا علم له حسب

فاطلب بعلمك وجه اللّه محتسباً *** فما سوى العلم فهو اللّهو واللّعب "

جامع بيان العلم . ص : ٩٧

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب العلم: (٣). باب من يرد اللّه به خيراً يفقّهه في الدّين: (١٣). برقم : (٧١). ص: ٣٢. وفي كتاب فرض الخمس: (٣٣/٥٧). باب قول اللّه تعالى: ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ﴾ [الأنفال:٤١] : (٧). برقم : (٣١١٦). ص: ٦٥٧. وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة: (٩٦/٧١). باب قول النّبي ﷺ " لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحقّ " : (١٠/١١). برقم : (٧٣١٢). ص: ١٥٣٧.

صحيح مسلم: بلفظه في: كتاب الزّكاة: (١٢). باب النّهي عن المسألة: (٣٣). برقم : (١٠٣٧). ٢/٧١٨-٧١٩. وفي كتاب الإمارة: (٣٣). باب قوله ﷺ : " لاتزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحقّ لايضرّهم من خالفهم: (٥٣). برقم : (١٠٣٧). ٣/١٥٢٤.

و حديث ابن مسعود ﷺ قال : قال النّبيّ ﷺ : " لا حسد[1] إلاّ في اثنتين : رجل آتاه اللّه مالاً فسلّط على هلكته في الحقّ ، ورجل آتاه اللّه الحكمة فهو يقضي بها ويعلّمها " [2] .

و حديث أبي الدّرداء ﷺ قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : " من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سلك اللّه به طريقاً إلى الجنّة ، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم ، وإنّ العالم ليستغفر له من في السّماوات ومن في الأرض حتّى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ،

---

(١) لاحسد إلاّ في اثنتين : المراد بالحسد ها هنا الغبطة ، وهي أن يتمنّى الإنسان مثل ما للإنسان . وأمّا الحسد فهو أن يتمنّى زوال ذلك عن المحسود وإن لم يحصل له .
غريب الحديث لابن الجوزي: ٢١٢/١. انظر : النّهاية في غريب الحديث: ٣٨٣/١.

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب العلم: (٣). باب الاغتباط في العلم والحكمة: (١٥). برقم : (٧٣). ص: ٣٣. وفي كتاب الزّكاة: (٢٤/٧). باب إنفاق المال في حقّه: (٥). برقم : (١٤٠٩). ــ إلاّ إنّه قال : "حكمة" ــ ص: ٢٩٧. وفي كتاب الأحكام: (٩٣/٦٨). باب أجر من قضى بالحكمة: (٣). برقم : (٧١٤١) ــ إلاّ إنّه قال : " حكمة" ــ ص: ١٥٠٤. و بلفظ مقارب في: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة: (٩٦/٧١). باب ما جاء في اجتهاد القضاة بما أنزل اللّه تعالى: (١٣/١٤). برقم : (٧٣١٦). ص: ١٥٣٨. وبمعناه في كتاب فضائل القرآن : (٦٦/٤٠). باب اغتباط صاحب القرآن : (٢٠). برقم : (٥٠٢٥). عن ابن عمر (رضي الله عنهما). و برقم : (٥٠٢٦). عن أبي هريرة ﷺ . ص: ١١٠٨. وفي كتاب التّمنّي: (٩٤/٦٩). باب تمنّي القرآن والعلم: (٥). برقم : (٧٢٣٢). ص: ١٥٢٣. وفي كتاب التّوحيد: (٩٧/٧٢). باب قول النّبي ﷺ : " رجل آتاه اللّه القرآن فهو يقوم به آناء اللّيل والنّهار" : (٤٥). برقم : (٧٥٢٨) عن أبي هريرة ﷺ . و برقم : (٧٥٢٩) عن ابن عمر (رضي الله عنهما). ص: ١٥٨٢.
صحيح مسلم: بلفظه ــ إلاّ إنّه قال: " فسلّطه " وقال : "حكمة" ــ في كتاب صلاة المسافرين وقصرها: (٦). باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه : (٤٧). برقم : (٨١٦). عن ابن عمر (رضي الله عنهما). ٥٥٩/١. وبمعناه عنه برقم : (٨١٥). ٥٥٨/١.

إنّ العلماء ورثة الأنبياء ، إنّ الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً إنّما ورّثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظٍّ وافر " (١) .

وحديث عثمان بن عفان ﷺ عن النّبي ﷺ قال : " خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه " (٢) . والأحاديث في ذلك كثيرة أيضاً .

---

(١) سنن أبي داود: بلفظ مقارب في: كتاب العلم: (٢٤). باب الحثّ على طلب العلم: (١). برقم : (٣٦٤١).

قال الألباني (رحمه الله): " صحيح ". ص: ٤٠٣.

سنن التّرمذي: بلفظه في: كتاب العلم: (٣٨). باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة: (١٩). برقم : (٢٦٨٢).

قال الألباني (رحمه الله): " صحيح ". ص: ٤٣٤.

سنن ابن ماجه: بلفظ مقارب في: المقدّمة. باب فضل العلماء والحثّ على طلب العلم: (١٧). برقم : (٢٢٣).قال الألباني (رحمه الله): " صحيح ". ص: ٣٩.

سنن الدّارمي: بلفظ مقارب في: باب فضل العلم والعالم . ١١٠/١.

مسند أحمد: بلفظ مقارب في: ١٩٦/٥.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: بلفظ مقارب في: باب ذكر وصف العلماء الّذين لهم الفضل الّذي ذكرنا. برقم : (٨٨). قال شعيب الأرناؤوط : " حديث حسن". ٢٨٩/١.

هذا حديث عظيم يدلّ على أنّ طلب العلم أفضل الأعمال ، وأنّه لا يبلغ أحد رتبة العلماء ، وأنّ رتبتهم ثانية عن رتبة الأنبياء . المفهم : ٦٨٥/٦ .

وقوله : " وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم " : ذلك أنّ العبد إذا طلب العلم فقد سعى في أعظم ما ينصح به عباد اللّه ، فلأجل ذلك تحبّه الملائكة وتعظّمه حتّى تضع أجنحتها له رضاً ومحبّة وتعظيماً .

انظر : مفتاح دار السّعادة : ٦٣/١.

وتخصيص العلماء بأنّهم ورثة الأنبياء بالعلم دون العبّاد مع أنّ العبّاد ورثوا منه ما صاروا به عبّاداً لأنّ العلماء نابوا عنه ﷺ في حمل العلم وتبليغه ، وإرشاد الأمّة وهدايتها ، لأنّهم هم الّذين يعلمون مصالح الأمّة بعده ، والذّابون عن سنّته ، الحافظون لشريعته ، فهم أولى بالإرث والنّيابة عنه لتعدّي نفعهم ، وأمّا العبّاد فقد قصر نفعهم ، وقلّ منه حظّهم . انظر : المفهم : ٦٨٦/٦ . مفتاح دار السّعادة : ٦٦/١ .

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب فضائل القرآن : (٤٠/٦٦). باب خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه: (٢١). برقم : (٥٠٢٧). و نحوه برقم : (٥٠٢٨). ص: ١١٠٨.

قال الإمام أحمد (رحمه الله) :

" الحمد لله الّذي جعل في كلّ زمان فترة من الرّسل بقايا من أهـــل العلـــم ، يدعون من ضلّ إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، يحيـــون بكتـــاب اللّــه الموتى ، ويبصّرون بنور اللّه أهل العمى ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم من ضال تائه قد هدوه ، فما أحسن أثرهم على النّاس ، وأقبح أثر النّاس عليهم ، ينفــون عن كتاب اللّه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين " (١) .

وقال ابن القيّم (رحمه الله) بعد ذكره طبقات الرّسل والأنبياء عليهم السّلام :

" الطّبقة الرّابعة : ورثة الرّسل وخلفاؤهم في أممهم ، وهم القائمون بما بعثوا به علماً وعملاً ودعوة للخلق إلى اللّه على طريقهم ومنهاجهم ، وهذه أفضل مراتــب الخلق بعد الرّسالة والنّبوّة ... وهؤلاء هم الرَّبَّانيُّون (٢) وهم الرّاسخون في العلـــم ، وهم الوسائط بين الرّسول وأمّته ، فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبــه وخاصّتــه وحملــة دينه " (٣) .

فإذا علم الدّاعية ما يتبوّأه العلم وأهله من مكانة عظمى ، وأهميّة بالغة حرص كلّ الحرص على الاستقاء منه ، ووطّد صلته بـــالأصلين والمنبعيـــن الصّـــافيين ،

---

(١) الرّد على الزّنادقة والجهمية . للإمام أبي عبد الله أحمد بن محمّد بن حنبل . تحقيق : محمّد حسن راشد . المطبعـــة السّلفيّة . القاهرة . ١٣٩٣هـــ : ص : ٦ .

(٢) الرَّبّانيّون : جمع الرّبّاني : منسوب إلى الرّب لأنّه خصّ بعلمه دون غيره .

قال ابن الأعرابي (رحمه الله) : " الرّبّاني : العالم المعلّم الّذي يغذّي النّاس بصغار العلم قبل كباره " . وقال محمّد بــن عليّ بن الحنفيّة (رحمه الله) لّما مات عبد اللّه بن عبّاس (رضي اللّه عنهما) : " اليوم مات ربّـــاني هـــذه الأمّـــة" . وروي عن عليّ ﷺ أنّه قال : " النّاس ثلاثة : عالم ربّاني ، ومتعلّم على سبيل نجاة ، وهمج رعـــاع أتبـــاع كـــلّ ناعق ". فالرّبّاني هو العالم الرّاسخ في العلم والدّين ، أو الّذي يطلب بعلمه وجه اللّه . وقيل : العالم العامل المعلّم. وقيل : الرّبّاني : العالي الدّرجة في العلم . لسان العرب: ٤٠٤/١. بتصرّف.

(٣) طريق الهجرتين . ص : ٥١٦-٥١٧ .وانظر : تقسيمه (رحمه الله) إلى أهل العلم وحصره إيّـــاهم في قســـمين : حفّاظ حديث وفقهاء أسلام ، وفضل كلّ منهما في تبليغ دين اللّه . أعلام الموقّعين : ٨/١-٩ .

كتاب اللّه وسنّة رسوله ، حفظاً وفهماً ، ونال قسطاً وافراً منهما ليتمكّن به من دفع سفينة الدّعوة ، ويضمن استمرارية سيرها وعدم توقّفها .

وكلّما نقص علم الدّاعية أو قلّ وجود العلم النّافع عنده أبطأ به السّير ، ووقف به المسار ، بل لعله يتراجع إلى الوراء فيكون عبأ على دعوة اللّه .

والدّاعية يجب عليه أن يكون عالماً بالمعروف الّذي يأمر به والمنكر الّذي ينهى عنه[1] . حتّى لا يكون عرضة للخطأ والتّخليط ، فلا يفرّق بين الواجب والمستحب ، والحرام والمكروه ، والبدعة والسّنّة .

وأن يكون ملمّاً بحال المأمورين وحال المنهيين لتعدّد أصنافهم ، وتباين أحوالهم ، فمنهم المقارب ومنهم المباعد ، ولكلّ سبيل إلى إيصال الحقّ له . فيكون على بيّنة من أمرهم حتّى يسلك في دعوتهم ما يليق بأحوالهم ، وماذا يقدّم لهم ؟ وماذا يؤخّر عنهم ؟ مبتدئاً بالأهم فالأهم .

ففي حديث معاذ ﷺ عندما بعثه رسول اللّه ﷺ إلى اليمن قال : " إنّك تقدم على قوم أهل الكتاب فليكن أوّل ما تدعوهم إليه عبادة اللّه " الحديث[2] .

---

(١) انظر : الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر . ص : ٣١ .

(٢) هذا جزء من حديث في:

صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الزّكاة: (٢٤/٧). باب لاتؤخذ كرائم أموال النّاس في الصّدقة : (٤١). برقم : (١٤٥٨). ص: ٣٠٨. ونحوه : في باب أخذ الصّدقة من الأغنياء وتردّ في الفقراء حيث كانوا: (٦٣). برقم : (١٤٩٦). ص: ٣١٧. وفي كتاب المغازي: (٦٤/٣٨). باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجّة الوداع: (٦١/٦٠). برقم : (٤٣٤٧). ص: ٩٠٤. وفي كتاب التّوحيد: (٩٧/٧٢). باب ما جاء في دعاء النّبي ﷺ أمّته إلى توحيد اللّه تبارك وتعالى: (١). برقم : (٧٣٧٢). وقال: "أوّل ما تدعوهم إلى أن يوحّدوا اللّه تعالى". ص: ١٥٤٨.برقم : (١٩). ١/٥١.

صحيح مسلم : بلفظه ونحوه في : كتاب الإيمان : (١) . باب الدّعاء إلى الشّهادتين وشرائع الإسلام : (٧) . برقم : (١٩) . ١/٥٠-٥١ .

قال أبو العبّاس القرطبي (رحمه الله) :

" يعنى به اليهود والنّصارى لأنّهم كانوا في اليمن أكثر من مشركي العرب ، أو أغلب ، وإنّما نبّهه على هذا ليتهيّأ لمناظرتهم ، ويعدّ الأدلّة لإفحامهم ، لأنّهم أهل علم سابق بخلاف المشركين وعبدة الأوثان " (١) .

قال ابن مسعود ﷺ :

" ما أنت بمحدّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلاّ كان لبعضهم فتنة " (٢) .

وقال علي ﷺ :

" حدّثوا النّاس بما يعرفون ، أتحبّون أن يكذّب اللّه ورسوله " (٣) .

ففي الحديث والأثرين دلالة على معرفة أحوال المدعوّين.

وعلي الدّاعية أن يكون عالماً أيضاً بالطّريق الّذي يسلكه ، والسّبيل الّذي يصل به إلى قلوبهم، والكيفيّة الّتي تتمّ بها دعوتهم ، والأسلوب الّذي يوجّه به الدّعوة إليهم، والّذي يكون ملائماً لأحوالهم .

وفهم الدّاعية واطّلاعه على البيئة الّتي يعيش فيها ، وأحوالها وظروفها له أهميّته القصوى في إيصال الدّعوة إلى من حوله ، واستمراره على العطاء والبذل .

---

(١) المفهم : ١/١٨١ .

(٢) صحيح مسلم: بلفظه في: المقدّمة. باب النّهي عن الحديث بكلّ ما سمع : (٣). برقم : (٥). ١/ ١١.

(٣) صحيح البخاري: بلفظه ــ معلّقاً ــ في كتاب العلم: (٣). باب من خصّ بالعلم قوماً دون قوم كراهيّة أن لا يفهموا: (٤٩). ص: ٤٦.

قال ابن كثير (رحمه الله) في قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ ﴾ [الأعلى:٩] :

" أي ذكّر حيث تنفع التّذكرة ، ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم فلا يضعه عند غير أهله كما قال أمير المؤمنين علي ﷺ . .. " . فذكر القول أعلاه . تفسير القرآن العظيم : ٤/٧٨٩ .

فثقافته الواعية ، وإلمامه بمن حوله ، ونضجه وإدراكه ، ووعيه المتجدّد الّـذي يستوعب من خلاله حاجة المجتمع والمدعوّيين ، ويفي بمتطلّبات الدّعوة، ومعرفتـه بدعوات الشرّ من حوله وما فيها من سقطات وهنّات .

وكلّ هذه أمور مهمّة يجب أن تضاف إلى حصيلة علم الدّاعية لأنّها تعين على ثباته واستمراره في دعوته.

والعلم لايعين الدّاعية على الثّبات إذا اعترضه أمران . كـلّ منهما مفسد للدّاعية ، مقوّض لدعوته ، مؤرجح لثباته . لايستقر له معهما قرار ، ولا تثبت في الدّعوة معهما له قدم . ولذلك حذّر منهما الشّارع الحكيم أيّما تحذير، وشنّع بمن تلبّس بهما أيّما تشنيع. أتناولهما بالحديث في مطلبين :

﴿المطلب الأوّل﴾

كتمان العلـــم

قال الله عزّ وجــلّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [البقرة:١٥٩-١٦٠].

ذكر بعض أهل العلم أنّ الآية تعني اليهود والنّصارى الّذين كتموا أمر محمّـد ﷺ مع وجوده في التّوراة والإنجيل ، فيكون حكمها خاصّاً بأولئك دون غيرهم .

والصّحيح أنّها لا تقصر عليهم وإن كانوا سبب نزولها ، بل تجرّ بذيلها إلـى كلّ من كتم شيئاً من دين اللّه ووجب عليه تبليغه وبيانه[١] . إذ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب[٢] .

قال ابن جرير (رحمه الله) :

" وهذه الآية وإن كانت نزلت في خاصٍّ من النّاس ، فإنّها معنيٌّ بها كلّ كـاتم علماً فرض اللّه تعالى بيانه للنّاس "[٣] .

---

(١) قال الرّازي : " قال القاضي : " الكتمان ترك إظهار الشّيء مع الحاجة إليه ، وحصول الدّاعي إلى إظهاره لأنّـه متى لم يكن كذلك لا يعدّ كتماناً ، فلمّا كان ما أنزله اللّه من البيّنات والهدى من أشدّ ما يحتاج إليه في الدّيـن ، وصف من علمه و لم يظهره بالكتمان " . التّفسير الكبير : ١٦٣/٤ .

(٢) هذه قاعدة أصوليّة تفيد أنّه إذا ورد حكم بلفظ عامّ على سبب خاصّ فإنّه يعتبر بعموم لفظ الحكـم ، ولايعتـبر بخصوص سببه . وهنالك خلاف في المسألة مرجوح . وانظر: المستصفى: ٢٣٦/١. المحصول في علم الأصـول . لمحمّد بن عمر بن الحسين الرّازي . تحقيق : طه جابر فيّاض العلواني . طبعة : جامعة الإمام محمّـد بـن سعود الإسلاميّة . الرّياض . الطّبعة الأولى : ١٤٠٠هـ : ١٨٩/٣-١٩٠. إرشاد الفحول: ٢٣٠/١.

(٣) جامع البيان : ٥٣/٢ .

وقال ابن كثير (رحمه الله) :

" هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرّسل من الدّلالات البيّنة على المقاصد الصّحيحة ، والهدى النّافع للقلوب من بعد ما بيّنه اللّه تعالى لعباده في كتبه الّتي أنزلها على رسله " (١) .

فهؤلاء معرَّضون للعنة اللّه والإبعاد والطّرد من رحمته ، ولعنة جميع من يقع منه اللّعن لغشّهم لعباد اللّه ، ومعاندتهم لأمره بإظهار دينه ، وسعيهم في إخفائه وطمسه ، إلاّ إذا رجعوا عمّا فعلوا ، وأصلحوا ما أفسدوا ، وبيّنوا ما كتموا (٢) .

ويماثل الآية قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [البقرة:١٧٤-١٧٥].

فهي متضمّنة أيضاً الوعيد الشّديد للكاتمين لما أنزل اللّه ، المؤثرين عليه عرض الدّنيا ، فلهم من اللّه العذاب العظيم والسّخط الأليم ، وأنّ اللّه لا يوفّقهم ولا

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٢٩٨/١ .

قال ابن العربي (رحمه الله) : " استدلّ بها علماؤنا على وجوب تبليغ الحقّ وبيان العلم على الجملة " . أحكام القرآن : ٤٨/١ . وهذا يفيد عمومها أيضاً .

(٢) انظر معنى الآيتين في : جامع البيان : ٥٢/٢-٥٧ . التّفسير الكبير : ١٦٢/٤-١٦٦ . الجامع لأحكام القرآن : ١٨٤/٢-١٨٧ . تفسير القرآن العظيم : ٢٩٨/١-٢٩٩ . الجواهر الحسان : ١٢٤/١-١٢٥ . روح المعاني : ٢٦/٢-٢٨ . فتح البيان : ٣٢٣/١-٣٢٥ . محاسن التّأويل : ٣٥١/٣-٣٥٢ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٥٩-٦٠ .

يغفر لهم يوم القيامة لإيثارهم الضّلالةِ على الـهدى ، والعـذاب علـى المغفـرة فليصبروا على شدّة النّار(١) .

وسرّ ذلك أنّ اللّه تعالى قد أخذ العهد الثّقيل المؤكّد من أهل العلم أن يبلغوه ولا يكتمونه ، ويظهروه ولا يخفونه ، ويوضحوه ولا يسترونه .

فقال سـبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٧].

فهو سبحانه أخذ العهد من أهل الكتاب أن يبيّنوا الحقّ فكتموه ، واعتاضوا عنه بالدّون الطّفيف ، والحظّ السّخيف ، فبئست صفقتهم وبيعتهم .

وفي هذا تحذير لأهل العلم أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم ، فيقعوا في الهلكة . فعليهم أن يبذلوا ما بأيديهم من علم نافع ولا يكتمون منه شيئاً (٢) .

---

(١) انظر : تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٦٥ . وانظر : جامع البيان : ٢/٨٩-٩٢ . التّفسير الكبـير : ٥/٢٥-٣٢ . الجامع لأحكام القرآن : ٢/٢٣٤-٢٣٥ . تفسـير القـرآن العظيـم : ١/٣٠٧-٣٠٨ . الجواهـر الحسـان : ١/١٣٠-١٣١ . روح المعاني : ٢/٤٣-٤٤ . فتح البيان : ١/٣٤٥-٣٤٦ . محاسن التّأويل : ٣/٣٨٤-٣٨٥ .

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم : ١/٦٥٥ .. وانظـر : جـامع البيـان : ٤/٢٠٢-٢٠٥ . التّفسـير الكبـير : ٩/١٢٩-١٣١ . الجواهر الحسان : ١/٣١٥ . روح المعاني : ٤/١٤٩-١٥٠ . فتح البيـان : ٢/٣٩٥-٣٩٧ . محاسن التّأويل : ٤/١٠٦١-١٠٦٢ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ١٢٧ .

قال الزّمخشري : " كفى به ـــ أي بهذه الآية ـــ دليلاً على أنّه مأخوذ على العلماء أن يبيّنوا الحقّ للنّـاس وما علموه ، وأن لا يكتموا منه شيئاً لغرض فاسد من تسهيل على الظّلمة ، وتطييب لنفوسهم ، واستجلاب لمسـارّهم، أو لجرّ منفعة وحطام الدّنيا ، أو لتقية ممّا لا دليل عليه ولا أمارة ، أو لبخل بالعلم وغيرة أن ينسب إليه غيرهم " الكشّاف : ١/٤٨٦ . طبعة الحلبي .

عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : " من سئل عن علـــم فكتمــه ألجمه اللّه بلجام[1] من نار يوم القيامة " [2] .

فالملجم نفسه عن قول الحقّ والإخبار عن العلم يُعاقب في الآخرة بلجام مـــن نار ، وذلك في العلم الّذي يلزمه تعليمه إيّاه ، ويتعيّن عليه فرضه [3] .

فنشر الدّعوة وإبلاغ العلم واجب في حدود ما وصل إليه من العلم ، وبقدر ما يستطيع ، إذ لا يكلّف اللّه نفساً إلاّ وسعها .

وقد خاف السّلف من مغبّة الكتمان لما يترتّب عليه من آثام وعواقب ، ولـــذا سارعوا ببيان الدّين وإبلاغه .

---

(١) قال ابن الأثير (رحمه الله):

" الممسك عن الكلام ممثّل بمن ألجم نفسه بلجام ، والمراد بالعلم ما يلزمه تعليمه ويتعيّن عليه ، كمن يرى رجـــلاً حديث عهد بالإسلام ولا يحسن الصّلاة وقد حضر وقتها فيقول علموني كيف أصلّي ، وكمن جـــاء مســتفتياً في حلال أو حرام فإنّه يلزم في هذا وأمثاله تعريف الجواب ، ومن منعه استحقّ الوعيد" .

النّهاية في غريب الحديث: ٢٣٤/٤.

(٢) سنن أبي داود: بلفظه في : كتـــاب العلـــم : (٢٤) بـــاب كراهيّـــة منـــع العلـــم: (٩). برقـــم: (٣٦٥٨).

قال الألباني (رحمه الله): " حسن صحيح ". ص:٤٠٤.

سنن التّرمذي: بلفظ مقارب في: كتاب العلم: (٣٨). باب ما جاء في كتمان العلـــم: (٣). برقـــم: (٢٦٤٩).

وقال: " حديث حسن". وقال الألباني (رحمه الله): " صحيح ". ص: ٤٢٩.

سنن ابن ماجه: بلفظ مقارب في: المقدّمة. باب من سئل عن علم فكتمه: (٢٤). برقم: (٢٦٤). عن أنـــس ﷺ . قال الألباني (رحمه الله): " صحيح". و برقم: (٢٦٦). عن أبي هريرة ﷺ . قال الألباني (رحمه الله): " صحيـــح". و نحوه برقم: (٢٦١). عن ابي هريرة ﷺ أيضاً. قال الألباني (رحمه الله): " حسن". و برقم: (٢٦٥). عـــن أبي سعيد ﷺ . قال الألباني (رحمه الله): " ضعيف جدّاً". ص: ٤٣.

مسند أحمد: بلفظه ـــ وزاد في اسم الجلالة " عزّ وجلّ" ـــ في: ٣٤٤/٢. و بلفظ مقـــارب في: ٢٦٣/٢، ٣٠٥، ٣٥٣، ٤٩٥. و نحوه في: ٢٩٦/٢، ٤٩٩، ٥٠٨. قال أحمد شاكر (رحمه الله): " إسناده صحيح ". مسند أحمـــد بتحقيق أحمد شـــاكر: ١٤/ ٦-٧. برقـــم: (٧٥٦١) ، ١٥/ ٨٧. برقـــم: (٧٩٣٠) ، ١٥/ ١٩٤. برقـــم: (٨٠٣٥)، ٢٠/ ٩٨. برقم: (١٠٤٢٥) ، ٢٠/ ١١٩. برقم: (١٠٤٩٢)، ١٥٥/٢٠. برقم: (١٠٦٠٥).

(٣) جامع الأصول : ١٢/٨.

قال أبو هريرة ﷺ :

" إنّ النّاس يقولون : أكثر أبو هريرة ، ولولا آيتان في كتاب اللّه ما حدّثت حديثاً . ثمّ يتلو : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ إلى قوله ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ إنّ إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصّفْقُ [1] بالأسواق ، وإنّ إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم ، وإنّ أبا هريرة كان يلزم رسول اللّه ﷺ بشبع بطنه ، ويحضر ما لا يحضرون ، ويحفظ ما لا يحفظون " [2] .

---

(١) الصّفق : هو البيع . وقيل للبيع صفقة لضرب اليد على اليد عند عقد البيع .

انظر: الفائق: ٥١/٤.. غريب الحديث لابن الجوزي: ٥٩٤/١. النّهاية في غريب الحديث: ٣٨/٣.

(٢) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب العلم: (٣). باب حفظ العلم: (٤٢). برقم: (١١٨). ص: ٤٣. و نحوه في: كتاب البيوع: (٣٤/١٠). باب ما جاء في قول اللّه تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الجمعة:١٠] وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴾ [النّساء:٢٩] : (١). برقم: (٢٠٤٧). ص: ٤٢٥. وفي كتاب الحرث والمزارعة: (١٧/٤١). باب ما جاء في الغرس: (٢١). برقم: (٢٣٥٠). ص: ٤٨٦-٤٨٧. وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة: (٧١/٩٦). باب الحجّة على من قال : إنّ أحكام النّبي ﷺ كانت ظاهرة: (٢٣/٢٢). برقم: (٧٣٥٤). ص: ١٥٤٤.

صحيح مسلم: نحوه في: كتاب فضائل الصّحابة: (٤٤). باب من فضائل أبي هريرة الدّوسي ﷺ : (٣٥). برقم: (٢٤٩٢). ١٩٣٩/٤-١٩٤٠.

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله) : " ومعناه : لولا أنّ اللّه ذمّ الكاتمين للعلم ما حدّث أصلاً ، لكن لمّا كان الكتمان حراماً وجب الإظهار " . فتح الباري : ٢٨٩/١ .

وقال أبو ذر ﷺ :

" لو وضعتم الصّمصامة [١] على هذه – وأشار إلى قفاه – ثمّ ظننت أنّي أُنْفِـذ كلمة سمعتها من النّبي ﷺ قبل أن تُجِيزُوا عليّ لأنْفَذْتُها " [٢] .

وقال القاسم بن محمّد[٣] (رحمه الله) :

" إنّكم تسألوننا عمّا لا نعلم ، واللّه لـو علمنـاه مـا كتمنـاه ، ولا اسـتحللنا كتمانه "[٤] .

---

(١) الصّمْصَامة : هو السّيف القاطع . النّهاية في غريب الحديث ٥٢/٣. وانظر: غريب الحديث للهروي: ١٠/٤.

(٢) صحيح البخاري: بلفظه ــ معلّقاً ــ في كتاب العلم: (٣). باب العلم قبل القول والعمل: (١٠). ص: ٣٢.
سنن الدّارمي: بلفظه ــ إلاّ إنه قال: " من رسول اللّه ﷺ " ــ في باب البلاغ عن رسول اللّه ﷺ وتعليم النّـاس. ١٤٦/١ .

(٣) هو القاسم بن محمّد بن أبي بكر الصّديق ، أبو عبد الرّحمن أو أبو محمّد القرشي التّيمي الإمام القـدوة ، مـن خيار التّابعين وفقهائهم . ثقة رفيع ، ورع ، كثير الحديث. أحد فقهاء المدينة السّبعة. قـال أيـوب السّـختياني: " ما رايت أفضل منه". توفي سنة: ١٠٦هـ على الصّحيح .
وانظر: الطّبقات الكبرى: ١٨٧/٥. طبقات خليفة: ص: ٢٤٤. التّاريخ الكبـير: ١٥٧/٧.معرفـة الثّقـات: ٢١١/٢ . الجرح والتّعديل: ١١٨/٧. ثقات ابن حبّان: ٣٠٢/٥.مشاهير علمـاء الأمصـار: ٦٣/١. التّعديـل والتّجريح: ١٠٦٠/٣. تهذيب الكمال: ٤٢٧/٢٣. تذكرة الحفّاظ: ٩٦/١. الكاشف: ١٣٠/٢. جامع التّحصيل: ص:٢٥٣. تهذيب التّهذيب: ٢٩٩/٨. تقريب التّهذيب: ٤٥١/١.

(٤) كتاب العلم . لأبي خيثمة زهير بن حرب النّسائي . تحقيق محمّد ناصر الدّين الألباني . الرّسـالة الثّالثـة ضمـن مجموعة رسائل من كنوز السّنّة . نشر وتوزيع دار الأرقم . الكويت . ص : ١٤٢ . وانظر : جامع بيان العلـم : ص : ٣٥٤ .

وقال ابن القاسم[1] *(رحمه الله)* :

" كنا إذا ودّعنا مالكاً يقول لنا : " اتّقوا اللّـــه ، وانشـــروا هـــذا العلـــم ، وعلّمـــوه ولا تكتموه " [2] .

والدّاعية إذا كتم علمه ولم يبلغه ذهب عنه ، لأنّ ثمرة العلم ومقصوده بثّه في الأمّة ، فهو كالكنز المدفون في الأرض فإذا لم ينفق منه ذهب ، فإذا أنفق منه نمـــا وزكا [3] . وهكذا شبّهه رسول اللّه ﷺ .

عن أبي هريرة ﷺ قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : " مثل الّذي يعلم العلم ولا يحدّث به كمثل رجل رزقه اللّه مالاً فلم ينفق منه " [4] .

---

(١) هو عبد الرّحمن بن القاسم بن خالد بن جناده ، أبو عبد اللّه العُتقي مولاهم ، فقيه الدّيار المصريّة ، تفقّـــه علـــى الإمام مالك (رحمه الله) . ثقة ، صالح ، إمام في الورع والزّهد .توفي سنة: ١٩١هـــ.
و انظر: الجرح والتعديل: ٢٧٩/٥. ثقات ابن حبّان: ٣٧٤/٨. التعديل والتجريح: ٨٧٦/٢. تهذيب الكمـــال: ٣٤٤/١٧. تذكرة الحفّاظ: ٣٥٦/١. الكاشف: ٦٤٠/١. تهذيـــب التـــهذيب: ٢٢٧/٦. تقريـــب التـــهذيب: ٣٤٨/١.

(٢) جامع بيان العلم : ص : ١٩٥ .

(٣) انظر : مفتاح دار السّعادة : ٧٢/١ .

(٤) كتاب العلم لأبي خيثمة : ص : ١٤٧ . قال الألباني (رحمه الله) : " حديث حسن " هامش (٨٠) .

وفي ذلك يقول الألبيري (رحمه الله) :

وكنز لا تخاف عليه لصّاً ******* خفيف الحمل يوجد حيث كنت
يزيد بكثرة الإنفاق منه ******* وينقـــص إن به كفّـــاً شددت .

ديوان أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود الألبيري . تحقيق : محمّد رضوان الدّاية . طبعة : دار قتيبـــة . دمشـــق . الطّبعة الثّانية : ١٤٠١هـــ ـــ ١٩٨١م : ص : ٢٦ .

وكتب عمر بن عبد العزيز (رحمه الله) إلى أبي بكر بن حزم (رحمه الله)(١) :

" انظر ما كان من حديث رسول اللّه ﷺ فاكتبه ، فإنّي خفت دروس العلم وذهاب العلماء . ولا تقبل إلاّ حديث النّبي ﷺ . ولتُفْشوا العلم ، ولتجلسوا حتّى يُعلَّمَ من لا يَعلَمُ ، فإنّ العلم لا يهلك حتّى يكون سرّاً " (٢) .

فمتى ما كتم الدّاعية ما معه من العلم ذهب علمه ، وذهبت دعوته تبعاً لذلك ، فآل أمره إلى السّقوط ، وحاله إلى الضّياع ، فلا يبقى له ثبات البتّة ، ولا تستمر له دعوة .

---

(١) هو أبو بكر بن محمّد بن عمرو بن حزم الأنصاري ، قاضي المدينة. اسمه كنيته . وقيل: كنيته أبو محمّد . ثقة عابد من سادات التّابعين . توفي سنة: ١٢٠هـ .

وانظر: طبقات خليفة: ص:٢٥٧. الجرح والتّعديل: ٣٣٧/٩. ثقات ابن حبّان: ٥٦١/٥. مشاهير علماء الأمصار: ٧٦/١. التّعديل والتّجريح: ١٢٥٥/٣. الكاشف: ٤١٢/٢. تهذيب التّهذيب: ٤٠/١٢. تقريب التّهذيب: ٦٢٤/١.

(٢) صحيح البخاري : بلفظه ــ معلّقاً ــ : كتاب العلم: (٣). باب كيف يقبض العلم : (٣٤). ص: ٣٩.

﴿المطلب الثّاني﴾

القول على الله بغير علم

وهو من أعظم المحرّمات وأقبحها وأشنعها ، وأكبر طرق الشّيطان الّتي يدعو إليها ويكيد بها عباد الله ، ويبذل فيها كلّ ما يمكنه من مكر وخداع ليُغْوي الدّعاة إلى الله ، والخلق بها .

قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [البقرة:١٦٨-١٦٩] (١) .

قال ابن القيّم(رحمه الله):

" وقد حرّم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء ، وجعله من أعظم المحرّمات ، بل جعله في المرتبة العليا منها فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف:٣٣] . فرتّب المحرّمات أربع مراتب ، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش ، ثمّ ثنّى بما هو أشدّ تحريماً منه وهو الإثم والظّلم ، ثمّ ثلّث بما هو أعظم تحريماً منهما وهو الشّرك به سبحانه ، ثمّ ربّع بما هو أشدّ تحريماً من ذلك كلّه وهو القول عليه بلا علم ، وهذا يعمّ القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه " (٢) .

---

(١) وانظر : تفسير القرآن العظيم : ٣٠٤/١ . تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٦٣ .

(٢) أعلام الموقّعين : ٣٨/١ .

وذكر الآية في موطن آخر ثمّ بيّن خطورة القول على اللّه بغير علم فقال :

" فهذا أعظم المحرّمات عند اللّه ، وأشدّها إثماً ، فإنّه يتضمّن : الكذب على اللّه ، ونسبته إلى ما لا يليق به ، وتغيير دينه وتبديله ، ونفي ما أثبته وإثبات ما نفاه ، وتحقيق ما أبطله وإبطال ما حقّقه ، وعداوة من والاه وموالاة من عاداه ، وحبّ ما أبغضه وبغض ما أحبّه ، ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله . فليس في أجناس المحرّمات أعظم عند اللّه منه ، ولا أشدّ إثماً ، وهو أصل الشّرك والكفر ، وعليه أسّست البدع والضّلالات ، فكلّ بدعة مضلّة في الدّين أساسها القول على اللّه بلا علم " (١) .

وهو مسلك من مسالك المشركين الّتي يحلّلون بها ويحرّمون بمجرد الوصف والرّأي ويكذبون بها على اللّه تعالى .

وقد حذّر سبحانه المؤمنين أن يسلكوا مسلكهم فيقعوا فيما وقع فيه أولئك ، فقال : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧ ﴾ [النحل:١١٦-١١٧].

فقدّم إليهم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه ، وقولهم لما لم يحرّمه : هذا حرام ، ولما لم يحلّه : هذا حلال . وهذا بيان منه سبحانه أنّه لا يجوز للعبد أن يقول هذا حلال وهذا حرام ، إلاّ بما علم أنّ اللّه سبحانه أحلّه أوحرّمه (٢) .

ويدخل في هذا كلّ من ابتدع بدعة ليس فيها مستند شرعي ، أو حلّل شيئاً ممّا حرّم اللّه ، أو حرّم شيئاً ممّا أباح اللّه بمجرد رأيه وتشهيه (٣) .

---

(١) مدارج السّالكين : ٣٧٢/١ .

(٢) أعلام الموقعين : ٣٨/١ .

(٣) تفسير القرآن العظيم : ٩١٥/٢ .

بل نهى عن تتبّع ما لا يعلمه الإنسان من الأقوال والأفعال ، وأمره بالتّحري والتّثبّت كي لايقول بغير علم ، ولا يتحدّث بغير معرفة ، حتّى لا يقع في المساءلة يوم القيامة فقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء:٣٦] (١) .

وقد حذّر رسول اللّه ﷺ من أناس أدعياء للعلم فارغين منه ، يتربّعون على مناصب أهل العلم فيرسلون الفتاوى ، ويصدرون الأحكام بالجهل والهوى فيَضلّون ويُضلّون .

عن عبداللّه بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : " إنّ اللّه لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتّى إذا لم يبق عالماً اتخذ النّاس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا " (٢) . فبسبب هؤلاء يرفع العلم من الأرض ، ويفشوا الجهل فيها، وما أكثرهم في الأمّة .

قوم اغتروا بأنفسهم فتقمّصوا أقمصة أهل العلم ، وعظّموا أنفسهم ، واغتر بهم العوام فتمسّحوا بأثوابهم وقبّلوا أيديهم ، وظنّوا الشّحم فيمن عنده ورم ، وهم بلاء على الأمّة وابتلاء لها (٣) .

ومنهم حدثاء أسنان ، سفهاء أحلام ، متطفّلون على العلم ، اقتحموه من غير بابه ، وتعلّقوا منه بغير أسبابه . حفظ أحدهم باباً من أبوابه ، أو أجاد مسألة من مسائله فظنّ أنّه حوى العلم كلّه ، وبلغ فيه منتهاه ، وزاده غروراً التفاف بعض الأحداث حوله ، فأعجبه مقامه ، فراح يأمر وينهى ، ويوقّع عن اللّه ورسوله ما

---

(١) وانظر : تيسير الكريم الرّحمن . ص : ٤٠٩ .

(٢) الحديث سبق تخريجه. انظر: ص : ١٣٥ .

(٣) وقد أجاد القرطبي (رحمه الله) في وصف أولئك في كتابه المفهم : ٣٧٥/٧ . فهو حري بالوقوف عليه .

ليس له به علم فيحدث من الشّغب والفتن ما يؤدّي إلــى إراقــة الدّمــاء، وإشــاعة الفوضى بين النّاس .

وقد كان ابن القيم (رحمه الله) عالماً بهؤلاء وشغبهم حين قال :

" أعلى الهمم في طلب العلم طلب علم الكتاب والسّــنّة ، والفــهم عــن اللّــه ورسوله نفس المراد ، وعلم حدود المنزّل .

وأخسّ همم طلاب العلم قصر همّته على تتبّع شواذ المسائل ، وما لم يــنزل ولا هو واقع . أو كانت همّته معرفة الاختلاف ، وتتبّع أقوال النّاس ، وليس له همّــة إلى معرفة الصّحيح من تلك الأقوال ، وقلّ أن ينتفع واحد من هؤلاء بعلمه " (١) .

وهؤلاء جهلوا العلم ، وعجزوا عن كيفية تلقيه ، ولذا أساءوا ولم يفلحوا .

وقد قال *لهم البخاري (رحمه الله)* من قبل معلّقاً على قول ابن عبّاس (رضــي الله عنهما): " كونوا ربّانيين حلماء فقهاء" . قال: " ويقال الرّبّانيّ الّذي يربّي النّــاس بصغار العلم قبل كباره".(٢)

فهو يتدرج في تلقي العلم على مهل وتروّي ، دون استعجال ولا ملل ، مبتدئاً بالأهم فالمهم ، مع فهم مدرك وعقل مستوعب ، غير متجرّئ ولا متــهوّر ، يســير بخطى ثابتة وأقدام راسخة ، يبيّن ما علم ويسكت عمّا جهل ، همّــه بيــان الدّيــن وإيصال الحقّ لا رؤية نفسه ومدح النّاس . فذلك هو الرّبّاني .

---

(١) الفوائد . ص : ٦١.

(٢) صحيح البخاري : كتاب العلم : (٣). باب العلم قبل القول والعمل : (١٠). ص: ٣٢.

وقد كثر خوف السّلف رحمهم اللّه عن الفتوى ، أو القول في دين اللّه بمـــا لا يعلمون ، وتواردت الأنباء عنهم بذلك ممّا يكشف عن خطورة هذا المسلك .

قال عبد الرّحمن بن أبي ليلى (رحمه الله) (١) :

" أدركت عشرين ومائة من أصحاب رسول اللّه ﷺ من الأنصار ، ما فيهم أحد يسأل عن شيء إلاّ ودّ أنّ أخاه كفاه ، ولا يحدّث حديثاً إلاّ ودّ أنّ أخاه كفاه " (٢) .

وقال عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه :

"يا أيّها النّاس ، من علم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم . فليقل: اللّه أعلـــم ، فإنَّ مِنْ العِلْمِ أن يقول لِمَا لاَ يَعْلَم : اللّه أعلم . قال اللّه عزّ وجلّ لنبيّـــه ﷺ : ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَآ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [ص:٨٦]... الأثر. (٣) .

---

(١) عبد الرّحمن بن أبي ليلى : واسم أبي ليلى يسار ، أبو عيسى الأنصاري ، المدني ثمّ الكوفي ، الإمام الفقيـــه. مـــن كبار التّابعين وثقاتهم . ومن أصحاب عليّ رضي الله عنه . توفي سنة: ٨٣هـــ .
وانظر: الطّبقات الكبرى: ١٠٩/٦. طبقات خليفة: ص: ١٥٠. معرفة الثّقـــات: ٨٦/٢. الجـــرح والتّعديـــل: ٣٠١/٥. ثقات ابن حبّان: ١٠٠/٥. مشاهير علماء الأمصار: ١٠٢/١. تـــاريخ بغـــداد: ١٩٩/١٠. التّعديـــل والتّجريح: ٨٨١/٢. تهذيب الكمال: ٣٧٢/١٧. تذكرة الحفّاظ: ٥٨/١. الكاشف: ٦٤١/١. جامع التّحصيـــل: ص:٢٢٦. تهذيـــب التّـــهذيب: ٢٣٤/٦. تقريـــب التّـــهذيب: ٣٤٩/١. لســـان المـــيزان: ٢٨٤/٧، ٥٠٠ . إسعاف المبطأ : ص:١٩.

(٢) سنن الدّارمي: بلفظ مقارب في: باب من هاب الفتيا وكره التّنطّع والتّبدّع. ٦٥/١.
كتاب العلم لأبي خيثمة: بلفظه في : ص : ١١٤.

(٣) صحيح البخاري: بلفظه في : كتاب التّفسير: (٣٩/٦٥). باب ﴿ وَمَآ أَنَآ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص:٨٦] : (٣). برقم: (٤٨٠٩). ص: ١٠٣٩. و بلفظ مقارب في: بـــاب ﴿ فَلَا يَرْبُواْ ﴾ [الـــرّوم:٣٩] : (١/٠). برقم: (٤٧٧٤). ص: ١٠٢٨. و نحـــوه في: بـــاب ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الدّخان:١٢] : (٣). برقم: (٤٨٢٢). ص: ١٠٤٧.
صحيح مسلم: بلفظ مقارب في: كتاب صفات المنـــافقين وأحكامـــهم: (٥٠). بـــاب الدّخـــان: (٧). برقـــم: (٢٧٩٨). ٤/ ٢١٥٦-٢١٥٧.

قال ابن عون (رحمه الله) (١) :

" كنت عند القاسم بن محمّد إذ جاءه رجل فسأله عن شيء ، فقال القاسم : لا أحسنه . فجعل الرّجل يقول : إنّي رفعت إليك ، لا أعرف غيرك ، فقال القاسم : لا تنظر إلى طول لحيتي وكثرة النّاس حولي ، واللّه ما أحسنه .

فقال شيخ من قريش جالس إلى جنبه : يا ابن أخي الزمها ، فواللّه ما رأيتك في مجلس أنبل منك اليوم .

فقال القاسم : واللّه لأن يُقطع لساني أحبّ إليّ من أن أتكلّم بما لا علم لي به " (٢) .

والقاسم (رحمه الله) هو القائل :

" لأن يعيش الرّجل جاهلاً خير له من أن يفتي بما لا يعلم " (٣) .

---

(١) هو عبد اللّه بن عون بن أرطبان ، أبو عون المزني مولاهم البصري . إمام في العلم ، رأس في التّألّه والعبادة ، جليل القدر ، كبير الشّأن ، ثبت متقن فاضل ، حافظ فقيه ورع ، مبغض لأهل البدع . كثير الحديث . رأى أنس بن مالك ﷺ ولم يسمع منه. توفي سنة: ١٥٠هـ على الصّحيح.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٢٦١/٧. طبقات خليفة: ص:٢١٩. التّاريخ الكبير: ١٦٣/٥. معرفة الثّقات: ٤٩/٢. الجرح والتّعديل: ١٣٠/٥. ثقات ابن حبّان: ٣/٧. مشاهير علماء الأمصار: ١٥٠/١. التّعديل والتّجريح: ٨٤٣/٢ . تهذيب الكمال: ٣٩٤/١٥.تذكرة الحفّاظ: ١٥٦/١. الكاشف: ٥٨٢/١. جامع التّحصيل: ص: ٢١٥. تهذيب التّهذيب: ٣٠٣/٥. تقريب التّهذيب: ٣١٧/١.

(٢) جامع بيان العلم : ص : ٣٥٥ .

(٣) كتاب العلم لأبي خيثمة : ص : ١٣٠ .

وما وقع للقاسم (رحمه الله) وقع نحوه لإمام دار الهجرة مالك بن أنس (رحمه الله) .

قال عبد الرّحمن بن مهدي[1] (رحمه الله) :

" كنّا عند مالك بن أنس ، فجاءه رجل ، فقال له : يا أبا عبد اللّه جئتك من مسيرة ستة أشهر ، حمّلني أهل بلدي مسألة أسألك عنها . قال : فسل . فسأله الرّجل عن المسألة . فقال : لا أحسنها . قال فبهت الرّجل كأنّه قد جاء إلى من يعلم كلّ شيء. فقال : أي شيء أقول لأهل بلدي إذا رجعت إليهم ؟ قال : تقول لهم : قال مالك : لا أحسن "[2] . وهذا عنهم رحمهم اللّه كثير جداً .

وما توقّف هؤلاء الأجلة إلاّ لعلمهم بما يترتّب على القول على اللّه بغير علم من المفاسد والمهالك .

وهو إضافة إلى ما ذكر يلقي بالدّاعية في المتناقضات ، وقد يدخل في دين اللّه ما ليس منه ، أو يغيّر ويبدّل ما كان منه ، وفي ذلك تجرّؤ على اللّه واستطالة على أحكامه .

وقد يطّلع المدعو على خطأ الدّاعية وعدم صحّة قوله فيكون مانعاً للأخذ عنه فيما بعد . فيعرّض الدّاعية دعوته للاهتزاز والتّأرجح وعدم الثّبات .

واللّه لم يكلّفه أن يبلغ من دين اللّه ما جهله ولم يعلمه ، فذلك لا طاقة له به ، وإنّما كلّف أن يبلغ ما علم .

---

(١) عبد الرّحمن بن مهدي بن حسان اللّؤلؤي أبو سعيد مولى الأزد البصري . الحافظ الكبير والإمام العلم الشّهير ، ثقة ثبت كثير الحديث ، فقيه عظيم الشّأن . قال عنه عليّ بن المديني: " لو حلفت بين الرّكن والمقام لحلفت أنّي لم أر مثل عبد الرّحمن " . توفي سنة : ١٩٨هـ .

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٢٩٧/٧. طبقات خليفة: ص: ٢٢٧. التّاريخ الكبير: ٣٥٤/٥. معرفة الثّقات: ٨٨/٢. الجرح والتّعديل: ٢٨٨/٥. ثقات ابن حبّان: ٣٧٣/٨. تاريخ بغداد: ٢٤٠/١٠. التّعديل والتّجريح: ٨٦٥/٢. تهذيب الكمال: ٤٣٠/١٧. تذكرة الحفّاظ: ٣٢٩/١.الكاشف: ٦٤٥/١. تهذيب التّهذيب: ٢٥٠/٦ تقريب التّهذيب: ٣٥١/١.

(٢) جامع بيان العلم : ص : ٣٥٦ .

وإذا سئل عمّا لا يعلم وكّل العلم إلى اللّه ، ولم يعبأ بما يصفه النّاس به من جهل أو قلّة علم .

بذلك تسلم له بركة علمه ويتلافى محقها ، فيحي بذلك دعوة اللّه تعالى ، ويضمن استمراريتها وبقاءها بعيدة عن الزّلل والانحراف ، ثابتة من السّقوط والانجراف ، سالمة من الضّياع والإتلاف .